موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القرآن الكريم

تفسير
سورة آل عمران

info@nabulsi.com www.nabulsi.com

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس (01 - 60): تفسيرالآيتان 1 - 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-10-27

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل سورة آل عمران :

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الأول من سورة آل عمران ، وقد وَرد عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحدهم قال : **<< كان رجل يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد قرأ البقرة وآل عمران عدّ فينا ذا شأن >> .**

[ابن حبان من قول أنس (744) ، ومسند الطيالسي (2020)]

والبقرة وآل عمران الزهراوان ، فعَنْ أبي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((اقْرَءُوا الْقُرْآنَ ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ : الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا ، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ))

قَالَ مُعَاوِيَةُ : بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ .

[مسلم ، وأحمد]

معاني الحروف المقطّعة :

في هذه السورة مقدمة دقيقة جداً ، الآية الأولى :

(ألم)

1-المعنى الأول : الحروف المقطّعة من إعجاز القرآن :

سبق أن شرحت هذه الحروف مراتٍ عديدة ، ولكن للتذكير ، من هذه الحروف نُظِمَ القرآن الكريم ، والقرآن الكريم تحدَّى الله الأمة العربية به ..

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

من حروفٍ معروفةٍ عند كل مَن ينطق العربية ، ولكن هذا النَظم نظمٌ مُعْجز ؛ هناك إعجازٌ في نظمه ، هناك إعجازٌ في بلاغته ، هناك إعجازٌ في حقائقه العلميّة ، فقد ذكرت اليوم في خطبة الجمعة أن الله عزَّ وجل حينما قال :

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ(1)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ(2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ(3))

(سورة الطارق)

علماء التفسير فيما سبق فهموا هذه الآية أن هذا النجم ضوءُه شديد يثقب الفضاء الذي بعده ، نجمٌ ثاقب، أي ضوءٌ كَشَّاف ، ضوءٌ مديد ، وأحجموا جميعاً عن معنى ..

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ(1))

ما معنى كلمة (والطارق) ؟ وذكرت ـ من باب الإعجاز ـ أن القرآن الكريم ذكر حقائق ، والنبي عليه الصلاة والسلام أحجم عن تفسيرها لحكمةٍ بالغةٍ بالغة ، لو أنه فسَّرها تفسيراً بحسب البيئة التي عاشها لأنكرنا عليه ، ولو فسَّرها تفسيراً بحسب رؤيته ؛ لأن الله أراه ملكوت السماوات والأرض لأنكر عليه أصحابه ، ولكن الحكمة التي اتبعها أنه تركها بلا تفسير ، فكلما تقدَّم العلم كشف جانباً من عظمة هذه الآيات .

إذاً : كتابنا الكريم معجزةٌ مستمرَّة ، بينما معجزات الأنبياء السابقين كعود الثقاب تتألَّق مرةً واحدة ثم تنطفئ ، وتبقى خبراً يصدقها مَن يصدقها ، ويكذّبها مَن يكذبها ، بينما القرآن الكريم معجزةٌ مستمرَّة ، فكلَّما تقدَّم العلم كشف جانباً من إعجاز القرآن الكريم .

النجوم حينما تهرم ، وتنكمش ، وتصبح حركتها إلى الداخل ، وتتحد الإلكترونات مع النيترونات والبروتونات التي في نواة الذرة ، وتشكل وحدةً مندمجة تلغي الفراغات البينيَّة ، فيمكن أن تصبح الأرض بحجم البيضة بالوزن نفسه ، فلو وضعت كرةً من الحديد فوق سائلٍ هُلامي لثقبت ، فقال علماء الفلك : لو أن هذا النجم الثاقب ، أي النجم المُنكمش الذي أصبح حجمه قليلاً ووزنه كبيراً وضع على الأرض لخرج من طرفها الآخر من شدة كثافته ، إن هذا النجم فيه أعلى كثافة على الإطلاق ، يثقب كل شيء .

وأما (والطارق) فهناك محطات تلسكوبات لاسلكية تكتشف الموجات التي تصدرها هذه النجوم ، إنها وَمضَات تواتُرها يتوافق مع عمرها ، فهذه الحقائق كشفت حديثاً ، تأتي مطابقةً تماماً لما في القرآن الكريم ، هذا القرآن بنظمه المعجز ..

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ(1))

هذا النجم يرسل هذه الومضات بشكلٍ نوبي ومتواتر ، وكلَّما ارتفع التواتر كان العمر قليلاً ، وكلما ضعف التواتر كان العمر طويلاً ، ثم إن هذا النجم له كثافة تحيِّر العقول ، يمكن إذا دخلت الأرض في ثقبٍ أسود أن يغدو حجمها كحجم البيضة بالوزن نفسه ، تصور خمس قارات لا تساوي خمس الأرض، خمس سطحها ، والأربعة أخماس بحار ، وأعلى ارتفاع على سطح البحر ، وأخفض نقطة

في البحر لا تساوي إلا سنتيمترًا نحو الأعلى ، وسنتيمترًا نحو الأسفل في كرةٍ قطرها متر ، إذاً فما وزن الأرض في باطنها ؟ كل هذا الوزن يضغط في كرةٍ لا تزيد على حجم البيضة ، فهذا النجم الثاقب إذا وضع فوق أيَّة كتلةٍ ثقبها ، وانتقل إلى الطرف الآخر ، أي أعلى وزن نوعي في الكون ، وفضلاً عن ذلك فهو يصدر ومضاتٍ متواترة .

لعل هذه الحقائق الفلكية تبيِّن عظمة هذا القرآن الكريم ، الإعجاز العلمي لا ينتهي ، لو طرقنا هذا الباب لا ينتهي هذا الباب ولا في ساعاتٍ طويلة ، وأية كلمةٍ في القرآن تعني إعجازاً علمياً ، هناك إعجاز بلاغي ، هناك إعجاز في النظم ، هناك إعجاز تاريخي ، إخباري ، فربنا عزَّ وجل من حروفٍ نعرفها، من حروفٍ نألفها ، من حروفٍ ننطق بها ، من مثل هذه الحروف ، هذا مما فسَّره بعض المفسِّرين .

2-المعنى الثاني : هذه الحروف أوائل لأسماء الله الحسنى :

هناك معنىً آخر هو : أن هذه الحروف أوائل لأسماء الله الحسنى .

3-المعنى الثالث : هذه الحروف أوائل لأسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وهناك مَن فسرها أنها أوائل لأسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

4-المعنى الرابع : هذه الحروف الله أعلم بمرادها :

وهناك مَن قال : الله أعلم بمرادها ، والقرآن حمَّال أوجه ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

نعم للتوحيد ، لا لإيمان إبليس !!!

النقطة الدقيقة أيها الإخوة أن إيمان الإنسان بأن الله خالق الأكوان هذا الإيمان لا يقدِّم ولا يؤخِّر ، ألم يقل إبليس :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص : من الآية 82)

ألم يؤمن به رباً ؟ ألم يؤمن به عزيزاً ؟ ألم يقل : خلقتني ؟ ألم يؤمن به خالقاً ؟ ألم يقل :

(أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(14))

(سورة الأعراف)

ألم يؤمن بالآخرة ؟ ولكن ما هو الإيمان المُنجي ؟ هو الإيمان التوحيدي ، هو التوحيد ، و" ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد " ، التوحيد ألا ترى مع الله أحدا ، قد تقول : إن الله خلق الأكوان ، ثم ترى معه آلاف الشركاء ، ومعظم الناس اليوم يرون هذه القوى العظمى ، قوى صانعة القرار ، تفعل ما تريد، تقهر الشعوب ، تدمر المدن ، تستلب الأراضي ، تُعَسْكِر على منابع النفط ، قوى كبيرة جداً ، ولكن الإيمان التوحيدي ألا ترى مع الله أحداً ..

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : من آية 17)

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 17)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : من الآية 84)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : من الآية 2)

متى يستقيم الإنسان ؟ إذا آمن بأنه لا إله إلا الله ؛ ولا معطي ، ولا مانع ، ولا معزَّ ، ولا مذلَّ ، ولا رافع ، ولا خافض إلا الله ، متى تستقيم على أمره ؟ إن رأيته وحده فعَّالاً ، إن رأيته وحده ناصراً ، إن رأيته وحده مُنَجِّياً فقط ، لكن قد تؤمن أن الله خلق الأكوان ، وأنت تتوهم أن معه آلاف الشركاء ، هذا هو الشرك ..

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106))

(سورة يوسف)

((أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله ، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن شهوةٌ خفية وأعمالٌ لغير الله))

(من شرح الجامع الصغير)

فالذي ينجينا ليس أن نؤمن أن الله خلق الأكوان ، هذا إيمانٌ آمن به إبليس ، ولكن الذي ينجينا ويحملنا على طاعته ، ويجعلنا نتوجه إليه وحده ، ونرجوه وحده ، ونخافه وحده ، ونعقد عليه الآمال وحده ، ونستقيم على أمره وحده ، الذي يعيننا على ألا نخاف في الله لومة لائم ، الذي يعيننا على ألا ننافق ، أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله ، المؤمن ليس مقهوراً ، وأيّ إنسانٍ متلبسٍ بالشرك الخفي مقهورٌ ، ويكفيك أن ترى عدواً لك متمكناً منك ، وسوف يدمرك ، هذه تكفي ، هذه وحده

تسبب أعظمَ الأمراض ، والمؤمن ليس مقهوراً ، لأنه يرى أن الأمر كله بيد الله ، وأن الله لا يعقل أن يأمرك أن تعبده وقد أوكل أمرك إلى غيره ..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من الآية 123)

لذلك قالوا : نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل التقوى ، بل إن دعوة الأنبياء جميعاً من دون استثناء حول التوحيد ..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

لا إله إلا أنا ، ما من معصيةٍ تقترف إلا بسبب ضعف التوحيد ، وما من تقصيرٍ يكون إلا بسبب ضعف التوحيد ، وما من دخلٍ مشبوه يأخذه الإنسان إلا بسبب ضعف التوحيد ، وما من نفاقٍ يكون من الإنسان إلا بسب ضعف التوحيد ، وضعف التوحيد وراء كل مشكلاتنا ، بل إن كل مشكلاتنا ما هي إلا أعراضٌ لمرضٍ واحد إنما هو ضعف التوحيد ، لذلك :

(اللهُ)

اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُو

1 - (اللهُ) علَمٌ على الذات العلية :

علمٌ على الذات ، أسماء الله كلها حُسنى ، وصفاته كلها فضلى جُمِعَت في كلمة (الله) فإذا قلت : الله فهو علمٌ على الذات ، إذا قلت : الله ، فهو واجب الوجود ، وما سواه ممكن الوجود ، إذا قلت : الله ، أي هو الإله الذي لا إله إلا هو ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

2 - اللهُ هو المتصرف :

الآن دقق ؛ المتصرِّف هو الله ، والله عزَّ وجل كامل ، القابض ، الباسط ، المعطي ، المانع ، المعز ، المذل ، المانح ، كل أفعاله صادرةٌ عن كماله ، لو أن الإنسان عَقَلَ معنى ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

الشرك أساس الأمراض النفسية :

دقق عندما تكون في عمل ، ولك مدير عام ، مدير مؤسسة ، مدير مستشفى ، مدير ثانوية .. إلخ ، وينتقل ، تسأل سؤالين دقيقين : من الذي سيأتي بعده ؟ يقال لك : فلان ، تقول : كيف هو ؟ يهمُّك مَن هو أولاً ؟ وكيف هو ثانياً ؟ نحن ماذا نقول في أوراد الفجر ؟ " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له المُلك ، وله الحمد ، يحيي ، ويميت ، وهو على كل شيءٍ قدير " ، لو أن المسلم عقل هذه الكلمات عقلاً، واستوعبها استيعاباً ، وأدركها إدراكاً ، لكان في سعادةٍ ما بعدها سعادة ، أساساً تِسعون في المئة من الأمراض الوبيلة التي يعاني منها الإنسان ـ ولاسيما في هذا العصر ـ مردُّها إلى الشدة النفسية ، والشدة النفسية وراءها الشرك ، والدليل أن الله عزَّ وجل يقول :

(فلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213)وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

أحد أكبر مصادر العذاب النفسي ، والشقاء النفسي الضَجَر ، القلق ، الخوف المدمِّر ، اليأس القاتل ، الانهيار ، الخنوع ، أحد أكبر أسباب العذاب النفسي هو الشرك ، وقد ورد عن الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه : **<< الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على جور ، أو أن تبغض على عدل >> .**

أي شخص تنتفع منه ، له انحرافٌ طفيف ، تغض البصر عن انحرافه لأنك منتفعٌ منه ، هذا نوعٌ من أنواع الشرك ، وإنسان وجَّه لك النصيحة ، وهو محق ، وأنت مخطئ ، لكن أخذتك العزة بالإثم فحطَّمته ، هذا نوعٌ من أنواع الشرك الخفي ، وكما قال عليه الصلاة والسلام :

((أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله ، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ، ولكن شهوةٌ خفية وأعمالٌ لغير الله))

(من شرح الجامع الصغير)

أن يعبد المسلمون صنماً هذا أمرٌ انتهى ، هذه مرحلةٌ ولّت ، الشيء المُعْلَن في العالم الإسلامي أنه لا إله إلا الله ، أما الشيء الواقع أن هناك شركا خفيًّا ، وأحد أنواع هذا الشرك أن تتخذ هواك إلهاً تعبده من دون الله ، فكل شيءٍ يَدْعَم هواك ترضى به ولو كان باطلاً ، وكل شيءٍ يحول بينك وبين هواك ترفضه ولو كان حقاً ، فهذا شرك ، وهناك من يعبد هواه ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار ، وَعَبْدُ الدِّرْهَم ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْط سَخِطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ))

[البخاري ، الترمذي]

هناك مَن يبيع دينه بدريهمات ، هناك مَن يعبد المال ، هناك مَن يعبد بطنه .. تعس عبد البطن .

هناك مَن يعبد فرجه ... زير النساء .. تعس عبد الفرج .

هناك مَن يعبد مظهره ، لا يصلي العصر ، لأنه يرتدي بذلة جديدة لا يحب أن تتأثر بالصلاة ـ مثلاً ... تعس عبد الخميصة .

مَن الذي سَعِد ؟ هو عبد الله ، وأنت حينما تعبد الله تكون في أعلى درجة وصلها إنسان ..

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(8)فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(9)فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(10)مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(11))

(سورة النجم)

كلَّما خضعت لله رفعك الله ، كلما خضعت له أعزَّك الله ، كلما التزمت بأمره وفَّقك الله ، كلما أحببت أولياءه أحبَّك الله .

إخواننا الكرام ... قضية أن تؤمن أن الله خالق الأكوان قضيةٌ مفروغٌ منها ، لئن سألت عُبَّاد الأصنام : مَن خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن الله ، ولكنهم يقولون :

(مَا نَعْبُدُهُمْ)

الأصنام .

(إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر : من الآية 3)

الإنسان ضعيف لابد له من جهة قوية يلجأ إليها :

إذاً : أن تؤمن أن الله خلق الأكوان هذا شيء لا يقدِّم ولا يؤخِّر ، بل إن إبليس آمن هذا الإيمان ، العبرة أن تؤمن أنه لا إله إلا الله ، ليس في الكون جهةٌ تستحق أن تعبدها إلا الله ، فإما أن تكون عبداً لله ، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم ، لابدَّ من أن تكون عبداً لجهة ، لماذا ؟ لأن الله جبلك على أن تكون ضعيفا ..

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (28))

(سورة النساء)

هؤلاء الذين يعبدون النار في شرق آسيا ، لماذا يعبدون النار ؟ لأنهم يرونها آلة تحميهم من المصائب، الذين عبدوا البقر ، والذين عبدوا الشجر ، والذين عبدوا الحجر ، والذين عبدوا النار ، والذين عبدوا الأقوياء ؛ دون أن يشعر الإنسان يعبد القوي ، يستسلم لأمره ، ولو كان في معصية ، يرجو ما عنده ولو كان على حساب دينه ، هذا أيضاً ضعيف ، لأنك ضعيف ..

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا(28))

هذا الضعف أيها الإخوة ، مركبٌ في جبِّلتك لا دخل لك به ، ليس نقيصةً فيك ، هكذا شاء الله أن تكون ضعيفاً ، لأن الله لو خلقك قوياً ـ دقق ـ لاستغنيت بقوتك عن الله عزَّ وجل فشقيت باستغنائك ،

خلقك ضعيفاً لتفتقر في ضعفك ، فتسعد بافتقارك ، خلقك ضعيفاً لتفتقر في ضعفك فتسعد بافتقارك ، لو أن الله خلقك قوياً لاستغنيت بقوتك ، فشقيت باستغنائك ، هذا الضعف يحتاج إلى جهة قوية تلجأ إليها ، والمسلم يلجأ إلى خالق الأكوان ، فالتجاؤه صحيح ، وغير المسلم يلجأ لبقرة ، يلجأ لحجرة ، يلجأ لشمس ، يلجأ لقمر ، يلجأ لمظاهر الطبيعة ، فحتى الذين عبدوا الأصنام ، وعبدوا مظاهر الطبيعة ، هم يعبرون بهذه العبادة عن ضعفهم ..

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا(28))

لابدَّ له من جهةٍ قويةٍ يركن إليها ، ويحتمي بها ، ويلجأ إليها ، ويعتقد أنها تحميه ، فالمسلم الذي عبد الله وحده ، التجاءه صحيح ، تمكنه صحيح ، أما غير المسلم الذي يعتقد بغير الله فهو كالذي يرى سراباً يظنه ماءً ..

(كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)

(سورة النور : من الآية 39)

أيها الإخوة ... وفي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

(متفق عليه)

وفرقٌ كبير بين الإحصاء والعد ، قال تعالى :

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا(94))

(سورة مريم)

أنا قد أقول : في صفي خمسون طالباً ، هذا عَد ، أما الإحصاء فأن تعلم حقيقة كل طالب ؛ مستواه العلمي ، والثقافي ، والأخلاقي ، والديني ، وضعه العائلي ، كل ما يتعلّق في شؤون الطالب ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((... مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم

من أجل إن قرأت هذه الآية :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

واللهِ هذه الآية وحدها لو عقلناها لملأت قلوبنا أمناً وطمأنينة ، ملأت قلوبنا إشراقاً ، لجعلتنا نتحرَّك حركةً عجيبة ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

1 ـ الله هو المتصرف الرحيم الكامل الحكيم :

الفاعل ، المتصرف ، المعطي ، المانع ، الشافي ، المُمْرض ، الموفق ، الذي لا يوفق ، المُحسن ، المنعم ، المعز ، المذل هو الله وحده .

(الله) ما أسماؤه ؟ أن تتعرف إلى أسمائه الحسنى جزءٌ من عقيدتك ، جزءٌ من إيمانك ، أن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى وقال تعالى :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(43))

(سورة النحل)

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59))

(سورة الفرقان)

لابدَّ أن تتعرف إلى الله ، حتى إذا قرأت هذه الآية :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

مثلاً : لو قلنا لك : هذه الأم ؛ الكاملة ، الرحيمة ، العطوفة بيدها أمر البيت ، ما معناها فيها استبداد ، ليس المعنى أن هناك خرقًا أو حُمقًا ، ما دامت كاملة ، ورحيمة ، ومتعلمة ، وتتحلى بصفات عالية جداً، لو قلت بعدها : إن أمر البيت بكل تفاصيله بيدها ، هذا لا يزعجك ، لأنها كاملة ، فأنت حينما تعلم من هو الله ؟ مَن هو صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ؟ ما معنى الله رحيم ؟

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْيٍ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا ، وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا : لَا وَاللَّهِ ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا))

[البخاري ومسلم]

2 ـ النبيُ عليه الصلاة والسلام أرحمُ الخَلق بالخَلق :

لعل أرحم مخلوقٍ على الإطلاق بالخَلق هو رسول الله ، والدليل أن في الطائف حينما بالغ أهل الطائف في الإساءة إليه ، وبالغوا في تكذيبه ، والسخرية منه ، وبالغوا في الإساءة المادية إليه ، مكّنه الله منهم ، أرسل له مَلَك الجبال قال : يا محمد ، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين ، أنا لا أشك أن واحداً من المؤمنين لو أن عدواً له كاد له كيداً شديداً ، وتمكن منه ، لقضى عليه، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقال :

((لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده))

(من زيادة الجامع الصغير)

لم يتخلَّ عن قومه ، واعتذر عنهم ، ودعا لهم ، وتفاءل أن تأتيهم ذرية طيبة ، إذاً : أرحم الخلق بالخلق هو رسول الله ، ومع ذلك قال تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

يعني بسبب رحمة استقرت في قلبك ، رحمة تنكير ، تصغير ، ماذا قال أيضاً ؟

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف : من الآية 58)

الرحمة كلها عند الله عزَّ وجل ، فمن أجل أن تعلم مَن هو الله ؟ أتلقي هذه بولدها إلى النار ؟ قالوا : لا. قال :

((لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا))

تروي الكتب أن سيدنا موسى مرَّ بامرأةٍ تخبز خبزاً ، ووضعت على التنور ابنها الصغير ، فكلما وضعت رغيفاً في التنور ضَمَّت ابنها ، وشمَّته ، وقبَّلته ، تعجَّب هذا النبي الكريم من هذه الرحمة ، وقال : يا رب ما هذه الرحمة ؟! قال : يا موسى هذه رحمتي أودعتها في قلب هذه الأم ، وسأنزعها ، فلما نزع الله الرحمة من قلبها بكى فألقته في التنور ، هذه قصة رمزيَّة معبِّرة .

إذا وجدت أبًا يقبِّل ابنه ، إن وجدت أماً تجوع ليشبع ابنها ، تعرى لتكسو ابنها ، تُقتِّر على نفسها ليتعلم ابنها ، هذه رحمة الله في قلب الأم ، لذلك إذا أحبك الله ألقى محبته في قلوب العباد إليك ، ومن أجمل ما قرأت : **" أنك إذا أطعت الله فيما بينك وبينه ألقى حبك في قلوب الخلق ، وإذا عصيته فيما بينك وبينه ـ دون أن تشعر وبلا سبب ـ ألقى بغضك في قلوب الخلق "** ، و لذلك قالوا : **" ما أخلص عبدٌ لله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة ".**

3 ـ هل عرفتَ اللهَ ؟

فأنا وقفتي (الله) هل عرفته ؟ هل جلست الساعات الطويلة من أجل أن تعرفه ؟ هل طلبت العلم الشرعي ؟ هل فكَّرت في خلقه ؟ هل فكرت في آياته التكوينية ؟ هل فكرت في آياته القرآنية ؟ هل فكرت في آياته الكونية من أجل أن تعرفه ، الله ، أنت إذا عرفت مَن هو الله ، ثم قلت : لا إله إلا هو ، لا ترى الأقوياء ، انتهوا الأقوياء عندك ، الأقوياء تراهم ضعفاء ، الأقوياء تراهم عِصِيًّا بيد الله يؤدِّب بهم عباده .

سُئل تيمورلنك : مَن أنت ؟ قال : " أنا غضب الرب " ، أي إذا غضب الله يُسلِّط على الناس شخصاً قوياً يخيفهم ، إذاً لا ترى مع الله أحداً ، العبرة ألا تقهر من الداخل ، المؤمن ليس مقهوراً لأنه يرى أنه لا إله إلا الله ، الله صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ، الكامل ، والذات

الكاملة ، وعلَم على الذات واجب الوجود ، والرحمن الرحيم ، والحنَّان المنان ، وغفار الذنوب ، وساتر العيوب ، وفوق ذلك الأمر بيده .

4 ـ أمر الكون بيد الله وحده :

حينما توقن أن أمر الكون بيده ..

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام : من الآية 59)

دقق ، هل هناك حدث في مستوى الأرض أقل من سقوط ورقة ؟! أنت تجلس في بستان ، في أيام الخريف سقطت ورقة ، هل هناك حدث أقلّ من هذا الحدث ؟

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا)

فالأمر بيد الله ..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46)فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ(47))

(سورة إبراهيم)

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

أيها الإخوة ... هذه المعاني تريح الإنسان ، الأمر بيد الله ..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من الآية 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده ، هذا هو الإيمان .

لذلك ، عودٌ على بدء ، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، التوحيد نهاية العِلم ، التوحيد ألا ترى مع الله أحدا أبداً ، لا إله إلا الله ، هذه الصحة النفسية ، و الله الذي لا إله إلا هو لو أنك وحَّدت الله حق التوحيد لاستراح جسمك من الأمراض ، الأمراض كل أسبابها الشدة النفسية (الضغط) ، وهو شيء فوق طاقة الإنسان ، خوف ، على قلق ، على همٍّ ، على حزن ، على قلة أمطار ، على غلاء أسعار ، أما إذا رأيت أن الله يؤدِّبنا وأنت معه اختلف الوضع ، الذي أتمناه عليكم وعلى نفسي أن نُعَمِّق توحيدنا، ألا نتوهم بأن الإيمان بالذي خلق الأكوان هو الإيمان المنجي ، هذا إيمان لا ينجي ، الإيمان أن الله بيده كل شيء ..

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : من الآية 84)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : من الآية 2)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد : من الآية 11)

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أحمد]

الأمر بيد الله عزَّ وجل ، والله هذا الشعور ، وهذا اليقين يملأ القلب طمأنينة ، ولعل هذا من معنى قوله تعالى :

(أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(28))

(سورة الرعد)

احذروا مرض العصر (القلق) :

فهناك قلق من المستقبل ، يكاد يكون المرض الأول في العالم القلق ، وديلكارنجي ألَّف كتاباً عنوانه (دع القلق ، وابدأ الحياة) ، بيعت منه خمسة ملايين نسخة ، لأن الذين يقرؤونه قلقون جداً ، بل إن مرض الكآبة هو مرض العصر ، وقد سمعت عن الإحصاء أن مئة وخمسة وخمسون بالمئة من الشعب الغربي يعالجون عند أطباء نفسيين ، مئة وخمسة وخمسون بالمئة ؟! أي مئة بالمئة وخمسة وخمسون مرتين يعالجون في السنة عند أطباء نفسيين بسبب القلق ، أما المؤمن فخلاف ذلك .

أحد الأساتذة في الجامعة حدثنا أنه ذهب إلى مؤتمر الأمراض النفسية في ألمانيا فقال : بكل بساطة أخبركم أن في بلادنا هذه الأمراض لا تشكّل وباءً ، ولا خطورةً لأننا مؤمنون بالله .

لو دخلت إلى بيت إنسانٍ ما فيه شيء ، لا رصيد عنده ، ولا عنده عملات صعبة ، ولا عنده شيء ، ويقول لك : الحمد لله ، الله عمّنا بفضله ، ما هذا الشعور ؟ قد تجد شخصا معه ملايين مملَيَنة ترتعد فرائصه بنزول سعر الدولار مثلاً ، وكم من جلطةٍ أصابت إنسانا معه ملايين مملينة فقط لفرق السعر ، وتُجَّار السكر غير المؤمنين بالله كلما انخفضت أسعار السكر ارتفع عندهم السكر ، وتجد الشخص يذهب ضحية شيءٍ أرضي ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوا الْعِلْمَ ، وَوَضَعُوهُ عِنْدَ أَهْلِهِ لَسَادُوا بِهِ أَهْلَ زَمَانِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ بَذَلُوهُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِيَنَالُوا بِهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ فَهَانُوا عَلَيْهِمْ ، سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه]

يذهب رخيصا ، أي لسبب تافه قد انتهت حياته .

فيا أيها الإخوة ... أتمنى على كل واحد منكم أن يعكف على معرفة أسماء الله الحسنى ، حتى إذا قرأ هذه الآية :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

الشرك طريق مسدود:

مصدر حياة الكون وقيامه ، ترتاح نفسك ، هذا القرآن شفاء ، لا أبالغ أن معظم الأمراض النفسية ، ومعظم الإحباط ، والتشاؤم ، واليأس ، والقهر ، والذل ، والخنوع ، والانحراف بسبب الشرك ، والشرك ذنبٌ لا يغفر ، أي أنه يمشي في طريق مغلق مسدود .

مرة ذكرت مثلاً : أنك يمكن أن تركب قطارا باتجاه حلب ، ولك دفعة بمليون ، والوقت مناسب ، ترتكب أخطاء كثيرة ، تركب في مكان مع شباب صغار مزعجين ، تركب بعكس اتجاه القطار ، تركب في الدرجة الثانية ، وأنت تذكرتك في الدرجة الأولى ـ ممكن ـ تتلوى من الجوع ، وفي القطار مطعم لم تدرِ به ، هذه كلها أغلاط ، لكن الطريق يمشي باتجاه حلب ، وسوف تأخذ هذا المبلغ الكبير ، أما هناك غلط لا يغتفر ؛ هو أن تركب قطار عمَّان ، وقد يكون القطار فخما جداً ، ولكن هذا خطأ لا يغفر ، لا شيء هناك ، لن تقبض شيئاً ، المشكلة أن الله ..

(لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة النساء : من آية 48)

المشرك يمشي بطريق مسدود ، يتجه لإنسان أضعف منه ..

ـ قال له : يا أمير المؤمنين ، بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنع عنك ؟

ـ قال : بنصف ملكي .

ـ قال له : فإذا منع إخراجه ؟

ـ قال : بنصف ملكي الآخر .

فكل هذا المُلك لا يعدل كأس ماء ، فأنت إذا اتجهت للفقير رأيت من ألوان الفقر ما لا يوصف ، أما إذا اتجهت إلى الغني ..

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد عَنْ أبي ذرٍّ]

وفي رواية الترمذي :

((وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ ، اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ ، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ ، أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ ، عَطَائِي كَلَامٌ ، وَعَذَابِي كَلَامٌ ، إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))

مشكلتك مع الله .

من أوجز الأحاديث الشريفة :

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه))

[البيهقي في شعب الإيمان من قول علي]

لا تخف من قوي ، القوي بيد الله ، أنت أمام وحوش مخيفة ، ولكن كلها مربوطة بأزمَّة من جهة قوية تملكها ، وهي مسيطرة عليها ، أنت ممَّن يجب أن تخاف من الوحوش أم ممَّن يملكها ؟ من يملكها ، لو أرخى الحبل لوصلت إليك ، لو شدَّ الحبل لأبعدها عنك ، فالآية الكريمة :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

فكل هؤلاء الأقوياء هم بيد الله ، أمرهم بيد الله إذا سمح لهم يصلوا إليك ..

(وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا)

(سورة الأنعام : من الآية 80)

فلا تخف إلا من ذنبك ، لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه ، كلامٌ جامعٌ مانع .

فيا أيها الإخوة ...

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(22))

(سورة الحديد)

حينما تؤمن أن الأمر بيد الله ، وهو يعلم كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، استقم على أمره وانظر ، في أي مكان ، ففي أي مكان في العالم ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من آية 97)

وفي أي مكان في العالم ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

فيا أيها الإخوة ... هذه الآية :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

خاتمة :

الأمر بيد هذه الذات الكاملة ، تعرف إليها من أجل أن تطمئن ، الحالة النفسية مهمة جداً ، شعورك أنك مقهور ومظلوم مشكلة ، أما شعورك أنك بيد الرحمن الرحيم ، العليم الحكيم ، أقوى الأقوياء ، أغنى الأغنياء ، ما سلّمك لأحد أبداً ..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من الآية 48)

قال العلماء : هذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن المؤمن له منها نصيب ، بحسب إيمانه وإخلاصه .

فلابدَّ أن تعكفوا على أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، هذه الأسماء درَّستها بجامع العثمان في مئة شريط ، تعرفوا على الأسماء الحسنى ، أقسم لي أناسٌ كثيرون أنهم بعد سماعهم هذه الأشرطة تعرفوا إلى الله برؤية جديدة ، ودون أن يشعروا صَحَّ سلوكهم ، واستقام أمرهم ، فيجب أن تعرفوا مَن هو الله ، لأن الأمر كله بيده ، ويجب ألا ترى مع الله أحداً ، وأن ترى مع الله أحدا هذا عين الشرك .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني من سورة آل عمران ، ومع قوله تعالى :

(نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(3)مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيل

1- ما هو الحقّ ؟

أيها الإخوة ، هذا الكتاب ـ القرآن الكريم ـ نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالحق ، والحق هو الشيء المستقر ، ونقيضه الباطل ، والحق الشيء الهادف ، نقيضه العابث ، والقرآن الكريم يفسِّر بعضه بعضاً ، فالحق الشيء الثابت ، المستقر ، المستمر ، والباطل الشيء الزائل ، فالباطل نقيض الحق ، والحق الشيء الهادف ، فقد نؤسس جامعة ، وأهداف الجامعة كبيرة جداً ؛ تخرّج قادة للأمة ، علماء ، وقد نفتتح ملهى ، والملهى مهمته ابتزاز أموال الناس ، وجعلهم في أحطِّ ما يكون ، فالشيء الثابت والذي له هدفٌ نبيل هو الحق ، فإذا قال الله عزَّ وجل :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ)

(سورة التغابن : من الآية 3)

أي أن الحق لابَسَ خلق السماوات والأرض ، وأن هذا الكون أوجده الله عزَّ وجل ليبقى ، لكن :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26))

(سورة الرحمن)

و ..

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : من آية " 88 ")

لكن بعد الحياة الدنيا هناك جنةٍ إلى أبد الآبدين ، وجهنَّم إلى أبد الآبدين ، فإذا قلت : إن الله خلقني بالحق أي أنك خلقت لتبقى ، وما الموت إلا حالةٌ طارئة ..

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران : من آية 185)

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(77))

(سورة الزخرف)

فالحق الشيء الثابت ، والحق الشيء الهادف ، له هدفٌ نبيل .

أما العَبَث فهو حركة بلا هدف ، الذي يلعب بالنرد هذا عبث ، ما فيه فائدة ، بل هو تمضية وقتٍ ، وشدّ أعصاب ، فكل شيء لا هدف له ، ولا جدوى منه ، ولا يحقق شيئاً أساسياً في الحياة يقال له : عبث ، واللعب عبث ، فإذا قلنا : هذا الكتاب نزل بالحق ، أي لابس الحقُّ نزوله ، فكتابٌ ..

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت : من الآية 43)

من عند خالق الأكوان ، أي قطعي الثبوت ، وهدفه هداية الخلق إلى الحق ، هداية الخلق إلى سبل سلامتهم ، وسبل سعادتهم ..

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : من الآية 9)

2 ـ القرآن نزل بالحق :

شيء لا يصدق ، كتابٌ بين يديك فيه منهجٌ كامل ، والنبي شرحه بعشرات ألوف الأحاديث ، فأنت معك كتابٌ هو وحي السماء من عند خالق الأكوان ، ومعك شرحٌ لهذا الكتاب من قِبَل سيِّد وَلد آدم ، فهذا الكتاب نزل بالحق ، صحيح مئة بالمئة ، حقائقه قطعية مئة بالمئة ، أهدافه نبيلة جداً ، وهناك كُتُب أخرى ، وكلها من عند الله ، إذاً لابد أن يصدِّق هذا الكتاب الكتب السابقة ..

(نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)

الآن ، الباطل زائل ولو كان أكبر قوة في العالم ..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

وهناك قوى كبيرة جداً في العالم تهاوت كبيت العنكبوت ، لأنها باطل ، الباطل عقيدةً وقوةً إلى زوال ، لأن الله عزَّ وجل يقول :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

كل شيء باطل زائل ، كل شيء غير صحيح لا يستمر ، والعوام تعبِّر عن هذه الحقيقة بطريقةٍ خاصة، يقول لك : لا يصح إلا الصحيح ، أي لا يستمر إلا ما كان صحيحاً ، وكل شيء وفق الكتاب والسنة مستمر ، فالإسلام حق إذاً فهو مستمر ، شامخٌ كالطود ، أما الضلالات الأخرى فأصبحت في الوحل ، ولو كان أصحابها أقوياء ؛ فقد كانت قريش قوية جداً ، وقد عارضت الحق ،

لأن الله مع الحق ، ولأن النبي على حق ، هو الذي انتصر ، وهم أصبحوا في مزبلة التاريخ ، وهم الذين عارضوا النبي ؛ منهم أبو جهل ، وأبو لهب ، وصفوان بن أمية ... إلخ .

البطولة أن تكون مع الحق لأنه دائم ، وأن تكون مع الحق لأنه هادف ، والحق يسمو بك ، الحق ثابت يطمئنك .

3 ـ لا تعلِّق مصيرَك بجهة زائلة :

أحياناً الإنسان يكون مع شخص ، ربط مصيره مع هذا الشخص ، فإن أزيح من مكانه فَقَدَ كلَّ شيء ، فالشخص زائل إذاً هو باطل ، أما الإسلام فباقٍ ، إذاً هو الحق ، فالبطولة هي ألا تربط نفسك ومستقبلك ومصيرك بشيء زائل ، ومن ميزات المؤمن أنه ربط نفسه ومصيره بالله عزَّ وجل ، والله حيٌّ على الدوام ، باقٍ حيٌّ على الدوام ، فكل إنسان ربط مصيره ، ربط نفسه ، أو حياته ، أو مصيره بجهةٍ أرضيةٍ هو يغامر ، ويقامر ، فلو أن هذه الجهة الأرضية تزعزعت من مكانها ، أو أزيحت من مكانها لَفَقَدَ كل شيء .

المؤمن يشعر بشعور لا يعلمه إلا من فَقَدَه ، ومهما تقدَّمت بك السن ، وكلما تطور العلمُ أكّدَ حقائق الدين ، وأنت ما عندك مشكلة اهتزاز مبادئ ، فإذا وجدت فرقاً بين حقائق العلم وحقائق الدين فهذا من تقصير العلم ، وإذا وجدت خللا بين ما تقرأ في الكتب العلمية وآيات القرآن الكريم فلضعفِ العلم ، أما إذا تقدَّم العلم جاء مطابقاً لما في الكتاب والسنة ، فالمسلم ما في عنده حالة اسمها أن يكتشف فجأةً أنه كان على باطل ، أو أن هذا الذي اعتقد به غير صحيح ، أو أن هذا الذي تعلَّق به زائل ، المؤمن مع الله عزَّ وجل ، وإذا كنت مع الله كان الله معك ، وإذا كان الله معك حفظك ، وأيَّدك ، ونصرك ..

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ

1 ـ التوراة والإنجيل قبل التحريف موافقتان للقرآن :

في هذين الكتابين اختلاف ، لأن التوراة والإنجيل أصابها التحريف ، أما في أصولها فمتوافقة مع كتاب الله ، لكن حينما بُدِّلت وحُوِّرت كان هناك تناقضٌ بينها وبين كتاب الله ..

(وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(3)مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ)

2 ـ لا يترك الله عباده من غير دعوة وإرشاد :

ربنا عزَّ وجل لا يدع عباده من دون دعاوات ، من دون إرشادات ، من دون بيِّنات ، كأن الله عزَّ وجل تكفَّل بهداية الخلق ، قال :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

كأن الله عزَّ وجل وصَّل القول لكل الناس ..

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ)

(سورة القصص : من الآية 51)

مستحيل تكون أبا وابنك الصغير يتحرَّك حركة عشوائية في غرفة فيها مِدفأة دون أن تحذِّره ، دون أن تبيِّن له ، هذا مستحيل !! رحمة الأب ليست بشيء أمام رحمة الله عزَّ وجل ، الأب يرشد ، يوجه ، يحذر ، ينذر ، أحياناً يمسك بيد ابنه ، ويبعده عن المدفأة ، يتحرَّك ، فربنا عزَّ وجل تولَّى هداية الخلق ، وحيثما جاءت كلمة (على) مع لفظ الجلالة ، معنى ذلك أن الله ألزم نفسه إلزاماً ذاتياً بهداية الخلق ، قال :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

وترجمة هذه الهداية : أنه أنزل هذه الكتب على أنبيائه ، أنزل الزبور، والتوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، القرآن وحده تولى حفظه ..

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9))

(سورة الحجر)

لأن هو المعجزة ، نحن كتابنا هو المعجزة فلابد من حفظ هذه المعجزة ، أما سيدنا عيسى فمعجزته إحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص ، سيدنا موسى معجزته العصا ، وشق البحر ، وما إلى ذلك ، فالله عزَّ وجل ما تولى حفظ الكتابين السابقين ، فأصابهما التحوير والتبديل لحكمةٍ أرادها .

(وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(3)مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ)

3 ـ القرآن منهج الخالق الخبير فلابد من اتباعه :

الفرقان إذا قرأته ، واستوعبته ، وفهمته ، وتدبَّرته ، بعد قراءته ، واستيعابه ، وفهمه ، وتدبره ، تفرِّق بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام ، وما ينبغي وما لا ينبغي ، وما يجوز وما لا يجوز ، وما يُسعد وما يشقي ، كيف أن شرب الماء فرضٌ على الجسم كي يبقى حياً ، وكيف أن استنشاق الهواء فرضٌ على الجسم كي يبقى حياً ، وكيف أن تناول الطعام فرضٌ على الجسم كي

يبقى حياً ، كذلك فرضٌ على النفس أن تستوعب هذا الكتاب لأنه منهجها ، ولأنه سبيل سلامتها وسعادتها ، ولأنه دستورها ، ولأن فيه تِبْيان كل شيء .

عندما تجد آلة بالغة التعقيد وغالية جداً ، وتجد معها كتاب تعليمات باللغة العربية ، يصيبك سرور ما بعده سرور ، تقرأه بشغفٍ عجيب ، لو اشتريت آلةً بالغة التعقيد ، غالية الثمن ، عظيمة النفع ، مثلاً : هناك الآن كومبيوترات ، حواسب يمكن أن تحلل الدم ، تأخذ قطرة دمٍ ، وتضغط على المفتاح ، فيأتي سبعة وعشرون تحليلاً ، فإذا أمرت بطبعها يطبعها ، فإذا كان كل تحليل بثلاثة آلاف ليرة ، وعندك مئة زبون واقفين ، والعمل كله بكبسة زر ، فهذا شيء مفيد جداً ، هذا الحاسوب جاء بلا كتاب تعليمات ، كتاب التعليمات أهم منه ، لأنك لو استعملته بلا تعليمات الصانع أعطبته ، وإن خفت على سلامته فلن تستعمله ، وجمدت ثمنه ، ألا ترى معي أن كتاب التعليمات أهم منه ؟ لذلك قال تعالى :

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2)خَلَقَ الإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَان)

(سورة الرحمن)

4 ـ لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج :

علم القرآن ، خلق الإنسان ، أيعقل أن يُعَلَّم القرآن قبل أن يخلق ؟ هكذا الترتيب ، قال علماء التفسير : هذا ترتيبٌ رُتَبِيّ لا ترتيبٌ زمني ، أي لا معنى لوجود الإنسان من دون القرآن ، لا معنى لوجودك من دون منهج تسير عليه ، فهذا الكتاب فيه الحلال وفيه الحرام ، وفيه الخير وفيه الشر ، فيه تعريف بالشر، وتعريف بالخير ، والأمر والنهي ، طريق السلامة ، وطريق السعادة ، آيات كونية ، وآيات إخبارية ، الأقوام السابقون ، والمستقبل البعيد ، والماضي السحيق ، كله في القرآن الكريم ، وجاء النبي وفسَّره تفسيراً رائعاً في أحاديثه الشريفة ، فهذا شفاء ، وهذا فرضٌ على كل إنسان أن يقرأه ، وأن يفهمه ..

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

طبعاً ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

1 ـ الكفر بآيات الله القرآنية والكونية والتكوينية :

الكونية ، أو كفروا بآياته القرآنية ، أي القرآن لم يعبأ به ، اتخذه مهجوراً ، لم يقرأه أبداً ، ولم يسأل عمَّا به ، أنتم لماذا هنا ؟ من أجل أن تتعلموا شيئاً من كتاب الله ، هذا عمل عظيم ، وهذا عمل جليل ، وهذا عمل يرقى بكم ، فما من عملٍ أعظم في حياتنا من أن نفهم منهج ربنا ، أنت اشتريت هذا الحاسوب من أجل أن ترتزق به ، فأعظم عمل أن تقرأ تعليمات الصانع ، كيف تستخدمه من أجل أن تربح ، وأنت حينما تحضر درس علمٍ في تفسير كتاب الله ، تقوم بأخطر عمل ، لأنك تأتي إلى بيت الله كي تتعرَّف إلى أمر الله ، ونهي الله ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، وما ينبغي وما لا ينبغي ، فـ..

(إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

2 ـ الكفر بآيات الله يتبعه عقاب من الله :

إن المخلوق عنده شهوات ، تحرك بدافع من شهواته من دون منهج ، فأكل المال الحرام ، فاستحق عقاب الله ، أو اعتدى على عرض الناس ، فاستحق عقاب الله ، أو أساء إليهم ، فاستحق عقاب الله ، أي لهم عذاب شديد لأنهم تحركوا بلا منهج ، فلو أن سيارة ثمنها خمسة وعشرون مليونًا من أرقى الأنواع، هذه مصممة لتقدِّم لك كل الخدمات ، فيها وسائل راحة مذهلة ، فيها وسائل أمان ، لكن إنساناً قادها وهو مخمور ، وخالف تعليمات الصانع ، فنزل بالوادي ، لأنه قادها مخموراً ، وخالف تعليمات الصانع كانت هذه المركبة وبالاً عليه ، فـ ..

(إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

شيء طبيعي جداً أنهم سوف يتحرَّكون بلا منهج ، بلا أمر ونهي ، لكن ما مشكلة الناس ؟ يلتقي مع مَن يريد ، ويحملق فيمَن يريد ، ويأكل ما يريد ، ويأخذ من المال ما يريد ، لا ضوابط عنده ، أي مالٍ سنح له أن يأخذه أخذه ، أي منفعةٍ ، أي لقاءٍ ، أي جلسةٍ ، أي حفلةٍ ، فما عنده قيود إطلاقاً ، فهذا الذي يتحرَّك بلا قيود ، وبلا حدود ، وبلا قيَم ، وبلا هدف سوف يأكل ما ليس له ، سوف يعتدي قولاً واحداً على أموال الناس ، أو على أعراضهم ، إذاً لابدَّ من أن يعاقبه الله عزَّ وجل ..

(إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

3 ـ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ

معنى العزيز والمنتقم :

قال علماء التفسير : المنتقم هو الذي يردع عبده العاصي ، عبد قوي مسترسل في معاصيه ، يفعل ما يريد ، ما معنى ينتقم الله منه ؟ يوقفه عند حده رحمةً به ، الله عزَّ وجل لا يُغلب ، ولا ينال جانبه ، فهو عزيز .

من أجمل ما قرأت عن العزيز : أنه الواحد الذي لا شريك له ، ويستحيل أن تصل إليه ، ويحتاجه كل شيءٍ في كل شيء ، بأدق عبارة : يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء ، ومستحيلٌ أن تصل إليه وصول إحاطة ، فمن الممكن أن تصل إلى البحر ، وتقف إلى الشاطئ ، هذا وصول ، أما أن تحيط بالبحر فهذا مستحيل ، فتصل إلى بابه ، تسأله ، تدعوه ، تتعرف إليه ، أما أن تحيط به فهذا مستحيل ، الله عزَّ وجل عزيزٌ ذو انتقام .

إذاً :

(نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ)

هذا القرآن ..

(بِالْحَقِّ)

الحق هو الشيء الهادف والثابت ، فلماذا هو ثابت ؟ لأنه حق ، لماذا هو حق ؟ لأنه ثابت ، ما معنى ثابت ؟ كتابٌ ليس فيه إلا الحقائق ، والحقيقة ثابتة ، المعادن تتمدد بالحرارة ـ هذا قانون ـ أينما ذهبت ، إلى الشرق أو إلى الغرب ، أو إلى شمال أو إلى جنوب ، إلى دولة متطورة جداً ، أو إلى دولة متخلفة جداً هذا قانون ثابت ، فإذا استوعبت يسعدك ، هذا هادف إذاً ، فالكتاب بالحق يعني أنه ثابت وهادف ..

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(3)مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ(4)إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

4 ـ الكافر لن يُترَك سدًى :

قبل أن أنتقل لهذه الآية ، فهذا الذي كفر بآيات الله لن يُترك سدى ، لن يتفلَّت من عقاب الله ، لا يظن أنه سبق ..

(وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ(59))

(سورة الأنفال)

ما معنى سبق ؟ أي تفلَّت من عقاب الله ، لا يمكن أن يتفلَّت عاصٍ من عقاب الله ، إن عاجلاً أو آجلاً ، فالكافر حينما يظن أنه سبق ، وأنه فعل شيئاً ما أراده الله ، وأنه تفلت من عقاب الله يكون أحمق ، لا يمكن أن يفعل مخلوقٌ شيئاً إلا إذا سمح الله له ، إذاً : ربنا عزَّ وجل سمح للكافر أن يفعل ما فعل ، وهذا الكافر لن يتفلَّت من عقاب الله ، إذاً : لن يسبق ، توهم أنه سبق فهو لن يسبق ، هنا تهديد مبطَّن ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)

طبعاً لما كفروا ، تحركوا وفق شهواتهم ، والشهوات من دون حدود عدوان ، إنسان أعجبته امرأةٌ فأغواها ، اعتدى على مخلوق ، هو أراد أن يلبي شهواته الرَعْناء ، المنحرفة ، فاعتدى على عرض فتاةٍ فعاقبه الله عزَّ وجل ، وهذا تسلسل رائع ، ما دام قد كفر بآيات الله ، إذاً سوف يعتدي على خلق الله، ومع العدوان على خلق الله لابد من عقابٍ من الله عزَّ وجل ..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

قويٌ لا يغلب ، منتقمٌ لا يعارض ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

1 ـ علمُ الله متعلقٌ بكل شيء ، ومحيط بكل شيء :

تعلَّق علمه بكل ممكن ، عَلِمَ ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، لا تخفى عليه خافية ..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(19))

(سورة غافر)

يعلم سرك ونجواك ، ويعلم ما خفي عنك ..

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى(7))

(سورة طه)

فـ :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

2 ـ من الحماقة التفكير في مخادعة الله :

إذاً من الحُمْق أن تحاول أن تخدع الله ..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء : من آية " 142 ")

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

(سورة إبراهيم : من آية " 46")

فالإنسان حينما يتوهم أنه يخدع الله عزَّ وجل ، فهو غبيٌّ أحمق ، وحينما يتوهم أنه يخفي شيئاً لا يعلمه الله ، فهو غبيٌّ أحمق ..

(لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ(5)هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء

1 ـ هذا هو خَلقُ الله للإنسان :

فهذا الحوين هو خلية لها غشاء ، ولها هيولى ، ولها نواة ، وعلى النواة مورِّثات ، وهناك من يقول هناك مليون مورث ، وهناك من يقول : خمسة ملايين ، وأنا قرأت أن هناك خمسة آلاف مليون ، فكل مورث أمر مبرمج لوقت معين ..

(يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

قدرات عقلية ، وانفعالية ، وشكلية ، وعضلية ، وعظمية ، وعيون ، وشعر ، ووجه ، فهناك خصائص كثيرة جداً للإنسان ..

(يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

2 ـ الخالقُ المصوِّر هو الحكيمُ المتصرف في الكون :

أي لا متصرف في الكون إلا الله ، بالتالي لا معبود بحقٍ إلا الله ، عزيزٌ حكيم ، أي عزيزٌ لا ينال جانبه ، حكيمٌ كل أفعاله وفق حكمةٍ ، لو لم تكن لكان الله ملوماً ، أدق شرح لكلمة حكيم أن كل شيءٍ وقع أراده الله ، وأن كل شيءٍ أراده الله وقع ، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وأن حكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

3 ـ لماذا لا يكون الإنسان حكيماً ؟

الإنسان لماذا لا يكون حكيماً ؟ لأنه قد يكون جاهلاً ، فعدم الحكمة من عدم العلم ، وأحياناً الإنسان لا يكون حكيماً ، عليه ضغط شديد ففعل شيئاً ليس مقتنعاً به ، ما كان حكيماً بهذه الكلمة ، ما كان حكيماً بهذا الموقف ، لأن عليه ضغطاً لا يقاوم ، إذاً لم يكن حكيماً ؛ إما لجهله ، أو لضغطٍ عليه ، وقد يفعل الإنسان شيئاً ، وليس حكيماً بفعله ، لأنه وقع تحت إغراء ، فأغلب الظن أن الإنسان حينما لا يكون حكيماً ؛ إما أنه بسبب جهله ، أو ضغطٍ لا يقاوم ، أو إغراءٍ لا يقاوم .

الله جل جلاله يستحيل في ذاته العلية إلا أن يكون عالما ، ويستحيل أن هناك جهة أخرى تطلب ، أو شيئاً يغري ، كل هذه المعاني التي يمكن للإنسان أن يتلبَّس بها مستحيلة على الله عزَّ وجل ، إذاً هو حكيم ، فكل شيء وقع لو لم يقع على النحو الذي يقع لكان الله ملوماً ، كل شيء وقع لو لم يقع على النحو الذي يقع لكان نقصاً في حكمة الله عزَّ وجل ، لذلك فعَنْ أبي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ)) .

[رواه الإمام أحمد]

4 ـ هذه الحقيقة يسعد بها المسلم :

أيها الإخوة الكرام ، المؤمن قد يسعد من حقيقةٍ قرآنية ، فأول شيء حينما تعتقد أن الله لا يخفى عليه شيء ، لا تحاول أبداً أن تخادعه ، تتعامل معه تعاملاً واضحاً ، وحينما توقن أنه هو القوي ، وهو المنتقم ، فأي معصيةٍ فعلتها ، وأصررت عليها ، لا يمكن أن تتفلَّت من عقاب الله ، هذه حقائق تضبط ، وكلما أيقنت بهذه الحقائق انضبطت على منهج الله .

أولاً : لا تخفى عليه خافية .

تروي بعض الكتب ، أن إنسان طلب من شيخ له أن يسمح له بمعصية ، قال له :

ـ خمسة أشياء إن فعلتها لا تضرك معصية .

ـ قال له : وما هي ؟

ـ قال له : اعصه في مكانٍ في غير بلاده .

ـ قال له : الأرض كلها له .

ـ قال له : أتعصيه وهو يراك ؟! أو أتعصيه في أرضه ، والملك ملكه .

ـ قال له : هات الثانية .

ـ قال له : إن أردت أن تعصيه فاعصه في مكانٍ لا يراك فيه .

ـ قال له : هو معكم أينما كنتم .

ـ قال له : تسكن أرضه وتعصيه وهو يراك !!

ـ قال له : هات الثالثة .

ـ قال له : إن أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه .

ـ قال له : وماذا آكل إذاً ؟!

ـ قال : تسكن أرضه ، وتأكل رزقه ، وتعصيه وهو يراك !!

ـ قال له : هات الرابعة .

ـ قال له : إن أردت أن تعصيه وجاءك ملك الموت لا تذهب معه ، ولا ترد عليه.

ـ قال له : لا أستطيع .

ـ قال : تسكن أرضه ، وتأكل رزقه ، وتعصيه وهو يراك ، ولا تستطيع أن ترد عنك ملك الموت ؟!!!.

ـ قال له : هات الخامسة .

ـ قال له : إذا أردت أن تعصيه ، وانتقلت إلى الدار الآخرة ، وجاء الزبانية ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم .

ـ قال : لا أستطيع .

ـ قال : تسكن أرضه ، وتأكل رزقه ، وتعصيه وهو يراك ، ولا تقوى على رد ملك الموت ولا زبانية جهنم ، فكيف يكون الأمر ذلك ؟!!!!

فأنت لما توقن أنه يعلم كل حركاتك وسكناتك ، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، وأن الأمر كله بيده ؛ رزقك بيده ، صحتك بيده ، زواجك بيده ، حواسك الخمس بيده ، قلبك بيده ، دسَّامات قلبك بيده ، شرايين قلبك بيده ، كليتاك بيده ، كل جهازٍ مهما دق بيده ، علاقاتك بيده ، مَن فوقك بيده ، مَن تحتك بيده ، إن أيقنت أن الأمر كله بيده ينبغي أن تطيعه ..

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أفعاله حكيمة ، وهو عزيز ، أي لا ينال جانبه ، وذو انتقام ، إذا أردات أن تفعل شيئاً لا يليق بك ، ردعك وانتقم منك ، انتقم منك ، أي ردعك .

هذه الآيات وحدها ينبغي أن تحملنا على طاعة الله عزَّ وجل ، وفي درسٍ قادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ)

والحمد لله رب العالمين

سؤال :

يسأل أخ : في سورة يونس آية ، هي قوله تعالى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(99)وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ)

جواب :

يقول هذا الأخ السائل : لو شاء الله لجعل الناس كلهم بدين الإسلام ، أي خمس قارات ، فيها مئتان وعشرون دولة في العالم ، ستة مليارات إنسان ، كلهم مسلمون ، مؤمنون ، صديقون مرة واحدة ، ولو شاء لزرع الإيمان بقلوبهم فما معنى ذلك ؟

ـ الجواب : هذا الهدى الذي فهمته أيها الأخ من هذه الآيات ، هذا الهدى القسري ، هذا لا يسعد أبداً ، لا تسعد إلا بهدىً اختياري ، لا تسعد إلا إذا طرقت باب الله ، إلا إذا بحثت عن الحقيقة ، إلا إذا أتيت الله طائعاً ، أتيته مبادراً ، أتيته بمحض اختيارٍ ..

(وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة : من آية " 13 ")

الهدى القسري ما له قيمة أبداً ، فتماماً لو رئيس جامعة أراد أن يوزع على الطلاب في السنة الرابعة أوراقًا مكتوب عليها جواب أسئلة الامتحان ، اكتب اسمك وتنجح ، ما قيمة هذا النجاح ؟ لو وزع عميد كلية على طلابه في سن التخرج أوراق مطبوعة بالمطبعة الإجابة ، ولكن فقط اكتب اسمك ورقمك ، مطبوعة مئة على مئة ، طبعاً كل الطلاب ناجحون ، ولكن ما قيمة هذا النجاح ؟ لا قيمة له إطلاقاً ، لا عند رئاسة الجامعة ، ولا عند المدرسين ، ولا عند الطلاب ، ولا عند الناس ، الهدى القسري ما له قيمة أبداً ..

(لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد : من آية " 31 ")

أما الهدى العظيم فهو الذي يأتي عن اختيار ، عن رغبة ، عن حب ، أرادك أن تحبه ، ما أرادك أن تكون مقهوراً معه ، لا إكراه في الدين .

فأيها الأخ الكريم ، أيها الأخ السائل ، أيَّة آية تتوهم أن الله قادرٌ على أن يهدي عباده هذا هو الهدى القسري الذي لا يسعد .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(03-60): تفسير الآيات 5-7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-11-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الخامسة .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

1 ـ الشعور بمراقبة الله يورث الخوف من المعصية :

حينما يعتقد الإنسان أن الله يعلم كل شيء ؛ يعلم سره ، ويعلم جهره ، ويعلم ما خفي عنه ، انتهى كل شيء ، لا يمكن لإنسانٍ فيه ذرة عقل بعد أن يوقن أن الله يعلم ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، خاطر دقيق ، خاطر مر سريعاً يعلمه الله ، يحول بين المرء وقلبه ، لا يمكن لهذا الإنسانِ أن يعصي الله .

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

(سورة البقرة : من الآية 284)

حينما تعلم أن الله يعلم ، وحينما تضيف إلى علمك أن الله يعلم ، وأنه سيحاسب ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

وحينما تضيف إلى علمك أن الله سيعاقب يوم القيامة ، أو في الدنيا ، يعلم ، وسيحاسب ، وسيعاقب ، لا يمكن أن تجترئ على معصيته أبداً ، لأنك في الدنيا حينما تركب مركبتك ، وترى الإشارة حمراء ، وترى مَن يقف على هذه الإشارة ليضبط المخالفين ، وأنت لا تقوى على رد عقوبة صارمةٍ ، لابد أن تتقيد بقواعد السير ، لأنك تعلم أن واضع القانون يطولك علمه ، وتطولك قدرته ، إذاً لابد من أن تستقيم على أمره ، فكلمة :

(لاَ تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

خير إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان ، فأعلى درجة من درجات الإيمان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك ، أن تعلم أن الله معك حيثما كنت ، أن تشعر أن الله مُطَّلع

عليك ، ناظرٌ إليك ، مطلع على قلبك ، يعلم كل الخفايا ، يعلم كل الخواطر ، هذا الإيمان وحده يدعوك إلى أن تستقيم على أمر الله ..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

أما حينما تغش إنساناً ، وتحتال على آخر ، وتأكل مالَ غيره ، وتعتدي على عِرض فلان ، وكأن الله لا يعلم ، فهذا هو الجهل بعينه ، هل تصدقون أن في آيةٍ قرآنية ربنا عز وجل جعل حكمة الحج الذي هو من أرقى الفرائض فقال :

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة : من الآية 97)

حينما تعلموا أن الله يعلم فلابد أن تلتزموا أمره ونهيه ، وحينما لا تلتزم ، وحينما لا تطيع ، وحينما لا تخضع ، وحينما تخالف ، وحينما تعصي فاعتقد اعتقاداً جازماً أنه بسبب ضعف إيمانك بأن الله يعلم .

2 ـ هذا مع العبد الضعيف فكيف بك مع الله الذي لا يخفى عليه شيء :

أنت لست مع خالق الكون بل مع إنسانٍ مثلك ، مع إنسان من بني جلدتك ، مع إنسان لا يقوى عليك في كل شيء ، حينما توقن أن علمه يطولك ، وأن قدرته تطولك ، تستقيم على أمره ، فكيف يقول الله عز وجل :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق : من الآية 12)

الإيمان علم ..

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(10))

(سورة الملك)

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق : من الآية 12)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)) .

[متفق عليه]

هنا اسمان فقط :

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق : من الآية 12)

مَثَل السير واضح جداً ، تركب مركبة والإشارة حمراء ، الشرطي واقف ، والضابط واقف ، وثمة دراجة وسيارة ، وأنت مواطن عادي ، لا يمكن أن تتجاوز هذه الإشارة إلا في حالتين ؛ في وقت لا يطولك علم واضع القانون ، الساعة الثالثة ليلاً ، أو إذا كنت أقوى من واضع القانون ، في إحدى

هاتين الحالتين تتجاوز ، أما إن أيقنت أن علمه يطولك ، وأن قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه ، هذا مع إنسان ضعيف من بني جلدتك ، لكنه يقوى عليك في زاوية ضيقة فتستقيم على أمره ، فكيف بخالق الكون الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء ؟!!

الشبكية بيده ، ضغط العين بيده ، دسَّام القلب بيده ، شريان القلب بيده ، عمل الكليتين بيده ، الخلايا ، نمو الخلايا ، سيولة الدم كله بيده ، كل أجهزتك ، وأعضاؤك ، وأنسجتك ، وسمعك ، وبصرك بيده ، ومَن حولك ومَن فوقك ، ومَن دونك ، وزوجتك ، وأولادك ، ورزقك ، وراحتك النفسية، وانقباضك النفسي ، كل شيءٍ بيده ، يحتاجه كل شيء في كل شيء، فكيف تعصي الإله ؟!!

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في القياس شنيع

لـو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

* * *

إذاً :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

3 ـ لا يخفى على الله شيءٌ فاحذر أن تعصيه :

وأنت في غرفتك ، والنافذة مفتوحة ، خرجت الجارة في البيت المقابل إلى الشرفة ، وعليها ثيابٌ خفيفة، وأنت تراها ، ولا أحد يراك أنك تراها ، فإذا غضضت بصرك عن محارم الله معنى ذلك أنك تعلم أن الله يعلم .

مَثَل آخر : طبيب يعالج امرأةً ، ينظر إلى موضع المرض ، فإذا اختلس نظرةً إلى مكانٍ آخر ، ليس في الأرض كلها جهة تستطيع أن تضبط مخالفتك ، امرأة ممدّدة أمامه يعالجها ، شكت له من مكان ، فنظر إلى مكان ، مَن الذي يطلع عليه ؟ الله جل جلاله ..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(19))

(سورة غافر)

ما تقوله ، وما لا تقوله ، ما تعلنه ، وما لا تعلنه ، ما توهم الناس به ، وما لا توهم الناس به ، في علمه.

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة : من آية " 97")

خلق الكون كله من أجل أن تعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمُه ، اختار من بين كل أسمائه كله اسمين ؛ اسم القدير واسم العليم ، هذا كلامٌ دقيق ، حينما توقن أن علمه يطولك ، وأن قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصي أمره .

4 ـ ابحث عن الإيمان الذي ينجيك :

سألني أخ : هؤلاء العصاة ما بالهم ، هم مؤمنون ؟ قلت له : تصور دائرة كبيرة جداً ، كل مَن قال ولو بلسانه : الله خلق السماوات والأرض فهو داخل الدائرة ، وقد يكون زانياً ، وقد يكون شارب خمر ، وقد يكون آكل مالٍ حرام ، وقد يكون معتدياً ، وكل إنسان أقرّ أن لهذا الكون إلهاً فهو ضمن الدائرة ، لكن هذا الإيمان لا ينجِّي صاحبه إطلاقاً ..

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(87))

(سورة الزخرف)

وضمن هذه الدائرة الكبيرة دائرةٌ أصغر منها ، مَن بداخلها مستقيمون على أمر الله ، مَن بداخلها ناجون ، هؤلاء حَمَلهم إيمانهم على طاعة الله ، الدائرة الكبرى ؛ كل من أقر بوجود الله فهو مؤمن ، خارج الدائرة ؛ كل مَن أنكر وجود الله ، هؤلاء الملحدون خارج هذه الدائرة ، لكن داخل هذه الدائرة مَن أقر بوجود الله هو مؤمن ، لكن إيمانه لا ينجيه لا من عذاب الدنيا ، ولا من عذاب الآخرة ، وهذا شأن عامَّة المسلمين ؛ لا يقيمون الإسلام في بيوتهم ، قد يكون دخلهم حرامًا ، وإنفاقهم حرامًا ، لا يتورعون، يختلطون ، يفعلون ما يحلو لهم ، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد]

أما مَن في الدائرة الثانية فهؤلاء الملتزمون ، هؤلاء الوَقَّافون عند حدود الله ، هؤلاء الذين طبّقوا منهج الله ، هؤلاء الذين التزموا ، هؤلاء نفعهم إيمانهم ، هؤلاء حملهم إيمانهم على أن يستقيموا ، أين يقع إبليس ؟ ضمن الدائرة الكبيرة ، ألم يقل ربك :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص : من الآية 82)

آمن به رباً ، وآمن به عزيزاً ، ألم يقل :

(خَلَقْتَنِي)

(سورة ص : من الآية 76)

آمن به خالقاً ، ألم يقل :

(فَأَنْظِرْنِي)

(سورة ص : من الآية 79)

آمن باليوم الآخر ، لكن إيمانه ما قدَّم ولا أخَّر ، فمن كان ضمن الدارة الثانية فهؤلاء الذين نفعهم إيمانهم ، وحملهم على طاعة الله ، ومركز هذه الدائرة هم الأنبياء المعصومون ، فثمة إنسان خارج

الدائرة الكبرى ، هذا ملحد ، ضمن الدائرة الكبرى ، هذا مؤمن ، وقد لا ينجو ، ضمن الدائرة الصغرى، فهذا مؤمن مستقيم ، أما في المركز فهم الأنبياء المعصومون .

إذاً :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

أناس كثيرون يتحدثون ، ويقولون شيئاً لا يؤمنون به ؛ لمصلحةٍ ، أو لخطة ، أو لخبث ، أو لخديعة ، الله عز وجل يعلم سركم وجهركم ، وقد ورد عند بعض علماء القلوب : " القلب منظر الرب " ، أي لا تجعل الله أهون الناظرين إليك ، إن الله ينظر إلى قلوبكم ، ورد في بعض الآثار القدسية : أن عبدي طهرت منظر الخلق سنين ، الإنسان يجدد بيته ، يجدد أثاث بيته ، يرتدي ثياب جميلة ، يغسل مركبته ، يحسِّن مدخل بيته ، طهَّرت منظر الخلق سنين ، أفلا طهرت منظري ساعة ؟ والقلب منظر الرب ، إن الله مطلع عليك ، أما يستحي الإنسان أن يتآمر على أخيه ، كفى بها خيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب .

القلب فيه غش أحياناً ، فيه مكر ، فيه خداع ، فيه مؤامرة ، في احتقار ، في كِبر ، في استعلاء ، من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر هذا هالك ، مثقال ذرة .

أنا كنت أضرب هذا المثل : عندك كيلو لبن ، وجاءك خمسة وعشرون ضيفًا ، يمكن أن تضيف على هذا الكيلو خمسة كيلوات من الماء ، وأن تقدمه شرابًا ، أما إذا وضعت قطرة نفط واحدة فهل بإمكانك أن تشربه ؟ قطرة نفط واحدة تفسد هذا اللبن ، بينما خمسة أمثاله ماء لا يفسد ، لذلك الكبر خطير جداً .

أساساً هناك معصيتان ؛ معصية الغلبة ، ومعصية الكبر ، معصية الغلبة يسهل أن تتوب منها ، ولكن معصية الكبر يصعب أن تتوب منها ، هذه معصية إبليس .

(قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

أما الإنسان أحياناً يغلب ، فيستغفر ، فيجد الله تواباً رحيماً .

إذاً :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ(5)هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

1 ـ هذا ما يحدث في اللقاء الزوجي :

في اللقاء الزوجي خمسمئة مليون حوين ، تحتاج البويضة إلى حوين واحد ، وهناك آلية دقيقة جداً ، الحوين في رأسه مادة نبيلة ، هذه المادة النبيلة مغلّفة بغشاء رقيق ، فإذا اصطدم بجدار البويضة ، تمزق الغشاء ، المادة النبيلة تستطيع أن تذيب جدار البويضة فيدخل ، فإذا دخل إلى البويضة أغلق الباب ، واكتفت البويضة بزوج واحد ، الانقسام الآن من المبيض إلى الرحم ، تنقسم البويضة الملقحة إلى عشرة آلاف جزيء ، وفي الرحم تُغْرَس ، وتبدأ بالنمو .

لكن هذه النطفة فيها مورِّثات ، بعضهم قال : خمسة آلاف مليون ، سمعت أنها مليون ، على كلٍ ليس أقلّ من مليون ، هذا الذي أقوله لكم هو شُغل العالم اليوم ، الهندسة الوراثية ، فكل شيء أنت فيه مصمم من قبل ؛ الطول ، اللون ، خده الأسيل ، عينان زرقاوان ، شعر أسود ، شعر أشقر ، قامة طويلة مديدة، شامة على الخد ، أي كل تفاصيل الخلق ، كلها تنفيذ لبرنامج ، هذه المورثات ، لو سلمنا أنها مليون مورث ، فحتى الآن عرفوا ثمانمئة مورِّث ، هذه تسهم في تفاصيل حياة الإنسان .

حدثني أخ كريم فقال لي : جاءني بنتان توأمان من بويضة واحدة ، وكل بنتٍ لها طبع ، الأولى حادَّة المزاج ، والثانية هادئة جداً ، ومن بويضة واحدة ..

(هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

2 ـ علم الأجِنَّة وحده أكبر دليل على عظمة الله :

والله يا أيها الإخوة الكرام ، علم الأجِنَّة وحده أكبر دليل على عظمة الله ، علم الأجنة ؛ تطور الخلق ، من مضغة ، إلى علقة ، إلى عظم ، ثم يكسى العظم لحماً .

دخل طبيب أستاذ علم الأجنة في جامعة أكسفورد ، له كتاب يعد عند الدارسين إنجيل الأجِنَّة ، كتاب قيم ، مترجم إلى معظم اللغات ، يدرس في كل الجامعات تقريباً ، فقال هذا الطبيب لتلاميذه : معي حقيقة ناصعة كشفتها اليوم ، تعد ثورةً في علم الأجنة ، ما هذه الحقيقة ؟ أنه اكتشف أن العظام تُشَكَّل أولاً ، ثم تُكسى لحماً ، وهو قبل عشرين عامًا سابقة كان يعتقد أن العظام تلي خلق العضلات ، فقام طالب مسلم في هذه الجامعة فقال : هذه حقيقة في كتاب المسلمين ، فالأستاذ صعق ، ولم يصدق ، في اليوم التالي جاءه بالقرآن الكريم مع تفسيره ، أطلعه على الآية :

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(14))

(سورة المؤمنون)

إن قضية تشكل الجنين في الرحم ، والأطوار التي يمر بها ؛ من مضغة إلى علقةٍ ، إلى نطفة مُخَلَقة وغير مخلقة ، إلى عظمٍ ، إلى لحمٍ ، إلى أجهزةٍ ، إلى دماغ ، شيء لا يصدق ، قبل تسعة أشهر نقطة ماء ، بعد تسعة أشهر يكون طفلا يأكل ، ويشرب ، ويتحرك ، ويرى ، ويسمع ، وينام ، وفيه دماغ ، وفيه أعصاب ، ومعدة ، وأمعاء ، وقلب ، وكبد ، وأذنان ، ولسان ، هذا كله من خَلق الله عز وجل .

(هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

إنسان طويل ، وإنسان قصير ، إنسان لونه فاتح ، وإنسان لونه داكن ، إنسان عصبي المزاج ، وإنسان هادئ الطبع ، إنسان يتّقد ذكاءً ، وإنسان محدود ..

(يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الْعَزِيزُ الْحَكِيم

1 ـ العزيز :

العزيز : الذي لا ينال جانبه ، كما قلت في درس سابق : يندر وجوده إن كان العزيز شيئاً من خلق الله، وإن كان اسماً لله فهو واحدٌ لا شريك له ، إن كان صفةً لمخلوقات الله فهو يندر وجوده ؛ والشيء العزيز تشتد الحاجة إليه ، وإن كان اسماً لله فيحتاجه كل شيء في كل شيء ، والعزيز إذا كان صفةً لغير الله فيصعب الوصول إليه ، أما إذا كان اسماً لله فيستحيل أن تحيط به .

2 ـ الحكيم :

الحكيم : يضع كل شيء في مكانه الصحيح ، كل شيء وقع لو أنه وقع بخلاف ما وقع لكان نقصاً في حكمة الله ، ولكان الله ملوماً ، فليس في الإمكان أبدع مما كان .

ثم يقول الله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ)

1 ـ الآيات المُحكمات :

بعضهم قال : الآيات المُحكمات هي الآيات الواضحات ، وبالتعبير الأصولي : هي الآيات قطعية الدلالة ، لا تحتمل معنيين ، ومن رحمة الله بنا أن كل الآيات المتعلقة بسعادتنا أو شقائنا ، الآيات المتعلقة بالأساسيات ؛ شيء يعد فرضاً لسلامتنا وسعادتنا تغطيه آيات محكمة ، وشيء إن فعلناه كان دماراً لنا في الدنيا والآخرة تغطيه آية محكمة ، أي آية واضحة ، آيةٌ قطعية الدلالة ..

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا)

(سورة المائدة : من الآية 38)

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا(103))

(سورة النساء)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(183))

(سورة البقرة)

أيةُ قضية أساسيةٍ في سلامتنا وسعادتنا ، وهي أساسية في دمارنا وشقائنا مغطاة بآية محكمة ، أي آيةٌ واضحة الدلالة قطعية المعنى ، لا شك فيها ، كأن نقول : أعطِ فلانا ألفاً وخمسمئة ليرة ، لا تحتاج لمفسر ، ولا موضح ، ولا لإنسان تستشيره في المعنى : أعطِ فلانا ألفاً وخمسمئة ليرة ، هذا نص واضح قطعي الدلالة ، أما لو قلت لك : أعطِ فلاناً ألف درهمٍ ونصفه ، هذه جملة متشابهة ، يا ترى الضمير يعود على الألف ، أي ألفا وخمسمئة درهم ، أم يعود على الدرهم ، ألف ونصف درهم ؟؟ هذه متشابهة ، فيمكن أن تؤول بألف وخمسمئة إذا أعدنا الضمير على الألف ، ويمكن أن تؤول بألف ونصف درهم إذا أعدنا الضمير على الدرهم ، هذه آية متشابهة أي ظنية الدلالة .

2 ـ الآيات المتشابهات :

الآيات الظنية الدلالة ، وكذلك الأحاديث ، تغطي المتغيِّرات في حياة الإنسان ، في حياتنا ثوابت وفي متغيرات ، فالثوابت ما تقوم عليه سعادتنا، وما يهددنا بالشقاء الدنيوي والأبدي ، هذه ثوابت ، فالإنسان أكل ، ولم يطعم أمه التي أنجبته ، من دون تعليم ، من دون توجيه ، من دون أن تستمع إلى خطبة عن بر الوالدين ، هذا شيء تعرفه بالفطرة ، ومغطى بنصٍ قطعي الدلالة ، فكل جريمة تهلك الإنسان محرمة بنصٍ قطعي الدلالة ، وهناك متغيرات ، فالله عز وجل قال :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

(سورة النور: من الآية 56)

يا رب ، نؤتيها مالاً ، أم نؤتيها طحيناً ، أم نؤتيها تمراً ، أم قمحاً ، كيف نؤتيها ؟ يحتمل أن تؤديها مالاً إذا كنت في المدينة ، ويحتمل أن تؤديها قمحاً إذا كنت في الريف ، القضايا المتغيِّرة ، والمتغيرات تغطيها الآيات ظنية الدلالة ، والثوابت في حياة الإنسان تغطيها الآيات المحكمات .

ولكنني أنا كإنسان حينما أصوغ نصاً ظني الدلالة ، أنا أقصد معنىً واحدًا ، ولكن عبارتي جاءت فضفاضة ، أما إذا جاء خالق الأكوان في قرآنه بعبارة ظنية الدلالة ، معنى ذلك أن الله أراد كل المعاني كي تغطي كل الظروف ، وكل البيئات ، وكل الحاجات ، فإذا كان في النص طابع ظني فالله عز وجل أراد كل المعاني رحمةً بالخلق ، وتغطية لكل المتغيرات في الحياة ، أما إذا أراد معنى واحداً هذا لا يحتمل تأويلاً آخر .

إذاً :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ)

آيات الوجود ، آيات الكمال ، آيات الوحدانية ، آيات المحرَّمات ، آيات الفرائض ، الآيات الأساسية التي تقوم عليها سعادتنا ، والآيات التي إن خالفناها نشقى في الدنيا والآخرة محكمات ، أما ندفع الزكاة مالاً ، أم ندفعها طعاماً ، هذه آية ظنية الدلالة ، هنا مجال اجتهاد المجتهدين .

3 ـ معنى آخر للآيات المحكمات :

معنى آخر : أن الآيات المحكمات هن الآيات التي تعدُّ أصول الكتاب ، وأن الآيات المتشابهات هي الآيات التي تعد فروعاً للكتاب ، في أصول وفي فروع ، وكل آية متشابهة ينبغي أن ترد إلى آية محكمة، أرجو الله عز وجل أن يمكنني من توضيح هذه الحقيقة ..

أنا أقول : الخبز مادة خطيرة ، كلمة خطيرة هل تعني قنبلة تنفجر ، أما أنها مادة أساسية ؟ الخبز مادة خطيرة ، القمح مادة خطيرة في حياة الإنسان ، ثم أقول بعد حين : القمح مادة أساسية ، أساسية محكمة، خطيرة متشابهة .

الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلَّت :

القاعدة الأصولية أن كل آيةٍ متشابهةٍ ، أو أن الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلَّت ، هذه قاعدة أساسية .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

هذه الآية أصل ، وواضحة ، ومحكمة في أن الإنسان مخير لا مسير ، تأتي آية ثانية :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل : من الآية 93)

فالآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلّت ، هذه قاعدة أصولية ، لذلك إذا قلت : الله عز وجل أضل فلاناً ، الله لا يضل ، هذا هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، قياساً على قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : من آية " 5 ")

إذاً : المحكمات ؛ الواضحات ، قطعية الدلالة ، اللواتي تغطي أساسيات الحياة ، والثوابت في الحياة الإنسانية ، والمتشابهات ؛ الآيات ظنية الدلالة ، تشبه الحق من جانب ، والباطل من جانب .

مثلاً :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(13))

(سورة السجدة)

نعود للمثل السابق : كلفت إنساناً أن يعطي فقيراً ألف درهماً ونصفه ، كيف يؤوِّل النص ؟ ألف ونصف درهم ، هذه لأن الهاء تعود على الدرهم ، كأن ثمة امتحانا ؛ إذا كان كريما يعيدها على الألف ، فيعطيه ألفاً وخمسمئة ، وإن كان بخيلاً يعيدها على الدرهم ، فيعطيه ألفا ونصف درهم ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : من الآية 130)

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

النهي على الأضعاف المضاعفة ، أما لو أكلناها بنسبٍ قليلة فلا شيء علينا ، " النظرة الأولى لك ـ ولكنه ظل ساعة في النظرة الأولى ـ والثانية عليك " فجعل الأولى ساعة .

فدائماً :

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

(سورة الحج : من الآية 41)

الله لم يمكّننا ، إذاً : لا نقيم الصلاة ، فهناك تأويلات مضحكة ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ)

فتنوا بالدنيا ، فأرادوا مخلصاً لشهواتهم من بعض النصوص ، وكثيراً هي الكُتُب التي تؤلف حديثاً تحت اسم (قراءة معاصرة في القرآن الكريم) التي تخفف على الناس التكاليف ابتغاء الفتنة ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ يَقُولُ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسِيرٍ لَهُ فَنَزَلْنَا فِي مَكَانٍ كَثِيرِ الثُّوم ، وَإِنَّ أُنَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَصَابُوا مِنْهُ ، ثُمَّ جَاءُوا إِلَى الْمُصَلَّى يُصَلُّونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَنَهَاهُمْ عَنْهَا ، ثُمَّ جَاءُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمُصَلَّى ، فَنَهَاهُمْ عَنْهَا ، ثُمَّ جَاءُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمُصَلَّى ، فَنَهَاهُمْ عَنْهَا ، ثُمَّ جَاءُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمُصَلَّى فَوَجَدَ رِيحَهَا مِنْهُمْ فَقَالَ :

((مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلَا يَقْرَبْنَا فِي مَسْجِدِنَا)) .

[رواه أحمد]

يعني من البصل والثوم ، هل تصدقون أنه في بعض البلاد حتى يتخفف من صلاة الجمعة يأكل سناً من الثوم ؟ ما دام قد أكل من هذه الشجرة فينبغي ألا يقرب مصلانا ، ما خطر في بال النبي أن واحدا من أمته بعد حين سيفهم هذا الحديث : أي أن يعفى من صلاة الجمعة ، فالإنسان المنحرف يعمل في التأويل، يغيِّر ، ويبدل ، ويؤول كي يجر التغطية الشرعية الموهومة إلى انحرافاته ، هذه قاعدة ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)

معنى التأويل :

ما معنى التأويل ؟ العلماء فرقوا بين التفسير والتأويل ، الإنسان حينما يخطر في باله فكرة يعبِّر عنها ، فأن تعيد النص إلى أصله الفكري هذا تأويل ، فالله عز وجل قال :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة)

إن الله عز وجل خلقك مخيراً ، حَمَّلَكَ الأمانة ، هيَّأ لك سعادة أبدية ، خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض ، لو شاء أن يجبرك على الهدى لأجبرك ، لكن عندئذٍ لا تسعد ، لو أنني مجبر أحدا على شيء لما أجبرتكم إلا على الهدى ، ولكن الهدى القسري لا يسعد ..

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة)

تعني هذه الآية : أن الله لو أراد أن يجعل كل العباد المؤمنين إيماناً قسرياً لفعل ، فلو أن بلدا يفرض استقامة قسرية عن طريق المراقبة ، تدخل إلى سوق كبير جداً فيه بضاعة ألوف الملايين ، خمسة موظفين على الباب ، أية سلعة إن لم تدفع ثمنها تعط صوتاً ، فمن هو المستقيم إذاً ؟ في بلاد كثيرة مع التطور التكنولوجي أجبر الإنسان على الاستقامة ، لكن هذه الاستقامة التي أجبر عليها لا قيمة لها إطلاقاً ، ولا ترقى بالإنسان ، كما أنها لا تسعده ، فالآيات المحكمات تغطي الثوابت في الإنسان ، والمتشابهات تغطي المتغيرات .

الذين في قلوبهم مرضٌ يتبعون المتشابه :

لكن المنافقين ومَن كان في قلبه مرضٌ ..

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)

يقول لك أحدهم :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل: من آية " 93 ")

الله لم يكتب لي الهداية ، الله عز وجل هداك ، ينتظر أن تستجيب له ، أما : كلمة : (من يشاء) فلها معنى آخر في آيات أخرى :

(وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(264))

(سورة البقرة)

(وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(258))

(سورة البقرة)

لا يهدي الكاذبين ، فالله أوجز بمكان ، وفسر بمكان ..

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ)

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّه

هنا شيء ثان لابد من ذكره ، من معاني المحكمات والمتشابهات : القرآن كله آيات محكمات إلا بعض الآيات التي لا تزيد على أصابع اليد ، هذه الآيات متعلقة بذات الله .

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

(سورة الفجر : من الآية 22)

أين كان ؟

(اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

(سورة الأعراف : من الآية 54)

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)

(سورة المائدة : من الآية 116)

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : من الآية 88)

وجه ، نفس ، يد ، سمع ، بصر ، جاء ، بضع آيات لا تزيد على عدد أصابع اليد ، سماها العلماء آيات متشابهات ، هذه متعلقة بذات الله ، أكمل موقف أن نوكل أمر معناها إلى الله ، عشر آيات ليس أكثر ، وبعضهم أوّلها تأويلاً يتناسب مع كمال الله ، فقالوا :

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

(سورة الفجر : من الآية 22)

أي جاء أمره .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : من الآية 10)

أي قدرته .

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(181))

(سورة البقرة)

أي علمه .

وجهه : ذاته ، نفسه : ذاته ، إلخ ... فالآيات المحدودة المتعلقة بذات الله يمكن أن تسمى آيات متشابهات، فإذا لم نأولها واكتفينا وفوضنا إلى الله تأويلها نكون قد سلمنا ، وإذا اجتهدنا بتأويلٍ يليق بكمال الله نكون قد وفقنا ، أما أن نشبِّه الله عز وجل ببعض خلقه ، فهذا كلامٌ غير مقبول ، إما الذين أنكروها ضلوا ، والذين جسَّدوها ضلوا ، ولكن الذين فوَّضوها كانوا أكمل الناس ، والذين أولوا كانوا قد وفقوا ، هذا معنى آخر للمحكمات والمتشابهات .

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ)

إذا : الآيات محكمات ..

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

نقف عند العلم ، أما إن كانت الآيات متشابهات متعلقة بذات الله ..

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ)

1 ـ الوقف عند لفظ الجلالة (الله) أو لفظ (العلم) كلاهما صحيح :

نقف هنا ، نقف عند كلمة الله إن كان الآيات متعلقة بذات الله ، ونقف عند كلمة والراسخون في العلم إذا كانت الآيات متعلقة بالأحكام الشرعية ، وقصص الأنبياء السابقين وما إلى ذلك ، يقولون هؤلاء العلماء الراسخون :

(يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ(7))

على كل ، أيها الإخوة القرآن الكريم يحتاج إلى تقوى ، لأن الله عز وجل يقول من بعض معاني هذه الآية :

(لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ(79))

(سورة الواقعة)

2 ـ الفِرق الضالة تعتمد على المتشابهات :

فإذا كنت طاهر القلب ، موَحداً ، مستقيماً ، أعانك الله على فهم كلامه ، وإلا فالمنحرف يقع في فتنة المتشابهات .

بالمناسبة ما من فرقةٍ ضالةٍ إلا اعتمدت على معنىً من معاني المتشابهات التي ما أرادها الله عز وجل، الآيات المتشابهات فيها نوع من الامتحان للإنسان ، أما المؤمنون الصادقون فإنهم :

(يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ(7)رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(04-60): تفسير الآيتان 8 -9

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-12-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع من دروس آل عمران ، ومع الآية الثامنة ، وهي قوله تعالى :

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ:

المعنى الأول :

أيها الإخوة ، قال علماء التفسير : ما دام الله جل جلاله يأمرنا أن ندعوه لئلا تزيغ قلوبنا ، معنى ذلك أن الأمر بيدنا ، يؤكّد هذا المعنى أن الله عزَّ وجل يقول :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : من الآية 5)

معنى (زاغ) أي انصرف إلى شيءٍ آخر غير الدين ؛ انصرف إلى الدنيا ، انصرف إلى معصية ، انصرف إلى متعةٍ رخيصة ، أو توجه إلى جهةٍ شريكة لله عزَّ وجل ، أي كان متجهاً إلى الله فزاغ قلبه، اتجه إلى غير الله ، كان مقبلاً على طاعة ، فزاغ قلبه ، فأقبل على معصية ، كان محسناً ، فزاغ قلبه ، فأساء ، كان طاهراً ، فزاغ قلبه ، فانحرف ، لأن الله عزَّ وجل يأمرنا أن ندعوه ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ : مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ))

[مسلم وأحمد]

ينبغي أن نفهم هذا الحديث فهماً دقيقاً جداً ، أي أن الله عزَّ وجل جعل قلوبنا بيده لسبب واحد ؛ من أجل أن يعيننا على إيماننا ، فلو أن أحدنا أراد شيئاً طيباً ، ملأ الله قلبه انشراحاً ، وإذا أراد أحد الناس سوءً ، ملأ قلبه انقباضاً ، فلأن القلب بيد الله عزَّ وجل ، يعطينا دفعة التشجيع ، أو دفعة ردع ، يجب أن نفهم هذا الحديث :

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

يملؤها ثقة ، وطمأنينة ، وأمناً ، وراحة ، أو يملؤها خوفاً ، وقلقاً ، وانقباضاً ، فإن كان القرار صائباً ملأها أمناً ، وراحة ، وانشراحاً ، وإن كان القرار مخطئاً ملأها خوفاً وقلقاً ، فإذا أردت أن تجمع بين هذه الآية وبين الحديث الصحيح ..

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

لصالحنا ، في صالح إيماننا .

المعنى الثاني :

هناك معنى آخر : أنت حينما ترى من هو أقوى منك لا ينبغي أن تخاف ، لأن قلب هذا القوي بيد الله ؛ فإما أن يملأه عطفاً عليك ، وإما أن يملأه حقداً عليك ، فقلبه بيد الله لا تخف منه ، خف أن يسمح الله له أن يصل إليك ..

(وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا)

(سورة الأنعام : من الآية 80)

إذا شاء الله لقويٍ أن يتسلّط عليك ، تسلط عليك ، إذاً لا تخف من القوي ، بل خف أن يسمح الله له لأن قلبه بيد الله ، هذا المعنى الثاني .

ذكرت لكم سابقاً أن الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى أدى أمانة التبيين ، والعلماء مكلّفون من قِبَل الله عزَّ وجل أن يبينوا ، فبيَّن ، بلغت الحجاج مقالته ، فقال : والله يا جبناء لأروينكم من دمه ، وأمر بقتله ، بكلمة ، فجيء به ليُقتَل في حضرته ، فلما دخل هذا الإمام الجليل على الحجاج رأى السيَّاف واقفاً ، والنطع ممدوداً ، وكل شيءٍ جاهزٌ لقتله ، فحرَّك شفتيه ، ولم يفهم أحدٌ ماذا قال ، فإذا بالحجاج يقف له ، ويستقبله ، ويقرِّبه ، حتى أجلسه على سريره ، واستفتاه في موضوع ، وضيفه ، وعطَّره ، وشيَّعه إلى باب القصر ، صُعِق السياف ، وتبعه الحاجب ، فقال له : يا إمام لقد جيء بك ـ اسمه أبو سعيد ـ قال له الحجاج : أنت يا أبا سعيد سيد العلماء ، تبعه الحاجب ، قال له : يا إمام ، لما دخلت حرَّكت شفتيك ، فماذا قلت بالله عزَّ وجل ؟ قال له : قلت : يا ملاذي عند كربتي ، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليَّ برداً وسلاماً ، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم .

أقوى الأقوياء قلبه بيد الله ، والله عزَّ وجل قادر أن يلهم عدوَّك أن يخدمك ، وقادر أن يجعل أقرب الناس إليك يتطاول عليك ، لأن قلوب العباد بيد الله ، فأنت علاقتك مع الله ..

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

فعلاقتي ليست مع الدواب ، ولكن مع مَن بيده ناصية الدواب ، فإن أرخى الزمام وصلت إلي ، وإن شدَّ الزمام أبعدها عني ، هذه حقيقة في التوحيد مهمة جداً ، الأرض مليئة بالأقوياء ، مليئة بالأشرار ، مليئة بالحاقدين ، مليئة بالكفَّار ، مليئة بقُساة القلوب وهم لا يرحمون ، ولكن قلبهم بيد الله ، فإذا أرد الله لمؤمنٍ خيراً ألقى هيبته في قلوب الأقوياء ، فـ :

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

يقلبها لصالحك ، يملؤها رضىً ، وأمناً ، واستبشاراً ، وتفاؤلاً حينما تصطلح مع الله ، ويملؤها خوفاً ، وضيقاً ، وقلقاً حينما تبتعد عن الله ، فـ..

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ))

أما قلوب الآخرين أيضاً بيد الله ، فإما أن تمتلئ محبة لك ، وعطفاً عليك ، ورغبة في خدمتك ، وإما أن تمتلئ نقمة ، وحقداً ، وقسوةً .

الإنسان مخيَّر :

إذاً : هذه الإزاغة التي ندعو الله ألا تكون هي إزاغة القلب الابتدائية ، أما الإزاغة الجوابية الجزائية فهذه من عند الله عزَّ وجل ، فحينما تختار المعصية ـ لا سمح الله ـ فالله عزَّ وجل بحسب هويتك أنت مخير ، جاء بك إلى الدنيا ، وأنت مخير ، لأن هويتك مخير ، لأن أصل تركيبك مخير ، إذاً : يسمح الله لك أن تنصرف إلى ما أردت ، فسماح الله لك أن تنصرف إلى ما أردت هو إزاغة الله .

ومثل ذلك كمثل طالبٍ في الجامعة لم يقدِّم امتحانًا ، ولا عرف داومًا ، ولا اشترى كتابًا ، ولا التقى المدرس ، أُرسِل له إنذار تلو الإنذار ، فأصر على موقفه ، بعد كل هذه المحاولات لإرجاعه للجامعة ، صدر قرار لترقين قيده ، فهذا القرار تجسيدٌ لرغبة هذا الطالب ..

(فَلَمَّا زَاغُوا)

(سورة الصف : من الآية 5)

انصرف إلى الدنيا ، إلى المعصية ، لم يعبأ بالتوحيد ، لم يطلب العلم ، أراد الشهوة ، الآن ، سمح الله له أن يحقق رغبته ، سماح الله له أن يحقق رغبته هو الزيغ الذي جاء في هذه الآية ، أقوى دليل :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

وقس على هذا كل شيء ، قس على هذا إذا وجدت في القرآن آيةً يُشَمُّ منها أن الله يضل العباد ، إذا قلت : إن الله يضلهم ، أي ذاك الضلال الجزائي ، المبني على ضلال اختياري ، أنت مخير ، وفي اللحظة التي تفقد فيها اختيارك تلغى هويتك ، وتلغى الأمانة ، ويلغى التكليف ، وتلغى المسؤولية ، ويلغى الثواب ، ويلغى العقاب ، وتلغى الجنَّة ، وتلغى النار ، لمجرَّد أن تفقد اختيارك ، لو أن الله

أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلّف تسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يُعْصَ مغلوباً ، ولم يُطَعْ مُكرهاً .

إذاً :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

هذه الإزاغة الجزائية ، التي هي في حقيقتها سماح الله لك أن تفعل ما أردت ، فأنت مخير .

مثل أوضح ، أنت صيدلي ، وبحاجة إلى موظف يعينك في فتح الصيدلية ، هذا الموظف يجب أن يكون على علمٍ بالأدوية وخصائصها ، أعلنت عن مسابقةٍ ، وجاءك عدد من المرشحين لهذه الوظيفة ، الآن تمتحن أحدهم ؛ وضعت له مجموعة أدوية على الطاولة ، قلت له : وزِّع هذه الأدوية وفق أنواعها؛ السموم ، والفيتامينات ، والمسكنات .. إلخ ، أنت الآن تمتحنه ، فأمسك هذا المرشح للوظيفة علبة دواء سموم ، واتجه إلى خزانة الفيتامينات ، لو أنك منعته ما فحصته ، ينبغي أن تسمح له أن يذهب حيث يشاء ، هو في طور امتحان ، أنت الآن تمتحن علمه ، أمسك علبة دواء سموم ، واتجه بها إلى خزانة الفيتامينات ، سماحك له هو إزاغتك ..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

أي سمح لهم أن يتجهوا الوجهة التي أرادوها ، واختاروها من عند أنفسهم ، يقاس على ذلك كلمة الضلال ، فأينما عُزيَت كلمة الضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري ، فـ ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

لماذا يقول الله عزَّ وجل :

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

(سورة الإسراء : من الآية 80)

لماذا ؟ لأنه قد تدخل مدخل صادقاً ، ولا تخرج صادقاً ، لمَ لمْ يقل الله عزَّ وجل : رب اجعلني صادقاً ؟ لا ، المعنى دقيق ، آلاف الحقول قد تدخلها صادقاً ، ولا تخرج منها صادقاً ، أنت قد تنشئ مستشفى خيريا ، ثم ينقلب هذه المستشفى إلى مستشفى ابتزازي يبتز أموال الناس بالباطل ، يمكن أن يبدأ المشروع خيرياً ، ولا ينتهي خيرياً ، يمكن أن تبدي دعوة بإخلاصٍ شديد ، ولا تنتهي هذه الدعوة بالإخلاص الذي دخلته فيها .

إذاً :

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

معنى ذلك أن الإنسان عليه أن يبقى مستعداً لأية معركةٍ مع الشيطان ، الشيطان لا ييأس ، ولكل طورٍ من أطوار الإيمان شيطانٌ يثبط عزيمة الإنسان ، حتى إذا بلغت قمة النجاح يغريك الشيطان بالغرور ، كل نجاح له مطب ، فيجب أن تكون يقظاً .

كنت أقول : بلوغ القمة صعبٌ جداً ، طريقٌ وعر ، صعب ، التواءات ، حُفَر ، أكمات ، حتى إذا بلغت القمة هناك مطبٌ خطير ـ مطب الغرور ـ والغرور طريقٌ إلى القاع ناعم الملمس ، تنزلق به سريعاً إلى القاع ، فقبل الزواج هناك مطبَّات ، وبعد الزواج ثمة مطبات ، عندك أولاد فثمة مطبات ، لا ولد لك فثمة مشكلة ، رزق وفير مشكلة ، قليل مشكلة ، فـ ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

الإنسان عليه أن يؤمن ، وعليه أن يصون إيمانه ، وعليه أن يجدد إيمانه ، والإيمان يخلَق في جوف بني آدم ، ويهترئ ، فلابدَّ من تجديده ، والتجديد يكون بأن ترفع مستوى طلب العلم ، والتجديد يكون عن طريق المبالغة في الاستقامة ، والتجديد يكون عن طريق العمل الصالح ، أن تزداد علماً ، وأن تزداد انضباطاً ، وأن تزداد عطاءً ، بهذا يتجدد الإيمان ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

الرحمة :

فكلمة (رحمة) كلمةٌ جامعةٌ مانعة ، مطلق عطاء الله أن يرحمك ، يرحمك فيسبغ عليك صحةً ، يرحمك فيملأ قلبك أمناً ، يرحمك فيسمح لك أن تتصل به ، يرحمك فيذيقك من حلاوة القُرْب ، يرحمك فيعطيك الحكمة ، لو تحدَّثت عن الرحمة ساعاتٍ وساعات لا تنتهي منها ، رحمة الله مطلق عطاء الله .

هنا يحضرني ..

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

في شركات عملاقة ، فائضها النقدي يفوق ميزانية مجموعة دول ، فائضها النقدي فقط ..

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

رحمة الله تعني الأبد ، تعني سعادة إلى أبد الآبدين ، رحمة الله تعني جنةً فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، رحمة الله في الدنيا هذا الأمن الذي يناله المؤمن ..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

أي إذا قلت : يا رب ارحمني ، فهو دعاء واسع جداً ، أي يا رب أصلح لي جسدي ، يا رب يسِّر لي رزقي ، يا رب اجعل أهلي على خير ما يرام ، اجعل زوجتي صالحة ، اجعل أولادي أبراراً ، يا رب صلني بك ، ارزقني عملاً صالحاً يقربني إليك ، يا رب تجلى على قلبي ، يا رب أذقني طعم القرب منك ، هذا معنى ارحمني يا رب .

ويقول الله عزَّ وجل :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

(سورة آل عمران)

إلى رحمته ، فأنت تقرأ النعي (إلى رحمته تعالى) ، كلمة فرِّغت من مضمونها ، أي مات فلان ، لا، لا ، لو أنه مؤمن انتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا لكان كذلك ، لأن الدنيا كلها متاعب ، فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ :

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ : مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ : الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

[متفق عليه]

كان عبثًا ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

والقلب قلب النفس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[مسلم]

فالقلب منظر الرب ، وقد ورد في بعض الآثار القدسية : **" أن عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة ؟ " .**

أما يستحيي الإنسان أن يحقد بقلبه على أحد ، والله مطلعٌ على قلبه ؟ يا إخوان الكبائر الباطنة أخطر ألف مرة من الكبائر الظاهرة ، الكِبر مرض قلبي خطير ، العُجب مرض قلبي خطير ، حب الذات مرض قلبي خطير ، أن تتوهَّم أنك أفضل الناس مرض قلبي خطير ..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

(سورة النساء : من الآية 49)

هذا مريض الذي يمدح نفسه باستمرار .

إذاً :

(رَبَّنَا)

دعاء ، وهذا من أدعية القرآن ، وحبَّذا لو جمعنا أدعية القرآن ، حبذا ، ودعونا الله بها ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

الإنسان معرَّض للفتنة في أية لحظة ، يجب أن يكون يقظاً دائماً ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(سورة النساء : من الآية 71)

من الشيطان ، فقد يأتي عن أيْمانهم ..

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

(سورة الأعراف : من الآية 71)

احذر مداخل الشيطان :

هذه موظفة مثلاً يجب أن تهديها إلى الله ، والله الظاهر أن فيها خيرًا ، اقعد معها جلسات طويلة على انفراد ، لعل الله عزَّ وجل يهديها على يدك ، أنت داعٍ ، هذه خلوة ، دع خيراً عليه الشر يربو ، وإن درء المفاسد مقدمٌ على جلب المنافع ، لا مؤاثرة في الخير ، والخير كله في المؤاثرة ، أنا لا أضحي بديني من أجل امرأة ، فعن أيمانهم يوسوس له ، فعل خيرٍ فيه مطب ، فيه شُبهة ، يا نصيب خيري ، وريع هذا اليناصيب للعجزة ، والله شيء جميل ! أدخله باليناصيب ، فدائماً الشيطان إذا رأى الإنسان على الإيمان فتجده أولاً يطمع بالإنسان أن يكفر ، فإن يئس من أن يكفر زين له الشرك ؛ يوهمه أن هناك جهة بيدها كل شيء ، لابد أن ترضيها ، لمستقبلك ولأولادك ، أوهمه أن هذه الجهة ندٌ لله عزَّ وجل ؛ ترفع وتخفض ، وتعطي وتمنع ، وتعاقب وتكرم ، فاتجه إليها ، أغراه بالكفر فلم يستطع ، أغراه بالشرك فأفلح ، لو أن هذا الذي أغري بالشرك كان على توحيد لرماه بمطب ثالث ، يجعله يبتدع ، إنه لابد أن نفعل هذا ، فما فعله النبي ، الدين تام مكتمل ، معنى هذا أن الدين وحي ، والذي أوحى هو خالق الكون ، والله عزَّ وجل لا يمكن أن ينسى شيئاً ، فأية إضافةٍ على الدين اتهامٌ له بالنقص ، وأية حذفٍ منه اتهامٌ له بالزيادة ، فلمجرد أن تفكر أن تضيف شيئاً في عقائد الدين أو في عباداته فأنت متهم له ، وأنت تقول : لقد نقص هذا الدين أن أتممه .

فيدعو أولاً إلى الكفر ، فإن وجده على إيمان دعاه إلى الشرك ، إن وجده على التوحيد دعاه إلى أن يبتدع ، إن وجده على سنة دعاه إلى أن يرتكب كبيرة ، إن وجده على طاعة دعاه إلى أن يرتكب صغيرة ، إن وجده على وَرَع ... فماذا ؟!! لا الكفر جاء عليه ، والشرك ، ولا البدعة ، ولا الكبيرة ، ولا الصغيرة ، الآن يدعوه إلى التحريش بين المؤمنين ، أنت كذا ، وأنا كذا ، والجماعة الفلانية ، يمزق الدين ، يمسك قضية صغيرة جداً يكبرها كثيرا ، ويقيم عليها النكير ، ويقاتل من أجلها ، وهي في الإسلام حجمها صغير جداً ، لأسبابٍ تافهةٍ جداً نتحارب ، نتقاتل ، يطعن بعضنا بعضاً ، يكفر بعضنا بعضاً ، لأنه ترك مصدر علم من جهة ، ومال إلى جهة ثانية ، كفَّره وانتهى ، هذا كله مبالغة ، كله غلوٌ في الدين ؛ أن تأخذ جزئية صغيرة ، وأن تكبرها ، وأن تجعلها هي الدين ، هذا من فعل الشيطان ، فلا الكفر ، ولا الشرك ، ولا البدعة ، ولا الكبيرة ، ولا الصغيرة ، ولا

التحريش بين المؤمنين ، كان واعياً هذا المؤمن ، يدخله في المباحات ، التوسُّع في المباحات حتى تمتص كل وقته ، وحتى يلقى الله صفر اليدين ، هذا ..

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

.. المعاصي والآثام ، و

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

التقدم والحداثة ، والعلمانية، والتطوير ، والمجتمع المنفتح ، والعولمة ، ونحن بعصر العلم مع الاختلاط ، مع الانحراف ، مع التفلُّت ، مع الانحلال ، أو يتمسَّك بتقاليد قديمة جداً بالية تخالف الشرع ، هكذا رباني أبي ، وهكذا علمني ، هكذا نشأت ، على الاختلاط ، من غير محاسبة ، وكل إنسان يأخذ ما راق له من المحل ، فهم إخوة ، حتى يتقاتلوا ، فإما أن تبتدع تقاليد تخالف الدين ، أو أن تبتدع قيما حديثة جداً تخالف الله ، أو

(عَنْ أَيْمَانِهِمْ)

.. من باب الدعوة إلى الله ، أو

(عَنْ شَمَائِلِهِمْ)

.. من باب المعصية ، ولكن لم يذكر القرآن جهةً علويةً ، ولا جهةً سفلية ، يعني أن الطريق إلى الله آمن من الشيطان ، وطريق الامتثال آمن أيضاً ، إن امتثلت إلى الله فأنت في أمان ، وإن أقبلت عليه فأنت في أمان ، واللهُ ذكر أربع جهات :

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

إذاً : الشيطان هو الذي يسعى لإزاغة القلب ، لابد من أن نكون يقظين ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

والله أيها الإخوة ، في قلب المؤمن رحمة ، كلمة رحمة واسعة جداً ، أي فيه طمأنينة ، وأمن ، وراحة، واستسلام لله ، وشعور بالخفَّة ، ليس عليه أثقال كالجبال ، ما ارتكب عملاً سيئًا ، شقي الناس ليسعد ، وافتقر الناس ليغتنى ، لا علاقة له بالمعصية ، ليس ثمة حقوق متعلقة برقبته ، فالقلب فيه راحة ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ

كلمة (وهاب) تعني بلا ثمن ، أي بلا ثمن مكافئ ، أما الثمن فبسيط ، أن تطلب ، أنت عبد فقير ، وضعيف ، ولا تعلم ، إذا أقبلت على الله عزَّ وجل منحك العلم ، منحك القوة ، منحك الحكمة ، فليس

معقولاً أن تقدم طلبًا بإخلاص ، ولجهة في الأرض ، وتقول : أريد أن تعطوني ألف مليون ، وقَّعت ، الألف مليون تأخذها بطلب فقط لا بجهد ، هذا معنى :

(إنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

أنت في الدنيا تجد إنسانًا عنده ثروة طائلة ، هذه بمقابل ، يقول لك : جهد أربع وخمسين سنة عملا في التجارة ، مُتنا مليون موتة حتى حققنا هذه الثروة ، هذه الثروة مقابل جُهْد ، أما ربنا عزَّ وجل فيعطيك عطاء بغير حساب ، مقابل طلب فقط ..

(كلاً نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

ما أنت فيه يعبِّر عن صدقك ، وما لم تصل إليه يعبر عن تمنياتك ، فالله عزَّ وجل لا يتعامل بالتمنيات..

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ)

(سورة النساء : من الآية 123)

أنت تتمنى أن تكون أكبر تاجر ، تمنى أن تكون أكبر غني ، تمنى أن تكون أكبر عالِم ، التمنيات ما لها قيمة عند الله عزَّ وجل ، والدليل :

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء : من الآية 19)

ما قال : وسعى لها ، لا يكفي سعى لها ، بل سعى لها سعيها الخاص ، نجح طالب في الطب ، الطب له علاماته الخاصة ، أما إذا كنت طالبًا فهذه الكلية لها علاماتها الخاصة ..

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء : من الآية 19)

تحتاج إلى صدق ، إلى استثقامة .

ويحضرني الآن كلمة رائعة : أنه ممكن أن تتعلم أمر الله ، أي إنسان ذكي عنده فكر ، وثقافة ، ولغة ، عنده كتب ، ومراجع ، وأجهزة يتعلم الشريعة ، ولو كان غير مسلمٍ ، قد يكون زنديقًا ، قد يكون زانيًا ، قد يكون شارب خمر ، قد يكون مُلحِدًا ، إذا قرأ الكتب ، وفهمها ، واستوعبها ، وحفظها ، وربطها بعضها ببعض يمكنه أن ينجح في الامتحان ، فالعلم بأمره يستدرك بالمدارسة ، والعلم بخلقه يستدرك بالمدارسة ، اختصاص فيزياء ، وكيمياء ، ورياضيات ، وفلك ، وطب ، وهندسة ، وعلم اجتماع ، وعلم نفس ، وتاريخ تربية ، كلها علوم أرضية تحتاج إلى فكر ، وكتاب ، ومدرس ، ووقت ، ودارسة ، ومطالعة ، ولكن العلم بذاته تحتاج إلى مجاهدة ، تحتاج إلى غض بصر ، ضبط لسان ، تحرير دخل ، إنفاق في سبيل الله ، ضبط الهوى ، ضبط العلاقات كله تحتاج لإرادة قوية ، فالإرادة القوية ، والطاعة، والمجاهدة ثمن معرفة الله عزَّ وجل ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

لو أن إنسانًا زاغ قلبه ، وانحرف سيره ، وغرق في الدنيا ، وجمع من الأموال المبالغ الطائلة ، ثم ماذا؟ جمع ألف مليون دولار ، (بيل غيتس) معه رقم فلكي قريب بالمليارات ، ثمانون أو تسعون مليار دولار ، ثم ماذا ؟ ثم الموت ، وصلت إلى أعلى منصب في الأرض ، ثم ماذا ؟ إلى الموت ..

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيه

(رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

1- ثم ماذا إلا الموت ؟

فإذا شرد الإنسان ، وأراد الدنيا فقط ، وأعرض عن الآخرة ، فماذا ينتظره ؟ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا ، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي]

في المطارات بوابات ، يقول لك : البوابة رقم كذا ، وكل واحد منا له بوابة يخرج منها من الدنيا إلى الآخرة ؛ هناك بوابة حادث سير ، وبوابة مرض قلب ، وبوابة مرض خبيث ، ولابد من الخروج من إحدى هذه البوابات ، وهي مرض الموت ، فالموت مصير كل إنسان ، فـ ..

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ(8)رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ)

2 - الناس مجموعون ليوم عظيم :

حتمية هذا الجَمْع ..

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(6))

(سورة المطففين)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه (19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه (28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه (29)

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقّة)

هذا يوم القيامة ، يا إخواننا الكرام ، إذا آمنا به إيماناً حقيقياً ، والله أكاد أقول لكم : لا ننام الليل سعياً لهذا العطاء الإلهي الأبدي السرمدي .

إنّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا

فهؤلاء الذين زاغت قلوبهم ، وانصرفوا إلى الدنيا ، وجمعوا أموالاً طائلة ، وربَّوْا أولادهم تربية حديثة ، يحمل ابنه أعلى الشهادات ، يسكن في أجمل بيت ، يتزوج من أجمل امرأة ، ابن متفلّت ، لكن بمنصب رفيع جداً ، معه شهادات عليا ، قال :

(إنّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا)

أن يكونوا أعلاماً في الدنيا فقط ، فالأب لا ينتبه إذا صلى ابنه ، أو لم يصل ، ينتبه إذا نجح ، أو ما نجح ، يهمه نجاح ابنه ، دخل ابنه ، زواج ابنه ، تهمه الأشياء المادية فقط ، ليتباهى بها ، وأكثر النساء يهمهن أنهن اخترن زوجة جميلة لابنها ، من عائلة ، بنت عائلة ، وأهلها أغنياء فقط ، أما أنها محجَّبة أو سافرة ، فليس هناك مشكلة ، فهؤلاء الذين جمعوا أموالا طائلة ، وكان أولادهم في أعلى مراتب التفوّق في الدنيا ، فهؤلاء ..

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّار)

سيدنا عمر بعد أن طُعِن ، وبعد أن صحا قال : هل صلى المسلمون الفجر ؟ أين هو وأين الناس ؟! طُعِن ، وعلى وشك الموت ، ما الذي أقلقه ؟ صلاة المسلمين ، أنت راقب ؛ دخلت البيت فتقول لزوجتك: أكل الأولاد ؟ كتبوا وظائفهم ، ما سألتها : هل صلوا ؟ ما أدخلت الصلاة في حساباتك ، كتبوا وظائفهم ، وأكلوا ، وناموا ، أما لو كنت تحرص على مستقبلهم الأخروي لسألتها : هل صلوا العشاء ؟

سيدنا عمر سأل : هل صلى المسلمون الفجر ؟

إذاً ..

(إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

هؤلاء الذين زاغت قلوبهم ..

(لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّار)

خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها همًّا :

خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هماً ، ومَن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه ، وهو لا يشعر ، تدخل محل بيع ضخمًا جداً ، ودخلت امرأة إلى المحل ، فقال : يا إلهي كم هي الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان !! نحن أُثقِلنا بما يسمى بمجتمع الاستهلاك ، نحن نقيس الفقر والغنى بالأشياء الثانوية، الحاجات الأساسية مؤمَّنة ، فتكفي الإنسان لقمة تملأ جوفه ، وبيتٌ يؤويه ، وقد سأل ذات مرة ملكٌ وزيرَه :

ـ من الملك ؟

ـ فقال له : أنت هل هناك غيرك ؟ .

ـ قال له : لا ، الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا ؛ له بيتٌ يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ورزقٌ يكفيه ، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا ، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه .

فإذا كان للإنسان بيت يؤويه ؛ صغير ، كبير ، مِلك ، أجرة ، المهم معه مفتاح بيت ، مساءً له غرفة ينام فيها ، وله رزقٌ يكفيه ، عنده وجبة طعام فهذا يكفي ، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ :

((يَا عَائِشَةُ ، هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ ، قَالَ : فَإِنِّي صَائِمٌ ، قَالَتْ : فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ ، أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ ، قَالَتْ : فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ ، أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ ، وَقَدْ خَبَأْتُ لَكَ شَيْئًا ، قَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْتُ : حَيْسٌ ، قَالَ هَاتِيهِ ، فَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَ ، ثُمَّ قَالَ : قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا))

[مسلم ، أبو داود ، النسائي ، أحمد]

له بيتٌ يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ورزقٌ يكفيه ، هذا ملك من ملوك الدنيا ، ليس ثمة حقوق متعلقة به ، ولا أشخاص شقوا من أجله ، فيمكن للإنسان أن يبني مجده على شقاء الآخرين ، ويبني حياته على موتهم ، ويبني غناه على فقرهم ، ويبني أمنه على خوفهم .

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

سنة الله في خلقه ؛ فأي إنسان أعرض ، وانحرف يعاقبه ، ويهلكه .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(05-60): تفسير الآيات 10 - 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-12-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الحادية عشرة ، والتي قبلها ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ(10)كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ)

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

1 ـ الدأب :

أي كعادة أهل فرعون ، الدأب هو العادة والشأن

2 ـ عادة فرعون تكذيب الأنبياء ، وعادة الأقوياء والأغنياء تكذيب الدعاة إلى الله :

عادة فرعون تكذيب الرسل ، وعادة الأقوياء والأغنياء الشاردين عن الله تكذيب أيَّة دعوةٍ صادقة ، لأن حياتهم مبنيةٌ على شهوات ، والدعوة الصادقة فيها منهج ، فيها افعل ، ولا تفعل ، فأية دعوة صادقة من عند الله عز وجل فيها حَدٌ لشهواته ، وحدٌ لعدوانهم ، وحدٌ لبغيهم ، وحد لتطاولهم ، فشيء طبيعيٌ جداً أن القوي أو الغني يعيش حياةً مترفة ، وهذه الحياة المترفة ليست وفق منهج الله ، منهج الله فيه عدلٌ ، من أروع ما قيل في الشريعة : **" إنها عدل كلها ، مصلحة كلها ، رحمة كلها ، حكمة كلها ، وأية قضية خرجت من العدل إلى الجور ، ومن الرحمة إلى القسوة ، ومن الحكمة إلى خلافها ، ومن المصلحة إلى المفسدة ، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل " .**

منهج الله يحقق العدل للبشر ، يمنع الظلم ، يمنع التطاول ، يمنع الكبر ، فالأغنياء والأقوياء الشاردون عن الله عز وجل من شأنهم ، ومن طبيعتهم الفاسدة ، ومن عاداتهم المتوارثة أن يردوا الحق ، وأن يكذبوا ، ومن شأن الله معهم أن يدمِّرهم ، شأنهم التكذيب ، وشأنه معهم التدمير ، هذا معنى :

(كَدَأْبِ)

العادة والشأن ..

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

حينما جاء النبي عليه الصلاة والسلام ، مَن الذين آمنوا به ؟ الفقراء والضعاف ، أما أقوياء قريش فاستكبروا ، واستنكفوا ، واستَعْلَوا .

عادة الله مع المكذبين القصم والهلاك :

وعادة الله مع هؤلاء :

(فَأَخَذَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

آية واضحة كالشمس ، فشأن الأقوياء والأغنياء التكذيب ، وشأن الله معهم الإهلاك .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ

أما هذه الآية التي بعدها :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

1 ـ الكافر مهما بلغ من القوة فهو مغلوب :

مهما علوا ، مهما تغطرسوا ، مهما اشتدوا :

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت : من الآية 15)

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى(50))

(سورة النجم)

معنى ذلك أن ثمة عادًا ثانية ، ونحن نعيشها الآن ، تقول عاد الثانية :

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت : من الآية 15)

سياسة الخارجية كسياسة الداخلية ، أملي أوامر ، إن ذهب أحدٌ إلى هذه البلاد يقول : لم يخلق مثلها في البلاد ، أموال الدنيا كلها فيها ، بلاد بنيت بناءً تامًا ، مرافقها من أرقى المرافق ، صناعتها ، زراعتها ، جمال بلادها ، وفرة الأموال ..

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ(8))

(سورة الفجر)

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(128))

(سورة الشعراء)

عاد الثانية كعاد الأولى ، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون ، وإذا بطشوا بطشوا جبَّارين ، خمسمئة طفل يموتون من الجوع كل عام ، جوعاً ومرضاً ، ولا يرحمون ، وكيف هلاكهم ؟ بالأعاصير ..

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(7))

(سورة الحاقة)

كأن هذا شأن الأقوياء والأغنياء ، وشأن الله معهم أن يهلكهم ، وأن يدمرهم ، ولكن الأحمق يظن حينما يكون الحبل مرخًى ، يظن أنه طليق ، أما هو ففي قبضة الله ، في أية لحظة يدمره الله عز وجل ، والدليل :

(إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ)

(سورة يونس : من الآية 24)

والله الأرض الآن في زينة ما بعدها زينة :

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس : من الآية 24)

يقول لك : البلد الفلاني عنده قنابل تدمر الأرض خمسة مرات ، القارات الخمس ، قنابل نووية ..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس : من الآية 24)

أي قادرون عليها استطلاعا ؛ فأيّ بقعة تصور ، أنا اطّلعت على مجلةٍ مدهشة ، الأرض كلها في صوِّرت من القمر ، على هذه الصورة مربعٌ صغيرٌ جداً ، لما كُبِّر ظهرت أمريكا الشمالية ، وعلى هذه الصورة مربع صغير جداً ، لما كُبِّر ظهرت ولاية فلوريدا ، وعلى هذه الصورة مربع صغير جداً ، لما كبر ظهر ساحل من سواحل فلوريدا ، عليه نقطة سوداء ، لما كبرت ظهر مرج أخضر، وشخص مستلقٍ على قماش ، ويقرأ رواية ، وإلى جانبه صحن فيه فواكه ، هذه الصورة من المركبات الفضائية..

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس : من الآية 24)

استطلاعاً ، وتدميراً ، يقول لك : من مكان بعيد ، من قارة أخرى يأتي الصاروخ في غرفة النوم ، دقة إصابة مذهلة :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس : من الآية 24)

2 ـ الله تعالى يطمئن المؤمنين :

فربنا عز وجل يطمئن المؤمنين ؛ مهما رأيت الباطل مستعلياً ، مهما رأيته متمَكّناً ، مهما رأيته قوياً ، والله في بلاد فيها أسلحة لا يصدق العقل حجمها ، ومع ذلك تداعت من الداخل ، وانهارت من الداخل ، وانهيارها والله معجزة ، معجزة من معجزات الله عز وجل ، وقد قال بعضهم : **"عرفت الله من نقض العزائم "** ، وكل أمة استعلت لابد من أن تذل ، لكن ..

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

(سورة يونس : من الآية 46)

قد نشاهد ، وربما لا يتاح لنا أن نشاهد ، وقد نشاهد ، وربما لا يسمح عمرنا أن نشاهد ، ولكن الله يمهل ، ولا يهمل .. وقوله تعالى :

(وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ(59))

(سورة الأنفال)

معنى

(سَبَقُوا)

أنهم فعلوا شيئاً ما أراده الله ، أو تفلتوا من عقاب الله ، مستحيل ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن يفعل الكافر شيئاً ما أراده الله ، إن خطة الله تستوعب خطة الكافر ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن يتفلّت الكافر من عقاب الله ، لن يسبق الله عز وجل ، لذلك ربنا يطمئن المؤمنين :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

3 ـ الإسلام دين الله ، فكن من أنصاره :

أنت حينما تتصوَّر كفَّار قريش ، وهم أقوياء عتاة ، أما المؤمنون فضعاف مستضعفون فقراء ، ومع ذلك حينما فتح النبي عليه الصلاة والسلام مكة المكرمة ، وقد ناصبته قريش العداء عشرين عاماً ، ينكّلون بأصحابه ، وأرادوا استئصاله ، فكانت معركة الخندق معركة وجود ، بقي للإسلام ساعات وينتهي ، ولكن لا تقلق على هذا الدين ، إنه دين الله ، اقلق على شيءٍ واحد ؛ أن الله سمح لك أن تتشرف بنصرته ، أو لم يسمح لك ، فقط ذلك ، إنه دينه ؛ فإذا شاء نصره بالرجل الفاجر ، وإذا شاء سخَّر أعداءَه لنصرته دون أن يشعروا ، لأنه دينه ، فقلقك لا ينبغي أن يكون على سلامة هذا الدين ، إنه دين الله ، ولكن من حقك أن تقلق أن الله سمح لك أن تنصره ، سمح لك أن تدلي بدلوٍ في نصرته ، سمح أن تكون داعيةً له ، سمح أن تكون قوةً له ، هنا القلق ..

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ)

فأنت حينما ترى لعبة سيارات كهربائية ، كلكم تعرفونها ، وهؤلاء الصغار يتطاحنون ، ويضرب بعضهم بعضاً ، الذي بيده قطع التيار الكهربائي ، إذا فعل هكذا ، فكلّ السيارات تقف ، وكذا - ولله المثل الأعلى - في لحظة ينهي الله عز وجل كل شيء ، فيكون مصير هؤلاء العتاة ..

(إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(29))

(سورة يس)

صيحة واحدة فينتهون ، إعصار واحد دمر ما مقداره ثلاثين مليارًا ، إعصار واحد بشرق أمريكا بنيوجيرسي كلفة دماره ثلاثون مليار دولار ، إعصار من عند الله مباشرة ، فالله عز وجل عنده وسائل لا تعد ولا تحصى ، أحياناً يلقي الرعب في قلب الكافر من الداخل ، أحيانا خطأ بسيط يدمِّر ما صنعه .

قصص قرآنية تبعث الأمل :

1 ـ موسى مع فرعون :

سيدنا موسى مع بني إسرائيل كانوا قلة قليلةً مستضعفة ، شرذمة قليلين ، وفرعون وما أدراك ما فرعون ؛ بقوته ، وطغيانه ، وجبروته وراءهم ، والبحر أمامهم ، بالحسابات الأرضية لا أمل أبداً ، مقتولون جميعاً ، و ..

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ(62))

(سورة الشعراء)

2 ـ يونس في بطن الحوت :

وهذه قصة سيدنا يونس لا لأخذ العلم ، بل من أجل أن تؤمن بها ، سيدنا يونس كان في بطن الحوت ، ما من مصيبةٍ على الإطلاق أشد من أن تجد نفسك فجأة في بطن حوت ، في ظلام بطن الحوت ، وفي ظلام الليل ، وفي ظلام أعماق البحر ، نبيٌّ كريم يجد نفسه فجأة في بطن حوت في ظلماتٍ ثلاث ..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

في أي مكان ، وفي أي زمان ، وفي أي ظرف ..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

قصة من الواقع :

والله هناك قصة سمعتها قبل أن آتي إليكم ، يقشعر لها البدن : سائق تاكسي ، استوقفه شخص فقير ، وشبه عاجز ، قال له : إلى أين ؟ قال له : إلى أقصى جادة في الجبل ، وما معي درهم أعطيك إيَّاه ، قال له : حاضر ، أوصله إلى آخر جادة ، فلما نزل من مركبته ، أقبل عليه أولاده ، وسألوه : أجئتنا بالخبز يا أبت ؟ قال : والله ما جئت بالخبز ، استحييت من السائق أن أوقفه ، فالسائق أراد أن يكمل معروفه ، فنزل إلى جادة في الأسفل ، واشترى خمس ربطات وذهب إليه ، أعطاه الخبز ، يقسم بالله من شدة جوع أولاده التهموا نصف الخبز في دقائق ، من جوعهم ، ونزل ، استوقفه سائحان قالا له : خذنا إلى المطار ، فأخذهما إلى المطار ، ونقداه ألفين وخمسمئة ليرة ، والتسعيرة خمسمئة ليرة ، وهو في المطار جاءه سائحان آخران طلبا أن يوصلهما إلى فندق في دمشق ، أعطوه مئتي دولار ـ عشر آلاف ـ فرجع إلى هذا البيت ، واشترى لهم ما لذ وطاب من الفواكه ، والحلويات ، واللحوم ، مع مبلغ من المال ، قال له : كل هذا الرزق بسببك ، لأنني خدمتك .

لكن الناس تصحَّروا الآن ، لا يتحرك إلا بمال ، فكلما قل الخير تخلى الله عنا ، هذا تشجيع من الله ، أنت أوصلت عاجز إلى آخر جادة ، أردت أن ترحمه ، بعد ذلك أمَّنت له خبزًا ، هذا وقت، ومال ، وبنزين ، الله عز وجل أراد أن يكافئك مباشرةً ، أكثر من اثنتي عشر ألف ليرة في يوم واحد مقابل هذه الخدمة ..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

آيات الله :

الآن ، قال الله عز وجل :

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الروم : من الآية 22)

الآية العلامة الدالة على شيء ، فمن علامات خلق الله عز وجل ؟

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الروم : من الآية 22)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت : من الآية 37)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

(سورة الروم : من الآية 21)

وأضيف إلى هذه الآيات آية فريدة من نوعها ، قال تعالى :

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا)

الآن دقق كيف أن الشمس آية ، والقمر آية ، والليل آية ، والنهار آية ، ونحن المسلمين في أمسِّ الحاجة لهذه الآية ..

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ

1 ـ القرآن قوة في البلاغة :

في البلاغة لون رائع مطبَّق في هذه الآية ، فهو يذكر شيئاً ، ويحذف ما دل عليه في الثاني ، ويذكر شيئاً في الثاني ، ويحذف ما دل عليه في الأول ، فيقولون : البلاغة في الإيجاز ، فأصل الآية : قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وفئة كافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، أواضح ذلك؟ فقال :

(فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

لما قال :

(وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

معنى ذلك أن الأولى مؤمنة ، فالبلاغة في الإيجاز ، والثانية قال :

(كَافِرَةٌ)

ما قال : تقاتل في سبيل مَن ، ما دام الأولى في سبيل الله ، إذاً الثانية في سبيل الشيطان ، البلاغة في الإيجاز .

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

2 ـ بمقاييس الأرض النصر مستحيل في هذه المعركة :

بمقاييس الأرض النصر مستحيل ، بمقاييس العَدَد ، والعُدَد ، والتدريب ، والأسلحة ، والمدى المُجْدي ، والأقمار ، والإعلام ، والتوجيه المعنوي ، المعركة خاسرة بمقاييس الأرض المعركة ، لماذا كانت هذه آية ؟ لأن هذه الفئة القليلة ، الضعيفة ، المستضعفة غلبت فئةً كثيرةً قوية عاتية

متمردة ، آية من آيات الله ، فبحسب قوانين الأرض لا يعقل لدراجة أن تسبق مركبة ، ولا يعقل لطفلٍ أن يقاوم جماعة ، لكن إذا كان الله معك فمَن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ؟!

هناك مَثَل واقعي من حياتنا اليومية ، هذه الدولة الصغيرة بمليوني شخص ، لماذا تتحدى كل الشرق الأوسط ؟ لأن معها أكبر دولة ، تتحدى مَن حولها لا بقوتها الذاتية ، بل بدعم أكبر قوة في العالم ، إذاً أنت قوي بالله ، لو استعنت بالله أعانك ، وإذا استنصرت به نصرك .

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ)

النصر الاستحقاقي ، والنصر التفضُّلي ، والنصرٌ التكويني :

لذلك قال العلماء : هناك نصرٌ استحقاقي ، ونصر تفَضُّلي ، ونصرٌ تكويني ...

الاستحقاقي :

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : من الآية 249)

كما انتصر المسلمون في بدر ، قلة قليلة ، ألف مقاتل على ثلاثمئة راحلة ، بلا عُدَد ، ولا خيول مسوَّمة ، ولاهم يحزنون ، واجهت أكبر قوة في قريش وانتصرت.

وأما النصر التفَضُّلي فربما لا تكون على الحق مئة بالمئة ، ولكن حكمة الله اقتضت أن تنتصر ، كما انتصر الروم على الفرس ، قال تعالى :

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3)فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

(سورة الروم)

أما النصر التكويني فكلا الطرفين لا إيمان له بالله ، ينتصر الأقوى ، فالهليكوبتر مدى مدفعها سبعة كيلو مترات ، وطائرة واحدة تدمر مئة دبابة ، لأن سلاحها يصل إلى المدرعة ، والمدرعة سلاحها لا يصل إلى الطائرة ، انتهت العملية ، فالقضية تكنولوجيا ، قضية حرب بين عقلين ؛ العقل الأرجح والأذكى والأقوى ينتصر ، ففي النصر الاستحقاقي يكون الله مع المؤمنين ، وفي النصر الثاني حكمة الله اقتضت أن ينتصر الأول ، على شيءٍ من الحق ، أما الثالث ؛ النصر التكويني فالنصر للأقوى ، لذلك قالوا : الحرب بين حقين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدد ، وبين حق وباطل لا تطول ، لأن الله مع الحق ، وبين باطلين لا تنتهي ؟

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ

إذاً : هذه الآية تملأ نفوس المؤمنين ثقة ، أن الله يتدخل ، من هنا أمرنا أن نعد لهم ما استطعنا ، قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال : من الآية 60)

آيتان تحددان عوامل النصر :

هناك آيتان في القرآن الكريم كافيتان لتحديد عوامل النصر ، قال تعالى :

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(47))

(سورة الروم)

والآية الثانية :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال : من الآية 60)

وأروع ما في الآية الثانية أن الله ما كلّفنا أن نعد العُدَّة المكافئة ، لا ، لا ، فقد كلفنا أن نعد القوة المتاحة لنا فقط ، لو أننا عرفنا ربنا ، وعرفنا معاني كتابنا ، واصطلحنا مع الله ، والله الذي لا إله إلا هو فهذه العجرفة ، والغطرسة ، والإجرام من أعدائنا اليهود - قاتلهم الله - لا تكون ، فنحن ابتعدنا عن ديننا ، وابتعدنا عن شرعنا ، ولم نقرأ كتابنا ..

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال : من الآية 60)

غيِّر ما في نفسك يغير الله واقعك :

لو أننا آمنا بالله ورسوله الإيمان الذي يليق بنا ، وأعددنا القوة المتاحة ، واستعنا بالله ، لانتصرنا على أعدائنا ، فلا سبيل إلا أن نعود إلى الله ، ولا سبيل إلا أن نصطلح مع الله ، ولا سبيل إلا أن نُغَيِّر ، ولكن الذي يدهش أن المسلمين في آخر الزمان ليسوا مستعدين أبداً أن يغيروا ، ولكنهم ينتظرون من الله أن يغيِّر ، وهذا مستحيل ، هم ليسوا مستعدين أن يغيروا ؛ لا من دخلهم ، ولا من إنفاقهم ، ولا من استمتاعهم بالحياة ، ولا، ولا ، ولا ، ولكنهم ينتظرون من الله أن يغير قوانينه ، وهذا مستحيل ، فالناس امتنعوا في بعض البلاد عن شراء بعض البضائع التي تنتمي لبلاد تعادي المسلمين ، ترك هذا أثراً كبيراً ، أطمئنكم ترك هذا أثراً كبيراً ، حتى إن بعض المؤسسات الغذائية الضخمة التي لها فروع في كل أنحاء العالم ، خصصت لكل شطيرةٍ تباع مبلغاً لأبناء الأرض المحتلة ، شركة من بلد تعادي المسلمين ، حرصاً على مصلحتها ، فقد توقفت المبيعات ، هذا متاح

لكل مسلم ؛ أن يمتنع من شراء بضاعة تنتمي لدولة معادية فقط ، لست مسؤولاً ، وليس ثمة مشكلة ، ولا أحد يحاسبك ، فقط أريد بضاعة من بلاد أخرى .

أنا قرأت في موقع معلوماتي كيف أن هذه الشركة الضخمة التي لها مبيعات فلكية في دول الخليج هبطت مبيعاتها إلى رقم لا يذكر ، فاضطرت أن تعلن أن كل شطيرةٍ تباع كذا (سنت) إلى أبناء فلسطين ، تشجيعاً للناس على أن يعودوا لشراء هذه الشطائر ، المسلم يملك كل شيء ، لكنها تحتاج إلى إيمان ، وشيء يحتاج إلى وعي ، وشيء يحتاج إلى أن تؤثر الآخرة على الدنيا .

على كلٍ ..

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ)

معنى ذلك أن انتصار الضعفاء من آيات الله الدالة على عظمته ، والضعيف عنده أسباب القوة ، وقد تَكْمُن القوة في الضعف ، فنحن ولو افتقرنا إلى بعض مقومّات القوة إيماننا يهبنا قوة .

أيها الإخوة الأكارم ... الآية الثانية مهمة جداً ، وهي أصل في تركيب النفس ، وهي قوله تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

لأهمية هذه الآية سأرجئها إلى الدرس القادم .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(06-60): تفسير الآية 14
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-12-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة عشرة ، وهي قوله تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

1 ـ زُيِّنَ لِلنَّاسِ

زُيِّنَ للناس ، الناس في القرآن تعني عامة البشر ، وإذا أراد الله أن يخاطب الناس عامة خاطبهم بأصول الدين ، أما إذا خاطب بفروع الدين فيخاطب بها المؤمنين ، لأن تطبيق فروع الدين يحتاج إلى الإيمان بأصول الدين ، فيخاطب الناس عامة بأصول الدين ، ويخاطب المؤمنين خاصة بفروع الدين ، وإذا كان الشيء قاسمً مشتركًا بين جميع الخلق تأتي كلمة الناس ..

(زُيِّنَ)

فما من إنسانٍ على وجه الأرض إلا وقد أودِعَت فيه هذه الشهوات .

2 ـ مَن هو المُزَيِّن ؟

سؤال : من هو المزين ؟ قال بعض العلماء : إنه الله ، بدليل قوله تعالى :

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا)

(سورة الكهف : من الآية 7)

وبعضهم قال : المُزَيَّن هو الشيطان ، لأن الشيطان يزين للإنسان سوء عمله ، وبعض العلماء قال : هذه الشهوات التي أودعها الله فينا ، والتي هي في أصل جبلّتنا من تزيين الله لنا ، أما حينما يُزيَّن لنا أن نعصي الله بها فهذا من الشيطان .

الشهوات حيادية :

الآن ننتقل إلى موضوع آخر ، إذاً : الشهوات حيادية ؛ يمكن أن توظَّف في الخير أو في الشر ، في الطاعة أو في المعصية ، يمكن أن تكون سلّماً نرقى به ، أو دركاتٍ نهوي بها ، يمكن أن تتزوج ، وقد لبَّيت نداء هذه الشهوة ، وأن تنجب أولاداً ، وأن تربي هؤلاء الأولاد ، وأن يكونوا أعلاماً في المجتمع ، وأن ترقى في الجنة بهم ، فكل هذا الخير جاءك من الزواج ، وأصل الزواج شهوةٌ نحو المرأة
.

يمكن أن تكسب المال ، وأصل كسب المال شهوةٌ للمال ، لكنك كسبته من طريقٍ مشروع ، وأنفقته في وجهٍ مشروع ، فارتقيت به إلى أعلى عليين .

إذاً : أصل الجبلّة ، أصل التزيين من الله عزَّ وجل ، لكن الله زيَّن ورسم منهجًا ، قال لك : أودعت فيك حب المرأة ، فتزوج ، الكافر أودع فيه حب المرأة ، فزنى ، المؤمن أودع فيه حب المال ، فكسبه من طريقٍ مشروع ، غير المؤمن أودع فيه حب المال ، فسرقه ، إذاً أصل التزيين من قِبَل الله عزَّ وجل .

هذا ينقلنا إلى أنه لولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات ، لولا أنك تشتهي لا ترتقي إلى الله ، لأنك تشتهي ترتقي إلى الله مرتين ، مرةً بامتناعك عن شهوةٍ حرام ، ومرةً بممارسة شهوةٍ حلال ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ ، قَالَ : أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا))

[مسلم ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد]

فالشهوة إذا مورست بالطريق المشروع ترتقي بها .

التناقض بين الطبع والتكليف ثمن الجنة :

التناقض بين الطبع والتكليف ثمن الجنة ، ركِّب في طبعك حب المرأة ، فغضضت البصر عن امرأةٍ لا تحل لك ، ترتقي ، لولا أنك تحب هذه المرأة ، وأن تنظر إليها ، لما ارتقيت بغض البصر عليها ، لولا أنك تشتهي المال لا ترتقي بترك المال الحرام ، وقد تركل بقدمك مئات الألوف فيها

شبهة ، إذاً لولا هذه الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات ، إنها سُلَّمٌ إلى الله ، هي في الوقت نفسه دركاتٌ إلى النار ، إن انطلقت بدافعٍ منها ، فمارستها بطريقٍ غير صحيح ، كانت دركات إلى النار .

إذاً : هي كما أقول دائماً : كالوقود السائل في السيارة ؛ إذا أودع في المستودعات المحكمة ، وسال في الأنابيب المحكمة ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ولَّد حركةً نافعة ، فإن خرج عن مساره دمَّر المركبة ومَن فيها ، الوقود السائل خطر فيه قوة انفجار ، فإما أن توظِّف هذا الانفجار في تحريك هذه المركبة ، فتنتفع بحركتها ، وإما أن توظِّف هذا الانفجار في تدمير هذه المركبة ، وهكذا الإنسان ؛ إما أنه مدمَّر بالشهوات ، أو أنه ينتفع بها إلى أقصى درجة .

فحب المال دفع رجلاً من بلد عربي مقيمًا في أمريكا إلى المقامرة ، يملك مليوني دولار ، خسرها في جلسةٍ واحدة ، فذهب إلى بيته ، وأطلق النار على زوجته ، وخنق أولاده الثلاثة ، ثم انتحر ، هذه شهوة، ما الذي دفعه إلى القمار ؟ حب المال ، معه مليونان من الدولارات ، إذاً : الشهوات ليس لها حل وسط ، إن وظَّفتها في الحق ارتقيت بها ، وإن مارستها بلا منهج كانت دماراً عليك ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ)

(سورة القصص : من الآية 50)

المعنى المخالف : أنه من اتبع هواه وفق هدى الله عزَّ وجل فلا شيء عليه ..

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ)

كيف ترقى إلى الله ؟

كيف ترقى إلى الله ؟ لا تحب المرأة ، ولا المال ، ولا العلو ، ولا الجاه ، ولا شيء ، فكيف ترقى ، امسك الآن قبضةً من رمل ، وأعطها فقيرًا ، هل ترقى ؟ ما لها قيمة عندك ، أما إن أعطيته ألف ليرة ، وأنت في أمسِّ الحاجة إليها ، وهذه الألف ليرة تحل مشكلات كثيرة معك ، فأنفقتها في سبيل الله حينئذ ترقى ، وإن رأيت مثلاً شابة صغيرة ، وغضضت البصر عنها ، هل ترقى إلى الله ؟ لأنها غير محببة لك ، أما حينما تغض بصرك عن امرأةٍ جميلة لا تحل لك ترقى إلى الله ، لولا أنك تحب المرأة ، وتحب المال ، وتحب العلو في الأرض لما ارتقيت بطاعة الله ، إذاً : هذا التناقض بين التكليف وبين الشهوات هو ثمن الجنة ..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6))

(سورة الليل)

اتقى أن يعصي الله ..

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(41))

(سورة النازعات)

أنت في الطريق متاحٌ لك أن تعبد الله آلاف المرات دون أن تشعر ، كلما وقعت عينك على امرأة لا تحل لك ، فغضضت عنها البصر ، ارتقيت ، الله أعطاك أدوات الاتصال به ، لو فرضنا أن الأمور كلها بيد شخص ، يملك كل الأمور ، وما سمح لك أن تصل إليه ، لا تنتفع به ، الله عزَّ وجل عنده كل الخير ، لكن جعل لك وسائل ترقى إليه ، أودع فيك الشهوات كي تضبطها وفق منهج الله فترقى إلى الله، فهذه المرأة مثلاً ، طبعاً أهون عليها ألف مرة أن ترتدي ثياباً خفيفة في الصيف ، ثياب شفافة خفيفة مريحة تظهر مفاتنها ، هي ترتدي ثيابًا فضفاضة ، وسميكة ، وتستر وجهها ، وتستر خطوط جسمها ، من أجل أن ترضي ربها ، إذاً : هي عاكست رغبتها في التخفيف ، والإنسان يحب التخفيف من الثياب في الصيف ، إذاً : هي تمارس عبادة اسمها الحجاب ، تسهم هذه العبادة في إعفاف الشباب ، والمرأة المؤمنة حينما تتحجب فهي تعبد الله ، بل إن كل مساحة من ثيابها تتعلَّق بدينها ، كل مساحة ؛ سماكة الثوب ، حجم الثوب ، اتساع الثوب ، لون الثوب ، كل شيء بهذه الكلمات عبادة لله عزَّ وجل . فحينما تريد أن تصل إلى الله فقد رسم لك آلاف الطرق ؛ غض البصر وحده طريقٌ إلى الله سالك ، حجاب المرأة وحده طريقٌ إلى الله سالك ، امتناعك عن المال الحرام طريقٌ إلى الله سالك ، أخذك المال الحلال القليل ، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعل الله كسب المال الحرام سهلاً ، وجعل كسب المال الحلال صعباً ، لو أن المسألة كانت معكوسة لا نرقى إلى الله ، فلو كان الحرام صعبًا جداً ، والحلال سهلاً لعزف الناس عن الحرام ؛ لا خوفاً من الله ، ولكن لأن ذلك أكثر اطمئنانًا ، وطلباً للراحة ، ولأقبلوا على الحلال ، فتعمل المرأة طوال اليوم بأربعمئة ليرة ، تأتي امرأةٌ بغي تأخذها في دقائق ، عمل ثماني ساعات بأربعمئة ، تأخذها بغيٌ في دقائق ، فلحكمةٍ بالغةٍ بالغة جعل الله المال الحلال صعب الكسب . ضع مالك في مصرف ربوي ، وأنت مرتاح ، إذا كان المبلغ كبيرًا فدخله وحده يكفيك طوال حياتك دون عمل ، لكنه حرام ، فلابد أن تفتح متجرًا ، وأن تشتري بضاعة ، وأن تبيع ، وأن تديّن ، وأن تجمع الديون ، وهذه أعمال صعبة ، فلأن المال الحرام سهلٌ كسبه ، ومحببٌ للنفس كسبه ، وأهون على النفس كسبه ، ولأن المال الحلال صعبٌ كسبه ، يأتي المؤمن فيختار الأصعب ، فيرقى إلى الله :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : من الآية 92)

حينما تمتنع عن دخلٍ حرامٍ سهلٍ ، وتعمل عملاً شاقاً من أجل كسب مالٍ حلال ، ترقى إلى الله ، إذاً حينما تفهم أن هذه الشهوات لولاها لما كانت جنة ، وليس هناك شيء اسمه جنة لولا هذه الشهوات ، هذا الإنسان رُكِّب من شهوةٍ وعقل ، فإن غلبت شهوته عقله أصبح دون الحيوان ، وإن غلب عقله شهوته أصبح فوق الملائكة ، إذاً لا تقل كما يقول بعض الشعراء الجهلة :

يا رب خلقت الجمال فتنة وقلت : يا عبادي اتقون !

* * *

طبعاً خلقه فتنة كي تنجح في هذه الفتنة ، لا كي ترسب ، وما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تَدَع شيئاً لله ثم لا تعوَّض خيراً منه ، عوَّضه الله خيراً منه في دينه ، بقي الطريق إلى الله سالكاً ، وجاءته الدنيا وهي راغمة ، ثم إن هناك حقيقة ، وهي أنه ما كان الله ليعذب قلباً بشهوةٍ تركها صاحبها في سبيل الله ، لا يعذبك بها ، ينزعها من نفسك إكراماً لك ، فإذاً أصل التزيين من الله .

لأحد الأئمة رأيٌ رائع : إن أقبلت على هذه الشهوات من طريقها المشروع أحببتها لذاتها ، دون أن تخرج عن منهج الله ، ولا شيء عليك ، أما طبيعة النفس فتحب الطعام الطيّب ، والمسكن الواسع ، والمرأة الجميلة ، فأنت أحببت هذه وفق منهج الله ، لم تَحِد عن منهج الله ولا خطوة ، وهي مباحة ، ولا شيء عليك ، لكن لا أجر فيها ولا وزر ، أما حينما تستعين بها على طاعة الله ، وحينما تكسب المال من أجل أن تنفقه في سبيل الله ، وحينما تتزوج من أجل أن تنجب أولاداً صالحين يكونوا دعاةً إلى الله من بعدك ، وحينما تسعى إلى مرتبةٍ علمية كي تدل الناس على الله ، أصبحت هذه الشهوات عبادةً من العبادات وأجراً .

لذلك قالوا : عادات المؤمن عبادات ، وعبادات المنافق سيئات ، حينما تأكل وتسمِّي الله على الأكل ، تسمي الله على طعامك ، وحينما تقارب أهلك ، وهو شهوةٌ محضة ، وحينما تنجب أولاداً ، والأولاد من مُتَع الحياة الدنيا ، أما إن أردت من الزوجة أن تأخذ بيدها إلى الله ، وبالابن أن يكون ولداً صالحاً يدعو لك من بعدك ، وبالمال أن تنفقه في سبيل الله ، ارتيقت لا إلى المباح ، بل إلى الثواب والأجر ، فلك أجر ، **" وأن تضع اللقمة في فم زوجتك هي لك صدقة "** ، وكما قلت قبل قليل : وحينما تقترب من أهلك لك فيها أجر كما قال عليه الصلاة والسلام :

((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ))

[مسلم ، أحمد]

إذاً : الله هو المزَيِّن ، أما الشيطان فيزين لك الزنا ، وأكل لحم الخنزير ، وشرب الخمر ، والعلو في الأرض ، فالشهوات بطريقٍ غير مشروع من تزيين الشيطان ، ومن طريقٍ مشروع من تزيين الرحمن.

حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات :

الشيء الدقيق في هذا الدرس وهو محوره أن الجنة حفت بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ، وما من إنسان وصل لمرتبة في الدنيا عالية إلا بعد جهدٍ جهيد ، ومعاناةٍ كبيرة ، وما من إنسان آثر الراحة والاسترخاء ووصل إلى شيء ، هكذا قواعد الحياة ، وفي الحديث :

((... إنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلَاثًا ، أَلَا إنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ...))

[أحمد عن ابن عباس]

يكفي أن تسترخي ، وأن تملأ عينيك من أية امرأة ، وأن تتكلم بأي كلام ، وأن تأخذ أي مال ؛ حلال ، حرام ، أن تبحث عن المال من أي مصدر ، وأن تملأ عينيك بالحرام من أية امرأة ، وأن تأكل ما تشتهي من دون ضبط ، هذه سهلٌ بسهوةٍ ، أما المؤمن فيتحرى ، هل هذا حرام أم حلال ؟ هل يحق لي أن أنظر أو لا أنظر ؟

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ)

3 ـ مِنْ النِّسَاء

لقد جعل الله في مقدمة هذه الشهوات المرأة ، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ))

[متفق عليه]

فالمرأة أحياناً تذل الكبير ، بل رجال عظام يسقطون بامرأة ، وليس بعيداً عنكم أن منصباً عالياً جداً في عالم الغرب مُرِّغَ في الوحل بسبب امرأة ، ونشرت فضائح هذا اللقاء ، وسقطات هذا اللقاء على الإنترنت في ألفين وثمانمئة صفحة ، ما الذي أذله ؟ امرأة ، أما المؤمن فمحصَّن من امرأةٍ لا تحل له ، ومن مالٍ حرامٍ لا يحل له ، ما دمت قد حصَّنت نفسك من المرأة الحرام والمال الحرام فأنت في حصنٍ حصين ، ولن يستطيع أحدٌ أن يصل إليك .

ولا يخفى عنكم أن الله عزَّ وجل ذكر الأقارب في آياتٍ عديدة بتسلسل عجيب ، قال :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 24)

جاء الأب في مقدمة الأقارب ، لأن الآية موطن اعتزاز اجتماعي ، فلان أبي ، أنا ابن فلان ، أما في موطن الشهوة ..

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

المرأة أولاً .

أما في موطن الفدية ..

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(11))

(سورة المعارج)

الابن غالٍ جداً .

أما في موطن المساعدة ..

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(34))

(سورة عبس)

الأخ ، وذلك لأن الأب كبير في السن والابن صغير ، أما الذي يمكن أن يساعدك هو أخوك ، ففي موضع المساعدة الأخ ، الفدية الابن ، الشهوة المرأة ، الاعتزاز الأب .

فتنة النساء نوعان :

العلماء قالوا : فتنة النساء فتنتان ، الفتنة الأولى : قد تستهوي الزوجة ـ امرأته ـ فيقطع رحمه إرضاءً لها ، وقد يستهوي الزوجَ ، فيكسب المال الحرام من أجلها ، وهاتان فتنتا النساء ضمن الزواج ، ضمن الشيء المشروع ، من أجل أن ترضي زوجتك قد تقطع رحمك كله إرضاءً لها ، ومن أجل أن ترضي زوجتك قد تكسب المال الحرام .

حدثني أخٌ قال لي : أرادت زوجتي أن تذهب إلى بيت أهلها في مصيفٍ رائع في أيام العيد ، أبوها له زوجتان ؛ زوجة شابة يحبها ، وزوجة قديمة لا يعبأ بها ، هي من القديمة ، دخلت على بيت أبيها ، انزعج من مجيئها ، لأن أخواتها من زوجته الجديدة هناك ، وزوجته الجديدة انزعجت ، وتبرَّمت ، فأعطاها مبلغاً ، وصرفها ، أما بناته من الثانية فلهم الطعام الطيّب ، ولهم الترحيب ، ولهم المبالغ المُضاعفة ، تقول هذه الفتاة : لن أسامحه حتى الموت ، ما الذي حمل هذا الأب على أن يُهين ابنته ؟ إرضاءً لزوجته .

فالذي يتزوج أحياناً يغضب الله إرضاءً لزوجته ، إما يكسب المال الحرام من أجل أن ترضى ، وإما أنه يقطع رحمه من أجلها ، وهو ضمن الزواج ، لذلك فتنة النساء فتنتان : فتنة قطع الأرحام ، وفتنة كسب المال الحرام ، أما الصحابي الجليل لما طلب منه شيءٌ من متاع الدنيا قال لزوجته : **" أيتها المرأة إن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك " .**

وهذا الذي يقول في العيد : الله أكبر ، حينما يرضي زوجته ويعصي ربه ، ما قالها ولا مرة ، ولو نطق بها ألف مرة ، الله أكبر ، أكبر من كل شيء .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه]

امرأة سيدنا عمر ـ هكذا ورد في السيرة ـ أنها تدخَّلت في شأنٍ من شؤونه ، توسَّطت بواحدٍ من رعيَّته، فقال لها : ما شأنكِ أنت بهذا ؟ كل إنسان له حدود وله مقام ، فأن تسيِّر المرأة زوجها فهذه مشكلة كبيرة جداً ، لذلك العلماء قالوا : فتنة النساء فتنتان ؛ قطع الرحم ، وأكل المال الحرام ، أما الأولاد فتنتهم واحدة ..

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

4 ـ وَالْبَنِينَ

عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ أَنَّهُ قَالَ :

((جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ ، وَقَالَ : إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ))

[ابن ماجه ، أحمد]

الإنسان بعد أن ينجب يصبح أقرب إلى الاستسلام ، إلى المسالمة ، لا يقف مواقف جريئة ، عندي أولاد ، وحينما يبخل يقول لك : عندي أولاد ، وحينما يحزن ، ابنه معه التهاب سحايا ، لا ينام الليل ، قال عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ))

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة المنافقون : من الآية 9)

أحياناً ينساق الإنسان مع هوى نفسه ، يريد ابنه أن يكون شخصاً عَلَماً في الأرض فقط ، أما دينه فلا له قيمة ، يحمل شهادة عُليا ، طبيب ، بمنصب رفيع يفتخر به ، الأب المؤمن لا يفخر إلا بابنٍ صالح ، أو ولدٍ صالح ينفع الناس من بعده .

أيها الإخوة :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

5 ـ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

كلُّ شيء إلى زوالٍ :

هذا حب المال ، ولحكمةٍ أرادها الله مالُكَ ليس لك ، والذهب من الذهاب ، والفضة من الانفضاض ، كل شيءٍ يزول ، والإنسان حينما يموت لا يستطيع أن يأخذ شيئاً .

بلغني أن رجلاً في بلدٍ عربي له تجارة واسعة جداً ، في الصيف ذهب إلى بلد جميل في الشمال ، في تركيا ، وفي الفندق جاءته أزمةٌ قلبية فأودت به ، هو في الخامسة والخمسين من عمره ، ترك أربعة آلاف مليون ، وما صلَّى فرض صلاة ، ولا حج ، ولا اعتمر ، فالمال تجمعه مجزَّءًا ، وتدعه مكدَّساً ، تعيش فقيراً لتموت غنياً ، وأندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنة ، ودخل هو بماله النار ، ليس لك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدَّقت فأبقيت ، الذي لك اثنان مستهلكان ؛ جزء مما لك تصدَّقت به ، وأما الرصيد الذي لم تأكله ، ولم تلبسه ، ولم تتصدق به ، في الأصل ليس لك ، ولكنك محاسب عليه ، إذاً : الرزق ما انتفعت به ، والكسب ما سئلت عنه ولم تنتفع به ، لذلك يقول الإنسان وروحه ترفرف فوق النعش : **" يا أهلي يا ولدي ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حل وحرم ، فأنفقته في حله ، وفي غير حله ، فالهناء لكم والتبعة علي"** .

وقد رد في بعض الآثار أن : **" الناس يحشرون يوم القيامة أربع فرق ، فريقٌ جمع المال من حرام وأنفقه في حرام ـ هذا حسابه سريعٌ جداً بثانية ـ خذوه إلى النار ، وفريقٌ جمع المال من حرام ـ عنده ملهى ـ وأنفقه في حلال ـ تزوج ، واشترى بيتًا ، ومركبة ـ فيقال : خذوه إلى النار ـ لأن في جمعه حرامًا ـ وفريقٌ جمع المال من حلال ـ تجارة مشروعة ـ وأنفقه في حرام ـ في ليالٍ حمراء ـ فيقال : خذوه إلى النار ـ بقي واحد ـ الذي جمع مالاً من حلال ، وأنفقه في حلال ، هذا قفوه فاسألوه "** ، هل تاه بماله على عباد الله ؟ هل شغله ماله عن فرضٍ أو عن واجب ؟ هل قال جيرانه : يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقنا ؟ ، والنبي عليه الصلاة والسلام فيما تروي الآثار أنه قال : **" فما زال يسأل ويسأل "** ، والحساب طويل فتركه ، ومشى .

المال قوةٌ للمؤمن :

لكنه في الوقت نفسه المال أكبر قوة للمؤمن ، به يرقى إلى الله ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

[متفق عليه]

يرتقي الغني المؤمن المحسن إلى مستوى أكبر عالِم بإنفاق المال ، فالعلم قوة ، والعلم قوة ، والمنصب الرفيع قوة ، به تحق الحق وتبطل الباطل ، وأبواب الخير مفتحةٌ أمام الأغنياء على مصاريعها ، كما أن المال فتنةٌ ، ووبالٌ ، وإثمٌ ، وحسابٌ ، وعذاب ، هو في الوقت نفسه حيادي ؛ إما أن يوظف في الحق أو في الباطل ، إما أنه سلم ترقى به أو دركات تهوي به .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ)

6 ـ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةَ

المركبة بحسب تسخيرها واستعمالها حسنا وسوءًا :

الآن المركب ، كل عصر له مراكب ، في عهد النبي الخيل أرقى شيء ، الآن يقول لك : سيارة شبح ، كل وقت له ترتيب ، هذه السيارات ، أو تلك الخيول ، فالجوهر واحد ، وسيلة نقل ، قال العلماء : هي لرجلٍ أجرٌ ، ولرجلٍ سترٌ ، ولرجلٍ وزرٌ ، عنده مركبة وأغوى فتاةً ، وأخذها إلى الجبل ، وأغلق النوافذ ، وتنحّى ناحيةً بعيدة ، هذه المركبة كلها وزرٌ عليه ، لأنها سبب الزنا ، أداة للزنا ، أما إذا ركبها، وأركب أهله معه ، وأولاده وبناته المحجبات كانت ستراً له ، أما إذا سخرها في طاعة الله ، ونقل بها المؤمنين فهي نعمة .

أحياناً أخ عنده سيارة ، لكن في أطراف المدينة لا يأتي وحده ، بل يأتي ومعه أربعة أشخاص ، سهَّل على الإخوان مجيئهم للدرس ، وأعرف أناسًا كثيرين لا يأتي إلا مع أربعة ، فأنت سخرتها في طاعة الله ، فالمركبة يمكن أن تكون أجراً ، ويمكن أن تكون ستراً ، ويمكن أن تكون وزراً ، إذاً هي كذلك حيادية ، تجد المؤمنين مركباتهم في خدمة الحق ، يوصل المؤمنين ، إذا وُجد شخص له زي علمي يحب أن يكرمه أمام الناس ، وأهله كذلك لهم حق .

إذاً :

(وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ)

الخيل المسومة أي رعت من مرعىً خصب ، صحتها جيدة ، لونها متألّق ..

(وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

7 ـ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ

النَعَم هو الإبل ، والأنعام الإبل ، والغنم ، والبقر وما إلى ذلك ، هذه ثروة حيوانية كبيرة جداً ..

(وَالْحَرْثِ)

وهي المزارع ، بستان جميل فيه نبع ماء ، فيه أشجار باسقة ، يقول لك : أنا عندي مزرعة وبيت ، فالمزرعة شيء جميل جداً ، فالمزارع ، والأنعام ، والمركبات ، والأموال الطائلة ، والنساء ، والبنون هذه الشهوات ، لكن ما أروع هذه الآية حينما يقول الله عزَّ وجل :

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

والمتاع شيءٌ لا أثر له في المستقبل أبداً ، مهما تنعَّمت فيأتي مَلَك الموت لينهي كل شيء ، الموت ينهي غنى الغنى ، وفقر الفقير ، هذا الميت أكل في ألف وليمة ، وكل وليمة فيها ما لذ وطاب ، أين أنت؟ ركب أجمل مركبة أين هي ؟ جاءه الموت فأنهى كل شيء ، كلمة متاع ، أي شيء آنيّ ، سريع الزوال ، حتى العلماء قالوا : اللذة أولاً حسية ، ولا تأتيك إلا من الخارج ، تحتاج إلى مال ، وهي متناقصة في تأثيرها ، وتزول ، وتنقطع ، وإذا كان فيها مخالفة تعقبها كآبة ، طابعها حسي ، وتأتيك من الخارج ، ومتناقصة ، ومنقطعة ، ووراءها كآبة ، أما السعادة فتنبع من الداخل ، ومتعاظمة ، وأبدية ، ومستمرَّة ..

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لكن الله ينصحنا ويقول :

(وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ

لو آمنت بالله ، واستقمت على أمره ، وعملت الصالحات ابتغاء مرضاته ، كل هذه الدنيا لا تعدل عندك جناح بعوضة ، النبي الكريم لا ينطق عن الهوى ذكر ذلك ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي وابن ماجه]

لو حطت على يد أحدِنا بعوضة فقتلها هل يشعر أنه مجرم ؟ أو قاتل ؟ أو ارتكب شيئًا ؟ لا شيء أهون على الناس من بعوضة ، يقول النبي الكريم :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

ما معنى الدنيا ؟ لو كنت مالك شركة (مرسيدس) كلها لك ، أو جنرال موتورز ، أو نيدو ، أو نسلة ، أو ميتسوبيشي ، هذه أسماء الشركات الضخمة التي عندها فائض نقدي يساوي ميزانيات عشر دول ، لو أنك تملك هذه الشركة ، هي عند الله جناح بعوضة ، لا قيمة لها إطلاقاً .

بالمناسبة ؛ لا يليق بالله ، وبكرمه أن يعطي عطاءً ينتهي عند الموت ، يليق بكرم الله أن يهبك الأبد ، أن يهبك الآخرة ، فالعطاء الحقيقي هو عطاء الآخرة ، أما عطاء الدنيا ..

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ)

(سورة القصص : من الآية 76)

الآن لو أن رجلا عنده صندوق حديد ، مفتاحه قدر الأصبع ، يوضع فيه عشرة ملايين ، إذا كان عنده مئة صندوق حديد ، أي مئة مفتاح ، تملهم أنت فقط ، فوزنهم كبير ، يقول لك :

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

سبعة رجالٍ أشداء لا يقوون على حمل مفاتح كنوزه ، ومع ذلك :

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص : من الآية 81)

هذه شهوة ، فلا يليق بعطاء الله ، بعطاءٍ يتناسب مع كرم الله أن ينقطع عند الموت ، عطاء الله أبدي سرمدي ، أما الدنيا فتنقطع ، إذاً لا قيمة لها ، اللهم صلِ عليه آثر ما عند الله .

إذاً :

(وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

أي لو آمنتم ، واستقمتم ، واتقيتم ، وتقربتم بالأعمال الصالحة هذا أفضل من كل ما في الدنيا ، والأنبياء جاؤوا يدعوننا إلى الآخرة إلى ما عند الله .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(07-60): تفسير الآيات 15 - 18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-12-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السابع من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الخامسة عشرة ، وهي بعد أن قال الله عزَّ وجل :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

قال الله عزَّ وجل :

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ)

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ

1 ـ لا تساوي الدنيا شيئا أمام الآخرة :

لو أن الدنيا حازها الإنسان من كل أطرافها ؛ مالٌ وفير ، وامرأةٌ جميلة ، ومركبٌ رائع ، وبستانٌ جميل ، ومزرعةٌ فارهة ، لو أن الإنسان حاز الدنيا بحذافيرها ، ووضعها في كفة ، ثم وضع الآخرة في كفةٍ ثانية ، لا يمكن أن تقابل الدنيا مع الآخرة ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر)) .

[ورد في الأثر]

اذهب إلى البحر المتوسط ، واركب قارباً ، وأخرج إبرةً ، واغمسها في ماء البحر ، ثم انظر بم ترجع؟ هل نقص ماء البحر ؟ أثر الماء الذي علق على الإبرة كم يساوي بالنسبة إلى البحر ؟ هذا ما تساويه الدنيا بالنسبة للآخرة .

لو تصورنا أن إنساناً حاز الدنيا بحذافيرها ، كل شيء على أكمل وجه ، ووازنا هذا بالآخرة لم تكن بشيء ، لذلك : **" ما خيرٌ بعده النار بخير ، وما شرٌ بعده الجنة بشر " . و .. " كل نعيمٍ دون الجنة محقور ، وكل بلاءٍ دون النار عافية " .**

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ)

والحديث الذي تعرفونه جميعاً ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)) .

[الترمذي وابن ماجه]

جناح بعوضة ، وليس من مخلوقٍ أهون على البشر من بعوضة ، تقف على يدك فتقتلها ، هل تشعر بالذنب أنك قاتل مثلاً ؟ أو ارتكبت ذنبا ؟ لا ، وأنت في أعلى تألُّقك تقتل البعوضة ، ولا تشعر بشيء ، فكيف بجناحها ؟!

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)) .

[الترمذي وابن ماجه]

2 ـ الدنيا تنتهي بالموت :

المعنى أنه لا يليق بكرم الله أن يعطيك عطاءً محدوداً ينتهي بالموت ، والدنيا مهما كانت عريضة فإنها تنتهي بالموت ، لو أنك ملكت البلاد والعباد لمات الإنسان ، لو كنت أغنى إنسان تموت ، لو كنت أصح إنسان فالموت ينهي صحتك ، والموت ينهي كل شيء ، ينهي غنى الغنى ، وفقر الفقير، وقوة القوي ، وضعف الضعيف ، وصحة الصحيح ، ومرض المريض ، ووسامة الوسيم ، ودمامة الدميم ، فما دام هذا العطاء ينتهي بالموت فلا يليق بالله عزَّ وجل ، وليس عطاء ، من هنا أعطى الله عزَّ وجل الدنيا لمن لا يحب ؛ أعطاها لأعدائه ، ألم يعطِ قارون المال الوفير ؟

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص : من الآية 76)

ألم يعطِ فرعون المُلك ، وهو لا يحبه ؟ إذاً : إن الله يعطي الصحة ، والذكاء ، والمال ، والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين ..

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ)

3 ـ العاقل مَن عمل للآخرة :

خير من الدنيا ، مَن هم العقلاء ؟ الذين عملوا للآخرة ، مَن هم ضعاف العقول ؟ الذين اكتفوا بالدنيا ..

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ)

(سورة التوبة : من الآية 38)

أتعجبكم سنوات معدودة كلها مشكلات ؟ لا يوجد إنسان لم تصبه مشكلة ، أحياناً مرض ، أحياناً زوجة متعبة ، أحياناً ابن عاق ، أحياناً بنت لم يخطبها أحد ، وهذه مشكلة كبيرة ، أحياناً دخل قليل ، لو أن الأمور كلها جاءت كما يريد ، لكن مع التقدم في العمر تأتي متاعب في الصحة ، ضعف بصر ، انحناء ظهر ، ألم بالمفاصل ، خلل بالأجهزة ، فالحياة مفعمة بالمشكلات ، هكذا أرادها الله

عزَّ وجل .. **" أوحى ربك على الدنيا أن تشددي وتكدري وتضيقي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ".**

طبيعة الدنيا متعبة ، ومهما راقت فلا تستقيم لإنسان ، وهذا الواقع أمامكم ، إن كان دخله كبيراً ، أولاده متعبون ، أولاده أتقياء ، دخله لا يكفيهم ، أولاده أتقياء ، ودخله جيد ، ولكن زوجته ليست طيبة ، زوجته جيدة ، وهو يعاني من مشكلة في عمله ، لا يعاني من مشكلة في عمله ، ويعاني من مشكلة في صحته ، كأن الدنيا دار التواء لا دار استواء ، منزل ترح لا منزل فرح ، والمهم أن الله عزَّ وجل يأمرنا أو ينصحنا أن نهتم بالآخرة ..

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ)

أنا حَبَّبت إليكم النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسَوَّمة ، والأنعام ، والحرث ..

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

4 ـ لذة الدنيا متناقصة منقطعة :

كلمة (متاع) يعني لذة عابرة ، أكل أحدهم طعامًا نفيسًا ، بعد دقائق انتهت الطعام ، وانتهى الأثر ، ما له أثر مستقبلي أبداً ، الدنيا كلها متاع ، أي لذة طارئة ، لذةٌ مؤقتة ، لذةٌ لا تستمر ، بل إن الحقيقة الصارخة أن شيئاً في الدنيا مهما عظم لا يمكن أن يقدم لك لذةً مستمرَّة ، إلا متناقصة ، كل شيء تقتنيه تعجب به أول الأمر ، وبعد حين تألفه ، وكأنك لم تقتنِه ، شاءت حكمة الله أن يجعل لذّات الدنيا متناقصة لا متعالية أبداً .

بين اللذة والسعادة :

إنه يمكن أن نفرق بين لذةٍ وسعادة ، اللذة حسية تأتيك من الخارج ؛ لذة مال ، طعام ، زوجة ، مسكن ، دفئ ، تبريد ، أجهزة ، لا تأتيك إلا من الخارج ، مركبة ، وهي ذات أثر حسي محض ، وليس أثر نفسي ، وهي متناقصة ، وقد تعقبها كآبة ، وقد تعقبها النار إلى أبد الآبدين ، هذه هي اللذة .

أما السعادة ؛ فأولاً تنبع من الداخل ، أنت ليس بحاجة ، " ماذا يفعل أعدائي بي بستاني في صدري ، إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة " ، تنبع من الداخل، لا تحتاج إلى مال ، هي معك دائماً ، بستانك في صدرك ..

(أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(28))

(سورة الرعد)

متعاظمة غير متدنية ، تعقبها جنةٌ إلى أبد الآبدين ، هذا فرقٌ كبير بين اللذة والسعادة ، اللذة طابعها حسي ، أما السعادة فطابعها نفسي ، فربنا عزَّ وجل زين ..

(حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

قال :

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الله عزَّ وجل في آية أخرى يقول :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ)

شددتم إليها ..

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

متاع الغرور ، الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر ..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : من الآية 61)

لذلك الأنبياء العظام سعادتهم بربِّهم ، أما التافهون فسعادتهم بالطعام والشراب ، والنساء ، والبيوت ، والنُزُهات ، وما إلى ذلك .

هذه الجنة ليست لكل الناس ، إن الله يعطي الدنيا لمَن يحب ولمَن لا يحب ، أما الجنة فمقيَّدة بالأتقياء ..

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(اتقى) يعني اتقى أن يعصيه ، اتقى أن يغضبه ، اتقى أن يسخطه ، طبَّق المنهج الإلهي ، انصاع لأمر الله ..

(لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ)

ليست جنة ، بل جنات ، لأنها كلها متنامية ومتنوعة ، حور عين ، ولدان مخلَّدون ، جنان تجري من تحتها الأنهار ، فيها لبن لم يتغيَّر طعمه ، وعسل مصفَّى ، فيها ماء نقي عذب كالزلال ، غير آسن ، في أنهار من خمر غير خمر الدنيا ..

(لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ)

(سورة محمد : من الآية 15)

هذا عطاؤه ، وفيها شيء آخر (وزيادة) نظرٌ إلى وجه الله الكريم ، وقد يغيب المؤمن خمسين ألف سنة من نشوة النظرة ، وهناك أكبر من النظر (رضوانٌ من الله أكبر) ، فهذه الجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها النظر إلى الله الكريم ، وفيها رضوانٌ من الله أكبر ..

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

لا يستطيع أن يدَّعي أحدٌ أن عمله يؤهله للجنة ، لكن الله عزَّ وجل بصير بعمل كل إنسان ، العمل الذي يؤهل للجنة لا يمكن أن يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وصواباً ما وافق السنة .

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

هؤلاء أهل الجنة ما صفاتهم ؟ قال :

(الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

صفات أهل الجنة :

1 ـ يدعون ربهم : يَقُولُونَ رَبَّنَا

أول شيء أنهم يدعون الله دائماً ، والدعاء هو العبادة ، في الحديث الصحيح عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ، ثُمَّ قَرَأَ : (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ))) .

[الترمذي وابن ماجه]

وإذا قال الله عزَّ وجل :

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(23))

(سورة المعارج)

دائماً يدعو الله ؛ إن دخل بيته يدعو ، وإن خرج يدعو ، وإن جلس إلى الطعام يدعو ، وإن انتهى من الطعام يدعو ، وإن دخل إلى الخلاء يدعو ، وإن خرج يدعو ، وإن واجه عدواً يدعو ، وإن خرج من البيت إلى عمله يدعو ، فدعاؤه مستمر ، وقد علّمنا النبي عليه الصلاة والسلام من خلال أذكاره المأثورة كيف ندعو الله في كل أحوالنا .

(الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا)

2 ـ يؤمنون بالله وحده :

بك يا رب ، آمنا بك موجوداً ، آمنا بك واحداً ، آمنا بك كاملاً ، آمنا أنك الخالق ، آمنا أنك الرب، آمنا أنك المسيِّر ، آمنا بأسمائك الحسنى ، وصفاتك الفضلى ، آمنا بكل ما ذكرته لنا ..

(فَاغْفِرْ لَنَا)

3 ـ يستغفرون ربهم :

اغفر لنا ، طلب المغفرة ، المغفرة شيء دقيق جداً ، الله عزَّ وجل أمر النبي أن يستغفر لذنبه ، لكن ماذا فعل النبي ؟ وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)) .

[الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد]

وفي بعض أدعية النبي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا ، وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا)) .

[الترمذي]

فما من إنسان إلا ويأتيه خاطر يزعجه ، قد يقصر قليلاً ، فشأن العبد أن يخطئ ، وشأن الله أن يغفر ، لكنه يخطئ لا عن قصدٍ ، ولا في شيءٍ صارخ ، ولكن عن خطأ ، عن نسيانٍ ، عن تقصيرٍ ، عن غلبةٍ أحياناً ، فهذا الخطأ يغفر بالدعاء ..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10) يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12))

(سورة نوح)

إخواننا الكرام ، هي بشارة ، ما دمت مستقيماً على أمر الله فأنت في رعاية الله ، وأنت في حفظه ، وأنت في نصره ، وأنت في تأييده ، لكن لو زلّت القدم ، لو أخطأت ، لو غلبتك نفسك في ساعة ضعف، ما دمت مستغفراً فأنت في بحبوحةٍ أخرى ، أنت في بحبوحتين ، أنت في أمنين ، أنت في مدتين ، بحبوحة الطاعة ، وبحبوحة الاستغفار ..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)) .

[البخاري]

وفي رواية الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)) .

ليس معنى هذا أنه يرتكب مئة ذنب ، مستحيل ، لكن قد يكون ذنب النبي من نوع فوق مستوى البشر جميعاً ، بعضهم قال : النبي يرى رؤيا ، يرى شيئاً من عظمة الله ، وفي رؤيا ثانية يرى الله أعظم مما كان يراه ، فيستحيي برؤيته السابقة ، أنت إنسان ، أمامك غني توقعت معه مليون ، وهو معه مئة مليون ، توقعك ، أو رؤيتك إلى حجمه المالي الذي هو أقلّ من واقعه بكثير ، تشعر أنك ما أعطيته حقه، فالله عزَّ وجل قال :

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

(سورة غافر : من الآية 55)

وقال النبي الكريم :

((إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)) .

فما دمت قد عودت نفسك أن تستغفر فأنت في بحبوحة ، وأيُّ عبدٍ لك لا ألَمَّ ..

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)) .

(الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد)

أما هذا الذي يدعي العصمة ، وهو ليس نبياً ، هذا تجاوز للحدود ، وهذا خروجٌ عن عقيدة أهل السنة والجماعة ، فسيدنا يوسف ماذا قال ، وهو نبيٌّ كريم ؟ قال :

(وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ(33))

(سورة يوسف)

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)) .

[مسلم ، الترمذي ، أحمد]

الشعور بالذنب دليل على صحة القلب:

إياكم ، ثم إياكم ، ثم إياكم أن تفهموا هذا الحديث ، أن تسرع بالذنب ، هذا الحديث لا يمكن أن يكون هذا معناه ، لكن معناه لو لم تشعروا بذنوبكم فأنتم هالكون عند الله .

إنسان ارتكب خطأ ، ارتاب ، كذب ، سخر ، ابتسم ابتسامة ساخرة ، دون أن يشعر بشيء ؟ معنى هذا أنه ميت ، لو أنه مؤمن لتألم أشد الألم ، إحساسك بذنبك علامة حياة قلبك ، وعدم إحساسك بذنبك علامة موت قلبك ،

((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ـ أي لو لم تشعروا بذنوبكم ، معنى ذلك أنكم أمواتٌ غير أحياء ـ لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)) .

مثلاً : أنت في سهرة انسقت بالحديث ، وتكلمت في إنسان ، اغتبته وهو مسلم ، تأتي إلى البيت لا تنام الليل ، كيف اغتبته ؟ هذا مسلم ، هو أخطأ ، الغيبة : أن تذكر أخاك بما يكره ، ولو كان الذي ذكرته حقيقةً ، تتألم ، في اليوم الثاني تأخذ له هديةً وتستسمحه ، معنى هذا أن قلبك حي ، ما دمت شعرت بذنبك ، واستغفرت الله منه ، ما دمت قد آلمك ذنبك .

من هو المؤمن ؟ هو الذي تسره حسنته ، وتسوءه سيئته ، يفرح لحسنةٍ أصابها ، ويألم أشد الألم لذنبٍ ارتكبه ، فهؤلاء الذين يستحقون الجنَّات ، والنظر إلى وجه الله الكريم ، ويستحقون رضوان الله عزَّ وجل ، وهو أكبر ما في الجنة ، يقولون :

(الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

كلما علا مقامك عند الله تحاسب نفسك أشد الحساب :

للتوضيح فقط : وعاء له سطح ، أو له قعر مثقَّب ، لو كان قُطر الثقب فرضاً عشرة سنتيمترات ، تضع فيه برتقال فينزل ، أما البطيخ فلا ينزل ، لأن الثقب عشرة سنتيمترات ، لو كان قطره خمسة سنتيمترات ، تضع جوزًا ينزل ، أما البرتقال فلا ينزل ، فكل واحد له مستوى في الاستقامة ، الأنبياء يبدو أن القعر أصم مغلق ، أما كل واحد يمكن أن يتساهل بكلمة ، هذا يتساهل بنظرة ، هبط مستواه ، فكلما رفعت مستوى استقامتك كنت أقرب إلى الله عزَّ وجل ، وكلما علا مقامك عند الله تحاسب نفسك أشد الحساب ، سيدنا الصديق ماذا فعل مع إنسان اتهم ابنته بالزنا ـ السيدة عائشة ـ ؟ منع عنه المساعدات ، فعاتبه الله فقال :

(وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)

(سورة النور : من الآية 22)

عاتبه الله ، وبكى الصديق وقال : " بلى أحب أن يغفر الله لي " ماذا فعل ؟ منع مساعدةً عن إنسانٍ اتهم ابنته ظلماً بالزنا ، فكلما ارتقى مقامك عند الله تحاسب نفسك أدق الحساب ، وقد وصف الله عزَّ وجل المؤمنين فقال :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ(33)وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(34))

(سورة فصلت)

دقق : كلما ارتقى إيمانك حاسبت نفسك أشد الحساب ، حتى إنهم قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

سيدنا إبراهيم ماذا فعل ؟ قال لابنه :

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

(سورة الصافات : من الآية 102)

أُمر أن يذبح ابنه ، وقف الابن موقفًا لا يصدق ..

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ(102))

إن الله لم يكلف المؤمنين أن يذبحوا أبناءهم ، فعلى كلٍ ؛ قضية الاستقامة قضية دقيقة جداً ، هذه ترقى حينما ترقى ، وتسمو حينما تسمو ..

(وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

4 ـ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

هؤلاء الذين آمنوا ، والذين طلبوا المغفرة من الله عزَّ وجل ، وطلبوا الوقاية من النار ..

(الصَّابِرِينَ)

5 ـ الصَّابِرِينَ

شأنهم الصبر في الدنيا ، يصبرون على قضاء الله وقدره ، ويصبرون عن الشهوة ، ويصبرون على الطاعة ، يعني طاعة ، وشهوة ، وقضاء ..

(وَالْقَانِتِينَ)

6 ـ 7 ـ الصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ

المنقطعين لله عزَّ وجل ، متفرغين له ، نحن في رمضان فهناك صيامٌ عن الطعام ، والشراب ، والنساء ، هذا صيام العامَّة ، وهناك صيامٌ عن المعاصي والآثام ، وهذا صيام المؤمنين ، وهناك صيامٌ عما سوى الله ..

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

أي ما سوى الله ، هؤلاء ..

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ)

الصادق ؛ هناك صدق الأقوال ، وصدق الأفعال ، فصدق الأقوال أن تأتي أقوالك كما تعتقد ، أنت صادق ، أما صدق الأفعال فأن تأتي أفعالك كما تقول ، تقول شيئاً ، وتفعل شيئاً ، فهذا كذب ونفاق ، تعتقد شيئاً ، وتقول شيئاً فهذا نفاق اعتقادي ، أما الصدق القولي فأن تقول ما تعتقد ، والفعلي أن تفعل ما تقول ، هؤلاء صادقون ، أعمالهم تأتي مصدقةً لأقوالهم ..

(وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ)

8 ـ الْمُنْفِقِينَ

ينفقون مما آتاهم الله ، آتاهم مالاً ينفقون منه ، آتاهم علماً ينفقون منه ، آتاهم جاهاً ينفقون منه ، آتاهم خبرةً ينفقون منها ..

(وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)

9 ـ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ

قال العلماء : وقت السحر وقت الاستجابة ، واستدلوا من قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف :

(سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي)

(سورة يوسف : من الآية 98)

أيْ في الوقت المناسب ، وقت السحر وقت قبول المغفرة ، لذلك ورد في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ)) .

[البخاري ومسلم واللفظ له]

نحن في هذا الوقت ـ وقت السحر ـ لنا دعوةً مستجابة ، وأنا والله أنصح كل إخواني : لك عند الله حاجة، تخاف من عدو ، تخشى من مرضٍ عضال ، عندك مشكلة في البيت ، لك زوجة تنحرف عن سواء السبيل ، لك أولادٌ ليسوا على ما تتمنى ، صل صلاة قيام الليل ، واسأل الله عزَّ وجل في السجود أن يعطيك ما تسأله إيَّاه ، هذا مما يقوي عقيدتك بالله .

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)

ثم يقول الله عزَّ وجل :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

1 ـ الأسباب وحدها لا تخلق النتائج :

الله عزَّ وجل هو وحده الفعال ، كيف يشهد لنا أنه لا إله إلا هو ؟ الفعل كله بيده ، الله خلق أسبابا ، وخلق نتائج ، نحن لقصور فهمنا نظن أن الأسباب وحدها تخلق النتائج ، لا ، الأسباب تترافق مع النتائج ، لكن الأسباب وحدها لا تكفي لخلق النتائج ، العلماء قالوا : عندها لا بها .

2 ـ كيف يشهد الله أنه لا إله إلا هو ؟

كيف يشهد الله أنه لا إله إلا هو ؟ يأتي إنسان ، ويأخذ بكل الأسباب ، فيفشل ، ويخفق ، يأتي إنسان آخر من دون أسباب يحقق النتيجة ، وأوضح مثل لذلك أنه إذا تزوج شابٌ صحيح الجسم بفتاةٍ صحيحة الجسم ، لابد أن ينجبا ، الأسباب كلها مؤمنة ، شاب صحيح الجسم ، كل أجهزته سليمة ، وشابة كذلك ، تجد شابين صحيحين لا ينجبان ، لأن الله عطّل الأسباب ، الأسباب موجودة ، لكن الله عطّلها ، يشهد لنا أنه لا إله إلا هو ، وقد تنجب السيدة مريم من دون زوج ، ألغاها ، ومِن خلال إلغاء الأسباب أو تعطيلها يشهد أنه لا إله إلا الله ، لذلك قالوا : " عرفت الله من نقض العزائم " ، قد يأخذ الإنسان بكل الأسباب ولا ينجح ، وربما لا يأخذ بها وينجح ، فما شاء الله عزَّ وجل كان ، وما لم يشأ لم يكن .

تحطمت طائرة ، وأحد ركابها لم يقيد نفسه بحزام الأمان ، رأى نفسه طليقاً ، وانشق جسم الطائرة جنب مقعده ، فقفز على الأرض ، أما كل الركاب فكانوا مقيدين بأجهزة الأمان ، فيمكن لواحد أن ينزل من ارتفاع أربعين ألف قدم دون أن يصاب بأذى ، نزل فوق جبال الألب ، غابات كثيفة مغطاة بخمسة أمتار ثلج ، أغصان الأشجار كانت كالنوابض ، فنزل واقفاً .

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهنّ أمان

* * *

وطائرة أخرى في طريقها من جدة إلى باكستان ، أصاب إحدى النوافذ خلل فانخلعت ، الطائرة المضغوطة ثمانية أمثال ، امرأةٌ باكستانية في حجرها طفلان صغيران ، فخرجا من النافذة ، بحكم قوة الضغط ـ ضغط الهواء داخل الطائرة ـ فوقعا في البحر ، فنسبة المئة بالمليون أنهما ماتا ، طفلان رضيعان صغيران ، بعد خمسة أيام تأتيها رسالة من شركة الطيران أن تعالَي إلى دبي ، فظنت أن تأتي لتأخذ التعويض ، فإذا بها أمام ابنيها ، ما الذي حدث ؟ سقطا أمام صياد ، فأنقذهما ، ووضعهما في القارب ، وأخذهما إلى أقرب مستشفى ، ما معنى : لا إله إلا الله ؟ وأنت بأعلى درجة

من الغنى تفلس ، وأنت فقير تغتني ، وأنت قوي تضعف ، أنت ضعيف تقوى ، من إلغاء السبب أو تعطيله ..

(شَهِدَ اللَّهُ)

الله عزَّ وجل يشهد أنه لا إله إلا الله ؛ عن طريق تعطيل الأسباب ، أو إلغائها ، أما المؤمن فيمشي في طريق ، عن يمينه وادٍ سحيق ، وعن شماله وادٍ سحيق ، الوادي اليميني واد الشرك ، هناك من يأخذ بالأسباب ، ويعتمد عليها ، وينسى الله ، وأحياناً يؤلِّهها كالأجانب ، وهناك من لا يأخذ بها ، فيعصي الله كأهل الشرق ، الشرق كله : سمِ بالله وكل ، لكن التفاحة غير نظيفة ، ولم نغسلها ، النبي قال :

((من انهمك في أكل الطين فقد أعان على قتل نفسه)) .

[البيهقي في السنن الكبرى ، والطبراني في المعجم الكبير عن سلمان]

هناك توكل ساذج ، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ - خذ بالأسباب - فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)) .

[أبو داود وأحمد]

المؤمن الصادق يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله

المؤمن الصادق يأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، كما فعل النبي في الهجرة ؛ اختار خبيرًا مشركًا ، فغلَّب الخبرة على الولاء ، وكلف إنسانًا يأتيه بالأخبار ، وإنسانًا يمحو الآثار ، وإنسانًا يأتيه بالطعام ، وسار مساحلاً عكس الاتجاه المتوقع ، واختبأ في غار ثور ، أخذ بكل الأسباب ، وكأنها كل شيء ، فلما وصلوا إلى الغار توكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، هذا هو الإيمان ، أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، فالله يشهد لنا ..

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة : من الآية 249)

تكون أمة قوية جداً تأخذ بكل الأسباب فتنهزم ، والمؤمنون الصادقون وهم قلةٌ ضعاف ينتصرون ، معنى ذلك أن الله شهد لنا أنه لا إله إلا هو ، الأمر بيدي ، أما الكفار فيؤلِّهون الأسباب ، والمؤمنون المقصرون يلغون الأسباب ، توكُّل ساذج ، أما الكمال فأن تأخذ بها وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

مثلاً : لو ترجمنا هذا الكلام إلى واقع ، عندك مركبة ، وعندك سفر ، تجري لها مراجعة تامة ، الزيت، والوقود ، والكهرباء ، والتوصيلات ، والأطر كلها كاملة ، ثم تقول : يا رب احفظني ، أنت الحافظ ، يا رب سلمني ، أنت المُسَلِّم ، أخذ بالأسباب ، وتوكل على الله ، طالب يجتهد ، ويقول : يا

رب اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، تاجر يجتهد ، ويقول : يا رب اجبر هذه البضاعة ، المزارع يزرع حبة في الأرض ، ثم يتوكل على الله ، هذه الترجمة ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

3 ـ أهل العلم ينبغي أن تكون فحوى دعوتهم إظهار كلام الله :

وهذه إشارة إلى أن أهل العلم ينبغي أن تكون فحوى دعوتهم إظهار كلام الله ، أما أن يقول لك واحد : إن الله عزَّ وجل يفعل ما يشاء ، نحن في ملكه ، هذا كلام جيد ، لكنه يأتي بمثل غير مقبول ، أنه نجار، وعنده لوحان من الخشب ، جعل لوحًا بابًا لقصر ، والثاني بابًا لمرحاض ، ألك عنده شيء ؟ إن الله ما قال هذا ، بل قال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

الله عزَّ وجل عنده عدل مطلق ، وقد قال :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام : من الآية 132)

العشوائية لا تقبل في أفعال الله ، والعبثية لا تقبل في أفعال الله ، لذلك الإيمان الدقيق كما قال الله عزَّ وجل :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

قال الله عزَّ وجل :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا)

(سورة الشمس)

ليس معنى هذا أنه خلق فيها الفجور ، معنى هذا أنه برمجها برمجة ، وجبلها جِبِلَّة ، وفطرها فطرةً ، إذا فجرت تعلم أنها فجرت ..

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(08-60): تفسير الآيتان 18 - 19
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثامنة عشرَة ، مررت عليها مراً سريعاً في الدرس الماضي ، ونظراً لأهميتها الشديدة سأخصها ببعض التفصيلات

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

كلكم يعلم أيها الإخوة ، أنه حينما تدعى لأداء شهادة ، تنطق بلسانك أنني رأيت كذا وكذا ، وهذا شيء واضح وضوح الشمس ، ولكن كيف تفهم قوله تعالى :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

الإنسان تراه بعينك ، وتسمع صوته بأذنك ، وتسمع شهادته .

كيف يشهد الله أنه لا إله إلا هو ؟

ولكن كيف يشهد الله لك أنه لا إله إلا الله ؟ أو كيف يشهد لك أن هذا الكلام كلامه ، القرآن كلامه ؟ هذا سؤال دقيق ، وكيف يشهد لك أن الأمر كله بيده ، وأنه الفعال لما يريد ، وأن بيده ملكوت السماوات والأرض ، وأنه إليه يرجع الأمر كله ، وأنه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله ، وأنه ما من ورقة تسقط إلا هو يعلمها ، كيف يشهد لك أن كل الكون بدقائقه ، بجزئياته ، بتفصيلاته بيده ، هناك قصص قصَّها علينا في القرآن الكريم ..

امرأة تضع فلذة كبدها في صندوق ، وتلقيه في اليم ، في النهر ، ما الذي يسيِّر هذا الصندوق سيراً معيناً إلى أن يصل إلى شرفة ، أو إلى مدخل قصر على النيل ؟ وأي غصن اعترض هذا الصندوق ، فوقف عند شاطئ هذا القصر ، وأيَّة امرأة شعرت بدافع أن تقف على شاطئ النهر ؟ إنها امرأة فرعون، وكيف ألقي في قلبها حب هذا الغلام الصغير ؟ وكيف امتنعت المراضع أن ترضعه تحريم امتناع ..

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

(سورة القصص : من الآية 12)

إذاً : دقائق الحياة ؛ حركة المياه ، حركة الصندوق ، تحرك إنسان ، محبته في قلب إنسان ، هذا كله بيد الله ، ففي قصص القرآن إشارةٌ إلى أن الأمر بيد الله ، قصة سيدنا يوسف فيها تفاصيل ، ولكن الله يشهد فضلاً عن قرآنه ، وفضلاً عن كتابه أنه لا إله إلا هو ، كيف يشهد ؟

الأسباب الكونية بين الأخذ بها وتأليهها :

نحن ألِفنا أنّ لكل نتيجة سبباً ، وأن لكل سبب نتيجة ، وتوهمنا لضعف إيماننا أن هذا السبب خارق النتيجة ، والذي آمن بالأسباب ، واعتمد عليها ، ونسي الله عز وجل فقد أشرك ، والذي لم يأخذ بها فقد عصى ، وأنا أقول دائماً : الإيمان الكامل أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، من السهل جداً أن تأخذ بالأسباب كما فعل الغربيون ، لكن مع الأخذ بالأسباب الدقيق منزلق خطير أن تؤلّهها ، وأن تعتمد عليها ، وأن تراها كل شيء ، وأن تستغني بأخذها عن الله . والفريق الآخر عندنا في الشرق لا يأخذون بالأسباب ، تواكلاً على الله ، وجهلاً بحقيقة الكون ، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)) .

[أبو داود ، وأحمد]

((عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ))

ـ أي عليك بالتعقل ، وأن تأخذ بالأسباب ـ

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ))

ـ فأن تستسلم ، ألا تتحرك ، أن تنسحب ، أن تندب حظك ، أن تقول انتهينا كمسلمين ، لا ، هذا ليس من الدين ، هذا تواكل ، ولكن الله يلوم على العجز ـ

((فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)) .

إذاً : الأخذ بالأسباب ، والاعتماد عليها شرك ، وعدم الأخذ بها معصية ، لكن الكمال أن تأخذ بها ، وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، أما إذا توهَّمها الإنسان أنها كل شيء ، فلابد أن يؤدبه الله عز وجل ، كيف يؤدبه ؟ يؤدبه ، ويشهد له أن الله هو وحده الفعَّال ، وأنه وحده المتصرف ، وأن الأخذ بالأسباب لا يقدم ولا يؤخر ، يعطل هذه الأسباب .

أوضح مثل : فتاةٌ شابة تتزوج بشاب ، ولا ينجبان ، الأسباب كلها موجودة ، الله عز وجل شاء أن يجعل هذا الزواج عقيماً ، مع أن الأسباب متوافرة ، أو أن يسمح لامرأةٍ لم تقترن بزوج وهي طاهرة عفيفة أن تنجب مولوداً ، كالسيدة مريم العذراء .

فإما أن يبطل الله هذه الأسباب ، أو أن يلغي وجودها ، بهذه الطريقة يشهد الله لعباده أنه لا إله إلا هو ، فأكبر قوة في العالم ، أو ثاني أكبر قوة في العالم تداعت من الداخل بلا حرب ، وبلا هجوم

نووي ، وبلا بأسلحة ذرية ، تداعت من الداخل ، وقد قال بعضهم : " عرفت الله من نقض العزائم " ، قد تأخذ بالأسباب كلها ، ولا تنجح ، وقد تضطر إلى ألا تأخذ بها لسبب قاهر ، فتأتي النتائج طيبة ، وكأنك أخذت بالأسباب ، فمن خلال تعطيل هذه الأسباب أو إلغائها يشهد الله لك أن الأمر بيده وحده .

لا ينفع مع الله شيء :

فقد يسعدك ، وأنت لا تملك من الدنيا وشيئاً ، وقد يشقى الإنسان ، ومعه كل أسباب الدنيا ؛ معه المال الوفير ، ومعه الصحة ، ومعه الزوجة ، ومعه البيت المريح ، والمركبة الفارهة ، وهو أشقى الناس ، وقد يسعدك ، وأنت في السجن .

أحياناً المؤمن إذا دخل السجن يقول لك : والله اقتربت من الله قرباً غير معقول ، والله ارتقى إيماني ، وارتقت صلواتي ، وارتقت تلاوتي إلى درجة لا تصدَّق ، قد يرحمك وأنت في أصعب وضع ، وقد يحجبك عنه ، وأنت في أقوى وضع.

إذاً : تعطيل الأسباب أو إلغائها شهادة الله لك أن الأمر بيده وحده ، في ظرف صعب جداً قد يرزقك الله رزقاً طيباً ، وفي ظروف مواتية جداً قد تحرم من الرزق ، وفي بالنهاية يجب أن تؤمن أن الأمر كله بيد الله ، ومن الممكن أن يسقط إنسان من ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم من طائرة وينزل سالماً ، الأمر بيد الله عز وجل ..

فإذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى

* * *

إذا كان الله معك فمَن عليك ؟ وإذا كان عليك فمَن معك ؟ إذا كان الله معك يسخر لك أعداءك ليخدمونك، وإذا كان الله عليك يسمح لأقرب الناس إليك أن يتطاول عليك .

يا أيها الإخوة الكرام ...

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

قد يرزق الله إنساناً ضعيف التفكير رزقاً وفيراً ، وقد يحرم إنساناً ذكياً جداً الرزق ، يتضعضع أمام غني ، وقد ورد في بعض الحكم من الشرق : أن يا رب ارزقني حظاً تخدمني به أصحاب العقول ، ولا ترزقني عقلاً أخدم به أصحاب الحظوظ .

الله عز وجل يرفع إنسانا ، فتصبح كل الخبرات بيده ، كل العقول بخدمته ، وأحياناً يكون بأعلى درجة من الفهم مسخر لخدمة إنسان ، كل طاقته وكل إمكاناته وكل ذكائه وكل شهاداته العليا ، وكل اختصاصه النادر لخدمة إنسان ليس في مستوى علمه ، **" اللهم ارزقني حظاً تخدمني به أصحاب العقول ، ولا ترزقني عقلاً أخدم به أصحاب الحظوظ "** ، هذه حكمة من شرق أسيا قالها أحد الفلاسفة
.

فحينما يشهد الله لك أن الأمر بيده ، الأمر أمره ، النبي الكريم أخذ كل الأسباب من دون استثناء ، ووصلوا إلى الغار ، هو أخذها لئلا يصلوا ، ذهب مُشَرِّقاً ، واختبأ في غار ثور ، ومحا الآثار ، وجاء بالأخبار ، وجيء له بالزاد ، واختار خبيرًا بالطرقات مشركًا ، أخذ بكل الأسباب ، لكنه اعتمد على الله، فلما وصلوا إليه ، وقعت عين المطاردين على عين أبي بكر ، قال : لقد رأونا ، قال يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ(198))

(سورة الأعراف)

أي سبب صغير جداً ؛ خيوط عنكبوت أنقذت هذه الدعوة ، ومن عظمة الله عز وجل أنه يفعل الشيء العظيم بالسبب الصغير ، وقد يدمِّر إنساناً بسبب صغير جداً ، بكلمة ، بغفلة ، فمع الله لا توجد غفلة ، لا يوجد مع الله تاجر ذكي ، ولا يوجد قوي ، ولا يوجد حكيم ، إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لب لبه ، يا رب لا ينفع ذا الجد منك الجد ، صاحب الحظ ، والذكاء ، والتألُّق هذا إن لم يكن مستقيماً على أمر الله ، يجعل الله تدميره في تدبيره ، يفكر ، يفكر ، يجمع ، يطرح ، يقسِّم ، ثم يدمَّر بتدبيره ، يأتي إنسان سليم الطوية ، بريء ، طاهر ، الله عز وجل يحفظه مما يحفظ به عباده الصالحين ، فكلمة :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

كل أفعال الله عز وجل في الأرض تشهد لك أنه هو الفعَّال ، هو الفعال ، هو إله في الأرض ، كما هو إله في السماء :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس : من الآية 24)

لا سبيل للنجاة إلى برضا الله :

ترون أنتم ، أحياناً زلزالاً يكلف ثلاثين مليارًا ، وإعصارًا يكلف ما جمعه هذا البلد من دول متخلّفة خلال عشر سنوات ، إنه إعصار واحد ، الأمر بيده ، لا سبيل إلا أن نرضيه ، وإلا أن نكون طائعين له.

أحياناً تاجر يظن نفسه أنه ذكي ، يغش ، الذي جمَّعه في سنوات يدفعه في ساعة واحدة ، الله يورطه في مخالفة كبيرة جداً ، والغرامة تفوق طاقة احتماله ، فيدفع مئات الملايين في ساعة واحدة ، مع الله لا يوجد ذكي ، مع الله لا يوجد حكيم ، مع الله لا يوجد قوي ، لا ينجيك منه إلا أن تطيعه ، في حالة واحدة: يا رب لا ملجأ منك إلا إليك ، إلا أن تكون في طاعته ، والمعصية مع الذكاء لا تجدي ، المعصية مع الخبرة لا تجدي ، المعصية مع القوة لا تجدي .

كان رجل يهودي يعد من أغنى أغنياء العالم ، كان يقرض الحكومة البريطانية قرضًا ، خزائنه ، أمواله في غرفة لها باب محكم ، دخل مرة غرفة خزائنه ، وأغلق عليه الباب خطأً ، ومن عادته أن يسافر من حين إلى آخر ، ويفاجئ أهله بأسفاره ، فلم يسألوا عنه ، وقد ظنوا أنه مسافر ، ومات في غرفة خزائنه ، جرح يده ، وكتب على الحائط : أغنى رجل في العالم يموت جوعاً وعطشاً ..

كالعيسُ في الصحراء يقتلها الظما والماء من فوق ظهورها محمول

* * *

أنا لا أذكر هذا منتقداً أبداً : طبيب في أمريكا ، روَّج قضية الجري لسلامة القلب ، فكان يجري في اليوم ساعتين ، وهو يؤكِّد بمقالات ، وبلقاءات ، وبندوات أن صحة القلب في الجري ، وهذا كلام صحيح ، وأنا لا أنقده أبداً ، إلا أنه نسي الله ، واعتمد على الجري وحده ، فمات وهو يجري في مقتبل العمر ، وهو طبيب قلب .

قد تجد أحياناً بعض المتخصصين في أعلى مستوى يؤخذون باختصاصهم ، لأنهم اعتمدوا عليه ، ونسوا الله عز وجل ، والذي يعتمد على ذكائه يخفق ، والذي يعتمد على ماله يفتقر ، والذي يعتمد على مَن حوله وينسى الله عز وجل يقلبون له ظهر المجن ، لا تعتمد إلا على الله ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي)) .

[البخاري]

لا تعتمد لا على زوجة ، ولا على ولد ، ولا على صديق ، ولا على صحة ، ولا على مال ، من أدعية النبي الرائعة الثابتة ما ثبت عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)) .

[مسلم]

فجأةً ، بثوان معدودة تنقلب من شخص متألق إلى شخص مهمل ، فخثرة من الدم لا يزيد حجمها على رأس دبوس ، لو تجمدت في إحدى شرايين الدماغ لفقدت الحس والحركة .

والله كنت في العيد أزور بعض الأشخاص ، أعرفه إنساناً متألقاً ، ذكياً ، حكيماً ، أنا لا أعلم أنه مريض ، استقبلنا ، وبدأ يتكلم كلامًا غير معقول أبداً ، سألت ابنه فقال لي : والله عنده خثرة بالدماغ ، أين ذكاؤه ؟ أين عقله ؟ أين حكمته ؟ أين استقباله ؟ وأين ترحيبه بالناس ؟؟! يتكلم كلامًا غير معقول إطلاقاً ، كلام ليس له معنى ، أحضر وثائق ، وأتى بصور ، وتكلم كلامًا غير معقول ، أنا استحييت والله من زيارته ، فكل شخصيتك ، وقوة شخصيتك منوطة بسيولة الدم في دماغك ، وكل شخصيتك منوطة بقطر الشريان التاجي ، هذا أخطر شريان بالإنسان ، وكل شخصيتك منوطة بنمو الخلايا ، فإذا تفلّتت انتهى كل شيء .

والله مرة كنت عند مريض ، جاءه اتصال هاتفي ، هاتف قديم صوته عالٍ جداً سمعت الطرف الآخر عن بعد ، قال له : أي مكان بالعالم نأخذه ، وأي مبلغ ؟ فقال الطبيب له : لا أمل ، والمرض بالدرجة الخامسة ، لا تغلب نفسك ، وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مرد له ، فالأمر بيد الله عز وجل ، الدين كله توحيد ، ألا ترى مع الله أحداً ، فالله عز وجل يشهد لك ، تأخذ بالأسباب كلها ، ولا تنجح ، وربما لا تأخذ بها اضطراراً ، ليس تهاوناً ، وربما لا تأخذ بها اضطراراً فتنجح ، عرفت الله من نقض العزائم ، وهذا الشيء يحتاج الأمر إلى من يتفهمه ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ

مَن هم أولو العلم ؟

عند بعض المفسرين آراء لطيفة حول أولي العلم ، مَن هم ؟ بعضهم قال : الأنبياء عليهم السلام ، لأن مقام النبوة مقام علم ، ومقام الرسالة مقام علم وتبليغ معاً ، وقال بعضهم : هم المؤمنون ، لأنه ما من مؤمن إلا وعنده الحقيقة ..

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

(سورة الأنعام : من الآية 83)

يكفي العلم شرفا أن الله قرن أهله باسمه :

على كلٍ هناك ملمح لطيف ، هذا يسعدنا جميعاً ، قال : لو كان أحدٌ أشرفَ من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

لو كان في خلقه جميعاً أحدٌ أشرف ممَّن طلب العلم ، وممن تعلم العلم ، وممَّن علَّم العلم لقرنه الله مع اسمه ، من هؤلاء الذين قرنوا مع اسم الله ؟ هم الذين طلبوا العلم ، فطلبكم للعلم شرف كبير ، ومنحة عظيمة ، وهو عطاء الأنبياء ..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

(سورة يوسف : من الآية 22)

ولكن الله عز وجل أعطى المال لمن لا يحب ..

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص : من الآية 76)

أعطى الملك لمن لا يحب ، أعطاه لفرعون ، أعطى المال لمن لا يحب ، أعطاه لقارون ، أما العلم والحكمة فما أعطاهما الله إلا لمن يحب ، قال :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22))

(سورة يوسف: من الآية 22)

فإذا سمح الله لك أن تطلب العلم ، وإذا سمح الله لك أن تصغي إلى أهل العلم ، وإذا سمح الله لك أن تعلّم العلم ، وإذا سمح الله لك أن تخدم أهل العلم ، وإذا سمح الله لك أن تكون في خدمة العلم ، فهذا وسام شرف كبير ، وهذا أعظم عطاءٍ إلهي .

الآن الله عز وجل يأمر نبيه ، قال له :

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي)

(سورة طه : من الآية 114)

ما هو الشيء الثمين العظيم الذي أراده الله لعباده المؤمنين ؟ قال :

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه)

لم يقل : زدني مالاً ، يا رب زدني جاهاً ، يا رب زدني ذرية ، لا ، لا ..

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه)

لمجرد أنك طلبت العلم ، وأنك تحضر مجالس العلم ، وأنه يسمح لك من حين لآخر كي تعلّم العلم فهذا وسام شرف كبير ، ويقول عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)) .

[الترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وأحمد عن أبي الدرداء]

والعلماء أمناء الله على خلقه ، والعلماء يحبهم أهل السماء ، ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة ، واسأل نفسك : ماذا أقامك ؟ الله قد يقيم إنسانًا بعمل لا يرضيه ، طبعاً باختياره ، قد يبنى عمله على ابتزاز أموال الناس ، أو على إدخال الخوف إلى قلوبه ، وقد يكون عملك تعليم العلم ، وقد يكون عملك إنفاق المال في سبيل الله ، وقد يكون عملك بناء المساجد .

ذات مرة افتتح مسجداً في ريف دمشق ، وقد حضرت افتتاحه ، وكان إلى جانبي مسؤول الأوقاف ، قلت له : اشكر الله عز وجل على أن الله أقامك في افتتاح المساجد ، وتعيين الخُطَباء ، فهناك من يفتتح الملاهي ، ويعلّم الراقصات ، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك .

ما مهمتك في الحياة ؟ هل مهمتك العطاء أم الأخذ ؟ إشاعة الأمن في الناس أم إشاعة الخوف ؟ إكرام الناس بالمال أم ابتزاز أموالهم ؟ أنت تابع لمَن ؟ تابع لخالق السماوات والأرض ، أم تابع لجهة أرضية تأتمر بأمرها ، وأنت أداة بيدها ؟ وكلما عرفت قيمة نفسك أبيت أن تكون لأحد إلا أن تكون لله الواحد القهار ، شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس .

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

اشهد يا طالب العلم للناس بعدالة الله :

ملمح ثان : إن كنت من أهل العلم حقيقةً ، إن كنت من طلاَّب العلم حقيقة فاشهد للخلق بعدالة الله ، وهناك دعوات إلى الله غير معقولة ، يقول لك : نحن ملك الله - فعلاً نحن ملكه - يفعل بنا ما يشاء ، يضعنا في النار ، أم في الجنة ، هكذا ، ولا يحق لنا أن نعترض ؟! هذه ليست دعوة لله عز وجل ، هذه دعوة منفرة ، يأتون بمثال : نجار عنده لوحان من خشب ، وضع أحد الألواح بابَ قصر ، والثاني باب مرحاض ، ألك عنده شيء ؟ لا ، أما لو كان اللوح الرديء وضعه باب مرحاض ، واللوح النظيف باب قصر فهذا عمل حكيم ، فهنا من أجل أن يؤكدوا أن الله يملك كل شيء ، قد لا ينتبهون ، فيصفون الله بالظلم ، الله عز وجل قال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

(وَهَلْ نُجَازِي إلا الْكَفُورَ(17))

(سورة سبأ)

آيات كثيرة تؤكد عدالة الله عز وجل ..

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ)

(سورة لقمان : من الآية 16)

إذاً : حينما اقترن اسم العلماء مع اسم الله الأعظم ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

طالب العلم المتواضع شريف عند الله والناس :

ليس هناك على وجه الأرض أشرف من طلب العالم ، من طالب العلم ، والملائكة تضع أجنحتها لطلاَّب العلم رضاً بما يصنعون .

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

إذاً طالب العلم يبيِّن عدالة الله ، طالب العلم يبيِّن فضل الله ، أيها الإخوة ، والله أنا أستحيي أن أقول : أنا عالم ، أقول : طالب علم ، كن أديباً مع الله ، أكبر علماء الأرض طلاَّب علم ، لا تقل : عالم ، لأن الله عز وجل قال :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً(85))

(سورة الإسراء)

ذات مرة شاب داعٍ إلى الله عز وجل ، يبدو أنه ألقى دروساً في بغداد ، وتحلق الناس حوله ، وأقبلوا عليه إقبالاً شديداً ، بعض من يعلم في العلم من التقليديين امتلأ صدره غيظًا منه ، فجاء إلى مجلسه كي يسفهه ، فحضر الدرس ، وفي نهاية الدرس وقف ، وقال :

ـ يا هذا ، هذا الذي تقوله ما سمعناه ، من أين جئت به ؟ هذا ليس علمًا .

ـ قال له : يا سيدي ، وهل حصَّلت العلم كله ؟ سؤال محرج ، إذا قال له : نعم خالف الآية :

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة : من الآية 255)

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً(85))

(سورة الإسراء)

ـ قال له : كلا والله .

ـ قال : كم حصلت منه ؟

ـ قال له : شطره .

ـ قال : هذا الذي قلته في هذا الدرس من الشطر الذي لا تعرفه .

فالإنسان ليكن متواضعًا ، لا تقل : أنا أعلم ، قل : أنا أعلم بفضل الله ، لذلك يظل المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل ، لمجرد أن تقول : أنا أطلب العلم فأنت عالم ، ولا ضير عليك أن تقول : لا أدري ، وهذا وسام شرف آخر ، النبي الكريم سئل أسئلة كثيرة قال : لا أدري ، حتى يأتي الوحي ، فجاء الوحي فأجاب ، وهو قمة العلم في الأرض كلها .

على كلٍ أكبر شرف تحوزه أن تطلب العلم ، أن تطلب العلم النافع ، هناك علم ممتع ، وهناك علم ممتع نافع ، وهناك علم ممتع نافع مسعد ، إنه معرفة الله ، ممتع نافع مسعد ، قد تقرأ في النعي : أن هذا من أعلم علماء الأرض في هذا الموضوع ، مات ، وانتهى ، أما إذا كان يعرف الله فعلمه ينفعه بعد الموت، أما إذا كان غافلاً عن الله ، وكان متفوقاً في العلم فعلمه ينفعه في الحياة الدنيا ، أما إذا عرف الله عز وجل فينفعه علمه في دنياه وفي أخراه ، فدقق في هذا .

هناك علم ممتع ، لو قرأت قصيدة في الأدب الجاهلي لوجدتها ممتعة ، هناك علم ممتعٌ نافع ، معك اختصاص نادر ، دخلك فلكي ، هذا علم ممتع نافع ، وهناك علم ممتع نافع مسعد في الدنيا والآخرة ، وهو أن تعرف الله ، لبعض علماء القلوب كلمة : **" إنه حيث ما وردت كلمة العلم في القرآن فإنما تعني العلم بالله "** .

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أيها الإخوة ... شيء آخر ، يقول الله عز وجل :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

1 ـ لابد من الدعوة إلى الإسلام أن تكون صحيحة :

ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، ولكن اسمعوا هذه الحقيقة : مَن دعي إلى الإسلام بدعوة هزيلة ، دعوة سطحية ، دعوة غير متماسكة ، دعوة متناقضة ، مَن دعي إلى الإسلام من خلال داعية لا يطبق ما يقول ، ولا تجد مصداقية فيما يقول ، من دعي إلى الإسلام بمضمون غير علمي ، وبأسلوب غير تربوي ، وبتناقض بين القول والعمل ، هذا المدعو إلى الإسلام بهذه الطريقة ليس مبلَّغاً عند الله ، لأنه رُكِّب في أعماقنا أن الله عظيم ، وينبغي أن يكونه دينه عظيمًا ، ينبغي أن يكون شرعه عظيماً ، حتى أدى الأمر ببعض العلماء إلى أن يقول : **" الشريعة عدل كلها ، رحمة كلها ، حكمة كلها، مصلحة كلها ، فأية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة ، من العدل إلى الجور ، من الحكمة إلى خلافها ، ليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل "** .

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

2 ـ الإسلام دين الأنبياء جميعا :

والذي يلفت النظر أنك إذا قرأت آيات القرآن تفاجأ أن كل الأنبياء على الإطلاق وصفوا بأنهم مسلمون، إذاً : هو دين واحد عند الله عز وجل ، وهو أن تعرفه ، وأن تستسلم له ، وهذا منطوق قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ)

(سورة البقرة : من الآية 62)

كلهم سواء ..

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62))

(سورة البقرة : من الآية 62)

3 ـ الإسلام استقامة :

اضغط كل المعلومات عن الأديان بكلمتين : أن تعرف الله ، وأن تطيعه ، أن توحِّده وأن تعبده ، إن وحَّدته وعبدته حققت الهدف من وجودك ، فالدين المقبول عند الله أن تستسلم له ، أن تنصاع له ، أن تطيعه ، أما هناك من يعجب بالإسلام ، يقول لك : مفكر إسلامي ، ليس مستقيماً ؛ لا في بيته ، ولا في عمله ، ولا في علاقاته ، ولكنه مفكر إسلامي ، هذا شيء يخالف منطوق هذه الآية :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

فأنت ممكن أن تعجب بطبيب ، أو بمهندس ، أو بعالم آثار ، أو بمؤرخ ، أو بفلكي ، ولا يعنيك أمر استقامته في سلوكه ، ولا تربط بين علمه ولا سلوكه إطلاقاً ، إلا رجل الدين لا يمكن أن تستمع إليه ، ولا أن تصغِي له إلا إذا كان مطبقاً لما يقول ، فإن الدين عند الله أن تكون مطيعاً له ، أما مفكر إسلامي لا يصلي ، مفكر إسلامي يلتقي مع الكاسيات العاريات ، ويملأ عينه من محاسنهن ، يقول لك : مفكر إسلامي ، له خلفية إسلامية ، نزعة إسلامية ، أرضية إسلامية ، منطلقاته إسلامية ، عواطفه إسلامية ، اهتماماته إسلامية ، ولكنه في النهاية ليس مسلما ، فإن الدين عند الله الإسلام ، العبرة أن تطيع الله ، أن يرى هذا في كلامك ، في حركاتك ، في سكناتك ، في بيتك ، في عملك ، في مشيك في الطريق ؛ أتغض البصر عن محارم الله ؟ أم تملأ عينيك من الحرام ؟ هذا الإسلامي . بالمعنى اللغوي إن الدين عند الله أن تكون مطيعاً لله ، هذا التدين الحقيقي ، أما في آخر الزمان فيصير التدين تقاليد وعادات ، وفلكلورًا ، وثقافة ، وعلمًا ، مظاهر ، استعراضًا ، يقول لك مثلاً : الآثار الإسلامية شيء جميل ، مكتبة إسلامية ، الزخرفة الإسلامية ، الخط العربي الإسلامي ، الخط الزخرفي الإسلامي ، كله صحيح ، لكن نريد إسلاماً ، نريد كما كان الصحابة ، كانوا يعرفون الله ويطيعونه ، فهذه الأشياء مادية ، زخرفية ، نسميها حضارية ، سميها تراثية ، أما الإسلام فأن تطيع الله فقط .

والله ذات مرة التقيت مع شخص يحمل شهادات متنوعة ، وكلها دكتوراه ، وله مكانة عندي ، ثم قال لي : أنا لا أصلي ، سبحان الله كيف لا تصلي ؟!! هذا الذي خلق السماوات والأرض ألا يستحق أن تعبده ؟ أنت أكبر من ذلك ؟ حينما لا تعرف الله لست عند الله عاقلاً أساساً ، من هو المجنون ؟ النبي الكريم مشى في الطريق رأى مجنوناً ، فسأل أصحابه سؤال العارف قال :

ـ من هذا ؟

ـ قالوا : مجنون .

ـ قال : لا ، هذا مبتلى ، المجنون من عصى الله .

بين الذكاء والعقل :

حينما وجدت هذه المعاني وجدت أنه لابد من التفريق بين الذكاء والعقل ، فما كل ذكي بعاقل ، فقد تجد إنسانًا قمة في العلم ، فكره قوي ، ومعلوماته غزيرة ، ومنطقه قوي ، ودر عليه علمه أموالاً فلكية ، ولكنه يشرب الخمر ، ولا يصلي ، فما كل ذكي بعاقل ، ولكن كل عاقل ذكي ، العقل أن تعرف الله ، وأن تعرف سر وجودك ، وغاية وجودك ، هذا هو العقل ، وأما الذكاء فأن تتقن اختصاصاً ، أن تتقن اختصاصاً عالي المستوى ، هذا ذكاء ، ولحكمة بالغة بالغ أرادها الله جعل أحقر حيوان نشمئز جميعاً منه ، والله من اسمه نشمئز ، أذكى الحيوانات ، فهذا الذكي إن لم يكن تقياً فينبغي ألا يفخر بذكائه ، ذكاء شيطاني ، هؤلاء الغربيون والله عندهم ذكاء مذهل ، فقد جمعوا أموال الدنيا عندهم ، يعيشون حياةً تفوق حد الخيال ، ولكنهم لأنهم ما عرفوا الله ، وما عملوا لآخرتهم فهم واللهِ أغبياء جداً ، لأنهم سوف يدفعون الثمن باهظاً عند الموت ، هؤلاء الذين يقتلون الصغار في فلسطين ، يتوهَّمون أنهم أذكياء معهم أسلحة فتَّاكة ، أنت قوي على طفل ؟! أسلحة فتاكة على طفل ؟! هذا ذكاؤك ؟ الله عز وجل قال :

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 190)

طفل مندفع ، ببندقية دقيقة الإصابة ترديه قتيلاً ، أنت مسيطر ، لابد أن تعرف الحقيقة : أنه لابد من يوم يدفع الإنسان ثمن أعماله كلها مهما كان كبيراً ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام : من الآية 94)

تأتي الله وحدك ، لا معك أحد ؛ لا نصير ، لا جماعة ، لا أتباع ، وحدك ، وتحاسب عن أعمالك كلها ، فهناك قصة أنا أرويها لكم ، طريفة للموعظة ، رجل من أغنياء مصر الكبار ، وافته المنية ، وأولاده من شدة محبتهم له خافوا عليه من أول ليلة يوضع في قبره ، القبر مخيف ، واحد ينتقل من بيت ثمنه خمسون مليونًا إلى قبر ، لا يوجد قبر بخمس نجوم أساساً ، ولا قبر فيه بلاط ، كله تراب مُمَدَّد ، أنت حينما تشيع ميتاً ينبغي أن تكون متعظاً ، هذا الذي يوضع في القبر البارحة كان بغرفة نوم ثمنها ثمانمئة ألف ، كان عطاءه من أرقى أنواع الصوف ، وغرفة نومه كانت ثمانية بخمسة ، كبيرة ، ومطبخ ، وعرفة استقبال ، وبيت فخم ، وسيارتان أو ثلاث ، أين هو الآن ؟ في قبر الصغير .

طلبوا من رجل فقير جداً أن ينام مع ميت أول ليلة ، أعطوه عشرة جنيهات فطار عقله ، فقبل ـ هي قصة رمزية ليست حقيقية ـ جاء الملكان فرأوا شخصين في القبر ، فقالوا : هذا شيء جديد علينا ، يبدو أن الحي خاف ، فتحرك ، قال له : الثاني حي ، وليس بميت ، تعال نبدأ به ، من شدة فقره كان يلبس كيس خيش ، فيه فتحة لرأسه ، وفتحتان ليديه ، وربطه بحبل ، لا يوجد أفقر من هذا

، أن تلبس كيساً من الخيش ، سألوه عن الحبل من أين جاء به ؟ قال لهم : الحبل أخذته من بستان ، كيف دخلت للبستان؟ فارتبك ، فضربوه ، كيف دخل البستان ؟ الحبل كيف أخذه ، ما زال موضوعا ثانيًا ، وهو كيس الخيش، فخرج من القبر مذعورًا ، قال لهم : نسأل الله أن يعين أباكم .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

اصطاد أحدهم عصفورًا لغير مأكلة ، والموسم صيد ، ذهب الصياد إلى صحراء معه سيارته ، رأى عصفورًا ، فقال : هذا العصفور يأتي يوم القيامة له دوي كدوي النحل ، يقول : يا رب سله لم قتلني ؟ والله ستحاسب عن عصفور ، وعن هرة حبستها ، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا ، فَلَمْ تُطْعِمْهَا ، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)) .

[متفق عليه]

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

مَن هو الذكي ؟ قبل أن يفعل شيئاً يهيِّئ جواباً لله عز وجل ، كيف ينجو من حساب الله ؟ هذا المؤمن ، لذلك إن الدين عند الله الإسلام ، التدين الصحيح أن تخضع لله ؛ في كسب مالك ، في إنفاق مالك ، في إطلاق بصرك ، في استخدام أذنك ، في استخدام حركاتك وسكناتك .

اليوم ذكرت في الخطبة :

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ)

(سورة غافر : من الآية 19)

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور

أعجبني شرح بعض العلماء قال : إنسان في مجتمع ، مرت امرأة ، له مكانة ، غض بصره حفاظاً على مكانته عند هؤلاء ، ثم نظر إليهم ، فإذا هم غير منتبهين له ، فاسترق نظرةً إليها ، فلما رآهم انتبهوا غض بصره عنها ، هو يغض بصره حفاظاً على مكانته ، وإيهاماً لمن حوله أنه ورع ، فإذا شعر أنه غير مراقب ملأ عينيه من محاسنها ..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(19))

(سورة غافر : من الآية 19)

تحاسب إلى هذا المستوى ، هذا الحق ، هذه نصوص ، أما تقول الأستاذ زودها ، هذا موضوع ثان ، أنا أنقل لكم ما في الكتاب والسنة ، أنقل لكم كلام خالق الأكوان ..

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور : من الآية 30)

تقول لي : لا أقدر ، أقول لك : أنت ترد كلام الله ، لأن الله عز وجل يقول :

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة : من الآية 286)

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُم

فهناك اختلاف طبيعي ، أساسه نقص المعلومات ، وهناك اختلاف قذر أساسه الحسد ، والغيرة ، والتنازع على المصالح والرئاسات ، وهناك خلاف ممدوح ، خلاف التنافس ، خلاف التنافس محمود ، وخلاف البغي والعدوان مرذول ، والخلاف الطبيعي معذور ، فعندنا خلاف معذور صاحبه ، وخلاف قذر ، وخلاف محمود ، قال تعالى :

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(09-60): تفسير الآيات 20 - 25
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية العشرين ، وهي قوله تعالى :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ)

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ

1 - وجه الله :

(وجهي) أي ذاتي ، وقد استدل بعض العلماء بقوله تعالى :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26)وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

وجه ربك أي ذاته العَلَيَّة .

ومن أجمل ما قاله المفسرون في تفسير قوله تعالى :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26)وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

فكل عمل يعمله ابن آدم إلى زوال إلا عملٌ واحدٌ ابتغى به وجه الله ، هذا الذي يبقى إلى أبد الآبدين ، وهذا الذي يسعده إلى أبد الآبدين ، وهذا الذي يلقى جزاءه في يوم الدين .

إذاً :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ)

الإنسان يستعمل عقله لتغطية انحرافاته :

الإنسان أوتي جدلاً ؛ لأنه أوتي فكراً ، هذا الفكر خلقه الله ليكون أداة معرفته ، قد يستغل لغير ما خُلق له ، قد يستغله الإنسان ليغطِّي انحرافاته ، لذلك الجدل في القرآن مذموم ، وفي السنة أيضاً مذموم ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ : (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)))

[الترمذي ابن ماجه ، أحمد]

حينما يفكر الإنسان ليبرر ، يفكر ليغطي سلوكه المنحرف ، ليسبغ على سلوكه المنحرف مبررات ، ومسوِّغات معقولة ، إنه يستخدم فكره لغير ما خلق له .

لذلك مرةً جاءني شابٌ وقال لي : أنا ملحد ، قلت له : والله إن كان إلحادك عن منفعةٍ تنتفع بها فلست مستعداً أن أجلس معك ولا دقيقة ، أما إن كان إلحادك عن قناعةٍ بريئةٍ فأنا أجلس معك ، فأقسم لي بالله إنه عن قناعةٍ ، ولا عن انتفاع ، والمنتفع بكفره لن يؤمن .

كنت أضرب مثلاً لعله طريفٌ ، أن إنساناً عنده دابة يعمل عليها ، فلما ماتت بنى عليها بناءً ، وأعطى اسماً لوليٍ من عقله ، من اختراعه ، وجاءه الناس بالهدايا ، والإكرامات ، وعاش في بحبوحةٍ ما بعدها بحبوحة ، هل هناك قوة في الأرض يمكن أن تقنعه أن الذي دفن هنا حمار ؟ أو دابة ؟ لا ، مستحيل ، هو دفنه بيده ، قناعته بأن هذا المدفون دابة أشد من قناعة الذي يجادله ، ولكن هذا الدخل الكبير الذي جاءه بسبب هذه الخدعة ، هذه لن تجعله يقرُّ بالواقع ، هو منتفعٌ بهذا الافتراء ، فالإنسان حينما ينتفع بكذبٍ ، أو بنفاقٍ ، أو له مصلحة هذا لا يناقش ، والأولى ألا تناقشه ، وإلا فلست على علمٍ ، ولست على وعيٍ إطلاقاً ، المنتفع بكفره لا يناقش ، المنتفع بنفاقه لا يناقش ، المنتفع بفكرةٍ معينة ، بطرحٍ معين ، برأيٍ معين ، بمذهبٍ معين ، المنتفع لا يناقش ، لأنه استخدم عقله لغير ما خلق له .

لذلك كلمة الجدل أينما وردت في القرآن ليست ممدوحةً ، بل هي مذمومة :

((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ))

[الترمذي ابن ماجه ، أحمد]

والمسلمون حينما تخلفوا عن تطبيق منهج ربهم دخلوا في متاهاتٍ فيما بينهم ، وأوتوا الجدل ، وجُعل بأسهم بينهم ، ويأتون بجزئيَّات الدين ويكبِّرونها ، ويجعلونها أصلاً في الدين ، ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها إذا خالفهم أحدٌ في رأيهم ، هذا أيضاً من حب الدنيا .

فلذلك :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ)

3 - فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ

إنّ حقيقة هذا الدين أن تطيع الله ، حقيقة هذا الدين يغلب عليها الطابع العملي ، طابع التديُّن عملي ، وليس كما يقولون : نظري ، نظرياً هناك أناسٌ كثيرون لهم اهتمامات إسلامية ، لهم ثقافة إسلامية ، يجادلون ، يحاورون ، يناقشون ، ينحازون ، وأحياناً يفعلون المُنكرات من أجل إثبات رأيهم أو اتجاههم، والله عزَّ وجل يقول :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ)

أسلمت ذاتي له ، وخضعت لأمره ، وانصعت لأمره ، وأنا مطبقٌ لأمره .

(وَمَنْ اتَّبَعَنِ)

4 - وَمَنْ اتَّبَعَنِ

إذاً : على أي شيء كان النبي وأصحابه ؟ كما ورد في بعض الأحاديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً ، قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي))

[الترمذي]

لذلك أكبر تهمة توجه للمنحرفين عقدياً وسلوكياً أن تقول لهم : أنتم لستم على ما كان عليه النبي وأصحابه .

أول خطبةٍ خطبها الصديق رضي الله عنه قال فيها : << إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >> ، أنا متبع ، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو في أعلى درجة من الرقي يقول :

(إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ)

ثلاث نصائح تكتب على ظفر : اتبع لا تبتدع ، اتضع لا ترتفع ، الورع لا يتسع ، انفق باعتدال ، لا تسرف ، والمترفون في القرآن الكريم في ثماني مواضع هم كفار :

(وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة المؤمنون : من الآية 33)

فاتبع لا تتبع ، اتضع لا ترتفع ، الورع لا يتسع .

إذا عم النقاش غير الموضوعي فعليك بكتاب الله وسنة رسوله :

أيها الإخوة ، مرة ثانية : هناك عقل صريح ، هذا أداة معرفة الله ، وهناك عقلٌ تبريري ، هذا أداة لتغطية الانحراف ، وما كلُّ فكرٍ تقرأه فكرا صريحا ، قد يكون فكراً تبريرياً ، قد يكون فكراً لتغطية انحرافٍ شديد ، الإنسان منطقي في الأساس ، حتى لو ارتكب جرائم يفلسف هذه الجرائم ، ويجعلها مبررة ، حتى لو أكل أموال الناس بالباطل ، يفلسف هذا الانحراف ، حتى لو كان زير نساءٍ ، له كلامٌ مزينٌ يقوله ، فالعبرة ما جاء به الوحي ، فهناك مقولات لا تنتهي ، هناك طروحات لا تنتهي ، هناك آراء لا تنتهي ، العبرة أن تصطفي من كل هذه المقولات ما جاء به الوحي ، لأنه من عند الله ، ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، القاعدة الثابتة التي لا تتزحزح ، ولا تتزلزل الكتاب والسنة ، ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنة رسوله ، هذا منهج ، هذا صراط مستقيم ، هذا حبل الله المتين ، هذه سنة النبيين ، إذا انتشر الجدال ، وعمَّ النقاش السفسطائي ، إذا فشا الحوار غير موضوعي فقل :

(أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ)

فعندنا نقل ، وهو الدين ، وعندنا عقل ، العقل له دورٌ في التأكُّد من صحة النقل قبل أن نقرأ النقل ، وله دورٌ في فهم النقل بعد أن نقرأ النقل ، له دورٌ قبل النقل في التأكد من صحته ، ودورٌ بعد النقل في فهمه، لكن لن يكون العقل حَكَمَاً على النقل ، لأن العقل قد يخطئ ، وقد يصيب ، وقد يبالغ ، وقد يرتبط بواقع معيِّن ، فكما أن أجدادنا لو قاموا من قبورهم ، ورأوا ما فعله الإنسان من إنجازات لم يصدقوها ، لأن عقولهم وقتها مرتبطة بواقعٍ معين ، لكن حينما يرَوْنَ أن هذه الأشياء المستحيلة أصبحت واقعاً ، إذا أنكروها ما كانوا على صواب ، إذاً : العقل مرتبط بالواقع ، أما النقل فمرتبط بخالق الأكوان بشكلٍ أو بآخر ..

(فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ)

الأميون هم مشركو العرب :

الأميين هنا أي مشركي العرب ؛ لا دين لهم ، هم على فطرةٍ فيها سذاجة ..

(مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر : من آية " 3 ")

ففي الجزيرة كان هناك مشركون ، وكان هناك أهل كتاب ..

(وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ)

معنى : أَأَسْلَمْتُمْ

المعنى الأول :

أيها الإخوة ... أأسلمتم ، أي أسلِموا ، يعني ألم تسلموا بعد ؟! أأسلمتم ، أي أسلموا ، وماذا تنتظرون ؟

هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني :

هو تهديد ، أأسلمتم أم لم تسلموا ؟

أول معنى تقرير ، وفيه معنى الإنشاء ـ الأمر ـ وفيه معنى الاستفهام التقريري ، ألم تسلموا بعد ؟ وفيه معنى الطلب ، أسلموا ، ومعنى التهديد أسلمتم ، أم لم تسلموا ؟..

(وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ)

1 ـ مهمةُ الأنبياء التبليغُ والقدوةُ :

الإنسان مخيَّر ، ومهمة الأنبياء تنتهي بالتبليغ ليس غير ، هناك مهمَّتان كبيرتان للنبي الكريم ؛ إحداهما مهمة التبليغ ، وثانيتهما مهمة القدوة ، ولعل مهمة القدوة أخطر ، وأبلغ من مهمة التبليغ ، فأيّ إنسان أوتي فصاحةً ، وبياناً ، وذاكرةً ، وفهماً ، وحفظاً يُبَلِّغ ، لكن الذي يؤثر ، هناك مَن يقنعك ، وهناك من يحملك على اتخاذ موقفٍ معين ، الذي يقنعك فصيحٌ بليغٌ عالم ، أما الذي يحملك على أن تقف موقفاً إيجابياً من الدين فهو القدوة ، لذلك نحن في حاجةٍ ماسةٍ إلى قدوةٍ صالحة .

كيف قيل : إن النبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي ، نحن في حاجةٍ إلى مسلمٍ يتحرَّك أمامنا ، مسلم صادق ، أمين ، عفيف ، طاهر ، منصف ، متواضع ، رحيم ، هذا أبلغ كما كنت أقول لكم دائماً : حالُ واحدٍ في ألف أبلغُ من قول ألفٍ في واحد ، قول ألف رجلٍ فصيحٍ في واحد ربما لا يؤثرون ، وحال إنسانٍ مخلصٍ ، متصلٍ بالله ، وحال واحدٍ أبلغ من قول ألف .

إذاً:

(وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا)

لذلك ما كل ذكيٍ بعاقل ، قد تكون متفوِّقاً في اختصاصٍ نادر ، ويدرُّ لك هذا الاختصاص أرباحاً طائلة، وأنت عند الله لست بعالم ، ولست بعاقل ، مَن هو العاقل ؟ الذي عرف الحقائق الكُبرى ؛ الذي عرف الله عزَّ وجل ، وعرف حقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، وحقيقة الإنسان ، وعرف مهمة الإنسان في الأرض ، وسر وجوده وغاية وجوده ، فإذا عرف ذلك ، وطبق ما عرف ، صار حكيماً ، فالذي يؤتى الحكمة أن تعرف ، وأن تعمل وفق ما عرفت ، فقد أوتي خيراً كثيرا ..

(فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا)

2 ـ إما هدى وإما ضلال :

ليس هناك إثنينية ، الحق واحد ، فإن لم تكن على الحق ـ لا سمح الله ولا قدر ـ فأنت على الباطل ، إن لم تستجب لله فأنت تتبع الهوى ، أبداً ، لك عقلٌ صافٍ يأمرك أن تؤمن بالله وأن تطيعه ، ولك نزواتٌ ، وشهواتٌ ، وغرائز تأمرك أن تشبعها بأيَّة طريقة ، فإن لم تكن على الحق فأنت على الباطل حتماً ، وليس هناك خطٌ ثالث ، فهما خطَّان لا ثالث لهما ؛ أن تكون متبعاً للحق ، وأتباع الحق متوادُّون ، متحابون ، متناصحون ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون ، ولو ابتعدت منازلهم ، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ، ولو اقتربت منازلهم))

[البيهقي في شعب الإيمان]

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[أحمد عن ابن عمر]

لو كنا جميعاً على الحق لكان بيننا من الود والحب الشيء الذي لا يوصف ، وهكذا كان أصحاب النبي رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ، كانوا على مودةٍ فيما بينهم ، وكان بأسهم على غيرهم ، أما المسلمون حينما أصابوا ذنوباً كثيرة صار بأسهم بينهم ، وصار دينهم الجَدَل .

الإسلام والله بسيط أيها الإخوة ، الإسلام بسيط جداً ، وينبغي أن نبسِّطه ، هو هواء ينبغي أن نستنشقه دائماً ، حاجتنا إلى الدين كحاجتنا إلى الهواء ، استنشاق الهواء ليس فيه تعقيد ، ولا فاتورة ، ولا عداد ، أينما ذهبت فهناك هواء تستنشقه ، لذلك الدين حاجتنا إليه أساسية جداً ، الإنسان خُلِقَ ضعيفاً ، خلق هلوعاً ، خلق عجولاً ، ما الذي يلغي ضعفه ؟ اتصاله بالله ..

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلا الْمُصَلِّين)

(سورة المعارج)

ما الذي يلغي ضعفه ؟ أن يستعين بالله ..

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقارِ إليك فقري أدفع

* * *

أنت قويٌ بالله ، أنت عالمٌ بالله ، أنت حكيمٌ بالله ، أنت غنيٌ بالله .

أيها الإخوة :

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ)

3 ـ من الإسلام التسليم بأحكام الله كلها من غير نقاش :

جميل جداً أن تعلل ، وأن تبيِّن ، وأن توضح ، والأجمل من ذلك أن تتبع ، والمؤمن الصادق لا يعلّق تطبيقه لأمرٍ من أوامر الله على فهمه ، أو على فهم حكمته ، هو عندئذٍ يعبد نفسه ، هو عندئذٍ لا يعبد ربه ، متى يعبد ربَّه ؟ حينما يثبت له أن هذا أمر الله ، فيطبقه ، فهمه أو لم يفهمه ، اقتنع به ، أو لم يقتنع به ، أحب ذلك ، أو لم يحب ، لأن في اعتقاده أن علة كل أمر أنه أمر .

مرة كنت في جلسة ، نشب جدلٌ طويل بين التعدد ، وعدم التعدد ، الذي يتحدَّث عن التعدد هو تعدد ، يعني تزوج عدة زوجات ، ويقول : هو الأصل ، والذي بقي على زوجة واحدة يقول : لا التوحُّد هو الأصل ، واختلفوا ، قلت كلمة ، قلت : أنا مرةً سمعت سؤالاً موجهاً إلى أستاذة في الجامعة في

مصر عن التعدد ، أجابت إجابة لم أر إجابة أكثر وضوحاً وأصولية منها ، قالت : كيف لي أن أدلي برأي في التعدد ، وقد سمح الله به ؟ ما دام قد سمح الله به فلا معنى أن أدلي برأيٍ في التعدد .

فالإنسان يجب أن يوطن نفسه على أن يرى أن هذا أمر الله ، انتهى الأمر ، لا يمكن أن يخضع أمراً إلهياً للمناقشة العقلية ، يفكر فيه بعقله ليكتشف إيجابيَّاته فقط ، ليكتشف حكمته ، أما أن يضعه على بساط البحث ليقبله أو ليرفضه ، معاذ الله ، عندئذٍ ليس مؤمنٍ ..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من الآية 36)

4 ـ تطبيق أحكام الله لابد أن تكو ابتغاء مرضاته :

بالمناسبة ، هناك معنى دقيق جداً ، أنت حينما تكتشف أن هذا الشيء لصالحك تفعله وتضعف درجة العبادة فيه ، وحينما ترى شيئاً يتضارب مع مصالحك ، وتضع قدمك فوق مصالحك ، وتطبق هذا الشيء ابتغاء مرضاة الله ، يرتفع هنا مستوى العبادة في هذا الشيء ، إذاً : دائماً مستوى التعبد يرتفع وينخفض بحسب ما إذا كان هذا الشيء واضحاً جداً أنه لصالحك ، والإنسان إذا قام ونظف أسنانه قبل أن ينام ، هل يشعر أنه يضحي في سبيل الله ؟ لا والله ، هو يصون أسنانه ، لأنه واضح جداً أن صيانة الأسنان لمصلحة الإنسان ، إذاً : إذا قام إلى هذا العمل لا يشعر أنه يعبد الله ، مع أن تنظيف الأسنان من السنة ، لكن درجة التعبد في هذا العمل ضعيفة ، والمصلحة تغلب عليها ، أما حينما يقال لنبيٍ كريم وهو أبو الأنبياء : اذبح ابنك ، وابنه نبيٌ مثله ، وبلغ معه السعي ، وهو فتىً في ريعان الشباب ، ولا يعلم من هو الابن إلا الأب ، فيقول :

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ(102))

(سورة الصافات)

هنا تنتفي المصلحة ، وينتفي المنطق ، فأنت حينما تقبل على تنفيذ أمرٍ تعارض مع مصلحتك ، فآثرت طاعة الله على مصلحتك ، أنت ارتقيت إلى أعلى مستوى في العبودية لله ، فإن فعلت هذا انصياعاً لله ، وامتثالاً لأمره دون أن تكشف حكمته ، الآن ، يكافئك الله على هذا الانصياع ، وعلى هذا التعبُّد أن يكشف لك حكمته ، فتجمع بين مرتبة العلم وبين مرتبة العبادة ، هذا شيءٌ دقيقٌ جداً ، المؤمن لا يعلق أبداً على تطبيق أمرٍ إلهي فهمه لهذا الأمر ، لا يجعل فهمه ، وفهم حكمته ، وتعليله عقبة أمام التطبيق ، ينطلق من قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من الآية 36)

ولكن يكافئه الله أنه يكشف له ـ كما قيل ـ : " مَن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم " ، يكشف الله له حكمة هذا الأمر فيغدو عابداً عالماً في وقتٍ واحد .

لكن أنا لا أقبل أبداً أن تضع الأمر الإلهي على بساط البحث ، فإذا قبله عقلك طبقته ، وإلا تقول : ما قنعت بهذا الأمر، هذا ليس سلوك المؤمن إطلاقاً ..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

أنت مع إنسان من جنسك ، لكنه عالم في الطب ، يقول لك : دع الملح ، ربما لا تجد حاجة إلى أن تسأله : لماذا ؟ يقول لك : هكذا قال الطبيب ، أنت لاحظ نفسك مع الخبراء الذين تستأجر خبرتهم ، تنفذ تعليماتهم بدقةٍ بالغةٍ مثيرةٍ للدهشة ، لأنك تعتقد بأنهم خبراء ، لكن مَن هو أخبر الخبراء ؟ قال تعالى :

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

اليوم في خطبة الجمعة ذكرت أن قول النبي الكريم :

((النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس ، من غض بصره أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه))

[مستدرك الحاكم عن حذيفة ، والطبراني في الكبير]

لكن النبي قال : ((سهمٌ مسموم من سهام إبليس)) ، فقد يفهم الإنسان أنه تضطرب حياته الاجتماعية والنفسية ، ولكن ثبت أخيراً ببحثٍ علمي أجري في البلاد العربية والإسلامية الشقيقة ، ودام هذا البحث عشرين عاماً ، أن الإنسان حينما يُتْبِع النظرة النظرة تجري في دمه هرمونات جنسية ، هذه الهرمونات تبدل نبض القلب ، وتبدل ضغط الدم ، وتبدل وضع البروستات ـ هذه الغدة ـ وتقبض الشُرَيْنات المتوسطة والصغيرة ، وتوسِّع الأوردة المحيطية ، وتبدِّل في كيمياء الدم ، وهناك آثار لا تنتهي في الجهاز الهضمي ، وفي جهاز القلب والدوران ، وفي الجلد ، كيف أن الغدد الدهنية والعرقية تتسع فوهاتها ، فالنتيجة بحث طويل ، تبيَّن أن النظرة إلى المرأة الأجنبية التي لا تحل لك ، إذا أتبعتها نظرةً ونظرةً ، فكأن هناك سمومًا تجري في دمك دون أن تدري ، ولها أثرٌ في القلب والأوعية ، وفي الجلد ، وفي بعض الغدد ، وما إلى ذلك ، فهذا كلام النبي ليس من عنده ..

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

أنت بلِّغ ، وعلى الله الباقي ، أنت إن بلَّغت أديت الذي عليك ، وبقي الذي لك .

ثم يقول الله عزَّ وجل :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ)

إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ

1 ـ معنى : وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ

سؤال جدلي : فلو أنهم قتلوا النبيين بحق أعليهم وزر ؟ هذا مرفوض ، هذا السؤال ، لأن هذا ليس قيداً احترازياً ـ كما يقول علما الأصول ـ هذا قيد وصفي ، يعني أنّ أيَّ قتلٍ للنبي هو بغير الحق ، ليس قيداً احترازياً ، إنما هو قيدٌ وصفي ، ومن شأن قتل الأنبياء أن يكون بغير الحق ..

(إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)

2 ـ الكفر بآيات الله الكونية والتكوينية والقرآنية :

وآيات الله كما تعلمون ، آيات الله الكونية الدالة على عظمته ، وآيات الله القرآنية الدالة على علمه ، وآيات الله الفعلية الدالة على حكمته ، فحينما يكفر الإنسان بها أي لا يعبأ بها ، ولا يتخذها وسيلة لمعرفة الله عزَّ وجل ، وبالمقابل هذا الذي أمره ونهاه ، وهذا الذي أعطاه منهجاً ، يتوهَّم أن هذا المنهج سيحدُّ من حركته ، ويلغي حريته في الحركة ، مثل هذا الإنسان ، كما قال الله عزَّ وجل ، يكفر بآيات الله ويقتل النبيين بغير بحق ، بل ..

(وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

لا أحَدَ أشقى ممّن يقف ضد الحق :

فلا أرى أن في الأرض أشقى ممن يقف ضدَّ الحق ، ممن يقف معادياً لأهل الحق ، ممن يكون في خندقٍ مضادٍ لخندق المؤمنين ، هذا أشقى إنسان على الإطلاق أن تكون مناهضاً للحق وأهله ، أن تكون عدواً للمؤمنين ، أن تكون عدواً لوحي السماء ، هؤلاء أشقى الناس على الإطلاق ، وأذكّر بقوله تعالى :

(إنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم)

هما امرأتان ؛ حفصة وعائشة ، لهما شأنٌ مع رسول الله ، فالردُّ كان :

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ)

في حياتنا المادية أيعقل أن امرأتين انتقدتا النظام يستنفر الجيش كله ، والقوى الجوية كلها ، والقوى البحرية كلها ، والقوى البرية كلها ، وكل أفراد الشرطة ؟ غير معقول ، فما معنى الآية ؟ قال الله عزَّ وجل : إن أردت أن تكون عدواً للحق ، مناهضاً له ، فاعلم مَن هو الطرف الآخر ، الطرف الآخر هو الله ، ورسوله ، وجبريل ، والملائكة ، وصالح المؤمنين .

إذاً : أشقى إنسان على الإطلاق هو الذي يناهض الحق وأهله ، هو الذي يعادي الله ورسوله ، هو الذي يؤذي المؤمنين ، هو الذي يبني مجده على أنقاضهم ، هذا إنسان من أشقى البشر ..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

يقول عليه الصلاة والسلام :

((بئس القوم قومٌ يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، بئس القوم قومٌ لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، بئس القوم قومٌ يمشي المؤمن بينهم بالتقيَّة))

[فيض القدير عن ابن مسعود]

بئس هؤلاء ، بئس القوم قومٌ خافهم المؤمن ، بئس القوم قومٌ مشى بهم المؤمن بالتقية ، يخاف أن يعلن إيمانه ، بئس القوم قومٌ يقتلون المؤمنين ، يقتلون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِين

1 ـ المسلم بعمله الصالح :

مَن أنت ؟ أنت عملك الصالح ، بعملك الصالح تسلم وتسعد وترقى ، فإن كان عملك سيِّئاً أنت أشقى الناس ، هكذا :

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

2 ـ هكذا يحبط العمل :

أي أن عملهم صار شريراً ، طابعه الشَر ، أو عملهم مقبول ، لكن نواياهم ليست سليمة ، أنت قد تكون بعمل ظاهره مقبول ، لكن النوايا دنيوية ، النوايا شهوانية ، النوايا مكاسب ، فحينما تكون

النية سيئة يُحْبَط العمل ، أو حينما يكون العمل سيئاً لا قيمة لنيته ، فشرطان كلٌ منهما لازمٌ غير كافٍ ؛ ينبغي أن يكون عملك صواباً ، وفق منهج رسول الله ، وينبغي أن يكون عملك خالصاً لوجه الله ، فإن فعلت هذا وذاك ، كان الله معيناً لك..

(أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا)

عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا ، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

3 ـ أخطر شيءٍ أن تكتشف أنك لست مفلحاً في الدنيا والآخرة :

أخطر شيءٍ أن تكتشف أنك لست مفلحاً في الدنيا والآخرة ، الدنيا تنتهي ، والموت ينهي كل شيء ، ينهي قوة القوي ، وينهي غنى الغني ، وينهي وسامة الوسيم ، وينهي صحة الصحيح ، وينهي مرض المريض ، والآخرة عُمْلتها الرائجة العمل الصالح الخالص لوجه الله ، فإن كان لك عمل صالح ليس لوجه الله ، حبط العمل ، وإن كان عملك ـ لا سمح الله ـ سيئاً ولو أن نيته صالحة لا قيمة له عند الله ، فلا تنسوا هذه الحقيقة : أن يكون خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وصواباً ما وافق السنة .

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله في الأرض ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه))

[من الجامع لأحكام القرآن عن الحسن]

وسأل النبي رجل من أصحابه قال : يا رسول الله مَن خير الناس ؟ قال :

((آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصلهم لرحمه))

[من تخريج أحاديث الإحياء عن درة بنت أبي لهب]

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ)

(سورة التوبة : من الآية 67)

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة التوبة : من الآية 67)

أيها الإخوة الكرام ... في قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(21)أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

4 ـ ينبغي تغيير المنكر بمراتبه وضوابطه الشرعية :

هناك حقيقةٌ ينبغي أن تكون واضحةً لديكم ؛ أنت حينما ترى منكراً ينبغي أن تقوِّمه ؛ بيدك إن كنت أميراً ، وبلسانك إن كنت عالماً ، وبقلبك إن كنت ضعيفاً ، فتقويم المنكر باليد من أولى خصائص الأمراء ، وتقويم المنكر باللسان من أولى خصائص العلماء ، وتقويم المنكر بالقلب من صفات الضعفاء، هذه ناحية .

الناحية الثانية : إذا كنت قادراً على أن تقوِّم المنكر بيدك ، ليس مقبولاً منك أن تقوِّمه بلسانك ، وإن كنت قادراً على أن تقوِّمه بلسانك ، ليس مقبولاً منك أن تقوِّمه بقلبك ، هذه مراتب أيضاً ، وحينما لا نأمر بالمعروف ولا ننهى عن المنكر يعمُّنا البلاء ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال : من الآية 25)

والله عزَّ وجل لم يكن ليهلك القرى بظلمٍ وأهلها ـ قال : مصلحون ، ولم يقل : صالحون ـ الصالح الذي لا يأمر ولا ينهى يهلك ، أما المصلح فهذا الذي ينجو من عذاب الله .

وقال عليه الصلاة والسلام :

((لا يحل لمؤمنٍ أن يذل نفسه ، قالوا : يا رسول الله ، وما إذلال نفسه ؟ قال : يتعرض من البلاء لما لا يقوم له))

[من الجامع لأحكام القرآن عن أبي هريرة]

أنت لست مكلفاً أن تأمر بمعروفٍ ، أو أن تنهى عن منكرٍ ، وتأتيك مصيبةٌ بعدها لا قِبَل لك بتحمُّلها ، هذا ما كلفك الشرع به ، إن نتج عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتنةٌ أشد من المنكر الذي تُنكره ففي هذه الحالة يقرر علماء الفقه أنه ليس عليك أن تنكر هذا المنكر ، لأنك لا تتحمل نتائج ما تنكر .

ورد حديث عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله ، متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال :

((إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم ، قلنا : يا رسول الله ، وما ظهر في الأمم قبلنا ؟ قال : المُلك في صغاركم ، والفاحشة في كباركم ، والعلم في أراذلكم))

[ورد في الأثر]

إذا كان العلم في الفُسَّاق ، كإنسان يحمل شهادات عليا ، لكنه فاسق ، فعندئذٍ كما قال عليه الصلاة والسلام :

((... بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعْ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ))

[الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني]

وإذا كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتنة أشد من المنكر الذي تنكره ، عندئذٍ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وقد ورد في بعض الأحاديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ ، فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ، بَطْنِهَا وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

ومن علامات آخر الزمان أن ترتفع النخوة من رؤوس الرجال ، وأن يذهب الحياء من وجوه النساء ، وأن تنزع الرحمة من قلوب الأمراء ، فلا رحمة في قلوب الأمراء ، ولا حياء في وجوه النساء ، ولا نخوة في رؤوس الرجال .

ثم يقول الله عزَّ وجل :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

1 ـ سبب نزول هذه الآية :

ورد في أسباب نزول هذه الآية ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت المِدْراس على جماعةٍ من يهودٍ فدعاهم إلى الله ، فقال نعيم بن عمرو :

ـ على أي دينٍ أنت يا محمد ؟

ـ فقال النبي : إني على ملة إبراهيم .

ـ فقالا : إن إبراهيم كان يهودياً .

ـ فقال النبي عليه الصلاة والسلام : فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم .

فأبيا عليه ، فنزلت هذه الآية :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

هؤلاء اليهود الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، والذين يرفضون أن يحتكموا إلى الكتاب ، ما الذي حملهم على ذلك ؟ قال :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)

2 ـ مشابهة المسلمين لليهود في بعض أقوالهم وأفعالهم :

وهؤلاء الذين قالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم سيشفع لنا ، ولو فعلنا ما فعلنا ، هذا المرض نفسه ، أنت إما أن تتعلق بالحقائق ، وإما أن تتعلق بالأماني ، والله عزَّ وجل يقول :

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ)

(سورة النساء : من الآية 123)

فاليهود قالوا :

(لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)

والمسلمون قالوا : نحن أمة محمدٍ مرحومة ، إذاً افعلوا ما تشاؤون ، هذه فِرْيَةٌ ما أنزل الله بها من سلطان ، هذه مقولةٌ قلناها نحن ، لكن الله عزَّ وجل يقول :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ :

((يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي هَاشِمٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

[مسلم]

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُون

1 ـ يخترعون عقائد زائغة ثم يصدقونها :

هم يفترون ما يشاؤون ، ثم يصدّقون ما يفترون ، شيء مضحك ، إنسان اخترع شيئا ، ثم صدَّقه ، هو اخترع مجموعة عقائد زائغة زائفة فاسدة ، ثم تعلق بها واتخذها حجة ، واطمأن إلى مصيره المستقبلي.

هناك مثل سأضربه لكم : طالب أوهمه زميله الكسول أن المدرس يعطي السؤال قبل يومين من الامتحان مقابل هدية معينة ، فهذا الطالب استراح ، عامٌ بأكمله لم يدرس فيه كلمة ، على أمل أنه قبل الامتحان يذهب إلى المدرس ، ويقدم له هدية ، فيعطيه السؤال ، ما الذي غره في هذا المدرس ؟ كلام صديقه الكسول ، ثم اكتشف فجأةً أن المدرس نزيه جداً وطرده من البيت ، وخسر العام كله .

هذا المثل البسيط لو كبَّرناه ؛ أوهمك رجل أن الله غفور رحيم ، الله لا يدقق ، الله غفور رحيم ، كل أمة محمد مرحومة ، **" حط رأسك بين الرؤوس وقل : يا قطاع الرؤوس "** ، لا يصير شيء ، ضعها برقبتي ، هذا كلام العوام ، فكيف إذا فوجئت أنك سوف تحاسب عن كل شيء ؛ عن كل بسمة ، وعن كل قرش أكلته حراماً ، وعن كل كلمة لم تكن صواباً ، وعن كل حركة لم تبتغ به وجه الله ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

لكن ماذا تفعل بقوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

ماذا تفعل بقوله تعالى :

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

2 ـ ما الغرور ؟

ماذا تفعل ؟ فيا أيها الإخوة ما الغرور ؟ أن تتوهم عن الله أشياء ليست صحيحة ، هو منزهٌ عنها ، أما الجواب الصاعق :

(فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

أين الأماني ؟ أين الأحلام ؟ أين التوهُّمات ؟

(فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

إذاً : معنى قوله تعالى :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

3 ـ صحّح اعتقادك إن لم يكن صحيحا :

لذلك أيها الإخوة الكرام ، يا أيها المؤمنون امسحوا عقائدكم ، اعملوا جردًا ، فأية عقيدة لا توافق الكتاب والسنة انبذوها ، وإلا هي مدمرة ، لأن كل خطأ بالاعتقاد يقابله خطأ في السلوك ، لابد من أن تتفحَّص ما ترسَّب في نفسك خلال هذا العمر ، هل هناك عقيدة غير صحيحة ؟ هل هناك غرور معيَّن ؟ هل هناك اغترار بالله ؟ هل هناك حديث موضوع تظنُّه صحيحاً ؟ هل هناك وهم تظنه حقيقة ؟ لأن هنا مشكلة ..

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

(سورة الطور)

هناك صعق ، فهم اعتقدوا أنه ..

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(24)فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

كيف يكون حالهم ؟ أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة ، واضمحلت عنهم تلك الزخارف التي ادَّعوها في الدنيا ؟ وجوزوا بما كسبوا من كفرهم واجترائهم على الله عزَّ وجل ليوم ..

(لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

اخرج من الدنيا وليس لأحدٍ عليك مظلمة في مال وعرض ودمٍ :

تلك الحقيقة المرة فابحث عنها ، وأعرض عن الوهم المريح ، والحساب دقيق ، والله عزَّ وجل عادل ، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ فَقَالُوا : صَلِّ عَلَيْهَا ، فَقَالَ : هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا ؟ قَالُوا : لَا فَصَلَّى عَلَيْهِ ، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلِّ عَلَيْهَا ، قَالَ : هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ ؟ قِيلَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا ؟ قَالُوا : ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ ، فَصَلَّى عَلَيْهَا ، ثُمَّ أُتِيَ بِالثَّالِثَةِ ، فَقَالُوا : صَلِّ عَلَيْهَا ، قَالَ : هَلْ تَرَكَ شَيْئًا

؟ قالُوا : لَا ، قالَ : فَهَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ ؟ قالُوا : ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ ، قالَ : صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ ، قالَ أَبُو قَتَادَةَ : صَلِّ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَعَلَيَّ دَيْنُهُ ، فَصَلَّى عَلَيْهِ))

[البخاري ، والنسائي ، وأحمد]

يغفر للشهيد كل ذنبٍ إلا الدين ، فتقول لي أنا : أحج وأعود كيوم ولدتني أمي ، أقول لك : لا ، هذا فهم ساذج ، في الحج لا يغفر إلا ما كان بينك وبين الله ، ما كان بينك وبين العباد لا يغفر إلا بالأداء أو المسامحة ، تقول لي : أنا صمت رمضان إيماناً واحتساباً ، أقول لك : صيامك لرمضان يغفر لك ما كان بينك وبين الله ، وما كان بينك وبين الناس لا يغفر إلا بالأداء والمسامحة.

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(10-60): تفسير الآيتان 26 - 27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس العاشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية السادسة والعشرين، وهي قوله تعالى :

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْك

1 ـ كلٌّ شيء في الكون ملكٌ لله :

أي شيءٍ في الكون الله مالكه ، والكون ما سوى الله ، والله عز وجل الذات الكاملة ، واجب الوجود ، وما سوى الله ممكن الوجود ، ما سوى الله هو الكون ، وفي المصطلح القرآن هو السماوات والأرض ، كل شيءٍ في الكون ، أو كل شيء في السماوات والأرض يُملَّك ، الله مالكه ، كل شيء في الكون ، يمكن أن يُملَّك فالله مالكه ؟

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

لكن الله جل جلاله ملكه مُلكٌ تام ؛ يملك الشيء خلقاً ، ويملكه تصرفاً ، ويملكه مصيراً ؟

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

أي شيء تتمتع به فهو ملك الله عز وجل ؛ لك بيت ، بزلزال شدته خمسة رختر ينتهي ، صار أنقاضاً بعضها فوق بعض ، حركة ، صحة ، القلب يقف ينتهي كل شيء ، سمع ، بصر ، قد يفقد الإنسان بصره فجأة ، ومن أدعية النبي عليه السلام الثابتة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عُمَرَ قَالَ : كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ))

[مسلم]

2 ـ صحتك ملك لله :

أي شيء تتمتع به ، عقلك ؛ ملك الله عز وجل ، قد يحمل إنسان أعلى شهادة في العالم ، خثرة لا تزيد على رأس إبرة ، تتجمد في بعض أوعية المخ يفقد الإنسان عقله ، ويفقد ذاكرته ، ويفقد حركته ، ويفقد توازنه ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

أي عضو تتمتع به ملك الله ، أي جهاز تتمتع به ملك الله ، أيَّة خبرة تملكها هي ملك لله ، يؤتى الحذر من مأمنه ، حدثني ما شئت ؛ عن العلم ، عن الخبرة ، عن النسب ، عن الحسب ، عن الوسامة ، عن الذكاء ، عن الحكمة ، عن الصحة ، كلها ملك الله عز وجل .

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

لك في الورى إن شاء خفض اً ذقته ، وإذا شاء عليهم رفعك

* * *

يرفع ، ويخفض ، يعطي ويمنع ، يعز ويذل ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

وكلما تعمَّقت في هذه الآية وجدت في عين الحقيقة أنك لا تملك شيئاً ، فإذا عرفت أنك لا تملك شيئاً ، تستحي أن تقول : أنا ، تستحي أن تسلّط الضوء على شخصيتك ، أنت لا شيء ، كنت لا شيئاً ، فأصبحت به خير شيءٍ في الورى قد صنعك ، ليس يقيك أذاه أحدٌ ، وإذا استنصرت فيه نصرك ، كلمة:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

3 ـ مكانتك بيد الله :

لها معانٍ عديدة جداً : ابدأ بالنواحي المادية ؛ مكانتك في المجتمع ملك الله عز وجل ، الله عز وجل قادر أن تشوَّه سمعة إنسانٍ بلا سبب ، فمن الذي حبس ألسنة الخلق عنك ؟ الله جل جلاله ، مَن الذي أسبغ عليك ستره ؟ الله جل جلاله ، من الذي جعلك مكرمًا ؟ الله جل جلاله ، فالإنسان ما دام بقوته فهو محترم ، فإذا أصبح طريح الفراش ، ومضى على شلله عشرون عاماً ، يسمعه أقرب الناس إليه كلمات لا تحتمل ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

إن كنت تملك مكانة فهي ملك الله ، مَلَّكَكَ إيَّاها ، إن كنت تملك محبة الناس ، فمحبة الناس بإلهام الله عز وجل ..

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه : من آية " 39")

لا أجد في اللغة العربية كلمة أوسع من كلمة (مالك الملك) ، أي شيء يُمَلَّك فمالكه هو الله ، معك مفتاح بيت فالملك لله ، ملكك إياه ، تركب مركبة الله ملكك إياها ، عندك زوجة الله ملكك إياها ، عندك أولاد أبرار الله ملكك إياهم ، تتمتع بصحة طيبة الله ملّكك إياها ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

تشرب كأس الماء فيخرج بشكل لطيف هذه مُلك ، جهاز الإفراز ملك ، ولو كان مسدوداً لأصبحت الحياة جحيماً لا تطاق ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

الجهاز الهضمي يعمل بانتظام ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

ماذا أحدثكم عن هذه الآية **!!** أي شيء تتمتع به ، وتنعم به إنما هو ملك الله ملكّك إياه ، بل إن هذا الأعرابي الذي بيده قطيع من الإبل ، فسُئِل لمن هذه الإبل ؟ قال : لله في يدي ، وما من كلمة أبلغ من هذه الكلمة (لله في يدي) ؛ بيتك ، واختصاصك ، وحرفتك ، ودكانك ، وزوجتك ، وأولادك ، وسمعتك، وكرامتك ، وراحة بالك ، وحريتك التي أنت تتمتع بها ، قد تُلْصَق بالإنسان تهمة هو بريء منها فيفقد حريته لسنوات طويلة ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

هذا هو التوحيد ، المؤمن الصادق لا يرى إلا الله ، لا يرى نعمة إلا من عند الله ، يرى المُنعم من خلال النعمة ، بينما الكافر تحجبه النعمة عن المنعم ، وفرق كبير بين من يحجب بالنعمة عن المنعم ، وبين مَن لا يرى النعمة إلا من الله عز وجل .

أيها الإخوة الكرام ، لمجرد أن تعزو النعمة إلى الله فهذا نوعٌ من الشكر ، ولمجرد أن يمتلئ قلبك محبة لله ، فهذا نوع أرقى من الشكر ، ولمجرد أن تجعل حركتك في الدنيا في خدمة الخلق ، فهذا أرقى أنواع الشكر ، لقوله تعالى :

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)

(سورة سبأ : من الآية 13)

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

لابد من محبة الله وشكر نعمه :

فكلما ازداد إيمانك يزداد تعلُّقك بالله عز وجل ، كلما ازداد إيمانك ، تزداد محبَّتك لله عز وجل ، لأنك لا شيء ، وأصبحت به كل شيء ..

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

مَن أنت ؟ ذات مرة رأيت في المطار طفلاً صغيراً ، يبدو أن السفر طويل ، من شدة الاحتياطات أصبح وسطه كالكرة ، هكذا الإنسان يوم كان صغيراً ، فإذا كبر ، ونسي الله الذي جعله من أب أو أم ، وأكرمه بمحبتهما له ، وأكرمه بعناية بالغة ، هذا الإنسان حينما ينسى أصله ، وينسى ضعفه ، وينسى جهله ، صار يحمل شهادةً عليا ، أو صار ذا مكانة مرموقة ، أو صار ذا ثروة بالغة ، هذا الذي ينسى أصله ليس من الشاكرين.

كان عليه السلام تعظم عنه النعمة مهما دقَّت ، كان إذا شرب كأس ماء له دعاء خاص ، كان إذا أفرغ ما في بطنه له دعاءٌ خاص ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَرَجَ مِنْ الْخَلَاءِ قَالَ :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الْأَذَى وَعَافَانِي))

[ابن ماجه]

هذا هو المؤمن ، المؤمن يرى أن الله عز وجل مالك الملك ، لأنه يرى أن مالك الملك هو الله فهو لا يتجه لأحدٍ غير الله ، ولا يعلّق أملاً إلا على الله ، ولا يعقد الرجاء إلى على الله ، ولا يرجو غير الله ، ولا يخاف من غير الله ، ولا يسعى بغير الله ..

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(162))

(سورة الأنعام)

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ

1-سلب النعم من حكمة الله :

من تشاء بحكمتك يا رب ، الله عز وجل حكيم ، المقولة الشهيرة : كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق ..

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

بحكمتك يا رب ، برحمتك يا رب ، بعدلك يا رب ، تؤتي الملك : أي شيء يُمَلّك ، فلان عنده مأوى ، ملك ، فلان عنده خبرة ، يعيش من ريعها ، فلان عنده معرفة بالله ، هذا ملك يُمَلّك ، بدليل قوله تعالى :

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ(82))

(سورة الواقعة)

فالتصديق رزق ، والتكذيب نوع من الرزق السلبي ، فأنا لا أعمم بقدر ما أعمّق ، هذه الآية تغطّي كل شيء ، تغطي ؛ صحة ، تغطي علماً ، تغطي أمناً ، تغطي مكانة ، تغطي أسرة ، تغطي أجهزةً ، تغطي معرفة ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

مرة ضربت مثلاً : أن في معامل الحديد رافعاتٍ ضخمة أساسها المغناطيس الكهربائي ، فهذه الروافع تحمل عشرات الأطنان ، وليس من قوة تستطيع نزعها من هذه الرافعة ، ولكن العامل الذي على الرافعة ، إذا ضغط زراً في مكان ما مقدار عُشر المليمتر ، وقطع الكهرباء عن الرافعة ، كل شيء في الرافعة يقع ، والله عز وجل أي جهة تراها قوية ، مَن الذي قوّاها هو الله ، وفي أية لحظة يحرمها من هذه القوة ، فإذا هي في الحضيض ، وليس عنكم ببعيد أنه من أقوى الدول قبل سنوات لا تزيد على عشر ، من أقوى الدول أصبحت من أضعف الدول ، تداعت كبيت العنكبوت ..

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

فهذا المعنى : إنك إن تمتّعت بقوة ، أو إن تمتعت بصحة ، أو إن تمتعت بعقل ، أو إن تمتعت بذكاءٍ ، أو إن تمتعت بخبرة ، أو إن تمتعت بأهل ، أو إن تمتعت بأولاد ، أو إن تمتعت ببيت ، إن تمتعت بمركبة ، إن تمتعت بخبرة ، كله من الله ، فكلما تعمّقت في الإيمان وجدت أن الله هو كل شيء ، وأن الله منحك كل شيء ، وأن الله قادر على أن يسلبك كل شيء .

2 ـ احذروا نقمة الله :

والله سمعت قصةً لغرابتها لا تصدق ، أنّ أحد خمسة أغنياء في تركيا ، كل ثروته في الأبنية ، يعد خامس غني في تركيا ، له رأي : أن أمواله كلها موزعةٌ في أجمل مناطق تركيا ؛ أبنية ، وفيلات ، ومنشآت ، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة ، جاء الزلزال الأخير في مدينة إزمير ، صور في الأخبار أنه يسكن في خيمة ، ويأكل مما يجود عليه أهل الخير ، وفقد ثروته كلها ، كل ثروته أصبحت أنقاضاً ، كل ثروته أصبحت أنقاضاً ، فالله عز وجل إذا أعطى أدهش ، وإذا سلب أدهش فجأة .

والله مرة قال لي رجل : بيتي مع حدائقه يزيد على ألف متر ، عندي ثلاث مركبات ؛ مركبة للسفر فخمة وغالية جداً ، ومركبة للمدينة ، ومركبة للمعمل ، وقال : والله ما دخل بيتي من الطعام إلا أغلاه ، ومن الفواكه إلا أطيبها ، ومن الحلويات إلا أغلاها ، والله وجدته في دكانٍ في أحد شوارع

دمشق المتخلّفة يأكل من علبة سمك ، من دون صحن ، وينام على طاولة التفصيل ، ويذهب إلى سوق الهال ، فينقب في نفايات القمامة لعله يجد شيئاً يأكله ، إذا أعطى أدهش ، وإذا أخذ أدهش ، لذلك ، قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((يا عائشة ، أكرمي مجاورة نعم الله ، فإن النعمة إذا نفرت قلما تعود))

[ورد في الأثر]

إنسان تكلم كلمة كبيرة جداً قبل شهر ، بين كلمته وانتقام الله منه أربعٌ وعشرون ساعة ، والآن عنده شلل رباعي ، وفقد النُطق ، تكلّم كلمة كبيرة جداً ، وهو في ريعان قوته ، وشبابه ، وجبروته ، وغناه ، ووسامته ، بين الكلمة التي قالها وانتقام الله منه أربع وعشرون ساعة ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

أنت لا تملك شيئاً .

والله زرت أحد الأشخاص في العيد ، من أعلام المجتمع ، ولكن جاءت خثرة في بعض أوعية المخ فتكلم كلامًا غير معقول أبداً ، أين ذكاؤه ؟ أين حنكته ؟ أين حكمته ؟ أين شخصيَّته المتألقة ؟ كلام ليس له معنى ، كلام مضحك ، لا يقوله طفل ، حتى إذا تكلَّمت كلاماً واضحاً جلياً منطقياً ، مترابطاً متسلسلاً، فهذه من نعمة الله لك .

وهناك نعمة مَن يعرفها ؟ إذا خرجت من بيتك تعود إليه ، فقد حدثني ابن أحد الإخوة الكرام قال لي : اتصل بي والدي ، وقال لي : يا بني أين بيتي ؟ لا أعرف بيتي ، أصيب بفقد ذاكرة جزئي ، نسي بيته ، قد يدخل عليك ابنك فترحب به : أهلاً يا بني ، هناك من لا يعرف أولاده ، أنا عاصرت ، وشاهدت بعض الأقارب اختل توازنه العقلي ، كلامه مضحك ، يستحي به أهله ، يتمنَّون موته ، وانتهاء حياته ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

قد يمشي إنسان في الطريق بلا هدف ، قد ينسى أين بيته ، فذاكرتك ، سمعك ، بصرك ، محاكمتك ، عقلك ، قوتك بيد الله ، والله سمعت عن إنسان يدفع عشرة آلاف ليرة في الشهر لمن ينزع منه فضلات الطعام من مستقيمه ، لأن مستقيمه أصيب بالشلل ، أن تخرج هذه الفضلات براحة من دون جهد ، من دون مساعدة من أحد من نعمة الله ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

هناك مَن يحمل بوله إلى جنبه ، قال لي : كل كيس ثمنه ثلاثمئة ليرة ، مشكلة ، ولا أعلم متى أخرج ، ما دام المستقيم أصيب بورم خبيث حوّل المخرج إلى طرف الخاصرة ، معها كيس ، هذا الذي يقضي حاجته بانتظام ، ينام ملء جفونه ، يستيقظ في الوقت المناسب ، هذه نعم لا تعد ولا تحصى ، كان عليه الصلاة والسلام كما يقول :

((اللهم أرنا نعمك بوفرتها لا بزوالها))

[ورد في الأثر]

في الجسم أجهزة وأعضاء وأنسجة ، كل مكان في الجسم لو أصابه العطب لأصبحت الحياة لا تطاق ، لأصبحت الحياة جحيماً ، هناك آلام لا تحتمل .

ثلاث نِعَمٍ لا تعدلها نِعَمٌ :

إخواننا الكرام ، مع كل هذه الشرح ، ثلاث نعم لا تعدلها نعم :نعمة الهدى ، فأنت تعبد الله ، هذه نعمة كبيرة ، هناك من يعبد البقر ، هناك من يعبد الحجر ، هناك من يعبد الشمس والقمر ، هناك من يعبد المَدَر ، هناك من يعبد ذكر الرجل في اليابان ، هناك من يعبد الموج ، هناك من يعبد الجرذ في الهند ، الجرذان آلهة ، وأنت تعبد الله ، هذه نعمة لا تعدلها نعمة ، نعمة الهدى ، و نعمة الصحة ، ونعمة الكفاية، فمن هداه الله إليه ، ومَلَك صحَّته ، وعنده قوت يومه ، فكأنما ملك الدنيا بحذافيرها ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ وَكَانَتْ لهُ صُحْبَةٌ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي ، وابن ماجه]

وعندما الملك سأل وزيره :

ـ من الملك ؟

ـ قال : أنت .

ـ قال : لا ، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا ، له بيت يؤيه ، وزوجة ترضيه ، ورزق يكفيه ، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا ، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه .

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ

إنها لحظة بين أن تكون مسيطراً ، مهيمناً ، أمرك نافذ في أي جهةٍ من الأمكنة ، وقد سمعت قبل يومين أن أحد الحراس الشخصيين أطلق طلقة على سيده فأرداه قتيلاً ..

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

فالقوي قواه الله ، وإذا نزعت هذه القوة فقد سمح الله أن تنزع ، فكل إنسان ينسب القوة إليه فهو أحمق ، وكل إنسان ينسب الضعف إلى ظروف صعبة ، فهو أحمق . .

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

ربما منعك فأعطاك ، وربما أعطاك فمنعك :

ولكن أيها الإخوة لا بد هنا من تعليق : ربما منعك فأعطاك ، وربما أعطاك فمنعك ، والله عز وجل حكيم ، إذا نزع منك المُلك ، ثم كُشِفَت لك حكمة نزع هذا الملك فينبغي أن تذوب محبة لله ، إن أعطاه الملك فلحكمة ، وإن نُزِعَ منك الملك فلحكمة ، قد تكون عقوبة ، والعقوبة نوع من التربية ، وقد تكون وقاية ، والوقاية نوع من التربية ، وقد تكون ابتلاء ، والابتلاء رفع درجات ، على كل يجب أن تعتقد أن كل شيءٍ فعله الله هو محض حكمةٍ ومحض فضل .

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

مرة أحد كبار ملوك الأندلس كان يمشي في حديقته ، وكان شاعراً ، فرأى بركة الماء ، وقد هبَّت عليها نسائم لطيفة ، فجعلت على سطح الماء كالزرد ، أيْ كالسلسلة ، موجات ناعمة ، فقال :

نتج الريح على الماء زرد

ولم يستطع متابعة هذا البيت ، فسمع وراءه جارية تقول :

يا له درعاً منيعاً لو جمد

* * *

أعجب بها إعجاباً شديداً لأنه شاعر وهي شاعرة ، وتزوجها وأصبحت في القصر ، اشتاقت مرة إلى أيام الفقر ، كانت تدوس في الطين ، فجاء لها بالمسك والعنبر وجبلهما بماء الورد ، فقال : هذا هو الطين ، ثم نزع منه الملك فجأة ، وأودع في السجن ، وبعد حين خرج من السجن ، وعاش معها في كوخ حقير ، وساءت العلاقة بينهما ، فكانت تقول له أحياناً : لم أر منك خيراً قط ، يقول لها : ولا يوم الطين !!

ورد في بعض الأحاديث أن النساء ـ طبعاً غير المؤمنات ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أريتُ النَّارَ ، فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ ، يَكْفُرْنَ ، قِيلَ : أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ ؟ قَالَ : يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ))

[من مسند الإمام الشافعي]

فكان يقول لها : ولا يوم الطين !! مِن إنسان يسكن في قصر إلى إنسان فقير ، فالإنسان عليه ألا يتكبر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ))

[أبو داود]

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

الله يرفع ويخفض ، يعطي ويمنع ، يبسط ويقبض ، يعز ويذل ، يكرم ويهين ، ومن يهن الله فما له من مكرم .

والله مرة رأيت في الطريق إنسانًا تلقى صفعة ، قلت : والله لو مات لا ينساها ، أمام جمع غفير من الناس ، وهو يرتدي أجمل ثيابه ، قد خالف بعض المخالفات ، فجاء إنسان أرعن فصفعه على وجهه ، وهو في الخمسين ، الله عز وجل يهين أحياناً ، وقد يتجرَّأ عليك ولدك فيضربك ، لكن إن أحبك الله ألقى محبتك في قلوب الخلق ، فخدمك أعداؤك ، وإن غضب الله ألهم لأقرب الناس إليك يتطاولون عليك ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ؟ ثم من يعطي إذا ما منعك ؟

***

هذه ملّة طه خذ بها

* * *

(وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ

فهذه الدنيا كل حال يزول ، قد تصيب عزاً ، وقد يذل الإنسان ، هذا يحيى البرمكي كان الرجل الأول في الدولة العباسية ، إذا هو في السجن يعذب ، فقال لبعض مَن حوله : " لعل دعوة مظلوم أصابتنا ، ونحن عنه غافلون " ..

وهذا فرعون ، كان له ملك مصر ..

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

تورط ، وتبع سيدنا موسى في البحر ، ثم أدركه الغرق ، ولولا أن الموج لفظه إلى الشاطئ لتوهم أتباعه أنه صعد إلى السماء ، فإمعاناً في إذلاله قذفه الموج إلى الشاطئ ..

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس : من الآية 92)

أحد الذين أسلموا في أمريكا بدأ يقرأ القرآن قراءة تفحُّص لا قراءة تعبُّد وفهم ، وعثر على آية ، فقال : هذه أول غلطة بالقرآن ، وهي قوله تعالى :

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس: من الآية 92)

له صديق بفرنسا من كبار العلماء ، اتصل به ، وقال له : هذه أول غلطة في القرآن ، فقال له : هذا الذي تذكره في متحف في مصر ، وموجود حتى الآن ، فرعون موسى الذي أدركه الغرق موجود في مصر ، وقد جيء به إلى باريس لترميم جثته ، نجاه الله ليكون لمن خلفه آية .

وبعد ذلك أيها الإخوة ، هناك مواعظ معاصرة لا ينقضي عجبها ، كم من جبَّار قصمه الله ، كم من إنسان يزهو بماله أفقره الله ، كم من إنسان يزهو جماله ، فالله عز وجل ساق له مرضاً خبيثاً ، فعلى كل الإنسان تحت ألطاف الله عز وجل ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

أجمل ما في الآية ، بحسب السياق :

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

إيتاء الملك خير ..

(وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

نزع الملك شر ..

(وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ)

الإعزاز خير ..

(وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

الإذلال شر بمفهوم الأرض ، كان ينبغي بحسب السياق أن تكون الآية : بيدك الخير والشر ، لكن الله عز وجل قال :

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

بِيَدِكَ الْخَيْرُ

1 ـ إيتاء المُلك خير ، وأن نزع الملك خير :

فقط ، ماذا يستنبط ؟ يستنبط أن إيتاء المُلك خير ، وأن نزع الملك خير ، وأن الإعزاز خير ، وأن الإذلال خير ، فالإنسان شارد ، تائه ، غافل ، غارق في المعاصي ، جاءه ذلٌ شديد فتاب إلى الله .

والله هناك أخ من إخواننا الكرام قال بالحرف الواحد : أنا كنت شارداً عن الله ، منحرفًا انحرافًا شديدًا ، ما صليت في حياتي ، ولا صمت ، وأنا مع أهل الضلال والغَيّ ، والفسق والفجور ، فجأة أصيب بمرض عضال ، فدخل المشفى ، وناجى ربه وقال : يا رب ألقاك وأنا عاصٍ ؟! أي أعطني

مهلة يا رب كي أتوب إليك ، وتبت ، الله أعطاني فرصة ، وتبت إليه ، لزمت دروس العلم ، صلّيت ، شعرت بسعادةٍ لا توصف ، فمرة ناجيت ربي فقلت له : يا رب إذا كانت كل هذه السعادة من الإنابة إليك ، لِمَ لَمْ ترسل لي هذه المصيبة قبل عشر سنوات ؟! كأنه عتب على الله ، كل هذه السعادة في القرب منك ، لمَ لمْ ترسل لي هذه المشكلة قبل عشر سنوات ؟!

الله عز وجل يعطي وهذا خير ، و يمنع ، وهذا خير ، يرفع ، وهذا خير ، يخفض ـ وهذا خير ، يعز ، وهذا خير ، وَعِنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ :

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ ، فَقَالَ : مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ ؟ قَالَتْ : الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا ، فَقَالَ لَا تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ))

[مسلم]

2 ـ المؤمن الصادق يستقبل قضاء الله وقدره بالصبر :

المؤمن الصادق يستقبل قضاء الله وقدره بالصبر ، وبالبشر ، وبالرضا ، ولعل النبي الكريم قمَّةٌ في هذا الموضوع ، حينما ذهب إلى الطائف ، واعتدى عليه أهلها اعتداءً ماديا ـ هكذا تروي الروايات ، فقال :

((يا رب ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

ماذا كان بعد الطائف ؟ كان الإسراء والمعراج ، جاء التكريم الإلهي عرف أنه سيد البشر قاطبة ، وأنه سيد ولد آدم ، وأنه سيد الأنبياء والمرسلين ، وأنه حبيب رب العالمين ، وأن الله أقسم بعمره الثمين .

كل محنةٍ أيها الإخوة وراءها منحة ، للمؤمن طبعاً ، وكل شِدَّة وراءها شَدَّة إليه ، فلا تيأس ، وإياك أن تتشائم ، أو أن تقنط من رحمة الله ، أو أن ترى أن المصيبة جفوة من الله لك ، لا ..

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15))

(سورة الفجر)

هو يقول :

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي(16) كَلاَّ)

(سورة الفجر)

ليس عطائي إكراماً ، ولا منعي حرماناً ، فهذا أب طبيب ، وجد أن ابنه يعاني من التهاب في المعدة ، وثمة أكلة يحبها الابن محبة شديدة ، والأب بقسوة بالغة منع ابنه من هذه الأكلة ، خوفاً من

أن تنشأ مضاعفات هو في غنى عنها ، هل يعد هذا الابن المريض الذي منع من هذه الأكلة أنه لذيذة عند أبيه مهانًا ؟ لا والله ، من هنا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا ، كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة))

(من الجامع الصغير عن حذيفة)

لذلك المؤمن راضٍ عن الله عز وجل ..

هم الأحبة وإن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدل و إن عدلوا

والله وإن فتتوا في حبهم كبدي باق على حبهم راض بما فعلوا

* * *

فأعلى كلمة يقولها المؤمن : يا رب أنا راض ، والله حدثني أخ ـ طبيب من إخواننا ـ فقال : جاءنا مريض مصاب بورم خبيث في أمعائه ، غرفته عجيبة ، فيها بشر ، فيها سرور ، فإذا ضغط على الجرس يأتي بعض الأطباء ، بل جُلُّهم ، والممرضون يلبون طلبه ، وكلما دخل عليه شخص يقول : يا رب إنني راض عنك ، فاشهد يا أخي أنني راض عن الله ، هذا المؤمن ، يرى يد الله الرحيمة الحكيمة تعمل في الخفاء .

فيا أيها الإخوة الكرام ... بيدك الخير ..

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى و الأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر و بيني وبين العالمين خراب

* * *

فلو شاهدت من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا

و لو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقربنا

ولو لاح من أنوارنا لك لائح تركت جميع الكائنات لأجلنا

* * *

أن تصل إلى محبة الله هذه غاية الغايات ، وهذا هو العطاء الذي لا يُحَد ، أن يحبك الله ، وطريق محبة الله أمامك بين يديك .

(وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ

1 ـ التفسير الاجتماعي للآية :

فبعضهم فسر هذه الآية تفسيرًا اجتماعيًّا ، قد تجد إنسانًا شارب خمر فاسقًا ، فاجرًا ، كافرًا ، يأتي من صلبه ابن صالح ، وقد سمعت أن رجلاً من الصالحين وهب أرضاً لتكون مسجداً في أحد أحياء دمشق، والابن الذي أنجبه شارد ، بل كان يؤمن بأنه (لا إله) فقط ، ولم يرض أن تبنى هذه الأرض مسجداً ، وعطَّل وصية والده ، هذا الابن الملحد أنجب ابناً ولياً ، قال لأبيه مرة : إن لم تنفذ وصية جدي فلست ابنك ، ولن ترني بعد اليوم ، فاضطر الأب المنحرف أن يبني هذه الأرض مسجداً ، أساسه هكذا ، إنسان حي ، حيٌّ بمعرفة الله أنجب ملحداً ، وهذا الملحد أنجب ولياً ..

(وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

هذا المعنى الاجتماعي .

2 ـ التفسير المادي :

وهناك معنى مادي ؛ أن امرأة تموت ، فيُفتح بطنها ، وتلد طفلاً حيًّ ، قد تجد طفلاً حياً في بطن امرأةٍ ميتة ، وقد تجد ميتاً في بطن امرأةٍ ترزق ، وتعيش ، فإما أن تأخذ المعنى المادي ، أو أن تأخذ المعنى الصحي ، كلاهما وارد .

(وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ)

وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ

إذا أعطى الله أدهش بغير حساب ، فالله عز وجل خلقك ورزقك .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ)

(سورة الروم: من آية " 40")

فعل ماضٍ ، هو الرزاق .

1 ـ الرزق أداة لتأديب الإنسان :

أيها الإخوة ، الله عز وجل رزَّاق ، ورازق ، وحينما خلق الإنسان تكفَّل له برزقه ، ولكن ربنا جل جلاله قد يتخذ من الرزق أداةً لتأديب الإنسان ، فقد يحرم المرء بعض الرزق بالمعصية ، والدليل :

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من آية " 96")

ففي آيات كثيرة تربط بين الرزق والإيمان .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة: من آية " 66")

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: من آية " 6")

(على) تفيد الإلزام ، يعني الله عز وجل ألزم ذاته العلية برزق العباد.

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ)

(سورة هود: من آية " 6")

طبعاً (ما) و (من) من تفيد استغراق أفراد النوع ، أية دابة ، ولو أنها نملة سمراء على صخرة صماء ، في ليلة ظلماء ، لها رزق عند الله ، وقد تجد وعلاً ، يعيش في قمم الجبال ، وفي قمم الجبال ماء نبع ، مستودعه في جبل أعلى منه ، من أجل هذا الوعل .

الحديث عن الرزق شيء لا يوصف ، ما دام الله قد خلقنا ، فهو متكفِّلٌ لنا برزقنا ، أما وصول هذا الرزق إليه فباختيارك .

مرة قلت : تفاحة في مكان معين ، في بستان معين ، على الشجرة معين ، على غصن معين ، هذه لفلان ، قد يأكلها فلان سرقة ، وقد يأكلها تسوُّلاً ، وقد يأكلها ضيافةً ، وقد يأكلها شراءً ، وقد يأكلها هديةً ، الطرق تعددت ، أما هي له..

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب ، واستجملوا مهنكم))

[من الدر المنثور عن سعد]

كما ورد في بعض الروايات ، فالله عز وجل يقول :

(وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

2 - رزق الله بغير حساب :

الأب يحاسب ، أعطيتك كذا وكذا ، الدولة تحاسب ، آخذ تعويضات ، وآخذ أجور سفر ، وآخذ رواتب ، وآخذ ، وآخذ ، أما الله فبغير حساب ، لذلك العطاء من الله مريح ، أما من العباد فصعب ثقيل ، كلما ألقى نظرةً عليك ذكَّرك بفضله عليك ، هذا إن لم يقل للناس : أنا أعطيته ، لحم كتفك من خيري ، هكذا يقول بعض المُمْتَنِّين ، ولكن الله إذا أعطاك عزيزاً كريماً ، أعطاك وسترك ، أعطاك

ورفعك ، أعطاك وكرَّمك ، فالمؤمن لا يسأل إلا الله ، اللهم لا تجعل حوائجنا إلا إليك ، ودلنا بك عليك ..

(وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

3 ـ من حكمة الله تحريكُ الرزق والصحة :

آخر فكرة : الله عز وجل ثبت أشياء كثيرة ، استقراراً للنظام ، وحرَّك الرزق والصحة ، هذه من أجل تربية الإنسان ، الله يربينا بصحتنا وأرزاقنا ، أما دورة الأرض حول الشمس ، حركة الشمس ، حركة القمر ، خصائص المعادن ، خصائص النباتات كلها ثابتة استقرارا للنظام ، أما الله عز وجل فقد حرَّك الرزق ، وحرك الصحة ، فسماءٌ لا تمطر ؛ تجف الينابيع ، تجف الأنهار ، يموت الزرع ، يجف الضرع ، يرحل الإنسان ، قد تأتي المياه كأفواه القرب ، فالرزق متبدِّل ، بيد الله عز وجل يسوق هذا المطر لمن يشاء من عباده ، ويصرفه عمن يشاء ، فنحن علينا أن نعتقد أن الله هو الرزاق ، وأن استقامتنا على أمره ، وطاعتنا له ، أحد أكبر أسباب رزقنا ، إيماننا به ، واستقامتنا على أمره ، من خلال آيتي القرآن ..

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من آية " 96")

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

إذاً الرزق متعلق بالإيمان ، والاستقامة من خلال هاتين الآيتين ، وقد يحرم المرء بعض الرزق بالمعصية .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتقل في الدرس القادم إلى قوله تعالى :

(لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(11-60): تفسير الآيات 28 - 32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثامنة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

1 ـ الولاء والبراء :

يا أيها الإخوة الكرام ، هناك أصلٌ كبير من أصول الدين ، وهو الولاء والبراء ، فما لم توالِ المؤمنين، وما لم تتبرَّأ من الكفار والمنحرفين ، فأنت لست من الله في شيء ، هذا الموضوع خطير جداً ، لأنه قد يقول لك المسلم : أنا لا أسرق ، ولا أزني ، ولا أشرب الخمر ، ولكن قلبه معلقٌ بالكفار ؛ يحبهم ، ويصلِهم ، ويعتز بهم وهو لا يدري ، وقد ضيَّع أصلاً كبيراً من أصول الدين .
هذه الآية الكريمة أصلٌ ـ فيما يسميه العلماء ـ الولاء والبراء ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)) .

[متفق عليه]

أنت لك أصحاب ، لك أصدقاء ، لك جيران ، لك معارف ، لك أقران ، لك أخدان ، هؤلاء إن لم يكونوا مؤمنين فالمودة معهم ، والصلة بهم ، والمحبة لهم خطيرةٌ على دينك دون أن تشعر ، ما الذي ضيَّع المسلمين ؟ أنهم ذابوا في مجتمعات الكفر ، إلى أن أصبحت حياتهم مشابهة للكفار ؛ أعيادهم ، وأفراحهم ، وطريقة تفكيرهم ، وأنماط سلوكهم ، هذه كلها مطابقةٌ لما هو عند الكفار ، لذلك ورد في الحديث الشريف عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا ، وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)) .

[متفق عليه]

قد تجد إنساناً يسافر إلى بلد غربي ، ويعود ، فيثني عليهم ثناءً لا حدود له ، يتعامى عن كل نقائصهم ، وعن كل انحلالهم ، وعن كل انغماسهم بالملذّات القذرة ، ويشيد بأبنيتهم ، وشوارعهم ، ونظمهم ، وحقوق الإنسان عندهم ، هذا الذي لا يرى من الصورة إلا وجهاً واحداً ، أو يتعمَّد إغفال الوجه السلبي، هذا معنى ذلك أنه موالٍ له ،

((من هوي الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً)) .

[من كنز العمال عن جابر]

على كلٍ ، نحن أمام قرآنٍ كريم ، نحن أمام كلام خالق البشر ، نحن أمام كلامٍ لا يعلو عليه كلام ، يقول الله عزوجل :

(لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ)

2 ـ مَن هو الولي ؟

مَن هو الولي ؟ إنسان تحبه ، إنسان تصله ، إنسان تستنصحه ، إنسان تهتدي برأيه ، تُصغي إلى كلامه، هذا هو الولي ؛ محب ، مُناصر ، قريب ، موصول ، فما قولك بمؤمنٍ بالله ورسوله يدع المؤمنين ويبتعد عنهم ، ويلتصق بالكفار ، ويصلهم ، بل ويحبهم ؟! ما قولك أن هذا العمل يسلخك من الإيمان ، وينزع عنك الإيمان ، ولو كنت صائماً مصلياً ؟ هكذا يقول الله عزَّ وجل :

(لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

قال بعض العلماء : من دون المؤمنين استقلالاً أو مشاركةً .

لك أصحابٌ من المؤمنين ، ولك أصحابٌ من الكفار والمشركين ، ومع كِلا الفريقين تمضي سهرةً ممتعةً ، ويبتسم وجهك ، وينطلق لسانك ، وتَمْحَضهم النصيحة ، وتستهديهم ، وتسترشدهم ، وتأخذ رأيهم ، وتقيم علاقاتٍ متينةٍ معهم ، وتهاديهم في أفراحهم ، وتعزيهم في مصائبهم ، وكأنك واحدٌ منهم ، بل وتحتفل بأعيادهم ، بل وتفعل في بيتك ما يفعلونه هم في أعيادهم ، قال :

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

1 ـ الولاء والبراء من علامات الإيمان :

علامة إيمانك أنك توالي المؤمنين ، ولو كانوا فقراء وضعفاء ، وتتبرَّأ من الكفار والمشركين ، ولو كانوا أقوياء وأغنياء ، من علامة إيمانك أنك تودُّ المؤمن ، ولو أساء إليك ، وتبغض الكافر ، ولو منحك عطاءً كبيراً ، هذا هو الإيمان ، القضية قضية ولاء وبراء .

أنت مع مَن ؟ أنت مع المؤمنين ، إذاً تتألَّم لآلامهم ، تشقى لشقائهم ، تفرح لسعادتهم ، تسرُّ بنصرهم ، تحزن بتأخرهم ، هذه علامة إيمانك ، فإذا كنت توالي أهل الكفر والشرك ، وتشيد بانتصاراتهم ، وأنت معجب بقوتهم ، وجبروتهم ، وأنت راضٍ عن انحرافهم وانحطاطهم ، ولا يضيرك أن تقلدهم فيما يفعلون ، فاعلم علم اليقين أنه لا ذرة إيمانٍ في قلبك ، والدليل قوله تعالى :

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

ورد في بعض الآثار أن الله عزَّ وجل يقول : **" يا عبدي ، ماذا فعلت من أجلي ؟ يقول : يا رب ، فعلت كذا وكذا ، يقول الله له : تعجلت بهذا الراحة لقلبك ، ولكن ماذا فعلت من أجلي ؟ قال : يا رب ، وما أفعل من أجلك ؟ قال : هل واليت فيَّ ولياً ؟ هل عاديت في عدواً ؟ ".**

فإذا دعاك غنيٌ أو قويٌ ولو كان متفلتاً من الدين لبيت دعوته ! أما إذا دعاك قريبٌ لك فقيرٌ من أطراف المدينة فإنك تعتذر ؛ الوقت ضيق ، ومشغول ، فتلبية دعوة المؤمنين الفقراء من عمل الآخرة ، وتلبية دعوة الأغنياء والأقوياء من عمل الدنيا ، من مُتَع الدنيا ، فانتبه لو أنك لم تشرب الخمر ، ولم تزنِ ، ولم تقتل ، ولم تسرق ، لمجرد أن توالي الكفار والمشركين ، وأن تحبهم ، وأن تعظّمهم ، وأن تشيد بتفوقهم ، وأن تتحدث عن حضارتهم .

1 ـ هذا شرك فاحذره :

أيها الإخوة ، هذا الموضوع خطيرٌ جداً ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى له امتحانات عديدة في أفعاله ، ففي حينٍ يقوِّي الكفار ، يقويهم إلى درجة مذهلة ، فيبدو للناظر أن كلمتهم هي العُليا ، يبدو للناظر أنهم يفعلون ما يريدون ، وأنهم أقوى قوةٍ في الأرض ، وأنه لابد من موالاتهم ، وإلا فلن ننال شيئاً ، هذا كلام يطرح ، لابد من موالاة هذه الدولة القوية ، وإلا لا نصل إلى شيء ، ومهما تنازلت ، ومهما خضعت ، ومهما صغرت لا تأخذ شيئاً إلا مزيداً من السلب والقهر.

هذه مشكلة كبيرة ، حينما ترى أن جهةً غير الله بيدها كل شيء فهذا شرك كبير ، والله هذا يكاد يكون شركًا أكبر ، حينما ترى أن جهةً قويةً جداً بيدها كل شيء ، ولابد من موالاتها ، ولابد أن تقيم معها علاقةً طيبةً وإلا سحقتك ، هذا هو الشرك بعينه ، أين الله ؟

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 257)

هذه الآية أيها الإخوة من أخطر الآيات في حياة المؤمن ، أنا لا أقول لك : أن تناصبهم العِداء ، لا أقول لك : إن أية علاقة معهم محرَّمة ، علاقات العمل مشروعة ولا شيء فيها ، أنا أبعدك عن علاقاتٍ حميمة ، عن شراكةٍ اندماجية ، عن صحبةٍ متينة ، عن نزهةٍ طويلة ، عن سهراتٍ مختلطة ، هؤلاء لهم قيَمهم ، ولهم طريقتهم في الحياة ، يعيشون للدنيا وحدها ، لا يعبأون بقيم الدين ، ولا قيم الآخرة ، كيف تنسجم معهم ؟! وكيف تصفو العلاقة بينك وبينهم ؟! هذا مستحيل إلا أن يكون هذا الذي يواليهم على شاكلتهم .

2 ـ شخصية المؤمن لها سمات غير سمات الكافر :

أيها الإخوة الكرام ، شخصية المؤمن لها سمات ، وشخصية الكافر والمشرك لها سمات ، فحينما يندمجان فلابد أن تعتقد يقيناً أن سمات المؤمن كاذبة ، وليست صحيحة ، لو أنها حقيقية لما انسجمت مع سمات الكافر ، إنها مزوَّرة ، إنها مُدَّعاة ، يدعي أنه كذا ، وهو ليس كذلك ، فشيءٌ خطير أن تركن إلى كافر ، أن تستسلم له ، أن تصغي إليه ، أن تمحضه الود ، أن تحبه ، أن تتعلق به ، أن تعظّمه ، أن تكبره ، أن تراه قوياً ، أن تراه يعيش حياةً راقية ، أين هذا هو الرقي ؟ .

لا توازن بين شيئين إلا بميزان الآخرة

أيها الإخوة الكرام ، أتمنى عليكم شيئًا ، جرِّب ألا توازن بين جهتين ، ولا بين أمتين ، ولا بين شعبين، ولا بين دولتين ، ولا بين رجلين ، ولا بين حرفتين ، جرب ألا توازن بين جهتين إلا إذا أضفت الآخرة إلى كلٍ منهما ، قد تجد مطعمًا دخله فلكي ، لكنه يبيع الخمر ، وقد تجد مطعمًا في قرية غلته لا تزيد على مئتي ليرة في اليوم ، لكنه يبيع بإخلاص ، ويقيم شرع الله ، ففي الموازنة الظاهرة شتان بين المطعمَين ، أما في الموازنة الحقيقية إذا أضفت الآخرة إلى كلٍ منهما وجدت أن هذا المطعم المتواضع، الذي دخله لا يكفي مصروف صاحبه ، هو أرقى على المدى البعيد من صاحب هذا المطعم الأول ، وقس على هذا كل شيء .

دخل سيدنا عمر على النبي صلى الله عليه وسلم ، فرآه مضطجعًا على حصير ، وقد أثر الحصير على خده الشريف ، فبكى عمر ، قال :

ـ يا عمر ما يبكيك ؟

ـ قال : رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟!

ـ قال : يا عمر ، أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا ؟! هذه رواية .

الرواية الثانية : يا عمر ، إنما هي نبوةٌ وليست ملكاً .

الراوية الثالثة : أفي شكٍ أنت يا عمر ؟

قال : لا .

الدنيا لا قيمة لها ، وأساساً :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام : من الآية 44)

فأضف إلى أركان دينك الولاء والبراء ، ينبغي أن توالي المؤمنين ، وأن تتبرأ من الكفار والمشركين ، أنا لا أقول لك : أن تناصبهم العداء ، قد لا تقوى عليهم ، لا أقول لك : أن تشتمهم في وجههم ، لا ، لا ، ولكن تبرأ منهم ، ابتعد عنهم ، علاقات العمل مقبولة ، علاقات العمل أنت مضطرٌ أن تعاملهم ولا شيء عليك ، أما العلاقات الحميمة ، السهرات الطويلة ، الصلات المتينة ، السفر ، النزهات ، الشراكة الاندماجية بينك وبين كافرٍ أو مشرك ، كيف تنسجم معه ؟ كيف تقبل قيمه ؟ كيف ترضى عن تفلته ؟ كيف تستسيغ نفاقه ؟!! لابد من أنك على شاكلته ، فكلما اقتربت من أهل الكفر ابتعدت عن أهل الإيمان، وكلما واليتهم كان جفاءً لدينك ، ولقيمك ، ولمبادئك ..

(لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

3 ـ الموالاة على الكفر كفرٌ ، وعلى الفسق فسقٌ :

هناك بعض التفصيلات : لو أنك واليتهم على كفرٍ فموالاتك كفر ، لو أنك واليتهم على كفرٍ ، هم كفار، وأنت مدحتهم ، أو أثنيت عليهم ، أو أقررتهم على ما هم فيه ، إذا واليتهم على كفرهم فموالاتهم كفرٌ ، وإن واليتهم على فسقٍ فموالاتهم فسقٌ ، وإن واليتهم على حرب المؤمنين فموالاتهم كفرٌ ، بل هو أشد أنواع الكفر أن تستعين بكافرٍ على مؤمن ، العبرة أن تكون مع المؤمنين ، وفي خندق المؤمنين ، ومع أهل الحق ، ولكن قد تجد في هذا صعوبة لأن الكفار أقوياء ، وعندهم أشياء مغرية جداً لكنهم في النهاية لن يعطوك شيئاً .

أنا أقول كلمة واحفظوها : المسلم إذا والى كافراً ، وأعانه على كفره ، أو أعانه على ظلمه ، أو أعانه على فسقه ، بمثابة منديلٍ مُسِحَت به أقذر عمليةٍ ، ثم ألقي في سلة المهملات ، هذا هو المسلم إذا أعان كافراً على كفره ، أو على فسقه ، أو على انحرافه ، أو على فجوره ، وأشاد به ، وأثنى

عليه ، وعظَّمه، وقدَّره ، حاول أن تكون مع المؤمنين لأن الله معهم ، وإذا كان الله معك فمَن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمَن معك ؟ ..

(لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

من دونِهم ، لأن الكفار دونَهم ، الحقيقة حينما يكشف الغطاء تعرف الحقائق ، قد تجد مؤمناً بسيطاً ، مستقيماً ، فقيراً ، متواضعاً ، مهمَّشاً في الحياة ، لكنه يخاف الله ورسوله ، هذا المؤمن يوم القيامة تجده علماً من أعلام الآخرة ، وقد تجد كافراً متألِّقاً ، مشهوراً ، معروفاً ، معزَّزاً ، مكرَّماً، مبجلاً ، لو رأيت مقامه في الآخرة لرأيته في أسفل سافلين ، فالعبرة أن هذه المراتب في الدنيا لا قيمة لها ، قال تعالى :

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا(21))

(سورة الإسراء)

من يعرفني ؟ إذا كنت مع الله فالله معك ، وإذا كان الناس لا يعرفون فضلك ، فالله يعرف مكانتك ، والله يعاملك معاملة يشعرك أنه يحبك ، وأنك عنده بمكان .

فيا أيها الإخوة الكرام ، هذه آيةٌ من أخطر الآيات ، لأن عدم تطبيقها قد يكون سبباً لانسلاخك من دين الله ، والدليل :

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ

ليس له موالاةٌ مع الله إطلاقاً ..

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ)

لأنه في المنطق لا يقبل أن توالي رجلاً ، وأن توالي عدوه ، مستحيل ، لا يجتمع موالاة جهةٍ وجهةٍ معاديةٍ لها ، من هم أصدقاؤك ؟ قال : صديقك ، وصديق صديقك ، وعدو عدوك ، من هم أعداؤك ؟ عدوك ، وصديق عدوك ، وعدو صديقك ، فلا يجتمع أن توالي كافراً ، وأن توالي مؤمناً ، إنهما متناقضان ، إلا أن يكون منافقاً ..

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(14))

(سورة البقرة)

هذا المتلون منافق ، ولا شأن عنده عند الله ، و..

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ)

(سورة النساء : من الآية 145)

لا تستح بدينك ، فإنّ الله ناصرُه :

شيء رائع جداً أن يكون لك هوية ، أنت مسلم ، فلا تستح بدينك ، قدمت لك ضيافة في رمضان فلا تقل : معي قرحة ، لا بل قل : أنا مسلم ، وصائم ، لا تخف ، الذي أنزل هذا الدين هو الذي يحميك ، فإذا كنت لا ترى أن الله لا يحميك فلماذا تعبده ؟ إن كنت ترى أن جهة يمكن أن توقع بك سوءًا ، واللهُ لا يتدخل ، فلماذا تعبد الله ؟ هذا كلام منطقي ؛ أنت مع أقوى الأقوياء ، أنت مع خالق الأرض والسماء، أنت مع رب العالمين ، أنت مع من بيده ملكوت كل شيء ، أنت مع من أمره هو النافذ ..

(إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(82))

(سورة يس)

أنت مع مَن ؟ مع مَن يفعل ما يريد ، العالم كله ، المجرات كلها في قبضته ، الأقوياء جميعاً في قبضته، فأنت مع الله ، فلا تخشَ مع الله أحداً .

(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)

(سورة الأحزاب : من الآية 37)

فيا أيها الإخوة ، حينما توالي أهل الكفر والطغيان ، معنى ذلك أنك لا تعرف الله ، وأنك ليس لك ولاءٌ مع الله إطلاقاً ، لا يعقل أن تواليَ عدواً لله ، لا يعقل أن توالي مَن يرفض دين الله ، لا يعقل أن توالي من يستهزئ في عباداتك ، لا يعقل أن توالي من يريد أن يطفئ نور الله .

دقق في هذه الآية ، بربك لو رأيت إنساناً يتّجه نحو الشمس ، وينفخ في قرصها ليطفئها ، بمَ تحكم عليه؟ بالجنون ، ماذا يقول الله عزَّ وجل ؟

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ)

(سورة الصف : من الآية 8)

إذا كانت أشعة الشمس ، أو لهب الشمس لا يمكن أن يطفأ بنفخةٍ من فم إنسان ، فهل يعقل أن يستطيع الكفار ، ولو اجتمعوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ؟! كم من أمةٍ قام فيها من يريد إلغاء الدين ، بأماكن عديدة في العالم ، ما الذي حصل ؟ هؤلاء الذين أرادوا إطفاء نور الله هم انطفؤوا ، وبقي نور الله ساطعاً .

لذلك لا تقلق على هذا الدين ، إنه دين الله ، وإذا شاء الله عزَّ وجل نصر دينه بالرجلِ الفاجر ، وهذا من حكمة الله عزَّ وجل ، ولكن اقلق على شيءٍ واحد ، ما إذا سمح الله لك ، أو لم يسمح أن تنصر دينه، وإنه لشرفٌ عظيم أن تكون جندياً من جنود الحق ، فلابد أن تكون مع المؤمنين ؛ بقلبك ، وقالبك ، بمشاعرك ، وعواطفك ، وقد يكون المؤمنون ضعافاً ، عندهم فوضى ، وعندهم تقصير ، لكنهم طيبون، طيبون مقصرون ، هؤلاء الذين يعجبونك خبثاء ، خبثاء مجرمون .

يا أيها الإخوة ، لكن القوي مسموع الكلمة ، والضعيف لو تكلم لا يسمع صوته ، أنت مؤمن ، لابد أن تكون هذه الآية أحد أركان عقيدتك :

(لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

لا يتخذهم استقلالاً ، أي أنه ترك جميع المؤمنين ووالاهم ، أو مشاركةً ؛ والى بعض المؤمنين ، ووالى بعض المشركين ، والولاء لا يقال له ولاء ، لكن الحب ، والود ، والنصيحة ، والتقليد ، تقلدهم في حياتهم ، في أعيادهم ، في أفراحهم ، في أتراحهم .

استثناء مهمّ : فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ

لكن العلماء استثنوا ، قال تعالى :

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 7)

عاملك إنسان غير مسلم معاملة طيبة ، أنت من واجبك أن تعامله معاملة طيبة ..

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

(سورة التوبة : من الآية 7)

ولم يقاتلك ، ولم يتآمر عليك ، ولم يطعن بك ، ولم يسئ إليك ، قال تعالى :

(لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة : من الآية 8)

فلا شيء ، إنسان ليس مسلماً ، أراد أن يزورك ، ويسمع منك ..

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ)

(سورة التوبة : من الآية 6)

استقبله ، ورحِّب به ، وضيفه ، وتكلم الحق أمامه ، فأي لقاء يتم بين مسلم وغير مسلم أنا أرحب به ، وأرحب به كثيراً ، بشرط أن يتاح للمسلم أن يعرض أفكاره ، ودينه أمامه فقط ، فإذا كان بإمكانك أن تعرض ما عندك فاجتمع مع أي إنسان ، وكُن بشوشاً ، لطيفاً ، الإسلام واقعي ، لكن شخصًا لا يعبأ بدينك ، ولا يقيم له وزناً ، ويحتقر منهجك ، وهو قوي ، أو غني ، فأنت تزوره ، وتتذلل إليه ، وتتضعضع أمامه ، فهذا لا ينبغي ، والنبي الكريم يقول :

((من جلس إلى غني فتضعضع ذهب ثلثا دينه)) .

[من زيادة الجامع الصغير عن ابن مسعود وأنس]

فكيف إذا كان غنياً غير مسلمٍ ، ولكنه مشرك ؟! لا ..

(لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

تهديد إلهيّ :

هل بعد هذا التهديد من تهديد ؟

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

أحياناً يقول الأب لابنه : إن صاحبت فلاناً فلست ابني ، فهل بعد هذا التهديد من تهديد ؟ إن صاحبت هذا الشاب الفاسق فلست ابني ، ولن أعترف بك ، هذا أعلى أنواع التهديد ..

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

لكن :

(إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً)

إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاة

هذه رخصة من الله :

فإذا كان هذا الكافر قوياً جداً ، لدرجة أنك إن لم تشعره أنك قريبٌ منه سحقك ، أو أنهى حياتك ، في مثل هذه الحالات هناك رخصةٌ اسمها التَقِيَّة ، لكن هذه تقدَّر بقدرها ، ولا يتوسع فيها كثيراً ، فإذا هددت حياتك ، يمكن أن تظهر له بعض المودة اتقاءً لشره ، وشر الناس من اتقاه الناس مخافة شره ، كإنسان له لقب معين ، فإن لم تناديه بهذا اللقب نشأت مشكلةٌ لا قِبَل لك بها ، تناديه بهذا اللقب ، النبي الكريم كتب : " من محمدٍ رسول الله إلى عظيم الروم " ، هل كان قيصر عنده عظيماً ؟ لا ، ولكن هذا لقبه ، ففي حالات يكون المؤمن حكيمًا ، والشرع دقيق جداً ، فلان له لقب معين أناديه بلقبه ، هذا لا يزيد ، ولا ينقص ، فحينما تخاف شر إنسانٍ ظلومٍ ، جبارٍ ، لا يخاف الله ، تناديه بلقبه ، أو حينما تظهر بعض المودة في حالاتٍ نادرةٍ جداً ، في حالاتٍ تهدد فيها كل مصالحك ، فهذا سمح الله به ، لأن الشرع يسع كل الأحوال ، وكل الظروف ، ففي ظروف نادرة جداً إن لم تظهر له مودةً فعل بك ما فعل ، وهذا الشيء واقع ، إذاً أنا أتقي شره بهذه الكلمة ، أو بهذه الابتسامة .

لكن لو وافقت غير مسلمٍ ، أي لو وافقت كافراً أو مشركاً على عملٍ مباح ، فلا مانع ، كأن نريد أن نلغي الظلم في هذه الجهة ، فتعاونا ، النبي استعان بمشركين لإزالة ظلم ، هذه المعاهدات التي جرت بينه وبين القبائل ، فقال العلماء : يجوز أن تستعين بكافر لرد ظلامةٍ ، أو لتحقيق مصلحةٍ للمسلمين ، طبعاً من دون أن نخسر شيئاً ، دقق ، من دون أن يكون هذا على حساب ديننا ، ولا

على حساب شرعنا، ولا على حساب مصالحنا ، مجرد جهة بعيدة تريد أن ترفع عنها الظلم ، فتعاونا كدولتين فلا في مانع ، هذا الشيء مشروع ، هذا من الاستثناءات المتعلقة ..

(إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً)

ويقول الله عزَّ وجل :

(وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ)

وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ

ويحذركم الله ذاته العليَّة ، أي إياك أن تظهر شيئاً ، وأن تخفي شيئاً ..

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : من الآية 179)

ويحذركم الله ذاته العليا أن تجترئوا عليه ، وتوالوا أعداءه ، حينما قال الله عزَّ وجل :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ)

دققوا الآن ..

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 60)

فيجب أن يكون عدوكم هو نفسه عدو الله ، هذه الآية دقيقة جداً ، لا يمكن أن تحارب إلا من كان عدواً لله ، يجب أن يكون عدوكم ، وعدواً لله في وقتٍ واحد ، أما إذا كان عدوكم ، ولم يكن عدواً لله ، فيا لطيف !! هذا الذي يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم إلى أبد الآبدين ، يجب أن يكون هذا الذي تقاتله عدواً لك ، وعدواً لله في وقتٍ واحد ، وإلا فأنت مجرم في حق المؤمنين ..

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

هذا واقع المسلمين للأسف الشديد :

سوف تعودُ إلى الله ، وترجعُ إليه ، وسوف يحاسبك عن هذه الموالاة ، وهذا الانحياز .

صدقوني أيها الإخوة ، إنك لو دققت في حياة المسلمين بعمق ، وجدت ولاءهم لغير المسلمين ، فيتفنن المسلم أحياناً كيف يوقع بك الأذى ، ويعلم أنك مسلمٌ مثله ، فإذا جاء مع غير مسلم كان لطيفاً إلى درجةٍ لا تصدَّق ، أليس هذا ولاءً لهم ؟

هذا الأخ المؤمن ، وتعلم أنه مظلوم ، تتفنن في إيقاع الأذى به ؟ وهذا القوي غير المسلم تتفنن في ملاطفته ، وفي البحث عن حلٍ لمشكلته ، وفي بيان سبيلٍ لنجاته ؟! كيف تواجه الله يوم القيامة ؟ هذا الذي جاءك ضعيفاً ، توقع به أشد أنواع الأذى ، وأنت مرتاح ، وهذا الذي جاءك قوياً ، تفكر له

عن حلٍ لمشكلته دون أن تشعر ، هذا والله ولاءٌ ، وأيّ ولاء ، وبراءٌ من المؤمنين ، وأيّ براء ، لو دققت في حال المؤمنين ، فيكفي أن توالي هؤلاء ، وأن تحبهم ، وأن تدافع عنهم ، وأن تشيد بهم ، وأن تتحدث عن براعتهم ، وعن كفاءتهم ، وعن تفوّقهم وأنت لا تدري ، أنت واليتهم ، وأنت لا تدري .

هذا درسٌ مهم جداً ، أيها الإخوة ، حتى يرضى الله عنا ، وحتى ينصرنا ، وحتى ينظر إلينا بالعطف فلابد أن نكون مع المؤمنين ، وأن يكون ولاؤنا للمؤمنين ، ومحبتنا للمؤمنين ، وقد لا يعجبك المؤمن ، فيه تقصير ، فيه تخلف ، فيه جهل أحياناً ، فيه تجاوز ، واحد عنده أولاد ، فأولاده قدره ، شاء أم أبى ، أولادنا قدرنا ، والمؤمنون قدرنا ، لكن محبتنا لهم ، وعطفنا عليهم ، وقوتنا لهم ، وحرصنا عليهم ، وخبرتنا في خدمتهم .

نماذج حية من الولاء والبراء :

أيها الإخوة ، أضع بين أيديكم نموذجًا للولاء والبراء : طبيب مقيم بأمريكا ، وله دخلٌ فلكي ، ويعيش حياةً ماديةً تفوق التصوُّر ، لكنْ في أعماقه شعور بالذنب ؛ أن كل علمي ، وكل خبرتي ، وكل تفوقي لغير المسلمين ، فعاد إلى بلده ، وافتتح عيادةً ، لا شك أن الموازنة بين بلده ، وبين بلد غربي متقدم فيها بونٌ شاسع ، لكنه أسرّ لي ، وقال : شعرت براحةٍ لا توصف ، لأنني أعالج المسلمين ، وأضع علمي في خدمتهم ، هذا شاهد .

قبل أيام زارني أخ ولد في أمريكا ، طبيب ، ولكنه متخصص في الأطراف الصناعية ، وأراني بعض إنجازاته ، شيءٌ مذهل ، طفل صغير قطعت رجله من أعلى الفخذ في حادث ، بعد تركيب طرف صناعي صار يمشي ، قدَّم خدمات ، قال لي : أنا والله أتمنى أن آتي إلى الشام في العام ثلاث مرات كي أعالج هؤلاء المصابين بتكلفةٍ فقط من دون أي ربح ، والرقم رمزي جداً ، شعر أن كل خبرته لغير المسلمين ، شعر بضيق .

أنت مسلم ، إن تعلمت في هذا البلد الطيب فلحمك من خير هذا البلد ، فصرت لغير المسلمين بكل خبراتك ، وكل قدراتك ، كل إنسان يخدم غير المسلمين على المدى الطويل يشعر باختلال بتوازنه ، هؤلاء المسلمون هم الذين رفعوك وجعلوك طبيباً ، أيعقل أن يكون علمك لغيرهم ؟ فمن الوفاء لدينك ولأمتك أن تكون خبراتك العالية في خدمة أهل بلدك وأهل دينك ، هذا من الولاء والبراء ، أما قد يصفو العيش لبعض المسلمين في بلادٍ بعيدة ، فيستقرون إلى نهاية الحياة ، ويدفعون ثمناً لا يتحمَّله أحدٌ من المسلمين ، أولاده ، أولادهم هم الثمن ، يشعر أنه دفع ثمناً لا يستطيع تحمله ، وهذا الواقع ، وهذا من الولاء والبراء ..

(وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(28)قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ)

1 ـ هذه الآية تهديد لهؤلاء المتلوِّنين في الولاء والبراء :

أحياناً بذكاءٍ من المنافق يبدي ولاءً للمؤمنين ، ويخفي ولاءه للكفار إذا كان مع المؤمنين ، أما إذا كان مع الكفار ..

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(14))

(سورة البقرة)

هؤلاء المنافقون المتلوّنون ..

(قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

هذه الآية تهديد لهؤلاء المتلوِّنين ، الذين يظهرون ولاءً للمؤمنين في حضرتهم ، وولاءً للكفار في حضرتهم ، هؤلاء عند الله منافقين ، والعبرة لذلك اليوم الذي لا تخفى على الله خافية ..

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ)

بينها وبين عمل السوء ..

(أَمَدًا بَعِيدًا)

وأعاد الله التحذير مرةً ثانية ..

(وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

2 ـ تحذير ممزوج برحمة :

هذا التحذير رأفة بكم ، محبة لكم لأن المصير مخزٍ ، حينما يكون ولاؤك لغير المؤمنين فالمصير مخزٍ تماماً ، والله لا يرضى لك أن تكون مخزياً يوم القيامة ..

(وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

ما جاء التحذير مرةً ثانية إلا بسبب رأفة الله بالعباد ..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

دعوى المحبة لابد لها من دليل الاتباع :

إنّ الله جلَّ جلاله ما قبل دعوى محبَّته إلا بالدليل ، والدليل القاطع على محبَّة الله اتباع رسول الله ، وإلا فهي دعوى فارغة لا قيمة لها ، كلٌ يدَّعي أنه يحب الله ، الفيصل في هذه الدعوى أن تكون متبعاً لرسول الله .

أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِين

ماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ ، فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ ، فَأَسْرَعَ فِيهِمْ الْقَتْلَ ، قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ ، وَقَالَ :

((أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : لِمَ ؟ قَالَ : لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا)) .

[الترمذي ، وأبو داود ، والنسائي]

من أقام معهم إقامة دائمة ، هناك غير حياة ، وإذا جاء إلى بلده زائراً يتصيَّد العيوب ، أحياناً تضجر منه ، الطرقات سيئة ، والنظام سيئ ، فماذا تريد غير ذلك ؟ ارجع مكان ما كنت ، يشمئز ويُشمأز منه، لذلك قال تعالى :

(وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ(30)قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

آخر آية ..

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا)

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ

أنت لك منهج ، في حالات نادرة جداً يمكن أن تبدي المودة للكفار ، حينما تشعر يقيناً أنك مهددٌ في حياتك ، يمكن أن تتقي منه تقاة ، أن تتقي من هذا الكافر الشرير ما تقيم به أمر الله عزَّ وجل ، أن تبقى في بيتك مع أولادك ، حالات نادرة جداً حينما تهدد في حياتك ، أو في كل مصالحك دفعة واحدة ، أما إذا أخذ فكرة ، فليأخذ خمسين فكرة ، هذه قضية سهلة ، ليس فيها شيء ، أنت معك استثناء لكن ـ كما قيل ـ الضرورة تقدر بقدرها ، كيف ؟

كاد شخص يموت جوعاً ، فله أن يأكل لحم الخنزير ، حالات نادرة ، لكنه يأكل لقمتين فقط ، لئلا يموت، فالضرورة تقدر بقدرها ، هذه قاعدة ، هذا الاستثناء نحن لا نوسعه لكل شيء ، كأن نقول : من لا تقيَّة له لا دين له ، وسع في درجة أنك لا تستطيع أن تحاورهم إطلاقاً ، كل شيء يقال خلاف ما يعتقدون ، انتهى الأمر ، وهذه حالات نادرة جداً ..

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

أنت مؤمن معك منهج ، ينبغي أن تطيع الله ورسوله فقط ، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق ، والأمور بخواتيمها ، والعبرة للآخرة ، والغنى والفقر بعد العرض على الله ، إذا والى المسلم الكفار ، وأقام معهم ، تفلت أولاده ، ولن يكونوا مسلمين إطلاقاً ، بل كانوا في أشد أنواع الانحراف ، فهذا حينما يرجع إلى الله يوم القيامة ماذا يجيب الله عزَّ وجل ؟ الرفاه الذي كان يعيشه انتهى ، وبقيت المسؤولية ، والذي والى المؤمنين ، وبقي في بلادهم ، المتاعب انتهت ، وبقي الثواب ، هذه قاعدة عامة ، المتاعب تنتهي ، ويبقى الثواب ، والميِّزات تنتهي ، ويبقى العقاب ، العقاب أبدي ، والثواب أبدي ، أما المتاعب والميزات فهي مؤقتة ، المتاعب من موالاة المؤمنين مؤقتة ، والميزات من موالاة الكفار كذلك مؤقتة ، ماذا يبقى بعد ذلك ؟ إما في جنةٍ يدوم نعيمها ، أو في نارٍ لا ينفد عذابها

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثالثة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33)ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة آل عمران)

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ

1 ـ الله يصطفي محبيه :

أيها الإخوة ، هذا الذي يؤمن أن الله قدّر على كل مخلوق عمله ، ولا جريرة له به ، هذا إنسان خاطئ! لأن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان مخيرًا ، فإن أحسن فله من الله جزاء حسن ، وإن أساء فعليه من الله وزر ، فالله عز وجل يصطفي ، من يصطفي ؟ يصطفي الذي يحبه ، يصطفي الذي يعبده ، يصطفي الذي يخافه ، يصطفي الذي يرجو رحمته ، لا بد أن يكون من العبد سبب للاصطفاء ، وهذه الفكرة ، وهذا المعنى يملأ القلب تفائلاً ، في أي مكان ، في أي زمان ، في أي عصر ، في أي مصر ، في أية مرتبة ، في أي درجة من السلّم الاجتماعي ، في أي وضع ما دمت محباً لله ، مستقيماً على أمره ، تتقرب إليه بخدمة خلقه فلا بد أن تصطفى بطريقة أو بأخرى ، قد يرفع الله شأنك ، قد يعلي قدرك ، قد يجري الخير على يديك ، يلهمك أن تنطق بالحق ، قد يجعل هدى كثيراً من خلقه على يديك ، وهذا نوع من الاصطفاء ،

لأن الله عز وجل حينما خاطب النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

2 ـ لابد من سبب للاصطفاء :

قال علماء التفسير : هذه تنطبق على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى كل مؤمن بقدر إيمانه ، واستقامته ، وإخلاصه ، أنت مخلوق كريم ، أنت مخلوق مميّز ، أنت مخلوق سخر الله لك ما في السماوات ، وما في الأرض جميعاً منه ، فينبغي أن تعمل عملاً تستحق أن يصطفيك بطريقة أو بأخرى، لأن باب النبوّة مقفل ، وباب الصدّيقية مقفل ، ما طلعت شمسٌ على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر ، ولكن باب البطولة مفتوح إلى يوم القيامة ، باب أن تكون مؤمناً كبيراً ، باب أن تكون محسناً عظيماً ، باب أن تكون عارفاً بالله ، باب أن تكون من أحباب الله ، هذا الباب مفتوح على مصراعيه لكل الخلق .

لكن ربنا عز وجل في هذه الآية يبيّن حالة أولئك النخبة ، أولئك القمم ، قمم البشرية ، الأنبياء فالله اصطفاهم على علم ، وحينما تقول : النبوّة هبة هذا كلام صحيح ! ولكن دعني أوضح لك الحقيقة .

حينما تضطر دولة ـ مثلاً للتقريب ـ أن تعين سفيراً في أقوى دولة في العالم ماذا ينبغي أن تكون مواصفات هذا السفير ؟ ينبغي أن يكون محصلاً لعلومٍ شتى ، علوم الحقوق ، والآداب ، والعلوم ، هكذا في بعض الدول ، لا بد من اختصاصات ثلاثة ، اختصاص علمي ، واختصاص أدبي ، واختصاص حقوقي ، لا بد أن يكون ملمّاً باللغة الأجنبية ، لابد أن يكون من أسرة راقية ، لابد أن يكون ذا هيئة مرضية ، لا بد من ذكاء فطري ، لا بد ، ولابد ... لأنه سيمثل أمة ، سينطق بلسان دولة ، سيعبر عن ثقافة ، فحينما يصطفى مثل هذا الإنسان ليكون سفيراً في دولة عظمة هناك مؤهلات حصّلها بجهده ، ودراساته ، واهتماماته ، وثقافته ، هذه كلها حصّلها بمفرده ، بجهده الشخصي ، بناءً على هذا التفوق ، وعلى هذه الاختصاصات عيّن ، بعد أن يعيّن معه صلاحيات واسعة ، معه حقيبة دبلوماسية ، معه شيكات مفتوحة ، معه ميزات كثيرة ، هذه تأتيه هبة ، هذا الذي اصطفي بسببه تفوقه في اختصاصاته الثلاثة .

إذاً : حينما نتوهم أي إنسان هكذا أراده الله نبياً فكان نبيًّا .

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى)

3 ـ الاصطفاء هو الانتقاء والاختيار :

يقول لك : اصطفى ، أي انتقى من بين خلقه ، انتقى من بين الملايين المميزة ، انتقى إنساناً محباً له ، يطيع يحسن إلى خلقه يتقرب إليه ، فهذا حال الأنبياء اصطفاهم على علم ، اختارهم من بين خلقه لأنهم قمم ، لأنهم ذروة الكمال البشري ، لأنهم على محبة لا توصف ، وعلى ورع لا يوصف ، وعلى خير لا يوصف ، وعلى إحسان لا يوصف ، وعلى حكمة لا توصف ، فلا بد من جانب اختياري ، ولا بد من جانب كسبي ، بُني عليه الاصطفاء ، ولقد اخترناهم على علم ، كلمة اصطفى

وحدها تعني هذا الذي قلته ، وإن الله اصطفى من بني آدم سيدنا آدم ، يقول عليه الصلاة والسلام في بعض أحاديثه :

((آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة))

[كشف الخفاء للإمام العجلوني]

معنى ذلك أن سيدنا آدم في مرتبة عالية جداً جداً :

((آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ، ولا فخر))

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ)

4 ـ آدم أول مخلوق بشري على وجه الأرض :

سيدنا آدم أول مخلوق بشري على وجه الأرض ، ليس له أب ، ولا أم ، فقد حرم تربية الأب والأم ، لذلك تولى الله تربيته بنفسه ، فأسكنه الجنة ، ونهاه عن هذه الشجرة ، وجاء إبليس اللعين فزيّن له الأكل من هذه الشجرة ، ولم يكن وقتها كذب ولا نفاق !

(هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى)

(سورة طه)

فصدقه سيدنا آدم .

(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ)

وفي آية أخرى :

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)

(سورة طه)

على المعصية ، واستغفر ربه ، وتاب عليه وأخرجه من الجنة لا عقاباً ، ولكن تعليماً لكل الخلق الذين سيأتون من بعده ، لأن الله عز وجل في الأصل قال :

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

إذاً خروج سيدنا آدم من الجنة لحكمة تربوية أرادها الله عز وجل ، كأن الله ربّى بني آدم بآدم ، وإن هذا الشيطان عدو لكم ، فكيف أبويكم من الجنة ؟.

فيا أيها الإخوة :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا)

بعد آدم عُبِد غير الله في الأرض ! فكان سيدنا نوح أول نبي جاء إلى البشر بعد أن وقعوا في الشرك ، وآل إبراهيم ، وإبراهيم أبو الأنبياء ، ونبينا صلى الله عليه وسلم من ذريته ، فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قُلْتُ :

((يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ ؟ قَالَ : دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ))

[أحمد]

وفي رواية الحاكم في المستدرك :

((أنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشارَةُ عِيسَى ...))

[المستدرك]

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة البقرة)

((أنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشارَةُ عِيسَى ...))

[المستدرك]

فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء .

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ)

وقصة اليوم هي قصة آل عمران على العالمين .

أريد أن أكرر أن الاصطفاء يعني أن جانباً من سبب الاصطفاء يعود إلى المخلوق ، هذا الجانب الكسبي ، لا ينكر أن النبوّة وهبية ، ولكنها بنيت على اصطفاء ، والاصطفاء أساسه الكسب ! كما بينت في مثل السفير

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

لو أردت أن أوسع معنى الاصطفاء ، التوسيع يعني أنّ أي واحد من الإخوة المؤمنين إذا تفوق في معرفة الله ، وحرص على طاعته حرصاً كبيراً ، وبذل مما أعطاه الله من علم أو من مال ، أو من جاهٍ، أو من حكمة ، أو من خبرة ، أو ما شاكل ذلك ، وبذل هذا في سبيل الله فلابد أن يرى من الله قبولاً ، ونوعاً من الكرامة ! مستحيل وألف ألف مستحيل أن تخطب ودّه ، ثم لا يكافئك ، أن تخطب ودّه ثم لا يكرمك ، أن تخطب ودّه ثم لا تجد من الله معاملة استثنائية تشعر أنه يحبك ! سمِّ هذا إن شئت اصطفاءً ، كما قال بعض العلماء :

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

هذه للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكل مؤمنٍ مطيعٍ مخلصٍ محبٍ منيب له من هذه الآية نصيب !

علوّ الهمة من الإيمان :

فإن أردت أن تكون متميزاً ، إن أردت أن يخصـّك الله بعلم ، أن يعلمك ما لم تكن تعلم ، ليكون فضل الله عليك عظيماً ، إن أردت أن يخصـّك الله بلسان طليق في تعريف الناس بالله ، إن أردت أن يخصـّك الله بمال تنفقه في سبيل الله ، إن أردت أن يخصـّك الله بجاهٍ تحمي به الضعفاء المؤمنين ، إن أردت أن يخصـّك الله بعمل طيب يمسح دموع البائسين ، إن أردت أن يخصـّك الله بعمل عظيم

ينجي به على يديك من عباده المؤمنين فالباب مفتوح على مصراعيه ، هناك أبواب أغلقت بنص القرآن الكريم ، وهناك أبواب مفتحة ، وقد ورد في الأثر بأن علوّ الهمة من الإيمان .

نحن في التعليم لو أن طالباً أراد أن ينجح فقط ، يقول : أنا أريد المعدّلات فقط ، النهايات الصغرى ، في الأعم الأغلب أنه لا ينجح ، أما حينما يطلب الطالب التفوق لعله ينجح ، ولعله يتفوق ، فأنت إن أردت أن تكون وراء الباب في الجنة ربما لا تدخلها ، أما إن أردت أن تكون طموحاً مع المتفوقين فلعل الله يرحمنا جميعاً ولعل الله يقبلنا جميعاً .

أنا أريد أيها الإخوة أن تشعروا أن أبواب رحمة الله مفتوحة دائماً ، ولا علاقة لها لا ببلد ، ولا ببيئة ، ولا بمجتمع ، ولا بطبيعة ، أبواب رحمة الله مفتّحة لكل عباده المؤمنين ، وفي أي عصر ، إن صدقت رأيت شيئاً لا يصدَّق ، إن صدقت الله رأيت شيئاً لا يصدق ، وما من مسلم مؤمن يخطبّ ودّ الله عز وجل إلا أكرمه الله إكراماً يراه هو ، ويراه من حوله ، وإذا شئت أن تفسر هذا الإكرام ، أو هذه الكرامة، أو هذه المعاملة الخاصة ، أو هذا الخير الذي يجرى على يديك ، أو هذا المنطق السديد الذي تنطق به ، أو هذا العمل الطيب الذي قُدّر لك ، أو التفاف الناس حولك ، هذا كله بيديك ، بشرط أن تقدم لله ما يؤهلك أن تنال منه هذا العطاء .

ما رأيت أدباً أعظم من أدب النبي عليه الصلاة والسلام ، حينما سأل الله موجبات رحمته ، وعزائم مغفرته ، الله يرحم كل خلقه ، لكن إن أردت رحمته فقدّم ثمنها ، ثمنها أن تتوب ، ثمنها أن تؤدي العبادات بإتقان ، ثمنها أن تطيع الواحد الديّان ، ثمنها أن تحسن إلى خلقه جميعاً ، هذه كلها ثمن رحمة الله ، ولعلي وضحت معنى الاصطفاء في جانب من العبد ، جانب من العبد كسبي أساسه الاصطفاء ، وهناك جانب وهبي ! اخترنا هذا الإنسان من بين الأوائل ، من بين المتفوقين ، من بين الذين يتقنون اللغة الإنكليزية فرضاً من بين الأوائل ، ثم منحناه صلاحيات كثيرة ، الصلاحيات وهبية ، أما الاختيار فقد بني على أساس كسبي ، فالاصطفاء هذا معناه ، الله اصطفى ، والاصطفاء الضيّق اصطفاء الأنبياء، وبابه مغلق ، وأمره منتهٍ ! الاصطفاء الواسع أن تكون متميزاً ، ألا ترى إلى إنسان أمضى حياته في طاعة الله ، ألا ترى إلى شيخوخته !

والله أيها الإخوة ، زرت أحد علماء مدينة في الشمال ، والله ما رأيت مِلِكاً في ملكه أكبر شأناً هكذا ! الإنسان إذا أمضى حياته في طاعة الله ، إذا مضى حياته في الدعوة إلى الله ، إذا أمضى حياته في التقرّب إلى الله ، فهذا له معاملة خاصة ، وله شأن كبير ، ففي السابعة والتسعين كان أحد علماء دمشق العِظام رحمه الله ، قامة منتصبة ، وبصر حاد ، وسمع مرهف ، وأسنان كاملة في فمه ، سُئل : ما هذا الصحة ، يا سيدي التي حباك الله بها ؟ قال : يا بني ، حفظناها في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقيّاً عاش قوياً .

لك استثناءات للصحة ، لك استثناءات في السمعة ، لك استثناءات في الرزق ، لك الاستثناءات في الحياة الاجتماعية ، محبوب ، لأن الله قال :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

لنت لهم فالتف الناس حولك .

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران : من الآية 159)

تتصل بالله فيمتلئ قلبك رحمة ، فتكون ليّناً للناس ، فيلتفون حولك ، وينقطع المرء عن الله ، فيمتلئ قلبه قسوة ، فينعكس غلظاً ، فينفض الناس من حولك ، هذا قانون ! معادلة رياضية مائة بالمائة ، فأنا أريد كما يقال أحياناً التطبيق العملي ، أنا ما علاقتي بهذه الآية ؟

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

5 ـ آدم أول مخلوق بشري على وجه الأرض :

أنا ما علاقتي بهذه الآية ؟ لي علاقة متينة جداً ! أنا حينما أخالف المجموع العام .

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام)

الناس أين يسهرون ؟ في لقاءاتهم ماذا يتكلمون ؟ في ولائمهم كيف يأكلون ؟ نساء ورجال ، واختلاط ، ومزاح لا يرضي الله ، ونظرات خبيثة ، وتعليقات لاذعة ، ومال يكسبونه بالحرام ، وعلاقات كلها آثام، فإذا كنت مع المجموع فتحمل ما يتحمله المجموع ، أما إذا خفت ، واطمأن الناس ، إذا أطعت ، وعصى الناس ، إذا صليت بالليل ، والناس نيام ، إذا غضضت بصرك عن الحرام ، والناس يفتحون عيونهم هكذا ، إذا ضبطت لسانك ، والناس يتكلمون ، إذا ضبطت جوارحك ، والناس يسقطون ، مقابل ذلك لك معاملة متميزة ، لك كرامة عند الله ، لك استثناء لك تكريم ، لك عطاء ، لك اصطفاء ، إن شئت أن تسميه اصطفاء .

مرة التقيت بأخ كريم يعمل في القصّاب ، وأنا أحترم كل المهن ، لأن كل حرفة تقدم خدمة هي حرفة مقبولة عند الله ، ولكن هذا القصّاب من جيل أحد علماء القرآن الكريم الكبار ، وكان هذا العالم فيما مضى قصّاباً ! فقال لي مداعباً : إن هذا فلان ، الأستاذ الجليل ، العالم الجليل كنت معه في الحرفة ، لكن قلت له : أين الثرى من الثريا ؟ فرق كبير بين أن تكون من كبار علماء القرآن ، وقد أمضيت كل حياتك في قراءة القرآن ، وتعليم القرآن ، وحفظ القرآن ، وبيان أحكام القرآن ، وبين أن تكون محترفاً حرفة تعيش منها ، وانتهى الأمر، لابد من التفوق ، ولابد من التميز ، لما يريد الناس أجمل بيت ، وأجمل زوجة ، وأعلى دخل ، وأجمل مكتب تجاري ؟ انظر إلى الناس يتنافسون في بيوتهم ، في مركباتهم ، في إنفاقهم ، في حفلاتهم ، في أفراحهم ، حتى في أتراحهم يتفوقون ، يقول لك : سار خلفه خمسمائة سيارة ! يفتخر بها ، كلفنا القبر مبلغًا ضخمًا ، حتى إذا

مات ميّتهم يفتخرون ! لماذا لا نتنافس في الآخرة ؟ لماذا لا نحب التفوق في الآخرة ؟ وباب التفوق مفتوح إلى يوم القيامة ، هذا معنى :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33)ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ)

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ

1 ـ معنى الآية :

خصائص واحدة ! الجبلّة واحدة ، الفطرة واحدة ، الإمكانات واحدة ، ولو لم تكن واحدة لما كان هناك من معنى للتكليف ، لا تكليف إلا بالإمكانات كيف نكلف مالا نطيق ؟ ماذا قال الله عز وجل؟

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة : من الآية 286)

كل التكاليف التي أمرنا الله بها من وسعنا وفي إمكاننا تطبيقها ، هذا معنى ذرية بعضها من بعض

2 ـ النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر :

لولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، لو لا أن النبي يجوع كما نجوع ، ويخاف كما نخاف ، ويشتهي كما نشتهي ، وانتصر على بشريته لما كان سيد البشر ! فعَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَمَا لِي وَلِبِلالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلالٍ))

[سنن الترمذي]

واضطُهد في الطائف ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((... إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : قُلْتُ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ : الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

[البخاري ، والترمذي ، واللفظ له]

هناك مضائق في الحياة لا بد أن تمر بها ، تضيق جداً على الأنبياء ، الإسلام في بعض اللحظات انتهى ! قضية ساعة ، وينتهي الدين في الخندق ! حتى قال بعض من كان مع النبي : أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ كأنه كفر بنبوة النبي ! هنالك ابتُلي المؤمنون ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، لابد من الابتلاء .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

(سورة العنكبوت)

" يا إمام ، أندعو الله بالابتلاء ، أم بالتمكين ؟ قال : لن تتمكن قبل أن تبتلى" ، فعلى المؤمن أن يوطّن نفسه على أن هناك ابتلاء ، وهناك مضائق لابد أن يعبرها ، وهناك شدة بعضها نفسي ، وبعضها مالي ، وبعضها صحي ، فيبتلى الإنسان بصحته ، ويبتلى بماله ، ويبتلى بأهله ، ويبتلى بمن حوله ! أتصبرون ؟ لا بد أن نصبر ، والصبر مرتبة عالية جداً ، والدليل بأن الصبر أجره غير محدود! .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : من الآية 10)

حينما تقرأ قوله تعالى ألا يقشعر جلدك ؟ حينما يتحدث ربنا عن نبي كريم ويقول :

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)

(سورة ص : من الآية 44)

هل منا رجل لا مشكلة له ؟ عنده مشكلة ؟ فإن كان صابراً فهو عند الله في مكانة عليّة ، إن وجدناه صابراً ، حينما تقرأ قوله تعالى :

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم)

إذا ذهبت إلى بيت الله الحرام ، وعاهدت ربك على الطاعة ، وعُدت من بيت الله الحرام ، وأنت عند عهدك ألا تشعر بسعادة لا توصف ؟ قد تخسر الدنيا ، وقد تخسر بعض ما في الدنيا ، ولكن تربح نفسك ، وتربح آخرتك ، وأنت من الفائزين .

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33)ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قصة امرأة عمران :

إليكم أيها الإخوة هذه القصة :

(إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ)

عمران زوجها ، وهو أبو السيدة مريم ، وجدُّ سيدنا عيسى ، إذ قالت امرأة عمران :

(رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي)

1 ـ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي :

لابد من تسخير الولد لخدمة الدين :

ينبغي أن نقتدي جميعاً بهذه المرأة العظيمة ! أرادت أن تقدم ما في بطنها لله ، تصورته مولوداً ذكراً يكون في خدمة الخلق ، وفي الدعوة إلى الله ! كم من أبٍ مسلم همه الأول أن يكون ابنه عالماً من علماء المسلمين ، داعية من الدعاة الصادقين ، يهمه أن يكون طبيباً مهندساً ، معه بورد معه إف آر إس ، معه أكريجيه ، يهمه أن يكون وسيم الشكل ، دخله كبير ، يفتخر به ، يسير مع زوجته الكاسية العارية ! هذا ابني ، وهذه زوجته ! كم من المسلمين يتمنى أن يكون ابنه عالماً ، عالماً كبيراً ، داعية كبيراً ، مَن مِن المسلمين قال : يا رب : إني نذرت هذا الابن لك ؟

والله سمعت عن بعض الصالحين قصة أثارت مشاعري ، رجل من صالحي هذه البلدة اختار أحد أولاده النجباء ، وقال له : حصّتك من تجارة أبيك كحصّة إخوتك جميعاً ، لكنك مفروز أنت لخدمة هذا الدين ، ولك مثل حصصهم كاملة ، ولا يزال حي يرزق في خدمة المسلمين ، والعلماء الصالحين .

هل يوجد أب يقدم ابنه ؟ والله أنا أغبط كل أب عنده ولد ذكر أو أنثى ، وقد تكون الأنثى أفضل من الذكر ، هكذا في القرآن الكريم ! هذا الولد ممكن أن يكون عالمًا كبيرًا ، داعية كبيرًا ، مصلحًا اجتماعيًا كبيرًا ، إنسانًا كبيرَ القلب ، فاعتن به ، الجنة مفتحة أبوابها لك من خلال هذا الولد ! ليكن معك في المسجد ، اعتن بصحته ، اعتن بطعامه ، وشرابه ، اعتن بدينه ، اعتن بثقافته اعتن بتدريسه ، اعتن بمستقبله ، حينما تسعى ليكون ابنك في خدمة الحق وأهله فأنت من أعظم السعداء في الأرض هذه المرأة هكذا قالت :

(إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي)

أفلا يوجد عند إنسان ولد معه اختصاص ؟ يحمل ليسانس في اللغة الإنكليزية ؟ ألا تستطيع أن تترجم بعض الكتب الإسلامية إلى اللغة الأجنبية ؟ مئات الملايين ضالة وشاردة ، وهذه كلها تحتاج إلى داعية ، قد تجد في اللغة الإنكليزية فرضاً فقرًا شديدًا في الكتب الإسلامية ! المترجم مهمته أن يربح لا أن ينقل الحق للآخرين ، معك ليسانس لغة أجنبية فاجعلها في خدمة الحق ، معك مال ؟ اجعله في خدمة الخلق ! أنت في منصب رفيع ؟ اجعله لإنصاف الضعفاء والمساكين !

لا يوجد أحد ليس له ميّزة في الحياة ، وكل هذه الميزات طرق إلى الله ، وأنا أكرر وأقول : الجنة كل من وصل إليها نعم بها ، ولا يُعتد بالوسيلة التي دخل إليها !

قدِّم شيئا لله :

قد تجد إنسانًا همه الأول بناء المساجد ، كل اهتماماته بالرمل ، والإسمنت وما إلى ذلك ، هذا يدخل الجنة من أوسع بابها ، لولا من بنوا هذا المسجد ، وأنشأووا مرافقه كيف نجلس هنا ؟ إنسان التفت إلى بناء المساجد ، وإنسان التفت إلى إقامة الشعائر ، وآخر التفت إلى تأليف الكتب إنسان التفت إلى رعاية الفقراء والمساكين ، وغيره التفت إلى رعاية المرضى ، فأبواب الجنة مفتحة على كل مصاريعها ، بشرط أن يكون لك عمل شرعي بنيّة عالية ، فالجنة لك ! إياك أن تتوهم أن الجنة للدعاة فقط ، لا لطبيب يعالج المسلمين بإخلاص ، ولمهندس يبني بيوتاً للشباب المؤمنين ، ولمحامٍ يدافع عن الحق بإخلاص شديد ، ولتاجر يقدم سلعة بسعر معتدل جيدة لكل المسلمين ، ولمعلم يعلم أبنائنا ، ولمربٍ يربي بناتنا ، وإنسان بشرط أن يكون عملك مشروعاً ، وتسلك به الطرق المشروعة ، وأن تبتغي به كفاية نفسك ، ورعاية أهلك ، وأولادك ، وخدمة المسلمين ، وألاّ تشغلك عن واجب ، وعن فريضة ، فانقلب عملك إلى عبادة ، والدين واقعي ، وهذا الدين دين الحياة .

(إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

قدِّم شيئًا لله عز وجل ، قدم خبرتك ، قدم حرفتك ، قدم اختصاصك ، أنت محام قدم شيئًا من خبراتك للفقراء المظلومين ، طبيب عالج مرضى فقراء ، غني قدم من مالك ، عالم قدم من علمك، خبير قدم خبرتك ، قدم شيئاً ، والله امرأة فيما أعلم أصيبت بمرض عضال في دماغها ، ورم خبيث ، فنذرت إن شفاها الله لتكونن في خدمة المسلمين ، فشفاها الله ! لا تملك من حطام الدنيا شيئاً فماذا تفعل ؟ بدأت تصنع طعاماً طيباً ، ومتقناً للأغنياء ، وتأخذ ثمنه فتوزعه على الفقراء ، لا تملك إلا فن الطهي فطهت ، هذا الفن صار لها باباً إلى الجنة !

مرة كنت في المطار فرأيت كل مسافر يتجه إلى بوابة ، يسمونها (كيت) ، استلهمت من هذا أن كل إنسان له بوابة خروج في هذه الدنيا ! هل يمكن أن تستيقظ كل يوم كما كنت البارحة ، إلى ما شاء الله ؟ مستحيل ، إذاً كيف يموت الناس ؟ استيقظ على تطور لم يكن من قبل في جسمه ، زار طبيبًا ، وطبيبين، وثلاثة ، كنّ الطبيب ، وصفن القضية ، أجري تحليل ، وأجري تصوير ، طبقي ، إيكو ... الأمر بدا متفاقمًا ، بعد حين جاءت النعي ! إذاً هذه بوابة ، فكل إنسان له بوابة ، فإذا كنا أبطالاً فلنجعل من بوابة الخروج بوابة إلى الجنة ، لابد من ذلك ، كل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر ، هذه امرأة عمران قالت :

(إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا)

النبي يباهي بأمته الصالحة:

كم من ولد يوجد في الطريق ؟ تجد أولاد الأزقة يسبّون الدين ، يتكلمون في العورات ، ينهالون ضرباً على أصدقائهم ، يتكلمون بعبارات لا تسمع ، هذه تربية المسلمين ! ؟ والله ما أصدق في حياتي للحظة واحدة أن النبي حينما قال :

((تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ إِنِّي مُكَاثِرٌ الْأَنْبِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) .

[أحمد عن أنس]

والله ما أصدق لحظة في حياتي أن النبي يباهي بمثل هذه الأمة ! يباهي بالمؤمنين ، يباهي بالشباب المؤمن ، يباهي بأطفال مؤمنين ، أطفال الصحابة كانوا على شيء لا يوصف من الأدب ، ومحبة الله ورسوله ، والذكاء المتّقن .

نريد مثل هؤلاء الشباب :

مرّ سيدنا عمر بالمدينة فوجد أطفالاً ، فلما رأوه بهيبته تفرقوا إلا غلامًا ظل واقفاً بأدب ، ولم يهرب ! فقال له : **<< يا غلام ، لمَ لمْ تهرب مع من هرب ؟ فقال له : أيها الأمير ، لست ظالماً فأخشى ظلمك ، ولست مذنباً فأخشى عقابك ، والطريق يسعني ويسعك ! >>** ، هكذا كانوا أطفال الصحابة .

دخل وفد على سيدنا عمر بن عبد العزيز للتهنئة بالخلافة ، يتقدمهم غلام صغير ، فغضب ، وقال له : اجلس ، وليقم من هو أكبر منك سنّاً ، فقال له : أصلح الله الأمير ! **" المرء بأصغريه ؛ قلبه ولسانه "**، فإذا وهب الله عبداً لسانا لافظاً ، وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام ، ولو أن الأمر كما تقول أيها الأمير بالحجم لكان في هذه الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس ، هذا كلام طفل في العاشرة من عمره . ودخل على عبد الملك بن مروان وفد آخر من البادية ، فغضب من حاجبه ، وقال : ما شاء أحد أن يدخل عليّ حتى دخل ! حتى الصبية ! وبّخ حاجبه ، فقال هذا الطفل الصغير : " أيها الأمير ، إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك ، ولكنه شرفني ! أصابتنا سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، بقوا جلدا وعظما ، وسنة دقت العظم ، ومعكم فضول أموال ، فإن كانت لله فنحن عباده ، فتصدقوا بها علينا، وإن كانت لنا فعلامَ تحبسوها عنا ؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا ؟ فقال هذا الخليفة : والله ما ترك هذا الغلام لواحدة لنا عذراً " ، اسمع أطفالنا ، اسمع كلامهم بعد الانصراف ، انظر كيف يفعلون ، شيء مؤلم جداً .

هل يوجد بيت ليس فيه أولاد ؟ هذا الأب المسلم لمَ لا يقول كامرأة عمران : رب إني نذرت لك هذا الغلام لمرضاتك ، لمَ لا تعتني به ؟ لمَ لا تأتي به إلى المسجد ؟ لمَ لا تصلي به إماماً في البيت ؟ لمَ لا تعلمه القرآن ؟ لمَ لا تعلمه محبة النبي العدنان ؟ لمَ لا تنشئه على طاعة الله ؟ لمَ تبعده عنك ؟ لمَ

تجعله في الطريق يتعلم كلاماً بذيئاً فاحشاً ؟ هذه قدوة ، أنا أريد أن يكون هذا القرآن مطبقاً في حياتنا ، فما قيمة هذه القصة لو أبعدناها عن حياتنا ؟

(إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

2 ـ مُحَرَّرًا

أي محرر من كل شائبة ! لا تبتغي إلا وجه الله ، لكن معظم الآباء يقولون لك : هذا لكبري ! هذا يعينني عندما أكبر ، والولد ضروري جداً في الحياة ، ويبتغي به الدنيا ، ولا يبتغي به الآخرة ! لو ابتغى به الآخرة لجاءته الدنيا ، وهي راغمة ! أما لأنه ابتغى به الدنيا ، وأخذ شهادة عليا ، فسافر ولم يعد ، تزوج هناك ، وبقي ، وضنّ على أهله بالهاتف مرة في السنة ! دخلت مع أب ابنه بمنصب رفيع جداً ، تكلم مع أبيه كلامًا غير معقول أبداً ، قال لوالده : اجلس هنا ! والده محترم جداً ، يوجد أبناء عاقون .

3 ـ فَتَقَبَّلْ مِنِّي

فيا أيها الإخوة :

(فَتَقَبَّلْ مِنِّي)

قدمت ما في بطنها لله عز وجل قالت :

(فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

تصور هذه السيدة ، امرأة عمران أنها ستنجب ولداً ذكراً يكون في خدمة الخلق في المعبد ، يعبد الله ، ويدعو إليه ، فلما وضعتها قالت :

(رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)

رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى

1 ـ المرأة لها عمل جبار :

اختلف الأمر ، طبعاً الرجل بإمكانه أن يخالط الناس دون أن يقال عنه كلمة ، لكن المرأة غير ذلك ، فهي مكرمة عند الله ، ومشرفة ، لكن لها اختصاص آخر .

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

(سورة الأحزاب : من الآية 33)

اعلمي أيتها المرأة ، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله ! والجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام . والمرأة لها دور خصها الله به شرفها ، وكرمها ، وكلفها، لكن أعطاها اختصاصاً ؛ أن ترعى زوجها وأولادها ، والرجل له دور آخر ، الرجل يعبد الله ، ويجاهد ، ويلتقي مع الناس ، لكن المرأة لها عبادة من نوع آخر ، فكلما سترت مفاتنها عن الشباب ارتقى دينها ، ماذا تفعل المرأة المسلمة ؟ تسهم في إعفاف الشباب عن طريق ثيابها الفضفاضة الساترة، المرأة الفاسقة ماذا تعمل ؟ تسهم في إثارة الغرائز ، كم من شاب نظر إليها فوقع في العادة السرية مثلاً؟ كم من شاب نظر إليها فزنى بغيرها ؟ مثلاً ، فالمرأة المسلمة لها عبادة تتميز بها عن غيرها ، وهي أن كل سنتيمتر من ثيابها متعلق بدينها ، فكلما كان ثوبها صفيقاً ، ثخيناً وفضفاضاً ، وحجبت مفاتنها عن الخلق كلما ارتقت عند الله عز وجل ، لها عبادة أخرى ! لكن السيدة امرأة عمران وجدت أن الغلام هو الذي يحقق أمنيتها في الحياة ، فجاءت أنثى ! فقالت :

(رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)

2 ـ معنى الآية :

قال بعض العلماء : إنّ الله عز وجل يعلم ماذا وضعت ، فكيف تقول : إني وضعتها أنثى ؟ والله أعلم بما وضعت ؟ هو الذي يخلقها في بطنها ، هذا معنى .

المعنى الأرقى : هو أن الله يطمئنها أنها وإن كانت أنثى ، لكنها سيكون من نسلها أنبياء كبار ، كالسيد المسيح عليه السلام ، فأنت قد تأتيك أنثى ، وأنت لا تعلم أنه قد تنجب ولداً ذكراً يملأ الأرض علماً .

اقترن رجل بعد عهد النبوة بقليل بزوجة ، فلما دخل بها خيّبت ظنه ، لم تعجبه إطلاقاً ، قصة هكذا قرأتها ! في اليوم التالي خرج هائماً على وجه في أطراف الدنيا ، ولم يرجع إلى المدينة إلا بعد عشرين عاماً ! لكن امرأته حينما رأته قد تألم منها قالت له : لعل الخير كامن في الشر ، إذا رأيتني شراً لعل الخير كامن فيّ .

فيروى أنه عاد إلى المدينة بعد عشرين عاماً فدخل ليصلي في المسجد فرأى أعداداً غفيرة تحلّقت حول عالم شاب ، فلما سأل عنه كان ابنه ! فقال : يا بني قل لأمك : إن بالباب رجلاً يقول لك : قد يكون الخير كامنا بالشر ، ذكرها بكلمتها ! قالت : يا بني هو أبوك ! فأنت لا تدري إذا أنجبت بنتاً طاهرة عفيفة نقية أن تنجب ولداً يملأ الأرض علماً ، أو يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، وحينما أسأل عن فتوى الإجهاض قبل أربعين يومًا أقول له : لعل هذا الذي تحاول إسقاطه يكون خيراً لك من كل أولادك ! هو هدية من الله عز وجل .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى

أنت عليك أن تنوي نية طيبة ، وانتهى الأمر ، وعلى الله الباقي .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)

ثم قالت :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

اختلف العلماء أيضاً في هذا ، فقال بعضهم : يا رب ، أنا أتمناه ذكراً كي يكون في المعبد ، فيعلم الناس دينهم ، وكي يكون في خدمة أهل الحق ، وها هو أنثى ، وهناك تفسير آخر : وقد تكون الأنثى خيراً من الذكر .

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

كل كائن له خصائصه .

(وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ)

يعني العابدة .

(وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

السُّنة ليلة الزفاف :

لذلك كل إنسان ليلة عرسه لو دعا بهذا الدعاء الثابت عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ وَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ ، وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ))

[متفق عليه]

هذا دعاء إذا تقبله الله سيأتيك ولد يسرك إن نظرت إليه ، وتطمئن على أحواله ، ويكون ذكراً طيباً لك، وقرة عين ، فلا تنسَ أن تدعو الله يوم العرس ، لأنه قد يأتي ولد فيه نزغة من الشيطان ، كل يوم هو معك في مشكلة ، كل يوم في مخفر ، كل يوم تأتيك الشكاوى عليه ، وهناك غلام كله ذكر طيب حسن .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

1 ـ لا شيء في الأرض أغلى من فتاة مؤمنة طاهرة :

لا يوجد شيء في الأرض أغلى من فتاة مؤمنة .

(وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

طاهرة عفيفة ، صاحبة حياء ، صاحبة وفاء ، تنتظر زوجاً مؤمناً ، تقصر طرفها عليه .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ)

يمكن أن تبتغي بشيء وجه الله ، والله لا يقبله منك ، الذي يضع لقمة في فم زوجته يراها يوم القيامة كجبل أحد ! عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[الترمذي]

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

2 ـ أعظم شيء أن يكون لك بيت طاهر :

إن أعظم شيء أن يكون لك بيت طاهر ، بنات طاهرات ، شباب أطهار ، أسرة متماسكة ، أسرة محبة لله ، فلا تسمع كلمة خطأ عن هذه الأسرة ، ولا سمعة سيئة أبداً ، وهذا من نعم الله عز وجل ، يقول لك: أنا عشت ثمانين سنة لا أحد تكلم كلمة عن ابني ، ربّاه تربية عالية .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

نبي كريم تكفلها .

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع شرح هذه الآيات .

خاتمة فيها عبرة من الآية :

الذي أريده منكم أن تفهم كل آية بطريقة عملية ، أن تسأل نفسك دائماً : ما علاقتي بهذه الآية ؟ ما الفائدة من تلاوتها ؟ إن لم يكن لك علاقة بها فعلاقتك أن تهب لله شيئاً من أولادك ، ومن بناتك ، ومن اختصاصك ، ومن حرفتك ، ومن علمك ، ومن خبرتك ، أن تقدم شيئاً خالصاً لله عز وجل ! .

حدثني أخ طبيب أسنان فقال : جاءتني موظفة في التعليم فقيرة جداً تريد إصلاح أسنانها ، التكلفة

باهظة اعتذرت ، وخرجت ، قال لي : أصررت على أن أقوّم أسنانها ، قال لي : والله ما سعدت بخدمة إنسان كخدمة هذه المرأة الفقيرة ، ولم آخذ منها شيئًا ، والمبلغ كبير جداً ! قال : في كل حياتي المهنية لم أسعد بإنسان دخل إلى عيادتي ، لأنه قدم لها هذا الشيء لله عز وجل ، أسنانها تثير الضحك أمام أقربائها ، فلما أصلح لها أسنانها ، وابتغى بها وجه الله ، ملأ الله عز وجل قلبه سعادة ، هل يوجد أحد ليس له حرفة ؟ ألا يمكن أن تخصص جزءاً من حرفتك لوجه الله ، لخدمة عباد الله الصالحين ، طبيب ، مهندس ، محام ، تاجر ، مزارع ، لا يوجد إنسان لا يملك اختصاصًا ، ويمكن أن يهب منه جزءاً لله عز وجل اقتداءً بالسيدة امرأة عمران .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(13-60): تفسير الآيات 36 - 38
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-02-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة آل عمران ، و مع الآية السابعة و الثلاثين .الآية التي قبلها :

(إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(35)فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

(سورة آل عمران)

هذا ذكرناه في الدرس الماضي .

الدرس اليوم الآية مع السابعة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ)

(سورة آل عمران : الآية 37)

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

1 ـ ما علاقة المسلم بهذه الآية ؟

أي تقبلها بأعلى أنواع القبول ، وحينما تكون مخلصاً لله عز وجل يتقبل الله عملك ، و قد ذكرت في الدرس الماضي أن كل آية في القرآن الكريم ينبغي أن تسأل نفسك حينما تقرؤها : ما علاقتي بهذه الآية؟ وما موقفي من هذه الآية ؟ وأين أنا من هذه الآية ؟ لماذا تقبلها ربها بقبول حسن ؟ لأن التي نذرت ما في بطنها محرراً من كل شائبة ، من كل شرك ، من كل حظٍّ نفسي ، فكلما ارتقت نياتك الطيبة كان القبول حسناً ، هذه قاعدة ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير ، فحينما تنفق نفقة خالصة لله عز وجل ، وربما لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك ، ولا تبتغي إلا وجه الله عز وجل يتقبل الله منك هذه الصدقة بقبول حسن ، وحينما تصلي الليل ، لا ترجو سمعة ، ولا رياء ، لكنك تريد أن تؤدي واجب العبودية لله عز وجل ، وأن تناجيه بالليل يتقبل الله منك هذه الصلاة ، ويلقي في قلبك السكينة ، والأمن ، وتقول : صليت صلاة لا أنساها حتى الموت ، كلما كان إخلاصك أشد كان القبول حسناً :

(إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(35)فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(36)فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ)

(سورة آل عمران)

2 ـ أنت قويٌّ بالله :

وأضخم شيء تملكه نيتك الطيبة ، أعظم رأسمال تملكه نيتك الطيبة ، أنت ضعيف ، و لكنك قوي بالله، أنت عاجز ، ولكنك تحسن بالله ، أنت فقير ، ولكنك غني بالله ، هذا الذي ناجى ربه قال : يا رب كيف نضام في سلطانك ؟ لا نضام في سلطانك ، و كيف نذل في عزك ؟ كيف نفتقر في غناك ؟ وكيف نضطهد ، والأمر لك ؟ سبحانك إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت .

يا رب ، لا نضطهد في سلطانك ، ولا نذل في عزك ، ولا نفتقر في غناك ، أنت ولينا .

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة : الآية 257)

وإذا كان الله معك فمن عليك ، و إذا كان الله عليك فمن معك .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

(سورة آل عمران : الآية 37)

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا

1 ـ حرص الوالدين على الولد من رعاية الله له :

حينما تجد أباً وأماً يحرصان حرصاً لا حدود له على راحة ابنهما فهذه محبة الله أودعها في قلب الأب والأم ، حينما تجد إنساناً يحرص على مصلحة إنسان حرصاً شديداً فهذه عناية الله .

2 ـ لو جاءتك نعم من الخلق فينبغي ألا تنسى الحق :

لو جاءتك نعم من الخلق فينبغي ألا تنسى الحق ، وجاءتك نعم من جهات عديدة فينبغي ألا تنسى المنعم، ينبغي أن تكون مع المنعم لا مع النعمة ، وليس من الأدب ألا تشكر الناس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ))

[الترمذي ، أبو داود ، وأحمد]

ومن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، كان عليه الصلاة و السلام تعظم عنده النعمة مهما دقت ، و كل واحد منا محاط بنعم لا تعد و لا تحصى ، لكن وجود الشيء قد ينسي قيمته ، ينبغي أن ترى النعم وهي موجودة عندك ، لا حين تفتقدها .

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

3 ـ تنافسُ الناس على كفالة مريم :

تنافس كل من حولها على كفالتها ، بل تنازعوا ، بل كادوا يختصمون .

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 44)

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

من هذه الفتاة الصغيرة ؟ من هذه المولودة التي تنافس الناس على كفالتها ؟

إذا كان الله معك تنافس الناس في خدمتك ، وإذا لم يكن الله معك تخلى عنك أقرب الخلق إليك ، فالعبرة أن تكون مع الله حتى يكون الله معك ، وإذا كان الله معك سخر لك كل من حولك كي يعتنوا بك ، ثم جرت قرعة بين أقربائها ، ورست هذه القرعة على سيدنا زكريا .

(وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

(سورة آل عمران : الآية 37)

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا

لمعنى : وكفلها الله زكريا ، طفلة ولدت حديثاً من أم نذرتها لله بإخلاص شديد فتولى الله العناية بها .

موطن الثقل في هذه الآية :

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

(سورة آل عمران : الآية 37)

1 ـ معنى المحراب :

المحراب : المكان الطاهر ، بعضهم يسمي المحراب هذا محراباً ، لأنه يُحارب فيه الشيطان ، أو لأنه متقدم ، أو لأنه مكان للإمام ، لكن المحراب على إطلاقه هو البناء الشامخ ، القصر .

2 ـ الكرامة عند المؤمن :

فكلما دخل عليها زكريا مكان إقامتها ـ ويبدو أن المكان جيد ـ وجد عندها رزقاً ، بصرف النظر عن حقيقة هذا الرزق ، لكن هذه الآية تنقلنا إلى موضوع الكرامة ، ما من مؤمن يخطب ود الله عز وجل بأية طريقة إلا وله عند الله كرامة ، هذه الكرامة هي خرق للعادات ، أو استثناء من بعض القوانين ، أو شيء متميز ، ليس من الحكمة أن نروي الكرامات ، و لا من الحكمة أن ننكرها ، الكرامة لا تنكر ، كما أنه ينبغي ألا تروى ، لأن أصحابها ليسوا أنبياء ، أصحابها أولياء ، و الولي ليس معصوماً ، لكن النبي معصوم ، النبي حينما يخص بمعجزة ينبغي أن يتحدى الناس بها ، ينبغي أن يظهرها ، ينبغي أن يتحدث عنها لأنه معصوم ، لكن الولي إذا خص بكرامة ينبغي ألا يتحدث بها ، بل ينبغي ألا يتاجر بها، بل ينبغي أن يبقيها بينه وبين الله ، وقد قال بعض علماء القلوب : الولي الصادق يستحيي بكرامته كما تستحي المرأة بدم حيضها ، هي ليست للتحدي ، ليست للنشر ، هي بينك وبين الله ، لكن الله أراد بطريقة أو بأخرى أن يشعرك أنه يحبك ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، فَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، ابن ماجة]

لمجرد أن تعقد الصلح مع الله ، لمجرد أن تنيب إلى الله ، أن ترجع إليه ، أن تتوب من ذنوبك ، أن تريد رضاء الله عز وجل ، تجد الله عز وجل يقربك ، يوفقك ، يكرمك ، يملأ صدرك غنى ، يملأ صدرك أمناً ، يملأ صدرك تفاؤلاً ، يلهم من حولك يقدم لك كل الخدمات ، يرفع شأنك ، يعلي ذكرك ، هذا كله خرق للعادات ، أي لك معاملة خاصة ، أي لك معاملة استثنائية ، هذه كرامة من الله لك ، ما من مؤمن صادق يخطب ود الله عز و جل إلا وله كرامة ، والكرامة خرق للعادات ، أي معاملة خاصة، أمر ميسر ، زواج ميسر ، عمل ميسر ، سمعة طيبة ، أولاد أبرار ، زوجة صالحة ، حكمة ، قلب ممتلئ أمناً ، طمأنينة ، تفاؤل ، رضىً ، هذه كرامة الله لك ، وقد تخرق لك

بعض العادات ، فعليك ألا ترويها لأحد ، لأنها ليست للتحدي ، هذه بينك وبين الله ، لكن أعظم كرامة على الإطلاق ، ولا تحتاج إلى خرق للعادات هي كرامة العلم :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 113)

3 ـ إنما ترقى بالعلم :

أنت بالعلم ترقى ، بالعلم تستقيم ، بالعلم تعمل صالحاً ، بالعلم تتصل بالله ، بالعلم تقف الموقف الكامل ، أي أعظم كرامة على الإطلاق أن يعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ، انظر إلى هؤلاء الأقوياء ماذا آتاهم الله ، آتاهم الله القوة والملك ، وبعضهم لا يحبهم الله عز وجل ، آتى الملك لفرعون ، وهو لا يحبه ، وآتى سليمان الملك ، وهو يحبه ، وآتى قارون المال، وهو لا يحبه ، وآتى عثمان بن عفان المال ، وهو يحبه ، فما دام الشيء قد أوتي لمن يحب ، ولمن لا يحب فهو ليس دليلاً على أنه كرامة من الله عز و جل ، ولكن ماذا آتى الأنبياء والمرسلين ؟

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص : الآية 14)

الناس صنفان ؛ عالم ومتعلم ، ولا خير فيمن سواهم إطلاقاً ، يقول الإمام علي كرم الله وجهه :

<< الناس ثلاثة : عالم رباني ، و متعلم على سبيل النجاة ، و همج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيؤوا بنور العلم ، و لم يلجؤوا إلى ركن وثيق ، فاحذر أن تكون منهم >> .

[فيض القدير ، صفة الصفوة لابن الجوزي]

إذاً :

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

4 ـ ما هو هذا الرزق ؟

فسواء كما قال بعض المفسرين أنه وجد عندها فاكهة ليست في موسمها ، أو قال كما بعض علماء القلوب : وجد عندها علماً عن الله عز وجل ليس في مستوى سنها ، أيُّ الكرامتين كانت شيئًا متميزًا فريدًا من نوعه ؟ فينبغي أن تؤمن بالكرامة ، و ينبغي ألا تنكرها ، وينبغي ألا ترويها للناس ، فهي إشعار من الله لك أنه يحبك ، ينبغي أن تبقى بينك و بينه ، هذا معنى قوله تعالى :

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

أي ليس في الأرض كلها شيء أعظم من ولد صالح ، من شاب نشأ في طاعة الله ، من طفل يصلي ، من طفل ينقل لك كلام الله ، ينقل لك كلام رسول الله ، شيء يملأ قلب الأب طمأنينة ، وفرحاً ، وراحة، وسعادةً .

5 ـ علاقتنا بهذه الآية :

فيا أيها الإخوة الكرام ، علاقتنا بهذه الآية اجهد أن تعتني بأولادك ، اجهد أن يكونوا معك في المسجد ، اعتن بهم ، بالغ في تكريمهم ، بالغ في تقديم حاجاتهم ، بالغ في توجيههم ، في لفت نظرهم إلى الله عز وجل ، اجلس معهم ، خذهم معك ، الزمهم ، أدبهم ، عرفهم بكتاب الله ، عرفهم بسنة رسول الله ، عرفهم بأبطال المسلمين ، ليكونوا معك في حلك وترحالك ، علمهم أن ينفقوا .

واللهِ حدثني أب اليوم أن ابنه ، وهو في المسجد طلب منه مالاً بإلحاح شديد ، أعطاه مبلغاً من المال ، وهو صغير جداً ، فذهب إلى مكان التبرع لبناء مساجد ، وألقى هذا المبلغ عند هؤلاء ، قلت : والله هذه بادرة طيبة جداً ؛ أن طفلاً صغيراً أراد أن يفعل شيئاً يقلد به الكبار ، يجب أن يُشجع ، فهذه الآيات ذكرت أن سيدنا زكريا دخل على مريم وجد عندها رزقاً قال :

(قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 37)

6 ـ الأولى الاقتصار على النص في تعيين الفاكهة :

على اختلاف المفسرين : لعل هذا الرزق فاكهة في غير موسمها تكريماً لها ، أو لعلها نطقت بحق في غير سنها ، أي أنت لا تصدق أن طفلاً صغيراً يلقي كلمة مضبوطة فيها شرح دقيق لآية أو حديث يأخذ قلبك ، قد تستمع لهذه الخطبة من كبير فتقول : والله الخطبة جيدة ، لكن هو في سن بمستوى هذه الخطبة ، أما طفل صغير يتلو كلام الله ، يتلو حديث رسول الله ، يقول لك كلاماً طيباً فهذا شيء يلفت النظر ، لعل الرزق هذا أو ذاك ، على كل نحن مع النص .

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

الإخبار من الله عز وجل يجب أن نقف على حدود النص ، فلا نزيد شيئاً ، ولا ننقص شيئاً ، ويجب أن نسكت حيث سكتت الآية ، وجد عندها رزقاً أي شيئا متميزًا ، شيئًا يلفت النظر ، شيئًا ليس كغيره من الأشياء ، لذلك :

(قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

يؤيد المعنى الثاني قول الله عز وجل :

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

(سورة الواقعة : الآية 82)

أي العلم رزق ، والفهم رزق ، ماذا أوتي النبي الكريم يوسف ؟ أوتي تأويلاً لكتاب الله :

(وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)

(سورة يوسف : من الآية 6)

فالتأويل علم ، وهو من كرامة الله لهذا النبي الكريم ، إذاً على اختلاف أقوال المفسرين فالرزق هنا شيء متميز شيء يلفت النظر ، شيء ليس في مستوى هذه الطفلة الصغيرة ، قالت :

(قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة آل عمران : الآية 37)

قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

1 ـ الله يعطي بغير حساب :

بغير حساب ... قال العلماء : أنه كثير جداً ، لا يحصى ، أو ليس بثمن ، فالله يهب كل شيء لعبده المؤمن من غير جهد منه ، قال تعالى :

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)

(سورة الأنعام : الآية 84)

فالابن هبة ، وتحوُّل نقطة الماء إلى طفل يضحك ، ويبتسم ، ويسأل ، ويجيب هل هذه قضية سهلة ؟ تعلم علم اليقين أن هذا الطفل نقطة ماء وضعت في رحم أمه ، فكان طفلاً ، إذا دخلت إلى البيت هش لك وبش ، سألك ، وجلس في حجرك ، وداعبك ، هذا الذي يملأ البيت سروراً ، أليس هدية من الله عز وجل ؟

المعنى البسيط ، كل بيت فيه طفل ، والطفل هدية من الله عز وجل ، معنى من غير حساب ، أي من دون ثمن ، ماذا فعل هذا الزوج حتى استحق هذا الطفل ؟ تزوج فقط ، من خلقه في بطن أمه ؟ من أحسن تقويمه ؟ من صوره ؟ من جعله كائنًا سليمًا معافى ؟ متوازنًا ، يتكلم ، يمشي ، يسأل ، يجيب ، يحفظ كتاب الله ، من ؟

(إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

2 ـ معنى الآية :

لها معنيان : الأول بغير حساب ، أي لا يعد ولا يحصى ، أي النعم التي أسبغها الله عليك لا تعد ولا تحصى ، كبد أصابه تشمع ، والعملية تكلف كما سمعت من ثمانية إلى عشرة ملايين ليرة ، ونسبة نجاحها ثلاثون بالمئة ، زرع كبد في فرنسا ، الذي عنده كبد سليمة معنى هذا عملياً أن معه عشرة ملايين ليرة ، والكلية عمليتها تكلف مليونين ، هذا إذا كانت متقنة ، وتبديل الأسنان وزرعها يكلف مليون ليرة ، فأنت عندك أجهزة كاملة وتامة ، قال تعالى :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد)

هذا خَلق الله في الإنسان :

تتحرك ، تأكل ، تشرب ، عندك جهاز هضم ، وجهاز دوران ، جهاز عصب ، جهاز فرز ، عضلات، أعصاب ، ذاكرة ، من أجل أن تقول : الرائحة لطيفة فلا بد من عشرين مليون نهاية عصبية ، كل نهاية تنتهي بسبعة أهداب ، وكل هدب مغمس في مادة معينة ، تتفاعل مع الرائحة ، وينشأ من تفاعلها شكل هندسي ، هذا الشكل ينتقل إلى الدماغ ، وهذه الرائحة تعرض على ذاكرة شمية فيها عشرة آلاف بند ، إلى أن يأتي هذا الشكل مطابقاً لهذا البند ، تقول : هذه ياسمين ـ ما شاء الله ـ رائحة طيبة ، من أجل أن تتحرك عكس الصوت هناك جهاز في الدماغ يحسب تفاضل دخول الصوتين إلى الأذنين ، والتفاضل واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية ، تعرف بهذا الجهاز الدقيق جهة الصوت ، فإذا سمعت بوق مركبة تتحرك إلى عكس الاتجاه ، ولولا هذا الجهاز لتحركت إلى أمام المركبة دون أن تشعر .

إذاً : أنت محاط بنعم لا تعد ولا تحصى ، في الشبكية عشر طبقات ، وفيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط ، والعصب البصري فيه تسعمئة ألف عصب ، وفي رأسك ثلاثمئة ألف شعرة ، لكل شعرة وريد ، وشريان ، وعصب ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية ، هذا خلق الله ، عندك ذاكرة تتسع لسبعين مليار صورة ، الذي يعيش ستين عاماً تقريباً في ذاكرته سبعون مليار صورة ، حجمها بحجم حبة العدس ، عندك دماغ فيه مئة وأربعون مليار خلية سمراء استنادية ، لم تعرف وظيفتها بعد ، ويوجد عليها أربعة عشر بليار خلية قشرية ، فيها المحاكمة ، والتذكر ، والتصور ، والاستنتاج ، والاستقراء ، وما إلى ذلك ، الدماغ آية ، والشعر آية ، و العينان آية ، واللسان آية ، كل حرف تحركه سبع عشرة عضلة ، فكلمة فيها خمسة حروف ، تقريبًا مئة حركة ، إذاً : جملة فيها عشر كلمات ألف حركة ، إذاً : خطبة ساعة كم حركة تحركت عضلات الوجه حتى أصدرت هذه الأصوات :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد)

ما هذا الحليب ، حليب الأم في الصيف بارد ، وفي الشتاء حار ؟ فيه كل مناعة الأم ، فيه مادة تمنع التصاق الجراثيم بأمعاء الطفل ، والأغرب من هذا أن كثافته تتغير في الرضعة الواحدة ، فإذا فحصت حليب الأم في أول الرضعة يكون الدسم أربعين بالمئة ، والماء ستين بالمئة ، في آخر الرضعة يكون الدسم ستين ، والماء أربعين ، وتتبدل نسب المواد كل يوم تماشيًا مع نمو الطفل .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد)

(إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة آل عمران : الآية 37)

منحك الوجود بغير حساب ، منحك الإمداد بغير حساب ، منحك الهدى والرشاد بغير حساب ، منحك طفلاً بغير حساب ، منحك خبرة ، منحك قدرة على كسب المال ، أي لو أن إنساناً اختل ميزان عقله فأقرب الناس إليه يسعى ليلاً نهاراً لإدخاله مستشفى المجانين ، هو الذي اشترى البيت ، وهو الذي ربى الأولاد ، وهو اقتنى الأثاث ، يُسعى إليه ليكون نزيل المستشفى ، إذاً أعطاك عقلاً ، أعطاك محاكمة ، أعطاك جسماً ، أعطاك سمعاً ، أعطاك بصراً ، أعطاك لساناً لتنطق ، أعطاك أجهزة ، أعطاك قلباً ، أعطاك رئتين ، معدة ، أمعاء ، بنكرياساً ، غدداً ، أعطاك صماء ، أعطاك جهازاً عضلياً ، أعطاك جهازاً عظمياً ، ألا نشكر الله عز وجل ؟

(إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

كل واحد منا لديه حرفة يعيش منها ، من مكنك من هذه الحرفة ؟ هذا طبيب ، و هذا مهندس ، وهذا مدرس ، وهذا جراح ، وهذا تاجر ، وكل واحد له حرفة يتقنها ، و يكسب رزقه منها .

(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(36)فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ)

(سورة آل عمران)

ككلمة مختصرة : أي شيء تقدمه لله عز وجل بإخلاص شديد يتقبله الله منك بأعلى قبول ، و يثيبك عليه أضعاف مضاعفة .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

(سورة آل عمران : الآية 38)

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ

1 ـ الغبطة ممدوحة :

بماذا شعر ؟ شعر أنه يتمنى مثل هذا الغلام ، مثل هذه الفتاة ، هذه الغيرة ، هذه خاصة بالإنسان رائعة جداً ، إن استخدمتها لأمر الآخرة ترقى بك لأعلى عليين ، تكون الغبطة ، وإن استخدمتها لأمر الدنيا تهوي بها إلى أسفل سافلين ، تكون الحسد ، هي خاصة حيادية ، تتمنى ما عند الآخرين ، أي إنسان ، دخلت إلى بيت أربعمئة متر الله ، شيء جميل ، الله يبعث لنا بيتًا مثل هذا ، أركبك أحدهم مركبته الفخمة جداً ، والله شيء جميل ، هذه غير التي لدي ، هذه أجمل بكثير ، أتم الله عليه

، أنت دائماً تتمنى ما عند الآخرين ، فإن كان الذي عندهم من الدنيا فهو الحسد ، وإن كان ما عندهم من الآخرة فهو الغبطة ، لذلك النبي الكريم استخدم كلمة الحسد بمعنى الغبطة ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

[البخاري ومسلم واللفظ له ، الترمذي ، ابن ماجة ، أحمد]

2 ـ هُنَالِكَ دَعَا :

(هنالك) ، قال بعض العلماء : هي ظرف مكان ، في هذا المكان ، في المحراب عندما رأى مريم ، وهي تنطق بكلام رائع جداً ، أو رأى عندها فاكهة في غير موسمها ، حينئذ تمنى أن يكون له ولد له عند الله هذه المكانة ، هنالك دعا زكريا ، أي في هذا المكان بالذات ، أو في الوقت الذي سمع من هذه الفتاة كلاماً طيباً تمنى أن يكون له غلام في هذا المستوى ، والإنسان ينبغي أن يغار .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

هذه خاصة بالإنسان ، أنت إذا التقيت بحافظ لكتاب الله ألا تتمنى أن تكون مثله ؟ تتمنى والله ، إذا التقيت بإنسان يفهم كلام الله فهماً عميقاً ألا تحب أن تكون مثله ؟ إن التقيت بإنسان شجاع ، أبلى في سبيل الله كسيدنا خالد ألا تحب أن تكون مثله ؟ إذا التقيت بإنسان غني ، لكنه متواضع ، وينفق ماله في سبيل الله ، ويملأ بإنفاقه قلوب الناس فرحاً ، ويمسح الدموع عن كل البائسين بماله ، ألا تحب أن تكون غنياً مثله تنفق هذا المال في طاعة الله ؟

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

ينبغي أن تشتهي ما عند الناس من خير الآخرة .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً)

(سورة آل عمران : الآية 38)

قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً

1 ـ الذرية الطيبة من أعظم النعم :

تكاد الذرية الطيبة تكون أعظم عطاء إلهي بعد الإيمان به ، هذه تملأ القلب طمأنينة :

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ)

(سورة الفرقان : الآية 74)

مع شيء من التفصيل : الأب الذي يجهد في تربية أولاده ، والعناية بهم ، و إرشادهم إلى الحق ، وإكرامهم ، وتأمين حاجاتهم ، ويجهد في تنشئتهم تنشئة إسلامية طيبة ـ يتعب كثيرا ـ لكنه بعد أن يبلغوا أشدهم ، ويرى منهم طيبة ، وصلاحاً ، و تقوى ، وطاعة لله ، والله كلما نظر إليهم يشعر قلبه براحة لا توصف ، هذه قرة العين التي تحدث الله عنها ، قال تعالى في دعاء عباد الرحمن :

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ)

(سورة الفرقان : الآية 74)

والأب الذي لا يحب أن يوجه أولاده ، بل هو مشغول ، وعنده عمل ، فأهملهم ، وتركهم للشارع ، فلما كبروا فوجئ أنهم أولاد عاقون ، فوجئ أنهم بعيدون عن الله ، لا يصلون ، يقترفون المعاصي والآثام ، والله لو بلغ الإنسان في الدنيا أعلى مقام ، ولو جمع أعلى ثروة ، ولو حصّل أعلى شهادة ، و لم يكن ابنه كما يتمنى فهو أشقى الناس .

يا أيها الآباء ، يا أيها الشباب : اعتنوا بأولادكم ، أولادكم سبب سعادتكم في الدنيا والآخرة ، أما هذه الفتاة التي سيبها أبوها ، وأعطاها حريتها فانحرفت تقف يوم القيامة أمام ربها وتقول : يا رب ، لا أدخل النار حتى أُدخل أبي قبلي ، لأنه كان سبب جهالتي .

الأبوة مسؤولية أيها الإخوة ، تجد الأب مستقيمًا ، ومن رواد المسجد ، لكن أولاده أين هم ؟ أين يسهرون ؟ مع من يجلسون ؟ من يصاحبون ؟ كيف صلاتهم ؟ كيف أخلاقهم ؟ فلا بد أن تتمنى ، وأنت تجهد ، وأن تسعى لتربية أولادك.

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

تمنى أن يكون له غلام كهذه الفتاة ، وبهذا العلم ، أو هذه الكرامة .

(قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

(سورة آل عمران : الآية 38)

2 ـ أهمية الدعاء :

يا أيها الإخوة ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، ابن ماجة ، مالك ، الدارمي]

أنت صلِ قبل الفجر ركعتين ، وفي السجود : يا رب ، ارزقني ولداً صالحاً ينفع الناس من بعدي ، يا رب ، ارزقني زوجة صالحة ، يا رب ، ارزقني رزقاً حلالاً طيباً ، يا رب ، اهدني إليك ، واهدِ بي ، هناك أدعية لطيفة جداً ، أنت إذا استيقظت قبل الفجر ، ودعوت الله بدعاء من خيري الدنيا والآخرة ، فينبغي لله عز وجل أن يشعرك أنه يستجيب لك هكذا ، فلماذا ذكر لنا هذه القصص لماذا ؟ كي نقتدي بهؤلاء الأنبياء العظام .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

(سورة آل عمران : الآية 38)

3 ـ أهمية تربية الأولاد :

حدثني أخ قال لي : عندي ابن إذا دُهِس بالسيارة سأحتفل ، أقسم بالله أنه سيحتفل ، لأنه عاق ، وشارب خمر ، وزان ، وشرس ، ومجرم ، وله ابن كالملائكة ، تشتهي الأولاد منه ، فالفرق كبير جداً بين ابن عاق وابن بار ، بين ابن مؤمن عنده حياء ، وخجل ، وبار بوالديه ، وابن سيئ ، فإذا اعتنى الأب بأولاده فأغلب الظن ، وهو يقين ، أغلب الظن أن الله عز و جل يستجيب له .

حدثني أخ يخطب في بعض المساجد ، وقد وضع ابنه بمدرسة في الحضانة ، قال لي : مرة استيقظنا متأخرين ، صنعت أمه له شطيرة ، وقالت لابنها الصغير في الحضانة : كلها في الطريق يا بني ، الوقت ضيق جداً ، وقف هذا الابن ، وقال : يا أمي ، وخاطب أباه قائلا : يا أبت قال عليه الصلاة و السلام :

((الأكل في الطريق دناءة))

إذا علّمت طفلاً صغيراً شيئاً فهو أمر لا يصدق ، علّمته القرآن ، علّمته السنة ، علّمته الآداب ، علّمته الطاعة لله ورسوله ، هذا أكبر ثروة تملكها على الإطلاق ، ومعنى ذلك أنك لا تموت ، ولو مت لا تموت ، هذا صدقة جارية ينفع الناس من بعدك .

والله مرة حضرت تعزية أحد خطباء دمشق الأعلام ، وكان صالحاً ، ولا أزكي على الله أحداً ، وكان جريئاً ، ومستقيماً ، وصالحاً ، وفي أضخم مساجد دمشق ، أقيمت له تعزية في أضخم مسجد ، وجاء الناس زرافات ووحدانا ليعزوا أهله ، ففي اليوم الثالث ألقيت كلمات كثيرة ، وقام ابن هذا الخطيب العالم فألقى خطبة لا تقلّ عن خطبة أبيه ، وكان بين المعزين وزير الأوقاف ، فعينه خطيباً في هذا المسجد مكان أبيه لتوه ، معنى هذا أن الأب لم يمت ، إذا اعتنيت بابنك ، وجعلته داعية كبيراً ، جعلته عالماً ، جعلته إنساناً صالحاً ، ربيته تربية عالية ، معنى ذلك أنك لن تموت ، ولو مت فلن تموت ، إنه صدقة جارية إلى ما شاء الله ، فكل واحد في البيت عنده ثروة ابنه ، إنه ثروة ، لكنها تريد جهداً كبيراً ، تعتني بعقيدته ، و لغته ، وتعلمه القرآن ، والسنة ، وآداب الإسلام ، تهيئ له عملا ، تهيئ له زوجة ، وتبذل في ذلك جهداً كبيراً ، هذه رسالة الأب ، وقد جعل الله في هذا ترتيباً عجيباً ، الأبوة الصالحة طريق للجنة ، والبنوة الصالحة طريق للجنة ، والزوجة الصالحة طريق للجنة ، فأنت ضمن بيتك عندك طرق للجنة لا تعد ولا تحصى ، أما إذا أنشأته على الملهيات ، وعلى ما يعرض في هذه الشاشة من سقوط أحياناً ، ومن فضائح ، ومن خيانات ، ومن مواقف مثيرة ، إذا كانت تغذيته الوحيدة ما يعرض في هذه الصحون المنتشرة ، إذا غذي بهذه الفضائيات فقط ، ثم فوجئت أنه يزني ، أو يشرب الخمر ، أو أنه له أصحاب سيئون ، ماذا تفعل ؟ والله يدخل

على الأب عندئذ من الآلام ما ينسيه رضاعته من أمه . انتبهوا يا أيها الإخوة ، نحن في زمن صعب ، نحن نشأنا في الخمسينات والأمور منضبطة جداً ، الآن أيّ رفيق يمكن أن يجعل ابنك ساقطاً ، أيّ صديق يمكن أن يعلمه أشياء لا ترضي الله ، لأن الرذيلة منتشرة ، والمعصية واسعة جداً ، أينما ذهبت فهناك ما يدعوك إلى معصية الله ، فإذا كان الآباء قبل خمسين سنة يحتاجون إلى بعض العناية بأولادهم ، فاليوم هم بحاجة إلى مليون ضعف كي يصونوا أولادهم عن الحرام ، وهذا الابن قدرك ، شئت أم أبيت ، فلا بد أن تعتني به ، والآيات واضحة .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

القصص القرآني للعبرة :

أيها الإخوة ، كتعليق سريع : هذه القصص التي وردت في القرآن الكريم صدقوني ليست العبرة منها أن تستمتع إلى قصة وقعت في الماضي ـ لا والله ـ ما هذا مراد الله عز وجل ، مراد الله من هذه القصص أن يكون هؤلاء الأنبياء ، وهم قمم البشرية أن يكونوا قدوة لك ، كيف أن امرأة عمران نذرت ما في بطنها محرراً ؟ فقلّدها ، وقدم شيئًا لله عز وجل ، قدم اختصاصك ، قدم خبرتك ، قدم مهنتك ، قدم مالك ، قدم علمك ، لله ، ولنفع المسلمين ، هذه أولاً .

كيف تمنى زكريا عليه السلام ابنًا صالحًا ، تمنى ، والتمني من حقه ، كيف دعا الله بإخلاص ، والدعاء مستجاب ؟ أنت تمنَّ شيئاً طيباً ، وقم في الليل ، وقل : يا رب ، ارزقني ولداً صالحاً ، ارزقني زوجة صالحة تسرني إن نظرت إليها ، و تحفظني إن غبت عنها ، وتطيعني إن أمرتها ، فيستجيب ، الله لك ، يا رب ، ارزقني رزقاً حلالاً طيباً ، ارزقني علماً نافعاً ، ارزقني إخوة مؤمنين طيبين .

عندما أطلق النبي الكريم سراح سفانة بنت حاتم الطائي ، قالت : إني داعية لك ، قال : اسمعوا وعوا ، قالت سفانة بنت حاتم الطائي : يا رسول الله ، جعل الله درك في مواقعه ، أحياناً تعتني بإنسان عناية فائقة ، ثم تفاجأ أنه تنكر لك ، ونسي كل فضلك ، أحياناً تعمل عملاً طيباً مع إنسان لا ينساه لك مدى الحياة ، فمن أدعية هذه المرأة الحصيفة للنبي : جعل الله درك في مواقعه ، فأنت إذا دعوت الله ، يا الله اجعل دري في مواقعي، أي أنا أقدم خدمات لإنسان لا ينساها ، أي أنا أستفيد منه ، أستفيد منه في الآخرة يا رب ، أدعوه إلى الله فيلتزم ، وأنا أتمنى ألا تفهموا هذه قصة ، هذه مبادئ ، هذه منهج ، يجب أن تغار ، قال تعالى في حق سيدنا زكريا :

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

ادع الله دائما :

يجب أن تدعو الله عز وجل ، فإنّ الله رب زكريا ، وربنا أيضاً ، إلهه ، وإلهنا ، والله موجود دائماً ، مثلما فعل .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

أنت في عمل لا يرضي الله ـ لا سمح الله ـ يا رب غير لي هذا العمل ، يا ربي عمل فيه رضا ، لا يوجد فيه امرأة ، لا يوجد فيه معصية ، لا فسوق فيه ، لا فجور ، يا الله ، فإن كان عملك لا يعجبك فادعُ الله عز وجل ، إن كان في بيتك مشكلة فادعُ الله عز وجل ، عندك ابنة كبرت ، ولم يأت من يخطبها ، يا رب هيئ لي زوجاً صالحاً لهذه البنت ، كل يوم ادع الله عز وجل ، عندك ابن شارد عن الله ، يا رب رده إليك رداً جميلاً ، فأنت لك قائمة طلبات ، قم قبل صلاة الفجر ، وادع الله عز وجل ، فلعل الله يستجيب لك ، وهو سبحانه ينتظرك .

((يا داود ، لو يعلم المعرضون بانتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لتقطعت أوصالهم من حبي ، و لماتوا شوقاً إلي ، يا داود هذه إرادتي في المعرضين ، فكيف بالمقبلين ؟ أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنتهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، و إن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب و المعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

ناج الله عز وجل ، خاطبه ، اخطب وده ، اطلب منه ، يا رب أعطني ، ولا تقل : إن شئت ، أعطني ، أغنني ، وفقني ، يا رب اشفني ، يا رب نجحني ، يا رب ارزقني ذرية طيبة ، هذا هو المؤمن ، يسأل الله دائماً ، ومن لم يدع الله يغضب عليه ، فعَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ ، وَحَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ))

[الترمذي]

إن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع ، إن الله يحب من عبده أي يسأله ملح طعامه ، إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها ، ألا يوجد عندك حاجات لله عز وجل ؟ والله يوجد قوائم ، ضع كل يوم قوائم ، ولكن قبل كل شيء تريد نفساً طاهرة ، واستقامة .

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)

(سورة الأعراف : الآية 55)

خاتمة :

لكن :

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(سورة الأعراف : الآية 55)

إن اعتديت على أخيك المؤمن لم يحببك ، ولم يستجب لك ، تريد استقامة ، ورزقًا حلالاً ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال تليت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا)

فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

((يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[معجم الطبراني الأوسط]

أطب مطعمك ، أي اكسب مالاً حلالاً ، واشتر به طعاماً ، فهذا الطعام طيب ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، أي أنشئ علاقة لك مع الله .

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلا أَخِرَةُ الرَّحْلِ ، فَقَالَ : يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجة ، أحمد]

فمن منا يحب ألا يعذب ؟ من منا يحب أن يبقى صحيحاً طوال حياته ؟ أن يمد الله في عمره ، أن يرزقه الله ذرية طيبة ، وزوجة صالحة ، ورزقاً حلالاً ، وسمعة طيبة ؟ هذا ما يتمناه كل الناس ، السبب بيدك ، السبب اسأل الله ، احفظ الله يحفظك ، يا سيدي ما هذه الصحة ؟ قال له : يا بني حفظناها في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر ، من عاش تقياً عاش قوياً.

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(14-60): تفسير الآيات 39 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-02-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة آل عمران ، و مع الآية التاسعة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 39)

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ

هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى :

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(37)هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

(سورة آل عمران)

1 ـ الدعاء بالخلف لاستمرار الدعوة :

قال بعض المفسرين : إنه سيدنا زكريا ، زوجته عاقر ، وهو بلغ من الكبر عتياً ، ليس معه ولا مع زوجته أسباب الإنجاب ، فلما رأى عند مريم شيئاً في غير أوانه ، ومن دون سبب أرضِيٍّ دعا زكريا ربه أن يرزقه الله غلاماً يتابع الدعوة من بعده ، قال تعالى :

(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي)

(سورة مريم)

أي يرث هذه الدعوة إليك ، وتحدثت وقتها أن أهم شيء في الدعوة أن تستمر ، الأشخاص يأتون ، ويذهبون ، ولكن ينبغي أن تبقى الدعوة مستمرة ، هذا العمل يكتب له النجاح حينما يرجو كل من أقامه الله في دعوة أن تستمر من بعده ، والذين دعوا إلى الله ، وكانوا صادقين مخلصين في دعوتهم ، هيأ الله لهم رجالاً علماء يتابعون دعوتهم إلى يوم القيامة ، من هنا تمنى سيدنا زكريا الولد ، لا ليعينه في كبره، ولا ليكون حظًّا له في الدنيا ، تمنى الولد لتكون الدعوة من بعده مستمرة :

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

(سورة آل عمران : الآية 38)

جاء الجواب ، أي أن الله عز وجل ينتظرنا ، وكما قلت في درس سابق : ينبغي في أية آية ، و في أية كلمة أن نلاحظ ما علاقتنا بها ؟ ماذا فعل سيدنا زكريا ؟ قال كلمات صادقات .

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً)

هو نبي كريم ، دعاؤه مستجاب ، ولماذا يقول الله لعباده المؤمنين :

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(غافر : من الآية 60)

2 ـ أعجز الناس من عجز عن دعاء الله :

فما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا ، من هو أعجز الناس على الإطلاق ؟ هو إنسان عجز عن أن يدعو الله ، هل يكلفك الدعاء إلا أن تقول كلمات ، وقد تقولها في قلبك ؟

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)

(سورة مريم : الآية 4)

وما من مؤمن دعا ربه إلا أكرمه بطريقة أو بأخرى ، فمن هو العاجز ؟ هو الذي يعجز عن أن يدعو الله عز وجل ، قم في جوف الليل قبيل صلاة الفجر وادع الله ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ)) .

[البخاري ، ومسلم ، واللفظ له ، والترمذي ، أبو داود ، ابن ماجة ، أحمد ، مالك ، الدارمي]

أليست لك حاجة عند الله ؟ أليست هناك مشكلة ؟ لا يوجد أحد على الإطلاق إلا وله حاجة عند الله ، وما من أحد على الإطلاق إلا ويعاني من مشكلة ، هكذا طبيعة الحياة .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(المؤمنون : الآية 30)

3 ـ الابتلاء ملازم لكل إنسان :

أحد خصائص الحياة الدنيا أن الابتلاء ملازم لكل إنسان :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(المؤمنون : الآية 30)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت : الآية 2)

يا إمام أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال : لن تمكن قبل أن تبتلى .

المؤمن مبتلى ، أشد الناس ابتلاء الأنبياء ، وأنا أشدهم بلاء ، ثم الأمثل فالأمثل ، والبطولة ليس أن تنجو من الابتلاء ، لا ، البطولة أن تقف الموقف الكامل في الابتلاء .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(المؤمنون : الآية 30)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : الآية 2)

أنت مبتلى بمالك ، مبتلى بصحتك ، مبتلى بزوجتك ، مبتلى بأولادك ، مبتلى بجيرانك ، مبتلى بقرنائك، مبتلى بزملائك ، مبتلى بمن حولك ، مبتلى بمن فوقك ، مبتلى بمن تحتك ، مبتلى في الرخاء ، مبتلى في الشدة ، مبتلى في الصحة ، مبتلى في المرض ، مبتلى في الغنى ، مبتلى في الفقر ، أنت في امتحان فيه مادتان ؛ مادة إيجابية ، ومادة سلبية ، أنت مبتلى بالخير ، ومبتلى بالشر ، وبلوناهم بالشر والخير ، فالبلاء من صفات الحياة الدنيا ، قد تدخل البيت ، ولم يمض على دخولك وقت يسير ، فيطرقُ بابَك سائلٌ ، هل ترده أم تستمع إليه ؟ تكون في فقر مدقع ، ويأتيك مبلغ ضخم فيه شبهة ، هل تأخذه أم ترفضه ؟ فالإنسان يبتلى في اليوم عشرات المرات ، كل معالجة لموضوع ، وكل موقف تقفه ، وكل شيء مغر تتعرض له ، وكل ضغط تقع تحت وطأته إنما هو ابتلاء ، ماذا تفعل ؟ إن الله عز وجل ينظر ماذا نفعل ؟

4 ـ ما أمرنا الله أن ندعوه إلا ليستجيب لنا :

إذاً :

(فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى)

(سورة آل عمران : الآية 39)

دعا بصدق ، وأنا أقول لكم أيها الإخوة : والله لو أن أحدكم يطمح إلى شيء بعيد المنال ، و كأنه الحلم، وكان صادقاً في طلبه لحققه الله له ، لأن الله عز وجل ما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا .

سمعت قصة من عالم جليل من علماء دمشق ، أن فلاحاً فقيراً جاهلاً في صعيد مصر أرسل ابنه إلى الأزهر ، ودرس ابنه في الأزهر ، وعاد من أهل العلم ، الأب في الخامسة والخمسين ، اشتهى أن يكون مثل ابنه ، وهو جاهل جهلاً مطبقاً ، و القصة لغرابتها لا تصدق ، ركب دابته ، وتوجه نحو القاهرة ، فلما دخل أبواب القاهرة سأل أين الأزعر ؟ هكذا فهم الاسم بالخطأ ، فدلوه على الأزهر الشريف ، وبدأ يتعلم القراءة والكتابة في الخامسة والخمسين ، ثم تعلم القرآن ، ثم طلب العلم ، وما مات إلا وهو شيخ الأزهر ، والله أي واحد منا أيها الإخوة لو طلب طلباً بعيد المنال كأنه حلم ، كأنه في السحاب ، وكان صادقاً في هذا الطلب فلابد أن يصل إليه ، لأن الله ما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا، قل له في الليل : اللهم اهدني ، واهد بي ، واجعلني من الهداة المهديين .

قل له في الليل : اللهم ارزقني طيباً ، واستعملني صالحاً .

قل له في الليل : اللهم أجر الخير على يدي ، ارزقني عملاً صالحاً يرضيك ، وفقني لما تحب ، وترضى ، اطلب ، فهؤلاء طلبوا الدنيا جاءتهم ، فكيف إذا طلبت الآخرة ، هؤلاء الذين طلبوا الدنيا من وجهها الحلال جاءتهم بالدعاء الصادق ، ليس لك إلا الدعاء الصادق ، والأمر كله بيد الله ، أنت الضعيف ، والله القوي ، وأنت الفقير ، و الله الغني ، ليس بينك وبين أن تبلغ مرادك إلا أن تكون صادقاً في دعائك .

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر : الآية 60)

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة : الآية 186)

في القرآن أكثر من عشر آيات :

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)

(سورة البقرة : الآية 217)

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة : الآية 219)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

(سورة البقرة : الآية 222)

أكثر من عشر آيات ، إلا آية واحدة ليس فيها قل ، قال تعالى :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة : الآية 186)

أي ليس بينك و بين الله أحد ، لماذا تحسد الناس ؟

قل لمن بات لي حاسـداً أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعلـه إذ لم ترض لي ما وهـب

***

ملك الملوك إذا وهب قم لا تسألن عن السبب

أنا عدلته ، وقلت :

ملك الملوك إذا وهب قـم فاسـألن عن السبب

الله يعطي من يشـاء فقف علـى حـد الأدب

اسأل الله أن يغنيك ، أن يعطيك ، أن يرقى بك ، أن يؤدبك الأدب الحسن كلمة :

(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

(سورة آل عمران : الآية 38)

أيعجز أحدنا أن يسأل الله ذرية طيبة ، زوجة صالحة ، رزقاً حلالاً ، مأوى يؤويه ، زوجاً لابنته يكرمها ، عملاً لابنه يستره ، أنعجز أن نفعل هذا ؟ لماذا ذكر الله لنا هذه القصص ؟ لأخذ العلم ؟ لا والله ، للمتعة الفنية ؟ لا و الله ، للإخبار المجرد ؟ لا و الله ، لا لإخبار مجرد ، ولا لمتعة فنية، ولا لأخذ العلم ، إنما ذكر الله لنا هذه الآيات ليكون هذا النبي الكريم قدوة لنا :

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر : الآية 60)

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة : الآية 186)

يمكن أن تدعوه بقلبك دون أن يسمع أحد كلمة .

والله حدثني أخ قال لي: أنا نَبَتُ من أسرة فقيرة جداً ، فلما أنهيت خدمتي العسكرية لم أكن أملك قرشاً واحداً ، أعطتني أختي قطعة ذهبية ، فبعتها ، وكان ثمن هذه القطعة ما يساوي ثمن بطاقة الطائرة إلى الخليج ، والأمر كان سابقاً ميسراً ، سافرت إلى الخليج ، أقسم لي بالله ، وهو في الطائرة في طريقه إلى الخليج ، قال في قلبه : إذا أكرمني الله في هذا السفر فلأبنينَّ لله مسجداً في بلدي ، قال لي : والله ما حركت شفتاي ، ولا نبست ببنت شفة ، إلا أنه خاطر داخلي خطر لي ، وذهب إلى الخليج ، وعاد بعد أعوام عدة ، وقد أكرمه الله ، وهو يسكن في بلدة على الساحل قبل بانياس ، فأنا كنت مرة في سفر إلى هناك ، فدخلت إلى هذا المسجد لأصلي ، أعجبني ، مسجد أنيق جداً ، وعلى البحر مباشرة ، في منطقة جميلة ، حولها مساحات خضراء كثيفة ، فبعد أن صليت خرج رجل من غرفة ، وقال : أتقبل أن نشرب شيئاً كضيافة ؟ قلت له : حباً وكرامة ، قال لي : أنا عمرت هذا المسجد ، وحدثني قصته ، ومكان عمارة المسجد مخالف لكل القوانين ، لأن المنطقة ليست منظمة بلدياً ، وهذا شيء طبيعي جداً ، المسجد يقام في المدن ، وفي أماكن التجمع السكني ، فمنع من إقامة المسجد بحسب القوانين النافذة ، قال لي : سافرت إلى مسؤول هناك في الساحل ، وذكرت له ما قلت ، وكيف حقق الله لي طلبي ، قال لي : رفع الهاتف ، وأعطى توجيهاً ؛ أن دعوه يبني هذا المسجد ، وبنى هذا المسجد .

مسجد جميل جداً سببه خاطر داخلي ، وعلى هذا الموضوع آلاف القصص ، قال لي : والله ما حركت شفتاي ، ولا نطقت ببنت شفة ، إلا أنني قلت في نفسي : إن أكرمني الله فلأبنين لله مسجداً ، وبحسب قوانين البلديات في كل أنحاء العالم المسجد يقام في مدن ، في أماكن تجمع سكني ، ومع ذلك ما الذي ألقي في قلب هذا المحافظ فأعطى توجيهاً أن دعوه يبني هذا المسجد ؟ والآن يؤمه المسافرون ، و المتنزهون ، ويصلون فيه ، فهل من الصعب أن تسأل الله شيئاً من خير الدنيا والآخرة بإخلاص وصدق؟ لا .

رجل كبير في السن ، امرأته عاقر ، نادى ربه نداء خفياً ، فاستجاب الله له ، ولمَ لا يستجيب لك ؟ إله زكريا إلهنا ، ورب زكريا ربنا ، ونحن في أي مكان ، وفي أي زمان نعبد الله عز و جل ، فكل شخص له طلب عند الله ، ليسأل الله حاجته كلها ، ليسأله صادقاً ، ليسأله مخلصاً :

(فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى)

5 ـ بشارة الله لزكريا بيحيى :

سيأتيك غلام ، هذا الغلام أول من يؤمن بعيسى عليه السلام ، مصدقاً بعيسى ، أي بكلمة من الله ، سيدنا عيسى كلمة ، السيدة مريم ليس لها زوج ، كن فيكون ، فقيل في تعريف هذا النبي الكريم : إنه كلمة الله ، ألقاها إلى مريم ، وروح منه .

(مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا)

(سورة آل عمران : الآية 39)

6 ـ معنى : سيدًا :

من أجمل التفسيرات لـ (سيداً) ، أي متفوقاً في كل شيء ، بعيدًا عن النقص ، ذا مروءة ، ذا حصافة، ذا فهم ، ذا غيرة ، تكلم عنه المفسرون كثيراً ، لكن مجمل أقوالهم : أنه متفوق في كل شيء ، سيد ، علم ، يشار له بالبنان ، كريم الأخلاق ، عفو ، شجاع ، سموح ، منصف ، (سيداً) .

7 ـ معنى : حصورًا :

ولكن أيها الإخوة ، لابد أن نقف وقفة متأنية (وَحَصُورًا) ، حصور بمعنى محصور ، أي وضع نفسه في مكان محدود ، ما معنى هذه الكلمة ؟ أي المؤمن الصادق يمشي في هذا الطريق ، والأنبياء بلغوا قمة هذا الطريق ، كل رغباتهم محصورة فيما شرع الله ، ومن أجمل ما قاله المفسرون في القلب السليم:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(88)إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء : 88-89)

المؤمن محصور بشرع الله :

القلب السليم : هو القلب الذي لا يشتهي شيئاً حرمه الله ، كل رغباته ، وكل طموحاته ، وكل ميوله محصورة في منهج الله ، بقي له من النساء زوجته ، ومحارمه ، ولا يطمح أن يرى امرأة لا تحل له ، ولا أن يكلمها ، ولا أن يستمتع بجمالها ، بقي له من المال الكسب المشروع ، لا يتطلع أبداً

لكسب غير مشروع ، ولو كان كثيراً ، ولو كان مغرياً ، ولو كان في أشد الحاجة إلى المال ، لا يشتهي معصية ، لا يشتهي مالاً حراماً ، ولا امرأة حراماً ، ولا شهوة لا ترضي الله عز وجل ، القلب السليم هو القلب الذي لا يشتهي شيئاً حرمه الله ، والسيد الحصور هو الذي بقي في دائرة المسموحات ، في دائرة المباحات ، في الدائرة التي سمح لها للمؤمن أن يأخذ منها ما شاء .

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

(سورة الأعراف : الآية 31)

العلاقة بالنساء : تزوجوا ولا تزنوا ، العلاقة بالمال : اكسبوا طيباً ، واعملوا صالحاً ، فالحصور حصر نفسه فيما سمح الله به ، ولا يفكر ، ولا يخطر في باله ، ولا يتخيل أن يعصي الله ، حتى إن بعض علماء الفقه في كتبهم قالوا : هذا الذي يتخيل نفسه مع من لا تحل له ، هذا التخيل مؤاخذ ، المؤمن الصادق لا يتخيل شيئاً حراماً ، ولا يطمح لشيء حرام ، ولا يريد شيئاً ما أراده الله عز وجل ، حصور ، وأنا أركز على صفات هذا النبي الكريم لماذا ؟ ليكون لنا قدوة .

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان : الآية 43)

فإما أن تعبد الله ، وإما أن تعبد الهوى .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ)

(سورة القصص : الآية 50)

المعنى المعاكس : من يتبع هواه وفق هدى الله فلا شيء عليه ، اشتهى المرأة فتزوج ، واشتهى المال فكسبه من طريق مشروع ، واشتهى أن يكون سيداً فأطاع الله :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

أي هناك حاجة أساسية للطعام والشراب لبقاء الفرد ، وهناك حاجة أساسية للطرف الآخر لبقاء النوع ، وهناك حاجة أساسية عند كل إنسان للتفوق ، يسمى هذا تأكيد الذات ، هناك من يؤكد ذاته بإنفاق المال الكثير ، فيقول : أنفقت مالاً لبداً ، يقول لك متباهياً : نهبت ، وأكلت ، وأنفقت مبلغاً فلكياً في هذه الرحلة، هذا يتباهى بماله ليعلو ، هذا يتباهى بأهله ، هذا يتباهى بأولاده ، هذا يتباهى بتجارته ، هذا يتباهى بعشيرته ، ويبغي العلو في الأرض ، لكن المؤمن يطيع الله عز وجل فيرفع الله ذكره :

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح : الآية 4)

أي كل الحاجات الأساسية في الإنسان يمكن أن تبلى إلى أعلى درجة من خلال منهج الله ، فكما أن الله رفع ذكر النبي ، وقرنه مع اسمه الجليل ، كذلك كل مؤمن صادق منيب مخلص ورع تقي يرفع

الله له ذكره ، ويعلي قدره ، ويلقي محبته في قلوب الخلق ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)) .

[متفق عليه]

إن أردت المال يأتك من طريق مشروع ، وإن أردت العفاف يأتك من طريق مشروع ، إن أردت العلو في الأرض يأتك من طريق مشروع :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

إذاً :

(وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 39)

كن سيداً ، ولا تكن مسوداً ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ)) .

[البخاري ، والترمذي ، وابن ماجة]

احتج إلى الرجل تكن أسيره ، أصبحت عبداً عنده ، إن احتجت إلى مخلوق كنت عبداً له ، احتج إلى الرجل تكن أسيره ، واستغن عنه تكن نظيره ، وأحسن إليه تكن أميره ، لا تكن عبداً ، كن سيداً ، لو كنت فقيراً فالفقر ليس وصمة عار ، الفقر قد يكون وسام شرف ، فقد تكون فقيرًا لأنك مستقيم ، ليس كل غني يرضى الله عنه ، لذلك كن حراً ، ولا تكن تابعاً لأحد ، لا تكن مجيراً لأحد ، لا تكن خطيئة أحد ، لا تكن محسوباً على أحد .

سئل عالم جليل له مكانة كبرى في بعض البلاد العربية ، وقد توفاه الله عز وجل : ما هذه المكانة التي حباك الله بها ؟ قال: لأنني محسوب على الله ، أنت كن محسوباً على الله فقط ، لا تكن محسوباً على عبد من عباد الله ، علا أو صغر ، فلا يليق بك أن تكون أنت لغير الله ، أنت لله وحده ، كن سيداً .

(وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ)

8 - يحيى : اسمٌ على مسمًّى :

هذا سيدنا زكريا بشر بغلام اسمه يحيى ، ما علاقة اسمه به ؟ أي تحيا به القلوب ، هو كان حياً بمعرفة الله ، وأحيا قلوب الذين كانوا حوله ، أي كان هادياً مهدياً ، كان حياً ومحيياً ، المؤمن كلامه يحيي القلوب :

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون : الآية 3)

يذكر الله دائماً ، فإذا تكلم أحيا القلوب ، كما عليه الصلاة و السلام :

((أمرني ربي بتسع ، خشية الله في السر والعلانية ، كلمة العدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرة)) .

[ورد في الأثر]

لكنه سأل الكيفية ، كيف ؟ أنا متقدم في السن ، وامرأتي عاقر ، كيف ؟

(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة آل عمران : الآية 40)

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ

: وأنا كبير في السن ، وامرأتي عاقر

(قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

(سورة آل عمران : الآية 40)

هكذا :

(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً)

(سورة آل عمران : الآية 41)

قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا

1 ـ علامة مجيء الولد لزكريا هي فقدُ النطق :

أي علامة ، متى ؟

(قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا)

(سورة آل عمران : الآية 41)

تفقد القوة في النطق ، حينما لا تستطيع أن تتكلم معنى ذلك أن امرأتك حملت ، تبدأ هذه المعجزة من فقد النطق ، إذا وجد في الأرض كلها شخص معفى من ذكر الله ، فهو سيدنا زكريا ، لأنه فقد النطق ، قال له :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا)

(سورة آل عمران : الآية 41)

2 ـ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا

هذا الذي فقد القدرة على النطق أمره الله أن يذكر الله كثيراً .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

(سورة آل عمران : الآية 41)

مساء عند غروب الشمس ، وقبل طلوعها .

(وَإِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)

وَإِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ

قال الطبري في تفسيره : " ومعنى قوله : اصطفاك اختارك ، واجتباك لطاعته ، وما خصك به من كرامته ، وقوله : وطهرك يعني طهر دينك من الريب ، والأدناس التي في أديان نساء بني آدم ، واصطفاك على نساء العالمين ، يعني اختارك على نساء العالمين في زمانك بطاعتك إياه ففضلك عليهم" .

(يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 43)

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ

أهمية صلاة الجماعة :

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً)) .

[مسلم ، الترمذي ، النسائي أ ابن ماجه ، أحمد ، مالك]

ونحن نواجه العدو بالسلاح الأبيض وجهاً لوجه يجب أن نصلي جماعة ، فكيف بنا في السلم ؟ هناك آية واضحة جداً لصلاة الجماعة في أثناء القتال ، صلاة الخوف ، فإذا كنا مأمورين ، ونحن نواجه العدو وجهاً لوجه أن نصلي جماعة ، فكيف إذا كنا في السلم ؟

(يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 43)

يا مريم اقنتي ، أي أديمي الوجهة إلى الله.

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)

(سورة آل عمران : الآية 44)

1 ـ من الإعجاز الإخباري في القرآن الكريم :

هذا اسمه إعجاز إخباري ، هناك إعجازات كثيرة في القرآن الكريم ، إعجاز في النظم ، إعجاز علمي، إعجاز بلاغي .... أحد هذه الإعجازات الإعجاز الإخباري ، فالله يخبرنا عما وقع في أزمنة بعيدة جداً ، ويخبرنا عما سيقع ، والبعد في الإعجاز الإخباري الماضي ، والمستقبلي إعجاز زماني ، بينما الإعجاز الإخباري في الحاضر إعجاز مكاني ، ماذا يقع في مكان بعيد في الوقت نفسه ؟ الآن ماذا يجري فرضاً في مكة ؟ لا نعلم نحن ماذا يجري ، من صلى إمامًا ؟ لا نعلم نحن ، فإذا جاء الخبر ، والوسائل ممنوعة عنا فهذا إعجاز إخباري في الحاضر ، فالإعجاز الإخباري في المستقبل كقوله تعالى :

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3)فِي بِضْعِ سِنِينَ)

(سورة الروم)

إعجاز إخبار بالماضي :

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 44)

2 ـ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ

أي اختصم من حول هذه البنت مريم في كفالتها ، فسيدنا زكريا زوج خالتها قال : أنا أولى بها ، وقال من حوله : هي بنت سيدنا ، و نحن أولى بها ، فاختصموا فاقترعوا ، من هنا شرعت القرعة ، ألقوا أقلامهم في نهر جار ، فالقلم الذي لم يجر ، وبقي واقفاً ، فهو الذي ترسو عليه ولاية مريم ، فلم يجر قلم سيدنا زكريا فكفلها هو .

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

كل هذا تأكيد لنبوة النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن هذا القرآن وحي الله إلى النبي ، وأن الوحي لا يملك له طلباً ، ولا نفعاً ، إنه شيء مستقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، و في درس آخر نتابع الآيات .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(15-60): تفسير الآيات 45 - 48
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-02-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الخامسة والأربعين ، وهي قوله تعالى :

(إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ(45)وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ)

(سورة آل عمران)

إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

1 ـ الأنبياء والرسل من الرجال :

أيها الإخوة ، بدأنا بقصة جديدة ، قصة السيدة مريم ، حيث جاءتها الملائكة ، وهذا عند بعض العلماء دليل أنها نبية ، والنبوة مقام إشراقي ، والرسالة مقام تبليغي ، فالرسل من الرجال حتماً ، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)

(سورة يوسف : الآية 109)

2 ـ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ

وقال :

(إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ)

(سورة آل عمران : الآية 45)

لأنّ الله عز وجل يقول كن فيكون :

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس : الآية 82)

بعض العلماء يقول : إنه حتى في هذا تقريب لنا ، أمره أسرع من هذا فكلمة ، فـ (كن) حركتان ، وكلمة (فيكون) حركتان ، أي أربع حركات قال تعالى :

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

(سورة القمر : الآية 50)

لكل شيء سبب :

الزمن معدوم بين إرادة الله وخلقه ، ولكن شاءت حكمة الله أن يجعل لكل شيء سبباً في الدنيا ، ما وظيفة هذا السبب ؟ وظيفته أنّ العقل الذي أودعه الله فيك مبادئه ثلاث ؛ أحد هذه المبادئ هو السببية ، فعقلك البشري لا يستوعب شيئاً من دون سبب ، لا يمكن أن تقبل شيئاً من دون سبب ، لا يمكن أن تدخل بيتك فإذا المصابيح متألقة ، وقد أقفلت البيت بنفسك ، وليس أحد معه مفتاح البيت سواك ، تقول : حتماً دخل لص ، لِمَ قلت : حتماً دخل لص ؟ لأنك لا تستوعب أن تتألق مصابيح البيت من دون سبب ، من دون إنسان دخل البيت ، إذاً : عقلك لا يقبل شيئاً من دون سبب ، وقد صُمم الكون على مبدأ السببية، الفاكهة من الشجرة ، والشجرة من البذرة ، تضع البذرة في التراب ، فتصبح فسيلة ، ثم شجرة تثمر ، الماء من البئر ، البيضة من الدجاجة ، كل شيء له سبب ، قال تعالى :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا(83)إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا(85))

(سورة الكهف)

حتى إن الله جل جلاله حينما يريد أن يعطي فإنه يعطي بسبب ، وحينما يؤدب فإنه يؤدب بسبب ، وهو مسبِّب الأسباب ، لكن كل شيء يقع في الكون له سبب ونتيجة ، وعقلك لا يستوعب الأمر إلا بسبب ، لكنّ الله سبحانه وتعالى قُدرته كن فيكون .

نحن إن أردنا أن نبني بيتاً نحتاج إلى سنوات لشراء أرض ، واستصدار ترخيص ، وحفر الأرض ، وإنشاء الدعائم والهيكل ، فقد نحتاج إلى سنوات ، لكن للتقريب فقط ، الإله العظيم إذا قال : كن ، فلا يوجد هناك وقت أبداً ، الوقت معدوم بين كلمة كن وأن ترى بناءً شامخًا ، قال تعالى :

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس : الآية 82)

يؤكد هذا المعنى حديث صحيح من الأحاديث القدسية ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّعَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((... يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ)) .

[مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

ذلك لأن عطائي كلام ، كن فيكون .

سمعت في النشرة الجوية أن في بعض مناطق حماة نزل مئة وتسعة وسبعون ميليمترا في ليلة واحدة ، لو أراد الله لغرقت الأرض بالأمطار ، لأن هناك حكمة بالغة ، فتقنين الله تقنين تأديب ، وقد اطّلعت على بحث علمي مفاده أن في الفضاء الخارجي سحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض كلها ستين مرة في اليوم بالمياه العذبة ، فمن الممكن أن يكون في دمشق ألف ميليمتر ، وألفان ، وترون بأعينكم أن أماكن في العالم تجتاحها الفيضانات ، وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا ، وهذه الإشارة من دلائل نبوّته ، بعد أن وُضع في المقاييس في شتى بقاع الأرض ، وبعد أن أُخذت كميات الأمطار الهاطلة في كل أنحاء الدنيا ، اكتشف علماء الجغرافية أن كمية الأمطار الهاطلة في الأرض لا تتغير أبداً ، لا تزيد ، ولا تنقص ، ولكنها تتبدل في توزعها ، أحياناً يصيب الشرق الأوسط جفاف ، وأحياناً يصيبُ إفريقيا جفاف ، وأحياناً المغرب ، وأحياناً أوروبا ، وأحياناً شرق آسيا .

الجفاف ينتقل من مكان إلى مكان تأديباً من الله عز وجّل ، وأحياناً تنزل الأمطار الغزيرة تأديباً من الله، فتنتقل من مكان إلى آخر ، وتأتي هذه السيول على كل البيوت ، وتتلف المحاصيل ، وتنهي كل شيء.

فربنا عز وجل جعل كمية الأمطار واحدة ، فقال عليه الصلاة والسلام ـ بلا مقاييس ، بلا جامعات ، بلا مخابر ، بلا نشرات ، بلا تواصل إعلامي ، بلا أقمار صناعية ، بلا كل شيء ـ وهذا حديثٌ عن النبي قبل ألف وأربعمائة عام :

((مَا عَامٌ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ)) .

[الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي عن ابن مسعود]

فأمر اللهِ عز وجل كن فيكون ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي :

((... لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ ، وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَه)) .

[مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

ولكن شاءت حكمة الله أن يكون خلقه وفق مبدأ السببية في الدنيا ، لماذا ؟ أنت إذا رأيت شيئاً بلا سبب تقيس عليه الكون ، تقول : هذا الكون بلا سبب ، ولا يحتاج إلى خالق ، ما دمت رأيت شيئاً بلا سبب تجعله قانوناً ، لكن الله لحكمةٍ أرادها جعل لكل شيئاً سبباً ، هذا المبدأ الذي تشاهده ، والذي رسخ في عقلك يهديك إلى مسبب الأسباب ، مثلاً هذه الدجاجة من البيضة ، وهذه البيضة من

الدجاجة ، وهذه الدجاجة من البيضة ، لابد أن تنتهي هذه السلسلة ، أن تنتهي عند بيضة أو دجاجة ، فإذاً : مَن خلقها ؟ من مسبِّب الأسباب ؟ هو الله عز وجل ، فكأن الله يأخذ بيدنا بنعومةٍ ، وبلطفٍ إليه

السبب لا يخلق النتيجة :

أيها الإخوة ، انتبهوا الآن ، إنّ الإنسان أحياناً يظن أن السبب يخلق النتيجة ، الإنسان أحياناً يظن ، أو يتوهم أن السبب يخلق النتيجة ، فقد وقع في الشرك ، فكل من أخذ بالأسباب ، واعتمد عليها فقد أشرك، كل من أخذ بالأسباب ، واطمأنّ إليها فقد أشرك ، فالله عز وجل من حين إلى آخرَ يبين لنا من خلال أفعاله أنّ السبب لا يخلق النتيجة ، إنما يترافق مع النتيجة ، النتيجة من خلق الله عز وجل ، فنفاجأ أنّ امرأةً لم يمسسها بشر أنجبت طفلاً بلا أسباب ! نتيجة بلا سبب ، كن فيكون ، أو أنّ شاباً وشابة فُحصا طبياً فهُما تامَّي الخلق ، ولا ينجبان ، قال تعالى :

(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا)

(سورة الشورى : الآية 50)

السبب إما أن يُلغى في الحالة الأولى ، وإما أن يعطل في الحالة الثانية ، يُلغى أو يُعطل ترسيخاً للتوحيد ، كي تعلم أن الله مسبب الأسباب ، وأن الله خالق النتائج ، وأن النتيجة ليست من السبب ، بل هي من خلق الله عز وجل ، لذلك يكاد العالم اليوم ينقسم قسمين ؛ قسمٍ في الغرب شاردٍ عن الله ، أخذ بالأسباب ، وألَّهَهَا ، واستغنى بها عن الله ، والقسم المقصِّر في الشرق لم يأخذ بها جهلاً منه أن الله هو كل شيء .

هذا مثلٌ بسيط : هذا الذي يأكل الفاكهة من دون أن يغسلها توهماً منه أن الله هو الذي يحمي ، وأن الله لا يضرُّ مع اسمه شيء ، يقول لك قل : بسم الله ، وكُلْ ، هذا جهلٌ كبيرٌ ، ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأحاديث أنه :

((من أكل الطين فقد أعان على قتل نفسه)) .

[معجم الطبراني الكبير عن سلمان]

أيّ أكل شيء دون أن يغسله ، فالذي يتوهم أنه لا حاجة للأخذ بالأسباب ، توكّل على الله ، هذا جهل فاضح ، سيدنا عمر كان مع جيشه على مشارف الشام ، فسمع أن فيها طاعوناً ، فأحجب عن دخولها ، قال له بعض الصحابة : يا أمير المؤمنين ، أتَفِرُّ من قضاء الله ؟ نظر إليه ، وقال : << نعم أفر من قضاء الله إلى قضاء الله >> .

لو أنك تملك أرضين ؛ إحداهما مُعشبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعيت غنمك في المُعشبة رعيتها بقضاء الله ، وإن أرسلتها إلى المُجدبة أرسلتها بقضاء الله ، فنحن نَفِرُّ من قضاء الله إلى قضاء الله ، السلامة أيضاً قضاء من الله ، أرأيتم إلى هذا الفهم العميق ، أردت من كلمة كن فيكون أن الله قادر أن يخلق شيئاً بثانية ، كن فيكون ، حتى كن فيكون تقريب وتوضيح ، هو الزمن معدوم

بين مشيئة الله وبين فعله ، ولكن شاءت حكمته أن يجعل لكل شيء سبباً ، يمكن لأب أن يجد أمامه ابنًا عمره عشرون سنة ، كاملا ، مثقفًا ، يحمل شهادة عليا ، ابنه كن فيكون ، الطريق طويل جداً ، يجب البحث عن زوجة ، وعن بيت ، وتفرش البيت ، وتتفق مع أهل الزوجة ، وتقيم عرساً ، وتدخل بها ، وتحمل ، وكل يوم ألم، وكل يوم شيء متعب ، وبعد ذلك تنجب ، والطفل يحتاج إلى رعاية تامة ، يومًا يحبو ، ويومًا يمشي ، ويومًا ينظف ، ويومًا يقول : بابا ، بالتسلسل حتى يمضي عشرون عاماً ، فتجده فتى أمامك ، إن الله قادر ، كن فيكون ، في ثانية ، ولكن شاءت حكمة الله أن يجعل لكل شيء سبباً ، السبب من أجل أن يكون لك عمل ، لو كان كل شيء جاهزاً لما كان للحياة معنى ، من أجل أن يكون لك عملاً ، من أجل أن ترقى عند الله في تربية أولادك ، وأن ترقى عند الله بتعلم حرفة تكسب منها رزقاً ، لولا أن الله قد جعل لكل شيءٍ سبباً لما ارتقى إنسانٌ على وجه الأرض .

إنقاذاً للتوحيد من حين لآخر يُلغى السبب :

الله مسبِّب الأسباب ، لكن إنقاذاً للتوحيد من حين لآخر يُلغى السبب ، أو يُعطّل ، يُلغى السبب في السيدة مريم ، أو يُعطل في الشاب والشابة اللذين لا ينجبان ، قال تعالى :

(إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ)

(سورة آل عمران : الآية 45)

أي كلمة ، سيدنا عمر عزل سيدنا خالدًا ، قال له : لم عزلتني ؟ قال له : والله إني أحبك ، قال : لمَ عزلتني ؟ قال : والله إني أحبك يا أبا سليمان ، قال: لم عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ قال : والله إني أحبك، في الرابعة ألحّ عليه ، فقال : والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يُفتتن الناس بك ، لكثرة ما أبليت في سبيل الله .

فقد توهم الناس أنّ أية معركة يدخلها خالد لا بد أن ينتصر ، فإنقاذًا للتوحيد ، ومن أجل أن يعرف الناس أن النصر من عند الله ، لا من عند خالد ، عزله ، واستمر النصر ، فأخطر شيء في التوحيد أن تُشرك ، أن تتجه إلى غير الله ، أن تُعلّق الأمل على غير الله ، أن ترجوَ غير الله ، أن تخاف من غير الله ، أن تُرضي غير الله ، أن تُغضب غير الله ، التوحيد ألاّ ترى إلا الله ، وألاّ تعبد إلا الله ، هو المعطي ، والمانع ، والخافض ، والرافع ، والمعز ، والمذل ، والرزاق يُعطي ويأخذ ، ويرفع ، ويخفض ، ويُعز ، ويُذل ، إذاً : هذه خرق لسنن الكون ، السيدة مريم معجزة ، واتفقنا فيما مضى على أنّ خرق القوانين والسنن والعادات الثابتة للأنبياء معجزة ، وللأولياء كرامة ، وللضُلالِ ضلالة ، قد يُؤتى الإنسان بمساعدة الجن بشيءٍ من خرق العادات ، هذا فيه ضلالة ، لأنها تُوَظَّف في الباطل ، وقد يؤتى المؤمن الكريم عند الله كرامة ، وقد يُؤتى النبي معجزة .

قال تعالى :

(إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)

3 ـ عيسى ابن مريم كلمة الله :

هو كلمة سيدنا عيسى ، كن فيكون ، وكما قال بعض العلماء : كلمة عيسى تعريب كلمة يسوع ، واليسوع هو المُخَلِّص ، والمسيح لقبه ، وكلكم يعلم أن للإنسان اسماً ، ولقباً ، وكنية ، ونسباً ، إذا قلنا : سيدنا عمر ، فهذا اسمه ، وإذا قلنا : أبو حفص ، فهذه كنيته ، وإذا قلنا : الفاروق فهذا لقبه ، وإذا قلنا : القرشي فهذا نسبه ، فللإنسان اسم ، وكنية ، ولقب ، ونسب ، فسيدنا عيسى اسمه عيسى ، وهو علمٌ على الذات ، لقبه المسيح ، لماذا نُسب إلى أمه مع أنه لم يَرِد في القرآن الكريم دون أن تستنبطوا شيئاً من هذا ، لم يَرِد في القرآن الكريم اسم امرأة على الإطلاق ، بعضهم اجتهد ، وقال نكتب مثلاً : ندعو حضرتكم لحضور عقد قران فلان على كريمة فلان ، ويخفي اسمها ، وقد فعل هذا بعضهم ، لكنّ النبي عليه الصلاة والسلام صرّح بأسماء بعض النساء ، فإذاً : الاستنباط ظن ، على كلٍ الواقع أنه لم يرد في القرآن الكريم كله اسم امرأة إلا السيدة مريم ، من أجل أن يكون هذا توكيداً أن المسيح ابن مريم ، وليس له أب ، هذا إعجاز .

استنباط لطيف : ليس في القرآن خطاب بلفظ محمد ، لكن بلفظ الرسالة أو النبوة :

ولكن هناك استنباطات لطيفة ، وهي أنه لم يرد في القرآن الكريم اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخطاب : يا محمد ، هناك قوله تعالى :

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ)

(سورة آل عمران : الآية 55)

وقوله :

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)

(سورة مريم : الآية 7)

وأيضاً قوله :

(يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم : الآية 12)

ليس في القرآن كله يا محمد ، هناك يا أيها الرسول ، يا أيها النبي ، هذا لعلو مقامه عند الله عز وجل ، ما خاطبه باسمه أبداً ، خاطبه بمرتبته ، لكن في أعلى مقام ، الإنسان له نشاطات كثيرة ، يأكل ، ينام، يستريح ، يذهب ، ويسافر ، ولكن قد يُقام له حفل تكريمي كبير لنيل شهادة عليا هذا

يوم من أيام العمر ، يوم يتزوج مثلاً بالتقريب ، يوم ينال شهادة كبرى ، يوم يؤسس شركة فرضاً ، يوم يتعين في منصب رفيع ، هذه أيام معدودة .

في المواقف العظمى التي وقفها النبي خُوطب بأنه عبد الله ، أعلى مقام أن تدعو إلى الله ، قال تعالى :

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(سورة الجن : الآية 19)

وقوله :

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(8)فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(9)فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(10))

(سورة النجم)

وفي الإسراء قوله تعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)

(سورة الإسراء : الآية 1)

أي في أعلى مقام يُنادى بأنه عبد لله ، ونحن ديننا دين العبودية لله .

يروى أن رجلاً كان مشركاً بالمعاصي والآثام ، معاقرا الخمر والزنا ، وما شاكل ذلك ، وكان غنياً مُترفاً عنده الجواري ، طرق بابه رجل صالح ، ففتح غلامه الباب ، فقال له هذا الرجل : قل لسيدك إن كان حراً فليفعل ما يشاء ، وإن كان عبداً فما هكذا تصنع العبيد ، العبد يطيع سيده ، فهذا العبد دخل على سيده ، وقال له : إنّ في الباب رجلاً يقول لك : إن كنت حراً فافعل ما تشاء ، وإن كنت عبداً فما هكذا تصنع العبيد ، فقال : أدركه ، فهذا السيد فعلت هذه الكلمة فيه فعلاً عجيباً ، فتبعه حافياً من دون نعل إلى أن أدركه ، وتاب على يده ، فسُمي بِشر الحافي ، هذا الولي الكبير العارف بالله سبب توبته هذا الرجل الصالح ، قال له : إن كنت حراً فافعل ما تشاء ، وإن كنت عبداً فما هكذا تصنع العبيد .

احفظ درسَيْ بدرٍ وحنينٍ :

نحن عبيد لله عز وجل ، من منّا يملك أن يعيش إلى ساعة قادمة ، من منّا يملك ألا يكون في جسمه شيء خطير ، والحقيقة أن أخطر الأمراض ليس لها أعراض ، فإذا كنت تملك المستقبل فقل : أنا ، أما إذا كنت لا تملك دقيقة واحدة فقل : الله ، والقاعدة السادسة إن قلت : الله ، تولاك الله ، وإن قلت أنا : تخلى الله عنك ، وهل أنت أكرم من أصحاب رسول الله ، في حُنين قالوا : لن نُغلب من قِلة ، نحن كُثر، قال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة : الآية 25)

أيها الإخوة الكرام ، وفي بدر قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

احفظ هذين الدرسين ، إذا وحّدت ، وقلت : الله ، تولاك بعنايته ، وإذا قلت : أنا ، ونسبت الأمر إلى ذاتك ، وعلمك ، وخبرتك ، ومكانتك ، ونسبك ، ومن حولك ، وجماعتك تخلى الله عنك ، لذلك دخل أحد كبار العارفين بالله إلى مسجده ، وحوله عشرات الألوف فقال : " اللهم لا تحجبني عنك بهم ، ولا تحجبهم عنك بي" .

ينبغي ألا ترى إلا الله ، هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، ينبغي أن تعبده وحده ، أما الذي ينطق بالعلم من بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام فهذا رفيق في الدرب :

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان : الآية 27)

هذا رفيق في درب الإيمان ، ولكن ليس هو الوجهة ، الوجهة لله عز وجل ، والدليل سيدنا الصديق ، أنا لا أعتقد أن في الأرض رجلين يحب بعضهما بعضاً كحب الصديق لسيدنا رسول الله ، ومع ذلك حينما توفي النبي قال أبو بكر البكّاء المخلص الذي ذاب في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماذا فعل ؟

((... جَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ ، قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا ، ثُمَّ خَرَجَ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الْحَالِفُ ، عَلَى رِسْلِكَ ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَقَالَ : أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، وَقَالَ :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ وَقَالَ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ))) .

[متفق عليه]

هذا هو التوحيد ، ديننا دين التوحيد ، ديننا دين مبادئ لا دين أشخاص ، دين مضامين لا دين عناوين .

يا أيها الإخوة الكرام ، قال تعالى :

(إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

[سورة آل عمران : الآية 45]

4 ـ ألا تحب أن تكون وجيها في الدنيا والآخرة ؟

لو وقفنا عند هذه الكلمة ، ألا تحب أنت أيها المؤمن أن تكون وجيهاً :

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنـا فإنا منحنا بالرضى من أحبنـا

ولُذ بحمانا واحتمِ بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خلقـنا

وعن ذكرنا لا يشغُلَنَّك شاغـل و أخلص لنا تلقَ المسرة و الـهنا

وسلّم لنا الأمر في كل ما يكـن فما القرب و الإبعاد إلا بأمرنــا

فيا خجلي منه إذا هو قـال لـي أيـا عبدنا ما قرأت كتابنـــا

أما تستحي منّا ويكفيك ما جرى أما تخشى من عُتْبنا يوم جمعـنا

أما آن أن تُقلع عن الذنب راجعاً و تنظـر ما به جاء وعـــدنا

***

إلى متى أنت باللـذات مشغول وأنت عن كل ما قدَّمتَ مسؤول

هكذا ورد في بعض الأشعار .

أيها الإخوة ، دققوا في كلمة (وجيهاً) ، أنت حينما تطيع الله فلك من هذه الآية نصيب .

قلت لكم في دروس سابقة : إنّ قراءة القرآن الدقيقة ، المتأنية ، التي فيها تَدَبُر تعني أن تسأل نفسك السؤال الدائم : أين أنا من هذه الآية ؟

أنت حينما تُؤثر طاعة الله على حظوظ نفسك ، حينما تطيع الله عز وجل تكن لك من هذه الآية نصيب، يرفع الله لك ذكرك .

رأى رجل من أهل الكتاب في الطريق رجلاً من كبار علماء المسلمين ، وهو عبد الله ابن مبارك يركب فرساً ، وكان بهيَّ الطّلعة ، جميل الصورة ، منير الوجه ، أنيق الملبس ، وحوله إخوانه الكرام يحُفُّون به ، هذا الرجل الذمي رآه كأنه ملِك ، وهو فقير جداً ، ويعمل في تنظيف المجارير ، ومقهور ، وجائع ، وبائس ، فقال له : يقول نبيكم : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فأيُّ سجن أنت فيه يا سيدي، وأيُّة جنة أنا فيها ، فأجابه ابن المبارك أن ما أنت فيه إلى ما ينتظر العاصي هو في جنة ، وما أنا فيه إلى ما ينتظر المؤمن من نعيم مقيم أنا في سجن ، وفي أحد الأحاديث القدسية ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)) .

[مسلم ، الترمذي ن ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

الإنسان حينما يتعرف إلى الله يُعلي الله قدره ، انظر إلى هذه الآية :

(وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ)

لك مكانة ، أي بالتعبير الدارج أنت غالٍ على الله ، لست هيِّناً على الله عز وجل ، يُدافع عنك ، ويُعلي قدرك ، ويحفظك ، ويؤيدك ، ويوفقك ، ويشفيك ، ويطمئنك ، ويُيَسر لك أمرك ، هذه بعض نتائج الإيمان ، تعيش حياة طيبة ، هنيئة ، فيها رضى عن الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

ولكل مؤمن من هذه الآية نصيب ، إن أطعت الله كنت وجيهاً في الدنيا ، يُعلي الله قدرك ، يرفع ذكرك، يحميك من عدوك ، يجعل عدوك في خدمتك شاء أم أبى ، إذا كان الله معك خدمك عدوك ، وإذا كان عليك تطاول عليك قريبك ، إذا كان الله معك خدمك عدوك اللدود دون أن يشعر ، وإذا كان الله عليك تطاول أقرب الناس إليك عليك ، قال تعالى :

(وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 45]

5 ـ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ

الناس يبحثون عن مقام ، عن ثروة ، عن مركبة ، عن بيت فخم ، عن تجارة رابحة ، عن امرأة جميلة، يبحثون عن متاع الدنيا ، لو أنهم ذاقوا طعم القرب ، لو أنهم شعروا أنهم في عناية الله ، ورحمته ، وحفظه ، وتأييده ، لو أنهم قرؤوا القرآن فذابوا خشوعاً لله ، لو أنهم صلَّوا صلاة مودع لكانوا مع الله في مناجاته ، إن أردت أن تحدث الله فادْعُهُ ، وإن أردت أن يحدثك الله فاقرأ القرآن ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام :

((لي ساعة مع ربي لا يسعني فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب)) .

[ورد في الأثر]

مقام عال .

قال تعالى :

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 46]

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ

1 ـ الأنبياء يحتاجون إلى معجزات :

هذه المعجزات ، المعجزة قبل النبوة تسمى إرهاصًا ، أي إشارة من الله ، هذا الطفل الذي قال : إني عبد الله ، وقد وُلِد لتوه ، هذا شيء غير مألوف إطلاقاً ، قال تعالى :

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ)

السبب في أن الأنبياء يحتاجون إلى معجزات هو أنهم حينما يأتون بمنهج الله فهناك حدود وقيود . قد تجد في الهند مثلاً ثمانمئة ألف شخص يدينون بالبوذية ، دين وضعي من وضع البشر ، تجد في بلاد العالم مئات الملايين يدينون بديانات ما أنزل الله بها من سلطان ، قد يقول أحدكم : كيف انتشرت هذه الأديان الباطلة ؟ الجواب سهل جداً ؛ هذه الأديان لا منهج فيها ، ليس فيها افعل ولا تفعل ، ليس بها تكليف ، فيها ولاء فقط ، وإعلان الولاء سهل جداً ، تعال إلى هذا المكان ، وقم بحركات إيمائية ، وتمتم تمتمات ، ثم افعل ما تشاء خارجه ، قضية سهلة جداً ، لكنّ منهج الله عز وجل تجد فيها آلاف الأوامر والنواهي ، أنت محاسَب حتى في خلوتك في البيت ، مُحاسَب مع أقرب الناس إليك مع أولادك ، مع زبائنك ، في تجارتك ، في زراعتك ، في بيعك ، في شرائك ، مُحاسَب حساب دقيق ، أنا والله لا أبالغ ، منهج الله لو أردت أن أضع رقماً لبنوده أكثر من خمسمائة ألف بند ، لكنّ المسلمين مسخوا هذا المنهج إلى خمسة بنود ، صوم وصلاة وحج وزكاة ، أما بيوتهم فليست إسلامية ، وتجارتهم ليست إسلامية ، وبيعهم ليس إسلامياً ، واحتفالاتهم ليست إسلامية ، وأنماط حياتهم وسفرهم وإقامتهم كل نشاطاتهم ليست إسلامية ، بقي لهم من الدين اسمه ومن القرآن رسمه ، وهل من الممكن أن يتحكم مصمم أزياء يهودي في فرنسا في ثياب المسلمات في العالم كله ؟ أيُّ إسلام هذا ؟ أين قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

((... وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[الترمذي ، الدارمي عن ابن عباس]

أنت ترى هذه الأيام مليارا ومئتي شخص مغلوبين ، لأنّ مصمم الأزياء يتحكم في ثياب نسائهم ، يكشف عورات النساء فيقلدونه ، يُظهر مفاتن المرأة فيقلدونه ، هم يَتَّبِعون ، لو دخلوا جُحر ضبٍ لدخلتموه ، تُحَلُّ عُرى الإسلام عروة عروة ، قال تعالى :

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ)

بماذا تشعر لو أدركت أن الله تعالى يحبك ، وأنك مقربٌ إليه ، بماذا تشعر ؟ كما قال بعضهم : كدت بأخمُصي أطأ الثُريَّا ، أي شعوره أنّ الله يحبه شعور لا يُصف ، شعورك بأن الله معك يجعلك تصبح أقوى إنسان ، إذا كان هناك دولة ضعيفة تعُدُّ تدعمها دولة كبيرة تجد بأنهم يتغطرسون غطرسة لا تُحتمل ، لهم تصريحات لا تُحتمل ، لأن دولة كبيرة تدعمهم ، فأيهما أقوى أن تكون مع الله أم مع أمريكا ؟ إذا كنت مع الله فمن يجرؤ على النيل منك ؟ لكنّ المسلمين تَخَلَّوا عن دينهم ، وقصَّروا في طاعة ربهم ، فجاءت شراذم الآفاق يتَحدَّونهم .

أيها الإخوة ، قال تعالى :

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ)

2 ـ معنى : الصالحين :

معنى الصالحين ، أي عملٌ صالح ، كلمة جامعة شاملة ، أي في حركاته ، وسَكَنَاتِه، وإقامته ، ونومه ، واستيقاظه ، وأكله ، وشربه ، وزواجه ، وتربية أولاده ، وبيعه ، وشرائه ، وكسبه للمال كله وفق المنهج لأنه صالح ، موقفه كامل ، سواء أمرض ابنه ، أم كان عليه دين ، أم أقرض إنساناً ، أم عمل دعوة في بيته ، أي كيفما تحرك يمثِلُ كمال الشرع ، وهناك رأي آخر يقول : ومن الصالحين لعطائنا .

أنت تريد أن تضع رئيساً للجامعة ، هل من الممكن أن تعيِّن أميًّا لا يقرأ ولا يكتب حتى لو كان قريبك، وتحبه ، وتحب أن تنفعه ؟ هذا شيء مستحيل ، يجب أن يكون معه دكتوراه على الأقل ، إن كان لك قريب معه دكتوراه ، ومتميز ، وله مؤلفات هذا من الممكن التفكير فيه ، ووضعه رئيساً للجامعة ، وكان النبي شديد الأدب مع الله ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى الْأَسْلَمِيِّ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

((... اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ)) .

[الترمذي]

هناك ملِك له ولد ، وقال له : يا بني ، اطلب ، وتمنَّ عليّ ، لو طلب منه مركبة فرضاً لأعطاه عشرًا ، لو طلب قصراً لأعطاه قصوراً ، قال له : أحب أن أكون رئيساً للجامعة ، يقول له : لا ، هذا منصب يحتاج إلى دكتوراه ، لك أن تفعل كل شيء ، لكن أن تكون في منصب علمي ، فهذا يحتاج إلى مؤهل ، فإذاً : من الصالحين هذا يعني أنه مؤَهل لعطائنا ، أهَّل نفسه للجنة ، الدنيا مدرسة لو نفهم حقيقتها ، الدنيا كلها من أجل أن تؤهل نفسك لعطاء الله عز وجل ، أن تَصلُح لعطاء الله .

الآية الكريمة :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر : الآية 74)

لولا أننا جئنا إلى الأرض ، وتعرَّفنا إلى الله في الأرض ، وغضضنا بصرنا ، واستقمنا على أمر الله في الأرض ، وبذلنا الغالي والرخيص ، وأنفقنا مالنا في الأرض ، وتزوجنا وفق سُنَة رسول الله في الأرض ، وكسبنا المال الحلال وأنفقناه في الأرض ، لما كنا في الجنة ، وقالوا :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر : الآية 74)

لذلك في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، هي جنة القرب .

أيها الإخوة ، شأن هذه السيدة الكريمة كشأن سيدنا زكريا ، قال تعالى :

(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة آل عمران : الآية 47]

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ

: هذه معجزة ، أي الذي خلق الأسباب قادر على إلغائها أو تعطيلها

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ)

(سورة آل عمران : الآية 48)

الكتاب المُنَزَّل عليه ، الحكمة أي تصديقه ، حيثما وردت الحكمة مع الكتاب ، الكتاب مطلق كتب الوحي المنزل على أنبياء الله ورسله ، والحكمة سُنة رسول الله ، أي شريان ما في الكتاب ، أو الأسلوب العملي لتطبيقه ، والتوراة والإنجيل هنا عطف الخاص على العام ، قال تعالى:

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ(48)وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

وفي درس آخر إن شاء الله أتابع تفسير هذه القصة في آل عمران .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(16-60): تفسير الآيات 49 - 52

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-03-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ)

[سورة آل عمران : الآية 50]

وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ

وكانت الآية التي قبلها :

(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{47} وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ{48} وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

1 ـ الرسول معه منهج :

أولاً : أيها الإخوة ، حينما يأتي إنسان ، ويخاطب الناس يقول : إني رسول الله ، فشيء طبيعي جداً أن يقال له : أنت كاذب ، ذلك أنّ الرسول معه منهج ، والمنهج افعل ولا تفعل ، والناس متفلتون ، الكافر ليس عنده قيد ، طليق من كل قيد ، يأكل ما يشتهي ، ويلتقي مع من يشتهي ، ويذهب إلى أي مكان يشتهي ، أي حركته غير مرتبطة بمنهج تبعثها شهواته فقط ، فمثل هذا الإنسان إن جاءه إنسان مثله ، وقال : إني رسول الله ، سيقول له : أنت كاذب ، ذلك لأنه سيمنعه من أشياء يحبها .

2 ـ الرسول معه معجزة مناسبة لعصره :

إذاً أن يُكَذَّب الأنبياء شيء طبيعي جداً ، أن يُكَذَّب الدعاة إلى الله شيء طبيعي جداً ، كيف شهد الله بهؤلاء الرجال الذين هم قمم البشر ، شهد لهم أنهم رسله ، أيَّدهم بالمعجزات ، أيّدهم بشيء لا

يستطيعه مخلوق من بني البشر ، ولحكمة أرادها الله عز وجل أنّ المعجزة ينبغي أن تتناسب مع العصر ، وأن تكون في موضوع تفوق فيها أهل العصر ، الآن هناك تفوق بالكمبيوتر مثلاً ، يقول لك : أربعمائة وخمسين مليون حرف في الثانية ، فلو جاء نبي في هذه الأيام فسيأتي بشيء من طبيعة العصر . في زمن السيد المسيح كان الطب متفوقًا جداً ، وفي أيام سيدنا موسى كان السحر متفوقًا جداً ، في أيام رسول عليه الصلاة والسلام كانت الفصاحة ، والبلاغة ، والأدب ، والشعر في أعلى درجة ، فالمعجزة ينبغي أن تكون تحدياً لقوم النبي فيما برعوا فيه ، والإنسان متى يخضع لك ؟ سحرة فرعون لماذا حرقوا المراحل كلها ، وفي ثوانٍ معدودات خروا لله ساجدين ؟ لأنهم سحرة ، جاؤوا بأنابيب ، ورسموها على شكل أفعى وثعابين ، وضعوها في معدن الزئبق ، وجعلوها فوق مستوي ساخن ، والسخونة مدَّدت الزئبق ، وتحرّك هذا الأنبوب المطاطي ، وكأنه ثعبان مبين ، فلما رأوا ثعباناً حقيقياً كان قبل دقيقة عصاً فإذا هي ثعبان مبين ، لأنهم سحرة ، ولأنّ هذا الشيء الذي رأوه فوق طاقتهم ، خروا لله ساجدين .

الاكتشاف العلمي طريق هداية :

إذا قال طبيب : أنا ألّفت كتابًا في علم الأجنّة يصبح وكأنه إنجيلٌ لشدة هيمنته على باقي الكتب ، وانتشار هذا الكتاب في شتى جامعات العالم ، وهو يبين أنّ العظم يتخلّق بعد اللحم ، ثم يكتشف فجأة أنه كان مخطئاً في هذا ، وأنّ العظم يتشكل أولاً ، ثم يُكسى باللحم ، ودخل مرة على طلابه في جامعة أكسفورد ببريطانيا وقال : عندي فتح جديد ، وعندي كشف لم أُسبَق إليه ، وعندي ، وعندي.... أي هو قطب في اختصاصه ، وهو متوهم سابقاً أنّ العظام تُشكل بعد اللحم وألقى هذه القنبلة ، وقال : العظم يتشكل على خلاف ما في كتابي ، فقام طالب مسلم من تلاميذه ، وقال له : يا أستاذ هذه الحقيقة جاء بها القرآن قبل أربعة عشر قرناً، فلم يصدقه ، دُهش ، فلما جاءه هذا الطالب في اليوم الثاني بالقرآن الكريم مُترجَماً إلى اللغة الإنكليزية قرأ فيه :

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون : الآية 14]

يُروى أنّه أسلم ، لماذا ؟ لأن هذا هو اختصاصه ، سنوات وسنوات ، وعقود وعقود ، وهو متوهم أن اللحم يتخلق أولاً ، والعظام ثانياً ، فلما اكتشف العكس وظن أنه سبق كل علماء عصره صُعِق لما رأى في كتاب أُنزل قبل أربعة عشر قرناً يبين ذلك ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء)

[سورة فاطر : الآية 28]

ذكرت لكم مرة أنّ هناك آية قرآنية لو سمعها عالِم فلك لخر ساجداً ، وهي قوله تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة : الآية 75]

من كلمة واحدة ، وهي كلمة مواقع ، إنّ هذا النجم العملاق ، وهذه المجرة العملاقة التي تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ، مع أن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وفي الدقيقة، وفي الساعة ، وفي اليوم ، وفي الشهر ، وفي السنة ، وفي عشرين مليار سنة ، كم تبعد عنا هذه المجرة ؟

إن أقرب نجم ملتهب إلينا يبعد عنا أربع سنوات ضوئية ، لو أردنا أن نصل إليه بمركبة أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون عام ، بمركبة أرضية نحتاج إلى خمسين مليون عام كي نصل إلى أقرب نجم ملتهب على الإطلاق ، فإذا كانت هذه المجرة تبعد عنا عشرين مليار سنة ، أي بقي ضوؤها يسير في الفضاء عشرين مليار سنة حتى وصل إلينا ، وحتى رصدناه في مراصدنا ، هذه المجرة التي أرسلت إلينا هذا الضوء قبل عشرين مليار سنة سرعتها تقترب من الضوء ، سرعتها كما قُدِّرت مئتين وأربعين ألف كيلو متر بالثانية ، أين هي الآن ؟ لو قال الله تعالى : فلا أقسم بالمسافات بين النجوم لم يكن هذا قرآناً ، ولا كلاماً خالداً ، إنما قال :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

وكلمة موقع تعني أنّ صاحب الموقع ليس شرطاً أن يكون في الموقع ، فقد تركه ، هذا موقع فلان ، وأين فلان ؟ لا نعرف ، هذا موقعه ، فعلى كل أيها الإخوة قال تعالى :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

ولأنّ هذا العصر هو عصر علم ، وتفوق ، وفضاء ، وذرة ، وحواسيب ، لذلك سمح الله عز وجل لنفسه أن يوازن ذاته العليَّة مع بعض مخلوقاته ، قال :

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

[سورة الأنعام : الآية 62]

الآن الحواسيب المتطورة جداً - طبعاً هذه لا تأتينا نحن - الحاسب العادي يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف في الثانية الواحدة ، فحينما تعطي الأمر ، وتضغط على الزر فتأتي هذه النتيجة على الشاشة فوراً ، هذا من صنع الإنسان ، فكيف هو الواحد الديَّان ؟ قال :

(وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ)

حسابه أسرع .

أيها الإخوة ، وقال سبحانه :

(أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة الصافات : الآية 125]

الكُلية الصناعية كالطاولة ، لابد أن تستلقي ، يستلقي الإنسان على ظهره لا سمح الله ، ولا قدر ، لابد أن يستلقي الإنسان على ظهره ثماني ساعات لتصفية دمه ، مع تعطيل وقتٍ ، وجهدٍ ، وألمٍ ،

ونفقةٍ باهظةٍ ، أما هذه الكُلية الطبيعية بحجم البيضة فتعمل بصمت ، وأنت نائم ، وأنت تمشي ، وأنت تعمل ، وأنت راكب في مركبتك ، أي كل عصر له شيء في تفوق ، فحينما تفوق الناس بالسحر جاء موسى بسحر حطم ما يتوهمون أنه سحر ، جاء بمعجزة ، وحينما تفوق الناس في الطب السيد المسيح أحيا الموتى ، لم يكن هناك طب ، يوجد إحياء للميت ، يبذلون العناية :

إنّ الطبيب له علم يدلُّ بــه   إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلته   حار الطبيب وخانته العقاقيــر

والدليل أن الملوك يموتون ، ما معنى ملك ؟ أي أنّ أطباء العالم في خدمته ، قد يأتون به بأطباء من شتى بقاع الأرض ، الأدوية النادرة تأتيه ، له أعلى عناية على الإطلاق ، ومع ذلك يموتون ، الأقوياء يموتون ، والملوك يموتون ، وكل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، لا يوجد في الطب إحياء ميت ، هناك معالجة ، وتسكين آلام ، وبتر عضو ، وعملية جراحية ، وتخفيف ، ولكن لا يوجد إحياء ميت ، ففي عصر السيد المسيح كان الطب متفوقاً فكانت معجزته قوله تعالى :

(أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

إن وجدت في محل ألبسة للأولاد مجسَّمًا من الشمع لطفلة جميلة جداً ، وضعها أمام ابنتك التي تأخذ جزءاً من لبّك ، هل توازَن هذه مع هذه ؟ امرأة فيها حياة وحيوية ، وابتسامة ، وتفكير ، ومشاعر ، وعواطف ، وهناك أجهزة معقدة جداً ، تجد في عينها فقط مائة وثلاثين مليون عصيّة ومخروط ، في رأسها ثلاثمائة ألف شعرة ، لكل شعرة شريان ، ووريد ، وعصب ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية .

وفي المعدة خمسة وثلاثون مليار غدة هاضمة ، وفي الدماغ مئة وأربعين مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد ، هذه هي الطفلة ، فوازن بين مجسم لطفلة يوضع في محل ألبسة و طفلة حقيقية ، بين وردة صناعية مصنوعة من مادة كيميائية و وردة طبيعية ، قال تعالى :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون : الآية 14]

هذا النبي الكريم قال ، قال تعالى :

(أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً)

طائر من جبصين ، يطير ، وله رئتان ، وشرايين ، وأوردة ، وقلب ، وله عينان ، وأجهزة كاملة ، قال تعالى :

(أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

الأكمه أي من وُلِد أعمى ، والأبرص هذا اللون الغريب في جسم الإنسان ، والذي لا دواء له ، وأحيي الموتى ، لكن دقق في كلمة واحدة : (بإذن الله) ، النبي لا يستطيع بذاته أن يفعل شيئاً ، لأنه بشر مثلنا :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)

[سورة الكهف : الآية 110]

إلا أنه بقدرة الله عز وجل يفعل كل شيء سمح الله له به ، هي قاعدة حينما يأتي النبي بمعجزة فهي بإذن الله ، وحينما ينبئُنا بخبر صادق ، هذا من علم الله لا يَعلَم إلا أن يُعلّم ، ولا يفعل شيئا إلا أن يمكنه الله منه ، قال تعالى :

(وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

هذا الشيء مستحيل :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

1 ـ لفتة رائعة في قوله : لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين

هذه اللفتة الرائعة :

(لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

قد يقول قائل : نحن إن رأينا هذه الآية نؤمن ، هنا الإيمان يجب أن يسبق هذه الآية ، ما معنى الآية ؟ معناها أنه إذا أردت أن تؤمن فأيُّ شيء في الأرض يدلك على الله ، البعرة من البعير ، والماء من الغدير ، والأقدام تدل على المسير ، أفسماءٌ ذات أبراج ، وأرضٌ ذات فِجاج ، ألا تدلاّني على الحكيم الخبير ، فإن أردت أن تؤمن فأيُّ شيء في الأرض يدلك على الله ، وإن أردت ألا تؤمن فلن تؤمن ، ولو عاصرت الأنبياء مجتمعين ، ولو كنت في أكبر محطة فضائية ، ولو كنت على (ميكرو سكوب) مجهر يُكَبر أربعمائة ألف مرة ، ولو رأيت بعينيك المجرات ، ولو غصت في أعماق البحار ، وحلّقت في أعلى الأجواء لا تؤمن ، فهي قضية قرار تتخذه من داخلك ، إن أردت

أن تؤمن كل شيء يدلك على الله ، وإن أردت أن لا تؤمن ، وأردت الشهوة فلا ترى شيئاً ، قال تعالى :

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)

[سورة البقرة : الآية 171]

2 - إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فلابد أن تتأثروا بهذه الآية :

كمثل بسيط : آلة تصوير متواضعة جداً ، أرخص آلة في البلد فيها فيلم ، وأغلى آلة على الإطلاق ثمنها خمسمائة ألف ليرة ، لا يوجد فيها فيلم ، فهذه الآلة المتواضعة إن كان بها فيلم فهي تلتقط الصورة، أما التي ليس فيها فيلم فلا تلتقط أية صورة ، ما معنى ذلك ؟ مهما كنت ذكياً إن لم تُرِد الحق فلا ترى الحق ، صمٌ بكمٌ عميٌ ، وإن كنت متوسط الذكاء ، بل أقلّ من المتوسط ، وأردت أن تؤمن فكل شيء في الكون يدلك على الله :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

هذه الآية احفظوها ، لأن مثيلاتها كثيرة جداً ، قال تعالى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أي إن أردتم الإيمان ، إن كان الإيمان هدفاً لكم ، إن كان الإيمان مقصداً سامياً لكم هذه آية . أحياناً تكون في مكان يُتلى فيه القرآن فتجد شخصاً يبكي ، ويتأثر ، وآخر لا يتأثر أبداً ، الذي بكى ، وتأثر يعيش أجواء القرآن ، والذي لم يتأثر هو بعيد عن أجواء القرآن ، لذلك قالوا : إن الإنسان أحياناً يستمع إلى نص قرآني ، أو نص نبوي ، أو نص من الحِكَم فتتحرك مشاعره ويتأثر ، ماذا فعل هذا النص ؟ حرّك ما عندك من مشاعر فتأثرت ، أما من كان خاوياً ، وليس عنده شيء يتحرك لو تلوت عليه القرآن كله لم يتأثر ، هذا معنى قوله تعالى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

إن كنتم مؤمنين تتأثرون بهذه الآية ، شخص عنده مشكلة كبيرة في البيت ، مثلاً هناك خلل بالأنابيب ، وحدث طوفان بسبب الماء ، وأُتلف الأثاث ، وخرج من بيته كالسهم يبحث عن قطعة قد تعطلت في تمديداته الصحية ، هذا لا يرى شيئاً في الطريق ، لا شخصاً ، ولا صديقاً ، ولا محلاً لبيع الثريات ، ولا محلاً لبيع التحف ، ولا محلاً لبيع الطعام ، إنه يبحث عن طلبه ، فهو أعمى إلا عن طلبه ، لذلك قالوا : حُبّكَ الشيء يُعمي ويُصِم ، الذي أحب الدنيا أعمته عن كل حقيقة :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ)

[سورة آل عمران]

1 - وحدة الأصل تعني وحدة الفروع :

هنا عندنا قاعدة ثانية ؛ وهي أن وحدة الأصل تعني وحدة الفروع ، هناك فروع عديدة ، فإن كانت هذه الفروع منبثقة عن أصل واحد فهي متحدة فيما بينها .

الإنجيل من عند الله كما نزل طبعاً ، والتوراة من عند الله ، والقرآن من عند الله ، والأصل واحد ، إذاً هذه الكتب ينبغي أن يصدق بعضها بعضاً كما نزلت ، لأن اتحاد الأصل يعني اتحاد الفروع ، إن الإنسان عنده نقل ، وهو الوحي ، وعنده عقل ، من خلق العقل ؟ الله جل جلاله ، ومن أرسل النقل ؟ الله جل جلاله ، ومن جبل الإنسان جِبِلّة نفسية معينة ؟ الله جل جلاله ، ومن خلق الكون ؟ الله جل جلاله ، لا بد من توافق - هذه الكلمة مستعملة الآن توافقية - توافق بين النقل الذي هو وحي السماء والعقل الذي هو مقياس أودع في الإنسان ، والفطرة التي هي جِبِلّة جُبلنا عليها ، والواقع الذي هو من خَلْقِه ، لابد من اتحاد هذه الأركان الأربعة ، لأن الكون خَلقُه ، والجِبِلّة فطرته ، والعقل مقياسه ، والوحي كلامه ، لا يمكن أن يتناقض كلامه مع مقياس العقل ، ومقياس الفِطرة والواقع ، هذا هو الحق ، إنه شيءٌ جاء به النقل ، وأقرَّ به العقل ، وارتاحت له الفِطرة ، وأيَّده الواقع ، هذا هو الحق ، لا زلنا في هذه القاعدة الأصولية ؛ اتحاد الأصل يعني اتحاد الأصول .

قال تعالى :

(وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ)

[سورة آل عمران : الآية 50]

2 - بنو إسرائيل حرّموا على أنفسهم أشياء لم يُحرِّمها الله عليهم :

إن بني إسرائيل حرّموا على أنفسهم أشياء لم يُحرِّمها الله عليهم ، وهناك معنى آخر ؛ أن الله حرَّم عليهم أشياء ، وتحريمها تأديب لا تشريع ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ، والسيد المسيح أحلّ لهم ما حُرِّم عليهم ، إما تأديباً ، أو توهماً من قِبَل أنفسهم ، لذلك أيها الإخوة ، قد نظن أنه من الخطر الشديد جداً أن نحلل الحرام ، هذا جريمة ، لكن لا تنسَوا أن هناك جريمة لا تقلّ عنها ، وهي تحريم الحلال ، تحريم الحلال لا يقلّ انحرافاً في العقيدة عن تحليل الحرام ، فأنت مكلف ألا تُحلَّ حراماً ، وألا تُحرِّم حلالاً ، أحياناً يشتهي الإنسان الاجتهاد من عنده ، فهذا حرام .

خطورة التحليل والتحريم :

حينما أرى رجلاً يستعجل ، ويقول : هذا حرام ، أعجب أشد العجب ، المُحَلِّل والمُحَرِّم هو الله ، ومن يجرؤ من بني البشر كائناً من كان أن يَحلَّ شيئاً حرَّمه الله ، أو أن يُحرِّم شيئاً أباحه الله ، حتى إن رماة أُحد الذين عصوا رسول الله صلى عليهم وإن عصوه ، قال علماء السيرة : إنهم عصوا أمراً تنظيمياً ، ولم يعصوا أمراً تشريعياً ، وشتان بين الأمر التشريعي الذي هو من عند الله ، وبين الأمر التنظيمي ، لو فرضنا أن لهذا الحَرَم باباً ، وأنا قلت : تيسيراً للنظام : يكون الدخول من هذا الباب ، والخروج من الباب الآخر ، هذا أمر تنظيمي ، فإن كان هناك شخص خالف هذا الأمر فهو خالف أمراً تنظيمياً ، أما الخمر فحرام ، فمن يشربها فقد خالف أمراً تشريعياً ، الزنا حرام ، فالذي يزني فقد خالف أمراً تشريعياً، فالمسافة كبيرة جداً جداً بين مخالفة الأمر التنظيمي ، وبين مخالفة الأمر التشريعي ، فرماة أُحد مع أنهم عصوا النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يبقوا في أماكنهم إلا أن الله سبحانه وتعالى سمح لنبيه الكريم أن يصلي عليهم ، لأنهم لم يعصوا أمراً تشريعياً ، بل عصوا أمراً تنظيمياً ، قال تعالى :

(وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ)

[سورة آل عمران : الآية 50]

الآية إحياء الموتى ، وشفاء الأكمه ، والأبرص ، وإنباء قومه بما في بيوتهم من طعام وشراب قال تعالى :

(إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

[سورة آل عمران : الآية 51]

إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ

الطريق إلى الله سالك :

النبي بشر مثلنا ، أي إن أردت أن تصل إلى الله فالطريق إليه سالك قال :

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

[سورة التكوير : الآية 28]

حينما تتعرف إلى الله تسأل كيف الوصول إليه ؟ كيف أنال رضاه؟ كيف السبيل أن يحبني الله عز وجل؟ فحينما تعرف الله تنشأ عندك رغبة أكيدة أن تطيعه ، وأن تصل إليه ، وأن تطلب وده .

قال تعالى :

(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

[سورة مريم : الآية 36]

قد تجد إنساناً قويا جداً ، وبيده كل شيء ، لكن لا طريق إليه ، ليس بالإمكان أن تقابله ، ولا أن تتصل به ، ولا أن ترفع إليه كتاباً ، مستحيل ، فما قيمة قوته ؟ وما قيمته أخلاقه ؟ وما قيمة عطائه ، وكرمه ، وفضله إن كان الطريق إليه ليس سالكاً ؟ أما ربنا جل جلاله فبيده كل شيء ، لكن الطرائق إليه بعدد أنفاس الخلائق ، وأنت في بيتك هناك مئة طريق وطريق إليه ، أن تكون زوجاً محسناً ، أن تكون ابناً باراً ، أن تكوني زوجة طائعة لله ولزوجك ، أن تكوني ابنة محجبة ، ومستقيمة عفيفة ، وأنت في البيت هناك مئة طريق وطريق إلى الله ، وأنت في متجرك هناك مئة طريق وطريق ، صدقك عمل صالح ، نصحك للمسلمين عملٌ صالح ، إتقانك لعملك عملٌ صالح ، رغبتك في خدمة المؤمنين عملٌ صالح ، لذلك الله بيده كل شيء ، لكن الطرائق إليه بعدد أنفاس الخلائق ، والآية واضحة جداً :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف : الآية 110]

إن أردت أن تلتقي مع الله لقاءً يليق بكماله وتتحمله ، أي قال له :

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً)

[سورة الأعراف : الآية 143]

استحالة رؤية الله في الدنيا ، وجواز رؤيته يوم القيامة :

أي جبلاً عملاقاً كجبل همالايا تجلى الله عليه فاختفى ، فأنت لا تتحمل أن ترى الله في الدنيا ، لكنّ النبي وعدنا أنّ المؤمنين يرون ربهم في الجنة كما نرى القمر ليلة البدر ، وهناك بعض التفاصيل أنّ الذي ينظر إلى وجه الله الكريم يغيب من نشوة النظرة خمسين ألف عام ، وأنّ أكبر عقاب يُعاقب به الإنسان يوم القيامة أنه محجوب عن الله ، قال تعالى :

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين : الآية 15]

أما في الدنيا فلا نحتمل ، قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ)

[سورة الكهف : الآية 110]

اللقاء الذي نألفه ، والذي نحتمله ، والذي يليق بكمال الله عز وجل ، قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

اعمل عملا صالحا للقاء الله :

لو أنّ جنديًا غرًّا التحق بالثكنة قبل يومين ، وهذه الفرقة كبيرة جداً على رأسها لواء ، لا يمكن أن يقابله لا عميد ، ولا عقيد ، ولا رائد ، ولا مقدم بسبب مكانته ، أيستطيع هذا الجندي الغر أن يدخل عليه بلا استئذان ؟ مستحيل ، أما هذا الجندي لو أنه رأى ابن هذا القائد يسبح في مسبح ، وأوشك على الغرق اختناقاً ، وألقى بنفسه ، وأنقذه ، وعلم الأب هذا ألا يستطيع هذا الجندي الغر الذي لم يمض على التحاقه بالثكنة أربعة أيام أن يدخل على باب هذا القائد من دون استئذان ، بلى ، يستطيع ، لأن وجهه أصبح أبيض ، معه عمل ، لذلك الأمر بسيط جداً ، قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

أكرم عباده ، وأصدقهم وأنصحهم ، لا تبتزّ أموالهم ، لا تؤذهم في حاجاتهم ، لا تؤذهم في مساكنهم ، لا تملأ قلبهم خوفاً منك ، قال الرسول الكريم :

((الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[ورد في الأثر]

لا تقل لإنسان : من أين أنت ؟ فهو عبد مأمور ، إن أكرمته فكأنك أكرمت ربك ، فإذا مرّ بك صديق ، ومعك ابنك الصغير ماذا يفعل هذا الصديق كي يتقرب إليك ؟ يخرج من جيبه قطعة حلوى ، ويقدمها إلى ابنك ، هي في الحقيقة لك ، توسل هذا الصديق إليك عن طريق ابنك ، هذا المثل دقيق جداً ، إن أردت أن تُكرم ربك فأحسن إلى عباده ، والأصح أحسن إلى خلقه ، إنك إن أحسنت إلى هرة ، أو إلى كلب مريض لو عالجت أحد مخلوقاته لكان الله شاكراً لك ، هذا هو الدين بكل بساطة أي هناك بعض الآيات التي قالها سيدنا عيسى

قال تعالى :

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم : الآية 31]

لو أردت أن تضغط الدين كله في كلمتين اتصال بالخالق ، وإحسان إلى المخلوق ، أي حركة نحو السماء وحركة نحو الأرض ، اتصال بالخالق وإحسان إلى المخلوق ، هذا هو الدين ، هذه حقيقة الدين ، قال تعالى :

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ)

[سورة آل عمران : الآية 52]

1 ـ الله يمحّص ويميّز الصالح من غيره :

أحياناً الله عز وجل يقوم بفرز ، الهجرة كانت فرز لمن دخل بالإسلام ، لكن هو معتز بقومه متعلق ببيته ، وماله ، وأقرانه ، وأقربائه ، فلما هاجر النبي رفض أن يهاجر ، فهذا فُرز من الهجرة ، الهجرة فرز ، حديث الإسراء والمعراج فرز آخر ، كل شيء منطقي ، أما هذا فغير معقول ، يذهب إلى بيت المقدس ، ويعود في زمن قصير ، فهذا شيء غير معقول ، فالذي سمع حديث الإسراء ، والمعراج ، ولم يكن إيمانه بالله قوياً اهتز ، وهناك من ترك النبي عقب الإسراء والمعراج ، فالله عز وجل يفرز ، قال تعالى :

(مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران : الآية 179]

2 ـ الفتنة ابتلاء :

الله يبتلي بفتنة أحياناً لحكمة أرادها فيُفرز الناس ، ففي معامل الإسمنت كل طبخة تُصب في مكعبات معينة ، وهناك جهاز يمتحن قوة تماسك هذه الطبخة ، فهناك مكعب إسمنتي يُمسك من أعلاه ، وهناك كفة ميزان في أسفله تُوضع عليها الأثقال تباعاً ، فعلى أي وزن انكسر تكون هذه قوة مقاومته ، الإسمنت يتحمل قوى ضغط ، وهي خمسمائة وخمسون كيلوغرامًا على السنتيمتر المربع ، لكن لا يتحمل شد أكثر من خمسة كيلوغرامات على السنتيمتر المربع ، لا بد من إسمنت مسلح ، لأنه لا يتحمل الشد يُكسر ، بينما الضغط خمسمائة وخمسون كيلوغرامًا يتحملها مكعب من الإسمنت ضلعه سنتمتر واحد ، أما على الشد فلا يحتمل قوة خمسة كيلوغرامات ، هذا مثل ، وكل مؤمن عنده قوة تماسك ، فهناك مؤمن يفقد تماسكه بضغط معين أما سيدنا بلال فقد وُضع على الرمضاء في أيام الصيف الحارة، ووُضعت على صدره صخرة ليكفر بمحمد ، وهو يقول : أحد أحدٌ ، فقوة تماسكه عجيبة ، سيدنا سعد بن أبي وقاص ضغطت عليه أمه ، إما أن تكفر بمحمد ، وإما أن أدع الطعام حتى أموت فقال لها : يا أمي لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة واحدةً ما كفرت بمحمد ، فكلي إن شئت أو لا تأكلي . فكل مؤمن له قوة تماسك ، هناك مؤمن قوة تماسكه عجيبة جداً لا تستطيع سياط الجلادين اللاذعة ضغطاً ، ولا سبائك الذهب اللامعة إغراءً أن تثنيه عن هدفه ، قال تعالى :

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ)

3 ـ حتمية أزلية المعركة بين الحق والباطل :

هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، لابد لهذه المعركة ، والناس لهم ولاءان ؛ ولاء للحق أو للباطل ، والمعركة مستمرة ، والله لابد من أن يفرز عباده المؤمنين ، قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

وقال :

(قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران : الآية 52]

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُون

هنيئًا لمن كان من أنصار الإسلام :

أنا أقول لكم : أيها المؤمنون هنيئاً ، وألف هنيئاً لمن كان من أنصار الله ، لمن كان جندياً للحق ، لمن كان في خدمة الحق ، لمن وظف طاقاته في خدمة الحق ، لمن أنفق ماله في سبيل الله ، لمن أنفق وقته في سبيل الله ، لمن أنفق علمه في سبيل الله ، لمن أنفق خبرته في سبيل الله ، لمن أنفق عضلاته في سبيل الله ، هنيئاً له هو الرابح الأول ، والويل لمن كان في خندق مضاد للحق ، قال تعالى :

({فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران : الآية 52]

هنيئاً لمن كان من أنصار الله ، ولمن وضع كل طاقاته في سبيل الحق ، ولا تقلق على هذا الدين ، لأنه دين الله ، لكن اقلق ما لم سمح الله لك أن تنصره أو لم يسمح ، فإن كنت في خندق آخر فالنتيجة معلومة، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

[سورة الأنفال : الآية 36]

(قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران : الآية 12]

إذا كان الله معك كان كل شيء معك ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(17-60): تفسير الآيات 54 - 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-03-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السابع عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 54]

وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ

1 ـ لا أحد يستطيع أن يطفئ نورَ الله :

الإنسان بضعف إيمانه يدبر تدبيراً ليُحبط الحق ، أو ليُطفئ نور الله عز وجل ، لضعف إيمانه يظن أنه مستطيع أن يفعل شيئاً ، وأن يُلغي حُجة ، وأن يُطفأ نوراً ، وأن يُضِل الناس ، غاب عن هذا الإنسان الساذج والجاهل أن الله سبحانه وتعالى مُتِمٌ نوره ، ولو كره الكافرون .

لو أن رجلا واحداً من بين البشر أيها الإخوة وقف ، وتوجه نحو أشعة الشمس ، ونفخ نفخة بكل ما أُوتي من قوة ليطفئ لهيبها ، أين مكانه ؟ في مشفى المجانين ، لأنه لا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن ينفخ نفخة فيطفئ بها نور الشمس ، قال تعالى :

(يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[سورة التوبة : الآية 32]

لذلك قالوا : ما ضر السحاب نبح الكلاب ، وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بحجر ، ولو تحول الناس إلى كنَّاسين ليثيروا الغبار على الإسلام ما أثاروه إلا على أنفسهم ، وكم من إنسان جبار قوي أراد أن ينهي الإسلام ففطس هو وأمثاله ، وبقي الإسلام شامخاً كالطود .

فالإنسان الجاهل يمكر بأهل الحق ، يمكر بأتباع الأديان ، يمكر ليطفئ نور الله ، لكنّ الله عز وجل يقول :

(وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ)

[سورة آل عمران : الآية 54]

2 ـ معنى مكْر الله :

ولكن شتان بين مكر الإنسان ومكر الله عز وجل ، لكن العلماء قالوا : هذه مشاكلة بلاغية ، الله عز وجل لا يمكر ، لأنه لا يمكر إلا الضعيف دولة قوية جداً تقول قبل أسبوع : أنا سأهاجم هذا البلد ، من الذي يُفاجِئ ؟ الضعيف ، فكل إنسان يعمل ، ويُدبر في الخفاء هذا دليل ضعفه ، لأنه لو اكتُشِف لمُحِق ، فالضعيف يمكر ، وليس من شأن الله الضعف ، لذلك الله في الحقيقة لا يمكر ، ولكن يُدبر ، ولكن ردَّ على مكرهم بمكر مشابه ، هذا اسمه في اللغة مُشاكلة ، يأتون بشاهد في كتب البلاغة : أنطبخ لك طعاماً ، قال : لا ، اطبخوا لي جُبَّة وقميصاً ، هو بحاجة إلى جُبَّة وقميص لا إلى طعام ، فقال : اطبخوا لي جُبَّة ، الجُبَّة لا تُطبَخ ، ولكن أورد هذا الكلام على سبيل المشاكلة ، لذلك لا يجوز أن تقول : الله ماكر ، لكنّ مكر الله هو رد على مكر هؤلاء ، تدبير ، رد ، قال تعالى :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّه)

إذا كنت مع الله فلا تخشَ أحداً ، لأن الله يمكر لك ، وإذا كان الإنسان مع شهوته ومع مصالحه المادية، فإن الله يمكر عليه ، وشتان بين أن يكون الله معك يمكر لك ، وبين أن يكون عليك فيمكر عليك .

أنت ضعيف لا تقوَ على فعل شيء ، لكنّ المؤمن بطاعته لله واستسلامه له وتوحيده إياه يمكر الله له :

كُن عن همومك مُعرضا و كِل الأمور إلى القضا
و ابشر بخير عاجــلٍ تنسى به ما قد مضــى
فَرُبَّ أمر مسخط لــك فـــي عواقبه رضــا
و لربما ضاق المضيـق ولربما اتَّسع الفضـــا
الله يفعل مــا يشـــاء فلا تكن معترضـــا
الله عوَّدك الجميــل فقِس على ما قد مضــى

3 ـ البطولة أن نكون أهلاً لأن يدافع الله عنا :

أيها الإخوة ، البطولة أن نكون أهلاً أن يدافع الله عنا ، هنا البطولة ، أن نستحق أن يدافع الله عنا ، أن نستحق أن يمكر الله لنا ، الأمر بيد الله وحده .

مثلٌ بسيط : لو أنّ حاجزاً ضخماً بين فريقين ، الأول يمكر ، ولكنّ الله يرى مكر الطرف الآخر فيُلهم الطرف الأول أن يُحبط مكره ، أنت إن كنت مع الله ، والله مع كل الخلق ، فكل مكر مكره هؤلاء يُنقل إليك .

لمّا أُسِر ابن عمير بن وهب في بدر ، ففي ساعة شجن وألمٍ قال لصفوان بن أمية : **" لولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي ، ولولا ديون لا أطيق سدادها لذهبت ، وقتلت محمداً ، وأرحتكم منه "** ، قال هذا الكلام لصفوان بن أمية ، ولا يعلم أحد بهذا الحديث إلا هذين الرجُلين ، فقال له صفوان : **" أما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر ، وأما ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت ، فامضِ إلى ما أردت "**، فسقى سيفه سماً ، وانتقل إلى المدينة مغطىً بحجة أنه جاء ليفدي ابنه الأسير ، في المدينة رآه عمر رضي الله عنه ، قال : هذا عدو الله جاء يريد شراً فقيّده بحمالة سيفه ، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له : هذا عدو الله جاء يريد شراً ، فقال له : " يا عمر ، أطلقه ، فأطلقه ، ابتعدْ عنه فابتعدَ عنه ، قال له : ادنُ مني يا عمير ، فدنا منه ، قال له : ما الذي جاء بك إليّ ؟ قال له : جئت أفدي ابني ، قال له : وهذه السيف التي على عاتقك ، قال له : قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال له : يا عمير ألم تقل لصفوان : لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها ، ألم تقل لصفوان : لولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت ، وقتلت محمداً ، وأرحتُكم منه " ، هذا ما حصل ، أي مؤامرة تمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، ما دام الله مكر فقد أطلعه عليها .

هذا حاطب بن بلتعة الذي أرسل كتاباً إلى قريش : إنّ محمداً سيغزوكم فخذوا حِذركم ، أطلع الله نبيه على هذا الكتاب ، فأرسل صحابيَين جليلين أخذاه من امرأة في موقع اسمه الروضة بين مكة والمدينة ، وجيء بحاطب وسُئل .

مرة أراد اليهود أن يقتلوا النبي عليه الصلاة والسلام ، كان جالسًا في مكان فصعدوا إلى سطح الدار ليُلقوا عليه صخرة يموت فيها ، أطلعه الله ، هذه حالات حادة مع نبي كريم ، أما أنت قد تُلهم أن تذهب من طريق تُحبط به خطة أعدائك ، فإذا كنت مع الله كان الله معك ، وإذا كان الله معك فمن عليك ، من يستطيع أن يدنو منك إذا كان الله معك ، لكنّ كل بطولتك أن تستحق أن يمكر الله لك ، أن تستحق أن يدافع الله عنك ، وأنت من عباد الله شأن أي عبد ، تتمايز عند الله بالتقوى والطاعة ، قال تعالى :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات : الآية 13]

لا أنسى كلمة قالها سيدنا عمر لسيدنا سعد ، سيدنا سعد كان خال النبي عليه الصلاة والسلام ، كان إذا دخل عليه يداعبه ويقول : هذا خالي ، فأروني خالاً مثل خالي ، النبي الكريم هو سيد الخلق ، يداعب صحابيًّا ، ما قال لأحدٍ في حياته : ارمِ سعد ، فداك أبي وأمي ، إلا لسعد ، يا سعد ، فداك أبي وأمي ، هذه مقولة النبي ، فخاطب سعدًا فقال : ارمِ سعد فداك أبي وأمي ، قال : هذا خالي ، أروني خالاً مثل خالي ، فمرة قال سيدنا عمر لسيدنا سعد : يا سعد ، لا يغرَّنك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له .

4 ـ طاعتك واستقامتك ثمن دفاع الله عنك :

كل بطولتك أن تستحق أن يمكر الله لك ، ومهما كنت قوياً ، مهما كنت غنياً ، مهما كنت ذكياً ، مهما تكن لك علاقات متينة جداً ، شبكة علاقات مع أقوياء فهذه كلها لا تنفعك إذا أراد الله أن يمكر بك ، لا ينفع ذا الجَد منه الجَد ، يؤتى الحذِر من مأمنه ، لا يحميك من الله إلا أن تكون مطيعاً له فقط ، لا ملجأ منه إلا إليه ، فأن يستحق مؤمن أن يمكر الله له فهذا يعني أنه مطيع ، مخلص ، مستقيم ، وكل إنسان جاهل ساذج غبي يظن أنّ بإمكانه أن يكيد لأهل الحق ، إياك ثم إياك ثم إياك أن تكون في خندق مُعادٍ للمؤمنين ، لأن الله ولي الذين آمنوا .

أحياناً إنسان يخشى خصمه لأنّ وراءه قوة كبيرة ، قد تخشى شرطياً لأنّ وراءه دولة ، قد تخشى دولة صغيرة لأنّ وراءها دولة كبيرة ، فأنت لا تنظر إلى الخصم ، انظر إلى ما وراءه ، هذه نقطة مهمة جداً، قال تعالى :

({إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم : الآية 4]

ألا يكفيك قول الله عز وجل :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج : الآية 38]

ثمن أن يدافع الله عنك أن تكون مطيعاً له ، مخلصاً في طاعته ، أن تكون من أوليائه ، لأن الله قال :

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ)

[سورة البقرة : الآية 257]

إذاً :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ)

دائماً يقول الله عز وجل :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)

[سورة الحديد : الآية 4]

هذه معية عامة ، معكم بعلمه ، إلا في آيات قليلة يقول :

(وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال : الآية 19]

وقال :

(أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة : الآية 123]

وقوله أيضاً :

(إنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابرِينَ)

[سورة الأنفال : الآية 46]

وكذلك :

(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت : الآية 69]

أي معهم بالحفظ ، بالتأييد ، بالنصر ، بالتوفيق ، هذا الدعم الذي لا حدود له أن يكون خالق الكون معك ، ثمنه أن تطيعه ، قال تعالى :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

وقال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

[سورة الأنفال : الآية 36]

سأضرب بعض الأمثلة للتوضيح ، هناك لعبة السيارات الكهربائية ، فقد تجد معركة بين مجموعتين ، أما الذي بيده قطع التيار الكهربائي فبحركة يسيرة يوقف هذه المعركة كلها ، قد تجد آلة ضخمة تحمل عشرات الأطنان من الحديد على أساس مغناطيس كهربائي ، فالعامل بضغطة بسيطة لا تزيد على ربع ميليمتر إذا قطعت هذه الضغطة الكهرباء تسقط كل هذه الأحمال ، الله عز وجل بضربة واحدة ، أحياناً الكافر يؤتى من مأمنه ، من بعض الأدعية : **" اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم "** .

يدبر ، ويفكر ، ويتأمل ، ويبحث ، ويدرس ، ويجمع ، ويضرب ، ثم يأتي بخطة تكون سبب تدميره .

وهذا مثل سأرويه لكم من التاريخ الحديث ؛ أراد اليهود قبل أربع سنوات فيما أذكر أن يأخذوا رهائن من بيوت الله في ليلة القدر ، هيؤوا طائرتين ، وفي الطائرتين نخبة ضباطهم ، خمسة وسبعون ضابط كومندوُس ، وكل ضابط كلفهم ملايين ، وهو يتقنون الصراع الياباني ، يتقنون السلاح الأبيض ، يتقنون اللغة المحلية ، تدريبات عالية جداً ، فهم أثمن ما في الجيش اليهودي ، وقعت الطائرة العليا فوق السفلى، ووقعتا فوق مستعمرة إسرائيلية ، ومنذ أن أنشئت إسرائيل حتى الآن ما مُنيت بهزيمة من عند الله مباشرة ، لو نستحق أن يتدخل الله من أجلنا لرأينا العجب العُجاب ، لو كنا معه دائماً ، لو كنا على طاعته مقيمين ، لو كنا مخلصين لمكر الله لنا ، ليس هناك شيء اسمه قوي في الأرض ، الله هو القوي، الطرف الآخر قد يكون معه قنابل ذريّة ، قد يكون معه أشياء مذهلة ، مركبة فضائية تُعدُّ تحدياً ، واسمها المتحدي ، بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب ، مع الله لا يوجد دولة قوية ، لا يوجد أسلحة ذرية ، ولا طائرات شبح ، ولا أشعة ليزر ، لا

شيء مع الله ، أما أن تكون المعركة بين حقين فهذا لا يكون ، هذا شيء مستحيل ، لأن الحق لا يتعدد ، وبين حق وباطل لا تطول ، لأنّ الله مع الحق، لكن بين باطلين لا تنتهي ، هذا سماه بعض العلماء النصر التكويني ، بين فئتين بعيدتين عاصيتين لله عز وجل من كان عنده أسلحة أقوى فهو المنتصر، تصور طائرة معها مدفع مداه المُجدي سبعة كيلو مترات ، وهناك دبابة مدفعها مداه المُجدي ثلاثة كيلو مترات ، فهذا يعني أنّ طائرة واحدة مداها سبعة كيلو مترات تحطم مئتي دبابة ، فإن كان لم يكن الحق بالجهتين فالنصر للأقوى ، من كان معه سلاح متطور أكثر ، من كان عنده قدرة على تصوير أرض المعركة ، فإذا خلا الإيمان فالحديث عن الأسلحة والطائرات ، والمدى المُجدي ، وتطور السلاح ، والقنبلة العنقودية ، والقنبلة الذرية ، وأشعة الليزر ، هذا كله تتحدث عنه ، أما إن كان أحد الطرفين مؤمنا انقلبت كل موازين القوى رأساً على عقب ، وبآيات كثيرة جداً .

الذي أتمناه أن يستحق كل منا أن يمكر الله له ، أن نكون أهلاً كي يدافع الله عنا ، ومكروا ومكر الله ، أرادوا أن يقتلوا السيد المسيح ، بعضهم أراد أن يخبر الملك الذي كان ضد النصرانية ، كان يُعَبِّدُ النصارى ، الذي دل عليه ليُقتل ألقى الله عليه صورة السيد المسيح ، فهذا الذي صُلِب ، قال تعالى :

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ)

[سورة النساء : الآية 157]

الذي دل عليه هو الذي صُلِب ، لذلك قال تعالى :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

5 ـ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين

َأما خير الماكرين أي أن مكره هو المُجدي ، هو الفعَّال الذي لا يخطئ ، مكره المخيف ، ومكره الذي يعود بالخير على الطرفين ، ينصر المؤمن بمكره ، ويردع الكافر بمكره ، أول معنى مكره عظيم ، ومكره سريع ، وفعّال ، ولا يخطئ ، ومكره مخيف ، قال تعالى :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج : الآية 12]

ومع ذلك مكره يعود بالخير على الطرفين معاً ، قال تعالى :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

ومن أدعية النبي عليه الصلاة والسلام :

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ))

[ابن ماجة ، الترمذي]

واسألوا الله عز وجل موجبات أن يدافع الله عنا ، اسألوا الله موجبات أن نستحق أن يمكر الله لنا ، لا أن يمكر علينا ، لأنه إذا هان أمر الله علينا هُنّا على الله ، إذا هان أمر الله علينا هُنّا على الله ومُكِر بنا .

وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ

قال تعالى :

(وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم : الآية 46]

ومكروا مكرهم أي الكفار ، الآن يجربون الأدوية في العالم الثالث ، كانوا قبل هذا على بقية من خلق يجربون أدويتهم على الفئران ، الآن تُجرب على بني البشر في دول متخلفة ، الآن يقدمون مساعدات في ظاهرها هي إعانات ، وفي الحقيقة نفايات ذرية ، تُزرع في بلاد العالَم الثالث ، ليتخلصوا منها ، قال تعالى :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

يخططون لإفقار المسلمين وإيقاع الفُرقة بينهم وتشتيتهم وتدميرهم ، قال تعالى :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

لتزول منه الجبال ، هو كلام الله ، قال تعالى :

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

[سورة إبراهيم : الآية 47]

وقال :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم : الآية 42]

وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً

لكنّ الآية التي ينبغي أن تملأ قلوبنا أمناً وراحة ، لكن لها ثمن ، هي قوله تعالى :

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

[سورة آل عمران : الآية 120]

خالق الكون يقول ذلك ، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعده للمؤمنين ، وإن تصبروا وتتقوا أفراداً وجماعات ، فرد لوحدك ، أطع الله ، واصبر على طاعته ، واصبر عن معصيته ، واصبر على قضائه وقدَره ، واتق أن تعصيه ، لو كان خصمك أقوى إنسان في العالَم يُحبط الله مكره ، هذه للأفراد وللجماعات ، قال تعالى :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

مثلاً : شخص ما معه أسلحة فتّاكة ومتطورة ، وآخر معه شفرة ، فقط وتوَعد ، والذي معه الأسلحة الفتّاكة قال لك : أنت في حمايتي فلا تخف ، قال الشاعر :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول السلامة يا مَرْبعُ

العِبرة أن لا يكون الله ضدك ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك ، والله عز وجل يُظهر آياته ، أما رأيتم إلى دول عظمى انهارت كبيت العنكبوت ، والذي يتوقع انهيارها يُوضع في مشفى المجانين ، قلعة من قلاع الكفر تلاشت ، قال تعالى :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

وهذا القطب الواحد المتحكم بالعالم له عند الله تدبير ، لا تيأسوا ، له عند الله تدبير حكيم ، إنّ الله لا بد أن يُظهر آياته للخلق ، لا يسمح الله لجهة أن تدَّعي الألوهية إلى أمد طويل ، هم يدَّعون الألوهية ، هم أسياد العالم ، القطب الوحيد الذي يملك ُمَقدَّرات الشعوب ، هذا كلام بكلام ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

[سورة يونس : الآية 24]

هناك نماذج لبلاد متقدمة جداً وغنية جداً ، والطب متقدم جداً ، أطعموا الأبقار طحين اللحم المجفف ، اجتهاداً منهم ليغيروا خلق الله ، فجُنَّ البقر ، وما جنون البقر إلا من جنون البشر .

الآن هناك مشكلة عالمية ، ثلاثة وثلاثون مليار جنيه إسترليني خسارة بريطانية من لحوم الأبقار ، وهم مضطرون أن يحرقوا ثلاث عشرة مليون بقرة ، الأسواق كلها أصبحت مغلقة أمامهم ، من جاء بهذا المرض ، فمهما كان الإنسان متقدما فالله عنده جنود لا يعلمها إلا هو ، الإيدز هو جندي من جنود الله عز وجل ، هذا رد على الإباحية ، قال الله عز وجل :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم : الآية 41]

هذا الداء لا دواء له .

بعض معلوماتي الدقيقة أننا إذا أردنا أن نفحص دماءنا فحصاً شاملاً لنطمئن على سلامتنا من هذا المرض ، هذا الفحص سيكلفنا عشرين ألف ليرة سورية ، أما الفحوص العادية فهي فحوص غير مُجدية، والسبب أنّ هذا الفيروس له ستة أشهر يكون موجوداً في الدم ، ولا تظهر الأعراض ، ويسمونه صمتا مخبريا ، ممكن أن يفحص شخص دمه ، ويكون بريئًا من هذا المرض بفحص بسيط ، وهو مصاب بهذا المرض ، فالمشكلة كبيرة ، لأنه لا دواء لهذا المرض ، هذا هو مكر الله عز وجل ، هذا من جنود الله عز وجل ، والله عنده أوبئة وأمراض لم تكن في أسلافنا ، عنده أعاصير ، وكل إعصار يكلف ثلاثين مليارًا ، قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ{6} إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ{7} الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر]

أحياناً تذهب إلى بلدة تقول : لا مثيل لها في العالَم ، هذه عادٌ الثانية ، لم يُخلق مثلها في البلاد ، من خصائصها أنهم يقولون : من أشد منّا قوة ، لا يوجد رحمة ، هناك قهر واستغلال ، هناك جلب لأموال العالَم كلها إليهم مثلاً ، قال :

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

[سورة الفجر : الآية 8]

كيف أهلكوا ؟ قال تعالى :

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ{6} سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ{7} فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ)

[سورة الحاقة]

انظر إلى أهرامات مصر ، انظر إلى آثار الرومان ، أين هؤلاء ؟

مَن كان الله معه فهو أقوى إنسان :

أيها الإخوة ، هذا كلام يقوي معنويات المؤمنين ، حاول أنت أن تكون أهلاً كي يدافع الله عنك ، حاول أن تكون أهلاً كي يمكر الله لك لا عليك ، كن لنا ولا تكن علينا ، قال تعالى:

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

أقوى إنسان في الأرض من كان الله معه ، وأضعف إنسان لو أنه مَلَكَ الدنيا من أطرافها ، أضعف إنسان من تخلى الله عنه .

قيل لأحد الخلفاء ، وقد طلب كأس ماء : " يا أمير المؤمنين ، بكم تشتري هذا الكأس لو مُنع منك ؟ قال: بنصف مُلكي ، قال : فإذا مُنع إخراجه ، قال : بنصف ملكي الآخر " ، فملكه كله يساوي كأس ماء تشربه ويخرج ، فأنت قوي بالله ، غني بالله ، عالٍ بالله ، لو ابتعدت عن الله فأنت ضعيف مقهور ، وأضعف الناس يقوى عليك ، إن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، قال تعالى :

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

كما قالوا : فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، إن كان في الكون مئة ألف مليون مجرَّة ، وفي كل مجرَّة تقريباً مئة ألف مليون نجم ، وأرضنا هي كوكب صغير في مجموعة اسمها المجموعة الشمسية تمثل نقطة في مجرة معتدلة متوسطة اسمها درب التبانة ، هذا الكون الفسيح ، وهذه المجرات ، وهذه الأرض والسموات وهذا الخلق العظيم ، قال تعالى :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً)

[سورة طه : الآية 105]

فهذا هو الله ، الأمر كله بيده ، وهو معكم أينما كنتم ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود : الآية 123]

وقوله تعالى :

(مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف : الآية 26]

وقال :

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

[سورة فاطر : الآية 2]

أيعقل أن نبتعد عنه ، وأن نتقوى بغيره ، وأن نلجأ لغيره ، وأن نضع ثقتنا بغيره ، وأن نخاف غيره ، وأن نرجو غيره ، وأن نطيع غيره ، هذا مستحيل ، قال تعالى :

(وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ* إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ)

[سورة آل عمران]

إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيك

1 ـ معنى التوفّي :

التوفي إما في الموت أو في النوم ، لكن جرت آيات القرآن على أنّ التوفي الحقيقي يكون عن طريق مَلَك الموت ، قال تعالى :

(قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

[سورة السجدة : الآية 11]

وفي آية أخرى :

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

[سورة الزمر : الآية 42]

فهنا : متوفيك ، أي أن الله سبحانه وتعالى رفع هذا النبي الكريم إليه ، قال تعالى :

[سورة آل عمران : الآية 55]

2 ـ نزول عيسى في آخر الزمان حقٌّ :

أي أنه سيرجع ، وسيتبعه أناس كثيرون ، وسوف يكونون فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، هذا معنى من معاني هذه الآية ، نعتقد نحن المسلمين اعتقاداً جازماً أنّ هذا النبي الكريم سوف يرجع ، وسوف يكون رجوعه من علامات قيام الساعة ، قال تعالى :

(وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا)

[سورة الزخرف : الآية 61]

وقال :

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

[سورة المؤمنون : الآية 50]

قال بعض المفسرين : إنها ربوة دمشق ، وقال بعضهم : إنه ينزل في دمشق ، هناك أحاديث وآيات كثيرة تؤكد هذه الحقيقة ، قال تعالى :

(إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

[سورة آل عمران : الآية 55]

هذا النبي الكريم أصبح موطن خلاف ، محط خلاف ، الحقيقة عند الله ، وسوف ينبئ الله بها كل خلقه يوم القيامة ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{56} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{57} ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

[سورة آل عمران]

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ

أي الذين كفروا بنبوّته ، الذين كفروا فريقان ؛ فريق ادّعى أنه إله ، وفريق ادّعى أنّ أمه زانية ، هؤلاء الفريقان معاً كفروا بحقيقة نبوّته ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{56} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{57} ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ{58} إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ{59})

[سورة آل عمران]

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُون

1 ـ الكون له سنن وقوانين يخرقها الله لحكمة :

نؤمن نحن أنّ هذه الأرض لها سُنن ، ولها قوانين ، هذه القوانين والسُنن يمكن أن تُخرق من الله سبحانه وتعالى ، نؤمن أنّ هناك سبباً ، وأن هناك نتيجة ، لكنّ السبب ليس هو خالق النتيجة ، وإنما هو مرافق لها ، حينما نتوهم أنّ الأسباب تخلق النتائج ، فإن ربنا عز وجل حرصاً على إيماننا وتوحيدنا يُعطل هذه الأسباب أو يُلغيها ، فأحياناً السبب موجود لكنه معطّل ، دواء لم يحقق شفاءً ، الله عطّل فاعليته ، وأحياناً شفاء من غير دواء ، أحياناً شابان قويان صحيحان لا يُنجبان جعلهما الله

عقيمين ، وأحياناً امرأة كالسيدة مريم تنجب من دون زواج ، الإنجاب من دون زواج الله ألغى السبب ، والشابان القويان الشديدان الصحيحان ، أي الشاب والفتاة ، وهما عقيمان الله لأن الله يعطّل السبب ، أو يُلغيه إنقاذاً للتوحيد لئلا تعتقد أن السبب خالق النتيجة ، لذلك العالم اليوم عالَمان ؛ عالَم أخذ بالأسباب ، واعتمد عليها وألّهها ، وعبدها من دون الله ، وهو العالَم الغربي ، وعالَم لم يأخذ بها متواكلاً ، فالعالَم الأول وقع في الشرك ، والعالَم الثاني وقع في المعصية ، أما الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، قال تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(57)ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ(58)إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ)

2 ـ خلق عيسى خرقٌ لسنن التناسل البشري :

أن تنجب امرأة من دون زواج هذا مستحيل عادة ، لكنّه ممكن عقلاً ، لأنّ الذي قنّن هذه القوانين يغيّرها بأية لحظة ، أضرب لكم مثلاً قريباً من الفيزياء عنصر حوله مجموعة كهارب في بنيته الذرية ، نواة حولها مجموعة كهارب ، هذا العنصر قوامه صُلب كالصخر ، العنصر الذي يليه بفارق كهروب واحد غازي ، معناه أنّ أي تعديل على بنية الذرة ، كنّا في ماء هو البحر ، سيدنا موسى ضرب هذا البحر بعصاه فأصبحت طريقاً يبَساً ، بأية لحظة الله عز وجل يغيّر خصائص المواد كلها ، على الله كل شيء سهل ، كن فيكون ، لذلك الإنسان ضعيف الإيمان يرى أنّ بعض المعجزات مستحيلة مع أنها ليست مستحيلة ، وأنتم تعلمون أنّ العلم متطور الآن ، لو اطّلع إنسان على ما في حياتنا من تطورات ما صدقها ، لأنها واقعة الآن ، فهناك أشياء لا يمكن أن تُصدَق من قبل ، لأن العقل مرتبط بالواقع ، فالواقع له حدود ، من يصدق أنه بإمكانك أن ترسل رسالة من آخر الدنيا إلى طرف الدنيا بثانية واحدة ، كان هناك الخيول والبريد ، الحمام الزاجل كان يُعدّ فتحاً كبيراً في إرسال الرسائل ، والبريد كانوا يركبون الخيول وشهور حتى يصل البريد إلى بلدة أخرى ، الآن ثانية يصل البريد ، فالعقل قد ينكر لأنه مرتبط بالواقع ، والواقع متطور ، أما المعجزة فهي خرق لقوانين الأرض وقوانين الكون ، قال تعالى :

(الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

[سورة البقرة : الآية 147]

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين

هذا هو الحق ، هذا كلام خالق الكون ، عظمة هذا القرآن أنّه يعطيك فكرة عما سبق ، وعما سيكون ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، أنت أمام تصور كامل من عند خالق الأرض والسماء ، هذا الذي حصل بالضبط ، فلذلك القرآن الكريم كتاب خالق الكون وفيه حقائق واضحة وصارخة

ونيّرة ، فكل إنسان قرأه يحصل عنده شيء يدعى التوازن ، لأنه قدّم لك تفسيرًا دقيقًا للكون ، والحياة ، والإنسان ، قدّم لك تحليلا دقيقًا وتعليلاً لما يجري في الأرض ، وأننا مخلوقون لجنة عرضها السماوات والأرض ، وخُلقت في الدنيا كي تعمل للآخرة ، وهذا شيء منطقي ، أما لو ألغيت الآخرة لتفجر أمامك مليون سؤال ، هناك غنى وفقر ، قوة وضعف ، والحياة قصيرة ، والعمر قصير ، والمتاعب كبيرة ، فمن دون آخرة الإنسان يختل توازنه ، أما إن آمن بالآخرة استعاد توازنه ، فكل شيء واضح .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(18-60): تفسير الآيات 58 - 68
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-03-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثامنة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 56)

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِين

1 ـ المعادي للحق له عذاب شديد في الدنيا والآخرة :

في الدنيا والآخرة عذاباً شديداً ، مَن هذا الإنسان الذي يضع نفسه في موضع يعادي الحق فيه ، يتمنى أن يُطفئ نور الله عز وجل ، من هو الطرف الآخر ؟ هل من الممكن في عالمنا المادي لإنسان ضعيف أن يتصدى لأقوى قوة في الأرض ؟ هذا يعني أن هناك خللاً في عقله .

هناك موازين قوى ، فإنسان ضعيف جداً لا يمكن أن يتحدى ، ويتصدى لأقوى قوة في الأرض ، أما أن يتحدى الإنسان خالق الكون ، أن يضع نفسه في خندق معادٍ له ، فلذلك من هم أشقى الناس على الإطلاق ؟ هم الذين وقفوا في خندق معاد للحق ، ومن هم أسعد الناس على الإطلاق ؟ الذين كانوا جنوداً للحق ، فأعظم شرف يناله إنسان أن يكون جندياً للحق ، أن يكون علمه وماله وخبرته في خدمة الحق قال تعالى :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص : الآية 77)

وقال :

(وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 57)

2 ـ العاقل يختار السعادة الأبدية :

أحياناً الإنسان يقع في حيرة بين شيئين متقاربين ، لكن بين هلاك وسعادة ، بين شقاء وسعادة ، بين موت وحياة ، بين غنى وفقر ، بين عز وذل ، هذه أشياء متناقضة ، فالخيار بينها مستحيل ، هل يختار أحدنا الشقاء في الدنيا والآخرة على نعيم الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن : الآية 46)

أي قُلْ متاع الدنيا قليل ، وقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : الآية 38)

كلام خالق الكون ، وقال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ(56))

إذا شاء الله شيئاً فعله ، كل شيء شاءه الله كان ، وكل شيء كان شاءه الله .

3 ـ لا أحد ينصر من أذلّه الله وأهلكه :

وما لهم من ناصرين ، أي أن الله عز وجل حينما يبطش لا أحد يمكنه أن يتحرك أبداً ، قال تعالى :

(وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

(سورة الحج : الآية 18)

والقاعدة أن الله إذا بطش بإنسان فإن أقرب الناس إليه يتخلى عنه ، وأن الله إذا رحمك يُسَخِّر لك أعداءك يخدمونك ، هذا ما كنت أقوله دائماً ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك.

من هو أسعد الناس ؟ الذي يمشي برضاء الله ، القضية بسيطة ، كل هؤلاء عباد الله .

مرة ذكرت لإنسان بموقع حسّاس قلت له : الله عز وجل عنده سرطان في أي مكان في الجسم ، هناك في الدماغ ، في الدم ، في العظم ، في الجهاز الهضمي ، وعنده خثرة بالدماغ ، هناك مكان للشلل ، وآخر لفقد الذاكرة ، وآخر لفقد البصر ، هناك أيضاً التهاب كبد مميت ، وتشمع كبد ، وفشل كلوي ، وكل مرض يجعل حياة الإنسان جحيما لا يُطاق ، وكل هؤلاء الناس عباده ، وقبل أن تتخذ شيئاً بحق هؤلاء العباد هيئ جواباً لخالقهم ، لِمَ فعلت كذا ؟

أيها الإخوة ، أشقى الناس قاطبة هو الذي كان في خندق معادٍ للحق .

قال تعالى :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ)

(سورة آل عمران)

1 ـ الحق شيء ثابت ، والباطل زائل :

الحق هو الشيء الثابت ، الشيء الذي لا يتبدل ولا يتغير ، حقَّ الشيء أي استقر ، قد تبني حائطاً وفق الأصول ، وفق الشاقول ، هذا الحائط بُني ليبقى ، أما إذا بنيت حائطاً على خلاف الأصول ، هذا الحائط لا بد من أن يقع ، عندنا قاعدة تقول الباطل زاهق ، قال تعالى :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء : الآية 81)

صيغة مبالغة ، وصيغ المبالغة تعني شيئين ، تعني الكم ، وتعني النوع ، أي مليار باطل في الأرض سوف ينتهي إلى زوال ، كم فرقة ضالّة نشأت في الألف سنة الماضية ، أين هي الآن ؟ كم إنسان أراد إلغاء الدين ، أين هو الآن ؟ قال تعالى :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء : الآية 81)

أكبر قلعة من قلاع إنكار الإله تهاوت كبيت العنكبوت ، ذاتياً ، من دون حرب مُعلنة ، قال تعالى :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء : الآية 81)

مهما كان الباطل متعدد فهو زاهق ، وزهوق ، ومهما كان الباطل كبيراً فهو زاهق وزهوق ، من هم أشقى الناس ؟ الذين تصدوا للحق ، وكانوا من حزب الشيطان ، قال تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(57))

2 ـ أهل الباطل لا ينفعهم شيء من عملهم مهما عظُم :

هؤلاء الذين نصروا رسول الله أين هم الآن ؟ في أعلى عليين ، ألا تذهب أنت إلى العُمرة وتقف أمام سيدنا الصدِّيق متأدباً وتُسَلم عليه ، نصر الحق ، وهذا الذي حارب النبي أين هو الآن ؟ سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ اللَّيْلِ بِبِئْرِ بَدْرٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا يُنَادِي :

((يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ، وَيَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَيَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَيَا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا))

[النسائي ، مسلم ، أبي داود ، أحمد]

وتابع قوله :

((لقد كذبتموني وصدَّقني الناس ، وآذيتموني ونصرني الناس))

[ورد في الأثر]

أيها الإخوة ، أسعد الناس على الإطلاق من كان في خدمة الحق ، من وظّف طاقاته ، وإمكاناته ، وقدراته ، وعلمه ، وماله في سبيل الحق ، فهناك إنجازات حضارية مذهلة ، جسور عملاقة ، أبنية شامخة ، أهرامات ، آثار ، الأقوام السابقة مُكّنوا ما لم نُمَكَّن مثلهم ، ومع ذلك أهلكهم الله ، قد تجد إنجازات حضارية كبيرة جداً ، فقد يُقال لك : هذا أكبر مرصد في العالم ، هذا إنجاز حضاري ، هذا أطول جسر في العالم ، وتجد نفقًا تحت البحر بين بريطانيا وفرنسا ، قال تعالى :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان : الآية 23)

هناك إنجازات حضارية لا تُصدَّق ، أن تضع ألف ومئتي كتاب في قرص واحد ، وأحد الكتب خمسون جزءاً ، وبإمكانك أن تقرأها حرفاً حَرفاً في ثوانٍ معدودة ، هذا الشيء لو أنّ واحداً من الأجداد سمع بهذا الخبر لاتّهمنا بالجنون ، ألف ومئتا مجلد في قرص واحد ، بأجمل خط ، والخط مضبوط بالشكل ، ولك أن تبحث بمئة طريقة ، وهذا البرنامج يقرؤها كلها لك ، وفي بضع ثوان تأتيك النتائج ، هذا الشيء إنجاز كبير جداً ، أيركب أربعمائة راكب في الجو بسرعة ألف كيلو متر ؟ يأكلون ، ويشربون ، وينامون ، ويسمرون ، هذا إنجاز كبير ، المراكب الفضائية إنجاز كبير ، قال تعالى :

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان : الآية 23)

ما الذي يبقى ؟ يبقى عمل أُريد به وجه الله ، قال تعالى :

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص : الآية 88)

أي ما ابْتُغِي به وجه الله .

أيها الإخوة : قال تعالى :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة آل عمران)

3 ـ حقائق القرآن لا تُنقض :

أي الحقيقة الثابتة المستقرة التي لا يمكن أن تُنْقض ، ولا أن تُخَطّأ على الإطلاق ، هو ما جاء من عند الله ، أي أن الله عز وجل قال في هذا القرآن : إن البشر بدؤوا بآدم ، لو جاءت مليار نظرية

تثبت العكس فهي باطلة ، وتحت الأقدام ، أجمل شيء عند المؤمن أن له منهجا ، وله كتاب من عند الخالق ، فأيّ كلام ، أي سبق علمي ، أي تطاول على الحق محكوم عليه بالإخفاق .

كنت في بلد سُئِلت عن الاستنساخ فقلت : إن التصميم الإلهي هو الكمال المطلق ، وأيّ تعديل لهذا التصميم يكون نحو الأسوأ ، وقد ورد هذا في القرآن الكريم في قوله تعالى :

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)

(سورة النساء : الآية 119)

وإن هذا الاستنساخ لا يؤكد الحقيقة العلمية ، بل يؤكد غرور الإنسان ، هناك عملية حق وباطل ، فالباطل يريد أن يتحدى خالق الكون ، لكنّ الله يسمح له إلى حين ليَثْبُتَ لمن حوله أنّ حكمة الله لا تعدلها حكمة ، قال تعالى :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة آل عمران)

الحقيقة الصارخة ، الحق الصُّرَاح ما كان من الله عز وجل ، فالمؤمن مرتاح ، أي شيء يقرؤه أو يستمع إليه إذا كان موافقاً للكتاب والسُّنة فهو على العين والرأس ، أما إذا كان مخالفاً للكتاب والسُّنة فينبغي أن يُركل بالأقدام ، لأن الحق من الله .

مثلاً : الله عز وجل قال :

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة النمل : الآية 65)

الغيب لا يعلمه إلا الله :

أنا في هذه الآية أردُّ مليون قصة ، مليون خرافة ، الغيب لا يعلمه إلا الله ، هناك ادِّعاءات ، هناك تخرصات ، هناك ضلالات كلها مردودة ، كل إنسان يدَّعي أنه يعلم السر وأخفى ، قل له أنت كاذب ، الله وحده يعلم السر وأخفى ، الله عز وجل ستر العباد ، لا يستطيع أحد أن يطّلع على خبيئة أحد أبداً ، فأنت عندك آيات ، كل شيء تقرؤه أو تستمع إليه مخالف لهذه الآيات اركله بقدمك ، ولن يقف على قدميه ، قال تعالى :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 60)

آية المباهلة :

الآن أيها الإخوة ، عندنا آية اسمها آية المباهلة ، قال تعالى :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران : الآية 61)

1 ـ دعوة لمن النبي من حاجّه في عيسى إلى المباهلة :

وهنا كلمة فيه تعود على السيد المسيح ، من بعد ما جاءك من العلم ، أي بعد أن أخبرك الله عن حقيقة هذا النبي الكريم ، وعن أنه لم يُقتَل ، وأن الله رفعه إليه ، قال تعالى :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 61)

2 ـ المُنْتَفِع والقوي والغبي لا يُناقشون أبداً :

أحياناً تُدلي بحجة قوية ، لكن الطرف الآخر يعاند ، ويكابر ، ويركب رأسه ، فإذا كان هناك مقاييس مشتركة ، ورغبة في التفاهم ، فالمناقشة والحوار يفيدان ، لكن إذا كان هناك مصالح تتعطل بهذا الحق، فتصير مكابرة هنا ، فأولاً المُنتَفِع لا يُنَاقش ، لأنه منتفع ، وكل إنسان منتفع لا يناقش أبداً ، مستحيل أن يقتنع معك ، وكنت أضرب على هذا مثلاً ، إنسان فقير جداً يعمل عتالاً على دابة ، هذه الدابة ماتت ، دفنها ، ولمعت في ذهنه فكرة رائعة ، أن يبني فوق هذه الدابة التي دفنها غرفة ، يضع لها قبة خضراء، ويَصِفُها بأنها وَلِيَّة من أولياء الله ، ويأتي الناس السُذَّج المغفلون يتقربون بالذبائح والهدايا لصاحب هذا المقام ، هذا الرجل صار غنياً كبيراً ، هل من قوة في الأرض يمكن أن تُقنعه أنّ الذي دُفن هنا في الأرض هو دابة ، هو قناعته أشد من أن تناقشه ، لأنه دفنه بيده ، لكن لأنه منتَفِع ، فالمنتَفِع لا يُنَاقَش ، لا يقتنع معك ، المُنْتَفِع والقوي والغبي هؤلاء لا يُناقشون أبداً ، فحينما يكون الحوار مسدوداً ، أتيته بحجة فرفضها ، هناك دليل عقلي رفضه ، دليل نصي رفضه ، دليل فطري رفضه ، وواقعي ، ونفسي، رفض كل هذا ، يقول أحد العلماء : " ما ناقشني جاهل إلا غلبني ، ولا ناقشت عالماً إلا غلبته"، فالجاهل ليس لديه مقاييس مشتركة ، قال تعالى :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ)

(سورة آل عمران : الآية 61)

هذا هو الحق الذي أخبر الله به قال تعالى :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 61)

3 ـ المباهلة بأغلى ما عند الإنسان :

الابن غال جداً على أبيه ، وأنفسنا وأنفسكم ، أي من يلوذ بنا ، فالإنسان أقرب الناس له أولاده ، وزوجته ، وإخوته ، وأخواته ، هؤلاء يلوذون به ، وهم أثيرون عنده ، قال تعالى :

(فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 61)

الله ينتقم من الظالم :

حدثني أخ طبيب عافاه الله فقال : جاءني مريض ، ومعه زوجته مصابة بمرض خبيث في صدرها ، وانتشر انتشاراً كبيراً ، فقال لي : من شدة ألمي وغَيرتي على مرضاي وبَّختُ الزوج ، وقلت له : لماذا تأخرت بالمجيء إلي ؟ هذا الورم في بدايته يُستأصل ، يُعالج بالأشعة ، بالأدوية الكيماوية ، أما بعد أن يتفاقم ، وينتشر في معظم الصدر فلا يوجد أي حل له ، قال لي : وبخته توبيخاً شديداً بيني وبينه ، فقال لي : أنا لم أُهمل ، أنا كنت عند فلان من سنتين ، ولم يقُل لي بأنه ورم خبيث ، قال لي : هو التهاب ، وأعطاني أدوية كورتيزون ، ومُسَكِّنات طوال هذه المدة ، فقال لي هذا الطبيب الجرَّاح : إن طالب طبٍّ يعرف أنّ هذا المرض هو ورم خبيث ، لكن لو قال له : مرض خبيث لانصرف عنه ، لكنه أبقاه عنده سنتين ليأخذ من ماله ، قال لي : عندما سمع الزوج هذا الكلام صُعِق ، وقع على الأرض ، وخاطب الله، قال له : يا رب إذا كنت موجوداً فانتقم منه ، فربط انتقام الله بوجوده ، والله حدّثني هذا الطبيب حديثاً يُبكي ، قال لي : بعد أحد عشر شهراً جاءني شاب ، لكنه متهالك ، جلس على الكرسي الذي جلس عليه زوج المريضة ، بالمناسبة لقد توفيت بعد ستة أيام ، قال له : أنا زميلك فلان ، ومعي مرض في صدري ، كان هو الطبيب نفسه الذي أبقاه عنده سنتين يغشّه ، ابتلاه الله بالمرض نفسه ، فعندما يكون الإنسان معه حُجة قوية يتفلسف على الناس ، وإن الله عز وجل له رد .

أحياناً يكون هناك زوجان ؛ أحدهما ظالم ، والآخر مظلوم ، فعندما يتدخل ربنا يَقْصِم الظالم ، أحياناً شريكان ، أحدهما مظلوم ، فيتدخل الله عز وجل ، ويقصِم الظالم ، فإذا كان الشخص الآخر متفلسفا ، متحذلقا ، منتفعا بكفره ، دجّالا ، نصّابًا ، وقويًّا أكثر منك ، ولا سبيل لإقناعه ، كل الطرق مسدودة ، قال تعالى :

(فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ(61))

4 ـ المباهلة لا تُستعمَل إلا في الأمور الكبيرة المهمة :

يا رب أنت الحق ، فأظهر الحق ، والعن المُبطل ، قال العلماء : لا يجوز استخدام هذه المباهلة في الأمور التافهة ، إلا في أمور كبيرة جداً ، عندما يكون طريق التفاهم مسدودًا ، ولم يبق إلا طريق الدعاء :

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)

(سورة القمر : الآية 10)

حينما ترى الطريق مسدوداً إلى إقناع الطرف الآخر برفع الظلم عن الآخرين فقل : يا رب ، اهده ، فإن لم تهدِه فخذه ، وغالباً ما يستجيب الله عز وجل ، فهذه آخر ورقة رابحة في يد المؤمن ، لأن المؤمن يثق بأنه على حق ، جاء بأولاده وأهله ومن يلوذ به ، وقال : يا رب ، دمِّر المُبطل منا هو وأهله .

وهناك قصص لا تُعدُّ ولا تُحصى حول هذا الموضوع ، يمكن للإنسان أن يتجاوز حدوده ، أن يعتدَّ بقوته وجبروته ، يقول : من أشد مني قوة ؟ ومع ذلك فالله عز وجل يمد له الحبل ، ويرخيه إلى أن يحين الحين ، فإذا هو في قبضة الله عز وجل ، فمن هو العاقل ؟ هو الذي يخاف الله قبل أن يأتي البطش ، من هو الجاهل ؟ هو الذي يعرف الله عند البطش .

كان هناك شخص تستخدمه شركات الإعلان للدعاية للدخان ، وكان شاباً وسيماً ، رشيقاً ، يرتدي ثياب الكاوبوي ، وكان يُدخن ، ويقول : تعالوا إلى حيث النكهة ، هذا مات بالسرطان بسبب الدخان ، قال وهو على فراش الموت : كنت أكذب عليكم ، الدخان قتلني ، قال الله عز وجل :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج : الآية 12)

لا أحدَ أشدُّ من الله قوة وبطشًا:

أحياناً إنسان يظلم زوجته ، ويظن أنه ما من أشد منه قوةً ، يبطش الله به بطشاً يجعله يعوي كالكلاب .

أحياناً إنسان يبطش بشريكه ، مرة توفي أب ، وترك خمسة أولاد ، وأكبر أولاده كان ظالماً ، أخذ الثروة كلها ، وجعل إخوته فقراء ، وما زال الله يدمره حتى عمِل عند أصغر إخوته محاسباً .

لله رد إلهي مخيف ، إكرام أو بطش ، فأنت تكلم ما شئت ، ائت بالحجج التي تريد ، وهي غير صحيحة ، لكنّ الله يتولى أن يُعَرِّفَك بالحقيقة ، فالعبرة أن ترضي الله عز وجل ، لأن الله عز وجل بطشه شديد ، وليس معه ذكي أبداً ، لا ينفع ذكاؤك عند الله ، ويؤتي الحَذِرَ من مأمنه ، وكم من إنسان ابتُلي باختصاصه ، متخصص بأمراض كذا ، يصاب بمرض عضال في اختصاصه ، وهو معتدٌّ بنفسه وبأنه قوي ، يقول : هذا اختصاصي ، مستحيل أن أخطئ فيما أنا مختص به ، يُبْتَلى باختصاصه قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج : الآية 12)

هذه هي المباهلة ، طريق الحوار مسدود ، الخصم متحذلق ، قوي ، لا يُناقش ، مستعل ، متكبر ، متغطرس ، ليس هناك طريق آخر إلا الدعاء ، قال تعالى :

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ(61))

أحد كبار العلماء أقام مناظرة مع خصوم ، وكانوا مبطلين ، فدعاهم إلى بيت الله الحرام ، لتكون المباهلة هناك ، لم يأت أحد من خصومه ، خافوا ، فإذا قلت لإنسان : شكوتك إلى الله ، فالطرف الآخر إن كان يعرف من هو الله فينبغي أن ترتعد فرائصه ، كم من إنسان حلف يميناً كاذباً ، شُلَّ فوراً ، دُمِّر فوراً .

5 ـ معنى آخر للمباهلة :

هناك معنىً آخر للمباهلة معنىً جانبي ، أي أنت تعمل عملاً تقول : أنا سألت فلانا فقال لي : ليس هناك أي شيء ، افعله ، وعلى مسؤوليتي ، أنت لست مقتنعاً بهذه الفتوى ، لكنّ هذه الفتوى غطَّت هذا الانحراف ، وأخذت هذا المبلغ الحرام ، المقياس الدقيق لصحة عملك هو : هل تستطيع بعد هذا المال الحرام الذي أكلته أن تصلي صلاة صحيحة ؟ هذا مقياس حساس جداً ، هل تستطيع أن تبتهل إلى الله ، وأنت على هذا العمل السيئ ؟ قال تعالى :

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

وقال :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

إيّاك والظلم ولو كنت مغطًى بفتوى المفتين

حينما تأخذ ما ليس لك ، وأنت مغطى قانوناً وشرعاً ، هناك مادة تحميك ، وشرع ، معك فتوى ، وصفت صفة غير صحيحة لشيخ ، أفتى لك ، والفتوى على قدَر الوصف ، فأنت أكلت المال الحرام مغطى بالنص القانوني ، ومعك فتوى من شيخ ، وتزهو كالطاووس ، فإن الله عز وجل يبطش ، إنك تعلم في قرارة نفسك أنك لست على حق ، هذا الإحساس الفطري ، قال تعالى :

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

وقال :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

فحينما تَفْجُرْ تعرف أنها تَفْجُر .

مرة أُجريت مقابلة بين مفتي في الصرب ـ في البوسنة والهرسك ـ مع مندوب إذاعة ، فقال هذا المفتي كلاماً مدهشاً ، قال : إخوتُنا في المشرق لا ينبغي أن يعتبوا على الله من أجلنا ، نحن لسنا مسلمين ، نأكل لحم الخنزير ، ونشرب الخمر ـ يقصد المسلمين المحيطين به ـ الآن بعد هذه الشِّدة أصبحنا مسلمين، بعد هذه الشِّدة تُبنا إلى الله عز وجل ، فالله عز وجل عدل عدلاً مطلقاً ، فلا تتهم الله عز وجل، الله عز وجل ألزم نفسه بالاستقامة ، قال تعالى :

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود : الآية 56)

الاستقامة تعني العدل ، لذلك في الحديث القدسي قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ ذَلِك فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا نَقصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إلا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ ، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ ، أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ ، عَطَائِي كَلامٌ ، وَعَذَابِي كَلامٌ ، إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))

[الترمذي ، مسلم ، ابن ماجة ، أحمد ، الدارمي]

وقال سبحانه :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج : الآية 12)

حدثني أخ يركب مع صديق له في طريقهم إلى المطار ، يبدو أن صديقه كان جاهلاً وغافلاً ، وجد جروًا صغيرًا على طرف الطريق ، فأراد أن يمتحن براعته في القيادة ، فقصّ يدي الجرو الاثنتين ، ببراعة كبيرة جداً ، جرو صغير له يدان ممتدتان ، وبدقة بالغة يدوس على يديه فقط دون أن يقتله ، قال لي : وأطلق ضحكة هستيرية متباهياً بقدرته في القيادة على حساب جرو من مخلوقات الله ، أقسم لي بالله العظيم إنه في اليوم التالي من أيام الأسبوع ، أي أن الحادث كان يوم السبت ، السبت القادم في المكان نفسه إحدى العجلات أصابها خلل ، فوقف لرفع المركبة على جهاز ، الجهاز كان فيه خلل ، فوقعت المركبة فوق العَجَلة والعَجَلة فوق يديه عند رُسغيه ، وإلى أن وصل إلى المستشفى اسودَّت يداه، وكان لا بد من قطعهما ، وقُطِعت يداه من الرُسغين بعد أسبوع واحد من الذي فعله مع هذا الجرو ، قال تعالى :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج : الآية 12)

فالإنسان وإن كان مُفلسفاً ، متحذلقاً ، عنده قوة إقناع ، يقلب الحق إلى باطل ، الله عز وجل يتدخل ، وتَدَخُّله إظهار للحق .

نعيد الآية مرة أخرى :

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ(60)فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

(سورة آل عمران)

خلاصة معاني المباهلة :

إن كنت على حق ، وبذلت كل جهدك لإقناع الطرف الآخر ، استثرت همته ونخوته ومنطقه ، أتيته بالحجج والبراهين والأدلة ، ثم خوَّفته ، فركب رأسه ، وتطاول ، وازداد انحرافاً وظلماً ، عندها ادعُ عليه : اللهم اهده ، فإن لم تهدِه فخذه .

المعنى الآخر ؛ أنك حينما تفعل شيئاً لا يُرضي الله ، وإن كان معك نصوص تغطي هذا الشيء تشعر باضطراب داخلي ، ولا تستطيع أن تتصل بالله عَقِب هذا الشيء ، والإنسان قد يفعل شيئاً مخيفاً لكن مع الحق ، ففرضاً : إنسان يبيع للناس لحمَ حيوان ميتٍ ، هذا ممكن ، وأنت موظف تموين ، إن عاقبته فأنت مُعطى من الله عز وجل ، لأنه يطعم المسلمين لحمَ حيوان ميتٍ ، هنا لا يوجد رحمة ، قال تعالى :

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

(سورة النور : الآية 2)

أنت قد تُسَبب السجن لإنسان ، لكنك أدّيت واجبك الوظيفي ، ورحمت المسلمين ، وهناك حوادث عديدة أن إنساناً يبيع لحم حمير للناس ، وإنسان يبيع الدواب الميتة ، يبيعها طعاماً للناس ، هذا إذا ضُبِط ألا ينبغي أن يُعاقب أشد العقاب ؟ الذي أوقع فيه العقاب هل يخاف أن ينتقم الله منه ؟ أبداً ، لأنه أقام الحق ، ورحم المسلمين ، فحينما تكون مع الحق لا تخف ، أما حينما تبتلي إنساناً ظلماً فيجب أن لا تنام الليل خوفاً من الله ، قال تعالى :

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة آل عمران : الآية 62)

إنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَق

1 ـ قصص القرآن حقّ لا تشوبه شائبة :

ما في القرآن من قصَص هو الحق الصِرف ، لأنّ القاصَّ هو خالق الأكوان ، قال تعالى :

(إنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة آل عمران : الآية 62)

2 ـ الله وحده هو الفعّال المسيِّر المتصرف :

الفعَّال هو الله ، المُتصرِّف هو الله ، المُسَيِّر هو الله ، الذي يرفع ويخفض هو الله ، والذي يعطي ويمنع هو الله ، الذي يُعز ويُذِل هو الله .

وكما قلت فأنت مُخَيَّر ، إن اخترت أن تؤذي المسلمين يأتِ رد الله لك ، يأخذ منك اختيارك ، إذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لُبٍ لُبَّه ، ويوقِعُك في شر عملك ، هذا هو رد الله عز وجل ، قال تعالى :

(إنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ(62))

هذا هو التوحيد ، الدين كله توحيد ، ألا ترى مع الله أحداً ، قال تعالى :

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة آل عمران : الآية 62)

3 ـ الله عزيز لا يُنال جانبه ، حكيمٌ حكمة مطلقة :

أي عزيز لا يُنال جانبه ، حكيم ، فكل أفعاله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

متى يكون الإنسان غير حكيم ؟ إن وقع تحت ضغط لا يقوَى على رفعه فيرتكب حماقة ، ويقول : أنا مُجبر على فعل هذا ، إذا وقع تحت إغراء يقول : والله غلبتني شهوتي ، إما أن يقع تحت ضغط لا يُحتمل فيرتكب حماقة ، أو تحت إغراء لا يُحتمل فيرتكب حماقة أخرى ، أو أن يكون جاهلاً فيرتكب حماقة أيضا ، إن كان جاهلاً ، أو واقعاً تحت ضغط أو إغراء يكون غير حكيم ، هل يمكن أن تكون هذه الحالات الثلاث متناسبة مع كمال الله ؟ مستحيل ، إذاً : حكمته مطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، كل شيء أراده الله وقع ، وكل شيء وقع أراده الله ، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة آل عمران : الآية 62)

وتابع قوله تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 63)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ

1 ـ التولّي ردٌّ للحقّ :

ما أروع هذه الآية ، إن تولّوا أي تولّوا عن الحق ، وأداروا ظهرهم له ، رفضوه ، ردُّوه ، لِمَ لَمْ يقل الله عز وجل : فإن تولوا فإن الله عليم بمن تولّوا ؟ بل قال :

(فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 63)

2 ـ التولّي عن الحقّ فسادٌ :

معنى ذلك أنّ أي إنسان يتولى عن الحق فهو إنسان فاسد ، لأن من لوازم التَوَلّي الفساد ، ومن لوازم القبول الاستقامة ، قال تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 63)

يشبه هذا قوله تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا)

(سورة السجدة : الآية 18)

إن الإنسان حينما لا يؤمن يفسُق .

ونتابع حديثنا بقوله :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

1 ـ ضوابط الحق :

عندنا ضوابط للحق ، ألاّ نعبد إلا الله وحده ، أن نعبد خالق السماوات والأرض ، ماذا قال الله عز وجل ؟ قال :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 31)

2 ـ هذه الآية تنطبق على المسلمين اليوم :

وقد ينطبق هذا على المسلمين أحياناً ، يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، وأنا أقول لكم كلمة حق: إنه ما من فِرقةٍ ضالّة في العالم الإسلامي إلا وتعتمد على تأليه الأشخاص ، وتخفيف التكاليف ، واعتماد النصوص الضعيفة والموضوعة والنزعة العدوانية .

3 ـ النبي بشر كسائر البشر :

النبي عليه الصلاة والسلام قال الله له :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف : الآية 110)

وأيضاً ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ))

[أحمد ، البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبي داود ، ابن ماجة ، الدارمي]

له بشريَّته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة هود : الآية 31)

4 ـ كلّ من أراد الخروج عن بشريته فهو دجّال :

فأيّ إنسان يدَّعي علم الغيب فهو إنسان كذّاب ، ودجَّال ، وقال أيضاً :

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(سورة الجن : الآية 21)

إنّ أيَّ إنسان يدَّعي أنه يملك لك نفعاً أو ضراً فهو دجَّال ، وأيّ إنسان يقول : أنا رُفِع عني التكليف فهو دجّال ، قال تعالى :

إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

(سورة الأنعام : الآية 15)

هذا هو الدين ، فمن هذا الذي يدَّعي أنه مستغنٍ عن طاعة الله يملك لك نفعاً أو ضراً ، و يعلم الغيب ؟ قال تعالى :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 31)

وقال :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

هذا هو الإسلام ؛ خضوع لله ، واتباع لمنهجه ، والافتقار إليه ، قال تعالى :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 65)

أهل الكتاب يحاجون النبي عليه الصلاة والسلام في إبراهيم :

أي أنّ النبي الكريم جاء في كتبهم فحوَّروا وبدَّلوا ، أما إبراهيم لم يأتِ في كتبهم وقد جاء قبلهم فلِمَ يدَّعون أنّ إبراهيم منهم . وقال :

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(66)مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(67)إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

قضية يتحاور عليها أهل الكتاب ، ما إذا كان إبراهيم عليه السلام يهودياً أم نصرانياً ، قال : التوراة والإنجيل جاءتا ، وأنزلتا من بعده ، إذاً : هذا الحوار لا معنى له ، ولم يكن إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وأوْلى الناس بالانتماء إليه هو النبي الكريم ، قال تعالى :

(هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ)

(سورة الحج : الآية 78)

قالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إنِّي دَعْوَةِ أبي إبْرَاهِيمَ وَبشَارَةِ عِيسَى))

[أحمد]

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(19-60): تفسير الآيات 64 - 68
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-04-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والستين، وهي قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

1 ـ وحدة الأصل تعني وحدة الفروع :

هذه الأديان أو هذه الشرائع أليست هي من عند الله ؟ هناك قاعدة أصولية أن وحدة الأصل تعني وحدة الفروع ، فما دامت هذه الشرائع قد جاءت من عند الله عز وجل ، و الله واحد لا شريك له ، إذاً فلابد من وحدة في هذه الشرائع .

القرآن الكريم أشار إلى هذه الحقيقة فقال :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء : الآية 25)

2 ـ نهاية العلم التوحيد :

كل شيء جاءنا من عند الله من خلال الرسل يتلخص بكلمتين : التوحيد والعبادة ، فالدين عقيدة و طاعة ، تصور و سلوك ، فكر نظري و تطبيق عملي .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء : الآية 25)

قال العلماء : نهاية العلم التوحيد ، و نهاية العمل التقوى ، الحقيقة أنا مضطر أن أبين الفرق بين أن تُحَصل علماً أرضياً من جامعات العالم هذا العلم متعلق بخلق الله ، و بين أن تتعرف إلى الله ، فرق كبير بين أن تعرف الله ، وأن تتعرف إلى قوانين خلقه ، قوانين خلق الله عز وجل تعرفها في العلوم

العصرية في جامعات الأرض ، لكنك إذا أردت أن تعرف الله ينبغي أن تتفكر في خلقه ، و في كلامه، و في أفعاله ، إنها المصادر الثلاثة لمعرفة الله عز وجل .

3 ـ ما كل ذكي بعاقل :

النقطة الدقيقة أنه ما كل ذكي بعاقل ، قد يتفوق الإنسان في اختصاصه ، قد يبرع في حرفته ، قد يبلغ الدرجة العليا فيما هو فيه ، أما إن لم يعرف الله و لم يعرف سر وجوده و غاية وجوده فهو عند الله ليس بعاقل ، و الآيات التي تتحدث عن العقل و العلم تقترب من ألف آية :

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 65)

(لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الأعراف : الآية 176)

(لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

(سورة الأنفال : الآية 57)

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة الصافات : الآية 154)

(فَأَنَّا تُصْرَفُونَ)

(سورة يونس : الآية 32)

الآن ربنا عز وجل يبين أن هذه الشرائع من عند الله كلها :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

4 ـ لا طاعة إلا لله ورسوله :

القاسم المشترك ألا نعبد إلا الله ، العبادة لله وحده ، لا يوجد جهة في الأرض مخولة أن تطيعها أبداً ، النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق يقول الله له :

(قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي)

(سورة الأعراف : الآية 203)

أنا متبع ، سيدنا الصديق : إنما أنا مُتَبع ، ولست بمبتدع ، ولا جهة في الأرض مهما علا شأنها يمكنك أن تعبدها من دون الله ، أو أن تطيعها من دون دليل ، هذه النقطة في الإسلام مهمة جداً ، نحن جميعاً نؤمن أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده ـ وحده ـ بينما أمته معصومة بمجموعها ، الله عز وجل أمرنا أن نأخذ من نبيه قال :

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر : الآية 7)

لأنه عصم نبيه من أن يخطئ في أقواله ، وأفعاله ، وإقراره ، وأحواله ، هو المعصوم ، في حياة المسلمين إنسان واحد تطيعه من دون أن تطالبه بالدليل هو رسول الله ، أما غير رسول الله فما من إنسان يمكن أن تطيعه من دون دليل أبداً ، الصديق رضي الله عنه قال : **<< أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>** ، أي راقبوني .

هذه قاعدة أساسية : لا تقبل شيئاً من دون دليل ، ولا ترفض شيئاً من دون دليل ، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

((أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ جَيْشًا ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً ، فَأَوْقَدَ نَارًا ، وَقَالَ : ادْخُلُوهَا ، فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا ، فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا : لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ لِلآخَرِينَ : لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، أبو داود ، أحمد]

النبي ربى رجال ، علمهم كيف يفهمون الأمور ، و كيف يزينون الموضوعات :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

من ينبغي أن تعبده ؟ الذي خلقك :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة : الآية 21)

لأن الخالق هو الصانع ، و قال تعالى :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر : الآية 14)

5 ـ عبادة الله وحده هي السعادة الحقيقية :

لن تجد في الأرض كلها جهة تملك أسباب سعادتك إلا الله ، و هؤلاء البشر حينما تركوا الدين وقعوا في شر أعمالهم ، المجتمعات البشرية في بؤس شديد ، إما في ترف مع التفسخ ، وإما في قهر ، وفقر مع الحاجة ، لأنهم ما اتبعوا منهج الله عز وجل ، و أكاد أقول ما من مشكلة في الأرض على الإطلاق إلا بسبب خروج عن منهج الله ، و ما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل ، والجهل أعدى أعداء الإنسان ، و الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به :

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ(64))

لا ينبغي أن تكون أنت لغير الله ، لا يليق بك أن تكون لغير الله ، لا يليق بإنسانيتك أن تكون لغير الله ، لا يمكن أن تحسب على غير الله ، أنت إنسان خلقك الله ، وكرمك ، وجعلك المخلوق المكرم ،

أنت لله ، الماء للتراب ، والتراب للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان ، والإنسان لله ، وأنت لله :

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ(64))

لذلك قل :

(يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

(سورة العنكبوت : الآية 56)

أيّ مكان في الأرض حال بينك و بين طاعة الله ينبغي أن تغادره فوراً ، منعك من طاعة الله ، لأنك مخلوق لعبادة الله :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات : الآية 56)

ألا نعبد إلا الله لأنه الذي خلق ، و لأنه الرب الممد ، و لأنه المسير ، و لأنه الإله ، ولأنه الخبير ، ولأنه العليم ، ولأنه الغني ، ولأنه القوي ، ولأنه الرحيم ، فكل سعادتك ، وسلامتك بطاعة ربك ، وكل شقائك ، وهلاكك بمعصية ربك ، و هذا معنى قوله تعالى :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 64)

6 ـ الشرك أخطر شيء على وجه الأرض ولا سيما الخفي منه :

إخواننا الكرام ، أخطر شيئاً في حياة المسلمين الشرك ، الشرك نوعان : جلي و خفي ، الجلي فيما أعتقد لا وجود له في العالم الإسلامي في الأعم الأغلب ، ليس في عالم المسلمين إله يُنحت ، و يُعبد من دون الله ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ :

((أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ؟ قَالَ : قُلْنَا : بَلَى ، فَقَالَ : الشِّرْكُ الْخَفِيُّ))

[أحمد ، ابن ماجه]

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ : يَعْبُدُونَ شَمْسًا ، وَلا قَمَرًا ، وَلا وَثَنًا ، وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[أحمد ، ابن ماجه]

إذاً : الشيء الخطير هو الشرك الخفي :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف : الآية 106)

بسبب الشرك الخفي ينافق بعض المسلمين ، بسبب الشرك الخفي يخاف بعض المسلمين أن يطيع الله ، يخافون مما سواه ، بسبب الشرك الخفي يغش المسلم في البيع والشراء ، يرى أن هذا المال الذي سيحصله من خلال الغش أغلى عنده من الله ، من طاعته ، بسبب الشرك الخفي يطيع بعض المسلمين زوجاتهم ، ويعصون ربهم ، بسبب الشرك الخفي تطيع مخلوقاً ، و تعصي خالقاً .

لو أنك وحدت الله لا يمكن أن تعصيه ، لماذا تعصيه ؟ الأمر بيده ، و الرزق بيده ، والصحة بيده ، وأهلك بيده ، وأولادك بيده ، ومن حولك بيده ، ومن فوقك بيده ، ومن تحتك بيده ، فإذا أرضيت الله وحده رضي الله عنك ، وأرضى عنك الناس ، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها ، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها .

إذاً :

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا)

7 ـ كل هذا من مظاهر الشرك فاحذرها :

الشرك أيها الإخوة أخفى من دبيب النملة السمراء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، نملة سمراء ، تمشي على صخرة صماء ، في ليلة ظلماء ، ألا يُسمع دبيب أقدامها ؟ بالتأكيد لا يُسمع ، الشرك أخفى ، أدناه أن تحب على جور ، أي إنسان جاءك منه خير مادي فأحببته ، وهو ليس على ما ينبغي أن يكون ، هذا شرك ، أو إنسان نصحك بأدب جم فانزعجت منه لأنه خدش كبرياءك ، هذا شرك، أن تحب على جور أو أن تبغض على عدل ، حينما ترجو ما عند إنسان فهو شرك ، حينما تخاف من إنسان ، ولا تخاف من الله ، هذا شرك ، حينما تحرص على سمعتك أمام الناس ، ولا تحرص عليها أمام الله ، حين تتجمل أمام الناس ، ولا تُحسن منظر الله عز وجل في قلبك ، طهرت منظر الخلق سنين ، تطلي بيتك ، تنظف مركبتك ، تتأنق في ملبسك ، هذا منظر الخلق ، الخلق ينظرون إليك ، إلى بيتك ، إلى مدخل بيتك ، إلى غرفة الضيوف ، إلى نظافة البيت ، إلى نظافة الجدران ، إلى نوع الأثاث ، إلى تنسيق الألوان ، لكن الله ناظر إلى قلبك ، فيه غش ، فيه حسد ، فيه بغي ، فيه عدوان ، فيه لؤم ، فيه كبر ، فيه غطرسة ، كما ورد في بعض الآثار : **" عبدي طهرت منظر الخلق سنين ، أفلا طهرت منظري ساعة " .**

أن ترجو غير الله ، أن تخاف من غير الله ، أن تعطي لغير الله ، أن تمنع لغير الله ، ألا تغضب لله ، ألا ترضى لله ، فهذا شرك ، و هذا هو الشرك الخفي ، و هذا ما تعنيه الآية الكريمة :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف : الآية 106)

نعوذ بالله من الشرك الخفي :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

بالتأكيد لن تقول لإنسان : أنت ربي ، لكنك تعامله ، و كأنه رب ، تطيعه طاعة عمياء من دون دليل ، ترضيه و لو بسخط الله ، تخافه ، ولو عصيت الله ، اتخذته رباً ، أعطاك توجيها بلا دليل ، فنفذت هذا التوجيه ، نهاك عن شيء واجب فتركت هذا الشيء الواجب ، أمرك بمعصية فنفذتها إنك اتخذته إلهاً ، و اتخذته رباً ، و قد قال الله عز وجل :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 31)

لا تطع أيَّ إنسان مهما كان إنْ أمر بمعصية :

و قد تجد بعض المسلمين لضيق أفقهم ، ولجهلهم يعبدون بعضهم بعضاً ، يكفي أن شيخه قال له كذا ، و لو أمره بمعصية ، لو منعه من طاعة ، يقول لك بالتعبير الدارج لو قال : اللبن أسود ، أسود ، ما علمنا النبي هذا ، علمنا أن نستبصر ، علمنا أن نسأل ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :

((صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِحْدَى صَلاتَيْ الْعَشِيِّ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ..... وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ طَوِيلُ الْيَدَيْنِ يُسَمَّى ذُو الْيَدَيْنِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَسِيتَ الصَّلاةَ أَمْ قَصِرَتْ ؟ فَقَالَ : مَا نَسِيتُ ، وَلا قَصِرَتْ الصَّلاةُ ، فَقَالَ : أَوَ كَذَلِكَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَرَجَعَ فَأَتَمَّ مَا بَقِيَ ، ثُمَّ سَلَّمَ ، وَكَبَّرَ فَسَجَدَ طَوِيلاً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَكَبَّرَ ، وَسَجَدَ مِثْلَ مَا سَجَدَ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَانْصَرَفَ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، أحمد ، مالك ، الدارمي]

نُسِّي النبي لكي يسن لنا سجود السهو ، لو أن النبي لم يسهو في حياته ولا مرة ، هذا الحكم معطل ما كنا عرفناه ، نحن ننسى ، فالنبي ربى أصحابه أن يسألوا ، أن يستوضحوا ، صحابي جليل رأى موقع بدر غير مناسب ، من شدة غيرته و محبته و إخلاصه سأل النبي بأدب جم ، قال : يا رسول الله ، هذا الموقع وحي أوحاه الله إلي ؟ أي إذا كان وحياً و لا كلمة ، أم هو الرأي والمشورة ، فالنبي قال له : لا ، هو الرأي و المشورة ، قال : و الله يا رسول الله ليس بموقع ، يخاطب من ؟ يخاطب سيد الرسل ، يخاطب سيد الأنبياء ، يخاطب الذي يوحى إليه ، يخاطب المعصوم ، فالنبي عليه الصلاة و السلام بخلق رفيع قال: أين الموقع المناسب ؟ فدله عليه ، قال : جزاك الله خيراً ، و أعطى أمراً لأصحابه بالتوجه ، أي المؤمن الصادق يغار على سمعة المسلمين ، يسأل ، يستفهم ، يستوضح ، ينتقد نقداً بناءً ، يعترض أحياناً ، لأن الله هو قصده ، أما إذا كانت الدنيا قصده

ومصالحه مؤمنة بسكوته يسكت ، إذا كانت الدنيا قصده ، ومصالحه تتحقق بسكوته تراه يسكت ، أما إذا كان الله قصده ينبغي أن ينطق ، أن يسأل ، أن يستفهم، أن يستوضح ، أن ينتقد أحياناً ، فلا معصوم إلا النبي ، ما من أحد أصغر من أن ينقَد ، و ما من أحد أكبر من أن ينقد ، كل إنسان يؤخذ منه ، و يرد عليه إلا صاحب هذه القبة الخضراء، ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى العين والرأس ، وما جاءنا عن أصحابه فعلى العين والرأس ، وما جاءنا عن التابعين فعلى العين والرأس ، لأن الله شهد لهذه العصور الثلاثة بالخيرية ، فعن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((خَيْرُكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، أحمد]

وما جاءنا عن سواهم ، فنحن رجال و هم رجال ، للإمام علي كرم الله وجهه كلمة رائعة قال :

<< نحن نعرف الرجال بالحق ، و لا نعرف الحق بالرجال >> .

فلان قال : أنت أفهم منه ، و لكن يوجد آية ، يوجد نص قطعي الدلالة ، فلان أفتى بالربا أنت مثل علمه ؟ أنا معي نص :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : الآية 279)

لا معصية في القرآن توعد الله على مرتكبها بالحرب إلا الربا ، من هذا الذي يحق له أن يقول لك : الربا مباح ؟ من هذا الذي يجرؤ أن يحل معصية توعد الله عليها مرتكبها بالحرب ؟ البطولة أنك تعرف الرجال بالحق ، الحق هو الأصل ، والخطأ الشنيع أن تعرف الحق بالرجال ، أناس كثيرون يقول لك : هكذا علمنا والدنا ، والدك ليس على حق ، أبي لم يرد أن نعمل تفرقة بالعائلة ، يجمع الأصهار و زوجاتهم على مائدة واحدة ، هكذا علمنا أبي ، ليس هناك دليل ، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ ؟ قَالَ : الْحَمْوُ الْمَوْتُ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أحمد ، الدارمي]

ليس من المعقول أن يرى الصهر أخت زوجته ، وقد تكون أجمل منها ، ثم لا يتمناها ، ثم لا يملأ عينيه من محاسنها ، والدي لو يرد أن يفرق العائلة ، هل هذه آية أم حديث ؟ هذا كلام والدك ، نحن معنا قرآن ، معنا سنة ، معنا كلام معصوم ، فأنت الأصل أن تعرف الحق و من خلال الحق يمكن أن تقيّم الرجال ، لذلك :

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

8 ـ يجب أن نحرص على التوحيد بأن لا يشوبه شرك مهما صغُر :

إله واحد ، أنا أعتقد أنه ما من رجُلين على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة أحبا بعضهما بعضاً كرسول الله و أبي بكر ، أبو بكر و عمر مني بمثل السمع و البصر ، فما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر .

ومع ذلك لما مات النبي عليه الصلاة و السلام ماذا فعل الصديق ؟ قال : **<< من كان يعبد محمداً ـ فقط محمداً لم يقل رسول الله ـ فإن محمداً قد مات ، و من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت >>**

.

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، سيدنا عمر ، سيدنا خالد انتصر ، و انتصر ، فتوهم المسلمون أنه ما من معركة يقودها خالد إلا انتهت إلى النصر ، فخاف عليهم الشرك فعزل خالدا ، سيدنا خالد تألم ، قال له : **<< يا أمير المؤمنين لما عزلتني ؟ قال له : و الله إني أحبك ، قال : لما عزلتني ؟ قال : و الله إني أحبك ، فسأله مرة ثالثة لما عزلتني ؟ قال له : و الله ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك لكثرة ما أبليت في سبيل الله >> .**

و أنت راقب نفسك لمجرد أن تتكئ على إنسان ، لمجرد أن تعقد الأمل عليه ، لمجرد أن تتوقع منه الخير ، لمجرد أن تعتز به و أن تنسى ربك ، هذا الإنسان الذي أشركته مع الله لابد من أن يخيب ظنك بتوجيه الله إنقاذاً لك من الشرك ، الشرك هو الطامة الكبرى :

(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

لو أن أتباع الأديان التي جاءتنا من عند الله عبدوا الله وحده ، ولم يشركوا به شيئاً ، وما اتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله لاجتمعوا ، وتعاونوا ، فإن أبوا إلا أن يتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فإن أبوا إلا أن يشركوا ، إن أبوا إلا أن يعبدوا غير الله ، فإن أبوا إلا أن يشركوا بالله ، إن أبوا إلا أن يتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله قال :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 64)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون

الأنبياء كلهم وُصِفوا في القرآن بالإسلام :

هذا هو الإسلام ، الإسلام هو الاستسلام لله ، و الذي يلفت النظر في القرآن الكريم أنه ما من نبي في القرآن إلا و قد وصف بأنه مسلم ، بل إن فرعون حينما أدركه الغرق قال :

(وَإِنِّي مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة الأحقاف : الآية 15)

الإسلام بالمعنى الواسع لا بالمعنى الذي يعني أن هذا الدين الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ، بالمعنى الواسع الاستسلام لله ، والآية الدقيقة :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

(سورة آل عمران : الآية 19)

أي أصل الدين عند الله الإسلام ، أن تستسلم لله ، وألا تعبأ بمن دونه ، قال :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ)

(سورة آل عمران : الآية 65)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ

1 ـ مزاعم اليهود في إبراهيم :

أي اليهود ، فقد قالوا ، كان إبراهيم يهودياً ، و النصارى قالوا ، كان إبراهيم نصرانياً ، فقال الله عز وجل :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 65)

الحجة قوية ، هذا النبي الكريم ، هذا أبو الأنبياء حينما أرسله الله للخلق ما كان هناك يهودية و لا نصرانية ، لذلك قال الله عز و جل :

2 ـ رد الله على مزاعم اليهود في إبراهيم :

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 66)

أي بسيدنا عيسى .

(فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 66)

أي الحق صارخ ، الحق واضح ، الحق جلي ، فحينما ترى كلاماً لا ترتاح له ، ولا يتفق مع الفطرة السليمة ، ولا مع العقل الصريح ، ولا مع النقل الصحيح ، ولا مع الواقع الموضوعي هذا باطل ، الحق ما جاء به النقل الصحيح ، وأيده العقل الصريح ، وارتاحت إليه الفطرة السليمة ، وأكده الواقع الموضوعي هذا هو الحق :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(65)هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)

(سورة آل عمران)

3 ـ لابد من تمحيص الكلام :

بعضهم قال : لي صديق كان من أعظم الناس في عيني ، و كان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه ..... إلى أن قال : و لا يدلي بحجة إلا إذا رأى قاضياً فهماً ، وشهوداً عدولاً ، و كان خارجاً عن سلطان الجهالة ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يماري فيما علم .

أي مسلم لا هو فهم كتاب الله ، ولا قرأ كتاب الله ، ولا اطلع على حديث رسول الله ، ولا فهم أحكام الفقه ، لكن يقول لك سمعت ندوة من فضائية ، أي يقبل على مزاجه ، ويرفض على مزاجه ، و يُقَيم على مزاجه ، و كأن الحديث في الدين كلأ مباح لكل الناس ، من يجرؤ أن يكتب على بيته الدكتور فلان ، اختصاصي في أمراض القلب ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ماذا يفعلون به ؟ يضعونه في السجن ، من يجرؤ أن يكتب المهندس فلان ، وهو جاهل ؟ من يجرؤ أن يكتب المحامي فلان ، وهو جاهل ؟ هناك محاسبة ، ومساءلة ، لكن كل شخص من دون أن يطلب العلم ، من دون أن يقرأ القرآن ، من دون أن يفهم القرآن، من دون أن يقرأ سنة النبي العدنان ، من دون أن يفهمها ، من دون أن يفهم أحكام الفقه ، من دون أن يعرف أصول العقائد يتكلم في الدين ، فيقبل ، ويرفض ، ويُقَيم ، ويطعن ، ويمدح ، هو مرتاح ، أي علم حصلته حتى تتكلم بهذا الكلام ؟ لابد من أدب مع الله ، اطلب العلم . الآن في البلد مجلات طبية كثيرة إذا اشترى شخص عدة مجلات ، و قرأ في كل مجلة مقالتين أو ثلاثا، وهناك أسئلة وأجوبة ، هذا في الأمراض الباطنية ، والقلبية ، والرئوية ، والبولية ...هذا بعد مطالعة عشرين ، أو ثلاثين مجلة ، وقرأ مقالاتهم ، وقرأ السؤال والجواب ، هل يكون طبيباً ؟ هذا والله حال المسلمين اليوم ، سمع خطبة ، قرأ كتابًا ، قد يكون فيه دس لا يعلمه إلا الله ، سمع ندوة من إنسان باع دينه بدنياه ، ليس منضبطاً ، فيقبل ، و يرفض ، ويزكي ، ويقبح ، ويطعن ، يقبل على مزاجه ، ويرفض على مزاجه ، أهكذا ؟

مرة قلت للإخوة الكرام في إحدى الخطب : خذوا دينكم عن الأرضيات لا عن الفضائيات ، لأن الذين يتحدثون في بعض هذه الفضائيات ينسجمون مع مموليها ، وينسجمون مع أن تتسع رقعة شعبيتهم على حساب دينهم ، كل شيء أصبح حلالاً ، الرقص ، والغناء ، والتمثيل ، والموسيقى ، وسفر المرأة بلا محرم ، لم يبق شيئاً ، والربا ، لم يبق شيئاً بقي الإسلام شكلاً ، غلاف بلا مضمون

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 67]

4 ـ كان إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً :

كان إبراهيم حنيفاً مسلماً ، أي مائلاً إلى الله ، أكد علماء العقيدة أن العبادة طاعة طوعية ، وليست طاعة قسرية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، فلو أطعت الله ولم تحبه ما عبدته ، ولو أطعته ، ولو أحببته ، ولم تطعه فما عبدته ، لا تكون عابداً إلى إذا أطعته طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية .

كان حنيفاً مائلاً إلى الله ، أي إنسان قوي شهر عليك سلاح ، وقال لك: أعطني ما في يديك من طعام ، فقد أطعته ، هل تكون قد عبدته ؟ أعوذ بالله ، أنت مقهور ، لذلك نعجب في القرآن مِن جمع العبد على عباد تارةً ، وجمع العبد على عبيد تارةً أخرى ، فقال تعالى :

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت : الآية46)

وقال :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان : الآية 63)

قال العلماء : العبيد جمع عبد القهر ، بينما العباد جمع عبد الشكر فالمقهور في وجوده وفي استمرار وجوده إلى الله هذا عبد قهر جمع عبيد ، وما ربك بظلام للعبيد ، أما الذي تعرف إلى الله طواعية مبادرةً منه عن اختيار ، عن محبة فهذا عبد الشكر يجمع على عباد ، قال تعالى :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر : الآية 42)

فرق دقيق بين العبيد والعباد ، قال تعالى :

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

التركيز على الشرك ، طامة المسلمين الكبرى الشرك :

(وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

5 ـ الدعوة إلى توحيد الله لا إلى الأشخاص والأفكار :

فكان رأسهم بينهم ، هناك من يدعو إلى ذاته بدعوة مغلفة إلى الله ، هذا لا يتبع بل يبتدع ، هذا لا يتعاون ، بل يتنافس ، هذا لا يقر بفضل الآخرين ، بل ينتقص منه ، هذا لا يسالم بل يعادي ، و ما من فرقة ضالة في تاريخ المسلمين إلا و هي تتصف بصفات أربع ، تأليه الأشخاص :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ(31))

(سورة التوبة : الآية 32)

و في أي دين إذا اتخذ رجال الدين أرباباً من دون الله انحرف هؤلاء ، تأليه الأشخاص، و تخفيف التكاليف ، واعتماد النصوص الموضوعة والضعيفة ، والنزعة العدوانية ، بينما أهل الحق يتبعون ولا يبتدعون ، يعتمدون النصوص الصحيحة ، عند الأمر و النهي يتعاونون ولا يتنافسون :

(وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : الآية 159)

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 68)

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

أولى الناس باتباع إبراهيم النبي والمؤمنون :

إن أولى الناس بإبراهيم ، نقول نحن في الصلاة : اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على سيدنا إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم :

(لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

أيها الإخوة الكرام .

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا)

الذين صدقوا دينه الحنيف ، و النبي عليه الصلاة و السلام هو دعوة أبينا إبراهيم ، كما قال عن نفسه : أنا بشارة أخي عيسى و دعوة أبي إبراهيم ، و إبراهيم أبو الأنبياء :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

و في درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات التي مطلعها :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(69)يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

(سورة آل عمران)

هناك بعض الأسئلة :

س ـ إلى متى يحل للمصلي أن يصلي صلاة العشاء ؟ هل للفجر ؟

ج ـ الحقيقة بعد منتصف الليل تكره صلاة العشاء ، دخلت في وقت الكراهة ، أفضل الصلاة في أول وقتها ، يوجد وقت الاستحباب ، و هناك وقت الإباحة مقبولة ، و هناك وقت كراهة ، إذا صليت العشاء بعد منتصف الليل فهذا وقت كراهة .

س ـ جاء خاطب يخطب فتاة فاستخارت الفتاة الله عز وجل عن طريق شيخ قدير فقال لها : الآن وأول الأمر تكون الخطبة فيها خير و لكن بعد كتابة العقد يظهر المخفي ، المهم أن الخطبة لا خير فيها مما جعل أهل العروس يحتارون ، ويترددون ، وقد مضى أشهر على موضوع الخطبة ، فكيف عرف هذا الشيخ مثلاً ؟

ج ـ الشيء الثابت أن النبي عليه الصلاة و السلام سن لنا صلاة الاستخارة ، ولم يرد عنه أبداً أن أحداً استخار عن أحد ، لا أحد يستخير عن أحد ، لك عند الله المكانة نفسها ، تصلي ركعتين و تقول : اللهم بعلمك و قدرتك إن كان في هذا الأمر خير لي في ديني و دنياي وعاقبة أمري فيسره لي ، يقول لك : أنا استخرت الله فتحت المصحف ، و لم أجد فيه آية مشجعة ، من قال لك : إن فتح المصحف هو جواب الله عز وجل ، من قال لك ذلك ؟ قضية فتح المصحف ، وقضية أن رأيت في منامي شيئا جميلا جداً ، رأيت نفسي أمام نور ، الرد الإلهي إذا استخرت الله في شيء ، وأراده الله لك ، وأنت صادق يسره لك ، الرد الإلهي هو التيسير فقط ، أما أن أكلف شيخاً أن يستخير لي لم يرد هذا عن رسول الله أبداً .

س ـ تكررت كلمة أثر في دروسك ، ما المقصود ؟

ج ـ أي ما ورد عن أصحاب رسول الله ، أو عن التابعين ، يقال ورد في الأثر ، لعله حديث ضعيف ، لكن ورد عن بعض الصحابة ، نقول : أثر حتى لا نتورط ، ونقول : قال رسول الله ولم يقله ، أي حكمة رائعة عن صحابي وردت ، عن تابعي ، لعلها حديث ضعيف نُقل عن رسول الله ، ثم عزي إلى الصحابي فرضاً ، فأقول أنا : ورد في الأثر ، هذا اسمه في علم الحديث صيغة تمريض ، كلام لطيف ، حكمة رائعة ، لكن لم ترد عن رسول الله يقيناً .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(20-60): تفسير الآيات 69 – 74
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-04-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس العشرين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية التاسعة والستين، وهي قوله تعالى :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 69)

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

1 ـ الإنصاف الرباني مع أهل الكتاب :

ودت يعني رغبت ، تمنت طائفة من أهل الكتاب ، دائماً وأبداً القرآن الكريم يعلمنا الحكم الموضوعي ، لم يقل الله عز وجل ود أهل الكتاب ، لو أن واحداً منهم لا يتمنى ذلك فرضاً ، ورأى نفسه مشمولاً بهذه التهمة لابتعد عن هذا الدين ، لكن الله عز وجل يعلمنا كيف ندلي بأحكام دقيقة صحيحة ، وجزء كبير من علمك أن تقيّم من حولك وفق أسس سليمة ، أما هذا الذي إذا أحب يجعل هذا المحبوب ملِكاً لا يخطئ ، وإذا أبغض يجعله مجرماً فهذا إنسان عامي ، ودائماً التعميم من العمى الأعمى يعمم ، أما البصير فلا يعمم ، علمك لا يعني أن يكون الدماغ محشواً بمعلومات لا تنتهي ، علمك ينبغي أن يكون في مظهره العملي إنصافاً ، وتقييما موضوعيا .

2 ـ التقييم الأخلاقي الصحيح دليل العلم :

وقد ذكرت لكم من قبل أن الموضوعية في الوقت نفسه قيمة علمية وقيمة أخلاقية ، والأخلاق والعلم يلتقيان في الموضوعية ، فإذا قيمت الإنسان تقييماً صحيحاً فأنت أخلاقي ، وأنت إذا قيمته تقييماً صحيحاً فأنت علمي ، فأنت تنتمي إلى العلم ، وتنتمي إلى الخلق إذا قيمت من حولك تقييماً دقيقاً أخلاقياً.

أما هذا الذي ينحاز انحيازاً أعمى ، الجهة التي انحاز إليها يراها فوق البشر ، والذي تركها يراها دون البشر ، فهذا إنسان غير متوازن ، فينبغي إن سئلت عن جهةٍ ، أو عن إنسانٍ أن تذكر ما له

وما عليه . النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى صهره زوج ابنته زينب مع الأسرى ، وكان مشركاً ، وجاء ليحارب ، ولو أتيح له لقتل ، ولو انتصر لقتل ، قَالَ المِسْوَرُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((ذَكَرَ صِهْرًا لَهُ فَأَثْنَى عَلَيْهِ فِي مُصَاهَرَتِهِ فَأَحْسَنَ ، قَالَ : حَدَّثَنِي وَصَدَقَنِي ، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي))

[البخاري ومسلم]

كصهر ممتاز ، لكن انظر إلى هذا الحكم الموضوعي ، الله عز وجل يقول :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 69)

يعني بعضهم ، وأنت في حديثك ابتعد عن التعميم ، قل : بعض هؤلاء ، بعض المسلمين ، قل : بعض المحامين ، بعض الأطباء ، بعض المدرسين ، بعض المهندسين ، بعض الأغنياء ، أما أن تقول :

الأغنياء كذا وكذا ... فهذا كلام غير موضوعي ، والله هناك غني تتمنى أن تكون غنياً مثله من شدة سخائه ، وتواضعه ، ومحبته للخير ، وقد وظف ماله كله في سبيل الحق .

لنوعد أنفسنا ألا نطلق أحكاماً جائرةً ، أن لا نطلق أحكاماً عامةً ، لنوعد أنفسنا ألا نعمم ، بل نخصص.

3 ـ قل : أحسب فلانا كذلك ، ولا أزكّي على الله أحداً :

هناك ملاحظة أخرى ، أنت مقتنعٌ أن فلانًا جيد جداً ، أو أن فلانًا سيئ جداً ، قل : فيما أعلم ، فيما يبدو لي ، قل : أنا لا أزكي على الله أحداً ، الله أعلم بما في النفوس ، ولكن أنا أرى كذا ، هذا الحكم الذي فيه تحفظ حكم رائع جداً ، فمن جهة لا تعمم ، ومن جهة جزء من علمك يعد إنصافاً في أحكامك ، إذا كنت منصفاً في أحكامك فأنت على شيء من العلم ، أما إذا كنت متطرفاً في أحكامك ، تغالي ، تبالغ . إنّ المؤمن لو جاءته إساءة من مؤمن يبقى على محبته ، ولو جاءه خير من منافق يبقى على بغضه ، هذا شيء دقيق جداً ، لو أن مؤمناً اجتهاداً ، أو خطأً ، أو سهواً أساء إليك ، وهناك أشخاص إذا أساء إليه إنسان يجعله كافراً ، يكيل له الصاع عشرة ، يخرجه من دينه ، وإذا أعطاه إنسان شيئاً من الدنيا يجعله فوق الملائكة ، وهو ليس كذلك ، هذا الحال التذبذبي يمدح بلا حدود ، ويذم بلا حدود ، هذا موقف لا يليق بالمؤمن ، المؤمن إذا سئل يجيب إجابةً فيها موضوعية ، وفيها إنصاف ، ما له وما عليه.

طبعاً هذا التعليق من قوله تعالى :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 69)

ما قال الله عز وجل : ود أهل الكتاب ، طائفة منهم ، حتى الجماعات الإسلامية في كل مجتمع إسلامي فيها الصادق ، المخلص ، المتفوق ، المستقيم ، المنافق ، إنسان يراوغ ، يخادع ، هذا المجتمع عينة عشوائية ، أيضاً الحكم على جماعة بأكملها حكم فيه تطرف .

الأطباء عندهم قاعدة رائعة يقولون : ليس عندنا مرض ، بل عندنا مريض ، كل إنسان له حالة معينة .

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 69)

4 ـ التقرب إلى الله راحة وطمأنينة ، والبعد عنه اختلال في التوازن :

السبب : الحقيقة هناك سبب وجيه جداً ؛ هو أن الإنسان له فطرة ، وهذه الفطرة جبلتها أن تعرف الله ، وأن تطيعه ، فلمجرد أن تعرف الله ، وأن تطيعه ، وأن تتقرب إليه ترتاح نفسك ، وتشعر كأن جبال أزيحت عن كاهلك ، هذه الفطرة ، لو أن الإنسان خرج عن قواعد فطرته فعصى الله ، أخذ ما ليس له ، كان قوياً فبنى قوته على أنقاض الناس ، كان غنياً فبنى غناه على فقر الناس ، ولو أن الناس يعظمون شخصاً ، أو لو أن الناس لا يعرفون الحقيقة ، لكن الإنسان كما قال الله عز وجل :

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

فالإنسان بمجرد أن يعصي الله ، أو أن يتبع هواه ، أو أن يأخذ ما ليس له ينشأ عنده حالة اسمها اختلال توازن ، أو كآبة ، أو شعور بالذنب ، سمها ما شئت ، شعور بالذنب ، عقدة نقص ، كآبة ، اختلال توازن ، هذا الإنسان الذي عصى الله يعني غلبته شهوته ، قال تعالى :

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ)

(سورة المؤمنون : الآية 106)

غلبه طمعه ، غلبته محبته للنساء ، فلم يلتزم شرع الله ، غلبته محبته للمال ، فأخذ ما ليس له ، غلبته شهوة العلو في الأرض ، فتحدث بما ليس واقعاً ، تحدث عن نفسه كلاماً غير صحيح .

إن الإنسان حينما يخطئ ، حينما يأكل مالاً حراماً ، أو حينما تضعف نفسه أمام طاعة الله عز وجل ينشأ عنده حالة مرضية اسمها اختلال توازن ، اسمها كآبة ، إحساس بالنقص ، هذه الحالة وصفها الله عز وجل قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه : الآية 124)

5 ـ الضالّ يتمنى أن يكون الناس كلّهم مثلَه :

هذا الإنسان الذي اختل توازنه فخرج عن قواعد فطرته ماذا يتمنى ؟ يتمنى أن يكون الناس جميعاً مثله، وإذا كان الناس جميعاً مثله ترتاح نفسه لا يوجد أحد جيد ، هكذا الإنسان ، الإنسان حسود ، طماع ، أكثر المنحرفون يعممون البشر ، كلهم يكذبون ، كلهم منافقون ، كلهم يأخذون ما ليس لهم ، هذا تعميم ساذج ، تعميم مضحك ، لأن الإنسان حينما ينحرف ، وحينما يختل توازنه ، وحينما يصاب بكآبة ، وحينما يشعر بالمعيشة الضنك يكون عنده شعور يخفف عنه هذا الشعور المنحرف ، عنده رغبة إذا تحققت خف عليه الشعور .

اليوم سألني رجل فقال : هناك كساد شديد ، قلت له : مما يخفف عنك أن الكساد عام في البلد كله ، أكثر المصالح فيها كساد ، ليس هناك مادة متداولة بين الناس ، كل شيء فيه كساد ، فلما رأى كل شيء فيه كساد خففت عنه ، أما لو توهم أن الكساد في حرفته فقط يتألم أشد الألم .

هؤلاء الذين خرجوا عن فطرتهم ، وعصوا ربهم ، وأخذوا ما ليس لهم يتمنون أن يضلوا المؤمنين ، فإذا ضلوا يقولون : لا أحد جيد ، أحياناً طالب لا يكتب وظيفته ، تسأله : أين وظيفتك ؟ يقول : لا أحد كتب وظيفته ، فكلما وسع دائرة التقصير يرتاح .

إن هؤلاء سبب رغبتهم أن يضلوا المؤمنين اختلال توازنهم .

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

لكن في الحقيقة :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

6 ـ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

إذا كنت مقصراً ، وأقنعت إنساناً أن يقصر هل تنجو من عذاب الله ؟ لا ، إذا كان الإنسان فاسدًا ، وأقنع إنساناً آخر أن يفسد معه لا يحاسب على ذلك ؟ هذا الكلام فيه سذاجة مطلقة ، المقصر يحاسب ، كما قال سيدنا عمر : **<< لو أن أهل بلد ائتمروا على قتل واحد لقتلتهم به جميعاً >> .**

ليس في الإسلام شيء كلما اتسع تخف عقوبته كما هو عند الغرب :

ليس عندنا في الإسلام شيء كلما اتسع تخف عقوبته ، مثلاً : في بريطانيا والعياذ بالله انتشر الشذوذ انتشاراً كبيراً جداً ، عندئذ أصدروا قوانين تبيحه ، وتغطيه ، القانون يعبر عن الشعب ، فليس عندنا شيء في الإسلام إذا اتسع وانتشر يصبح مشروعًا ، هذه في عالم أهل الدنيا ، في عالم المادة يقولون لك: هذا واقع في بعض البلاد في أوربا ، الدولة توزع المخدرات ، يقول لك : أمر

واقع ، نعطيهم مخدرات بحقن معقمة أفضل أن يأخذوها بحقن غير معقمة ، العالم الغربي نموذجه : كل شيء إذا اتسع وعم أصبح مشروعاً .

أيها الإخوة ، حتى إن أطباء النفس في العالم الغربي النموذج عندهم هو الإنسان المتفلت ، فمن يدرس عندهم ، ويأتي إلى بلاد المسلمين ، فإذا زاره مريض عنده كآبة ينصحه بصاحبة ، ينصحه بمعصية ، بانحراف ، لأن الشيء إذا عم هناك يصبح مقبولاً ، أما عندنا فالحق لا يتغير ، الحق حق ، والباطل باطل .

أكبر خطأ يقع فيه الدعاة حينما يريدون أن ينزلوا بالإسلام إلى مستوى الواقع المر ، فيبيحون هذا وهذا ... انتهى الإسلام ، أما الداعية الموفق فينبغي أن يأخذ بيد الناس إلى الإسلام ، لا أن يهبط بالإسلام إلى مستوى المدعوين .

هناك ظاهرة خطيرة جداً ، الداعية يكون حوله مجموع كبير ، والناس كلها تثني عليه ، يحلها أول برمة والثانية ... فلا شيء عنده حرام في النهاية ، ويبقى الأمر تجمعًا مصلحيًا فقط ، أما أمانة العلم فتقتضي أن هناك حدوداً لا يفرط بها أبداً .

سيدنا عمر ـ لعلّي ذكرت لكم هذا كثيراً ـ ضحّى بملك اسمه جبلة ، ولم يضح بمبدأ ، فنحن لا نستطيع أن نرقى إلا إذا حافظنا على مبادئنا .

فهذه الطائفة من أهل الكتاب ودت لو تضل المؤمنين بدافع أنها انهارت أمام نفسها ، فعلى مستوى أسرة واحدة إذا كان هناك شاب يغض بصره ، ويؤدي الصلوات الخمس ، شاب له مسجد ، شاب عرض عليه مبلغ ضخم ، وفيه شبهة فركله بقدمه ، أخوه المتفلت يحقد عليه ، ويسعى جهده كي ينتقص منه ، وإذا أخطأ خطيئة تكبّر مليون مرة ، ويُشهر به ليشفي قلبه .

السيئ راحته النفسية أنه لا يوجد أحد جيد ، كل الناس سيئون ، والذي يأكل المال الحرام راحته النفسية أن لا أحد نزيه ، والذي عنده نفس منحرفة اتجاه النساء يقول لك : لا أحد عفيف ، والبنت غير طاهرة تقول : لا يوجد بنت طاهرة ، وهذا شيء ثابت ، والحقيقة خلاف ذلك ، ففي كل مكان هناك أناس طيبون ، وشباب طاهرون ، وفتيات ورعات ، والتعميم من العمى .

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

7 ـ لا يقتنع بالفساد والضلال إلا فاسد ضالٌّ :

هم ضالون ، مضلون ، محاسبون ، معذبون ، سواء أضللتم أم لم تضلوا ، يعني أن تقنع إنساناً أن يفسد لا يعفيك هذا من الحساب ، وهناك حقيقة مهمة جداً ، تجد صفًّا فيه طالب فاسد ، له انحرافات أخلاقية ، انحرافات في كسب المال ، الصف فيه خمسون طالباً ، استطاع أن يفسد واحدًا فقط ، لماذا لم يستطع أن يفسد الآخرين ؟ فهذا الذي أفسده هو مثله ، عنده رغبةٌ بالفساد ، هو ما أضله ، لكن حرك ما فيه من الفساد. والدليل في أي مجتمع ترى إنساناً فاسداً يقنع إنساناً أن يفسد هذا الذي

اقتنع بالفساد هو في الأساس فاسد ، ولولا أنه راغب بالفساد ما فسد معه ، في أي مكان ، في أي مدرسة ، في أي معهد ، في أي جامعة ، ترى الفاسد يستقطب الفاسدين ، قال تعالى :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ)

(سورة الحجر : الآية 42)

لذلك :

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

يعني هم أضلوا أناساً على شاكلتهم ، هكذا المعنى ، لا يوجد إنسان منحرف الأخلاق يقنع إنساناً بالانحراف إلا الذي أقنعه منحرف مثله ، لكن صادف هوىً من نفسه حينما أقنعه ، ما أضل إلا من كان ضالاً على شاكلته ، ما أفسد إلا من كان فاسداً على شاكلته .

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(69)يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُون

1 ـ أهل الكتاب كفروا بالنبي مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم :

هذه الآيات الكريمة كفروا بها ، ولم يقبلوا أنها من عند الله ، ولم يقبلوا أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو رسول الله ، مع أنهم قرأوا في كتبهم أنه سيأتي نبي يستنصرون به ، وكانوا يتحدون خصومهم بهذا النبي ، فلما جاء النبي ، وتحقق ما في كتبهم ؛ في التوراة والإنجيل أنكروا نبوته ، وأنكروا رسالته ، لكنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، بربك أية معرفة دقيقة جداً ، صحيحة جداً ، واضحة جداً كمعرفة الأب بابنه ، هل سمعت أن أباً يقول لابنه : ما اسمك يا بني ؟ مستحيل ، وأيكم أكبر أنت أم أخوك ؟ مستحيل ، هذه أشياء بدهية ، قال تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة : الآية 146)

الإنسان أحياناً يكابر ، يتعامى لمصلحة ، لذلك المنتفع بكفره لا يمكن أن يؤمن ، أما المقتنع بكفره يمكن أن يؤمن ، وفرق كبير بين المقتنع والمنتفع ، المقتنع يؤمن كان واهماً فرأى الحقيقة ، كان مخطئاً فرأى الصواب ، أما المنتفع فهو يدافع عن منفعته ، لذلك :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 70)

2 ـ مَن آثر رضوان الله ربح الدنيا والآخرة :

بالمناسبة من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا ، وأقرب مما اتقى ، ومن كتم الحق لمصلحة دنيوية كتب عند الله كافراً ، وضاعت منه المنفعة الدنيوية ، هذه قاعدة رائعة جداً ، من آثر ما عند الله على الدنيا ربح رضوان الله والدنيا ، ومن آثر الدنيا على رضوان الله خسر رضوان الله والدنيا ، من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً .

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ(70)يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون

1 ـ إلباس الباطل ثوب الحق من عمل أهل الكتاب ومَن شابههم من المسلمين :

فلان مُصر على أكل الربا ، يريد أن يقنعك أن الربا بنسب قليلة معفو عنه ، ما الدليل ؟ يقول لك قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 130)

فالنهي عن الأضعاف لا عن النسب اليسيرة ، هو مصر على أكل الربا ، لكن يريد أن يأتيك بكلام من عند الله ، وبكلام لرسول الله يقنعك أن الربا يجوز ، قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

(سورة البقرة : الآية 279)

موضوع المغالطة ، موضوع لا يرغب أن يصلي الجمعة فيأكل حبة ثوم ، يقول لك : من أكل من هذا فلا يقربن مصلانا ، هناك نهي يا أخي ، أنا لا أستطيع الصلاة في المسجد ، يأتي بالآيات ، ويلوي أعناقها ، يأتي بالأحاديث ويلوي أعناقها ، يأتي بالنصوص الضعيفة ويعدّها صحيحة ، يريد أن يقنعك أنه على حق .

التقيت مع شخص قال لي : من قال لك : إن الخمر حرام ؟ قلت له : أعوذ بالله ، قال لي : هذا الخمر فيه إرشاد لعدم شربه ، ولكن لا يوجد تحريم له ، أعطني آية فيها الخمر حرام ، لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : الآية 90)

لكن الله ما قال : إنه محرم .

2 ـ طرق إلباس الباطل ثوب الحق عديدة مختلفة :

عملية إدخال الحق بالباطل ، والباطل بالحق عملية الآن واسعة جداً ، قد تقرأ كتاباً مطبوعاً في الأسواق ، هذا الكتاب افعل أي شيء إباحي ، وأنت مغطى بالقرآن الكريم ، يقول لك : هذا فهم للقرآن معاصر ، تحت هذا الباب يوجد جهود لا يعلمها إلا الله ، إدخال الحق بالباطل .

هناك من يقول لك : إن السنة النبوية ليست لهذه الأزمنة ، هذه السنة مرحلية ، نكتفي بالقرآن ، ثم تأتي أحكام القرآن ، يقول لك : هذا غير معقول ، لا يتناسب مع إنسان القرن العشرين .

هذه عملية إدخال الحق بالباطل والباطل بالحق ، لأن الطرف الآخر أعداء المسلمين عندهم يقين قطعي أنه لا أحد يستطيع أن يواجه المسلمين جهاراً إلا بأساليب خفية ، فأرادوا أن يفرغوه من قيمه ، أن يفرغوه من أحكامه ، أن يفرغوه من منهجه ، ويبقى الإسلام مظاهر، مساجد ، زيًّا ، كتبًا ، تراثًا إسلاميًا ، ثقافة إسلامية ، فنًّا إسلاميًّا ، أما المضمون فعلماني ، إباحي ، بعيد عن الدين بعد الأرض عن السماء ، هذه العلمية اسمها إدخال الحق بالباطل ، والباطل بالحق .

هو لا يحب أن يكون كافراً ، وفي الوقت نفسه الدنيا محببة له ، فكيف السبيل إلى الجمع بينهما ؟ يقول لك : إيماني في قلبي ، هذه جديدة ، أهم شيء ، وتكون المرأة سافرة ، ومتبذلة في سفورها ، وتبرز كل مفاتنها ، وتصلي ، الصلاة وحدها ، أنا إيماني في قلبي ، وأنا لا أريد أن أؤذي أحداً ، ولكن هكذا الموضة ، ماذا أفعل ؟ عملية إدخال الحق في الباطل ، والباطل في الحق .

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 71)

أحياناً يقول لك البيئة ، الثقافة ، العصر ، الوضع العام ، الإنسان في هذا العصر مضطر أن يعصي الله، والله لا يؤاخذه أيضاً ، هذا الكلام يحتاج إلى بحث طويل ، قضية المغالطة ، إدخال الباطل بالحق والحق بالباطل ، الإسلام صريح واضح ، قال تعالى :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

(سورة القلم : الآية 9)

الآية الكريمة أن جهد الكفار جميعاً من آدم إلى يوم القيامة يتلخص بأن نفتري على الله غير الوحي ، قال تعالى :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا(73)وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)

(سورة الإسراء)

هذه الآية تلخص كل جهود الكفار من آدم إلى يوم القيامة ، قال تعالى :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(71)وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

السخرية من المستقيمين طريق من طرق الإضلال

الإنسان الشارد عن الله عز وجل المرحلة الأولى يقنع إنساناً آخر أن يضل مثله ، فإن لم يستطع يسخر منه ، قال تعالى :

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

(سورة المؤمنون)

آية ثانية :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين : الآية 34)

العبرة أن تضحك آخراً ، لأنه من ضحك أولاً ضحك قليلاً ، وبكى كثيراً ، ومن ضحك آخراً ضحك كثيراً ، وبكى قليلاً .

(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا)

(سورة آل عمران : الآية 72)

أول مرحلة الإضلال ، ثاني مرحلة السخرية ، ثالث مرحلة الاحتيال ، الآن يوجد مرحلة ثانية :

(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 72)

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ

مِن حيل اليهود الإيمان في الصباح والكفر في المساء :

إنها حيلة ، يأتي فريق من أهل الكتاب يؤمنون برسول الله ، ويعلنون إسلامهم ، ويصلون مع المسلمين، هذا في الصباح ، فإذا جاء المساء يقولون : نحن كنا نظن أن هذا الدين حق ، وهو ليس

بحق، ونحن العلماء ، هؤلاء الضعاف يفتنون ، لقد آمنوا ، ثم اكتشفوا أن هذا الدين باطل فتركوا ، هذه عملية مراوغة .

ربنا عز وجل حينما كشف هذه الخطة أبطل مفعولها ، وحينما كشف هذه الخطة أثبت الوحي للنبي الكريم ، النبي لا يعلم أنهم اتفقوا فيما بينهم ، اتفقوا اتفاقاً في أعلى درجات الكتمان ؛ أن يؤمنوا إيماناً خلبياً ، صورياً صباحاً ، ثم يكفرون مساءً ، فلعل ضعاف الإيمان يكفرون معهم ، فالله عز وجل فضحهم ، فلما فضحهم أبطل مفعول مؤامرتهم ، وأثبت للنبي الوحي ، وهو دليل نبوته صلى الله عليه وسلم ، وردعهم أن يفعلوا مثل ذلك مرة أخرى ، وهذه حكمة الله عز وجل في فضيحتهم .

(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(72)وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ)

(سورة آل عمران)

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ

1 ـ عصبية اليهود لبني جنسها :

هذه الآية فيما بين اليهود ، قالوا : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، يعني نحن لا نؤمن برسول إلا من ملتنا ، إلا ليهودي مثلنا ، ولا تؤمنوا لهذا النبي العربي ، لأنه ليس يهودياً .

(قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 73)

2 ـ أيّ نبيٍّ جاء بالحق فهو هدى الله :

الهدى الحقيقي ما كان من عند الله عن طريق نبي عربي ، أو نبي غير عربي ، الأصل أن الهدى هدى الله ، فأي نبي جاء بهذا الهدى فهو هدى ، وهو الحق ، الهدى ليس له قومية ، هناك أنبياء من بني إسرائيل ، هناك أنبياء من أمم أخرى ، وهناك سيد الأنبياء من هذه الأمة العربية ، وقد كرمها الله ، وشرفها بهذا النبي .

خيرية هذه الأمة متعلقة بشروط :

نحن بهذه البعثة العظيمة أصبحنا خير أمة أخرجت للناس ، طبعاً هذه الخيرية مرتبطة بإيماننا بالله عز وجل ، وبأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، وقد قال بعض العلماء : هذه الخيرية علتها : تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، هذه علة الخيرية ، فإن كان الإيمان

ضعيفاً ، أو لم نأمر بالمعروف ، ولم ننهَ عن المنكر ، بل جعلنا المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، بل أمرنا بالمنكر، ونهينا عن المعروف فقدنا خيريتنا .

من هنا وفق العلماء بين هذه الآية وبين الواقع ، قالوا : هناك أمة الاستجابة ، وهناك أمة التبليغ ، فأنت إن آمنت بالله ، وأمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر فأنت من أمة الاستجابة ، وتنطبق الآية علينا ، كنتم خير أمة أخرجت للناس ، يعني أصبحتم خير أمة أخرجت للناس ، فإن لم نأمر بالمعروف ، ولم ننهَ عن المنكر ، ولم نؤمن بالله فقدنا علة خيريتنا ، فنحن إذاً من أمة التبليغ ، وأمة التبليغ مثلها مثل أية أمة لا فضل لها إطلاقاً ، وهذا المعنى يستنبط من قوله تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة : الآية 18)

فإن لم نؤمن بالله واليوم الآخر ، إن لم نأمر بالمعروف ، وننهَ عن المنكر فنحن أمة ممن خلق ، هان أمر الله علينا فهنا على الله ، لا يوجد أي ميزة فكونوا واقعيين ، كونوا علميين ، ليس لك أي ميزة إذا لم تأمر بالمعروف ، ونهيت عن المنكر ، والتزمت الشريعة ، وآمنت بالله .

لا قيمة للأنساب في الإسلام :

تقول لي : أنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ابنته قال لها :

((يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[مسلم عن أبي هريرة]

((وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

قال تعالى :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد : الآية 1)

هذا عم النبي ، لكن :

((سلمان منا أهل البيت))

[الحاكم في المستدرك ، وإسناده ضعيف]

و :

((نعم العبد صهيب))

[كنز العمال عن عمر ، والحديث لا أصل له كما في كنز العمال]

في الإسلام الأنساب ليس لها أي قيمة إطلاقاً ، العبرة بالأعمال ، قال تعالى :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحجرات الآية 13)

<< يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له فقط >> .

هذه المعاني مريحة جداً ، قال تعالى :

(إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ)

مع أي شخص جاءني على العين والرأس ، النبي قال :

((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

[البخاري عن أنس]

(أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ)

أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ

1 ـ حسد اليهود وعدمُ تحمُّلهم كون النبي من العرب :

هذا حسد وبغي ، هم لم يحتملوا أن يؤتى أحد النبوة مثلما أوتيها بنو إسرائيل ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، وهذه مشكلة المشكلات ، إنسان له ميزة ، إنسان آخر لأنه شاركه بهذه الميزة يطعن به لا يحتمل ، هذا مرض اجتماعي كبير ، هناك إنسان عنده تفوق اجتماعي ، أيّ إنسان اقترب من مستواه الاجتماعي ، أو الاقتصادي ، أو التجاري ، أو النسبي ، أو هذه الأقنعة المزيفة يقيم عليه الدنيا ولا يقعدها ، ما الذي حصل ؟ غيرة ، ما الذي حصل ؟ حسد ، وبغي ، وعدوان ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم فلا تحتملون .

(أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 73)

2 ـ اليهود فضَّلوا عدم الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام :

يعني إذا آمنتم أصبحت الحجة قائمة عليكم ، فلما لم تلتزموا ؟ أنا لا أؤمن أفضل لي ، أيضاً كلام مضحك وساذج .

(أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 73)

أيها الإخوة ، عدم إيمان هذه الطائفة من أهل الكتاب إما حسداً من عند أنفسهم ، لأن الهدى جاء إلى أمة العرب أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو لا تقوم الحجة عليهم ، فجاء النبي ومعه المنهج فلم يصدقوه، وكلا الحجتين باطلة ، يقول الله عز وجل :

(قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 73)

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم

1 ـ فضلُ الله لا يُصرف عن صاحبه :

الفضل بيد الله ، لا يستطيع أحد في الكون أن يصرف عن إنسان خيراً أراده الله له ، ولا أن يجلب له شيئاً ما أراده الله له ، قال تعالى :

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر : الآية 2)

الخير بيد الله وحده ، يعطي الخير من يشاء ، يعطي النبوة من يشاء ، يعطي الإيمان لمن دفع ثمنه ، يسبغ رحمته على من جاء بموجباتها ، يسبغ مغفرته على من دفع ثمنها ، قال تعالى :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

(سورة الحجرات : الآية 13)

2 ـ لا تحسد أحدا لفضل الله عليه ، فالله واسع الفضل ، عليم بمن يستحقه :

إن الفضل بيد الله ، لا تحسد أحداً الله واسع عليم ، واسع في فضله ، عليم بأحوال الناس ، والله واسع عليم ، الإنسان قد يؤخذ ، فيتوهم شيئا لم يقع ، قد يكون الطرف الآخر متكلمًا ، بليغًا ، فصيحًا ، قد يقنعك بشيء ، وهو لا يملكه ، وقد ينفي عنه شيئاً واقعاً فيه ، وهو متلبس فيه ، أنت تؤخذ بالكلام ، لكن الله عز وجل عليم ، عليم بالحقائق ، عليم بخبايا النفوس ، عليم بما تنطوي عليه الأنفس ، واسع في فضله ، عليم في معرفته ، الله عز وجل فضله كبير وعلمه قطعي ، علمه مطلق ، والفضل بيده .

علاقتك مع الله ، مدحك لإنسان لا يرفعه عند الله ، وذمك لإنسان لا يخفضه ، والمثل الشهير : إن كنت تملك كيلوا من معدن ثمين ذهب ، وتوهمه الناس معدناً خسيساً يبقى ذهباً غالي الثمن ، وإن كان معك كيلو من المعدن الخسيس ، وأقنعت الناس أنه ذهباً يبقى معدناً خسيساً ، مدحك وذمك لا يغير طبيعة الأشياء ، ولا يغيرها .

(قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(73)يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم)

مشيئة الله موضَّحة في القرآن الكريم :

فضله عظيم ، ويختص به من يشاء ، يمكن أن تفهم المشيئة عائدة إلى الله ، لكن الله في مشيئته في آيات كثيرة جداً قننها ، ووضح نظامها ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

(سورة الزمر : الآية 3)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المائدة : الآية 108)

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 264)

إن عزوت المشيئة إلى الله فلها نظام دقيق في آيات كثيرة ، ولك أن تعزوها إلى الإنسان ، فمن شاء فضل الله يؤتيه الله من فضله ، من شاء رحمة الله يؤتيه الله من رحمته ، يختص برحمته من يشاء يعني في بعض الآيات :

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

(سورة الإنسان : الآية 31)

من الذي أدخله في رحمته ؟ الذي لم يظلم واضحة ، فكلاهما يصب في خانة واحدة ، إن عزوت المشيئة إلى الله فالمعنى أن هذه المشيئة مقننة بآيات كثيرة جداً ، وإن عزوتها إلى الإنسان فالإنسان مخير ، فإذا أراد فضل الله فهو بين يديه ، وإن لم يرده ابتعد عنه .

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

(سورة آل عمران : الآية 74)

وفي الدرس القادم إن شاء الله نبدأ بقوله تعالى :

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 75)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس آل عمران ، ومع الآية الخامسة والسبعين، وهي قوله تعالى :

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران)

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ

1 ـ الإنسان بين الاعتقاد والسلوك :

في هذه الآية أيها الإخوة ربط رائع بين ما يعتقده الإنسان وما يسلكه ، فهذا الذي لا تأمنه بدينار خانك في التعامل في الأعم الأغلب لن يكون صادقاً في الدعوة ، هؤلاء الذين كتموا ما في كتبهم عن صفات النبي عليه الصلاة والسلام ، وأنكروا أن يكون في توراتهم ، وفي إنجيلهم بشارات لهذا النبي الكريم ، هؤلاء الذين خانوا الله في علمهم ، ومعرفتهم ، وعقيدتهم طبيعي جداً أن يخونوا الناس في معاملاتهم .

2 ـ إنصاف القرآن :

لكن أروع ما في الآية كلمة (منهم) للتبعيض ، لو أن واحداً من أهل الكتاب كان أميناً ، ولم يكن في هذه الآية من أهل الكتاب بماذا شعر ؟ أن هذا ليس كلام خالق البشر إنه كلام بشر ، الإنسان يعمم ، ولا يدقق ، ولا يلقي حكماً موضوعياً لا يستقصي يميل إلى حكم عام ، لو أنه سافر إلى بلدة ، وأساء إليه بعض سكانها لاتهم البلدة كلها بالانحراف، هذا شأن البشر ، لكن الله جل جلاله هو خالق البشر ، هو الحق ، لذلك قال تعالى :

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

3 ـ الأمانة غنى :

والحقيقة : الأمانة غنى ، إن أكبر رأس مال تملكه ثقة الناس بك ، وأساسها أمانتك ، تكون أميناً معهم فيثقون بك ، وإذا وثقوا بك فأنت تملك أكبر رأس مال على الإطلاق ! فهذا الذي إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، وأحياناً إنسان يخون أخاه بمائة ليرة ، بخمسين ليرة ، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، وهناك من إذا دفعت له مائة مليون على أن يأكل مالاً حراماً ، أو أن يفعل شيئاً لا يرضي الله ركلها بقدمه . نحن مع الأسف الشديد عشنا مع مجتمع متفلت ، ضاعت فيه القيم ، وانهارت فيه العهود ، وسقطت الكلمة ، لأنها لا تعبر عن واقع ، لكن لو عشنا مجتمع قيم ، نحن في مجتمع الشهوة ، لا في مجتمع القيم، في مجتمع المصالح لا مجتمع المبادئ في مجتمع الانحطاط لا في مجتمع السمو ، هؤلاء الناس حينما يعرفون الله ، ويخافونه في أشد الحالات دقة هؤلاء العيش بينهم جنة ! ورد في بعض الأحاديث في الأثر :

((إذا كانَتْ أمَرَاؤُكُمْ خِيارَكُمْ ، وأغْنِياؤُكُمْ سُمَحاؤكُمْ ، وأمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فظَهْرُ الأرْض خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِها ، وإذا كانَتْ أمَرَاؤُكُمْ أشْرَارَكُمْ ، وأغْنِياؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ ، وأمُورُكُمْ إلى نِسائِكُمْ فَبَطْنُ الأرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِها))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لذلك الإسلام لا ينتشر إلا بحالة واحدة ؛ أن تكون هناك مساحة ، ولو كانت صغيرة يطبق فيها الإسلام، أن نجد إنسانًا مسلمًا متحركًا ، فإسلام على الورق لا يؤثر ، وإسلام يُقرأ لا يؤثر ، إسلام يُسمع كشريط لا يؤثر ، أما الذي يؤثر أن ترى مسلماً صادقاً أميناً عفيفاً واضحاً ، يعمل تحت ضوء الشمس .

أيها الإخوة الكرام ، هناك إنسان وجد في مركبته مبلغًا فلكيًا ، كبيرا جداً ، المبلغ كان من الممكن أن يشتري به بيتاً في أرقى أحياء دمشق ، ومحلاً تجارياً في أفضل أسواق دمشق ، وبيتاً في المصيف ، ومركبة فارهة ، بحث عن صاحب المال عشرين يوماً حتى عثر عليه ، ونقده إياه بالتمام والكمال ! وإنسان آخر أحياناً يسرق مائة ليرة ، أو خمسين ليرة ، فهناك مفاضلة ، ومقارنة واضحة في الآية الكريمة :

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

حينما ضاعت الذمم ، ولم يخش الناس ربهم سقطت العهود ، ألا لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له .

(وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

4 ـ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ

حدثني إنسان له أب من أكثر الناس غنى ، لكن لا أزكي على الله أحداً أحسبه صالحاً ، قال لي : سبب غنى والدي أنه كان عليه دين لشخص غير مسلم بالليرات الذهبية ، والقصة قديمة جداً ، من خمسين عامًا تقريباً ، ثم صدر توجيه يمنع التداول بالذهب ، وينقلب التداول بعملة ورقية بحسب القانون ، فلو أنه أدى ما عليه بالورق لدفع ربع ما عليه ، قال : فأصر والدي أن يعيد القرض كما أخذه بالليرات الذهبية ، والرجل المقرض غير مسلم ، هذا له وكالة في بلد عربي مجاور ، طلب منه أن يفتح وكالة في هذا البلد ، وهو على فراش الموت ، وأن يعطوا الوكالة لهذا المسلم الذي أدى له الدين بالتمام والكمال ، فلما جاء أولاده إليه قالوا : نحن لا نملك ثمن هذه البضاعة قال : الثمن علينا ، ولكن خذ الوكالة ، وهذا سبب غناه الشديد ، لأنه يؤدي الذي عليه ، ومن يفعل ذلك فهو إنسان راق . نحن المسلمين ما الذي ضيع الحقوق ؟ ضعف الدين ، كيف أن عمر رضي الله عنه يجلس للقضاء سنتين دون أن يأتيه متخاصمان ، وكيف أن محاكمنا تموج بعشرات ألوف الدعوات ، المسلمون يغتصبون أموال بعضهم ، الطبقة العادية المسلم العادي الذي يرتاد المساجد ليصلي ، المحسوب على المسلمين يأخذ ما ليس له ، اذهب إلى المحاكم تجد آلاف القضايا ؛ اغتصاب أموال ، اغتصاب شركات، اغتصاب وكالات ، أيمان كاذبة ، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، فالبطولة لا أن تصلي فقط، بل أن نرى ثمار صلاتك أمانة ، وصدقاً ، وعفافاً ، هذا النجاشي عندما سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا أجابه سيدنا جعفر ؟ قال : نعرف صدقه ، وأمانته ، وعفافه ، وإخلاصه . أركان الأخلاق الصدق إذا حدثت ، والأمانة إذا عاملت ، والعفة إذا استثيرت شهوتك ، هذه أركان الأخلاق .

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

وقد تجد معاملة طيبة جداً من إنسان غير مسلم ، ومنهم من يبيع دينه وآخرته بعرض من الدنيا قليل .

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا)

5 ـ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا

مطالبة يومية ، كل يوم أنت في مكان عمله ، اتصالات ، ومطالبة ، وإلحاح حتى يؤديه لك ، لكن هناك حالة أصعب ، لو أدمت الوقوف أمامه ، وأطلت المطالبة لا يؤدي لك شيئاً ، على الرغم من المطالبة لا يؤدي شيئاً ، وكم من إنسان اشترى بضاعة ، وقبض ثمنها ، وزوج أولاده بثمنها ،

وحتى الآن عليه ديون من عشرين سنة ! وهو يرتاد المساجد ، وترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام .

لا تغتروا بالشكليات :

والله أعرف إنسانًا اشترى بضاعة من دمشق ، وباعها ، وقبض ثمنها ، وزوج ولديه ، واشترى لهم البيوت ، ولا تزال ذمته مدينة بأموال طائلة ، وهو إن حدثك يحدثك بالدين ، هذه المشكلة ، لماذا يكفر الناس بالدين أحياناً ؟ مِن مثل هذه المعاملات ، هذا الذي يرى إنسانًا محسوبًا على المسلمين ، ويأكل المال الحرام ، ويحتال عليهم ، ويغشهم في بيعهم وشرائهم ، كيف يكون مسلماً ؟ كيف يقبله الله عز وجل ؟ هناك أساليب لكسب المال الحرام لا تعد ولا تحصى ، يكفي أن تحك تاريخ انتهاء الصلاحية لأي شيء، إذا انتهت صلاحيته ، وتبيعه ، وقد يكون المشتري جاهلاً فيشتريها ، إن كان دواء له أثر إذا انتهى مفعوله فهو خطير ، أنا كنت أظن أنه لا يفيد ، الآن ثبت لي بإخبار بعض الأطباء الأكارم أنه يؤذي ، هذه المواد تفكك ، فتنقلب سماً ، فيكفي أن تحك تاريخ انتهاء مفعول الدواء ، أو الطعام ، أو المعلبات ، وتبيعها ، وكأنها صالحة للعمل ، فقد خنت أمانتك ، يكفي أن تغش المسلمين بتغيير منشأ البضاعة الأقمشة الغربية الغالية ، يكفي أن تأتي بأقمشة من الشرق تدمغها بدمغة غربية ، فقد ضاعت الأمانة ، لذلك هؤلاء الناس الذين يغشون بعضهم بعضاً ، ويكذبون ، ويأكلون أموالهم بين بعضهم ظلماً وعدواناً هؤلاء سقطوا من عين الله ، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتحطم أضلاعه خير له من أن يسقط من عين الله .

لا يغرنكم امتلاء المساجد ، واحد كألف ، وألف كأف ، تجده الرجل عند الحلال والحرام ، تجده عند الأمر والنهي ، المليون والواحد سيان عنده إذا كانا في معصية الله ، مثل هؤلاء الرجال يبنون أمة ، مثل هؤلاء الورعين يشيدون حضارة ، مثل هؤلاء الأمناء ينتصرون على عدوهم ، لا يعقل أن يكون العدو لا يزيد على مليونين يتحدون ثلاثمائة مليون ، لا يعقل !

((لن نغلب اليوم من قلة ، وكانوا اثني عشر ألفا ، والكفار أربعة آلاف))

[مسند البزار عن أنس]

هذا كلام بليغ .

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

الجانب العملي هو الذي يؤثر في الناس :

أنا ذكرت لكم أن الذي يشد الناس إلى الدين ليس المنطق السليم فقط ، ليس الكلام المؤيد بالأدلة فقط ، ليس الكلام المنمق فقط ، ليس التصور الصحيح لحقيقة الحياة ، والكون ، والإنسان فقط ، الذي يشد الناس إلى الدين معاملة متميزة .

أقسم لي أخ كريم يعمل في دائرة ، أن لهذه الدائرة مديرا عاما طلب منه إجازة عدة أيام فغضب المدير، الآن نحن في ضيق شديد ، ولا أسمح لك بإجازة ، قال : أنا أصلي في المسجد كل يوم ربع ساعة ، جمعتها فكانت ستة أيام تبرئة لذمتي أمامكم ! قال لي هذا الأخ : والله لا أصدق في حياتي أن يأتي هذا المدير ليحضر درس علم في مسجد ، في الأسبوع التالي وجدته في المسجد يستمع إلى الدرس، هذا ما الذي شده إلى الدين ؟ الورع من هذا الموظف ، عنده قناعات عالية جداً .

إنّ أكبر ملحد في أمريكا دكتور في الرياضيات ، في مدينة سان فرانسيسكو ، انتقد مرة ، كان في صغره أستاذ الديانة ، فأنبه والده تأنيباً شديداً ، فضربه ، وطرده من البيت ، فاتخذ الإلحاد ديناً ، وكبر ، وهو يتمتع بمستوى عال من الذكاء ، يقول هذا الإنسان ، وهو الآن من أكبر دعاة الإسلام في أمريكا : هناك فتاة محجبة حجابًا كاملا ، وفي أيام الصيف الحارة ، وُلدتْ هناك ، ويبدو أن دينها قوي جداً ، وعن قناعة وإيمان ، فهذه الفتاة تحضر دكتوراه في الرياضيات ، أستاذها أرسلها إليه ، يقول هذا الإنسان الملحد : رأيت النساء في أمريكا شبه عرايا ، وهذه ترتدي الحجاب الكامل في أيام الصيف الحارة ، إذّا عندها قناعات متميزة ، يقول : أنا لأول مرة أقدر تقديراً عالياً فتيات الشرق الأوسط ، هذا الإنسان من يومه عكف على قراءة كتب المسلمين ، قرأ القرآن كله ، وجد آية ظنها خطأً ، وأنها غير صحيحة ، حينما قال الله عز وجل :

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

(سورة يونس : من الآية 92)

أي فرعون ، فاتصل بزميله قال : هذه آية خطأ ، قال : فرعون موسى لا يزال كما هو في متحف مصر ! وجيء به إلى فرنسا للترميم ، هذا الآن أكبر داعية بأمريكا ، ما الذي يشد الناس إلى الدين ؟ موقف أخلاقي متميز ، أمانة متميزة ، صدق متميز ، أخلاق عالية ، تضحية ، إيثار، هذا هو تألق الإنسان .

قلت اليوم في الخطبة : الإنسان لا يقدر من كان كثير المال ، أو كثير الدهاء ، أو قوياً في بدنه ، أو مركزه ، الإنسان يقدر الموقف الأخلاقي ، لذلك العصور السابقة على أنها عصور متواضعة في منجزات الحضارة ، الأجداد سكنوا تحت الخيام في الصحراء ، لكن مروءة امرئ القيس لا تنسى ، وكرم حاتم الطائي لا ينسى ، وشجاعة المسلمين لا تنسى ، معنى ذلك أن الذي يرفع الإنسان ما يتمتع به من تألق أخلاقي ، هذه الآية دقيقة .

(مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا)

وهناك حالات أخرى لو كنت قائماً عليه لا يؤدي إليك شيئاً ، هؤلاء الذين يفعلون هذا هؤلاء خانوا أماناتهم ، ماذا يعللون ذلك ؟ تعليلهم :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

1 ـ مَن هم الأمّيون ؟

يقصدون بالأميين العرب ! هؤلاء جهال ، ماذا نفهم ؟ لمجرد أن يأتيك من يشتري بضاعة ، وتتوسم فيه الغباء ، أو الجهل ، أو عدم الخبرة ، وتبيعه بضاعة سيئة بأغلى سعر ، فأنت من هؤلاء .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

المستقيم لا يغش الناس مهما كانوا :

واللهِ مرة كنت عند أحد القصابين ، وجاءه طفل صغير يطلب منه قطعة لحم من مكان دقيق جداً لمريض ، أنا أراقب طلب هذا الأخ القصّاب ، نفذ طلب هذا الطفل الصغير بحذافيره ، والطفل لا يستطيع أن يميز شيئاً من شيء ، وكان بإمكانه أن يعطيه لحماً لا يؤكل ، لكن وجدت أن أمانة هذا القصاب تلفت النظر ، الدين فيه شيء متألق ، لو كان الطرف الآخر لا يعرف ، مستحيل على مؤمن أن يغش المسلمين ، ولو كانوا صغاراً ، أو جهالاً ، ولو كانوا لا يعرفون طبيعة هذه البضاعة أبداً .

يا أيها الإخوة ، الدين لا يتجزأ ، لا يوجد شيء اسمه صلاة وحدها ، واستقامة وحدها ، الصلاة ، والاستقامة ، والزكاة ، والحج ، والنطق بالشهادة شيء واحد ، هي الآية كلها .

الإسلام مبني على الوازع الداخلي :

هؤلاء لماذا كتموا ما عندهم في التوراة والإنجيل من البشارة بمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ هؤلاء خانوا عهدهم مع الله ، فمن الممكن أن يخونوا عهدهم مع الناس ، لذلك لا تأمن إلا من يخاف الله ، والذي لا يخاف الله قد تكون ظروفه صعبة فلا ينصفك ، لأن هناك قيوداً تقيده ، لكن لو رفعت عنه بعض القيود لكل كل شيء ، هذه النزاهة التي يتبجحون بها في الغرب جاءت من الضبط الإلكتروني ، فلما انقطعت الكهرباء ليلة واحدة رأينا مائتي ألف سرقة في مدينة واحدة في أمريكا ، مجموع سرقاتها اثنان بليون دولار ! لانقطاع الكهرباء ليلة واحدة ! فكل شيء من النظم الوضعية مبني على الردع الخارجي ، وكل شيء من النظم الإلهية مبني على الوازع الداخلي ، واضع القانون إنسان ، والمواطن قد يكون أذكى منه ، فيعمل عملاً يبطل مفعوله ، ويجهضه ، وينهيه ،

واضع القانون ذكي ، وقد يكون المواطن أذكى منه ، هي معركة بين عقلين ، نقول : السرعة مائة كيلو متر ، جيد ، وهناك أجهزة تراقب السرعة ، رادار جيد ، اخترع جهازا يكشف جهاز الرادار .

أنا مرة كنت أركب مركبة في أمريكا سمعت صوتا ، قلت : ما هذا ؟ قال : هذا يعلمني بوجود مركز رادار ، اقتربنا منه ، فعلي أن أخفض السرعة حتى نتلافى المخالفة ، إذاً انتهى القانون .

الآن الدولة تبحث عن جهاز يكشف أجهزة السيارات ! وهي معركة لا تنتهي ، أما عظمة ديننا ففي مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد رأى راعياً ، وقال له : << بعني هذه الشاة ، وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها ماتت ، قال : ليست لي ، قال : خذ ثمنها ، قال : ليست لي ، والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟ >> .

هذا الذي يعجن العجين ما الذي يمنعه أن يفعل كل شيء فيه ؟ خوفه من الله ، فإن لم يخف الله عز وجل ، ورأى شيئاً لا يعقل أن يكون في الطحين لا يسأل ، بل يتابع .

نحن نحتاج إلى إيمان ، وفهم أسّ الفضائل ، وقوام الضمائر ، وسند العزائم ، وبلسم الصبر عند الشدائد .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

لا تغشّ غير المسلمين فيتّهم دينك :

واللهِ أيها الإخوة ، لو غششت مجوسيًا لحاسبك الله ، هناك مسلمون جهلة ، يتصورون أنهم إذا غشوا غير مسلم فليس عليهم من سبيل ، يقولون : هذا كافر ، هذا غير مسلم ، أنا أؤمن واللهِ أنك إذا غششت مسلماً أن يقول للناس : فلان غشني ! أما إذا غششت غير مسلم فيقول : الإسلام غشني ، وفرق كبير بين أن يقول : فلان غشني ، وأن يقول : الإسلام غشني ، لذلك أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك .

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

(سورة المائدة : من الآية 8)

من هم الأعداء التقليديون للمؤمنين ؟ الكفار ، ولا تحملنكم عداوتكم لهؤلاء أن تظلموهم .

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

(سورة المائدة : من الآية 8)

عندما احتلت القدس من قبل الفرنجة ذبحوا في ليلة واحدة سبعين ألفاً ! فلما فتحها صلاح الدين الأيوبي طيب الله ثراه جاءته امرأة من الفرنجة فقدت ابنها ، فوقف ، ولم يجلس حتى أعادوا لها ابنها ! هذا هو الإسلام ؛ دين العدل ، والرحمة ، والحكمة ، والإنصاف .

الآن فرّغ الإسلام من مضمونه ، بقي مساجد رائعة ، خطب رنانة ، كتب مجلدة ، أشرطة ، محطات فضائية ، كل شيء إسلامي ، لكن لا يوجد إسلام ، الإسلام هذا الطهر ، والنقاء ، والالتزام ، وهذه الطاعة .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

لا مشكلة ، هذا غير مسلم .

جاءني أخ يستفتيني فقال : كنت في بلد غربي ، واشتريت بطاقة مصرفية ، واشتريت بها بخمسة آلاف دولار ، وجئت ولم أدفع شيئاً ، لأنهم كفار ! قلت : والله سوف تحاسب عن هذا المبلغ درهماً بدرهم ، من قال لك هذا الكلام ؟ لماذا لما كانت الأمانات مع رسول الله ، وهاجر إلى المدينة لم يأخذها معه ؟ لأنهم كفار ، لماذا أبقى علي بن أبي طالب ابن عمه ليرد الأمانات إلى أهلها ؟ كيف تطمع من هؤلاء الكفار أن يسلموا إن كنت خائناً لهم ؟ أو إن أكلت أموالهم ؟ في الحرب شيء آخر ، هذه تعد غنائم ، حتى زوج السيدة زينب حينما أسر في المدينة ، ومعه بضاعة قريش ، أموال طائلة لقريش ، وبحسب النص إذا أسلم انقلبت هذه الأموال غنائم له ، ولمن حوله ، ماذا قال ؟ قال : والله لا أبدأ إسلامي بهذا ، عاد إلى مكة ، وأرجع الأموال لأصحابها ، ثم أعلن إسلامه .

حينما تؤذي الإنسان يتهم دينك ، لذلك الدعاء :

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة : من الآية 5)

هذا الكافر إذا رأى مسلماً يكذب عليه ، أو يحتال عليه ، أو يغشه يقول : أنا على المنهج الصحيح ، يتمسك بكفره ، وبشركه ، ولا يقبل أن يلقي أذناً مصغية إلى الدين إطلاقاً أبداً .

قبل أن تدعو إلى الله ينبغي أن تكون أخلاقياً ، صادقاً ، أميناً ، متواضعاً ، وذا قلب كبير ، ينبغي أن تحب الناس ، وأن تزن بميزان واحد ، لأنه لابد من أن يفتح لك القلب قبل أن تفتح لك الآذان .

(وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

أخطر شيء أن يبرر الإنسان لنفسه ، وهناك طرفة : رجل ضيع خمسين ليرة ذهبية ، قال : يا رب أرجو ألا يجدها رجل له دين ظاهري ، يفتي فتوى ، ويأخذها ، هذه مشكلة كبيرة جداً ، يجب أن تكون مطمئناً مع المؤمن ، أنه لن يأخذ منك قرشاً حراماً ، أخطر شيء أن تقول :

(لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

يقول لك : هذا بيعه شرّف ، أنت اكشف العيب ، هو ربما لا يكشف العيب ، فحينما نغش في بيعنا ، وشرائنا ، ونكذب ، ونحتال ، ونهتم أن نصوم يوم الخامس عشر من شعبان ، يقولون : هذا يوم فضل ، ألست صائماً يا أستاذ ؟ هنا المشكلة ، كم من يوم في السنة يصوم ؟ مع أن بعض الأيام صيامها سنة ، وبعضها لم يرد نص صحيح فيها ، على كل ، تعجبه هذه المواسم ، فيتمسك بها ،

ويأكل الملايين الطائلة ، ويدعي أنه مسلم ، وهو يكذب على الناس ، ويخدعهم ، واحد يعمل في القضاء أقام عشر دعاوى كيدية ، قدم له كأسًا من الشاي ، فقال : أنا صائم ، لأن اليوم الاثنين ، وآخر أراد أن يضع أمانته عند رجل أمامي قبل أن يذهب إلى الحج ، فدخل إلى المسجد ، وراقب صلاة بعض المصلين ، فأعجبته صلاة أحدهم ، يقف بخشوع ، مغمض العينين ، أعجبته صلاته فقال : أنا سأضع عندك أمانة ، إنني ذاهب إلى الحج قال : وأنا أيضاً صائم يا سيدي ، قال : والله صيامك لم يعجبني ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

1 ـ مخالفة الظاهر للباطن نوع من الكذب :

يكذبون على الله ، الله عز وجل لا يسمح لك أن تغش عباده كائناً من كان ، اسمعوا : اتقوا دعوة المظلوم ، ولو كان كافراً ! فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ، عد للمليار قبل أن تظلم إنسانًا كائنًا من كان، وإن كان غير مسلم ، هذا هو الدين ، أما هذا الذي يبيح لنفسه أن يأكل أموال غير المسلمين على أنهم كفار فهذا إنسان جاهل ، ولو كان هذا من الشرع لأخذ النبي معه إلى المدينة كل ما عنده من أموال أمانات ، أخذها ، وانطلق ، لكنه أبقى ابن عمه ليؤدي لكل ذي صاحب حق حقه .

(وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

هم يعرفون أنهم يكذبون ، والله عز وجل لا يأمر بالفحشاء ، مستحيل !

مثل للتقريب : أحياناً أب يكون عنده أولاد ، وأحدهم صالح ، وآخر سيئ جداً ، لو أراد هذا الابن الصالح أن يأكل مال أخيه ظلماً ، أيرضى الأب عنه ؟ مع أنه سيئ ، لا يرضى عنه ، بالعكس لو أن المسلم عامل غير المسلم بأخلاق عالية جداً ما الذي يحصل ؟ قد يسلم .

إنسان تزوج امرأة غير مسلمة ، يحق له أن يتزوجها ، لها أم أصبحت قعيدة الفراش ، لها خمسة أولاد وبنت ، الأولاد الخمسة لم يقبل أحد منهم أن يأتي بها إلى بيته لضغط من زوجته ، فاتخذوا قراراً أن توضع في مأوى العجزة ، لكن هذه البنت التي زوجها مسلم طلب من زوجته أن تأتي بأمها إلى البيت ، قال لي : والله ما حدثتها ولا بكلمة واحدة عن الإسلام ، أعلنت إسلامها ، وأسلمت ! لماذا ؟ أولادها الذين من صلبها تخلوا عنها ، أما هذه البنت التي زوجها مؤمن جاءت بها إليهم ، وسكنت عندهم ، واستأنست بهم ، فأعلنت إسلامها .

أقول لكم مرة ثانية وثالثة : لا يشد الناس إلى الدين فصاحتكم ، ولا أدلتكم ، ولا فلسفة بعضكم ، بل أمانتكم ، وورعكم ، واستقامتكم ، وصدقكم ، ونصحكم في البيع والشراء .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)

إياكم أيها الإخوة أن تقول : هذا ليس فيه دين ، فماله حلال ، والله أيها الإخوة ، هذا شيء أعاينه ، ذهبت إلى بلاد بعيدة شرقاً وغرباً ، فهناك وهم عند الجالية أن هؤلاء كفار فخذ أموالهم ، وخذ نساءهم ، واكذب عليهم وغشهم ! لذلك سمعت أن المسلمين عندهم في الحضيض .

هل تتوقع أن يسلم واحد من هؤلاء ؟ وأنا أقسم لكم بالله أن الجاليات الإسلامية لو أنها طبقت دينها الصحيح لكان الغرب بحالة غير هذه الحالة ، الغرب قوي ، معه أسلحة قوية جداً .

مرة قال أحدهم في مؤتمر : إننا بشر ، ونحن أقوى الأمم ، ولو أقنعتمونا بدينكم لكانت قوتنا لكم ، أنتم كذبتم علينا ، ولم تكونوا صادقين معنا ، لذلك لا ينفعك عند الله إلا الأخلاق ، إنما بعثت معلماً ،

((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[مسند الشهاب عن أبي هريرة]

هكذا قال النبي الكريم .

عن السيدة عائشة أن أحد أصحاب رسول الله وقع في خطأ في البيع والشراء فقالت :

((أَبْلِغِي زَيْدًا أَنَّهُ قَدْ أَبْطَلَ جِهَادَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِنْ لَمْ يَتُبْ))

[البيهقي في السنن الكبرى عن العالية]

أنت تظن أنك إذا صليت ، ولك مظهر ديني ، وحلفت يمينًا كاذبًا في البيع أن رأسماله أكثر ، وأنت تربح بالمائة ثلاثمائة ، وحلفت بالأمانة وبدينك ، وبكل المقدسات أن رأسماله أكثر ، هل تظن نفسك ذكيا بهذا الشيء ؟ أنت سقطت مع عين الله ، الإسلام خمسمائة ألف بند ، الصلاة واحد ، والصوم واحد، والحج واحد ، والزكاة واحد ، الإسلام ضُغِط حتى أصبح خمس مواد فقط، صلينا ، وحججنا ، وزكّينا ، وأحضرنا ، وطبلنا ، وزمرنا ، وانتهى .

أليس هذا وضع الإسلام اليوم ؟ نأكل المال الحرام ، ونختلط ، ونشتهي غير زوجاتنا ، ونفعل مالا يرضي الله عز وجل ، لماذا تخلى الله عن المسلمين ؟ ولم يتخلَّ عنهم لسبب صغير ، بل لسبب كبير ، مشكلتنا مع بعضنا الخصومات ، لا يوجد بيت ، أو عائلة ، أو حي ليس فيه خصومة ، خصومات لا تنتهي من البعد عن الله عز وجل .

2 ـ من الظلم والكذب أن يقول المسلم : ليس عليّ في الكافر سبيل :

وقفت عند هذه النقطة في الدرس لئلا يخطر في بال أحدنا ، وهو يعامل غير مسلم أنه ليس عليه فيه سبيل ، عليك فيه ألف سبيل وسبيل ، الآية الثانية من أوجه ما في التفاسير : أن بلى ، عليكم سبيل ، وبعدها وقف ، والكلام بعدها مستأنف ، بلى عليكم سبيل .

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

(سورة المائدة : من الآية 8)

وعلى المسلم ؟ من باب أولى أن تكون مستقيماً معه ، هذا الذي يخاف الله عز وجل هذا الذي ماله حلال أتأخذه حرام ؟

(بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ)

(سورة آل عمران)

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

1 ـ لابد من الوفاء بالعهد والتقوى :

كأنه عاهد الله على معرفته والاستقامة على أمره ، من أوفى بعهده مع الله على الإيمان به ، وتعظيمه، وطاعته ، واتقى أن يعصيه ، ويأكل المال الحرام .

(وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

وهناك تفسير آخر .

(بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

إما أن ترجعه على الآية السابقة ، بلى عليكم سبيل ، أو أن نربطها بما يلحقها .

(بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

2 ـ الحديث في القرآن عن أخطاء أهل الكتاب قصدَ اجتنابها :

أيها الإخوة الكرام ، قد يسأل سائل : لماذا الحديث عن بني إسرائيل في القرآن ، ولا سيما في سورة البقرة وآل عمران ؟ لأنهم أهل كتاب ، والأمراض التي وقعوا فيها نحن مهيئون أن نقع فيها ثانية ، هم ماذا قالوا ؟

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)

(سورة البقرة : من الآية 80)

3 ـ عدم الوفاء بالديون منع للخير وتعطيلٌ له :

ماذا قال المسلمون ؟ النبي يشفع لنا ، العبرة أن نغطي انحرافنا بنص شرعي ، أكثر الأمراض التي وقع فيها أهل الكتاب وقع المسلمون فيها ، وزيادة ! لماذا القرض شبه معطّل ؟ لم يعد أحد يقرض أبداً ، السبب عدم الأداء ، تجده يتمسكن لدرجة أنك تراه ملكاً ، فإذا أخذ المبلغ لم يكن مستعداً لأن

يتصل بك ليعتذر ، ولا أن يسلم عليك ، وهذا الحاضر ، وهذه المحاكم ! وحينما نقض الناس عهودهم ومواثيقهم ضعفت القيم في حياتهم ، فأصبحوا في حياة صعبة جداً .

يروى أن أحد العرب يركب خيله في الصحراء في أيام الحر الشديد ، والحر لا يحتمل ، رأى رجلا لا ينتعل نعلاً ، والرمل كأنه نار ، فأشفق عليه ، ودعاه لركوب الفرس ، ولم يكن يدري أن هذا من لصوص الخيل ، فما أن اعتل الفرس حتى دفع صاحبها إلى الأرض ، وقاد الفرس لا يلوي على شيء، قال له صاحب الفرس : يا هذا ، لقد وهبت لك هذا الفرس ، ولن أسأل عنها بعد اليوم ، ولكن إياك أن تشيع هذا الخبر في الصحراء ! فتذهب منها المروءة ، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها .

يمكن أن تقف على الطريق ، وتؤشر لسيارة ، وتركب فيها ؟ مستحيل ، كم ممن ركب ومعه حشيش ، أو مخدرات ، وراح صاحبها ضحية عشرين سنة سجنا ، الناس يخافون ، عندما فقدت الأمانة انقطع هذا الخير ، هذا هو منع الماعون ، وكلما أسأت لمن أسدى لك معروفاً فقد ساهمت في منع الخير .

كان في الشام سبعمائة ألف شقة مغلقة ، لماذا ؟ لأن الذي استأجر لا يخرج ، هذا الحاضر ، وهذه المحاكم ، انتهى الإيجار ، هذا قبل القانون الجديد ، الحمد لله القانون اليوم جيد جداً ، لكن قبل هذا القانون انتهى الإيجار ، لا يمكن أن تستأجر بيتًا في دمشق ، لكن اذهب إلى مدن العالم كلها ، في أي مكان يوجد إيجار بيوت ، لأن الناس حينما لن ينفذوا عهودهم ، وتمسكوا بالبيوت ، وكأنهم أصحابها ، ولم يدفعوا إلا أجراً يسيراً لا يساوي أحد الرسوم المالية للبيت ، وسكن البيت خمسًا وعشرين سنة ، وهذا الحاضر ، وهذه المحاكم ، والقانون معي أغلق باب الإيجار نهائياً ، و كلما أسأنا لبعضنا أغلق باب الخير ، تمر ألف سيارة فارغة لا يركبك أحد خوفًا ، لأن مصيرا من الناس ممن أساء .

4 ـ أكل أموال الناس بالباطل غلقٌ لباب المضاربة :

الآن الطريق الشرعي الوحيد الرائع الذي تطمئن له أن تستثمر مالك عن طريق تاجر المضاربة ، النبي كان أول مضارب في الإسلام ، أخذ من السيدة خديجة أموالها ، وتاجر بها ، والربح بينهما ، هناك أناس كثيرون أخذوا أموال الناس بمئات المليارات ، وأكلوها ، من قوي مركزه ؟ البنك ، لأن هؤلاء الذين أخذوا أموال الناس ليستثمروها فأكلوها أساؤوا لهذا الدين ، الطريق الشرعي الوحيد الصالح الذي أراده الله عز وجل ، أنت بمالك ، وأنا بجهدي ، والربح بيننا ، إنسان لا يحسن استثمار المال ، وإنسان لا يملك المال ، وعنده طاقات عالية ، لكن لا يملك المال ، فالشرع جمع بينهما ، من دون فائدة وربا ، مضاربة ، هؤلاء الذين أكلوا أموال الناس بالباطل بمئات المليارات أغلقوا باب المضاربة ، وفتحوا باب البنك .

لو تتبعت ما في الإسلام من حل مشكلات المجتمع ، كله مغلق ، لماذا ؟ من سوء التصرف ، والائتمان، والكذب ، فنحن الآن بحاجة إلى انتفاضة كالتي في فلسطين ، لكن من نوع آخر ؛ أن ننفض عقولنا ، أن نبحث عن قيم إسلامية صحيحة ، أن نتعامل بصدق ، وأمانة ، الله موجود هو الرزاق ، لن يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، صلح أول هذا الأمر بالاستقامة ، والخلق العظيم ، ولن يصلح هذا الأمر بالعبادات وحدها ، لابد من استقامة وخلق عظيم .

أيها الإخوة ، نتابع هذه الآيات إن شاء الله في درس آخر .

والحمد لله رب العالمين

أسئلة :

س1 : قيل : كيف يكون الله عادلاً ، وقد خلق طفلاً عربياً من أب وأم مسلمين ، وعنده فرصة للتعرف على الله ، والقرآن بشكل واسع ؟ وبين طفل أعجمي من أب و أم غير مسلمين متفلتين ، ولا يمكنه فهم القرآن الكريم ؟

ج 1 : قال العلماء : الكون قرآنا صامت ، آيات الله في الكون ، الله أعطى للإنسان عقلا ، وفطرة عقله يدله على الله ، وفطرته تدله على خطئه ، وفضلاً عن ذلك .

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : 23)

كم من ابن نشأ من أب تاجر ، ورفض التجارة ، عمل بالعلم ؟ وكم ابن نشأ في بيت علم رفض العلم ؟ لماذا أنت في الدنيا ترفض واقعك ، وترفض حرفة أبيك ، ومعطيات بيئتك ؟ وبالدين فقط تتبعهم ؟ لا ، لو أردت الآخرة ، وأعملت عقلك لعرفت الله ، وأنت في أي بلد .

والله أيها الإخوة ، علماء الشام ، وعلماء مصر ، والحجاز أشرطتهم ، وأحاديثهم ، وصورتهم ، ومقالاتهم في كل أنحاء العالم ، الآن العالم أصبح غرفة واحدة ، ليس قرية ليس ، بل غرفة ، لذلك :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : 23)

مرة التقيت مع شخص من هولندا ، أردت أن أذكره بالله قليلاً ، قال لي مباشرة : هذا الموضوع لا يعنيني ، ولا أهتم له ، ولا أعطي له بالاً ! أنا أهتم بامرأة جميلة ، وبيت واسع ، وسيارة فارهة ، ما تذوقت في حياتي الآية الكريمة إلا عندما سمعت كلامه !

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال : 23)

دخل رجل المسجد في واشنطن ، فرأى شخصًا هيئته من الكبراء ، يكنس المسجد ، وينظف دورات المياه ، فإذا به أدميرال في القوى البحرية ! كان على حاملة طائرات ، والتقى في الخليج

بإنسان مثقف مسلم ، فأسلم على يده ، لا تتصور إنسانًا فيه خير واحد بالمليار لا يسمعه الله عز وجل الحق ، اطمأن ، والآية واضحة .

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : 23)

ومع ذلك أعطاك عقلا وفطرة ، والعقل يهديك إلى الله ، وفطرتك تكشف لك خطأك ، هذا السؤال كيف يكون الله عدلاً .

س 2 : هل يجوز للحائض قراءة الكتب الدينية ؟

ج 2 : يجوز ، لو أن طالبة في المدرسة عندها درس قرآن ، فلها أن تقرأ القرآن للتعلم ، وهي في دورتها الشهرية ، في موضوع القرآن كتعليم أو تعلم الفقهاء الأربعة أجازوا ذلك .

فإذا كان مسموحًا أن تقرأ القرآن للتعلم فلأن نسمح لها أن تقرأ كتاب فقه من باب أولى ، ولها أن تقول: لا إله إلا الله سبحان الله ، وهي في الدورة الشهرية ، ولها أن تذكر الله .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(22-60): تفسير الآية 77
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-04-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية السابعة والسبعين ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة آل عمران)

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

1 ـ الله أخذ على البشر ميثاقهم بتصديق الأنبياء :

أيها الإخوة ، إن الله عهد للبشر ، وأخذ عليهم الميثاق أنهم إذا جاءهم رسول مؤيد بالمعجزات ليؤمنن به ، وليصدقونه ، هذا هو العهد الذي أخذ من بني آدم يوم خلقوا ، وقد يكون عهداً خاصاً ، لأن أهل الكتاب حلفوا أيماناً معظمة أنه إن جاء رسول في آخر الزمان ، وقد ورد عندهم في كتبهم أن هناك نبياً اسمه أحمد سيأتي ليؤمنن به ، عهد فطري ، أو عهد كسبي ، وأيمان منعقدة على الإيمان برسول من عند الله .

2 ـ كيف يشتري الإنسان بعهد الله وأيمانه ثمنا قليلا :

هذا العهد وهذه الأيمان قد يشترى بها ثمناً قليلاً ، كيف ؟ بعض من المسلمين على ضعف منهم قابلوا أحد أغنياء المدينة ، وكان من اليهود ، يسألونه شيئاً ، فقال لهم : أنتم مؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ قالوا : نعم ، قال : لا شيء لكم عندي إن كنتم قد آمنتم به ، عادوا بعد أيام ، وقد كفروا بمحمد ليأخذوا من هذا الرجل الثري طعاماً ، وحاجات ، وما إلى ذلك ، طبعاً هذه حادثة تتكرر إلى يوم القيامة، هذا الذي يؤذي مسلماً لينال شيئاً ، هذا الذي يقول كلاماً غير صحيح ليصل إلى هدف مادي ، هذا الذي يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، هذا الذي يقول بخلاف قناعاته ،

إرضاءً لقوي ، هذا الذي ينكر الحق تقرباً من غني ، هذا الذي يقول الباطل تملقاً لإنسان بيده مقاليد الأمور ، كل هذه النماذج تنطبق عليهم هذه الحالة :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا)

القاضي الذي يحكم بخلاف الحق ، لأن أحد الأطراف أعطاه مبلغاً كبيراً ، وأيّ إنسان في أيّ مكان ، في أيّ موقع ، إذا تنكر لمبادئه وقيمه ، وفعل شيئاً نال به مغرماً دنيوياً فهو ممن تنطبق عليهم هذه الآية.

يكفي ألا تصلي أمام أناس ، لأنك لا تحب أن يعرفوا أنك تصلي ، اشتريت بعهد الله ، وأيمانك ثمناً قليلاً .

يكفي أن تذم مؤمناً إرضاءً لمنافق ، اشتريت بعهد الله ، وأيمانك ثمناً قليلاً .

يكفي أن لا تنصف مسلماً تتملق به جهة ما ، اشتريت بعهد الله ، وأيمانك ثمناً قليلاً ، أي إنسان يتنكر لمبادئه ولقيمه فقد اشترى بعهد الله ، وأيمانه ثمناً قليلاً .

يكفي أن تؤمن قدر واحد على عشرة ، وفيهم من هو أرضى لله من هذا ، فقد خنت الله ورسوله ، اشتريت بعهد الله ، وأيمانه ثمناً قليلاً ، آية واسعة جداً .

حينما تتحرك لمصالحك لا لقناعاتك ، حينما تؤثر الدنيا على الآخرة ، حينما تؤثر المال على كلمة الحق ، حينما تكون كلمة الحق صعبة عليك فتسكت ، حينما يكون النطق بالباطل تمهيداً لمصالحك ، تنطق بالباطل .

والله لو ذهبنا بالحديث عن حالات استخدام هذه الآية لوجدناها لا تعد ولا تحصى ، وما أكثر المسلمين الذين وقعوا في هذه الحالة ، وتنطبق عليهم هذه الآية .

لمجرد أن تختار إنساناً في عمل ، وفي رعيته من هو أرضى لله منه ، فهذه خيانة ، هذا الإنسان لك منه بعض المنافع ، آثرته على إنسان كفء ، حينما لا تأتي بأفضل أنواع المعامل ، تختار أسوأها ، من أجل مكسب مادي ينالك فقد خنت الأمانة ، الآية واسعة جداً ، أنت خنت القيم ، خنت المنهج الإلهي ، خنت المبادئ التي ينبغي أن تؤمن بها ، هذا المعنى العام :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا)

هناك قيم ، ومبادئ ، ودين ، ودنيا ، ومصالح ، إن آثرت المصلحة على المبدأ ، إن آثرت الشهوة على القيمة ، إن آثرت الدنيا على الآخرة ، فهذا معناً موسع لهذه الآية ، لكن هنا :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ)

الإنسان يشتري سلعة فينتفع بها مباشرة ، أما حينما يشتري ثمناً فهذا مغبون مائة بالمائة ، لأن الثمن لا يباع ، ولا يشترى ، الإنسان في سابق العصور كان يقايض سلعة بسلعة ، منافع بمنافع ، يأخذ قماشاً ، ويعطي قمحاً ، هذه مقايضة ، أما الشراء فتشتري القمح بالمال ، وتبيع القماش بالمال ، فالمال وسيط ، المال ثمن ، وليس سلعة ، ففي أصل التشريع الإسلامي الثمن لا يمكن المتاجرة به

، لا يمكن أن يعامل كالمنافع يتاجر بها ، عندئذٍ يلد المالُ المالَ ، وحينما يلد المالُ المالَ تهلك الأمة ، لأن الأموال سوف تجتمع في الأيدي القليلة ، وسوف تحرم منها الكثرة الكثيرة .

حينما يجعل الإنسان من الثمن سلعة يبيعها ، ويشتريها ، ويربح منها ، ويثمرها ، وحينما يلد مرة ثانية المالُ المالَ ، فهو ثمن وليس سلعة ، الفرق بين الثمن والسلعة أن السلعة ينتفع بها مباشرة ، الرغيف تأكله ، والقميص تلبسه ، والبيت تسكنه ، والمركبة تركبها ، لكن حينما تستخدم هذه الرموز ، العملة الورقية أو الذهبية تستخدمها سلعة تتاجر بها ، وتنتفع بها أنت فقد فعلت شيئاً يخالف منهج الله .

3 ـ مهما كان الثمن فهو قليل :

هذا تعليق جانبي على الآية ، هؤلاء الذين اشتروا بآيات الله وعهده ثمناً ، ويا له من ثمن كبير ، هو ثمن قليل .

كم من إنسان باع دينه بعرض من الدنيا قليل ، وكم من إنسان حلف يمينا على القرآن الكريم كاذبة ليقتطع حق امرئٍ مسلم ؟

إن أيّ إنسان يحلف يمينا غموساً ليقتطع به حق امرئٍ مسلم فقد اشترى بعهد الله وآياته ثمناً قليلاً ، وأيّ إنسان يعصي الله ليرضي مخلوق من بني البشر فقد اشترى بعهد الله وآياته ثمناً قليلاً ، وأيّ إنسان يرضي زوجته ويغضِب ربه فقد اشترى بعهد الله وآياته ثمناً قليلاً .

لو أردنا أن نتوسع في هذه الآية فهي واسعة جداً ، مثل : لو معك ورقة نقدية بمائة ألف دولار ، وقلبت على وجهها الأملس الأبيض ، فظننتها ورقة عادية ، وكتبت علها رقم هاتف ، ثم مزقتها ، ورميتها في سلة المهملات ، ولم تدر أن هذه ورقة مالية بمائة ألف دولار ، كيف تصاب بخيبة أمل ، ولا تعوض أبداً .

ورقة مالية موضوعة على الطاولة على وجهها الآخر الأبيض ظننتها ورقة عادية ، استخدمتها كورقة عادية لا تساوي قرشاً واحداً استخدمتها ، ثم مزقتها ، ورميتها في سلة المهملات ، وهي ورقة مالية تحل لك كل مشكلاتك المالية .

هذا مثلٌ للتقريب ، أيّ دين من أجل أن تسعد في الدنيا والآخرة بعته بمائة ألف ليرة ، إذا حكم إنسان بين اثنين ، وتلقى مبلغ مائة ألف ليرة مقابل أن يحكم لغير الحق ، الذي يضع يده على المصحف ، ويحلف يميناً كاذبة من أجل خمسة آلاف ليرة يأخذها كشاهد زور ماذا فعل هذا ؟ اشترى بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً .

الأمثلة كثيرة جداً ، وأينما تحركت ، وأينما اتجهت تجد مسلمين يشترون بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً ، أي هذا الذي يؤثر متابعة عمل ساقط على حضور مجلس علم ، أي اشترى هذا المجلس بمتعة آنية مثلاً، اشترى بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً .

أسباب نزول هذه الآية صارخ ، فإن هؤلاء كانوا قد آمنوا برسول الله عليه الصلاة والسلام ، فلما تضاربت مصالحهم مع إيمانهم تخلوا عن إيمانهم ، ونطقوا بالكفر ، من أجل مساعدة تنالهم من هذا الثري في عهد النبي .

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من الآية 77)

لو أنك ملكت الدنيا بأكملها ، لو أنك ملكت القارات الخمس ، لو أنك مهيمن على القارات الخمس معاً ، لو أن أموال الدنيا كلها في حوزتك ، ولو أن الدنيا جلبت لك من أطرافها ، لو أنك وصلت إلى المجد من كل جوانبه ، وخسرت الآخرة فقد اشتريت بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً .

هؤلاء الذين بلغوا قمم النجاح في الدنيا قد يكون نجاحًا ماليًا ، أو علميًا ، أو إداريًا ، وخسروا الآخرة ، اشتروا بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلا ، الدنيا قصيرة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

هذا الذي لا يلتفت إلى الدين إطلاقاً ، بل يلتفت إلى بناء نفسه ، وكسب المال الوفير ليشتري بيتاً مريحاً، ويقترن بامرأة جذابة ، ويتمتع بكل مباهج الدنيا ، ولا يعبأ لا بكتاب ، ولا سنة ، ولا مجلس علم، ولا طاعة ، ولا انضباط ، ولا سلوك فقد اشترى بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلا .

أيها الإخوة ، إن عرفت الله ، وفاتتك الدنيا بأكملها فأنت الرابح الأول ، وإن ملكت الدنيا بأكملها ، وفاتتك معرفة الله فأنت الخاسر الأول .

4 ـ ينبغي لهذه الآية أن تفعل فعلها في نفوس المؤمنين :

أيها الإخوة ، هذه الآية ينبغي أن تفعل فعلها في نفوس المؤمنين ، لا يبيع دينه ولو أعطي أموال الدنيا تحت قدمه ، أعرف والله مؤمناً عُرض عليه مائة مليون ظنوا أنه يمتنع عن تسجيل مائة بيت أنشأها ، وباعها يمتنع عن تسجيلها لهم طمعاً بالمال ، فلما عرض عليه هذا المبلغ قال : لا أنا أخذت حقي ، وقبضت الثمن ، وربحت ، وليس لي عندكم شيء ، لم يبع دينه بمائة مليون ، والله المؤمن لا يبيع دينه ولا بمليار ، ولا بألف مليار ، لأن دينه يعني الأبد ، سعادة الأبد ، أما الدنيا فتنتهي ، عش ما شئت فإنك ميت ، هؤلاء الذين كسبوا أموالاً بالحرام ، وسكنوا بيوتاً رائعة ، وعاشوا حياة مترفة ، وأكلوا ، وشربوا ، وتنعموا ، وسافروا ، وركبوا أجمل المركبات ، وسكنوا أجمل البيوت ، وطافوا أطراف الدنيا، ثم جاءهم الموت ، ونسوا ربهم .

والله سمعت عن إنسان عاش في بلد الحرمين ما صلى فرض صلاة خمساً وثلاثين عاماً ، ولا حج ، ولا اعتمر ، وقد جمع ما يزيد على أربعة آلاف مليون ! مات بسكتة في فندق في أوروبا في الخامسة والخمسين ، هذا اشترى بعهد الله وإيمانه ثمنا قليلا ، هذا الذي ينكب على الدنيا ، ولا يعبأ بالدين ضيع آخرته من أجل الدنيا ، هذه الآية واسعة جداً يمكن أن تفهمها فهماً موسعاً جداً بعموم القصد ، وقد تفهمها فهماً ضيقاً بأسباب النزول ، لكن حينما تؤثر الدنيا على الآخرة ، حينما تكسب من الدنيا وتضيع من الآخرة فأنت ممن تنطبق عليك هذه الآية .

هذا الذي يروق له أن يبقى في بيت ليس له ، وعنده بيت آخر ، ولا يعبأ بعهده الذي عاهد عليه ، فقد اشترى بعهد الله وإيمانه ثمنا قليلا .

قصة وعبرة :

سمعت هذه القصة ، وهي قديمة جداً ، قال تاجر من تجار البيوت : أعندك بيت للأجرة قال : لا ، أنا لا أؤجر ، أنا أبيع فقط ، ألح عليه مرتين أو ثلاثا فأجره بيتاً كاسداً ، قال : عهد الله علي إن طلبته مني لأسلمك إياه في أربع وعشرين ساعة ! مضت السنوات ، وارتفعت أسعار البيوت إلى درجة كبيرة ، وجاء من يشتري البيت بعشرة أمثال ثمنه في السابق ، فجاء هذا المؤجر للمستأجر الذي قطع عهداً على نفسه أن يسلم البيت في أربع وعشرين ساعة ، قال : أنا البيت بعته ، وأنا لا أطالبك بعهدك أن تسلمني إياه في أربع وعشرين ساعة ، معك ستة أشهر ، بعد ساعات لا تزيد على العشرين طرق باب المالك ، وقدم له مفتاح البيت ، صعق ، ودهش ! انطلق إلى البيت فوراً ، فإذا هو في أحسن حال ، التقى بأحد الجيران ، قالوا له : كم أخذ منك ؟ قال : واللهِ لم يأخذ شيئاً ، إلا أنه عاهدني أن يقدم لي البيت حينما أطلبه ، وقد طلبته ، فقالوا : لقد باع كل أثاثه بأبخس الأثمان ، وسكن في الفندق !

لو يوجد مسلمون بهذا المستوى فلن تجد أزمة سكن في بلدنا إطلاقاً ، لأنه عاهد ، اشتروا بعهد الله وأيمانه ثمنا قليلا ، هذه قصة لها تتمة فيها غرابة ، أن هذا الذي وجد هذا العهد من هذا المسلم كأنه استثار كل قيمه ، فذهب إليه ، وأعاده إلى البيت ، وباعه إياه بالثمن الذي سكن فيه أول مرة ، وجعل أجرته التي دفعها من ثمن البيت ! وتكفّل بتأثيث البيت على حسابه ، العهد ، ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له .

لو أن كل مسلم وقف عند عهوده ومواثيقه لكنا في حالة غير هذه الحالة ، لو أن المسلم فهم الدين وفاء بالعهد ، وإنجازاً بالوعد المسلم القديم الذي كان في زمن التألق فهو مستعد أن يخسر الدنيا بأكملها ، ولا ينقض عهده ، والمسلم المعاصر مستعد أن ينقض عهده ألف مرة ، ولا أن يخسر درهماً واحداً ، قيل لأحدهم في المحكمة : أتحلف ؟ وهو شاهد زور ، قال : أحلف ، فلما دخل إلى مجلس القاضي رأى مصحفاً على الطاولة ، فقال له القاضي : ضع يدك على المصحف قال : لحظة

، فعاد إلى الذي كلفه أن يشهد شهادة زور وقال : أريد عشرة آلاف ، وكان طلب منه خمسة آلاف ، قال : لأنه هناك يمينًا !

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا)

والله هناك مؤمنون لو تعطيه مليارا لا يحلف كاذبًا أبداً ، هذا دين .

قد يكون الإنسان في أمسّ الحاجة إلى المال ، ويعرض عليه مال وفير تحل به كل مشكلاته ، لكن هذا المال ليس حلالاً فيركله بقدمه ، إن الله هو الغني ، حينما تجد مسلمين هكذا فلا يستطيع عدو أن يتحدى المسلمين ، حينما تجد مسلمين عند عهدهم ، ووعدهم ، ودينهم أغلى عليهم من حياتهم ، حينما تجد مسلماً لا يمكن أن يخون العهد ، ولا يخلف الوعد لكنا في حالة غير هذه الحالة ، لأسبغ الله علينا هيبة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((... نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ...))

(متفق عليه)

أما أمته من بعده فحينما خانت العهود ، ونقضت المواثيق هزمت بالرعب مسيرة عام ، قد تجد بلادًا أخرى تتحدى هذه القوة الغاشمة بالعالم تصمد وتواجه ، لكن المؤمن حينما يكون مع الله يكون قوياً ، أما حينما يعصي الله يضعف مركزه ، حينما يخون العهد ، ويخلف الوعد يصبح خائفاً ، يخاف من ظله ، هذه الآية وإن كانت في الأصل تعني أهل الكتاب ، لكنها تعني كل المسلمين اليوم ، حينما يكون دينك في المكان الأول ، ولا تساوم على دينك ، ولا على مبادئك .

5 ـ الحكم ظلما هو من اشتراء بعد الله والأيمان ثمنا قليلا :

موقف مرن جداً لو سئلت عن إنسان ، وتوهمت أنك إذا ذممته تنال مكانة عند فلان تذمه ، وقد يكون الذي تنال عنده مكانة سيئاً فاسقاً منحرفاً بعيداً عن الدين ، الأمثلة لا تعد ولا تحصى ، لمجرد أن تقول غير الحق ، وأن تسكت عن الحق ، وتنطق بالباطل ، لمجرد أن تحكم حكماً جائراً لمصلحة ما ، كم من إنسان يحكم في أقربائه ؟ يكون ثمة خلاف زوجي ، حينما ينحاز الإنسان لابنته ، أو لأخيه ، أو لقريبه انحيازًا أعمى فقد خان الأمانة ، ينبغي ألا تأخذك في الله لومة لائم .

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ)

أحياناً الثمن يكون قليلاً ، من أجل أن تتناول طعام الغداء بالمطعم ، أو في مكان جميل لا تصلي ، لا يروق لك أن يقال عنك : إنك ملتزم ، فلا تصلي ، وقد تجلس على مائدة فيها خمر طلباً للسلامة ، أنت دينك رخيص .

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ)

1 ـ الخَلَاق :

الخلاق أيها الإخوة ، من الخلق ، وهو ثمن الجنة ، أنت في الدنيا تقلد الكرماء تتكرم إلى أن تصبح كريماً ، وذا خلق كريم ، تعطي براحة من دون صراع من دون شد ، وجذب ، هناك تكرم ، وهناك كرم ، هناك تحلم وحلم ، فالخلق الكريم ثمن الجنة ، أن تكون عفواً متواضعاً كريماً أميناً ، أن تكون صادقاً بلا جهد ، أصبح الكرم طبعاً من طباعك ، أصبح الصدق خلقاً ثابتاً عندك ، تصدق دون أن تدخل في مناقشة مع نفسك ؛ أصدق أم لا أصدق ؟ هذه في البدايات ، لأنه يكون هناك مجاهدة للنفس والهوى ، لكن بعد أن تنضج ، وتصبح مؤمناً ثابتاً تصدق ، لأنك تحب الصدق ، تكون حليماً لأنك تحب الحلم ، تكون منصفاً لأنك تحب العدل ، هذا الخلق الكامل الثابت العفوي الفطري هو ثمن الجنة ، وثمة إنسان يكون ذكيًا جداً ، وإنسان يأخذ موقفاً لطيفاً جداً خارج البيت ، أما إذا دخل البيت فهو الوحش الكاسر ، هذا كله تخلّق ، وليس خلقاً ، أما ثمن الجنة فهو الخلق الحسن .

((وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا))

[ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو]

((بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ))

[مالك في الموطأ]

هؤلاء الذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً خسروا ثمن الجنة ، أي خسروا الجنة .

2 ـ أهمية الأخلاق :

لا شيء يمهد لك السبيل لدخول الجنة ، والتمتع بها إلى أبد الآبدين ، كأن تكون ذا خلق ؛ أمين ، صادق ، عفيف ، متواضع ، رحيم ، الكمال الإنساني إذا كان فيك طبعاً مع الثبات والاستمرار ، في البدايات الكمال تصنع ، لكن في النهايات الكمال طبع ، إنسان له باع طويل في الإيمان لا يمكن أن يكذب ، وحينما يُسأل ليس هناك شيء اسمه صراع ، أصْدق أم لا أصدق ؟ ألم يقل الله عزوجل :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم: الآية 4)

(على) أي متمكن من هذه الأخلاق ، ثمن الجنة أن تكون الأخلاق الكاملة طبعاً ثابتاً فيك ، فهذا الذي يشتري بعهد الله وإيمانه ثمنا قليلا هذا خسر ثمن الجنة .

(أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ)

1 ـ تكليم الله للمؤمن وعدم تكليمه للكافر يوم القيامة :

إبعاداً لهم عن ذاته العليا ، هم أحقر من أن يكلمهم الله عز وجل ، أما المؤمنون حينما يساقون إلى الجنة وفداً وزمراً تنقل لهم الملائكة سلام ربهم لهم !

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر : من الآية 73)

2 ـ الله لا ينظر للكافر ، والكافر محجوب عن رؤية الله :

هؤلاء يكلمهم الله يوم القيامة ، يسمح لهم أن ينظروا إلى وجهه الكريم ، وقد أجمع العلماء على أن قوله تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس : من الآية26)

الزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم ، والحسنى هي الجنة ، وما الذي فوق الزيادة أن يرضى الله عنهم.

(وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : من الآية 15)

فثمة دخول الجنة ، ثم النظر إلى وجه الله الكريم ، ثم إن الله الكريم يرحب بهم ، ويمنحهم رضوانه ، ويكلمهم ، فهؤلاء نالهم أشد عقاب في تاريخ البشر .

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ)

أضرب مثلاً للتقريب .

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل : من الآية 60)

لو أن إنسانًا عظيمًا ، في أعلى مستوى ، وعنده حاجب ، لو أنه قال لهذا الحاجب : كيف حالك اليوم ، هل أنت مسرور ؟ هل تحتاج إلى شيء مني ، هذا الحاجب يبقى سنة مترنمًا بهذه المودة من سيده ، أو إنسان عنده منصب خطير ، وعنده سائق ، والسائق مؤدب جداً ، هذا السائق حينما يخاطبه سيده بكلام لطيف ؛ كيف حالك اليوم يا بني ، هل أنت مسرور ؟ أهلك بخير ؟ أولادك بخير ؟ يلزمك شيء ؟ مثلاً، يبقى هذا ثملاً بهذه الكلمات الطيبة :

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل : من الآية 60)

فكيف إذا كنت في الجنة ، وخاطبك الله عز وجل ؟ وسمح لك أن تنظر لوجهه الكريم ، وفي بعض الآثار أن المؤمنين يغيبون عن الوعي خمسين ألف عام من نشوة النظرة :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(سورة القيامة : 22-23)

أما الطرف الآخر والعياذ بالله :

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين : 15)

والله أيها الإخوة ، عندنا قصص كثيرة في القرآن ، سيدنا إبراهيم ، وهو في النار كان في قمة السعادة، لأنه حظي بالسكينة ، وجدها إبراهيم في النار ، وجدها أهل الكهف في الكهف ، تركوا الدور والقصور، ولجؤوا إلى الكهف .

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا)

(سورة الكهف : من الآية 16)

وكل واحد مؤمن إذا جاء إلى بيت الله ، وجلس يحضر درس علم ، ثم ذهب إلى بيته ، والتقى بأولاده ، وكان مع الله قد يكون البيت صغيرًا ، ضيقًا ، بعيدًا ، لا يوجد مرافق عالية ، ولا أجهزة كهربائية ، لكن يوجد اتصال بالله ، يوجد أنس بالله ، ورضوان منه ، قد يتجلى الله على سكان بيت متواضع ، وربما لا يتجلى على سكان بيت فخم جداً ، الأولون في سعادة ما بعدها سعادة ، والآخرون في شقاء ما بعده شقاء.

(وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ)

وَلَا يُزَكِّيهِمْ

لا يطهرهم من أدناسهم ، لو أنهم أقبلوا عليه لطهرهم ، ونمّى إمكاناتهم ، وأعطاهم من عنده شيئاً كثيراً ولقربهم .

(أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ)

قال رجل لسيدنا عمر ، وكان عمر لا يحبه : << أتحبني ؟ قال : والله لا أحبك ، لا تلزم المجاملة ، فهو صريح ، قال : وهل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ قال : لا والله ، حقك يصلك ! فقال هذا الإنسان السفيه : إنما يأسف على الحب النساء >> ، ما دام حقي يصل إلي فلا تهمني محبتك ، قال: لك ما تريد ، هنا قد يقول أحد : لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ، خير إن شاء الله أكمل :

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

عذاب لا ينفد ، إذا كان زاهداً في الكلام ، والقرب ، والنظر ، وبالتزكية ، لكن له عذاب أليم ، بربك من هو الناجح في الحياة ؟ من هو الذي ؟ من هو العاقل ؟ من هو المتفوق ؟ من هو الموفق ؟ من هو المفلح ؟ من هو الذي له يوم القيامة مقام عند الله ؟

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(54)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر: 54-55)

هؤلاء الذين لهم عند الله حظوة هم الأذكياء ، هم ملوك الدار الآخرة ، هؤلاء الذين لهم عند الله مكانة ورفعة ، هؤلاء الناجحون ، لذلك دخل على رسول الله صحابي فقير جداً ، فوقف له النبي ، ورحب به ترحيبًا غير معقول ، وقال : أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه ، قال : أو مثلي ؟ من أنا ؟ قال : يا أخي خامل في الأرض ، علم في السماء .

قد يكون الإنسان ضارب آلة كاتبة في دائرة ، أو حاجبًا .

والله مرة كنت في مؤتمر ، والإقامة من أرقى فندق ببلد في المغرب ، سمعت عند صلاة الفجر آذنًا أو عاملا يصلي الفجر بصوت ندي ، والله شعرت أن هذا الذي يصلي بصوت ندي ، ويتلو كتاب الله ، ويتغنى به في الصلاة قد تكون قلامة ظفره خيراً من كل من في الفندق ، مقاييس الله غير مقاييسنا ، نحن عندنا المقاييس بالمال ، والمراتب الاجتماعية ، رجل يفتخر بمتاع الدنيا فقط ، قد يفتخر برقم على مركبته ستمائة ، وليس مائتين وثمانين ، قد يفتخر بمنطقة سكنه ، ومن تخلف المسلمين يفتخرون بمتاع الدنيا فقط ، مكانته من نوع بدلته بيار كاردان ، انتهى ، مكانته من حذائه فقط ، هذا حال المسلمين اليوم ، أما أن نفتخر بمعرفتنا لله ، وبطاعتنا له بالمال الحلال الذي نكسبه فقط ، الحرام يركل بقدمنا .

خاتمة :

أيها الإخوة ، هذه الآية يحتاج المسلمون إلى فهمها فهماً دقيقاً ، وإلى العمل بها أيما حاجة ، فالدين هو الأول ، والمبادئ هي الأولى ، والقيم هي الأولى ، وأي شيء على حساب مبادئك ، ودينك ينبغي أن تركله بقدمك ، وما ترك عبد شيئًا لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(23-60): تفسير الآيات 78 – 80
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-05-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون : مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثامنة والسبعين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ

1 ـ من طرق تحريف اليهود للنصوص :

أيها الإخوة الكرام ، هذا نوع من الانحراف ، لأنك تعتقد أن الناس يعظمون كلام الله ، وأنهم يعظمون الله ، وأنهم يعظمون أمره ، فإن أردت أن تصل إلى مصالحك من خلال الدين فلابد أن تلعب بالنصوص ، لابد أن تلوي أعناقه ، لابد أن تأوِّلها تأويلاً غير صحيح ، لابد أن تحلف ، وتقدم وتؤخر ، ولابد أن تدعي أن القصد كذا ، والمعنى كذا ، فهذه العملية بمجملها عملية تحريف النص ، أو عملية لَيِّ عنق النص ، أو عملية مسخ النص ، أو أن تنطق بدلالة ليست له ، أو أن تأتي بمناسبة لا تصلح له ، وأيّ افتعال لصرف النص عن مؤداه الحقيقي ، وأيّة عملية فكرية هدفها أن تغيّر من أجل أن تحقق فهماً لهذا النص ينسجم مع مصالحك فهذا تحريف .

أمثلة عن تحريف النص :

مثلاً : أنت حينما تقول في قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : من الآية 130)

وتقول : إنما النهي لا عن الأضعاف القليلة ، بل عن الضعاف الكثيرة ، وفاتك أن هذا ليس قيداً احترازياً ، بل هو قيد وصفي ، أنت حينما تقرأ قوله تعالى :

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة النور : من الآية 33)

فإن لم يردن تحصناً فلك أن تكرههن على البغاء مثلاً ، هذا فهم خطير لهذا النص ، هذا فهم فيه ليٌّ لعنق النص .

حينما تقول في بعض الآيات :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة : من الآية 13)

تقول : لا لم يشأ الله أن يهدي البشر ، فالله عز وجل يمتحن عباده .

يأتي إنسان مريض القلب فيفسر هذا النص وفق أهوائه ، يقول لك : ليس في القرآن آية تقول : الخمر حرام ، حرمت عليكم الخمر ، هناك (فاجتنبوه) ، هذا ليس تحريماً ، فإما من كلمة ، أو من عبارة ، أو من إضافة ، أو من حذف ، أو من الإتيان بأسباب نزول ليست صحيحة ، على كلٍّ هناك محاولة ذكية لصرف النص عن مؤداه الحقيقي ، النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال :

((مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، يَعْنِي الثُّومَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا))

(متفق عليه عن ابن عمر)

هل أراد منك أن تأكل من هذه الشجرة من أجل ألا تأتي إلى المسجد يوم الجمعة ؟ مستحيل ، ينهاك عن أن تؤذي من حولك ، أنت فهمت النص فهماً آخر .

حينما قال : غض بصرك ، لولا أنه يجب أن تبرز المرأة مفاتنها لما أمرنا بغض البصر ، من قال لك ذلك ؟ من هذا القبيل نصوص ، واجتهادات ، وتعليقات لا تعد ولا تحصى ، لولا أن المرأة مسموح لها أن تظهر مفاتنها لما أمرنا بغض البصر هكذا ! إذا خرجت المرأة متعطرة ليجد الناس ريحها لم ترح رائحة الجنة ، تقول امرأة إن أرادت لي عنق النص : أنا لا أريد أن يجد الناس هذه الرائحة ، لم أقصد أن تتعطر عطراً فواحاً يلفت النظر ، فمن دون أن تقصد لا شيء فيه ، هذا أيضاً ليٌّ لعنق النص ، فهناك نصوص في العقيدة ، وفي الفقه ، وفي المعاملات ، النص واضح ، وله قواعد أصولية في فهمه، وعلم الأصول من أرقى العلوم ، حتى إن بعضهم قال : إن علماء الدين أمام علماء الأصول عوام ، علم الأصول علم استنباط الحكم الشرعي من النص ، أما كل إنسان يتأمل في آية ، و في حديث فيستنتج منها ما يحلو له ، يقول لك :

((كُلُّ نَبِيٍّ سَأَلَ سُؤْلًا ، أَوْ قَالَ : لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

(متفق عليه)

جيد ، إذاً : اقترف الكبائر من أجل أن تنالك شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ، هذا كلام مضحك ، هذه التأويلات ، وتلك التفسيرات ، وهذه التخرصات إنما من أجل أن تصرف النص عن مؤداه الحقيقي، عن الغاية النبيلة التي شرع من أجلها ، ولازلنا في هذا التعبير العلمي الدقيق :

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ)

يقول مثلاً :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

يقول : الشيطان وصل للأنبياء ، أنا نبي ؟ هذه الآية ليس هذا معناها ، إذا تمنى النبي هداية قومه ألقى الشيطان في أمنيته هو أن يضلهم ، أما أن يصل شيطان إلى النبي الكريم ، أين حصانته ؟ وأين إقباله وأين نوره ؟ هذا الباب إذا فتحناه لا ينتهي .

المغرض المنتفع الجاهل المتعصب الذي يريد أن يفهم النصوص كما يحلو له ، حتى يغطي بهذا الفهم السقيم انحرافاته ، بعضهم ألف كتاباً عن القرآن الكريم ، بعد قراءة القرآن ثبت له كما يقول : إنه لا يجد في كتاب الله ما يمنع المرأة من أن تضع على جسمها إلا ثيابها الداخلية ! ولأقربائها ، ولمن هم أقرب الناس إليها أن يروها كما خلقها الله ! هذا كلام لا يحتمل ، يقول لك : الحديث :

((انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا))

[الترمذي، النسائي ، ابن ماجه ، أحمد عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ]

انظر إليها ، المطلق على إطلاقه ، أي انظر إليها كما خلقها الله ، هذا كله تحت عنوان ليّ عنق النص، وتحريف النص ، وتزوير النص ، وصرف النص عن غايته الأساسية .

2 - لابد من فهم النصوص على مراد الله حتى لا نكون كاليهود :

أنت مسلم لك مع النص تعامل كبير جداً ، دينك دين وحي ، والوحي نص ، أخطر شيء في الدين تعاملك مع النص ، هل تفهمه كما أراده الله أم تفهمه وفق مزاجك وأهوائك وشهواتك ومصالحك ؟ فالذي يأكل الربا يقول : الله لم ينهَ عن الربا بنسب قليلة ، نهى بنسب عالية جداً والدليل :

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : من الآية 130)

عندما قال الله عز وجل :

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

(سورة البقرة : من الآية 279)

آية واضحة كالشمس .

(فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 223)

من أيّ مكان ، لا ، يقول الله : حرثكم من مكان الإنبات ، لا من مكان القذر ، فكل إنسان له أهواء مصالح ، ومطامح ، وغرائز ، يحاول أن يفهم النص كما يحلو له ، وما ذكر الله هذا عن أهل الكتاب إلا لأننا مؤهلون أن نقع في هذه المشكلة مرة ثانية ، وجميع الفرق الضالة اعتمدت على نصوص ضعيفة ، أو موضوعة ، أو على نصوص صحيحة أوّلت تأويلاً غير صحيح ، فقضية

النص قضية خطيرة جداً ، أنت معك منهج السماء ، ومنهج السماء هو الوحي ، الكتاب ، القرآن ، وسنة النبي العدنان ، الوحي الأول والثاني ، الوحي المتلو ، والوحي غير المتلو نصوص ، ولك أن تفهمها كما فهمها علماء الأصول ، كما فهمها أصحاب رسول الله في الحقب الثلاث التي جاءت بعده ، وقد شهد النبي عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الصحاب الكرام ـ ولهؤلاء التابعين ، ولتابعي التابعين ، أي شهد النبي الكريم لقرنه ، والقرن الذي يليه ، والذي يليه أيضاً شهد لهذه القرون الثلاثة بالخيرية ، فأنا أفهم النص لا كما تحتمله اللغة ، بل كما فهمه أصحاب رسول الله .

كشاهد : لو قال بيتًا من الشعر بعض أصحاب رسول الله :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

فمصيره الجنة ، ولو قرأت النص من دون ضبط بالشكل ألا يحتمل أن تقول :

ولست أبالي حين أقتُلُ مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

فمصيره إلى النار ، وبئس المصير ، بالعكس عندما يقتل المرء مسلماً يخلد في النار ، فبين أن تكون من أهل الجنة وأن تكون من أهل النار ، بين أُقتل ، وأَقتل حركة بالضمة ! هو النص يحتمل ضمة ، ويحتمل فتحة ، لكن ماذا قال الصحابي ؟ أنت حينما تتغنى بهذا البيت فإنه قال : أُقتل مسلماً ، وما قال : أَقتل مسلماً ، هذا مستحيل ، فاحتمالات اللغة لا تكفي أن تفهم ماذا قال الصحابة الكرام .

3 ـ أخطر شيء في حياة المؤمن هو فهم النص :

هذا الشيء يقودنا إلى أن أخطر شيء في حياة المؤمن هو فهم النص ، لا النص نفسه ، فهمه . مثلاً :

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

(سورة النور: من الآية 33)

بربك هل في العالم الإسلامي كلّه أبٌ واحد يكره ابنته على الزنى ؟ مستحيل ، لكن كلما جاءك خاطب رددته ، هذا لضآلة دخله ، وهذا لبعد بيته ، وهذا لعدم لياقته ... وأنت مرتاح ، ابنتك تتمنى زوجاً يسترها ، ويحفظها ، ويحميها وتأنس به ، ويأنس بها ، وأنت تبحث عن أدق العيوب ، وترفض الخاطب لأدق العيوب ، أنت ماذا تعمل ؟ أنت بهذا تقوي رغبة ابنتك في الزواج ، وفي ساعة غفلة قد تفتقدها من البيت ، أو قد تسقط في حمأة الرذيلة ، وغي ساعة غضب قد تستسلم لشاب أغراها بكلام معسول ، لأنه كلما جاءك الخاطب رددته .

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)

هي تريد أن تكون محصنة ، وأنت لا تريد لها ذلك ، أنت تريد شابًا تفتخر به ، وتفتخر بماله ، وتفتخر ببحبوحته ، هكذا الآية ، أما هل يعقل إنسان أن يكره فتاته على الزنى ؟ مستحيل .

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل : من الآية 43)

أهل الذكر هم أهل الوحي ، والله عز وجل يقول :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس : من الآية 39)

4 ـ اسأل أهلَ الذكر عن معنى النص :

معنى ذلك ينبغي أن تفهم تأويل هذا القرآن الكريم من أهل الذكر ، من أهل الوحيين ، أردت من هذا الموضوع تعديل النص ، وجره إلى معنى بعيد عنه ، لي عنق النص ، صرف النص عن مضمونه الحقيقي ، نحن حينما نقول لطالب الوظيفة : ائتنا بحسن سلوك من المختار فرضاً ، هذا شيء مهم جداً ، أن يشهد لك مختار محلّتك أنك إنسان طيب وصالح ، لكن هذا الأمر فُرّغ من مضمونه ، فأي إنسان يطلب حسن سلوك يأخذ حسن سلوك ، ولو كان قاطع طريق ، فإذاً الوثيقة لم يعد لها قيمة إطلاقاً ، فُرغت من مضمونها ، وانتهت هذه الوثيقة .

فالنصوص حينما تؤول تأويلاً مغلوطاً ، وحينما تصرف عن معناها الصحيح إلى معنى مفتعل مغلوط، حينما نقدم ، ونؤخر ، ونضيف حركة ، ونحذف حركة يكون هذا تحريفا .

من الأغلوطات بسبب سوء فهم النص :

ذكرت لكم بعض الأمثلة :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف : من الآية 29)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة التكوير : الآية 29)

أخي متى تصلي ؟ الله لم يشاء لي بعد ! ما هذا الكلام ؟ هذه الآية :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة التكوير : الآية 29)

هل فهمت الآية هكذا ؟ لا ، إذا استحققت دخول الجنة لأن الله منحك حرية الاختيار ، ولولا أن الله تفضل عليك ، ومنحك حرية الاختيار لما كنت مختاراً ، ولما كنت من هذا الاختيار من أهل الجنة ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة التكوير : الآية 29)

يقول الله عز وجل لك لا يريد هداية عباده ، والدليل :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة : الآية 13)

نريد أن نعبئها ! هذا فهم سقيم جداً ، هناك من يدّعي أن الله أجبره على المعصية ، يقول الله عز وجل: يا عبادي لو أني كنت مجبركم على شيء لما أجبرتكم إلا على الهدى ، ولو شئنا أن نجبركم ، ونسلبكم اختياركم ، ونلغي هويتكم ، وأن تكونوا كمخلوقات أخرى مسيرين ، وأجبرناكم على شيء ما لما أجبرناكم إلا على الهدى ، أما هذا الذي تفعلونه من اختياركم ، ومن كسبكم ، ومن صنع أيديكم ، لذلك سوف تدفعون ثمنه باهظاً هذا المعنى ، بين أن تفهم أن الله يريد هداية خلقه .

مثلاً : أمن المعقول أن ترى حاجزًا في الطريق ، خير ، على سجن عدرا ؟ ماذا حصل ؟ لأنه فارغ ، ونريد أن نملأه ! هذا الكلام غير معقول ، ولا يقبله عقل ، هناك من يفهم هذا الكلام هكذا .

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة : من الآية 13)

لا ، ليس هذا هو المعنى .

وقال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

[الحج : من الآية 52]

الشيطان وصل إلى النبي وألقى ؟ لا ، النبي يتمنى هداية قومه ، والشيطان يتمنى إضلالهم ، وليس بأماني النبي ، وليس بأماني الشيطان ، إنما هو باختيار الإنسان .

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 272)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص : من الآية 56)

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

(سورة الغاشية : الآية 22)

الإنسان مخير ، فالفرق كبير ، يقول :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس : الآية 7-8)

الهداية من عند الله عز وجل ، الله لم يهدني بعد ، فلان شارب خمر لا تعترض ، كاسات معدودة بأماكن محدودة ، الآية :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس : الآية 7-8)

ليس هذا هو المعنى ، المعنى أن الله فطر النفس فطرة عالية ، وجبلها جبلة عالية ، وبرمجها برمجة عالية ، حيث إذا أخطأت تحس على خطأها من دون معلم ، وإذا التقت تحس أنها مستقيمة من دون معلم، مصممة هذه النفس أن تعرف حقيقتها .

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة : 14-15)

شيء واضح ، يقول تعالى :

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

(سورة الكهف : من الآية 28)

ما ذنبه هذا ؟ الله جعله غافلا ، أغفلنا ، من قال لك يا أخي : إن أغفلنا تعني أن الله خلق فيه الغفلة ؟ أعوذ بالله ، افتح كتب اللغة ، أغفلنا يعني وجدناه غافلاً ، والعرب تقول قبل الإسلام : عاشرت هؤلاء القوم فما أجبنتهم ، أي ما وجدتهم جبناء ، عاشرت هؤلاء فما أبخلتهم ، أي ما وجدتهم بخلاء .

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

(سورة الكهف : من الآية 28)

ليس معناها أننا خلقنا فيه الغفلة ، ثم نحاسبه ، أيعقل أن يأمر مدير مؤسسة موظفاً أن يسافر إلى حلب ، ثم يتفقده في اليوم التالي ما داوم ، أنت أعطيته أمرًا أن يسافر إلى حلب ، سأعاقبه ، أنت أمرته أن يسافر ، وتعاقبه لأنه غاب عن الدوام في اليوم التالي في مركز الشركة ؟ هذا مستحيل .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياكَ إياك أن تبتل بالماء !

***

هكذا يصورون الله عز وجل ، أنه قدر عليه الكفر قبل أن يخلق ، جاء إلى الدنيا ماذا فعل هذا العبد ؟ نفذ مشيئة الله في جهنم إلى أبد الآبدين ، لأنك كافر ، ألا يقول الإنسان : ما ذنبي أنا ؟ أنت خلقتني كافراً، أنت قدرت علي الكفر ، كيف تعذبني ؟ قال لا :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان : الآية 3)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة : من الآية 148)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف : من الآية 29)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 148)

هذا كذب على الله ، سيدنا عمر جاؤوا إليه بشارب خمر فقال : << أقيموا عليه الحد ، قال : والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر علي ذلك ، يتكلم مع سيدنا عمر عملاق الإسلام ، فقال : أقيموا عليه الحد مرتين ؛ مرة لأنه شرب الخمر ، ومرة لأنه افترى على الله ، قال له : ويحك يا هذا ، إن قضاء الله لن يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >> .

في اللحظة التي تتوهم أنك مسيّر في كل شيء ، لِمَ لا تصلي ؟ ما شاء الله لي أن أصلي ، أليس للإنسان علاقة بالهداية والضلال ؟ الله يهدي أناسًا ، ويضل آخرين ، كيف يحاسبهم ؟ لماذا يعذب المنحرف منهم ؟ لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أنه أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً وأعط على القليل كثيراً .

أخطر شيء حينما تفسد عقيدة الإنسان فلابد أن ينحرف ، ما أدري أوضحت هذه الحقيقة : كيف يُلوَى عنق النص ؟ كيف يزوّر النص ؟ كيف يخرج النص عن مدلوله الحقيقي ؟

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

(سورة الحج : من الآية 41)

لم لا تصلِي ؟ الله لم يكلفه بعد ! والله شيء جميل .

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر : الآية 99)

لِمَ لا تعبد الله ؟ أنا جاءني اليقين حتى انتهاء الغائب ، أرأيتم إلى هذه الأمثلة ؟ هذا معنى ليّ عنق النص ، هذا معنى تزوير النص ، هذا معنى إخراج النص عن قصد التعظيم .

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ)

يأتيك بآية ، أو بحديث ، أو بآية من التوراة عن هؤلاء ، أو بآية من الإنجيل ، يلوون ، يعني يغيرون صياغتها ، أو يغيرون مدلولها ، في بعض الكتب المعاصرة المال والبنون قال : البنون البناء زينة الحياة الدنيا ، المال والبناء .

(لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ)

ليس هذا كلام الله ، ليس هذا الفهم فهماً صحيحاً لكلام الله ، وليس هذا الفهم صحيحاً لسنة رسول الله ، عنده اثنا عشر ولداً ، كلهم في الطريق ، لا تربية ، ولا علم ، ولا أخلاق ، ولا مدرسة ، ولا غذاء صحي ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ الْوَدُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ))

[النسائي وأبو داود]

هل تظن أن النبي أراد أن يباهي للعدد فقط ؟ النبي يباهي بالنوع ، عندما تجد عصرًا كعصر النبي كله أبطال ، أصحاب النبي كانوا أبطالا ، عندما تجد ألفًا كأفٍّ ، ما قيمة هذه الكثرة ؟ ما قيمة مليار ومائتي مليون ؟ وليس أمرهم بيدهم ، وليست كلمتهم هي العليا ما قيمته ؟ ما قيمة ملايين مملينة

تائهة عن الله عز وجل شاردة عنه ؟ تقترف المعاصي ، والآثام هان أمر الله عليها ، فهانت على الله ، المسلمون ينتظرون من الله أن يغيّر سننه ، وهم ليسوا مستعدين أن يغيّروا حياتهم أبداً .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد : من الآية 21)

5 ـ المنحرف يخترع لانحرافه تأويلاً بليّ النصوص :

هذا المرض الذي وقع فيه أهل الكتاب ، وقع فيه المسلمون بشكل موسّع جداً ، ما من إنسان منحرف حتى الذي ينحرف في علاقته مع أهله يقول : أنّى شئتم ، يا أخي فأتوا حرثكم ، الحرث مكان الإنبات ، الآية واضحة ، أنى تفيد إطلاق المكان ، ما هذا الكلام ؟ لا يوجد إنسان منحرف إلا يبحث عن تفسير منحرف لنص ، فالمرابي :

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : من الآية 130)

الذي لم يهتدِ ما أراد الهدى .

(وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل : من الآية 93)

هذا ليس عملنا ، شيء من المناقشات والحوارات بين الناس ، تجد أن كل إنسان مقترف المعصية يبحث عن غطاء من النصوص لتغطيتها .

إذا كان الواحد لا يريد مساعدة الفقير يقول لك : لست أرحمَ مِن ربه ، هل يعني ألاّ تساعده ؟ لأن الله قدر عليه الفقر لا يجب أن تساعده ؟ هكذا فهمك ؟ والآية واضحة :

(أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ)

(سورة يس : من الآية 47)

يجب أن تطعم الفقير ولو كان فقيراً .

مرة سمعت طرفة : أن من هذا الذي يؤمن بوحدة الأمة العربية ؟ قال : المهرّب ، لأن الحدود ألغاها ، ونقل البضائع عبرها ، هذا ليٌّ لعنق النص أيضاً

(وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

هذا من تخرصاتهم ، من أهوائهم ، من شهواتهم ، من انحرافاتهم ، من رغباتهم المريضة .

(وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

1 ـ إياك أن تكذب على الله ورسوله :

أخطر شيء في الحياة أن تكذب على الله ، وعلى رسوله ، فعَنْ الْمُغِيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّار))

[متفق عليه]

والكذب على رسول الله كأنه كذب على الله ، لأن الله أمرنا أن نأخذ ما قاله النبي ، فقال :

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر : من الآية 7)

الله أمرنا ، فإذا أتيت بحديث موضوع ، أو بحديث غير صحيح ، أو حديث ضعيف ، وأوهمتنا أنه من كلام النبي عليه الصلاة والسلام ، أنت ماذا فعلت ؟ كذبت على الله ، لأنك كذبت على المبلغ الذي يبلغ عن الله عز وجل .

إذاً :

(وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

يقول أحدهم : والله لست قاصدًا بأن أكذب على النبي ، النبي قال :

((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّار))

[متفق عليه]

أنا لست متعمدًا ، عندَ والدي كتاب قديم أقرأ منه ، هذه كلها أحاديث موجودة في كتاب والدي ، لم أفعل شيئًا ، اسمع الحديث الثاني : عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَة عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ حَدَّثَ عَنِّي حَدِيثًا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ))

[مسلم ، الترمذي]

يجب أن تتحقق قبل أن تقول : قال عليه الصلاة والسلام ، يجب أن تتحقق ، قل : يروى ، سمعت أن هناك حديثا يقول : استخدم صيغة التمريض كي تشعرنا أنك لست متأكداً أن هذا كلام النبي .

2 ـ لا تقل على الله ما لا تعلم ، ولا تقل خلاف ما تعلم :

لكن هنا مشكلة ، المشكلة أن إنسانًا قد يفتي بغير علم ، فتواه فيها خطأ كبير ، طبعاً هذا خطأ كبير أن تفتي بغير علم ، لكن الجريمة أن تفتي بخلاف ما تعلم ، فأنت تعلم أن هذا الشيء حرام ، لكن لمصلحة راجحة عندك أفتيته ، هذا في حكم الذنوب يعد مجرمًا ، هناك من يفتي بغير علم ، وهو آثم ، وإثمه كبير ، لكن هناك من يفتي بخلاف ما يعلم ، يعرف الحقيقة ، يعرفونه كما يعرفون أبنائهم ، ومع ذلك يكذبون نبوته ، ثم يقول الله عز وجل :

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي

1 ـ مقام الرسالة أعلى مقام :

هناك مقام الرسالة ، مقام الرسالة أعلى مقام ، مقام تبليغي ، وهناك مقام النبوة ، مقام سلوكي ، طبعاً مقام الرسالة سلوكي تبليغي ، إنسان يطبق منهج الله ، ويدعو الناس إلى منهج من عند الله ، جاء عن طريقه هو رسوله ، وقد يأتي نبي قبله رسالة ، هو مهمته أن يعيد الناس إلى جادة الصواب التي كانوا عليها ، فمقام النبوة مقام سلوكي ، مقام تطبيقي ، بينما مقام الرسالة مقام تبليغي .

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ)

(سورة المائدة : من الآية 67)

سيدنا يوسف لم يأتِ بكتاب ، لكن أحيا تطبيق الكتاب السابق ، فكلما فترت الهمم يأتي نبي ، كلما ضاع الحق يأتي رسول ، الرسول معه رسالة ، معه منهج من عند الله ، النبي معه تطبيق ، وقد تجد حكيماً آتاه الله فهماً ، وحكمة ، وعقلاً راجحاً ، واتباعاً لنبي قبله ، هذا اسمه حكيم .

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

(سورة لقمان : الآية 13)

فلقمان حكيم ، وسيدنا يوسف نبي ، وسيدنا محمد رسول ، بل هو سيد الرسل ، فهناك حكيم معه حق ، ويطبق هذا الحق ، وهناك نبي معه منهج سابق يطبقه ، وهناك نبي جاء بمنهج جديد فهو رسول ، يقول الله عز وجل :

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ)

يعني رسول معه كتاب معه وحي .

(وَالْحُكْمَ)

معه حكمة كسيدنا لقمان .

(وَالنُّبُوَّةَ)

2 ـ الرسول والرجل الحكيم لا يدَّعيان الألوهية :

معه نبوة ، فلا يوجد حكيم معتمد عند الله أنه حكيم ، ولا نبي ولا رسول يمكن أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عباداً لي ، هذه مستحيلة ، الله يعلم حيث يجعل رسالته ،

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تؤتى كتاباً ، أو حكمة ، أو نبوة ثم تدعي الألوهية ، وتقول: كونوا عباداً لي من دون الله ! مستحيل ، لأن هذه جريمة كبيرة جداً ؛ أن تدعي الألوهية ، وتقول للناس : اعبدوني من دون الله ، لكن ماذا يقول النبي ؟ وماذا يقول الرسول ؟ وماذا يقول الحكيم ؟

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)

3 ـ من هو الرباني ؟

من هو الرباني ؟ لأوضح لكم هذه الحقيقة ، تقول : فلان علماني ، طبعاً أصل كلمة علماني أنّ العلم متغلغل في دمه ، في كل حركاته ، وسكناته ، وأقواله ، وأفعاله ، ينطلق من العلم ، هوايته العلم ، مطالعته كتب العلم ، حديثه في العلم ، مزاجه في العلم ، طموحه في العلم ، همومه أن يكون عالماً ، هذا إنسان علماني ، لكن قد نجد هذه الكلمة تستخدم استخدامًا غير صحيح ، علماني أيْ يحارب الدين ، أو علماني يحارب الدين الإسلامي فقط ، هذا مضمون كلمة علماني في الواقع ، أما كلمة علماني فتعني شديد الالتصاق بالعلم ، تقول : مقالة علمية ، ليس علمانية ، علمية فقط ، تقول : كتاب علمي ، محاضرة علمية ، موقف علمي ، الموقف يغلب عليه الطابع العلمي ، هذه المحاضرة يغلب عليها الطابع العلمي ، أما إن أردت أن تقول : إن كل كلمة في هذه المحاضرة تتصف بالعلم العميق فتقول : محاضرة علمانية .

أحدهم معه شهادة ثانوية تقول : هذا مثقف علمي ، يحمل ليسانس علمي ، لكن العلم تغلغل في أعماقه حتى وصل إلى كل ثنايا جسمه ، وإلى كل قطرات دمه ، وخلايا جسمه ، فلو عصرته لما وجدت إلا علماً ، تقول : فلان علماني .

قدمت لكم بهذا المثل ، كلمة علماني غير علمي ، شدة اتصاف الشيء بالعلمية ، قد تقول : هذا البيت فيه شيء من الجمال ، فيه غرفة ضيوف جميلة ، أما بقية الغرف فسيئة جداً ، أما إذا كان كل سنتيمتر من البيت ينطق بالذوق فتقول : بيت جمالي ، تعطيه صفة أعلى بكثير ، هذا تمهيد .

ما معنى كونوا ربانيين ؟ كيانه كله متعلق بالرب ، حديثه كله عن الله عز وجل ، حركاته ، وسكناته كلها وفق منهج الله ، أن يهتدي الناس جميعاً ، طموحاته أن يكون عند الله مقرباً ، آماله أن يكون الله في قلوب الناس جميعاً .

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)

شدة نسبة الإنسان إلى ربه يعبر عنها بكلمة رباني .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الكهف : من الآية 110)

النبي عليه الصلاة والسلام على جلال قدره كان ربانياً .

لو عندك لوح بلّور مركب على باب ، والباب من أعلى مستوى تقول عنه : بلجيكي شفاف ، من شدة شفافيته ، ونظافته ربما لا تراه ، ترى ما خلفه دائماً ، وحوادث كثيرة ، أحدهم من كثرة نظافة البلور اخترقه برأسه ، يظن أنه ليس بلورًا ، فإذا كان البلور صافيًا جداً يشفُّ عما وراءه ، من هو الرباني ؟ لا يشفّ عن ذاته ، بل يشف عن ربه في كل حركاته ، وسكناته ، وأقواله ، وأفعاله ، وعمله ، ولهوه ، ومرحه ، ومع أهله ، ومع ، إخوانه ، وفي نزهة ، وفي مقام يتحدث عن ربه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي هريرة ، وفي إسناده ضعف]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب : الآية 41)

الرباني يشف عن حقيقة الدين ، يشف عن كمال الله ، وكمال رسول الله ، لا يلفتك إلى نفسه ، يقول : أنا ضجرت من هذه الكلمة ، أنا وأعوذ بالله من كلمة أنا ، ويتكلم عن نفسه ، كل حديثه عن نفسه مفتخراً معظماً ، وكلما قال :أنا ، يضيف أربع كلمات بعدها ! أعوذ بالله من كلمة أنا ، ويمدح نفسه ، الأضواء لا يسلطها على ذاته ، لكن يتحدث عن ربه ، ما ذكرني عبدي في نفسه إلا ذكرته في ملائكتي، وما ذكرني في ملأ من خلقي إلا ذكرته في ملأ خير منهم ، وهذا معنى قوله تعالى :

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة : من الآية 152)

مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يؤتي الله أحداً الكتاب ، والحكمة ، والنبوة ، ثم يقول هذا الإنسان للناس : كونوا عباداً لي من دون الله ، لا يمكن أن يقول إلا : كونوا ربانيين ، أنت رباني ، كيفما تحركت تعبر عن حقيقة هذا الدين العظيم ، وعن حقيقة سيد المرسلين .

4 ـ المؤمن ربّاني :

موقف أبي بكر الصديق عند وفاة النبي دليل أنه ربّانيّ :

شيء آخر ؛ النبي عليه الصلاة والسلام حينما انتقل إلى الرفيق الأعلى ماذا قال الصديق ، وهو أحب الخلق إليه ؟ ما من بشرين على وجه الأرض أحب كل منهما الآخر كما أحب النبي الصديق ، وكما أحب الصديق النبي ، ومع ذلك حينما وافت المنيةُ رسولَ الله قال أبو بكر : من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

المؤمن رباني ، كل حركاته ، وسكناته ، وأقواله ، وأفعاله ، وفي كل أوقاته مع الله ، ينطق بالله ، يستعين بالله ، يفوض أمره إلى الله ، راض بقضاء الله وحكمه ، يسعى لخدمة عباد الله ، يسعى لنشر الحق ، لمسح الآلام عن البؤساء والفقراء ، المؤمن رباني ، وبالمقابل هناك شخص شيطاني خبيث ، كيفما تحرك يؤذي بكلماته ، وحركاته ، وسكناته ، يأكل المال الحرام ، ويفرق بين الأنام ، وأينما تحرك يؤذي ، فهناك رباني ، وشيطاني ، وشهواني ، كلمة شهواني تعني شدة اتصافه بالشهوة ، كلمة رحماني شدة اتصافه بالرحمة ، كلمة رباني شدة محبته لربه .

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)

وكيف لا ؟

(بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)

بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ

1 ـ معنى المدارسة :

المدارسة أن نقرأ النص معاً ، ونتعاون على فهمه ، واستنباط الأحكام منه ، هذه المدارسة ، والتعليم أبلغ .

2 ـ كيف تخالفا نصًّا تعلَمُه وتعلِّمه الناسَ ؟!

أنت متمكن من هذا النص ، وتعلمه للناس ، كيف تخالفه ؟ ولا يمكن لهذا النبي ، أو الرسول ، أو الحكيم أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر ؟ هذا موضوع دقيق .

3 ـ طاعة الإنسان في معصية الله تأليهٌ له :

هناك أشخاص يؤلهون بعضهم بعضاً ، يقول لك : أنا لم أقل : إنه إله ، نعلم ذلك ، لم تقل إنه إله ، ولكنك عاملته كإله ، أخذت أمره ، ولم تعرضه على الشرع ، نفذته من دون أن تتأكد من صواب هذا الأمر ، إنك تعبد هذا الإنسان من دون الله ، حينما تتخذ إنساناً إلهاً أو رباً لا يعني أن تقول : إنه إله ، أو رب ، ولكن تتعامل معه وكأنه إله لا يخطئ ، وأمره لا تفكر فيه أبداً ، أما سيدنا الصديق لما تولى الأمر قال : << أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >> ، بينما الشرع يقول: راقبوني .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْصَرَفَ مِنْ اثْنَتَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ ذُو الْيَدَيْنِ : أَقَصُرَتْ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَصَدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ ؟ فَقَالَ النَّاسُ : نَعَمْ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى اثْنَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ، ثُمَّ سَلَّمَ ، ثُمَّ كَبَّرَ ، فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ))

[متفق عليه]

بعضهم كان في حوار ، وسؤال ، هذا الذي يغمض عينيه ، ويقول أحياناً : خطأ الشيخ خير من صواب طالب العلم ، كلام غير مقبول ، لأنه : أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيتموه فلا طاعة لي عليكم، بيننا كتاب الله ، وسنة رسول الله .

(وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ)

أنت حينما تعظم إنساناً فيصل تعظيمك في هذا الإنسان إلى درجة أنك تطيعه على عمى هذا تأليه ، اتخذته إلهاً ، واتخذته رباً .

4 ـ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ :

الصحابة الكرام لحكمة أراها الله أمر النبي على بعضهم رجل من الأنصار ذا دعابة ، فلما انطلقوا استوقفهم وقال : أضرموا ناراً عظيمة ، فأضرموها ، قال : اقتحموها ، لما ؟ قال : أنا آمركم بهذا ، ألست أميركم ؟ أليست طاعتي طاعة رسول الله ؟ الصحابة ترددوا في هذا الأمر ، بعضهم قال : إنما آمنا بالله فراراً من النار ، فكيف ندخلها ؟ بعضهم قال : طاعة الأمير طاعة رسول الله ، بلغ ذلك النبي، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ جَيْشًا ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا ، فَأَوْقَدَ نَارًا ، وَقَالَ : ادْخُلُوهَا ، فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا ، فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا : لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ لِلْآخَرِينَ : لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[متفق عليه]

حتى إن الآية الكريمة تقول :

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

(سورة الممتحنة : من الآية 12)

حتى معصية النبي مقيدة بالمعروف ، يجب ألا تكون معصيتك للنبي في أمر تشريعي ، لو فرضنا في أمر مزاجي ، النبي عليه الصلاة والسلام كان لشعره طريقة خاصة فرضاً ، فتح قميصه ، تسريحة شعره ، كلما فعل النبي شيئاً ليس تشريعياً من أحواله الخاصة ، هذا شيء آخر ، لكن يجب أن تتابعه في أوامره التشريعية التي هي من عند الله ، أما في أحواله الشخصية فكان يحب اليقطين ، لو أن واحدًا ما أحب اليقطين فهل هو في جهنم ؟ لا علاقة لذلك ، هذه قضية شخصية .

(وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا)

لذلك قالوا : يا رسول الله ، أنت رسول ، ونحب أن نعظمك ، أنسجد لك ؟ قال : معاذ الله ، السجود لله وحده ، أبداً ، ديننا دين توحيد .

(وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ)

هذا كفر ، أن تسجد لإنسان ، أن تدعي ، أو تعامل إنساناً على أنه رب ، أو إله فهذا كفر .

(أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

أيعقل من مسلم استسلم لأمر الله أن يعبد من دونه أحداً ؟

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يعيننا في الدرس القادم على متابعة هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(24-60): تفسير الآيات 81 - 91
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-05-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الواحدة والثمانين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

(سورة آل عمران)

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ

1 ـ الأنبياء يصدِّق بعضهم بعضًا :

الله جل جلاله في هذه الآية يبين أن كل نبي أرسله الله عز وجل ، وأيده بالمعجزات ، ومنحه الحكمة ، ينبغي أن يؤمن بالنبي الذي بعثه ، لأن الأصل واحد ، ولأن هذه الرسالات ، وهؤلاء الأنبياء يصدرون عن الله عز وجل ، الإله الواحد ، فالأنبياء ينهلون من مشكاة واحدة ، والرسل يوحي الله إليهم ، فلا معنى نظرياً أن يرفض نبي أن نؤمن بنبي بعده ، ولا أن يرفض رسولٌ أن يؤمن برسول بعده ، هذا الشيء ما كان له أن يكون ، لأن الأنبياء والرسل قمم البشر، ينصاعون إلى الله انصياعاً لا يوصف ، في أدق التفاصيل .

2 ـ هذه الآية تعني أتباع الأنبياء :

الحقيقة هذه الآية تعني أتباع الأنبياء ، لأنه بالمنطق كيف يكلف نبيٌ أن يؤمن بنبي بعده ، وبينهما ستمائة عام ؟ مستحيل ! سيدنا موسى مكلف أن يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، مستحيل ، لكن بعض العلماء قالوا : هذه الآية تخص أتباع الأنبياء ، لأن أتباع الأنبياء يتبعون أنبيائهم ، وينفذون شرعهم ، الأنبياء أخذ عليهم العهد .

(لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ)

3 ـ يجب الإيمان بجميع الأنبياء :

الإيمان به التصديق ، النصر أن تنطوي تحت إمرته ، وأن تكون في خدمة هذه الرسالة الجديدة .
أوضح لكم ذلك بمثل من حياتنا اليومية ، مؤسسة لها مدير عام ، هذه المؤسسة تابعة لوزير ، لهذه المملكة ملك ، الملك غير الوزير ، لعله نقله إلى مكان آخر ، لعله جعله سفيرًا ، لعله ألف وزارة جديدة، هل يستطيع مدير هذه المؤسسة أن يقول : أنا لا أتلقى أوامري إلا من الوزير السابق ؟ معنى ذلك أن ولاءه للملك غير صحيح ، ما دام الملك قد غير الوزارة مثلاً ، ما دام الملك قد كلف هذا الوزير الذي كنت تابعاً له لمهمة أخرى ، وعين وزيرًا آخر ، فعلامة ولائك للملك أن تنصاع للوزير الجديد ، ولتعليمات الوزير الجديد ، وأن تكون منفذاً لتعليماته قابلاً لخدمته .
هذا المعنى دقيق ، لأنه لا يعقل أن نكون مسلمين أصلاً إلا إذا آمنا بالأنبياء السابقين واحداً واحِداً ، وأتباع الأنبياء السابقين ينبغي أن يتبعوا النبي الأخير ، النبي الخاتم الذي ختم الله به الرسالات ، مضمون هذه الآية كذلك :

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ)

4 ـ أخذُ الله ميثاقه على الناس بالإيمان بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام :

الميثاق هو العهد ، أخذ عليهم العهد ، والحقيقة أخذ عليهم أن يبلغوا أتباعهم أنه إذا جاء نبي فينبغي أن يؤمنوا به ، ويتبعوا رسالته .
وتعلمون أيها الإخوة أن اليهود وفي كتبهم كلام واضح كالشمس ، أن الله عز وجل سيبعث في آخر الزمان رسولاً اسمه أحمد .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ ؟ قَالَ :

((دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ))

[أحمد]

وقال تعالى :

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

(البقرة : من الآية 129)

بشارة أخي عيسى ، قال تعالى :

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

(الصف : من الآية 6)

إذاً : الأنبياء أصالة ووكالة عن أتباعهم ، كلفوا أنه إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم ينبغي أن يؤمنوا به ، وأن ينصروه بأن يكونوا في خدمته ، وخدمة الحق الذي جاء به .

أيها الإخوة ، الله عز وجل يقول :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

فحوى دعوة الأنبياء واحدة ، وقد ذكرت لكم في درس سابق أن الأنبياء جميعا من دون استثناء ذكروا في القرآن الكريم ، ووصفوا بأنهم مسلمون ، والإسلام بمعناه الواسع أن تستسلم لمنهج الله ، أنت عبد كائن معقد تعقيد إعجاز ، لك خالق عظيم هو الخبير ، أنت مكلف أن تنفذ تعليماته ، أما أن تعبد الله وفق ما تهوى فمستحيل أن تكون عبداً لله بهذه الطريقة ، فينبغي أن تكون عبداً لله وفق رأيك لا وفق منهج الله ، مستحيل أن تكون عبداً لله ، وأنت بهذه العقلية ، أما أن تحدد أني أتلقى تعليماتي من هذا النبي وحده ، ولم أعترف بني آخر فمن المستحيل أن تكون عبداً لله بهذه العقلية .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ)

أخذ ميثاق النبيين من أجل أن يبلغوا أتباعهم لأنه من الممكن أن يكونوا أتباع نبي في عصر جاء نبي جديد .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ)

الدعوة واحدة ، والإله واحد ، الجنة والنار ، الاستقامة على أمر الله ، عدم العدوان على الآخرين ، عدم الزنى ، عدم القتل ، المنهج واحد .

بالمناسبة ، لا يعقل أن يكون لكل نبي منهج ، هناك مناهج مختلفة ، لكن بحسب تطور الشعوب ، والمجتمعات الإنسانية ، لكن لا يعقل أن يكون الشيء محللاً هنا ومحرمًا هناك ، الإله واحد ، فإذا كان ضاراً لِمَ أُحِلّ في هذا الدين ؟ وإذا كان نافعاً لمَ حرم في هذا الدين ؟ إله واحد ، هذا يأباه العقل السليم ، لذلك إن رأيت شيئاً حلالاً في دين ، وحراماً في دين آخر ، فهذا يعني أن في هذين الدينين تزويرًا ، أو تغيرًا ، أو تبديلاً ، قال عزوجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة : الآية 183)

فلذلك الأنبياء أخذ الله عليهم العهد أن يبلغوا أتباعهم أنه إذا جاء نبي في آخر الزمان مصدق لما معهم ، ويدعو إلى عبادة إله واحد ، وإلى الاستقامة على أمره ، والإحسان إلى خلقه ، فينبغي أن يؤمن أتباع الأنبياء بهذا النبي الجديد ، وينبغي أن ينصروه ، وأن يضعوا إمكاناتهم - كما يقال الآن - تحت تصرفه! .

(قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي)

قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا

الإصر هو العهد .

(قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا)

بلغوا أتباعكم ليكون هذا منهجاً في كل دين ، لأن أتباع كل دين ينبغي أن يؤمنوا بنبيهم ، فإذا جاء نبي آخر ينبغي أن يؤمنوا به ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الآمر ، والولاء له .

المثل واضح جداً ، أعيده مرة ثانية : مدير مؤسسة تابع لوزير ، ولهذا البلد ملك ، فالملك نقل هذا الوزير إلى منصب آخر ، هل يحق لمدير المؤسسة أن يقول : أنا لا أتلقى تعليماتي إلا من الوزير السابق ، معنى ذلك هو يرفض أن ينصاع للملك ، هذا أمر ملكي ، هذا التوجيه من الملك ، إذاً : يشك في حكمته ، وفي علمه ، ولا يواليه ، المعنى أصبح واضحًا .

(لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ)

قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ

وقد ذكرت في دروس سابقة أن شهادة الله عز وجل تعني أن أفعال الله تأتي مصدقة لكلامه .

(فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ)

والدليل : أن الله ينصر نبيه الكريم الذي جعله خاتم الأنبياء ، ويؤيده بالمعجزات النيرات الواضحات ، ثم يقول الله عز وجل :

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ

1 ـ يجب اتباع الدين الذي اختاره الله :

يجب أن تكون تابعاً للدين الذي اختاره الله للناس .

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا)

(سورة المائدة : من الآية 3)

رضي الله لنا هذا الدين ، رضي لعباده ، وللناس قاطبة ، فإن لم نعتنقه معنى ذلك أننا رفضنا هذا الدين، ورفض دين الله عز وجل شيء كبير في عالم الإيمان .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

2 ـ الكون أسلمَ لله قسرا :

هذه شاملة شمولا مطلقًا ، الكون يعبر عنه في القرآن الكريم بالسماوات والأرض ، والكون بالتعريف الدقيق ما سوى الله ، والله عزوجل واجب الوجود ، وما سواه فممكن الوجود ، ما سواه الكون ، والتعبير القرآني للكون السماوات والأرض ، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، كرهاً هذا واضح ، كل واحد منا مؤمنًا كان أو كافراً ، مستقيماً أو منحرفاً ، عربياً أو عجمياً ، يسلم قسراً لله عز وجل ، من منا يستطيع أن يعيش ساعة بلا قلب ، لو توقف قلبه عن الحركة لكتب نعيه ، وانتهى أمره ، فأنت مقهور بعمل القلب ، مقهور بعمل الرئتين ، مقهور بنمو الخلايا ، مقهور بالحركة، مقهور بالتنفس ، أيّ خلل في جسمك يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق ، أوضح من ذلك ، الملوك يموتون ، والطب كله بين أيديهم ، وأموال الدنيا بين أيديهم ، وبإمكانهم أن يستقطبوا أطباء العالم ليعالجوهم ، فالملك مقهور ، والفقير مقهور ، والغني مقهور ، قد تجد غنياً يملك ملايين طائلة ، ويمكن أن ينفقها كلها على بقائه حياً ، ولا يبلغ ذلك **!** يأتيه ملك الموت .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

3 ـ المؤمن خضع له طوعاً :

المؤمن عرف الله طوعاً ، فخضع له طوعاً في حياته ، أما الكافر فعرفه عند الموت ، فكان مقهوراً بالموت ، وسبحان من قهر عباده بالموت ، المؤمن عرفه طواعية في حياته ، فأطاعه طواعية ، هذا أعلى أنواع الطاعة ؛ أن تطيعه مختاراً ، أن تطيعه محباً ، وتطيعه بمبادرة منك ، لا بقهر ، أو ضبط من الآخرين ، أن تطيعه ، وأنت صحيح ، شحيح ، قوي ، أنت تطيعه ، وأنت في مقتبل حياتك ، وأنت في عز تألقك ، أن تطيعه ، وأنت معافى في جسمك ، لكن هناك إنسان يسهو ، ويغفل عن الله عز وجل، فإذا جاءته الشدة يطيع الله ، على كل حال جيد ، فقد استجاب لله عز وجل ، ولكن لا بد أن نخضع لله اختياراً أو اضطراراً .

هناك قصة تروى ؛ في بلد من بلاد المسلمين امرأة منحرفة أشد الانحراف ، لا تحب أن ترى فتاة محتشمة إطلاقاً ، فكانت تبالغ في إيذاء من كانت محتشمة في هندامها ، وكانت تنزع أي شيء على رأس الفتاة ، ثم رئيت بعد حين تضع على رأسها الحجاب ، فلما سُئلت قالت : أصابني مرض في رأسي ، ونصحني الطبيب بوضع شيء من القماش على رأسي ، ولما رجوته أن أضع ما يسمى بالباروكة رفض ، قال : هذه تسبب حساسية ، ضعي قماشة على رأسك ، وهكذا يقهر الله عز وجل الإنسان في أي لحظة .

يمكن أن تركع أمام أحقر الناس ، يمكن أن تنقب في الحاويات ، يمكن أن ترى الموت أكبر نعمة ، قد تأتيه الأمراض مجتمعة فلا يرى نعمة أعظم من الموت ، سبحان من قهر عباده بالمرض والموت !!!

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)

4 ـ لماذا الخضوع لغير الله ؟

أتخضع لغير الله ؟ أتنصاع لغير الله ؟ أتأبى أن تكون عبداً لله ؟ أنت أكبر من أن تطيع الله ؟ مركزك أكبر من أن تطيع الله ؟ أتخشى على الدنيا ، وهي فانية ، وتعصي الله ؟

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)

أتبغي أن ترضي مخلوقاً ضعيفاً يموت قبلك ؟ أتبغي أن تكون تابعاً لجهة أرضية ، وأنت مكرم عند الله؟ أترضى أن تكون محسوباً على غير الله ؟

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)

ماذا تبغي ؟ تبغي المال ، ماذا تفعل بالمال إذا زاد عن حده ؟ انقلب إلى ضده ، ماذا تبغي ؟ ثم ماذا ؟ وصلت إلى أعلى ثروة في العالم ، ثم ماذا ؟ هؤلاء الذين ملكوا ثروات بأرقام فلكية ، واحد عنده سبع وثمانون مليار دولار بأمريكا (بل غيتس) ، هذا ماذا يفعل بها بعد أن يأتيه ملك الموت ؟ ثم ماذا بعد المال ؟ وصلت إلى أعلى مرتبة عليمة في الدنيا ، ثم ماذا بعدها ؟ وصلت إلى أعلى منصب في العالم ، ثم ماذا بعدها ؟ سبحان من قهر عباده بالموت .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)

أتتجه إلى غير الله ؟ أتطمع بغير رحمة الله ، ألك مصير إلا إلى الله ؟ هل في الإمكان أن تطلب لجوءًا من جهة أخرى ؟ هذه الجهة لا يملكها الله عزوجل ؟ في الدنيا ممكن ، تتجه إلى بلد يعادي بلدك فتأخذ اللجوء السياسي ، لكن هل تستطيع أن تلجأ إلى غير الله ؟ لا ملجأ منه إلا إليه .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)

خيار الإيمان خيار وقت فقط :

فرعون ألم يسلم ؟ مات مسلمًا ، لكن إسلام قهر ، قال تعالى :

(قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس : من الآية 90)

لكن متى آمن ؟ وهو يغرق ، أيقن أن دعوة النبي الكريم موسى عليه السلام حق ، وأن الله أغرقه ، وقهره ، أيليق بالإنسان أن يقهره الله عز وجل إذا كان معانداً ؟

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

طبعاً :

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام : من الآية 158)

تقبل توبة العبد ما لم يغرغر ، إذا كان في النزع الأخير لا توبة أمامه **!**

(حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

(سورة النساء : من الآية 18)

هذا الكلام له معنى آخر ، معناه الآخر أنك في شؤون كثيرة مخيّر خيار قبول أو رفض ، قد ترفض هذا البيت لضيقه ، وقد ترفض الزواج من هذه المرأة لكبرها في السن فرضاً ، وقد ترفض هذه التجارة لأنك مهضوم الحق فيها ، وقد ترفض هذه السفر لأن مردودها قليل ، فأنت في أمور كثيرة جداً مخير خيار قبول ، أو رفض ، إلا في الإيمان فأنت مخير خيار وقت فقط ، فإن لم تؤمن في الوقت المناسب فلابد أن تؤمن في وقت آخر ، لكنه غير مناسب ، بعد فوات الأوان ، كما آمن فرعون .

الديانات الأرضية لا تكاليف فيها :

وأنا أشهد الله أنه ما من عبدٍ على وجه الأرض ، ولا أستثني أحداً إذا جاءه ملك الموت آمن بفحوى رسالات السماء تماماً ، لأنها هي الحق ، لكن في الدنيا يرفض أن يؤمن ، يقول : أنا أعتز بأنني بوذي مثلاً ، كل واحد يعتز بدينه ، لكن المشكلة أن هذه الأديان الوضعية ذات انتشار واسع جداً بسبب أنها تفتقر إلى التكليف ، فلا تكليف فيها ، بل القضية إعلان ولاء فقط ، وهي لا تقدم ولا تؤخر .

قال لي أحدهم : لماذا يحبون دين البوذية هناك ؟ لأنه دين لطيف ، لا تكاليف فيه **!** فيه طقوس خفيفة ، فأصبح دينًا ، لكن من دون تكاليف ، يفعل ما يشاء ، يأكل ما يشاء ، يمارس أي شهوة كما يشاء ، دون أن يحاسب ، ومع ذلك فهو بوذي فرضاً ، أو هو من السيخ أو من ديانة أخرى .

لذلك الديانات الأرضية ديانات لا تكاليف فيها ، فقط فيها ولاءات ، الديانات السماوية حينما تنحرف تخف فيها التكاليف ، لا تكاليف فيها ، وتظهر فيها العقائد الفاسدة ، لمجرد أن تقترف كبيرة فالنبي يشفع لك ، هذا شيء مريح جداً ، شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي .

ماذا نفعل بحديث النبي ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ :

((يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّار ، يَا

بَنِي هَاشِمٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

[متفق عليه]

الديانات السماوية حينما ينحرف أهلها عن الصواب ، حينما تعدل ، وتغير ، وتبدل ، وفي بعض الديانات نصوص لن تتغير ، لكن يفهمونها فهماً منحرفاً ، القصد تخفيف التكاليف ، يقولون : الله قال :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

أكمل الآية :

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

يقول لك : الله قال :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر : الآية 53)

أكمل :

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)

(سورة الزمر : الآية 54)

كمن يقول :

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)

(سورة الماعون : الآية 4)

أكمل :

(الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

(سورة الماعون : الآية 5)

إذاً : الآن انتقلنا إلى شيء آخر ؛ كل ضلال في الأديان فيه تخفيف التكاليف ، واعتماد النصوص الموضوعة ، وتأليه الأشخاص ، والنزعات العدوانية .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

القصص أيها الإخوة التي تقع كل يوم حول :

(وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)

الإنسان عبدُ قهرٍ أو عبدُ شكرٍ :

لا تعد ولا تحصى ، إنسان يتمتع بدراسة في جامعات راقية جداً في أوروبا ، وإنسان بالتعبير المعروف حضاري راقٍ جداً ، وتسلم منصبًا رفيعًا جداً ، فقد بصره ، بعد شهر أحيل على التقاعد ،

زاره صديق ، قال له : والله أتمنى أن أجلس على الرصيف أتسول على أن يرد الله لي بصري ! أين الدكتوراه ، والزوجة ، والبيت في أحلى أحياء دمشق ، والدخل ، الفلكي والمركبات ، أين ؟ أتمنى أن أجلس على الرصيف ، أمد يدي للناس ، على أن يرد الله لي بصري ! أنت مقهور ببصرك ، وسمعك ، وحركتك ، وعمل قلبك ، وعمل رئتيك ، وعينيك ، وأذنيك ، ولسانك ، وذاكرتك .

أحد إخوتنا الكرام رحمه الله اتصل بابنه وقال له : أين بيتي يا بني ؟ قال : ساعة وأنا أبحث ، و لم أعرف أين بيتي ، هذا فقدُ ذاكرة جزئيٌّ ، فقد ذاكرته ! من الذي يضمن لك أنك إذا ذهبت إلى عملك ترجع إلى بيتك ؟ الله جل جلاله .

لي أقرباء ، وهم قبل أن يموتوا بسنوات فقدوا ذاكرتهم ، تزورهم يقولون : من أنت ؟ يأتيه ابنه ، من أنت ؟ لا يعرفه ، ذاكرتك ، وحركتك ، وقلبك ، وصماماتك ، وشريانك التاجي ، أعصابك ، وعضلاتك، وسمعك ، وبصرك ، ولسانك ، وعمل جهازك الهضمي ، الكظر كله بيده، الغدة النخامية ملكة الغدد ، أما وزنها فضخم جداً ، نصف غرام ، تعطي اثني عشر أمرًا هرمونيًا ! أحد هذه الأوامر هرمون النمو ، لولا هذا الهرمون لعاش الإنسان قزماً ! أحد هذه الأوامر هرمون توازن السوائل ، لو اضطرب هذا الهرمون كان شغلك الشاغل أن تقبع جنب الصنبور ، ودورة المياه ، تشرب ثلاث قارورات ماء في اليوم ، شرب وطرح ، لو قرأتم عن هذه الغدة التي هي ملكة الغدد لوجدتم شيئًا لا يصدق ، فأي خلل بهرموناتها ، وأوامرها تصبح حياة الإنسان جحيماً لا يطاق ، فسبحان من قهر عباده بالمرض والموت ، فأنت عبد لله فكن له عبداً طائعاً .

لذلك فرق الله عز وجل بين العبيد والعباد ، العبيد جمع عبد القهر ، والعباد جمع عبد الشكر قال :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان : من الآية 63)

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر : من الآية 42)

لكن :

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت : من الآية 46)

أي إنسان عبد قهر ، مقهور ، ألا يوجد أشخاص ماتوا في أوج عظمتهم ؟ وفي أوج صحتهم ؟ بحادث، وفي أوج قوتهم ، وفي أوج غناهم ؟ سبحان الله الإنسان بالتعبير المعاصر سريع العطب ، مائة سبب يفقد الإنسان حياته في ثانية !

لي قريب طالب في الطب ، كان متألقًا جداً ، وعلى مستوى مرتفع ، وعالٍ جداً ، فجأة حدث معه فقر دم ، زار أطباء كثر فقالوا له : إنه فقر دم ! صحته جيدة ، ويأكل طعامًا جيدًا ، وهو طبيب درس الطب، بعد حين ، وبعد سفر إلى أوروبا كُشف أن الطحال عنده يعمل بنشاط زائد ، الطحال

مقبرة كريات الدم الحمراء ، ومعمل كريات احتياط ومخزن لكريات الدم ، ومستودع ، ومعمل ، ومقبرة ، وهو مهمته أن يلتقط كرية الدم الحمراء الميتة ، يقبرها عنده ، ثم يحللها إلى هيموغلوبين يرسلها إلى الكبد ، وإلى حديد ، يرسله إلى معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام ، المشكلة أن هذا الطحال بدأ يأخذ الكريات الحية ، ويقتلها ليحللها ، نحن فرضاً نأتي بمعمل ، ونكبس السيارة التي هي للأنقاض ، أما هذا المعمل نستخدمه لسيارات حديثة جداً ؟ غير معقول ، فالخطأ البسيط لهذا الجهاز الطحال أودت بحياة هذا الأخ ، العالم كله وقف مكتوف اليدين ! ماذا نعمل مع الطحال ، يأخذ الكرية الحمراء الشابة ، ويقتلها كي يحللها ، أصبح هناك فقر الدم ، هذا الإنسان غذاؤه جيد جداً ، فبرأيك كم من جهاز ينهي حياتنا ؟ والله هناك مليون سبب للموت ، ولا أبالغ ، وهناك موت بلا سبب ، والرجل بكامل صحته . حدثني أخ رجل رياضي من الطراز الأول من ثلاثين سنة ، كل شيء يتكلم به عن الرياضة ، والمشي، والجري ، والصحة ، وخبز النخالة ، والخضراوات والسلطة ، والحركة ، والنشاط ، والفيتامينات ، ليس له شغل شاغل غير صحته ، حدثني أخ كريم ، وهو في سن مبكرة ، وليست متأخرة عندما كان في المسبح وقع ميتاً بلا سبب .

أخ ثان كان يقول في جلسة سمر : أنا أمامي وقت لأموت ، فقال له واحد : لماذا لا تموت ؟ قال : أنا رجل طعامي قليل ، وأعتني بصحتي ، ولا أدخن ، هذا كلام علمي ، تكلم ، وكل شيء صحيح ، كل يوم سبت عنده جلسة ، في السبت الثاني كان مدفوناً في التراب !

نحن جميعاً مقهورون ، لا أحد يعرف متى يموت ، لا أحد يعلم ما في جسمه ، تجد شخصًا بأعلى درجة من العناية بصحته ، تجده فجأة ينشأ تفلت بنمو الخلايا بلا سبب ، هذه سبحان الله أمراض عضالة لا سبب لها ولا علاج ، أنا سميتها بوابات خروج ، كيف سيخرج الواحد ؟ قالت امرأة لطبيب قلب : ما نسبة نجاح العملية ؟ قال : ثمانون بالمائة ، قالت : ما تعني هذه النسبة ؟ قال : يأتي مائة شخص يموت منهم عشرون ، قالت : لا أريد ، فقال لها الطبيب : إذاً كيف نموت نحن ؟ إذا كان كله ينجح ، لم يعد هناك موت ، فنحن :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر : الآية 30)

بطولتنا أن نعمل لهذه الحفرة التي لابد منها ، شئنا أم أبينا ، نحن محكومون جميعاً بالموت مع وقف التنفيذ .

(وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(83)قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ)

فحوى دعوة الأنبياء واحدة ، ومضمونها واحدة .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء : الآية 25)

(وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(84)وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)

نحتاج إلى إسلام الباطن أولا :

الإسلام في جوهره أن تستسلم لله ، ليس عند الله دين فلكلور ، جلابية بيضاء ، ومسواك ، ومسبحة ، وعطر مسك من مكة أحضره معه ، والمعاصي لا حدود لها ، ليس عند الله مثل هذا الدين ، هذا دين فلكلور ، دين ثقافة فقط ، إسلام صالونات ، دين حفلات ، وإلقاء كلمات ، هذا غير موجود عند الله ، الدين فكر فقط ، رد على أفكار أعداء الدين ، لكن لا يوجد التزام أبداً ، هذا كله أنواع من الدين عجيبة ، إسلام صالونات ، إسلام عزائم ، إسلام أناشيد ، طرب ، أو مظاهر ، إسلام ألقاب علمية .

الدين عند الله أن تستسلم له في كل أمر وفي كل نهي ، إن الدين عند الله الإسلام ، أن تخضع لله في شؤون حياتك كلها ، الدين الحقيقي أن يحكمك الإسلام بكل تفصيلاته ، لا أن تنتقي منه ما يعجبك ، كثير من الناس يحبون العمرة ، ركوب طائرة ، وإقامة بفندق ، وسفر ، ومشاهدات ، يقول لك : اعتمرت ثلاثا وثلاثين عمرة ، العمرة واجبة ، لكن في غير العمرة لا التزام في الدين إطلاقاً ، فأكثر المسلمين ينتقون من الدين ما يعجبهم ، هذه سهلة ، هذه فيها رحلة ، هذه فيها نشاط ، أما قل له : دع هذه السهرة المختلطة فلا يقبل ، أنفق من مالك في سبيل الله ، اضبط نفسك ، كل شيء يتعارض مع مصالح وشهواته يرفضه ، هو يختار من الدين ، وينتقي ما يعجبه ، فهذا الدين لا قيمة له عند الله ، ولأن هذا الدين ليس مرضياً عند الله فلا يمكّن أصحابه في الدنيا .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور : من الآية 55)

هذا الدين ليس مرضياً عند الله ، ونحن له مسلمون ، لذلك قال الله عز وجل :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ)

(سورة البقرة : من الآية 62)

إذاً : في الانتماءات الشكلية ، الانتماء الشكلي لا قيمة له إطلاقاً .

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : من الآية 62)

أي من آمن بالله الإيمان الحقيقي ، وكان عمله انصياعاً لمنهج الله ، وعطاء للناس آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فهذا الناجي ، فلا خوف عليه ولا هم يحزنون .

(وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

ثم يقول الله عز وجل :

(كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ)

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

1 ـ هكذا كفر اليهود بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام :

هؤلاء اليهود الذين استفتحوا على المشركين ، أنه سيأتي نبي في آخر الزمان ، وسنؤمن به ، وسنسبقكم إلى الإيمان به ، فلما جاءهم نبي كريم أنكروا عليه نبوته ، ورفضوا أن يؤمنوا ، قال بعض العلماء : هذه الآية تعني هؤلاء ، آمنوا به قبل أن يأتي ، ولما أتى كفروا به ، كيف هنا تفيد النفي ، لا يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ، هم يدينون لمصالحهم ، تحصيل حاصل .

(كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ)

2 ـ كلُّ الأدلة تشهد على أحقية هذا الدين :

والله أيها الإخوة هناك أدلة لا تعد ولا تحصى على أحقية هذا الدين ، قبل يومين أطالع في بعض المواقع المعلوماتية ، وجدت صورة لجامع في إزمير ، والقصة قديمة جداً ، ومعهدًا شرعيًا ، لم يبق سالماً إلا هذا المسجد والمعهد الشرعي ، وما سوى ذلك أنقاض لا يزيد ارتفاعها على أربعين سنتيمترًا! البنية كلها ، أليست هذه رسالة من الله ؟ آلاف الرسائل من الله ، وهل يهلك إلا القوم الكافرون ؟ وهل نجازي إلا الكفور ؟ تجد كلما انحرف الناس جاء العلاج الإلهي .

(كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم .

3 ـ لابد من الثبات على الدين وعدم التزعزع :

إخواننا الكرام بالمناسبة : أفضل ألف مرة أن تبدأ حياة الإنسان في شرود عن الله ، ثم يصطلح مع الله، لا أن يبدأ حياته في اصطلاح مع الله ، ثم ينتكس ، الارتداد مخيف جداً ، يسبب اختلال توازن كبيرًا ، ومرضًا شديدًا ، ينبغي أنك إذا اصطلحت مع الله أن تكون ثابتاً ، قال تعالى :

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : الآية 23)

في معركة الخندق حينما كاد المشركون أن ينتصروا ، وأن يمحى الإسلام أصلاً قال أحدهم : أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ كأنه ارتد، والآن يقول لك أحدهم : أين الله ؟ !

والله البارحة سألني أخ فقال : الكفار أقوياء جداً ، يفعلون ما يريدون ، هذا امتحان صعب ، الكافر الملحد المتغطرس القوي يبطش ، ويهدم ، ويسحق ، ويهدر ، ولا أحد يحاسبه ، أما إذا أصيبت هرة من طرفه بشظية تقوم الدنيا ولا تقعد ، شيء لا يحتمل .

نحن في امتحان صعب جداً أيها الإخوة ، والله عز وجل له امتحانات عديدة ، أحد هذه الامتحانات أن يقوي الكافر إلى درجة أن يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ ثم يظهر الله آياته ، إلى أن يقول الملحد لا إله إلا الله، ينبغي أن نصبر .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 139)

(كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

4 ـ هؤلاء قوم ظالمون :

هؤلاء ظلموا أنفسهم فابتعدوا عن الهداية ، أرادوا الدنيا ، ظلم نفسه ، أو ظلم غيره ، فالظالم محجوب عن الله عز وجل .

(أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

انظر مَن لعن هؤلاءِ ، واعتبر بعدها :

الله يلعنهم ، والملائكة تلعنهم ، والناس أجمعون يلعنونهم ، فشتان بين أن تكون في رحمة الله ، أو في لعنة الله ، الكافر في لعنة بعيد حياته شقاء ، قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾

(سورة طه : الآية 124-126)

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ

1 ـ أين مَن يدخل الآخرة في حساباته ؟!

بربكم كم من المسلمين أدخل الآخرة في حساباته اليومية ؟ ترك مبلغًا قال : معاذ الله ، هذا حرام أن آكله ، أخلص في عمله ، خاف من الله ، ترك مغنمًا كبيرًا خوف غضب الكبير ، كم من هؤلاء المسلمين يخشى الله عز وجل ؟ هم قلة ، والكثرة الكاثرة لا يخشون الله ، لذلك : وكأنهم غير مبعوثين ، وكأن لسان حالهم يقول : وما نحن بمبعوثين .

﴿ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(87)خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

2 ـ الكافر يوم القيامة في ذلةٍ وصَغارٍ :

هو أصغر من أن يستحق نظرة الله عز وجل ! في الدنيا ما كان يعرفه أبداً ، وما كان يرحم عباده أبداً، إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم

سبحان الله كلما جاءت آيات الشدة جاءت آيات الرحمة .

﴿ وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

(سورة العصر : الآية 1-3)

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾

دققوا :

﴿ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

1 ـ مغفرة الله للعبد بعد توبته وإصلاحه :

هناك آيات كثيرة ، فالله مغفرته بعد أن تتوب ، وتصبح علاقتك بالله عز وجل .

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

غفور يمحو الماضي ، رحيم يعطيك عطاء جزيلاً ، غفور كلمة سلبية ، نظفنا هذا البيت ، ثم فرشناه بأفخر الأثاث ، غفور عفا عن كل ما مضى ، ورحيم منحك كل عطاء ، بشرط :

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا)

فالحقيقة التوبة والإصلاح يعنيان أن تقلع عن الذنب فوراً ، وأن تعقد العزم على ألا تعود إليه مستقبلاً ، وأن ترمم ما مضى سابقاً ، فهناك عملية متعلقة بالماضي ، وعملية متعلقة بالمستقبل ، وعملية متعلقة بالحاضر ، فعملية الحاضر إقلاع ، وعميلة المستقبل عزم ، وفي الماضي إصلاح ، فهذا الذي تاب ، وأصلح فإن الله غفور رحيم .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا

1 ـ الموقف الفكري سلوك خطير :

يروي بعض المفسرين أن اليهود أيضاً آمنوا بالنبي قبل أن يبعث ، ولما بعث كفروا به ، وازدادوا كفراً بإلهه ، أحياناً تجد كافرًا مسالمًا ، هو كافر ، لكن ثمة كافر يتدخل في شؤون المسلمين كي يؤذيهم، ويضعفهم ، وهذا ما يفعله أعداؤنا ، هو في بحبوحة كبيرة فيحب أن يأكل كل شيء ، يحب أن يضعف المسلمين ، وأن يفقرهم ، ويحتل أرضهم ، فعندنا كافر ، وكافر مؤذٍ.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا)

أحياناً الموقف الفكري وحده خطأ كبير ، لكن أحياناً مع الموقف الفكري سلوك خطير ، هناك إنسان نمطه مسالم ، لكنه شهواني ، هذا أقرب إلى التوبة من هذا الذي يفسد ، فاسد مفسد ، ومذنب ، ويحمل الناس على الذنب ، وهناك شخص فاعل ، وشخص يفعل في غيره ما يفعله في نفسه ، هذا من أشد المعاصي والآثام .

(لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ)

العلماء أجمعوا على هذا الحل ، أما إذا تابوا فلا مشكلة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا)

ولقوا الله على هذه الحال ، وحشروا على هذه الحال .

(لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ)

الآية الأخيرة :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ

لا ينفع مالٌ يوم القيامة للنجاة من عذاب الله :

إذا كان مع شخص كيلو من الذهب ، ثمنه خمسمائة ألف ، الأرض كم كيلو ؟ يوجد أرقام كبيرة جداً ، مليارات الأطنان ، لو أن وزن الأرض ذهباً ، وقدمته يوم القيامة لتنجو من عذاب الله لم يقبل ، أما الآن فمطلوب منك دفع ثمن أقلّ بكثير ، واحد بمليار المليار ، أن تستقيم على أمر الله ، وأن تصلي ، أن تدعو الله ، وأن تغض بصرك ، وأن تحصن فرجك ، وأن تحلل دخلك ، أن تنفق مالك في سبيل الله ، أنت مكلف بأشياء ضمن إمكانيتك ، لكن يوم القيامة لو معك ملء الأرض ذهبًا من أجل أن تدفعه كفدية من عذاب الله لا تستطيع .

الآن مطلوب منك شيء بسيط جداً ضمن إمكانيتك ، قال عزوجل :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة : من الآية 286)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

نعوذ بالله أن نكون من هؤلاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والعشرين من سورة آل عمران ، ومع الآية الثانية والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : الآية 92)

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ

1 ـ معنى البرّ :

أيها الإخوة ، البر هي طاعة الله ، ثم الجنة ، من معاني البر الطاعة والجنة ، من معاني البر أيضاً مطلق عطاء الله ، فإذا أعانك أن تطيعه فقد أعطاك شيئاً تسعد به إلى أبد الآبدين ، إذا أعانك أن تطيعه ، وهو ينتظر أن تطلب العون منه ، وتسأله العون كل يوم مئات المرات إياك نعبد وإياك نستعين .

2 ـ من معاني البر الطاعة :

فمطلق طاعة الله عطاء من الله كبير ، ألم يقل يوسف عليه السلام :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِين)

(سورة يوسف : الآية 33)

الجاهل هو الذي يعصي الله ، والعاقل هو الذي يطيعه ، وما كل ذكي بعاقل ، الذكاء قد يعينك على جمع الناس حولك ، وربما لا تكون على الحق ، تجمعهم لمصلحتك ، والذكاء يعينك على جمع الأموال الطائلة ، وربما لم تجمعها بحق ، فقد تغادر الدنيا ، وأنت فقير ، بل أنت أفقر الفقراء ، الذكاء قد يعينك على أن تكسب مودة الناس في حياتك تحقيقاً لمصالحك ، وربما لا تكون على حق أيضاً ، لكن العقل يعينك على معرفة الله ، وعلى طاعته ، وعلى العمل لجنة عرضها السماوات والأرض ، العقل يعينك على أن تعرف سر وجودك ، وغاية وجودك ، لذلك ما كل ذكي بعاقل .

من معاني كلمة (البر) الطاعة ، وحينما تكون مطيعاً لله فقد حققت الهدف من وجودك ، وقد حققت عبوديتك لله عز وجل ، وأنت في أعلى مقام ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سدرة المنتهى، قال تعالى في حقه :

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم : الآية 10)

وهو في أعلى مهمة ، وهي الدعوة إلى الله ، قال تعالى :

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(سورة الجن : الآية 19)

إذاً : البر طاعة الله ، لأنها سبب عطاء الله :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

تعرف هذه الكلمة بسبب العطاء ، وتعرف هذه الكلمة بنتيجة السبب ، سبب العطاء الطاعة ، ونتيجة السبب الجنة ، فالبر الجنة ، والبر الطاعة .

فائدة لغوية في كلمة (البر) :

قال بعض فقهاء اللغة : إن في العربية اشتقاقاً نادراً ، حيث إن حرف الباء وحرف الراء المشددة إذا اجتمعا دل ذلك السعة ، فالبَرُ اليابسة ، والحركة فيها واسعة ، مع أن البحر أوسع ، لكن الحركة عليه مقيدة ، البُرُ القمح ، أوسع إنتاج غذائي في الأرض ، أربعمئة وخمسون ألف نوع للقمح ، البِرُ الإحسان، وهذه الكلمة مثلثة عند علماء اللغة .

3 ـ معنى : لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ

هنا البر الطاعة ، والبر الجنة ، أحدهما سبب ، والآخر نتيجة ، لن تنالوا البر ، لن تدخلوا الجنة ، لن يسمح لكم بدخولها ، لن تصلوا إليها إلا بثمن ، فمن طلب الجنة بلا ثمن فقد استهزأ بالله عز وجل ، وطلب الجنة من دون ثمن ذنب من الذنوب ، جنة عرضها السماوات والأرض ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر لا تكون إلا بثمن كبير ، بثمن باهظ ، هذا الثمن هو أن تكبح جماح نفسك ، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : الآية 40-41)

الجنة لها ثمن باهظ في الدنيا .

أيها الإخوة ، لن تنالوا البر ، لن تستطيع أن تكسب طاعة الله ، لن تستطيع أن تكسب معونة الله على طاعته إلا إذا دفعت ثمن هذه الطاعة ، أن تؤثر ما عنده على الدنيا .

4 ـ لابد من إنفاق الوقت :

حتى تنفقوا مما تحبون ، أحياناً الوقت ثمين ، ولاسيما أن في هذه الحياة مشاغل ، ومتاعب ، ومهمات، وخططًا ، وأهدافًا ، وبرامج ، وأعمالاً ، حينما تقطع من وقتك الثمين جزءًا منه لطلب العلم ، ولحضور مجالس العلم ، وجزءًا للدعوة إلى الله ، وجزءًا للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وجزءًا لقراءة القرآن ، فقد أنفقت مما تحب ، قد تجد عند بعض الناس أثمن شيء هو الوقت ، فإنفاق الوقت في طاعة الله ، وفي الدعوة إلى الله ، وفي خدمة الخلق، وفي طلب العلم ، وفي تربية الأولاد ، هذا شيء ثمين جداً ، وأنت تحبه هكذا ينبغي أن تنفقه .

5 ـ لابد من إنفاق المال والجاه والراحة :

وقد يكون المال ثمينًا جداً عند بعض الناس ، فلن يصل إلى ما عند الله من عطاء في الدنيا والآخرة إلا بإنفاق المال ، لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وقد يكون لك شأن كبير في المجتمع ، وأنت لست بحاجة إلى أحد ، لأنك مكتفٍ مالياً ، اجتماعياً ، نفسياً ، يأتيك إنسان ، ويقول لك : أتذهب معي إلى فلان لتكلمه لي ، وتتمنى أنت ألا تذهب ، وألا تبذل ماء وجهك أمام هذا الإنسان ، لكن رضاء الله يغلب عليك ، فتبذل من جاهك ، هناك من يبذل من ماله ، وهناك من يبذل من وقته ، وهناك من يبذل من جاهه ، وقد يمرض الأب أو الأم ، فحينما تسهر على راحتها ، أو راحته ، وحينما تضيع فراشك الثمين مقابلةً إلى هذا الإنسان بالإحسان فهذا شيء ثمين ، أن تنام على فراش وثير ، وأن تستغرق في نوم عميق ، لكن من كان عنده مريض فينبغي أن يسهر على راحته ، فأثمن شيء عند هذا الإنسان النوم ، فينبغي أن يدع الفراش من أجل رعاية هذا المريض .

الفكرة أن الله عز وجل غاية كل المؤمنين ، وهذه الغاية العظمى لن تنال منها شيئاً ، لن تنال رضاها ، لن تنال توفيقها ، لن تنال تجليها ، لن تنال مباركتها لك إلا بطاعتك ، وإنفاق الشيء الثمين ، وكل واحد منا عنده شيء ثمين يحرص عليه ، فلابد من إنفاق هذا الشيء الثمين ، قال تعالى :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

(سورة السجدة : الآية 16)

أحياناً النوم شيء ثمين ، المال شيء ثمين ، الوقت شيء ثمين ، الجاه شيء ثمين ، أما حينما ترى نفسك مستعدًا لإنفاق وقتك ، وإنفاق مالك ، وإنفاق جاهك ، وإنفاق راحتك في سبيل إرضاء ربك ، الآن دفعت جزءاً من سبب دخول الجنة ، لا أقول : دفعت ثمن الجنة ، لأن الجنة لا تقدر بثمن ، دخول الجنة محض فضل من الله ، بينما دخول النار محض عدل منه .

تمني دخول الجنة بلا عمل بضاعة الحمقى :

أيها الإخوة الكرام ، أن تتمنى دخول الجنة فهذه بضاعة الحمقى ، يا رب نحن عبيد إحسان ، ولسنا عبيد امتحان ، أن تمسك يدك عن الإنفاق ، ومعك المال الوفير ، لن تذوق ريح الجنة ، أن يكون بإمكانك أن تقيم العدل بين الناس ، لأنك قوي ، ولا تحب أن تدخل في هذه المتاهة طلباً لراحة نفسك ، لن تذوق الجنة ، إذا كان بإمكانك أن تقيم العدل بين الناس ، إذا كان بإمكانك أن تزيح عن الناس بعض البؤس ، إذا كان بإمكانك أن تمد الناس ببعض المال ، إذا كان بإمكانك أن تنطق بكلمة الحق التي هي ثمن سعادة البشر ، إذا أحجمت عن النطق بكلمة الحق ، أو إذا أحجمت عن أن تنفق المال ، أو إذا أحجمت عن أن تبذل الوقت الثمين في سبيل عمل صالح فتربص ، والطريق إلى الله عندئذ ليست سالكة.

هذه الآية أيها الإخوة تقابلها آية أخرى تقصم الظهر ، قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 24)

إيّاك أن تكون الدنيا عندك أغلى من طاعة الله :

إذا كان شيء من الدنيا أغلى عندك من طاعة الله ، إذا كان المال تكسبه من غش المسلمين فهذا المال أغلى عندك من طاعة الله ونفع المسلمين ، فاعلم علم اليقين أن الطريق إلى الله ليست سالكة ، إذا كان إرضاء زوجتك ، وهي تحقق لك متعة الدنيا أغلى عندك من طاعة الله فتربص ، فإن الطريق إلى الله ليس بسالك ، إذا كان البيت الذي تسكنه اغتصبته ، فهذا البيت المريح أحب إليك من أداء الحقوق إلى أصحابها فتربص ، فإن الطريق إلى الله ليست سالكة ، لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .

سمع هذه الآية أحد أصحاب رسول الله ، وكان عنده بستان جميل جداً ، بستان فيه نبع عذب ، وفيه ظلال وارفة ، وفيه أشجار مثمرة ، كان إلى جوار المسجد في" بيروحاء" ، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام ، وقال : يا رسول الله ، إن هذا البستان أحب مالي إلي ، وهو في سبيل الله ، فضعه لمن تشاء .

هكذا كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلى أصحابه رضوان الله ، ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا ببذل الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس .

نطلب من بعض الإخوة أن يأتي إلى درس الجمعة فقط ، ماذا يبذل ؟ اجلس فقط ، ويوجد تدفئة ، وماء بارد ، وكلام واضح ، وتكبير صوت ، وترحيب ، ماذا قدمنا نحن للإسلام ؟ لمجرد أن تمشي في طريق الإيمان الناس يحترمك الناس ، ويعظمونك ، ويبجلونك ، وفلان الله ينفعنا ببركاته ، ماذا قدمت أمام ما قدم الصحابة الكرام ؟ أنفقوا وقتهم ، أنفقوا مالهم ، تركوا بلادهم ، تركوا ديارهم ، تركوا أموالهم ، كانوا مع النبي في السراء والضراء ، قال تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران : الآية من 146)

أسلم أحد الأعراب ، واشترك في غزوة مع رسول الله ، فأعطي غنيمة فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذه غنيمة لك من الحرب ، قال : ما على هذا أسلمت ، أنا أسلمت على الذبح ، على أن أذبح في سبيل الله

.

ماذا قدم المسلمون لدينهم ؟ ماذا قدموا لبعضهم ؟ ماذا قدموا إعلاءً لكلمة الله ، ماذا قدموا حلاً لمشكلات الفقراء ؟ ماذا قدموا حلاً لمشكلات الشباب ؟ ماذا قدموا حلاً للأيتام ، وللأرامل ، ماذا قدموا ؟ كل إنسان ينتمي إلى ذاته ، إلى مصالحه ، يحب أن يعيش وحده ، وأن يأكل وحده ، وأن يستمتع بالحياة وحده ، وعلى الناس السلام ، هذا النموذج من المسلمين لا يستحق نصر الله عز وجل ، هذا النموذج لا يستحق أن يكون الله معنا ، ولا أن يقهر أعداءنا ، قال تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : الآية 92)

الشيء الذي تحبه ، أحياناً مجيئك إلى مجلس العلم يقوي هذا المجلس ، أنت دعم للحق ، لك مكانة ، لك شأن ، فإذا جئت إلى بيت من بيوت الله ، وجلست بين الناس مستمعاً إلى مجلس العلم ، فأنت بهذا تدعم مجلس العلم ، وتدعم الحق ، أن تعين أخاك المسلم ، أن تهيئ له عملاً ، أن تبحث له عن فرصة عمل ، أن تيسر له زواجًا ، أن ترعى طالب العلم ، هذا دعم للحق ، ماذا أنفق المسلمون ؟

أيها الإخوة الكرام ، أبواب الخير مفتحةٌ على مصاريعها ، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، لكن البر الذي نطمح إليه جميعاً ، لكن البر الجنة التي هي مقصدنا جميعاً لن نصل إليها ، ولن ننالها إلا أن ننفق شيئاً نحبه .

6 ـ عجبًا لمن ينفق الشيء البالي المهترئ :

قديماً كما كنت أسمع ، ليس الآن ، والحمد لله قطعة الأثاث المهترئة هذه ترسل إلى المسجد ، الثريا القديمة المتكسرة هذه إلى المسجد ، هناك أناس لا يقدمون إلا شيئاً بالياً ، لا قيمة له ، إنسان

دفع زكاة ماله أحذية ، كل فردة بمقاس ، عنده من زكاة ماله بضاعة قديمة ، من يلبس حذاءً كل فردة بمقاس ؟ سجلها على الله زكاة وأنهاها .

هناك من يقدم طعاماً للفقراء لا يؤكل ، أو ثياب مهترئة ، هكذا ألف الناس ، أن يقدموا شيئاً زهد فيه ، أعرضوا عنه ، لا يحبونه ، هذه الأكلة لا يأكلها ، هذه الثياب لا يلبسها ، هذه قطعة الثياب لا يستهلكها ، يدفعها إلى الجامع .

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : الآية 92)

هذه هدية إلى الله .

طرق الخير كثيرة جدا لمن أراد :

أيها الإخوة ، هذه آية دقيقة جداً ، الذي يحب المال طريقه إلى الله إنفاق المال ، والذي يحب المكانة العلية في المجتمع طريقه إلى الله أن يكون مع الضعفاء ، كل إنسان يحب أن يكون مع الأقوياء في مجالسهم ، في نزهاتهم ، في ولائمهم ، في حفلاتهم ، ومع الأغنياء أيضاً ، لكن المؤمن يحب أن يكون مع المؤمنين ولو .....

أردت أن تنقذ نملة من الغرق ، فإن الله بذلك عليم ، قشة حملتها من أرض المسجد ، ووضعتها في جيبك مراعاةً لنظافة المسجد ، فإن الله بها عليم ، أبواب الخير لا تعد ولا تحصى ، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، فالمؤمن همه العمل الصالح ، همه البذل والعطاء ، همه إكرام الخلق ، همه العناية بالمخلوقات حتى الحيوانات في قلبه رحمة بهم .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، قَالَ : فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ : لا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا ، وَلا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا ، وَلا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ))

[البخاري ، مسلم ، الدارمي]

فإذا استحقت امرأة النار في هرة حبستها ، فما قولك فيما فوق الهرة ، هؤلاء الذين يقتلون كل يوم عشرات ، ويجرحون الآلاف ، والمئات كل يوم ، لحقد دفين ، ما مصير هؤلاء عند الله ؟ القتل سهل جداً ، يقتل هذا المقاوم ، وكأنه يقتل ذبابة ، لكن الله كبير ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن ينصرهم عليهم .

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

حجم الشيء ، كميته ، ظروفه ، بواعثه ، أهدافه ، فإن الله به عليم ، يعلم سرك وجهرك .

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ)

(سورة آل عمران : الآية 93)

1 ـ الأصل في الأشياء الإباحة :

أيها الإخوة ، هناك قواعد عامة في الدين تعد من أصوله ، الأصل في الأشياء الإباحة ، لأن الله خلق لنا كل شيء كي ينفعنا في الدنيا ، إذاً فلا يعقل أن يخلق لنا شيئاً طيباً نافعاً مفيداً، ثم يحرمه علينا ، مستحيل ، فالأصل في الأشياء الإباحة ، قال تعالى :

(فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

(سورة الأعراف : الآية 19)

نسبة المحرمات إلى ما هو مباح واحد بالمليار ، كم من شراب لك أن تشربه مطمئناً ؟ مئات ، لكن حرمت علينا الخمر ، كم نوعًا من أنواع اللحم تأكله هنيئاً مريئاً ؟ إلا الخنزير ، فنسب المحرمات إلى المحللات نسب ضئيلة جداً ، ولكن لابد من شيء محرم كي نمتحن عند الله عز وجل .

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ)

2 ـ تحريم يعقوب لبعض الأشياء تحريم شخصي :

هذا التحريم شخصي ، إما أنه نذر لله عز وجل ألا يأكل اللحم فرضاً ، أو تعافه نفسه ، أو لمرض أصابه ، إنسان أحياناً لا يأكل أكلاً معيناً ليس لها علاقة بالتحليل والتحريم ، هناك طعام لا يناسبه ، طعام لا يناسب مرضه ، فسيدنا إسرائيل ، وهو سيدنا يعقوب عليه السلام حرم على نفسه طعاماً ، إما وفاءً لنذر ، أو زهدا في هذا الطعام ، أو وقاية لجسمه من مرض ما .

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ)

3 ـ تحريم بعض الأشياء نوع من التأديب :

لكن الله أحياناً قد يعاقب بالتحريم ، هذا التحريم الذي هو عقاب ليس تشريعاً ، بل هو تأديب ، فالله حرم على بني إسرائيل بظلم منهم أنواعاً من اللحوم .

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)

(سورة النساء : الآية 160)

هذا تحريم تأديب ، لا تحريم تشريع .

(قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 93)

1 ـ التحريم لابد له من دليل :

هم ادعوا أن هذه الأشياء حرمت عليهم تحريم تشريع ، فقد نعوا على العرب أكلها في ظل دينهم الجديد، قالوا : لا ، هذه حرمت عليهم تحريم تأديب ، لا تحريم تشريع ، أما الذي حرمه على نفسه نبيهم يعقوب فهذا تحريم شخصي ، النبي له خصوصيات .

قدم للنبي عليه الصلاة والسلام طعام ضب ، قال لا آكله ، أمحرم هو ؟ قال : لا ، ولكن تعافه نفسي .

هل يعد هذا الطعام حراماً ؟ لا ، بالعكس ، سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو من مكة ، وله أذواق في الطعام عالية جداً ، ومع ذلك أكل الضب أمام رسول الله ، وقد قال بعض علماء السيرة : إنه أدرك أنه مقبل على فتوحات مديدة ، وعلى نشر هذا الدين فلا بد أن يكون قدوةً في أكل لحم حيوان يوجد في الصحراء كثيرًا .

أما النبي الكريم فقال : عافته نفسي ، وما حرمه ، إسرائيل حرم على نفسه بعض الأكلات ، اليهود اعتبروها تشريعًا ، لا هذا التحريم شخصي ، والذي حرمه الله عليهم تحريم تأديب لا تحريم تشريع .

تحريم المنع :

وهناك تحريم منع ، قال تعالى :

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

(سورة القصص : الآية 12)

سيدنا موسى حينما كان طفلاً ، تحريم منع ، كلما جاءت مرضعة يرفض أن يلتقم ثديها ، تمهيداً كي تأتي مرضعة هي أمه ، لأن الله عز وجل أمرها بأمرين ، ونهاها بنهيين ، وبشرها ببشارتين ، قال تعالى :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

وهذا أول أمر .

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

هذا أمر ثانٍ .

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)

نهيان .

(إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

بشارتان .

(سورة القصص : الآية 7)

هذا كلام خالق الأكوان

انظر إلى المفارقة :

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

إذا خفت على هذا الطفل أن يموت حرقاً ، وأنتَ في الطابق العاشر فألقه من الشرفة ، ما هذا الكلام ؟ الأمر بيد الله ، الأمر دقيقه وجليه بيد الله ، عظيمه وحقيره بيد الله :

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام : الآية 59)

ويعلم ما في السماوات والأرض .

حركة صندوق خشبي في اليم بيد الله ، ساقه إلى قصر فرعون ، وأوقفه عند شط القصر ، وألهم امرأة فرعون أن تنزل إلى شط النهر ، فالأمر بيده سبحانه ، هكذا يفعل الله .

(قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

2 ـ اليهود موسومون بالكذب :

أنتم تكذبون أيها اليهود ، مرة سمعت تصريحاً لم أصدقه ؛ أن وزيرة خارجية أمريكا تناشد العالم أن تقنع الفلسطينيين بالكف عن ذبح اليهود ، ما هذا الكلام ؟ كذب بكذب .

(قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

نحن نعيش عصر الكذب ، عصر التزوير ، عصر أن الحق هو القوة فقط ، أما في غدو الإسلام فالحق ما جاء به الوحيان ، لكن الحق الذي جاء به الوحيان يحتاج إلى قوة ، أما أن يكون منطق العصر القوة وحدها ، هي الحق ، والعياذ بالله ، هذا منهج مجتمع الغاب ، هذا منهج الوحوش ، والوحوش تأكل حاجتها ، أما وحوش البشر فلا تكتفي بحاجتها ، بل تأكل حباً في الأكل ، وتقتل حباً في القتل .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(6)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة : 6-7)

يعني شر ما برأ الله .

(فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 94)

1 ـ صدق الله في تحريمه وتشريعه ، وكذب المفترون :

هؤلاء يفترون على الله الكذب ، يدعون أن ما حرمه يعقوب على نفسه تحريم تشريع ، وأن ما حرمه الله عليهم تحريم تأديب ، هو تحريم تشريع ، قل : صدق الله ، وكذب اليهود :

(قُلْ صَدَقَ اللَّهُ)

(سورة آل عمران : الآية 95)

النبي الكريم صلى الله عليه جاءه أحد أصحابه يشكو أن بطن أخيه قد استطلق ، معه إسهال شديد ، أمره أن يأكل عسلاً ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ :

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ ، فَقَالَ : اسْقِهِ عَسَلًا ، فَسَقَاهُ ، فَقَالَ : إِنِّي سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا ، فَقَالَ : صَدَقَ اللَّهُ ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ))

[متفق عليه]

ثم قرأت بحثاً أن بعض أنواع الإسهالات الحادة علاجها بالعسل .

(قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 95)

2 ـ الأنبياء من أصل واحد :

هذا كلام دقيق ، يعني الأنبياء ركب واحد ، الأنبياء مذهب واحد ، قيم واحدة ، مبادئ واحدة ، دين واحد ، هكذا الأصل واحد ، هؤلاء الأنبياء العظام حينما يروا ، حينما يطلعهم الله عز وجل ماذا حصل بين أتباعهم من حروب ، وكم من قتيل في الحروب الصليبية ، كان الأمر مخزيًا ، الأنبياء إخوة ، فكيف أصبح أتباعهم أعداءً ؟ لابتعادهم عن الحق ، والجواب واضح ، قال تعالى :

(فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة : الآية 14)

هذا قانون العداوة والبغضاء ؛ حينما ننسى منهج الله ، وحينما نعصي الله ، ونكتفي بالانتماء فقط ، عندئذ يقع بيننا وبين من حولنا عداوة وبغضاء لا تنتهي إلى يوم القيامة ، لذلك قالوا : الحرب بين حقين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدد ، والحرب بين حق وباطل لا تطول ، لأن الله مع الحق ، أما بين باطلين فلا تنتهي .

(قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(95)إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ

1 ـ الكعبة أول بيت لعبادة الله :

الحقيقة بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس في الأرض ، أول بيت للعبادة وضع للناس في الأرض ، لكن إبراهيم عليه السلام جدده ، جدد بناءه ، أما هو فقد بني من عهد آدم ، إن أول بيت وضع للناس لا أول بيت بني في الأرض ، لا ، لا أول بيت سكني بني في الأرض ، لا ، إن أول بيت للعبادة وضع للناس في مكة المكرمة .

ما معنى أن يتخذ بيتاً في مكة ؟

أيها الإخوة ، الإنسان له طبيعة مادية ، وربنا عز وجل اتخذ لنفسه بيتاً في الأرض ، قد يقول قائل : إنّ الله في كل مكان بعلمه ، ومع كل إنسان ، ما معنى أن يتخذ بيتاً في مكة ؟ ويأمرنا أن نذهب إليه ؟

الجواب : أراد الله جل جلاله أن يتخذ بيتاً في الأرض ، وأن يدعونا إليه لنشعر نحن إن لبينا هذه الدعوة أننا فعلنا شيئاً ثميناً ، تركنا بيتنا ، وبلدنا ، وتجارتنا ، وأولادنا ، ومكانتنا ، ودنيانا ، وذهبنا إلى الله شعثاً غبراً ، كي نلبي دعوته .

حينما تحج بيت الله الحرام تؤكد لنفسك أن تلبية دعوة الله عز وجل أغلى عليك من كل شيء ، فدفعت مبلغاً كبيراً ، وتحملت مشاق السفر ، وقد كانت صعبةً جداً من أجل تلبية دعوة الله عز وجل ، هذا معنى أن يتخذ الله بيتاً له في الأرض .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران : الآية 96)

2 ـ لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد :

لذلك لا تشد الرحال إلا إلى بيت الله الحرام ، والمسجد النبوي ، والمسجد الأقصى إن شاء الله، وما سوى هذه المساجد لا تشد الرحال إليها على أنها مساجد ، أي واحد منها كأيّ مسجد آخر لا يجوز

في الشرع أن نشد الرحال إلى جامع في حلب ، نقصد زيارته ، ولا إلى جامع في دمشق أبداً ، لكن نشد الرحال إلى بيت الله ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثلاثةِ مَسَاجِدَ : الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

هذا ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام ، أن يضع الله بيتاً له في الأرض كي نقصده حاجين ، معنى ذلك أن نشعر نحن أننا آثرنا تلبية دعوة الله على حظوظنا من الدنيا .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع تفسير هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

أسئلة :

س : هل يؤثر إذا كتب لي أحدهم في قلة الرزق ؟

ج : الله عز وجل قال :

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : الآية 102)

الله هو الفعال ، قال تعالى :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم : الآية 22)

هذه كلها خرافات ، أحياناً الجن يستعيذون من شياطين الإنس .

س : ما رأيكم بمن يسافر إلى بلاد أجنبية بقصد رؤية المساجد هناك؟

ج : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثلاثةِ مَسَاجِدَ : الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

ليس ممنوعاً أن تسافر ، إنما أن تقصد التقرب إلى الله بزيارة مسجد ليس من هذه الثلاثة ، هذا خلاف منهج الله .

س : يبدو في درس سابق أنك تكلمت أن يكون الناس سواسية في المجالس ، وأن يجلس الناس حيث انتهى بهم المجلس ، يقول هذا الأخ : ألم يقل النبي أنزلوا الناس منازلهم ؟

ج : أنزلوا الناس منازلهم من دون أن يكون على حساب أحد ، أو على حساب إهانة أحد .

س : إذا سأل أحدهم : لماذا حرام فائدة البنك ، بماذا نجيبه ؟

ج : طبعاً الإجابة طويلة جداً ، أنا لي ثمانية دروس عن الربا ، ولكن بشكل مختصر أضع لكم هذه القصة ، عالم من علماء دمشق الأجلاء كان في أمريكا ، فالتقى مع عالم أمريكي أسلم ، وهو متفوق في العلم ، فطرح موضوع لحم الخنزير ، فهذا العالم الدمشقي بدأ يتكلم عن مضار لحم الخنزير ، وعن الدودة الشريطية ، الوحيدة ، وعن آثار مضار أكل لحم الخنزير النفسية والاجتماعية ... وأمضى ساعة، فما كان جواب هذا الآخر ؟ فقال له : يا دكتور ، كان يكفيك أن تقول لي : إن الله حرمه ، إله خالق الأكوان هو العليم ، هو الحكيم ، نحن نبحث عن الحكم ، ولا مانع ، ونروج له ، وندعم التحريم بالحكمة ، لكن المؤمن الصادق علة الأمر أنه أمر ، فإذا إنسان سألك : لماذا الفائدة محرمة ، وتريد جواباً مختصراً مفيدًا من مؤمن لمؤمن : لأن الله حرمها ، عندنا قاعدة ثانية ، الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، أنا قد أكون أمياً ، لا أقرأ ولا أكتب ، أشتري مكيفاً ، وأضغط على الزر فيأتي هواء بارد ، يأتي دكتور بالفيزياء يحمل دكتوراه بالتكييف يعلم دقائق التكييف ، مبدأ غاز الفريون ، ينتفع بالمكيف كما ينتفع البدوي بالمكيف ، لأنه مصمم أن تضغط على هذا الزر ، فتنتفع بالهواء البارد ، نظام الشرع الإسلامي حينما تطبق منهج الله عن علم ، أو عن غير علم ، كيفما كان تطبقه ، فتجد ثماره من دون فلسفة ، الآن نريد فلسفة ، إذا ما اقتنع لا ينفذ ، أنت لست مع الله ، إذا كنتَ مع عبد حقير جداً تحتقره ، يعطيك أمرًا فتنفذه فوراً ، ولا تسأله ، الله عز وجل كرمك ، وقال لك :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت : الآية 45)

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة : الآية 63)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 103)

ليس الله مضطراً أن يعطيك الحكمة ، افعل فقط ، ولكن تكريماً لك ، تكريماً لشأنك بيّن لك الحِكم ، ولكن أنت مأمور أن تطيع الله عز وجل .

كنت في أستراليا ، وسمعت من أب يشكو من ابنه ، يكاد يخرج من جلده من ابنه ، يقول لابنه : هذه حرام ، يقول الابن : (واي) أي لماذا حرام ؟ أبي هذه عيب ، يقول له الابن : (واي) عيب ؟ هذه لا تجوز ، يقول له الابن : (واي) لا تجوز ؟ هكذا علمه الغرب ، كل شيء يريد أن يرجع به إلى عقله السخيف والضيق ، فهذا الأب بكي أمامي ، وقال لي نزع أخاه الثاني ، هذه ليس لها نهاية ، أنت أمام منهج إلهي خالق الكون ، أعطاك تعليمات ، أساساً أنت لا تجرؤ أن تسأل طبيبًا له مكانة كبيرة ، لا تأكل ملحًا ، هل تقول له : لماذا الملح ؟ أنا أفسر ، وأبين ، ولكن الأصل أنت عبد لله ، والإله يأمرك أن تفعل كذا وكذا ، كل إنسان لا يطبق أمر الله إلا بعد فهم حكمة هذا يعبد نفسه ، ولا

يعبد الله ، وعبادته ليس لها قيمة أبداً ، أما البطولة : اذبح ابنك ، هل هذا أمر قليل ، هل يقبله عقل ؟ قال تعالى :

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

نحن مقصرون جداً ، نتفلسف على الله ، أقل شيء : ما هي الحكمة ، ولماذا ؟ من أنت ؟ يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند

أنا عندي لا يجوز ، من أنت ؟ أنت مشرع ، أنت عبد مأمور ، ما قنعت بها ، لا تناسب العصر ، هذا كلام المسلمين ، لذلك فهم يعانون من تخلي الله عليهم ، لذلك هان أمر الله عليهم فهانوا على الله

.

عقد مؤتمر في أمريكا ، قام عالم ، وقال : هنا في هذه البلاد كل شيء قابل للمناقشة ، والرفض ، والازدراء ، هكذا الغرب ، لا شيء مقدس ، كل شيء قابل للرفض ، والمناقشة ، والازدراء ، نحن لا يوجد عندنا هذا ، نحن عندنا مسلّمات ، القرآن كلام خالق الأكوان ، كل كلمة فيه حق ، وصدق ، وموضوعية ، وفيها خير كبير ، هذا المؤمن ، يعظم شعائر الله ، وإن تعظيم الشعائر من تعظيم الخالق، لو عرفت الله لعظمت كلامه ، لو عرفت الله لأطعت أمره ، تأتيك ورقة في البريد تعال الساعة العاشرة، لتقابلني ، لا تتحرك شعرة بجسمك ، ويمكن ألا تذهب ، ليس لديك وقت فراغ ، وتأتيك من جهة ثانية فلا تنام ثلاثة أيام ، لأنك تعرف من دعاك ، هذا غير هذا ، لو عرفت الله ، من هو الذي أمر هذا الأمر ؟ من هو الذي نهى هذا النهي ، أنت تعرف رجلاً قويًّا ، يمكن أن يزعجك جداً ، فتنفذ الأمر بحذافيره ، ألا تعرف أن الله بيده كل شيء ، بيده القلب ، والدسامات ، والشريان التاجي ، والدماغ ، والخثرة بالدماغ ، وبيده الكبد ، والكليتان ، وكل شيء بيده ، أقول لبعض الناس : عند الله أمراض كثيرة ؛ تشمع كبد ، وفشل كلوي ، وخثرة بالدماغ ، وجلطة بالقلب ، عنده أمراض مخيفة ، وكل هؤلاء الناس عباده ، فاتق الله يا رجل ، وخف من الله .

طبعاً أنا أحترم أي سائل ، ولكن لا نعوِّد أنفسنا : لماذا هذا حرام ، أعطني الدليل ؟ آية قرآنية ، الآن أكثر المناقشات هذا المال تجمده ، هل من المعقول من دون فائدة ، الله الذي حرم الفائدة قال :

(فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة : الآية 279)

لا تهزه هذه الآية ، هل من المعقول أن هذا المال مجمد ، وإذا أخذت قرضاً ربوياً أنا انتفعت ، والبنك انتفع ، ما دام الأمر المنهي عنه قابلا للمناقشة والأخذ والرد ، فقد هان أمر الله على المسلمين ، فهانوا على الله .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(26-60): تفسيرالآيتان 96 - 97
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-05-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس والعشرين من سورة آل عمران ، ومع الآية السادسة والتسعين، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 96)

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ

1 ـ البيت الحرام أول بيت للعبادة في الأرض :

أيها الإخوة ، ذكرت في الدرس السابق أن الإنسان له كيان مادي ، هو جسم له طول ، وعرض ، وارتفاع ، وله حيز يشغله ، وهو في الحياة الدنيا ذو كيان مادي ، فالله سبحانه وتعالى مع كل مخلوق ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد : الآية 4)

ولكن من أجل أن تشعر أنك فعلت شيئاً لله وضع الله بيتاً للناس ، بل إن أول بيت وضع للعبادة في مكة المكرمة ، ثم جدَّده سيدنا إبراهيم ، لكن هذا أول البيت وُضِعَ في الأرض ، في منطقة مكة ، والآية الكريمة :

(بِبَكَّةَ)

(سورة آل عمران : الآية 96)

أي بمكان البيت ، مكة حرم ، لكن بكة مكان البيت ، فمن دخله كان آمناً ، فالله عز وجل اتخذ بيتاً في الأرض ، ودعا الناس إليه ليشعر المسلم أنه ترك بيته ، وأهله ، وتجارته ، وزوجته ، وأولاده ، ومكانته ، وهيمنته ، وجاء إلى بيت الله الحرام ملبياً ، فالله عز وجل مقابل هذا التفرغ لتلبية ندائه ، مقابل هذا الإيثار ، إيثار تلبية ندائه على شؤونه الحياتية ، هيَّأ له عطاءً خاصاً هناك .

2 ـ طبيعة منطقة مكة خالية من أسباب التمتع الحسية :

الحقيقة أن الله عز وجل اختار بيته في منطقة حارة ، ليس فيها نبات ، وليس بالمواصفات الجمالية ، ليس فيها مسحة من جمال إطلاقاً ، بل فيها حر شديد ، وفيها مناظر لا تريح العين ، جبال جرداء قاسية، أرض ملتهبة ، ومع ذلك فما من حاج يحج بيت الله الحرام إلا وتمنى أن يعود ثانية إلى هذا البيت ، قال تعالى :

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ)

(سورة البقرة : الآية 125)

فالمثابة مصدر ميمي من ثاب أي رجع ، كل حاج حج بيت الله الحرام صادقاً دون أن يشعر يدعو ، ويقول : اللهم لا تجعل هذا الحج آخر عهدي بالبيت ، ارزقني حجاً متوالياً .

إن الله عز وجل ثبّت وسائل اللذة المادية ، وحرك السعادة الروحية ، لو أنه فرضاً في واد ذي زرع ، في جبال جميلة ، في جبال خضراء ، في جبال مشرفة على بحار ، الجو لطيف ، الحج على مدار العام، لئلا يكون ثمة ازدحام ، لو جعل الله وسائل اللذة المادية متوافرة في بلده الحرام ، ثم اتخذ هذا البيت في مكان جميل كسويسرا مثلاً ، عندئذ يختلط السائح بالحاج، لا يدري هذا الذي يحج بيت الله الحرام ، أكان سروره بسبب إقباله على الله ، أم بسبب هذه المناظر الجميلة ، وهذا النسيم العليل ، فلحكمة أرادها الله كل أسباب اللذة الحسية منعدمة هناك ، ازدحام ، وحر ، ومناظر قاسية ، ومع ذلك تنهمر دموع الحاج ، ويتجلى الله على قلبه، إلى درجة أنه يقول : كنت أعيش أسعد لحظات حياتي في يوم عرفة .

إذاً : الله عز وجل تمشّياً مع كيان الإنسان المادي اتخذ لنفسه بيتاً في الأرض ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

3 ـ البيت الحرام بيت لناس جميعا :

الآن دقق للناس ، الناس جميعاً ؛ عربهم وعجمهم ، أسودهم وأبيضهم ، غنيهم وفقيرهم ، أصفرهم وأحمرهم ، مطلوبون لهذا البيت ، دين الله ينبغي أن يسعَ الناس جميعاً .

أضرب لكم مثلاً بسيطاً من الفقه ، أضخم جامع في بلدنا الجامع الأموي ، ويتسع أحياناً لمئة ألف مُصلٍ ، خمسون ألفًا في الداخل ، وخمسون ألفًا في الصحن ، ولو كلفنا أمهر خطيب في بلدنا أن يلقي خطبة في هذا المسجد الجامع ، ثم أغلقنا الأبواب ، وقفلناها ، فالخطبة باطلة ، لأن دين الله ينبغي أن يكون لكل الناس ، ليس هناك في الدين شيء خاص بجماعة دون جماعة ، هذا دين الله كالهواء نستنشقه جميعاً ، إذاً : لا يمكن لإنسان أن يحتكره ، ولا لفئة ، ولا لجماعة ، ولا لطائفة ،

ولا لمذهب ، ولا لشعب ، ولا لبلد ، ولا لمصر أبداً ، هو دين الله كالهواء ينبغي أن يستنشقه كل إنسان ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

فالأسود مطلوب ، والأبيض مطلوب ، والأصفر مطلوب ، والأحمر مطلوب ، والغني مطلوب ، والفقير مطلوب ، ومن كان في ذروة النسب مطلوب ، ومن كان في حضيض النسب مطلوب .

إن أول بيت وضع للناس هذا البيت ، أنت قد تصلي في بيتك ، وقد تصلي في دكانك ، لكنك إذا صليت في الجامع فهذا المكان خُصِّص للصلاة ، فالإنسان حينما يصلي الفجر في المسجد سيستمع إلى قراءة مُتقنة ، وإلى سورة طويلة ، وإلى تراتيل في الصلاة ترتاح لها نفسه ، لعله إذا صلى الفجر في البيت تكون صلاته أضعف من صلاته في المسجد .

في حجّ بيت الله الحرام يستوي فيه جميع الناس :

في الحج أمرك الله جل جلاله أن تترك بلدك ، بيتك ، زوجتك ، أولادك ، تجارتك ، وظيفتك ، مدير دائرة مثلاً ، مدير مؤسسة ، مركبتك ، مكانتك ، ثيابك العسكرية أحياناً ، ثيابك المدنية الأنيقة جداً أحياناً، دع الدنيا وراء ظهرك ، وتعال إلي ، تعال يا عبدي كي تذوق طعم القرب مني ، تعال يا عبدي كي أُريحك من هموم جاثمة على صدرك ، تعال يا عبدي لترى ما عندي من الرحمة ، كأن الله يدعوك إليه ، من هذا الذي يستحق رحمة الله ؟ هو الذي ضحى بدنياه من أجل هذا اللقاء ، ضحى بأهله ، وأولاده ، ومكتبه ، وزبائنه ، ومكانته ، ومركبته ، و ولائمه ، وتوجه إلى بيت الله الحرام ليكون شخصاً لا يرفعه شيء ، اسمه حال ، ليس له أية قيمة ، واحد من ملايين ، ولن يسمح لك أن ترتدي ثياباً غالية تُعَبِّر عن مرتبتك المالية، ولا أن ترتدي ثياباً خاصة تُعَبِّر بها عن مرتبتك العسكرية ، ولا أن ترتدي ثياباً أخرى تُعَبِّر عن مرتبتك الملكية ، ترتدي إزاراً وكساءً غير مخيطين ولا محيطين ، فكأن الله أرادك أن تذهب إليه ، وكأن الحج رحلة إلى الله ، هذا في الأصل في كل الأديان ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا)

ذهب إنسان إلى الله ليصطلح معه ، ليُعَاهده ، ليتوب إليه ، ليُقبِل عليه ، ليجعل علاقته بالله طيبة ، ليصطلح معه ، ليكون بينه وبين الله مودة ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

أي أن الله قد اتخذ لنفسه بيتاً في الأرض ، وقال : تعالوا إلي ، فالذي جاءه ماذا يقول ؟ يقول : لبيك اللهم لبيك ، يا رب ، أنا أجبت نداءك ، وأتيت بيتك الحرام طائعاً ، تائباً ، منيباً ، ملبياً ، مكبراً ، خاضعاً ، محباً ، مشتاقاً ، مخلصاً ، فالله عز وجل نظير هذه التضحية ، وهذا الإيثار يتجلى عليك تجلياً في الحج لا يعرفه إلا من زاره ، يشعر الحاج وكأنه وُلِد من بطن أمه لتوه ، كل شيء مضى

غفره الله له ، ومن وقف في عرفات فلم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له ، عاد كيوم ولدته أمه .

أنا أستخدم مصطلحات إسلامية ، لكن هذا البيت قديم ، قديم قدم البشر ، أي ما من إنسان إلا وجُعِل هذا البيت له ، لأن البشر مدعوون جميعاً إلى معرفة الله وطاعته .

لمجرد إرادة الظلم في بيت الله الحرام يعاقب عليه :

لكن العلماء تحفظوا قالوا : ليس أول بيت بني في الأرض ، بل إنه أول بيت بني لعبادة الله عز وجل ، لذلك بيت الله الحرام يتميز بخصائص كثيرة ، أنه من أراد إيذاءه يُحاسَب على إيذائه ، وأصلاً الإنسان لا يُحاسَب إلا على عمله ، لا على إرادته ، لكن الله عز وجل يقول :

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

(سورة الحج : الآية 25)

لمجرد أن تريد إيذاء هذا البيت ، وكم من جهة مشبوهة أرادت إحداث فتنة في الحج ، وكُشِفت فتنتها ، وخطتها مبكراً من دون جهد من بشر ، هذا الشيء ثابت ، يقولون : أمن الحجيج على الله ، وهناك محاولات كثيرة جداً أرادت أن تخلق فتنة في أثناء الحج ، لكنها لم تفلح ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ)

بكة موضع البيت ، ومكة المدينة الحرم .

4 ـ بيت الله الحرام مبارَك :

قال : مباركاً ، إله العالمين يقول : مباركاً .

بالمناسبة أيها الإخوة ، نحن كياننا المادي نرى العطاء بيتًا ، دخلاً ، مركبة ، أسهمًا بشركة ، صحة طيبة ، لكن الله عز وجل عنده عطاء ، لا يقدر بثمن ، أن تكون آمناً في سربك ، أن تكون مطمئناً إلى عدالة ربك ، أن يكون قلبك مفعماً بمحبة الله عز وجل ، وفي قلب المؤمن من الأحوال الطيبة ما لو وزعت على أهل بلد لكفتهم ، معك الحكمة ، معك الأمن ، معك الرضا ، معك الإحساس بأن المستقبل لصالحك ، قال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة : الآية 51)

5 ـ السكينة والرضا يجدهما الحاجّ في مكة :

لنا ، لا علينا ، هذا الشعور ليس له سبب ، المستقبل معك ، مضي الأيام لصالحك ، تقدمك في السن لصالحك ، قلبك مفعم بالرضا ، راضٍ عن الله قلبك مفعم بالسعادة ، قلبك مفعم بالأمن ، عطاء

الله وإن كان في الظاهر غير منظور ، لكن الله عز وجل قادرّ أن يعطيك الدنيا بحذافيرها ويشقيك ، وقادر أن يحرمك الدنيا كلها ، ويسعدك ، وكم من إنسان قابع في بيت صغير ضيق لا يرى النور ، وكأن هذا البيت جنة من جنان الدنيا ، وكم من إنسان يقبع في بيت ثمنه ملايين كثيرة ، فيه من كل صفات البيت الراقي ، وهذا البيت قطعة من الجحيم ، هذه السَكِينَة هي محيرة حقيقة ، يمنحها الله لإنسان ، ويحرمه الدنيا فإذا هو أسعد الناس ، يحرمها الله لإنسان ويعطيه الدنيا فإذا هو أشقى الناس ، ويحرمه الدنيا ، ويعطيه السكينة ، فإذا هو أسعد الناس ، هذا معنى قول الله عز وجل :

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 103)

هذا الشيء المحير أن أصحاب رسول الله ، كانوا في حياة خشنة صحراء ليس هناك مركبات ، أو تكييف ، أو اتصالات ، كل هذه الوسائل التي معنا لم يعرفوها ، ولكن وصلوا إلى الله ، ونحن مع كل هذه الوسائل لم نصل إلى الله ، هم في سعادة ما بعدها سعادة ، ونحن في جفاء ، وفي بعد ، وفي شقاء ، ومعنا وسائل الدنيا بأكملها ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

لو أن الإنسان زار بيت الله الحرام ، أولاً تُمحى ذنوبه السابقة ، وعاد كيوم ولدته أمه ، يُمنح ما يسمى بالسكينة ، يُمنح ما يسمى بالسعادة ، بالأمن ، يُمنح صفات يسعد بها إلى أمد طويل ، قال تعالى :

(وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

الأزمة أزمة علم ، أهل النار في النار ماذا يقولون ؟

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك : الآية 10)

أزمة علم ، لأن كل إنسان يتمنى السلامة والسعادة ، ولو عرف أن السلامة والسعادة في طاعة الله لأطاع الله ، لكنه يجهل ، والجهل أعدى أعداء الإسلام ، ويفعل الجاهل بنفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ

وقال تعالى :

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ)

(سورة آل عمران : الآية 97)

وقال :

(وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

الدعوة عالمية ، الإسلام لكل الخلق ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

وقال :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)

(سورة آل عمران : الآية 97)

وقوله تعالى :

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ)

(سورة آل عمران : الآية 97)

ما هو مقام إبراهيم ؟

من هذه الآيات البينات مقام إبراهيم ؟

1 ـ موضع قيامه لبناء البيت :

بعضهم يقول : إن إبراهيم حينما جدد بناء البيت وقف على حجر ، فكان هذا الحجر يعلو بحسب الحاجة ، ويهبط بحسب الحاجة ، وهذا من آيات الله هذه الآية الحسية .

2 ـ مقام التوحيد :

لكن بعضهم قال : مقام إبراهيم ، مقامه في الدعوة إلى الله ، دعا إلى التوحيد ، دعا إلى طاعة الله ، دعا إلى محبة الله ، كان عابداً من الطراز الأول ، قال تعالى :

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى)

(سورة الصافات : الآية 102)

لعل ما من موقف تظهر فيه العبودية صارخة كهذا الموقف ، طبعاً هناك أوامر كثيرة ننتهي عنها لقناعتنا أنها تؤذينا ، لكن أن يقال لنبي كريم : اذبح ابنك النبي ، يقول :

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ(102))

فمقام إبراهيم أولاً توحيده ، قال تعالى :

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)

(سورة الأنعام : الآية 76)

وقال :

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ(77)فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ)

(سورة الأنعام)

ثم قال :

(فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(78)إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

هذا هو التوحيد ، مقام إبراهيم مقام التوحيد ، مقام إبراهيم مقام العبودية .

التوحيد أعلى مقامٍ على وجه الأرض :

إن أعظم مقامين في بني البشر أن تكون موحداً ، وعابداً ، إبراهيم قدوة لنا ، هذا النبي الكريم ، أول مقام من مقاماته أنه كان موحداً، حينما رأى قومه يعبدون أصناماً من دون الله ، كسّرها و وضع الفأس في عنق أكبرها ، قال تعالى :

(قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا)

(سورة الأنبياء : الآية 59)

قال :

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ)

(سورة الأنبياء : الآية 63)

فرجعوا إلى أنفسهم ، نعبد أصناماً من دون الله ! نعبد أحجاراً لا تنطق ! فكان موحداً حارب الشرك ، وحارب الوثنية ، وحارب عبادة الأصنام ، وهل من مقام أعلى من هذا المقام ؟ وما الذي يهلك البشرية اليوم ؟ الشرك ، فالناس يعبد بعضهم بعضاً من دون الله ، فهذا من الانحراف في الأديان ، والانحراف عند اتباع الديانات ، قال تعالى :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 31)

والانحراف عند أهل غير الديانات عبدوا الحجر ، والوثن ، والشمس ، والقمر ، ماذا فعل إبراهيم عليه السلام ؟ ما هو أول مقام من مقامات هذا النبي الكريم ؟ أنه حارب الشرك ، وحارب الوثنية ، وحارب عبادة الأصنام ، وهذا المقام مستمر ، فينبغي أن تستمر أنت في محاربة كل شرك خفي ، أو جلي ، وكل عبادة من دون الله ، والإنسان وهو لا يشعر قد يعبد صديقه ، لأن له مركز قوي ، ومعه رقم هاتفه، وقال له : في أية لحظة اتصل بي ، وأنا أُري خصمك نجوم الظهر ، مثلاً ، فلديه بطاقة ، ولديه هاتف ، هذا شرك ، اعتمد على إنسان ، ولم يعتمد على الله ، ابنه بدرجة عالية من المرض فعالجه طبيب ، ونسي الله ، وأثنى على الطبيب ، مع أن الثناء على الطبيب واجب ، لحديث أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ))

[الترمذي ، أحمد]

لكن يجب أن تشكر الطبيب ، وتعتقد أن الله سمح بالشفاء ، ألهم الطبيب صحة التشخيص ، ثم ألهم الطبيب الدواء الناجع ، ثم سمح للدواء أن يفعل فعله ، هذا هو الإيمان ، فأول مقام من مقام سيدنا إبراهيم أنه حارب الشرك ، حارب الوثنية ، حارب عبادة الأصنام ، وهذا المقام ينبغي أن يكون في كل مسلم ، لا تعتمد على أحد اعتماد التأليه ، اعتمد على الله من اعتمد على ماله ذلّ ، من اعتمد على قدرته ضلّ ، لكنه من اعتمد على الله لا ذلّ ولا ضلّ ، مقام إبراهيم ينبغي أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، وينبغي أن تتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، أول مقام من مقامات سيدنا إبراهيم أنه حارب عبادة الأصنام ، المقام الثاني دعي إلى عبادة الواحد الديان ، وقال :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام : الآية 79)

3 ـ مقام الانصياع لأمر الله :

المقام الثالث انصاع لأمر الله إلى درجة لا تصدق ، بربكم لو أن أباً صالحاً قال لابنه : يا بني إني سأذبحك ، ماذا يقول ابنه له ؟ يقول : أبي قد جَنّ ، ما هذا الانصياع الذي لا يصدق لأمر الله ، قال :

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ(102))

(سورة الصافات : الآية 102)

4 ـ مقام التوكل :

المقام الرابع : التوكل ، نحن بحسب أفقنا ، إذا أردت أن تسافر تهيئ كل الأسباب ، وكل الحاجات قبل أن تسافر ، من طعام ، وشراب ، ومال ، وكل شيء مؤمَّن ، اتصالات ، وهاتف ، وفلان توصيه ، ومع كل هذه الأسباب تقول : توكلت على الله ، أما سيدنا إبراهيم فقد أمر أن يضع زوجته وابنه في أرض قاحلة .

((... وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا ، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ ، فَقَالَتْ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا))

[البخاري]

من يستطيع أن يضع ابنه وزوجته في صحراء ، ويتركهم ، ويمشي ، طبعاً هناك ثقة بالله تفوق حد الخيال ، سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يجلس في غار حراء الأيام المتتالية ، مكان مخيف ،

والصعود إليه يحتاج إلى ساعتين أو أكثر ، بجهد شاق فكم كان أنسه بالله ؟! حتى إن أنسه بالله غلب على وحشة المكان .

أنت لا تستطيع أن تسير ليلاً بمفردك ، لو نمت في البيت لوحدك ، وسمعت صوتاً تستيقظ مذعوراً ، أي حركة عفوية تظنها لصاً ، كم كان أنس النبي بالله ، وهو في غار حراء ، حتى غلب أنسه بالله على وحشة المكان ؟ وكم كانت ثقة هذا النبي الكريم بالله كبيرة ، حينما أمر أن يدع زوجته وابنه في مكان لا طعام فيه ولا شراب ، آالله أمرك قال : نعم ، هذا مقام سيدنا إبراهيم ، حارب الشرك والوثنية ، ودعا إلى التوحيد ، وكان عبداً من الطراز الأول ، وكان متوكلاً من الطراز الأول ، هذا مقام إبراهيم ، وهناك مقام حسي ؛ أنّ الله سخَّر له هذا الحجر يعلو ، ويخفض بحسب حاجته للبناء ، قال تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ(96)فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ)

(سورة آل عمران)

أي من هذه الآيات البينات مقام إبراهيم ، وقال :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا

1 ـ الأمن مطلب كل إنسانٍ :

مُنيباً لله ، مخلصاً له ، ملبياً لدعوته ، لا يبتغي سمعة ولا ثناء ، إنما يبتغي رضوان الله عز وجل ، لا شك أن الله سيغفر له ، ولا شك أن الله سيرحمه ، ولا شك أن الله سيطمئنه إلى مستقبله في الدنيا ، ومستقبله في الآخرة ، هذا هو الأمر ، كل إنسان إن كان عنده وسائل للأمن ، عنده دخل ثابت ، له مأوى يأوي إليه ، له زوجة وأولاد ، عنده وسائل الحياة الأساسية ، ينام قرير العين ، أما لو فرضنا إنسانًا سُرِّح من وظيفته ، بقي بلا دخل ، يقول لك : لم أنم الليل ، ولو ظهر لشخص في التحليل شيء مخيف لا ينام الليل ، ما معنى الأمن ؟ يعني أنّ الله عز وجل أعطاك أسباب الراحة النفسية ، أعطاك شعورًا أنك ناجٍ من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، أعطاك إحساسًا أنّ الله معك ، ولن يتخلى عنك ، هذا معنى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

إذا اصطلح إنسان مع الله ، وعاهده على الطاعة ، جعل همومه كلها هماً واحداً ، ومن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها ، اعمل لوجه واحد يكفِك الوجوه كلها ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ؟ قال :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

2 ـ الأمن نعمة عظيمة :

هل هناك نعمة أغلى من الأمن في الحياة الدنيا ؟ أنا أسميه أمن الإيمان ، هناك أمن المال ، قد يكون مع الإنسان ملايين كثيرة ، واضع في كل بلد بأوروبا مبلغاً ضخماً في البنك ، لذلك ليس لديه مشكلة مالية أبداً ، فهو آمن من جهة المال ، إنسان آمنٌ من جهة مركزه في وظيفته ، لا يخشى منافساً إطلاقاً ، نظم الأمور تنظيماً دقيقاً حيث لم يبق له منافس ، ينام قرير العين ، هذا أمن السلطان ، وهناك أمن المال ، أحدهم أجرى تحليلاً ، وكان كله نظاميًا ، وفي الحدود الدنيا ، عنده أمن الصحة ، لكن الأمن الذي يمنحه الله للإنسان يفوق أمن المال ، وأمن الصحة ، وأمن السلطان ، أمن مستمر إلى يوم القيامة ، قال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا(51))

(سورة التوبة : الآية 51)

وقال :

(قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

(سورة التوبة : الآية 52)

لو استشهدنا في الحرب فإلى جنة الله ، ولو انتصرنا كسبنا عز الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

الأمن أساسه أن تسلمَ نفسك من كل مُنَغِّص ، من كل خوف ، من كل قلق ، من كل هم ، من كل حزن، من كل توقع شيء مخيف .

3 ـ سيف المصائب مسلَّط على رقبة الإنسان :

والله أيها الإخوة ، لو شققت على صدر إنسان بعيد عن الله لرأيت قلبه مفعماً بالمخاوف ، يشعر أن مائة سيف مسلط عليه ، أحدها سيف المرض ، سيف الفقر ، سيف عقوق الولد ، سيف خيانة الزوجة مثلاً، أحد المفكرين الأجانب قال : لا تشككوا في وجود الله ، اتقوا الله ، لولا الله لخانتك زوجتك ، ولولا الله لعَقَّك ابنك ، لولا الله لسرقك خادمك ، الإيمان بالله نعمة كبيرة ، علقت مرة على هذا الكلام ، أن الله عز وجل أمرك أن تكون صادقاً ، وغاب عنك أنه أمر مليار مسلم أن يصدقوا

معك ، أمرك أن تكون أميناً ، وأمر مليارَ مسلمٍ أن يكونوا أمناء معك ، وأمرك أن تكون عفيفاً ، وأمر مليار مسلم أن يعفوا عن محارمك ، نعمة الإيمان لا تعدلها نعمة ، قال تعالى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

لذلك هؤلاء الذين يطلبون العلم في بيت الله ، ويتلقون شيئاً عن الله عز وجل ، وعن آياته الكونية ، والقرآنية والتكوينية ، هؤلاء عندهم توازن نفسي ، عندهم تصور صحيح ، الأيام لا تقلقهم ، ومضي عمرهم لا يقلقهم ، أما لو شققت على قلب إنسان شارد عن الله لرأيتَ المخاوف ، والأحزان ، والقلق ، والسأم ، والضجر ، هذا هي المعيشة الضنك ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

(سورة طه : الآية 124)

وهذا معنى قول الله عز وجل :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد : الآية 28)

اذكر الله يطمئن قلبك ، الآن معنى آخر قال تعالى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

4 ـ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا : خبرٌ بمعنى الطلب :

هذا تعبير خبري ، جاء بمعنى الطلب ، أي اجعلوه آمناً ، أي يا عبادي هذا بيتي ، أنتم مكلفون من قِبَلي أن تجعلوه آمناً ، صار الأمر تكليفي ، لو أخذنا معنى آمناً بالمعنى المادي فهذا مشكلة ، لأنّ هذا البيت ضُرب بالمنجنيق ، وهذا البيت في عام أربعمائة وألف ظهرت فيه فتنة ذهب ضحيتها مئات الأشخاص، فإذا قلنا : هذا خبر ، في وقت ما لم يكن آمناً ، فهل يُعقل أن يقول الله :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

ثم تقوم في هذا البيت مشكلة ، ويذهب ضحيتها مئات الناس ، هذا مستحيل .

إذاً : المعنى : من دخل هذا البيت ، من جاءه منيباً طائعاً مخلصاً ، ألقى الله في قلبه الأمن ، وهو أثمن عطاء ، أمن الإيمان ليس أمن الصحة فقط ، ولا أمن المال فقط ، ولا أمن السلطان فقط ، أمن الإيمان ، أمن الإيمان يمتد إلى ما بعد الموت ، أما أمن السلطان فيمتد ما دمت على قيد الحياة ، أمن المال يمتد ما دام بيدك المال ، أمن الصحة ما دامت الفحوص جيدة ، أما إذا طرق طارق فلم يعد هناك أمن للصحة ، بينما أمن الإيمان يمتد إلى ما بعد الموت ، والدليل قوله تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة : الآية 51)

المعنى الثاني أنه يا عبادي اجعلوه آمناً ، أي ينبغي أن يكون آمناً ، هذا البيت ينبغي أن يكون آمناً ، لذلك عباد الله المؤمنون مكلفون من قبل الله أن يجعلوا هذا البيت آمناً لمن دخله ، قال تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

(سورة آل عمران : الآية 97)

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

لله على الناس حج البيت : سؤال يتردد كثيراً ؟ لِمَ لَمْ يقل الله عز وجل : لله على المسلمين حج البيت ؟ أو لله على المؤمنين ، أنت لاحظ قوله تعالى :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

وقال :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)

1 ـ دعوة من الله للحج :

أي أنها دعوة الله إلى كل عباده ، لا يوجد دعوة خاصة بالمسلمين ، دعوة الله لكل عباده أن يتعرفوا إليه ، وأن يصطلحوا معه ، وأن يوحدوه ، وألا يشركوا به شيئاً ، وأن ينصاعوا له بالأمر والنهي ، فكما أن الله عز وجل يقول :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)

قال :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)

الحقيقة أن حج بيت الله الحرام فرضه الله علينا في العمر مرة واحدة ، وقد ورد في بعض الأحاديث عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ يَرْفَعُهُ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((إِنَّ عَبْدًا أَصْحَحْتُ جِسْمَهُ ، وَأَوْسَعْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ تَأْتِى عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لَمْ يَفِدْ إِلَيَّ لَمَحْرُومٌ))

[البيهقي في السنن الكبرى]

بعضهم اعتمد على هذا الحديث ، وقال : إذا كنت في بحبوحة مادية ، وفي صحة طيبة فينبغي أن تحج بيت الله الحرام كل خمسة أعوام مرة ، وكل حج له طعم قد يفوق الذي قبله ، وكل حج له مستوى قد يأتي الذي بعده أعلى منه ، قال :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)

على تفيد الإلزام ، مثلاً :

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل : الآية 9)

وقوله :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل : الآية 12)

وأيضاً :

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود : الآية 56)

حينما تأتي على مع لفظ الجلالة المعنى أن الله ألزم ذاته العلية أن يعدل بين العباد ، إن الله عز وجل حينما تأتي كلمة على مع اسم ذاته معنى ذلك هناك إلزام ذاتي .

هنا :

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ(96)فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ)

(سورة آل عمران)

أعلى درجات الوجوب ، ولله على الناس ، قال تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

2 - الحج واجب على المستطيع :

ذكر بعض العلماء تحليلاً لطيفاً ، الفقير أو المريض في محنة ، وهذه المحنة من شأنها أن تقربه من الله، من هو الذي يكون في غفلة أحياناً ؟ صحيح الجسم ، غني الدخل ، الصحة تنسيه ربه أحياناً ، والقوة المالية ، أو القوة الأخرى تنسيه مصيره أحياناً ، فهذا الذي غارق في نعيم الدنيا ، في نعيم المال، في نعيم السلطان ، في نعيم الصحة ، نقول له : أنت ينبغي أن تحج بيت الله الحرام ، لأنك تعيش في أقنعة مزيفة ، الحقيقة الحج هو نزع أقنعة مزيفة عن وجه الإنسان ، وهو في بلده حجمه المالي كبير ، معتز بحجمه المالي ، أو منصبه كبير ، معتز بمنصبه ، أو صحته جيدة ، معتز بصحته ، نقول له : أنت يا من تستطيع بمالك و صحتك و قوتك أن تحج بيت الله الحرام ، عليك أن تحج بيت الله الحرام ، وأنت أيها الضعيف ، أو المريض ، أو الفقير ، فقرك ، وضعفك ، ومرضك يدفعان بك إلى الله عز وجل ، فأنت معفى من هذه الفريضة ، هذا تحليل طبعاً غير ملزم ، لأنه :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

3 ـ مفهوم الاستطاعة :

قال العلماء : الاستطاعة تعني أن الطريق سالك إلى بيت الله الحرام ، فلو كانت هناك حرب ، وكان بالطريق فقدٌ للأمن لسقط الحج عن أهل هذه البلدة من هذا الطريق ، فلابد من أمن الطريق ، و لابد من قوة البدن ـ الصحة ـ و لابد من وفرة المال ، مال تنفقه على أهلك في غيبتك ، و مال تنفقه في الوصول إلى هذا البيت ، وفي السكنى ، والطعام ، والشراب ، أما هذا الذي يذهب ليتكفف الناس في الحج فهذا عاص لله عز وجل ، الله لم يكلفك أن تحج بيت الله الحرام ، وأنت لا تجد ما تأكل ، ليس عليك حج ، أما أن تعبد الله وفق مزاجك ، وفق أهوائك فهذا شيء غير مقبول ، وإنّ الله عز وجل لا يعبد إلا وفق ما شرع ، وهناك من يجمع المال ، من أموال الصدقات ليحج بيت الله الحرام ، وهناك من يتكفف الناس ، وهناك من يقترض ، وهناك من يرشي ، هناك من يدفع ثمن تأشيرة دخول إلى الحجاز فرضاً ، أن تبدأ حجك برشوة ، أو أن تبدأ حجك بتصريح كاذب ، أو أن تبدأ حجك بمال مقترض ، أو أن تبدأ حجك بمال مجموع من أموال الصدقات ، فهذا كله خلاف منهج الله عز وجل :

(مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

ينبغي أن تكون مستطيعاً في بدنك ، و في مالك ، و في أمن الطريق ، و ينبغي أن تكون مستطيعاً في سماح ولي الأمر لك ، لو فرضنا أن أولياء أمور المسلمين اجتمعوا ، وقرروا من أجل سلامة الحجيج أن يُسمَح لواحد بالمئة من كل أمة إسلامية أن تحج بيت الله الحرام ، فهذا النظام كان موضوعاً ولا يزال ، فبلد فيها خمسون مليوناً يُسمَح بخمسين ألفًا ، بلد فيها عشرون مليوناً يُسمَح فيها بعشرين ألف ، مجموع المسلمين في شتى بقاعهم واحد بالمئة منهم ، أي مليونان ، طاقة المشاعر مليونان ، فلو أن أولياء أمور المسلمين لمصلحة المسلمين الراجحة ، و لحسن أداء هذه الفريضة الكبيرة وضعوا نظاماً ، فأنت لست مكلفاً أن تخالف هذا النظام ، وأن تدفع رشوة كي تحج بيت الله الحرام ، لا ، لست مكلفاً ، إذاً أنت مستطيع بصحتك ، وبمالك ، وبسلامة الطريق ، وبإذن ولي أمر المسلمين .

الكلام الخطير أن الله عز وجل بعد هذه الآية يقول :

(وَمَنْ كَفَرَ)

(سورة آل عمران : الآية 97)

4 ـ من لم يحج الفرض وهو مستطيع فهذا نوع من الكفر :

أي من ملك الزاد ، والراحلة ، ولم يحج بيت الله الحرام ، وكان مستطيعاً ، ولم يحج بيت الله الحرام ، فهذا عند الله نوع من الكفر :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ)

لذلك من كان مستطيعاً ، و لم يحج بيت الله الحرام هذا في منطوق هذه الآية كفر ، أو نوع من الكفر ، لذلك حجة الفرض لا يسبقها شيء .

حج النافلة يقدَّم عليها أداء واجبات أخرى :

أما حجة النافلة ربما يُفضل عليها أداء واجباتك ، إنسان حج حجة الفرض ، وله ابن في سن الزواج ، ويخاف عليه العنت ، لو أنه زوجه أفضل ألف مرة من حجة النفل ، و قد قيل : إن ولي أمر المسلمين من صلاحيته أن يمنع نافلة أدت إلى ترك واجب .

هناك مسلمون يحرصون على حج بيت الله الحرام كل عام ، الآن ثلاثون حجة ، ثلاثة وثلاثون ، أربعة وثلاثون ، أحياناً تباهياً ، وعنده مشكلات ، وأولاده بلا زواج ، وبلا بيوت ، يخاف عليهم العنت، نقول : حجّ حجة الفرض ، وأدِّ الذي عليك من واجبات تجاه من حولك ، وأكبر دليل أن أحد كبار علماء المسلمين ، و لعله عبد الله بن المبارك كان في طريقه إلى الحج فرأى فتاة صغيرة تنقب في القمامة ، فعثرت على طير ميت ، فأخذته ، وانطلقت إلى بيتها ، تبعها جماعته فإذا أسرة ذات فقر مدقع ، فأعطاها كل ما يملك ، وعاد ، ولم يحج ، هذا من فقه هذا الإمام ، فإذا كان عليك حقوق ، وعندك مشكلات ، وعندك أبناء في سن الزواج ، تخشى عليهم العنت ، ينبغي أن تودي واجباتك تجاه أولادك قبل أن تحج حجة نافلة ، أما الفريضة فلا شيء يقدم عليها أبداً :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 97)

5 ـ الله غنيٌّ عن المستطيع الذي لم يحجّ :

عن هذا المستطيع الذي لم يحج ، غني عن العالمين ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي ... لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ...))

[مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الحجرات : الآية 17)

الآيات

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ(96)فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ)

و في درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

الأسئلة :

س : قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة : الآية 28)

أليس المشركون أناسًا ؟

ج : لكن ليس عندنا إنسان مشرك ، بائع خمر ، عابد صنم ، تعال وحج ، تعال أسلم أولاً ، ندعوه للإسلام ، أنا أردت من قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ (97))

أن معرفة الله و عبادته مطالب بها أيّ إنسان ، و أنت أيها المسلم إن رأيت مشركاً نجساً حاول أن تعرفه بالله ، وأن تجعله يسلم بعد ذلك يحج ، لكن هل من المعقول من إنسان فرضاً ، وإن كان قاصراً مثلاً أن يكون جنباً من زنا يقوم على قيام الليل رأساً ، هذا غير معقول ، هل معقول لشخص مشرك يحج ، الإله كله هو كافر به ، فهذا كلام غير مقبول لأن الله قال :

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ(28))

أنا قصدت أن هذا الدين العظيم دين الله و هو لكل البشر .

الملمح في الآية : أن دين الله ليس لفئة دون فئة ، ولا لأمة دون أمة ، لكل البشرية قاطبة ، لكن بعضهم نجس ، ليس نجاسة حقيقية ، فلو فرضنا شخصا كافرا قد اغتسل بشكل جيد ، يظل نجساً ، لأن علاقاته نجسة ، ومزحه بذيء ، نظراته فاحشة ، تعليقاته لاذعة ، كسبه حرام ، هذه نجاسة سماها العلماء حكمية .

هناك شخص استلم مسجداً من إنسان غير مسلم فصافحه بالطريقة التالية حتى لا تلمس يده بيده ، هذه غير معقولة ، نجاسته ليست حقيقية إنها نجاسة حكمية .

س : هل يجوز الزواج من امرأة طلقت ثلاث مرات بقصد تحليلها لزوجها ؟

ج : هذا الذي يفعل هذا سماه النبي تيساً ، سماه التيس المستعار ، و لا يجوز طبعاً ، لا تحل لزوجها الأول حتى تتزوج زواجاً حقيقياً طبيعياً عفوياً على نية التأبيد من قِبلها ، و من قِبله ، ثم لسبب طارئ يطلقها ، عندئذ تحل لزوجها الأول ، حكمة هذا التشريع ، امرأة سيئة الخلق ، وتتهم زوجها بأنه سيئ ، فإن طلقها وتزوجها إنسان آخر ، وطلقها لسوء خُلُقها عندئذ تقتنع أن العلة فيها ، عندئذ يمكن أن تعيش مع الأول .

أما إن طلقها وهو ظالم لها ، و جاء زوج آخر ، وأكرمها فلن يطلقها ، ولن تستغني عنه ، إذاً : هذا تأديب للزوج الأول ، وهذا كلام دقيق ، فإن طلقتها ظالماً ، ثم اقترنت بآخر أكرمها لن تحظى بها إطلاقاً ، وإن طلقها مظلوماً ، تقول له : طلقني ، ثم طلقها إنسان آخر لعلّة فيها عندئذ تقتنع أن زوجها الأول كان محقاً فتعود إليه ، وتصطلح معه .

س : ما قولكم في حفلات النساء ، و هم يستمعون إلى أصوات المطربين و المطربات ، الأحياء منهم و الأموات ، و تنكشف العورات و تقع المنكرات ؟

ج : طبعاً هذا لا يجوز .

س : كيف نوفق بين قضاء الناس حوائج بعضهم ، بل و تعلّق رجاء بعضهم على بعض فيما يسمى اليوم بالواسطة ، و بين قوله صلى الله عليه وسلم لِابْنِ عَبَّاسٍ :

((يَا غُلامُ ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[الترمذي ، أحمد]

ج : الحقيقة هذه بطولة ؛ أن تعتقد أن الله بيده كل شيء ، وأنت بهذا العمل تبحث في الأسباب ، لكن الأمل معقود على الله ، فإذا حصل هذا الأمر ، و نجحت فيه تشكر الله أولاً ، هذه البطولة ، ويمكن لإنسان أن يتعلق بإنسان ، والإنسان يحل له مشكلته ، لكن إن كان ضعيف الإيمان لا يرى الله حل مشكلته ، يرى أن هذا الإنسان هو الذي حلها له ، هذا شرك ، أنت مأمور أن تأخذ بالأسباب ، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ))

[أبو داود ، أحمد]

أنت عندك مشكلة مَن يحلها ؟ أسأل فلانا ، أعمل طلباً ، أو اعتراضاً ، لي صديق يمون على هذا الإنسان أكلفه أن يكلمه ، وأنا بكل هذه الأعمال أمَلي معلق بالله ، يا رب توفقني ، يا رب ألهمهم أن يوافقوا لي ، فأنت معلق الأمل بالله عز وجل ، هذا هو التوحيد ، لكن هذا لا يمنعك أن تأخذ بالأسباب ، وأن تتحرى بالوسائل ، لكن الذي يُخاف منه أن تأخذ بالأسباب ، وأن تنسى الله ، لذلك

الجواب الشافي : قمة الإيمان أن تأخذ بالأسباب ، و كأنها كل شيء ، كما فعل النبي في الهجرة ، ثم تتوكل على الله ، و كأنها ليست بشيء ، يمكن أن تعمل مراجعة كاملة لسيارتك ، كل شيء جديد ، تطلع على السفر ، لا يوجد عندي مشكلة ، ممتازة ، تقطعك رغم كل احتياطك ، ممكن تذهب لست مراجعها إطلاقاً توكلت عليك يا رب ، كذلك هذه سذاجة ، يجب أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله ، و كأنها ليست بشيء هذا الإيمان ، أعمل مراجعة للسيارة ، ويا رب أنت المُسلّم ، أنت الحافظ ، يا رب يسر هذا السفر ، يا رب احفظني من مشكلة ، من حادث ، من قطع ، هذا هو الإيمان ، و هنا البطولة .

إن كثيرا من الناس يأخذون بالأسباب فينسون الله ، و يعتمدون عليها ، و هذا شأن الغرب ، و كثير من الناس بالشرق لا يأخذون بها معصية ، كُلْ سمِّ بالله لا يضر مع اسمه شيء ، لم يغسل الفاكهة ، هناك أمراض ، هناك جراثيم ، أنت تحتقر نظام الله عز وجل ، النبي قال :

((من أكل التراب فقد أعان على قتل نفسه))

[ورد في الأثر]

أي مَن أكل فاكهة غير مغسولة ، انظر الموقف المتناقض يأكل فاكهة لا يغسلها ، سمِّ بالله لا يضر مع اسمه شيء ، توكل على الله لن يصير شيئاً ، ابنه مرض الله يعافيه ، يكون معه مشكلة خطيرة ، تحل في الأول ، ولن يكون لها حل بعد ذلك ، لا يسأل ، هذه معصية ، والطرف الثاني يقول لك : أنا المحامي عني فلان ، أريد أن أخضع رأس خصمي ، قد تحدث مشكلة جديدة ، لعل المحامي يموت ، فهذا الذي يأخذ بالأسباب ، و يعتمد عليها ، و ينسى الله فقد أشرك ، وهذا الذي لا يأخذ بها تهاوناً أو سخرية فقد عصى الله ، والموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء .

س : قرأت لبعض العلماء عن زواج القرابة فذكر أنه مكروه استدلالاً بالحديث :

((اغتربوا لا تضووا))

[الطبراني عن سلمان]

و قرأت عن آخر أن هذا الحديث ضعيف ، و الحديث الضعيف لا يُعمل به إلا في فضائل الأعمال ؟

ج : هذا الحديث أيها الإخوة عندنا حديث مرفوع ، و حديث موقوف ، و حديث مقطوع ، فالحديث المرفوع إلى رسول الله ، و المقطوع على بعض الصحابة ، و الموقوف على بعض التابعين ، تابعي قال كلاماً فهذا حديث مقطوع ، صحابي قال كلاماً فهذا حديث موقوف ، النبي قال كلاماً هو حديث مرفوع ، لكن في أمور التشريع ليس هناك صحابي واحد يجرؤ أن يقول كلاماً من عنده إلا إن سمعه من النبي لذلك الحديث الموقوف يؤخذ به ، و هذا قضية علمية ثابتة أي هذه الجينات كلما اقتربت من سلالة واحدة تكرس الخطأ ، و كلما تباعدت قوي النسل ، شيء تؤكده العلوم كلها ، عقد

مؤتمراً علمياً في أسبوع العلم الرابع عشر في دمشق ، وكان هناك رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق ، وألقيت محاضرات عن تحسين النسل ، محاضرات من أمريكا ، من بريطانية ، و من فرنسا ، من جميع أنحاء العالم ، و أربعة خمسة أيام هذه المحاضرات كلها عن تحسين النسل فقام رئيس المجمع العلمي العربي، وهو طبيب مشهور توفي رحمه الله ، و قال : كل هذه المحاضرات ملخصها قول النبي الكريم : اغتربوا لا تضووا ، فكلما كان هناك تباعد يأتي النسل قوياً .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع والعشرين من سورة آل عمران ، ومع الآية الثامنة ، والتسعين من قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(98)قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ

1 ـ وقفة متأنية عند كلمة (قل) :

تستوقفنا أيها الإخوة كلمة (قل) .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 98)

ما الفرق بينها وبين قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 65)

إن الله جل جلاله كما قال بعض العلماء يتلطف بعباده ، ويخاطبهم مباشرة أحياناً ، أما حينما يتلبسون بمعصية فليسوا أهلاً أن يخاطبهم ، لذلك تقريعاً لهم يقول الله عز وجل :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

ولله المثل الأعلى : حينما يأتي مدير عام ليتفقد أحوال إحدى الدوائر المسؤول عنها ، ولا يجد الموظف في مكانه ، ولا دوامه منتظم ، لا يخاطبه مباشرة تقريعاً له ، وهو إلى جانبه واقف ، يقول : قل له : ألا يتأخر ، وهو لِمَ لا يقول له : لا تتأخر ؟ عمله لم يجعله أهلاً أن يخاطب مباشرة ، فحينما يقول الله عز وجل :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور الآية 30)

وكأن المؤمن قبل أن تأتي هذه الآية واقع في حيرة ، ولعله يطلق بصره ، فجاءت هذه الآية :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور الآية 30)

بالمناسبة الله جل جلاله لم يخاطب الكفار إطلاقاً في قرآنه الكريم ، لأن الإنسان حينما لا يقبل الحق ، وحينما يرد الحق ، وحينما يركب شهواته ، وتتحكم فيه نزواته ، مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يخاطبه الله عز وجل ، إلا آية واحدة يوم القيامة قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة التحريم : الآية 7)

لكن الله جل جلاله فيما يزيد على ثلاثمائة آية خاطب المؤمنين :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم الآية 6)

حينما تُخاطَبون من الله مباشرة فهذا شرف عظيم ، وهذا رقي كبير ، قال تعالى :

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون)

(سورة العنكبوت الآية 56)

حينما تقرأ قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة آل عمران الآية 100)

ينبغي أن تشعر أنه لكرامتك عند الله وجّه الله لك الخطاب مباشرة ، هناك آيات مثل :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا)

(سورة النور الآية 30)

أو قل لفلان ، أما هنا فقال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

لأن أهل الكتاب معهم كتاب ، وفي الكتاب إشارة واضحة إلى مجيء النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان أهل الكتاب فيما مضى يستفتحون بهذه البشارة على الذين آمنوا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا ، هذا النبي الذي في كتابهم جاء حقيقة فكفروا به كِبراً ، وحسداً ، وعدواناً ، لأنهم بمراكز معينة ، فلذلك أيها الإخوة ، المنتفع من الباطل هذا قلّما يهتدي ، أما المقتنع بالباطل فكثيراً ما يهتدي ، فالإنسان المقتنع بالباطل جاءه دليل لم يكن في علمه فخضع للحق ، هذا قضيته سهلة جداً ، أما المنتفع بالباطل فهو لا يدافع عن فكرة يعتنقها ، بل يدافع عن مصلحة ينعم بها ، من هنا لا تفكر أن تخاطب ، أو تحاور غبياً ، ولا قوياً ، ولا منتفعاً ، ليس هناك من جدوى أن تحاور منتفعاً بكفره ، أو منتفعاً بنفاقه ، الله عز وجل يقول :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

2 ـ الله يأمر نبيه أن يبلغهم هذه المقولة :

أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يبلغهم هذه المقولة .

النبيّ مبلِّغ عن ربه :

بالمناسبة يتضح من كلمة (قل) ؛ أنّ النبي مُبَلِّغ يُبَلِّغ عن الله ، وقال تعالى :

(مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الأحقاف الآية 9)

ليس من شأن النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحرك إلا بما يمليه عليه الوحي بدقة تامة ، لأنه أمين وحي السماء ، وأمانة الوحي تقتضي بأن يُبَلِّغ ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاس)

(سورة المائدة الآية 67)

وقال :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية 99)

3 ـ الانحراف طريق للصد عن سبيل الله :

سبحان الله ! حينما ينحرف الإنسان دون أن يشعر بعقله الباطن بدوافع خفية ليست واضحة عنده يصد الناس عن سبيل الله ، لأن المنحرف يحب أن يكون الناس جميعاً منحرفين مثله .

مثلاً : الإنسان غير منضبط ، وغير ملتزم ، ولا يستقي علماً شرعياً من أي جهة ، لو أن قريباً له التزم بمسجد ، وتحسَّن سلوكه ، واصطلح مع ربه ينهاه دون أن يشعر ، يحذره ، يذكر له أخطارا موهومة ، ليست موجودة ، كأن يقول له : انتبه لمستقبلك ، أي يخيفه ، حسناً أنت ما الذي يضيرك لو أنه اهتدى إلى الله ؟ يحب أن يكون الناس جميعاً مثله ، ما دام قد تفلّت من منهج الله ، وما دام قد آثر طريق الشهوة على طريق الحق ، إذاً دون أن يشعر ببواعث خفية بعقله الباطن يصرف الناس عن الحق ، وهذا شأن أهل الكتاب ، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية 98)

4 ـ أهل الكتاب كفروا بمجيء النبي عليه الصلاة والسلام :

الآيات التي في كتابكم ، والتي تُنَبِّئ بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ، وكنتم تستفتحون على الذين آمنوا ، هذه الآيات التي في كتابكم لِمَ تكفرون بها ؟ لِمَ لا تأخذونها ؟

(وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ

1 ـ الله لا يخفى عليه تخطيط الكافر :

من أجل أن تتذوق معنى هذه الآية تصور إنسانًا يخطط ضد نظام معين ، وهو يتحرك هناك أجهزة تعلم كل حركاته ، وسكناته ، ولقاءاته ، وزياراته كلها مُسَجَّلة عليه ، في الوقت الدقيق ، بل إن كلامه كله مسجل ، فهذا يظن أنه قد أفلح ، لكن الله كما يقول :

(وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

كل حركات الكافر ، وتخطيطاته ، وسكناته ، ومؤامراته على أهل الحق في علم الله عز وجل :

(وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران الآية 98)

لكن في الوقت المناسب يظهر أنه كان غبياً ، ولم يكن ذكياً ، وأنا لم أرَ في حياتي أغبى من إنسان وقف ضد الحق ، لأن الله هو الحق ، من أنت حتى تقف في وجه الحق ؟ من أنت حتى تكون في خندق معاد لخندق المسلمين ؟ من أنت حتى تتمنى أن تطفئ نور الله ؟

2 ـ من الشقاء والغباء والحمق الوقوف في وجه الحق :

والله أيها الإخوة ، وإن كان هذا المثل يدعو للعجب ؛ لو رأينا إنساناً هنا في الشام يتجه نحو أشعة الشمس الساطعة ، وينفخ فيها كي يطفئها ، بماذا تحكم على عقله ؟ أشعة الشمس لا يمكن أن يطفئها إنسان بنفخة من فمه ، فكيف بنور الله ؟ قال تعالى :

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

(سورة الصف الآية 8)

لذلك ليس هناك أشقى وليس هناك أشد حمقاً من الذي يريد أن يطفئ نور الله ، أو أن يقف في وجه الحق ، وهناك كلمات أقولها دائماً : الكلاب تعوي ، والقافلة تسير ، وما ضَرَّ السحاب نبح الكلاب ، ولو تحول الناس إلى كناسين ليُثيروا الغبار على الإسلام ما أثاروه إلا على أنفسهم ، ويبقى الإسلام

هو الإسلام ، وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بحجر ، فهؤلاء الذين عارضوا النبي الكريم ، وائتمروا على أصحابه ، وضيَّقوا عليه ، وأخذوه من دياره ، ونكّلوا بأتباعه ، كيف كان مصيرهم في حياة النبي؟ كانوا قتلى في ساحة المعركة ، حينها خاطبهم النبي واحِداً واحداً ، وقَالَ :

((يَا فُلانُ ، يَا فُلانُ ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ حَقًّا ، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا ؟ قَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَتُكَلِّمُ قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا ؟ قَالَ : مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا))

[مسلم ، النسائي ، أحمد]

فليس هناك إنسان على وجه الأرض يُعَدُّ أكثر غباءً ، ولا أكثر حمقاً ، ولا أكثر شقاءً من الذي يريد أن يطفئ نور الله ، طبعاً هذا يظهر بشكل حاد عند بعض الناس الأقوياء ، ولكن يظهر بشكل مخفف عند معظم الناس ، فبمجرد أن أحد أقربائه ، أو ابنه ، أو قريبه ، أو ابن أخيه التزم ، وطبق منهج الله عز وجل ، وحافظ على صلواته ، وغض بصره ، وأبى الاختلاط ، وأبى كل حفل مشترك يقام عليه النكير، هؤلاء الذين يقيمون على شاب مستقيم النكير ، هم يصدون عن سبيل الله ، بشكل مخفف ، هم لا ينكرون الحق ، لكن ينكرون الالتزام به ، يقولون : من يستطيع أن يستقيم هذه الأيام ؟ هذا الدين ليس لهذه الأيام ، هذا الدين لزمن سابق ، هكذا يوهم نفسه ، إذاً الله جل جلاله يقول:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 98)

معكم آيات في كتابكم ، فكفروا بها ، قال تعالى :

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)

(سورة النمل : الآية 14)

هناك حقيقة دقيقة ، وهي أن الإنسان حينما ينقطع عن الله يصبح أعمى لا يرى ، قال تعالى :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج : الآية 46)

في ساعة الغفلة ، وساعة الانغماس في اللذة يغيب الإنسان عن الحقائق ، ويحاول أن يطفئ نور الله بشكل أو بآخر ، أو يصد عن سبيل الله ، أي يشكك بأية جهة دينية ، لا أحد جيد ، لأنه جال كل الدعوات في العالم ، واكتشف أنها كلها دعوات كاذبة غير صادقة ، إذاً : أنت لا تلتزم ، دع غيرك يلتزم ، لكن لا يسمح بذلك .

أنا لا أذكر هذا الكلام إلا من معاناة ، فتجد بعض المسلمين أَلِفوا المعصية ، أَلِفوا الاختلاط ، أَلِفوا التبذير ، أَلِفوا أجهزة اللهو ، أَلِفوا كل شيء يبعدهم عن الحق ، وهم يصلون مع ذلك ، فإذا التزم واحد منهم من أقربائهم يُقام عليه النكير ، وهذا العمل صدّ عن سبيل الله ، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا)

(سورة آل عمران الآية 99)

مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا

1 ـ معنى العوج :

الشيء المادي إذا كان معوجاً نقول : فيه عَوج ، العَوج بالفتح ، الاعوجاج في شيء ، في غصن ، في قطعة خشب ، في قطعة الحديد ، الاعوجاج في جسم مادي يقال له : عَوج ، بفتح العين ، أما في الأمور المعنوية ، والأمور الاعتقادية ، والأمور القيمية ، الانحراف يسمى عِوجًا ، قال تعالى :

(تَبْغُونَهَا عِوَجًا)

2 ـ هذا الفهم نوع من العوج :

وهو دين واضح ، لكن هو يريد أن يقول : إن أمة محمد مرحومة ، لن تُعَذَّب ، ويفهم بعض الأحاديث فهماً ساذجاً ، أن شفاعتي بأهل الكبائر من أمتي ، إذاً : عليك بالكبيرة كي تنالك شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ، هو يريد أن يغير منهج الله ، يريد أن لا يعبأ بالآيات التي تؤكد عدل الله التام ، لا يعجبه أن يقول النبي الكريم :

((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

((وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

يعجبه حديث آخر ، مثلاً حديث غير صحيح : أن الإنسان إذا وافته المنية يوم الجمعة فهو إلى الجنة ، ولو كان إنساناً كافراً ! وهذه أحاديث موضوعة ، تعجبه مثل هذه الأحاديث :

((مَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إلا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[مسلم ، أحمد ، الترمذي]

لا تُكلّفه إلا خمس كلمات ، هذا الحديث يُعجَب به ، لكن له رواية أخرى لا يتحمس لها :

((من قال : لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة ، قيل : وما حقها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله))

[الطبراني في المعجم الأوسط عن زيد بن أرقم]

يريد الشيء الخفيف ، حتى إنّ الناس حينما يتَّبعون ديانات وضعية من صنع البشر تجد خمسمائة مليون يتبعون ديانة في شرق آسيا ، ما هذا الإقبال على هذه الديانة ؟ لأنه لا تكليف فيها ، فيها ولاء فقط ، بينما منهج الله عز وجل فيه تكليف ، بأمر تكليفي .

القرآن والسنة تولّى الله حفظهما :

بالمناسبة أتباع الأديان السابقين كلّفهم الله أن يحفظوا كتابه ، والأمر التكليفي يُعصى ، فما حَفِظوه ، بل أضافوا ، وبدلوا ، وغيَّروا ، وحذفوا ، لكنّ القرآن الكريم حفِظَه الله بأمر تكويني لا بأمر تكليفي ، أي تولى الله بذاته العلية حفظ كتابه ، فالقرآن الكريم كما نزل في عهد النبي ، وكما كُتب في مُصحف عثمان ، وليس في الأديان كلها كتاب يمضي على نزوله أربعة عشر قرناً دون أن يتغير فيه حرف واحد ، وهذه من نِعَم الله العظمى ، أنّ قرآننا ، وهو المصدر الأول لهذا الدين محفوظ بحفظ الله مباشرة، لذلك مئات الألوف ، بل عشرات مئات الألوف يحفظون كتاب الله كله عن ظهر قلب ، فالقرآن الكريم محفوظ في الصدور ، ومَتْلوٌ في العالم الإسلامي ، ومحفوظ في المصاحف ، أي يُتلى ويُحفظ ، ويُكتب كما نزل ، لأن هذا الحفظ تمّ بأمر تكويني ، قال تعالى :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر : الآية 9)

والعلماء يقولون : إن حفظ القرآن الكريم من لوازمه حفظ سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنها مُبيِّنة، فلا معنى أن تحفظ البيان دون التبيين ، وقد أكد الله هذا المعنى بقوله :

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل : من الآية 44)

إذاً : سُنة النبي مُبينة ، فلا معنى أن تحفظ الأصل ، ولا يُحفَظ التبيين فمن لوازم حفظ الله لكتابه أنّ سنته سنة النبي محفوظة بحفظ الله ، لذلك هيّأ لها رجالاً أعلاماً جهدوا ، وبذلوا جهداً لا يوصَف في حفظ السُنة ، واستنباط الصحيح من الضعيف والموضوع ، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(98)قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا)

(سورة آل عمران)

المشكلة أنّ إنساناً ربما لا يؤمن ، ولكن يصُدّ كل مؤمن عن أن يؤمن ، أنت لم تؤمن لِمَ تصدُّ المؤمنين؟ أنت لم تلتزم ، لِمَ تنهى الملتزمين ؟ أنت لم تلتحق بمسجد ، فلِمَ تنهَ الناس أن يلتحقوا بالمساجد ؟ هكذا ، الإنسان يحب أن يوَسِّع العدد الذي يشبهه ، أما الكتب السماوية السابقة فلم تُحفَظ بأمر تكويني ، بل حُفِظت بأمر تكليفي ، لذلك لم تُحفَظ .

الأمر التكليفي والأمر التكويني :

إنّ كل أمر تكليفي قد يُطاع ، وقد يُعصى ، أوضح لكم معنى الأمر التكويني والأمر التكليفي ؛ الأمر التكليفي كلوحة فيها : ممنوع المرور ، الطريق مفتوح ، وسالك ، لكن هذا الطريق ممنوع أن تأتيه من اتجاه آخر ، لو أنّ إنسانا خالف ، وبإمكانه أن يُخالِف ، لكن هناك مسؤولية ، هناك مخالفة ، هناك جزاء، لكن الأمر التكويني هناك مكعبات إسمنت مسلح على عرض الطريق لا تستطيع أن تخترق هذه المكعبات ، فأنت بين أمر تكليفي وأمر تكويني ، سيدنا موسى مع الخضر ، سيدنا موسى يعلم الأمر التكليفي ، أما سيدنا الخضر فيعلم الأمر التكويني ، لِمَ خرق السفينة ؟ قال تعالى :

(وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

(سورة الكهف الآية 79)

فخرق السفينة ، وقتل الغلام ، وبناء الجدار هذه أفعال الله ، أي أعطاه سر أفعاله ، فهو يعلم حكمة الأمر التكويني ، بينما سيدنا موسى عليه السلام يعلم الأمر التكليفي ، لذلك حينما خرق السفينة اعترض عليه هذا خلاف الأمر التكليفي ، وعندما قتل الغلام اعترض ، وعندما بنى الجدار بلا أجر اعترض أيضاً ، فلما عرف حكمة الأمر التكليفي استسلم ، فالأمر التكليفي قد يُعصى ، لكنّ الأمر التكويني لا يمكن أن يُعصى لأنه فعل الله ، ذاك أمره ، وهذا فعله ، فالكتب السابقة حُفظت بأمر تكليفي .

مثلاً عندما قال الله عز وجل :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران الآية 97)

هذا أمر تكليفي ، والدليل قد تنشأ فتنة في بيت الله الحرام ، وقد يموت أناس كثيرون ، أي أنّ الله عز وجل كلّفنا أن نجعل هذا البيت آمناً ، ولما قال :

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

(سورة النور الآية 26)

هذا أمر تكليفي ، فقد تجد امرأة طيبة مع إنسان شرير ، وقد تجد إنساناً طيباً مع امرأة ، فهل هذا نقض للأمر ، لا ، لأنّ الأمر تكليفي ، الأمر التكليفي قد يُعصى ، أما الأمر التكويني فلا يمكن أن يُعصى ، وأن يُبَدَّل ، لأنه فعل الله عز وجل ، فالقرآن الكريم محفوظ بأمرٍ تكويني من قِبَل الله مباشرة .

أيها الإخوة ، أطلَعني أخ على صفحة من موقع معلوماتي تُقلّد القرآن الكريم ، وتوهم الناس أنها من القرآن الكريم ، والله الذي لا إله إلا هو لو عرضنا هذه السورة المزورة من كتاب الله على طفل في الخامس الابتدائي لضحك ملءَ فِيْه سخرية منها ، وأيّ مسلم يشعر أنّ هذا الذي بين أيدينا هو كلام الله ، وما سواه كلام مُفتَعل ، لذلك قد تجري بعض المحاولات لتحريفه .

بالمناسبة حينما أقول : تولى الله بأمر تكويني حفظ هذا الكتاب ، ليس معنى هذا أنه لا تجري محاولة لتبديله ، ولكنها لا تنجح أبداً ، يمكن أن تجري محاولات ومحاولات ، ولكنها لا تنجح أبداً ، قال تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(98)قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا)

أي يريد استثناء ، يريد رخصة ، يريد تعطيل حكم ، يريد أن يأكل الربا .

إذاً : معنى الآية عنده :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : الآية 130)

ليس هناك نهي عن ضعف واحد ، هذا التفسير يرتاح له ، فكلما قرأ آية يريد أن يصرفها عن قصدها الحقيقي ، سمى العلماء هذا العمل ليَّ عنق النصوص ، قال تعالى :

وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

(وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران الآية 99)

تهديد ووعيد :

هذه كلمات تهديد ، قوله تعالى :

(وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران الآية 98)

هذا تهديد .

وقوله تعالى :

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 99)

هذا تهديد .

الآن قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

(سورة آل عمران الآية 99)

1 ـ سبب نزول هذه الآية :

تروي بعض كتب التفسير أن لهذه الآية سبب النزول ، هي قصة جرت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بين الأوس والخزرج ، كلكم يعلم أنّ هاتين القبيلتين كان بينهما صراع عنيف قبل الإسلام ، وهذا شأن البشر جميعاً ، البشر حينما يبتعدون عن منهج الله عز وجل تُلقى بينهم العداوة والبغضاء قال تعالى :

(فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية 14)

2 ـ اليهود غاظهم اتفاق الأوس مع الخزرج بعد العداوة :

كان بين هاتين القبيلتين عداوة ، وخصومات ، وحروب ، وقتلى ، وشعر ، وهجاء ، وما إلى ذلك ، فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام ائتلف الأوس مع الخزرج ، وأحبَّ بعضهم بعضاً ، من الذي اغتاظ؟ بعض أهل الكتاب من اليهود ، غاظهم هذه الألفة التي لم تكن من قبل بين الأوس والخزرج ، غاظهم هذا الحب ، وهذا الوفاق .

مرة سيدنا الصدِّيق جاءه طلب معين أراد أن يأخذ رأي عمر ، فأحال صاحب الطلب إلى عمر ، سيدنا عمر رفض أن يُنَفَّذ هذا الطلب ، فامتلأ صاحب الطلب غيظاً ، فعاد إلى سيدنا الصدِّيق ليثير حفيظته ، قال له : الخليفة أنت أم هو ؟ يبدو أنه هو ، قال له : هو إذا شاء ، لا مشكلة ، أي بين المؤمنين من الود، والتعاون ، والتفاهم الشيء الكثير ، دائماً الطرف الآخر البعيد عن الله يريد أن يُوقع بين المؤمنين، ولا يُسعده أن يرى أخوين متفاهمين ، فيثير حفيظتهما .

مثلاً : يرى أخوين متفاهمين فيقول لأحدهما : هل تتقاسمون أرباحكم مناصفة ؟ فيقول له : نعم ، فيقول لك : والله أخوك يظلمك ، لأنه كما يبدو فهو لا يداوم ، كانوا مرتاحين ، ومتفاهمين ، ومتعاونين ، وهو يريد أن يُفرِّق بينهما ، هذا فعل الشيطان ، يفرق بين المرء وزوجه ، وبين الأخ وأخيه ، وبين الجار وجاره ، وبين الشريك وشريكه .

2 ـ سعي اليهود للوقوع بين الأوس والخزرج :

فبعض أهل الكتاب من اليهود غاظهم هذا الود ، والحب ، واللقاء بين الأوس والخزرج بعد مجيء النبي ، فأحدهم اسمه شاس ، دفع غلاماً ليقول قصيدة أُلقيت في الجاهلية في هجاء أحد الطرفين ،

فهذا الغلام وقف في مجمعهم ، وألقى هذه القصيدة ، طبعاً ذكَّرَتْهم بالعداوة السابقة ، والشعر الجاهلي هو شعر جاهلي حقيقة ، لأنّ فيه فخرًا ، وكذبًا ، وهجاءً ، وافتراءً ، وكل قيم الشعر الجاهلي عدا بعض القيم من ذكر الشجاعة والكرم ، عدا هاتين القيمتين فهو شعر جاهلي ، فهذا الغلام ألقى هذه القصيدة على مسمعٍ من الطرفين ، فبعض ضعاف الإيمان منهم ثارت حفيظتهم ، فذكروا القصيدة الأخرى المقابلة ، فتشاتموا ، وسحبوا سيوفهم ، وكادت تقع فتنة ، والنبي بين ظهرانيهم ، فخرج النبي عليه الصلاة والسلام ، ووقف بينهم ، وقرَّعهم ، وذكّرهم بإيمانهم ، أي : أتفعلون هذا ، وأنا بين أظهركم بعد أن نجّاكم الله من الجاهلية ومن العداوة والبغضاء ، ومن الحقد ، ومن هذه الأمور الجاهلية ، ثم تفعلون هذا ؟ مباشرة قبَّل بعضهم بعضاً ، وبكوا بكاءً شديداً ، وندموا على فعلتهم ، فأنزل الله عز وجل قوله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

3 ـ لا تسمح للطرف الآخر أن يوقع العداوة بين المسلمين :

لذلك أيها الإخوة أنت مؤمن ، وأي مؤمن آخر بأيّ مسجد آخر نحن جميعاً طرف واحد أمام الطرف الآخر ، فإذا كنت حريصاً على دينك فلا تسمح لإنسان من الطرف الآخر أن يتهجم على مؤمن ، ولو لم يكن من أتباعك ، نحن جميعاً في قارب واحد ، نحن جميعاً طرف واحد .

أذكر أنّ أحد العلماء في مصر اجتهد اجتهاداً ، ولعله جانَبَ فيه الصواب ، فقام الطرف الثاني ، أي الذي يُنكر الأديان كلها فهاجمه هجوماً عنيفاً ، ولأول مرة يقف جميع العلماء صفاً واحداً أمام هذا الطرف المتجني ، أي أنك لست أنت المقصود كمسلم ، المقصود دينك .

أحياناً الطرف الآخر يهاجم فئة أو جماعة ، المقصود ليس هذه الفئة ، المقصود هو الإسلام ، لذلك ينبغي أن تكون أنت واعياً جداً ، لا تسمح للطرف الآخر أن ينال من المؤمنين ، ولو لم يكونوا من أتباعك ، ولو لم يلوذوا بك ، الله عز وجل خاطب النبي بقوله :

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 215)

وقال :

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجر : الآية 88)

وازن بين الآيتين ، أنت مُكلَّف أن تخفض جناحك لكل مؤمن ، أما كون هذا المؤمن يأتي إلى جامعك فهذا موضوع آخر ، فإن الله عز وجل مُوَزِّع الدعوات على كل عباده شرائح شرائِح ، فإذا كان الإنسان معجبًا بوالدته فليس معنى هذا أن إنساناً آخر ليس له أم ، وله أم ، وهو معجب بها ، هذه الحقيقة الواقعة، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

4 ـ احذروا الورقات الرابحة في أيدي الأعداء !!!

لو وسَّعنا هذا الموضوع ، قصدُ أعداء الإسلام الأول إيقاع الفُرقة بين المسلمين ، معهم أوراق رابحة كثيرة ، يمكن أن يُمزقوا العالم الإسلامي شر ممزَّق بسبب جهل المسلمين ، لو انتبه المسلمون ، وكانوا على وعي وإخلاص لمْ يسمحوا لعدو للمسلمين أن يُفَرِّق بينهم ، لكن ماذا يفعل المستعمرون من مئة عام ؟ يعرفون بعض الحساسيات ، وبعض أنواع الخلاف ، هذه يخبئونها ورقة رابحة ، فكلما أرادوا أن يُفَرِّقوا شمل المسلمين أظهروا إحدى هذه الورقات ، عندهم قوائم كثيرة يثيرون بها الخلاف بين المسلمين ، هذه الآية أساسية جداً في حياة المسلمين ، يجب أن نكون واعين .

إخواننا الكرام ، بادئ ذي بدء ، الذين آمنوا بالله ، واستقاموا على منهجه طرف واحد كلهم ، على اختلاف مللهم ، والذين كفروا بالله ، وأرادوا الدنيا طرف آخر ، أنا أتمنى على الطرف الأول ؛ أي المؤمنين ألا يسمح للطرف الآخر أن يدخل بينهم ، يجب أن تدافع عن كل مؤمن ، لأن الطرف الثاني لا يستهدف طرفاً بعينه ، يستهدف دينك كله ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ

ثم يقول الله عز وجل متعجباً بما يليق به :

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)

(سورة آل عمران : الآية 101)

1 ـ يرقى الاختلاف بين المؤمنين إلى مستوى الكفر :

ماذا سمى الاختلاف بين المؤمنين ؟ سماه كفراً ، أي كيف تكفر أي تختلف مع أخيك ؟ هل يُعقل أن يرقى الاختلاف بين المؤمنين إلى مستوى الكفر ؟ هذا المعنى تؤكده آيات أخرى ، يقول الله عز وجل :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال الآية 1)

ويقول رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : صَلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ ، لا أَقُولُ : تَحْلِقُ الشَّعَرَ ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))

[أبو داود ، أحمد ، الترمذي]

فساد ذات البين حالقة للدين .

2 ـ التطبيق العملي لهذه الآية :

ما التطبيق العملي لهذه الآية ؟ حاول أن تُصفِّي كل علاقة بينك وبين أخيك المؤمن ، صفِّها ، لا بمعنى أنهها ، وإنما بمعنى اجعلها صافية ، حاول أن تصلح أية علاقة بينك وبين المؤمنين ، حاول ألا يبقى في قلبك غلٌ ، ولا حسد ، ولا كِبر ، ولا ضغينة على أي مؤمن ، اذهب إليه ، صارحه ، اكشف قلبك له ، إن كان الخطأ منك اعتذر منه ، إن كان في قلبه ضغينة فأهدِ له هدية ، فالهدية شيء عظيم ، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تَهَادَوْا ، فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي]

حاول أن تصلح علاقتك مع الناس ، وحاول أن تصلح العلاقة بين الناس ، أصلح علاقتك معهم ، وأصلح العلاقات فيما بينهم ، هذا هو التطبيق العملي ، يجب أن تعتقد أن الخلاف بين المؤمنين خطؤه كخطأ الكفر ، بل يُقيَّم عند الله كفراً ، والآية صريحة ، قال تعالى :

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

كيف تكفرون ، أي كيف تختلفون ، أيُّ خلاف يزول بالحوار ، حاور أخاك ، اسأله ، بيِّن له الدليل إن لم يقتنع فلا يوجد مشكلة ، أي لو بقي الخلاف بأمور دقيقة قليلة فلا يوجد مشكلة أبداً ، الخلاف في موضوع معين لا يُفسد وداً بين شخصين .

أنا لي وجهة نظر مقتنع بها ، وأنت لك وجهة نظر ، لكننا متفقون على أساسيات الدين ، والأساسيات لا خلاف فيها ، الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره ، وشره من الله تعالى ، هذه أساسيات .

أنا الذي أتمناه أحياناً أن يكون لكل درس تفسير تطبيق عملي ، اعمل مراجعة ، هل مِن إخواني في هذا المسجد شخص لي في قلبي شيء تجاهه ؟ أو هل أخ من إخوة المسجد في قلبه شيء تجاهي ؟ اذهب إليه ، واعتذر له ، وفاتحه في الموضوع ، وصارحه ، إن كان الخطأ منك اعتذر ، إن كان الخطأ منه سامحه ، لكن ما أجملها أن يكون المؤمنون ، فعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

[البخاري ، مسلم ، أحمد]

ما أجملَ أن يكون المؤمنون كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً ، ما أجمل أن لا نسمح للطرف الآخر أن يدخل بيننا ، وما أقبح أن يكون بأس المسلمين بينهم ، والله الذي يدمى له القلب أني ذهبت إلى الشرق والغرب ، وإلى بلاد بعيدة ، الذي يُدمي القلب أن المسلمين في معظم بلاد العالم بأسهم بينهم ، عداوة بين الجماعات الإسلامية ، أحقاد بين الجماعات الإسلامية ، كل جماعة تدَّعي أن الله لها وحدها ، وأن الحق معها وحدها ، وأن ما سواها انهيار ، هذا اعتقاد سخيف جداً أيها الإخوة ، ولعلها مصالح .

3 ـ الاختلاف قد يكون طبيعياً لنقص المعلومات :

ذكرت لكم من قبل أن الاختلاف قد يكون طبيعياً لنقص المعلومات ، وأن الاختلاف قد يكون محموداً ، اختلاف تنافس ، فأنا أرى أن أفضل شيء الدعوة إلى الله ، يأتي إنسان آخر فيرى أن أفضل شيء تأليف الكتب العلمية ، كلانا له عند الله ثواب ، إذا اختلف اجتهادنا في أي الأعمال أعظم ، هذا خلاف محمود ، وإذا كان هناك خلاف أساسه نقص المعلومات فهو معزول .

4 ـ الاختلاف المذموم سببه الحسد والبغي والمصالح :

أما الخلاف القذر فهو الخلاف بسبب الحقد ، والحسد ، والبغي ، والمصالح ، اختلاف المصالح والحسد، قال تعالى :

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 19)

أيها الإخوة الكرام ، كونوا أنتم مُثُلاً عُليا ، حاول أن تكون منفتحاً على كل المؤمنين ، وما دام انتماؤك ليس لمجموع المؤمنين فلست مؤمناً ، لقوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات : الآية 10)

5 ـ عند الاختلاف نحتكم إلى شرع الله :

يقول الله عز وجل : كيف تختلفون ، ومعكم منهج السماء ، وفيكم رسول الله ؟ كيف تختلفون ؟ أي كيف تكفرون ؟ بمعنى أعمق اختلافنا يتناقض مع كتابنا الواحد ، ومع إلهنا الواحد ، ومع نبينا

الواحد ، إلهنا واحد ، ونبينا واحد ، وكتابنا واحد ، فاختلافنا يتناقض مع هذه الوحدانية ، قال تعالى :

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)

مرة حدثني أخ أعجبني موقفه ؛ اختلف مع زوجته في موضوع ، فقال : نحتكم لشرع الله ، اتَّصلوا بعالِم ، وسألوه فبَيَّنَ الحكم الشرعي ، فانصاع الزوج والزوجة لهذا الحكم ، فأي خلاف بين المؤمنين له جواب في الدين ، فحينما أختلف مع أخي أحتكم إلى شرع الله عز وجل ، انتهى الخلاف مادام معنا كتاب ، ومعنا سنة ، قال تعالى :

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

(سورة النساء : الآية 59)

أيّ منازعة ، في أي موضوع يرد إلى كتاب الله وسنة رسوله .

قال تعالى :

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة آل عمران : الآية 101)

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

يعتصم بالله ، بكتابه ، ويعتصم بتبيان كتابه من قِبل النبي الكريم فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم ، أي من يعتصم بالمنهج لن يضل عقله ، ولن تشقى نفسه ، قال تعالى :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : الآية 9)

الآية واضحة .

أما الآية الثانية فهي قوله تعالى :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : الآية 123)

وقال :

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : الآية 38)

والحمد لله رب العالمين

لا ستغرب من هذا ، فعِشْ رجَبًا ترَ عجبًا :

1 ـ مسرحيات الدجالّين والمشعوذين :

أيها الإخوة الكرام ، معي رسالة يبدو أنها مهمة ، يقول صاحب الرسالة : أنا شاب ملتزم بإذن الله بشريعته ، ولكنني أحترق أشد الاحتراق حينما أسمع أنّ بعض قريبات لي قد ذهبن إلى ذلك الإنسان الذي يدَّعي بأنه شيخ يستطيع أن يفتح نصيب الفتيات ، أو جلب الرزق لفلان ، فطلبت امرأة منه ذلك ، وهي محترقة أشد الاحتراق أن يفتح نصيب ابنتها التي لم تتزوج بعد ، فكان جواب ذلك المحتال بأنه لا يستطيع إلا بدفع خمسة وعشرين ألف ليرة ، وزعم أنه يعطيها للجن ، وهذا ما يقوله بعض المشعوذين.

أنا سمعت أخبارا كثيرة عن هذا ، وسمعت بمبلغ أكبر من هذا بكثير ، امرأة عندها عدة شباب متفقة معهم ، فإذا دفع إنسان مبلغًا ضخمًا ترسل واحداً منهم ، لكنهم جميعاً لا يكملون هذا الزواج حتى النهاية، يرسلون شخصاً فيخطب ، ويضع شروطاً صعبة ، ثم ينسحب ، فترسل الآخر ، فعلى زعمها هذه المائة ألف أتوا لها بعشرة خاطبين ، معنى ذلك أن هذا الشيخ صادق ـ والعملية كلها مجرد دجل ، فطلب خمسة وعشرين ألفاً ، وزعم أنها ليست له ، وإنما للجن الفلاني ، وكانت حالة قريبتي المادية سيئة جداً ، فطُلِب منه أن يُخفِّض السعر ، فقال له : ادفعي الآن أربعة آلاف كدفعة أولى ، دفعت هذا المبلغ ، ولم تستفد شيئاً ، فذهبت إليه ، وقالت له : إنها لم تستفد ، فقال لها : إنني أريد أربعة آلاف أخرى ، دفعت الأربعة الثانية ، ثم نشب خلاف كبير بين الأم والأب فقد دفعوا ثمانية آلاف حتى الآن ، فكان هذا العمل على نية فتح نصيب واحدة من البنات ، وبعد دفع هذه الثمانية نشب خلاف خطير بين الزوجين .

2 ـ بيد الله كلُّ شيء :

والله أيها الإخوة كل هذا مجرد جهل ، ونقص في الإيمان ، بل كفر بالله ، فإن الله عز وجل بيده كل شيء ، لا تحتاج الفتاة إلا أن تستقيم على أمر الله ، وأن تدعو الله في الليل ، كل فتاة أودع الله فيها رغبة قوية أن تكون أماً ، والله موجود ومُطَّلع ، والله علمنا أشياء كثيرة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ ، أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ))

[مسلم ، البخاري ، الترمذي ، أبي داود ، ابن ماجة ، أحمد ، مالك ، الدارمي]

هذا الحديث يكفينا ، أية فتاة تنتظر شاباً مؤمناً يرعاها ، ويحميها لها أن تصلي صلاة الفجر ، أو قبل صلاة الفجر بربع ساعة ، وأن تركع ركعتين تدعو فيهما في السجود بما تشاء، لا يوجد سوى هذا الحل، هذا هو الحل الأمثل ؛ أن تطلب هذا الشيء من الله ، وهذا هو التوحيد ، والله جبَّار الخواطر .

والله حدثني أخ له أقرباء ، يبدو أن هناك فتاة في البيت مستواها دون العشرين بالمائة ، فالأب لبعده عن الحكمة كان يقول : ابنتي هذه ستخدمني عندما أكبر ، هذه الفتاة لن تتزوج ، والله أيها الإخوة جاءها زوج أفضل من أزواج إخوتها جميعاً ، الله جبَّار الخواطر ، هو من يزوج ، عندما يعلم الله عز وجل الصدق والإيمان من الفتاة ، لأنّ طلبها مشروع يلبيه لها ، أي فتاة طلبها مشروع .

لابد من السعي لتزويج الشباب :

أنا والله أتمنى من أعماقي أن يتم زواج آلاف الشباب ، لأنّ أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح ، هناك بعض الآثار وردت : من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمة قالها ، وبكل خطوة خطاها، عبادة سنة قام ليلها وصام نهارها .

عندما يتعاون المؤمنون لتزويج الشباب والشابات هذا الآن من أعظم الأعمال ، لأنّ طرق الفساد ، وأبوابه مفتوحة على مصارعها ، وبإمكان أي شاب ، وأية شابة أن ينحرف وتنحرف دون أن يحاسبهم أحد، لذلك إما أن نشجع النكاح ، وإما أن يعُمَّ السفاح ، فهذه كلها أشياء فيها دجل ، أناس كثيرون ، شيوخ دجَّالون وكذَّابون يتعاونون مع الشيطان يوهمون الناس ، قال تعالى :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم : الآية 22)

لابد من العلم والوعي :

أنا أتمنى أن يكون هناك وعي عند المؤمنين ، والله إنّ الدجَّالات والدَّجالين كُثُر ، ولكن مَن زبائنهم ؟ الجهلة فقط ، الجن يريد خروفًا رأسه أسود ، الجن يريد ديكاً لونه كذا ، الجن يريد خمسة وعشرين ألف ليرة ، أعطني الآن أربعة آلاف ، ثم أربعة آلاف أخرى ، وبعد ذلك يُقال : نشأ خلاف قد ينتهي بالطلاق بين الزوجين ، كل ذلك كذب ، كذب صريح ، والله بعض من يفعل هذا ـ واللهِ ، وأنا أعني ما أقول ، وأعلم هذه الأشياء بدقة ـ يزني ببعض النساء اللواتي يأتين إليه بأساليب مخيفة ، ولا يصلي إطلاقاً ، وهو عند الناس شيخ ، يزوج ، ويحل المشاكل ، ويخرج الجن ، هو

في الأصل أصابه جني ، فانتبهوا أيها الإخوة ، نحن رواد حق ، وطلاب حق ، ولا يوجد إلا الله فقط ، وليس بينك وبين الله حجاب ، ولا واسطة .

إخواننا الكرام ، الدعاء له شروط ، قال تعالى :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة : الآية 1)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن والعشرين من سورة آل عمران ، ومع الآية الثانية بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(102)وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 102-103)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

1 ـ خطاب الله للمؤمنين :

أيها الإخوة الكرام ، كما تعلمون أن الله جل جلاله لم يخاطب الكفار إطلاقاً إلا في آية واحدة يوم القيامة، لأن الكافر عطل عقله ، واتبع هواه فهو ليس أهلاً لأن يخاطبه الله عز وجل ، بينما المؤمن الذي آمن بالله خالقاً ، ومربياً ، ومسيراً ، آمن به موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، يقول له : يا أيها الذين آمنوا ، يعني يا من آمنتم بي ، يا من آمنتم بعلمي ، يا من آمنتم برحمتي ، يا من آمنتم بعدلي ، يا من آمنتم أني خلقتكم لجنة عرضها السماوات والأرض ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران : الآية 102-103)

2 ـ حقّ التقوى :

قال بعض العلماء فيما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حق التقوى أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تنساه ، وأن تشكره فلا تكفره ، هذا حق التقوى ، بتفصيل أكثر يجب أن تتقي غضبه ، يجب أن تتقي معصيته ، يجب أن تتقي سخطه ، يجب ألا تعمل عملاً لا يرضيه ينبغي أن تكون في رضوانه ، ينبغي أن يكون إيمانك كافياً لحملك على طاعته ، ما كل إيمان ينجي ، هناك إيمان لا ينجي ، فيجب أن تؤمن الإيمان الذي يحملك على طاعته ، أي أن تتقيه حق تقاته .

قد تجد مليارًا ومئتي مليون مسلم ، لأنهم لا يتقون الله حق تقواه لم يقطفوا ثمار الدين ، وعدهم الله بالاستخلاف فلم يستخلفوا ، وعدهم الله بالتمكين فلم يمكنوا ، وعدهم الله بالطمأنينة فلم يطمئنوا ، وعدهم الله أن جندهم هم الغالبون فلم يغلبوا ، وعدهم أن لن يجعل الله لأعدائهم عليهم سبيلا لأعدائهم عليهم فثمة ألف سبيل وسبيل عليهم .

3 ـ المؤمن واضحٌ واضحٌ :

إن لم نتق الله حق تقواه لا نقطف ثمار الدين ، دقق في أب عنده ثلاثة أولاد ؛ ولد متفوق ، وأخلاقه عالية جداً ، فيكرمه الأب ، وولد آخر معتوه ، فالأب يحاسبه ، لأنه إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب ، من الذي يؤدبه ليلا ونهارًا ؟ الابن الثالث الذي يملك إمكانات ، وهو مقصر ، المؤمن كما أراد الله واضح ، فهو مرتاح في الدنيا ، والكافر الذي لا يرجى إيمانه اختار الدنيا ، وانتهى الأمر ، وهو واضح أيضاً .

مَن هذا الذي يعالج كل يوم ؟ يؤدب كل يوم ، تأتيه المصائب كل يوم ؟ هذا الذي ليس كافراً ، وليس مؤمناً ، ليس كافراً فيخرج عن دائرة العناية الإلهية ، وليس مؤمناً الإيمان الكامل فيقطف ثمار الدين ، هذه مشكلة المسلمين ، المؤمن واضح ، والله عز وجل يعامله معاملةً كاملة ، معاملة فيها إكرام ، والكافر واضح ، فالله عز وجل أخرجه من دائرة العناية المشددة ، من هذا الذي يعالج ، ويؤدب ، ويضيق عليه ، ويشدد عليه ، ويصاب تارةً بماله ، وتارةً بصحته ، وتارةً بمن حوله ؟ هذا المؤمن المقصر ، فلذلك كأن هذه الآية تتجه إلى من آمن ، ولكن إيمانه لم يكن يرقى إلى مستوى يحمله على طاعة الله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران : الآية 102-103)

4 ـ ملمحٌ لطيف من الآية : الامتحان يكشف المتفوق :

هنا ملمح لطيف في قوله تعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : الآية 2)

أصل الامتحان أن يكشف هذا الامتحان من هو المتفوق ، أنا عندي خمسون طالباً ، صممت امتحاناً لأكشف المتفوقين منهم ، أما الامتحان الواقعي فهو يكشف الناجحين والراسبين ، فالأصل أن ينبغي أن تكون متفوقاً لا أن تنجح فقط ، فالله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

سبحان الله ! ما من شيء إلا إذا غصت في أعماقه كان ممتعاً ومسعداً ، الحل الوسط أحياناً لا يصلح في الدين إطلاقاً ، يمكن أن يكون الإنفاق وسطاً ، قال تعالى :

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)

(سورة الإسراء : الآية 29)

يمكن في شراء الحاجيات أن تختار حاجة وسطًا ، تؤدي الوظيفة بسعر معتدل ، يمكن أن تتخذ الوسطية في شؤون من حياتك كثيرة ، أما أن تكون استقامتك وسطاً ، أو تدينك وسطاً ، فربما لا تقطف ثمار الدين بهذا الموضوع ، لأن الله عز وجل يقول :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود : الآية 112)

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

أن تذكره فلا تنساه ، أن تطيعه فلا تعصيه ، أن تشكره فلا تكفره ، أن تتمسك بالكتاب والسنة فما إن تمسكت بهما فلن تضل أبداً ، أن تتبع منهج الله ، قال تعالى :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : الآية 123)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : الآية 38)

أن تكون وقافاً عند حدود الله ، أن لا تأخذك بلله لومة لائم ، أن تقيم العدل ، ولو على نفسك وأهلك ، أن تقول الحق ، ولو كان مراً ، ألاّ تداهن أحداً ، والمداهنة أن تبذل الدين من أجل الدنيا ، أن تضحي بدينك من أجل دنياك ، قال تعالى :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

(سورة القلم : الآية 9)

لك أن تداري ، وليس لك أن تداهن ، المداهنة بذل الدين من أجل الدنيا ، والمداراة بذل الدنيا من أجل الدين ، يمكن أن تعطي كل شيء من أمور الدنيا مقابل أن تأخذ بيد من حولك إلى الله ، لكن في أمور الدين لا ينبغي أن تضيع شيئاً من الدين من أجل دنياك ، هذا أن لا تأخذك بالله لومة لائم ، أن تقول الحق ، ولو كان مراً ، أن يكون صمتك فكراً ، ونطقك ذكراً ، ونظرك عبرةً ، أن تصل من قطعك ، أن تعفو عمن ظلمك ، أن تعطي من حرمك ، أن تكون ذاكراً لله ، أن تكون منيباً لله هذه بعض العبارات التي تحضرني في معنى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

ودائماً في مستوى التعليم ؛ الطالب الذي يرجو أن ينجح فقط لا ينجح ، أما إذا رجا أن يكون متفوقاً لعله ينجح ، قال تعالى :

5 ـ احرص على أن تموت مسلماً :

الموت ليس بيدنا ، فكيف ينهانا الله عن أن نموت إلا ونحن مسلمون ، الموت ليس بيدنا ، معنى الآية : ما دام الموت ليس بيدك فاحرص على أن يأتيك الموت وأنت مستسلم لله عز وجل .

للتقريب : لو أنك حريص حرصاً لا حدود له على أن تقوم بعمل يعود عليك نفعه الكثير ، ولا تستطيع أن تقوم بهذا العمل إلا إذا لبيت إنساناً فيما بين ساعتين ؛ من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الثامنة مساءً، ما دمت حريصاً حرصاً لا حدود له على الوصول إلى هذا الهدف ، وقال لك : أنا سآتي ، وآخذك من بيتك ما بين الثامنة صباحاً ، والثامنة مساءً ، ولا ينتظرك متى تقف وراء الباب ؟ بدءاً من الثامنة صباحاً ، ما دام المجيء ليس باختيارك بين ساعتين ، فمن شدة حرصك على تأدية هذا العمل تقف بدءاً من الساعة الأولى وتنتظر ، وما دام الموت لا يأتينا باختيارنا ، فقد يداهمنا مداهمة ، فينبغي ألاّ يأتينا الموت إلا ونحن مستسلمون ، لله خاضعون له .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

مع شيء من التفصيل للتوضيح ، شركة طيران لا ترد ثمن التذكرة ، والتذكرة بطاقة الطيران ثمنها خمسمئة ألف ليرة ، فإن لم تكن راكباً في الطائرة لا يرد ثمن هذه البطاقة ، والشركة هي التي تأتيك إلى البيت لتأخذك ، ولا تنتظر إلا دقيقة واحدة ، متى تأتي ؟ من الثامنة صباحاً ، وحتى الثامنة مساءً ، متى تقف خلف الباب ؟ بدءاً من الثامنة صباحاً ، البطاقة غالية جداً ، فإن فاتتك هذه الطائرة لم يُردّ لك ثمنها، هم يأخذونك من البيت ، ولا ينتظرون إلا دقيقة واحدة ، هذا هو المعنى .

6 ـ الاستعداد للموت الذي يأتي فجأة :

ما دام الموت ليس بيدنا ، وقد يأتي بغتةً إذاً ينبغي أن نكون دائمي الاستعداد له ، وهنيئاً لمن صفى علاقاته ، وأدى ما عليه ، وأدى واجباته ، وطالب بحقوقه ، ولم يبق مشكلةً مالية ، ولا اجتماعيةً ، ولا عاطفيةً إلا وحلها ، فإذا جاءه الموت يرحب به ، وكأنه على موعد معه .

الصحابة الكرام في حياتهم قاسم واحد مشترك بينهم ، وهو أنهم كانوا في أسعد لحظات حياتهم حينما جاءهم الموت .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

لا يأتينكم الموت ، وهو يأتي فجأة إلا وأنتم مستسلمون لله في كل شيء ، خاضعون لأمر الله في كل شيء ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)

(سورة آل عمران : الآية 103)

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا

1 ـ وجوب الوحدة والاتفاق :

هذه قضية دقيقة في شأن الوحدة ، فلابد من شيء يوحدنا أما لو قلنا : علينا أن نتحد لا نتحد، أن نجتمع لا نجتمع ، أن نتفاهم لا نتفاهم ، لأن الأهواء مختلفة ، والمصالح مختلفة ، والأصل ألاّ يجتمع الناس إلا على شيء يجمعهم ، لذلك هناك قاعدة دقيقة جداً مأخوذة من قوله تعالى :

(وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة : الآية 14)

2 ـ قانون العداوة :

وكأن هذه الآية قانون ، فمتى تنشأ العداوة والبغضاء ، ومتى ينشأ الحقد والحسد ، ومتى ينشأ البغي والعدوان ، ومتى تقوم هوة بين الناس ؟ متى يكون بأس الناس بينهم ؟ ومتى يمزقون ويشرذمون ؟ حينما ننسى منهج الله ، أما لو أننا طبقنا منهج الله جميعاً كانت المحبة ، والألفة ، والمودة ، قال تعالى :

(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال : الآية 63)

فإيمانهم ، وطاعتهم لله سبب وحدتهم ، ومحبتهم ، وفسق الناس ، وفجورهم ، ونبذهم لمنهج الله سبب العداوة ، والبغضاء بينهم ، وهذا قانون عام يشمل كل الناس وكل الشعوب وكل الأمم .

عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ :

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لا يَظْلِمُهُ ، وَلا يَخْذُلُهُ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إلا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَ))

[متفق عليه]

3 ـ الإسلام هو الذي يجمعنا :

الذي يجمعنا هو حبل الله ، حبل الله في أوجه التفاسير هو القرآن الكريم ، بشكل أوسع هو الإسلام ، الإسلام يجمعنا ، اعتصموا بحبل الله جميعاً ، وحبل الله طرفه الأول بيد الله ، وطرفه الثاني بيد المؤمن، فمن تمسك بحبل الله نجا ، أنت ممسك بحبلٍ طرفه بيد الله ، وطرفه بيدك ، فإذا اعتصمت بهذا الحبل ، اعتصمت بهذا القرآن ، اعتصمت بهذا الدين ، اعتصمت بهذا الإسلام ، هذا الذي يجمع الناس ، وللتقريب ؛ قد تجد حبالاً كثيرة مدلاة من السماء ، وكل يدعي أن هذا حبل الله ، أين بطولتك ؟ أن تمسك بحبل يمسكه الله من الطرف الآخر ؟ هنا البطولة حبال كثيرة ، كلها دعاوى تدعي أنها حبال الله ، لكن لله حبلاً واحداً ممسكاً بطرفه في السماء ، فكل بطولتك أن تهتدي بحبل أمسك الله بطرفه في السماء .

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)

(سورة آل عمران : الآية 103)

إذاً : أن نجتمع بلا شيء يجمعنا فاجتماعنا مستحيل ، أن نتعاون بلا شيء نتعاون عليه ، فتعاوننا مستحيل ، أن نتكاتف بلا شيء يدعونا إلى التكاتف تكاتفنا مستحيل .

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)

(سورة آل عمران : الآية 103)

لو أن صفرًا زائدَ صفر زائدَ صفر فإنه يساوي صفرًا ، الإنسان الذي لا يعتصم بحبل الله صفر ، وليس من الله في شيء ، ليس على الحق ، وليس على المنهج ، وليس على الدين ، وليس على مبادئ ، وليس على قيم ، لو اجتمع زيد مع عبيد فالمحصلة صفر ، أما لو أننا اعتصمنا بالله عز وجل لكنا قوةً يرهب جانبها ، فعن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[متفق عليه]

أما أمته حينما تركت سنته هزمت بالرعب مسيرة عام ، واعتصموا بالله جميعاً ، ينبغي أن يكون الاعتصام بحبل الله حقيقةً ، لأنه كما قيل :

وكلٌّ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكــا ***

4 ـ قف عند كلمة (جميعا) :

الحقيقة كلمة جميعاً لها معنى دقيق ، يقول الله عز وجل :

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور : الآية 31)

لا نقطف ثمارَ الدين إلا مجتمعين :

أنتم لا تقطفون ثمار الدين إلا إذا تبتم إلى الله جميعاً ، أن يكون في بيتك هاتف ، ولك خمسون صديقًا ، ليس عندهم هاتف ، هذا الهاتف لا قيمة له ، يكون له قيمة إذا كان عند كل أصدقائك مثل هذا الهاتف .

للتقريب : حينما تعيش في مجتمع مسلم لماذا تشعر بالسعادة ؟ لأن كل مسلم لن يكذب عليك ، ولن يغشك ولن يؤذيك ، ولن يعتدي على عرضك ، ولن يأخذ مالك ، كما أنك مأمور بالصدق فإن مليارًا ومئتي مليون مسلم أمروا أن يصدقوا معك ، كما أنك مأمور بالعفة فإن مليارًا ومئتي مليون أمروا أن يعفوا عن نسائك ، كما أنك مأمور بالأمانة فإن مليارًا ومئتي مليون مأمورون أن يكونوا أمناء معك .

إن ثمار الإيمان لا نقطفها إلا إذا كان الناس جميعاً أمناء ، وأوضح مثل موضوع الحجاب ، فلو أن أعداد قليلة حجبوا نساءهم ، ومعظم النساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، فثمار الحجاب لا نقطفها ، أما لو أن كل نساء الناس محجبات لا يثرن الغرائز ، ولا يبدين المفاتن لقطفنا جميعاً ثمار الحجاب ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور : الآية 31)

حينما يعم الفساد في الأرض علي أن أستقيم ، لكن لا تظهر قيمة الاستقامة إلا إذا طبقها الناس جميعاً ، لا تظهر قيمة الأمانة إلا إذا كان الناس جميعاً أمناء ، لا تظهر قيمة العفة إلا إذا كان الناس جميعاً عفيفين.

وهنا قال تعالى :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)

فضلُ المعتصم بحبل الله في آخر الزمان :

إذا لم تعتصم الأكثرية بحبل الله ، والأقلية تعتصم بحبل الله ، الأقلية قد تنجو ، لكن ثمرة هذا الاعتصام الكلية لا تأخذها ، قلة قليلة تعتصم بحبل الله ، فهذه نجت ، لكنها تعاني ما تعاني ،

((وَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ على الجَمْرِ ، لِلعامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ ، قالُوا : يا رَسُولَ الله ، أجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ ؟ قالَ : لا ، بَلْ أجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

[الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه عن أبي ثعلبة الخشني]

لأن الله عز وجل قال :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم : الآية 41)

ففي آخر الزمان القابض على دينه كالقابض على الجمر ، وقد ورد في الحديث الصحيح عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

[مسلم ، الترمذي ، الدارمي ، أحمد]

في زمن الفتن .

قال تعالى :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا)

أنا حينما أعتصم وحدي ، أو يعتصم من حولي فقط ننجو ، لكن حياتنا صعبة جداً ، لأن الأكثرية لا تعتصم ، الأكثرية لا تصدق ، الأكثرية لا تؤتمن ، ومن علامات آخر الزمان أنه يخوَّن الأمين ، ويؤتمن الخائن ، يكذب الصادق ، ويصدق الكاذب .

حينما يفشو الفساد في الأرض تغدو الحياة صعبة ، ويغدو القابض على دينه كالقابض على الجمر ، ولكن هذا قدرنا ، أما لو تصورنا أن مجتمعاً بأكمله عرف الله ، واستقام على أمره تجد الحياة شيًا ثمين جداً ، لذلك فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا ، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي]

من ملامح آخر الزمان يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ، ولا يستطيع أن يغير ، ألا ترون ما يجري لإخواننا في فلسطين ؟ يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ، ولا يستطيع أن يغير ، إن تكلم قتلوه ، وإن سكت استباحوه .

أيها الإخوة ، إن الله عز وجل يدعونا أن نعتصم بكتابه ، ولكن جميعاً حتى نقطف ثمار هذا الدين .

النهي عن التفرّق :

قال تعالى :

(وَلَا تَفَرَّقُوا)

(سورة آل عمران : الآية 103)

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة التوبة : الآية 71)

أما إذا تفرق المؤمنون بذنوب أصابها أحدهم ، أو بذنوب أصابها بعضهم ، فالاعتصام بحبل الله يجمع، وترك الاعتصام بحبل الله يفرق ، قال تعالى :

(وَلَا تَفَرَّقُوا)

أمر أن نعتصم ، ونهي أن نتفرق ، قال تعالى :

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

1 ـ تذكير الأوس والخزرج بنعمة الله عليهم :

الحروب بين الأوس والخزرج مديدة طويلة ، وحينما جاء الإسلام حلت المحبة محل الخصام ، وحينما جاء الإسلام حل التفاهم محل التنافس ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ :

((لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي ، قَالَ : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا ، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ ، فَقَالَ : قَدْ

اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ؟ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ ، قَالَ : أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا : وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ ، قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ ، وَصُدِّقْتُمْ : أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا ، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ ، قَالَ :فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ ، وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَفَرَّقْنَا))

[أحمد ، والدارمي]

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)

2 ـ الخصومات دليل ضعف الإيمان وقلة العلم :

أقول لكم هذه الكلمة ، وأنا أعني ما أقول : ما دام هناك خصومات بين الإخوة المؤمنين ، ومنافسات ، وعداوة ، وبغضاء ، وحقد وغل ، فليعلم هؤلاء المؤمنون أنهم ليسوا على المستوى المطلوب ، وأن هذا الإيمان لن ينفعهم ، لأن علامة إيمانهم المحبة بينهم ، علامة إيمانهم التعاون بينهم ، علامة إيمانهم التناصر ، والتضامن ، والتآخي ، وحينما يضعف تطبيق هذا المنهج تنشأ العداوة ، وتتفجر البغضاء ، وحينما نتمسك جميعاً بحبل الله عز وجل يحل الوئام محل الخصام ، فالمتبع لمنهج الله عز وجل يتعاون، ولا يتنافس ، يقدر ما عند الآخرين ، ولا يحتقر ، بينما الذي لا يتبع يتنافس ، ولا يتعاون ، وذو نزعة عدوانية ، وليس مسالماً .

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)

3 ـ الأخوّة الإيمانية نعمة من الله ، والعداوة نقمة ومصيبة :

والله أيها الإخوة ، كلما وجدت بين إخوة المسجد محبة ، وتعاوناً ، وإيثاراً ، وتضحية أنام قرير العين ، وكلما وجدت خصومةً ، وتنافساً ، ومشاكسة بين إخوة المسجد أتألم أشد الألم ، لأن هؤلاء بهذه الأخلاق لم يقطفوا ثمار الدين أبداً .

ألا ترى أن المسلمين في شتى بقاع الأرض بأسهم بينهم ! بأسهم بينهم ، وليس على عدوهم ، هذا من ضعف إيمانهم ، وكلكم يعلم أن كل فرقةٍ ضالة من شأنها النزعة العدوانية ، والنظرة الأحادية ، لسان حالهم ومقالهم : نحن فقط ، الجنة لنا ، نحن هم المؤمنون فقط ، نحن هم المسلمون فقط ، أية فرقة ضلت سواء السبيل تعتد بنفسها ، والله عز وجل يقول :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ)

(سورة النساء : الآية 49)

هو يمدحهم أم يذمهم ؟ يذمهم ، قال تعالى :

(بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النساء : الآية 49)

فهذا الذي يسلط الأضواء على ذاته ، وينزهها عن كل نقيصة ، ويطعن بالآخرين ، هذا يشق صفوف المسلمين .

(وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

كنتم في ضلالة عمياء ، وفي انحراف خطير ، الربا ، والخمر ، والزنا ، والعداوة ، والحروب المديدة، وهذه الجاهلية الأولى ، ولأن الله قال :

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب : الآية 33)

معنى ذلك أن هناك جاهلية ثانية ، إنها الجاهلية التي نعيشها ، جاهلية المصالح ، والأهواء ، والحظوظ، والمنازعات ، والتنافس ، والاقتتال أحياناً .

(وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا)

أي على حافة حفرة من النار فأنقذكم منها .

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

فالمودة بين المؤمنين من خلق الله عز وجل ، يخلقها الله ، فإن لم تكن هناك فهذه مشكلة كبيرة في الإيمان ، التجمعات كثيرة ، هناك تجمع مصلحي أساسه المصلحة ، فهؤلاء يتعاونون على باطل ، وليس على حق ، ولكن تجمعات المؤمنين تجمعات خالصة لله عز وجل ، فلا تحتمل جماعة المؤمنين أية خصومة .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

(سورة الحجرات : الآية 10)

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 104)

صفات المفلحين :

1 ـ الدعوة إلى الخير وهو الإسلام :

هذه اللام لام الأمر ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، فلابد من فئة في كل مجتمع تتعلم العلم الصحيح العميق الواسع ، وتدعو إلى الله ، تدعو إلى الخير إلى هذا القرآن ، إلى هذا الإسلام ، إلى هذا الدين القويم ، تدعو إلى كل شيء يقرب إلى الله ، وتنهى عن كل شيء يبعد عن الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

والخير هو القرآن ، والإسلام ، وهذا الدين .

(وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ)

2 ـ الأمرُ بِالْمَعْرُوفِ والنهيُ عَنْ الْمُنْكَرِ :

ما هو المعروف ؟ وما هو المنكر ؟

هذا من قبيل عطف الخاص على العام ، المعروف ما عرفته الفطر السليمة ، والمنكر ما أنكرته الفطر السليمة ، الإنسان مفطور فطرة عالية ، ومن أصل فطرته يحب المعروف ، ويكره المنكر ، أما حينما تنطمس فطرته ، وتسود صفحته ، وتتحكم به أهواؤه عندئذ يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ، ويقول عليه الصلاة والسلام :

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : أو كائن هذا يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟ قالوا : أو كائن هذا يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن أبي أمامة]

في بلد إسلامي في شمالنا قدموا الوسام من الدرجة الأولى لامرأة تدير أكبر شبكة دعارة ، لأنها قدمت للخزانة أعلى نسب من الضرائب ، قدم إليها وسام من أعلى مستوى ، وهي تدير أكبر شبكة دعارة في بلد إسلامي ،

((... كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ؟ قالوا : أو كائن هذا يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن أبي أمامة]

قبل أيام في موقع معلوماتي ، بلد إسلامي بعيد جداً ، بنغلادش ، صدر فيه قانون يقرّ أن حرفة الدعارة حرفة لا شيء فيها ، فالمرأة التي ترتزق بثدييها امرأة بحسب هذا القانون شريفة ، ولا أحد يسائلها ، هذا في بلد إسلامي ، بنغلادش ،

((... كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ؟ قالوا : أو كائن هذا يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن أبي أمامة]

لذلك هذه الأمة الإسلامية لا يمكن أن تكون خير أمة أخرجت للناس إلا إذا أمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، قال تعالى :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

خيريتها أنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، فإذا لم تأمر بالمعروف ، ولم تنهَ عن المنكر فقدت خيريتها ، بل هي أمة كأي أمة خلقها الله ، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة : الآية 18)

من هؤلاء الشعوب التائهة ، الأمة الإسلامية إن لم تقم بأمر الله ، إن لم تأمر بالمعروف ، إن لم تنهَ عن المنكر فهي أمة كبقية الأمم التي شردت عن الله عز وجل ، وما من كلمة تصدق على واقع الأمة كهذه الكلمة : هان أمر الله عليها فهانوا على الله .

سيدنا عمر حينما طعن ، وأفاق من الإغماء ماذا قال ؟ هل صلى المسلمون الفجر ! فهل يسأل الأب زوجته إذا عاد إلى البيت : هل صلى الأولاد العشاء ، يقول لها : هل كتبوا الوظائف ؟ هل تناولوا الطعام جيدًا ، ربما لا يسألها : هل صلى الأولاد العشاء ، سيدنا عمر قال: هل صلى المسلمون الفجر ؟ فحينما نعظم أمر الله نعظُم عند الله ، وحينما يهون أمر الله علينا نهون على الله .

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 104)

ثمة قصة بسيطة جداً ، ولكنها معبِّرة ، سائق سيارة ، ركب معه شاب وشابة قال له : انتظر قليلاً ستأتينا محفظة ، فانتظر هذا الذي سيأتي بالمحفظة ، فتأخر ، ثم جاء بعد حين رجل كبير بالسن عمره سبعون سنة ، يحمل محفظة على رأسه ، وأخذها هذا الشاب منه ، وضربه على صدره ، لِمَ تأخرت ؟ السائق لم ينتبه ، وبعد أن انطلق في طريقه من بيروت إلى الشام قالت له زوجته : لا ينبغي لك أن تضرب أباك ، فوقف هذا السائق ، وقال له : هذا أبوك ؟ انزل فوراً ، وهذه أجرتكما .

هذا أدى الذي عليه ، شيء رائع جداً ، قال لي رجل : والله أنا سبب توبة سائق سيارة ، كنت أحمل خمرًا ، فلما لمحه رفض أن يركبني ، وطردني ، فشعرت بذل شديد ، وعقدت العزم على أن أتوب ، وكل إنسان أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر.

تأتي الفتاة إلى بيت عمها بثياب فاضحة ، يرحب بها ، ويهش لها ، ويبتسم ، لا يخطر في باله أن يلومها على هذه الثياب ، هذه ابنة أخيك .

حينما نقصر في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر تضيع الأمور ، ويضعف الحق ، ويزداد الباطل قوةً ، فهذه الفريضة السادسة ، لكن ما كلفك الله فوق ما تطيق ، إن نهى عن المنكر أدى ذلك إلى فتنة أشد من هذا المنكر فلست مكلفاً به ، لك أن تنكر بقلبك ، ولك أن تنكر بلسانك ، ولك أن تنكر بيدك ، ولكن الله لا يقبل منك إنكار اللسان إذا كنت قادراً على أن تنكر بيدك ، كما أنه لا يقبل منك إنكار القلب إذا كنت قادراً على إنكار اللسان .

ثلاثة أولاد في الطريق ، ابنك ، وابن أخيك ، وابن الجيران ، رأيتهم يدخنون ، أنت تقيم الدنيا ، ولا تقعدها على ابنك ، وتعنف ابن أخيك ، وتطلب من هذا الثالث أن ينطلق إلى شأنه ، ابنك بيدك ، ابن أخيك بلسانك ، والثالث بقلبك ، لا تعرف من أبوه ، وما رأي أبيه ، بهذا الانحراف ، وقد تنشأ مشكلة كبيرة جداً ، فعليك أن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .

أن تنكر المنكر بيدك إن استطعت ، ثم بلسانك ، ثم بقلبك ، ومن شهد معصيةً فأنكرها كان كمن غاب عنها ، ومن غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها ، قال تعالى :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(104)وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَات

الاختلاف منه المذموم ومنه الممدوح :

قد يكون هناك اختلاف لنقص المعلومات ، وهذا اختلاف طبيعي ، وقد يكون هناك اختلاف تنافسي ، وهذا محمود .

المؤمن يرى أن نشر الدعوة أعظم شيء ، ومؤمن آخر يرى تأليف الكتب أعظم شيء ، وثالث يرى أن بناء المساجد أعظم شيء ، فهذا اختلاف تنافسي جيد ، لكن الاختلاف القذر هو أن نختلف بعد أن جاءتنا البينات الواضحات النيرات اختلاف حسد ، وبغي ، وعدوان ، وتنافس .

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 19)

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ)

(سورة آل عمران : الآية 105)

كيف يفسر ما بين المسلمين ؟ إذا كان الله واحداً ، والنبي واحداً ، والقرآن واحداً ، وكلهم يقولون : قال الله ، قال رسول الله ، ومع ذلك فبينهم ما صنع الحداد ، إذاً هذا اختلاف بغي ، وحسد ، ومصالح .

(وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 105)

الأسئلة :

أيها الإخوة ، أخ كريم يسأل .

س : تحدثتم أن المصائب ، والبلايا تكون مستمرةً على المؤمن المقصر تأديباً له من الله ، مع العلم أن المؤمن الصادق يبتلى أحياناً .

ج : لاشك أن المصائب منوعة جداً ، فالأنبياء مصائبهم مصائب كشف فقط ، يعني عنده نوع من الكمال لا يظهر إلا من خلال ظرف صعب ، أن يذهب إلى الطائف ، وأن يمشي على قدميه ثمانين كيلو مترًا ليدعوهم إلى الله ، ثم يؤذونه أشد الإيذاء ، ويأتيه جبريل ليطبقا الجبلين على أهل الطائف ، فيقول: لا يا أخي ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده ، هذه مصيبة أصابت النبي ، ولكن كشفت عن مستواه الأخلاقي الرفيع ، وعن رحمته بأعدائه ، مصائب الأنبياء مصائب كشف .

مصائب العصاة مصائب تأديب ، قال تعالى :

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

[سورة الشورى : الآية 30]

" ما من عثرة ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر " ، لا يوجد مصائب تأديب ترافقها معاص وآثام ، لكن هناك مصائب امتحان ، هذه خاصة بالمؤمن ، قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة : الآية 155-157)

مصائب تأديب ، مصائب امتحان ، مصائب كشف ، فما كل مصيبة تشبه أخرى ، هذا هو الجواب

س : ما عقوبة تارك الصلاة مع أنه يؤدي باقي العبادات ؟

ج : هي العبادة الوحيدة التي لا تسقط بحال ، الحج يسقط ، والصوم يسقط ، والزكاة يسقط ، والشهادة تؤدى مرة واحدة ، أما الصلاة فلا تسقط بحال ، فمن تركها ، وهو يؤدي بقية العبادات فهذا ليس له معنى ، بقية العبادات من دون صلاة لا معنى لها إطلاقاً ، فإذا تركها رافضاً لفرضيتها فقد كفر ، أما إن تركها تقصيراً فقد فسق .

س : يقول أخ : ملاحظة عجيبة ، خطر في بالي ، وأنا أنظر إليك في أثناء الدرس أن كثيراً منا ترك أهله وأولاده في البيت ، البعض يلعب ، ويلهو ، وقد يخرج الأولاد إلى الشارع ، وهذا يسبب مشكلة ما لأحدهم ، وعند البحث عن والده يقولون : إنه في الدرس مع الشيخ ، وهذا يسبب تنفيراً من الدرس ، أرجو توجيه زوجاتنا للانتباه للأولاد في غيبتنا ؟

ج : ينبغي أن تضبط أمورك ، وأن تأتي بأولادك معك إذا كانوا يفهمون بسن معقولة ، أو أن تتفق مع زوجتك أن ترعاهم بغيبتك ، أما أن يكون حضور الدرس سبب لمشكلة ، فما كان هذا سببا لمشكلة إطلاقاً .

س : ما عقوبة كشّ الحمام ؟

ج : لا تقبل شهادته ، لأنه يطلع على عورات الناس .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(29-60): تفسير الآيات 106 - 115
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-06-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس التاسع والعشرين من دروس آل عمران ، ومع الآية السادسة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة آل عمران)

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ

1 ـ البشر كلهم فريقان :

أرأيت إلى البشر بمِلَلِهم ، ونحلهم ، وأعراقهم ، وأجناسهم ، وطوائفهم ، ومذاهبهم ، ونزعاتهم ، واتجاهاتهم ، في النهاية هؤلاء فريق يبيضُّ وجهه ، وهو في رحمة الله ، وفريق يسودُّ وجهه ، وهو في نار جهنم ، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ، لذلك قال تعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : الآية 2)

لماذا قدَّم الموت على الحياة ؟ لأن الإنسان حينما يولد أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى ، أما حينما يأتيه الموت فأمامه خياران ؛ و كلما وقعت عينك على جنازة ، فإما إلى جنة يدوم نعيمها ، وإمّا إلى نار لا ينفد عذابها .

فيا أيها الإخوة الكرام ، كل هؤلاء الناس مشارب ونزعات ، واتجاهات وملل ، ونحل وطوائف ، وعقائد وطروحات ومبادئ ، هذا كله سوف ينتهي إلى نموذجين :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران : الآية 106)

2 ـ أعِدّوا لهذا اليوم حتى تبيض وجوهكم :

وقد قال بعض علماء التفسير : (يوم) ظرف زمان ، أي احذروا هذا اليوم ـ أو أعدوا لهذا اليوم ـ احذروا هذا اليوم الذي يُفرَغ الناس فيه في أحد نموذجين لا ثالث لهما ، أي أعدوا لهذا اليوم عدته ، وما من إنسان عاقل فيه مسحة من عقل إلا كان ينبغي له أن يعد لهذه الساعة التي لا بد منها عدة ، قال تعالى :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران : الآية 106)

الفوز الأبدي لمن ابيضّ وجهه ، العاقل من وصل إلى هذا اليوم أبيض الوجه ، المفلح من كان في هذا اليوم أبيض الوجه ، الذكي من وصل إلى ابيضاض الوجه في هذا اليوم ، الموفق ، المتفوق ، كل معاني التفوق تنتهي في أن يكون وجهك أبيض يوم القيامة ، ولن يكون هذا الوجه أبيضاً إلا إذا عرفت الله ، وعرفت منهجه ، وعملت الصالحات تقرباً إليه .

صحِّح العقيدة أولا ، ثم استقم بعد ذلك :

قال لي أخ كريم اليوم : انصحني نصائح موجزة ؟ قلت له : كأن هذا الدين يبدأ من تصحيح العقيدة ، فإذا صحت فعليك بالاستقامة ، لأن الله عز وجل يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : الآية 30)

عليك بمعرفة الله ، أو بعبارة أخرى عليك بتصحيح العقيدة ، لأن أي انحراف في العقيدة يقابله انحراف خطير في السلوك ، ولو أنه جدلاً لا علاقة للسلوك بالعقيدة فاعتقد ما تشاء ، ولكن أية عقيدة زائغة فاسدة لا بد من أن تنعكس انحرافاً في السلوك ، فإن أردت الفوز ، إن أردت النجاح ، إن أردت أن تكون أبيض الوجه صحِّح عقيدتك ، وطبق منهج ربك ، بتطبيق منهج الله تسلم ، ولكن بالعمل الصالح تسعد ، ولا بد من شيء رابع هو كثرة ذكر الله عز وجل ، عن طريق إحكام العبادات ، وإتقانها ، وعن طريق الدعاء ، والاستغفار ، والتسبيح ، والتهليل ، وما إلى ذلك :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

وجوه بيضاء كثيرة ، ووجوه سوداء كثيرة .

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ

ومثل هذه الآيات كثير في القرآن الكريم :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23)وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ(24)تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)

(سورة القيامة)

مثل هذه الآية أيضاً قوله تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 106)

فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

1 ـ أن موجبات الإيمان بين أيدي النـاس :

من أَوْجَهِ ما قرأت في هذه الآية أن موجبات الإيمان بين أيديكم ، كفرتم ، وكلُّ موجبات الإيمان بين أيديكم ، كونٌ عظيم إذا تأملت فيه تجد أن وراءه إلهاً موجوداً ، كاملاً ، واحداً ، وفي كل شي له آيةٌ تدل على أنه واحد

كتابٌ كريمٌ بين يديك ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حوادث تراها رأي العين ، وترى فيها العِبَر تلو العِبَر ، وأنبياء مرسلون ، وكتبٌ منزَّلة ، ودُعاة صادقون ، كل موجبات الإيمان مُوَفَّرة لديك ، منحك كوناً تعرفه من خلال الكون ، ومنحك عقلاً أداةُ معرفة الله ، منحك فطرة تكشف لك خطأك ، منحك اختياراً ليُثمَّن عملك ، منحك شهوةً كي تندفع إلى طاعة الله عز وجل ، وأن ترقى عند الله حينما تضبط شهواتك وتسير على منهج الخالق ، منحك حرية الاختيار ، أودع فيك الشهوات ، أعطاك قوة فيما يبدو ، هذا كله أيها الإخوة موجبات الإيمان ، قال تعالى :

(أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

ماذا يقول ـ ولله المثل الأعلى ـ ابن لأبيه ، وقد هيّأ له أرقى مدرسة ، وأفضل أستاذ ، هيّأ له غرفة خاصة ، ونفقات باهظة ، ومدرِّسين متخصصين يأتونه في البيت ، وكتبًا ، ومراجع ، ومكتبات ، ومع ذلك لم يدرس ، هذا الأب أعطى ابنه كل موجبات النجاح ، ومع ذلك لم ينجح ، قال تعالى :

(أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)

معنى إيمانكم : أي أكفرتم بعد أن كانت موجبات الإيمان متاحة لكم ، بعد أن كان كل شيء يدلكم على الله ، بعد أن كانت الآيات التي نصبها الله في الآفاق ، وفي الأرض ، وفي أنفسكم، والآيات التكوينية هي أفعال الله ، والآيات القرآنية ، وكل ما في الكون يدل على الله ، ومع ذلك كفرتم ! قال تعالى :

(أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

أي :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة : الآية 18)

وقوله :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

وقال أيضاً :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص : الآية 61]

فإذاً :

(أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

الشيء الذي لا شك فيه أن الإنسان حينما ينحرف انحرافاً خطيراً ، ثم يواجه جزاء عمله حينئذ يسكت ، قال تعالى :

(وَخَشَعَتْ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)

(سورة طه : الآية 108)

وفي بعض معاني قوله تعالى :

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ)

(سورة الأنبياء : الآية 23)

2 ـ عدل الله يُسكت الألسنة :

إضافة إلى كل المعاني التي وردت في التفاسير هناك معنى دقيق ؛ أنّ عدله يُسكت الألسنة .
دخل شخص إلى بيت صديقه فرآه مقتولاً ، فخرج مذعوراً ، فإذا بجار له يعمل في سلك الأمن الداخلي يلقي القبض عليه ، وساقه بتهمة أنّه هو القاتل ، وجرت محاكمة حُكِم عليه بثلاثين عاماً جزاء فعلته الشنيعة ، وهو لم يقتل ، وبعد ست سنوات أُلقي القبض على القاتل ، واعترف بجريمة أخرى ، وبجريمة سابقة ، هذه وقعت في دمشق ، فالذي حصل أنهم أعطوه تعويضاً يساوي عشرة آلاف ليرة ، نظير سجنه ست سنوات ، وأطلقوا سراحه ، طبعاً القصة قديمة ، والعشرة آلاف كانت تساوي ثمن منزل .
لي صديق كان في مرحلة إطلاق سراحه أخذه جانباً قال له : بربك ، أنشدك بالله أنت في الظاهر مظلوم ، لكن كيف ترى عدل الله عز وجل ، فأقسم بالله أنه فعل شيئاً لم يعلم به أحد ، ويستحق عليه

الإعدام ، هكذا قال ، عدل الله يُسكت الألسنة ، فلذلك يوم القيامة يسكت الإنسان ، أي أنتم ترون كيف أنّ الأناس يتلذذون بقتل البشر ، يرتاحون بإفقارهم ، وإشقائهم ، هؤلاء لهم جهنم ، وبئس المصير ، قال تعالى :

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

(سورة الدخان : الآية 49)

كنت في الدنيا عزيزاً كريماً بالمفهوم الأرضي ، ذق هذا هو جزاء عملك ، هؤلاء الذين يفقرون الشعوب ، يقتلون مئات الألوف ، وهم مرتاحون لا بد لهم من جهنم ، وجهنم تُعَدُّ جزاءً وفاقاً ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 106)

أما الطرف الآخر فقال تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 107)

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

1 ـ الفوز الكبير أن تأتي يوم القيامة أبيض الوجه :

كل عقلك ، وذكائك ، وبطولتك ، ونجاحك ، وفلاحك ، وتفوقك أن تأتي يوم القيامة أبيض الوجه ، أنت لم تظلم أحداً ، ولم تأكل مال أحد ، ولم تسهم في شقاء إنسان ، ولا شقاء أسرة ، ولا شقاء أمة ، هذا الذي فتن فتاة ، ففعل معها الفاحشة ، ثم ألقاها في الطريق ، وعَلِم أهلها بذلك فأهدروا دمها ، ليس لها من عمل إلا أن تكون مومسة ، فسلكت هذا الطريق ، فجاءت يوم القيامة شقية ، ولعلها أنجبت ذرية ربتهم على شاكلتها ، فإذا كشف الله لك يوم القيامة أنه من أجل لذة ساعة أوديت بهذه المخلوقة ، التي كان من الممكن أن تكون أماً وزوجة ، ولها مكانة ، ولها طريق إلى الله ، فهذا الذي يرتكب الموبقات ، ويفعل الفواحش ، ويأخذ ما ليس له ، ويظلم ، هذا أحمق ، سوف يدفع الثمن أضعافاً مضاعفة ، والكافر حينما يرى مكانه في النار يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا ، يقول لم : أر خيرًا قط ، والمؤمن حينما يرى مكانه في الجنة يقول لم أر شراً قط.

مرحباً بالتكاليف الشرعية ؛ بغض البصر ، بضبط اللسان ، ضبط الحلال ، الترفع عن الحرام ، أن تكون مظلوماً لا أن تكون ظالماً ، أن تكون في خدمة الخلق ، أن تكون في طاعتهم ، هذا الذي يبني ثروته على إشقاء الآخرين ، الشيء الذي لا يصدق أن أوسع تجارة الآن ، تجارة الرقيق الأبيض ، مؤسسات ، وشركات يأتون ، يجوبون أقطار الدنيا ، ويأخذون الفتيات القاصرات ، يغرونهن بدخل

كبير ، ثم يعملن في الدعارة ، ويضطهدن ، ويعطين أقل القليل ، هذا الذي يسأله الله عز وجل يوم القيامة : لم فعلت هذا ؟

فيا أيها الإخوة ، قبل أن تأخذ ما ليس لك ، قبل أن تظلم مخلوقاً ، الإنسان بنيان الله وملعون من هدم بنيان الله ، عُدْ من اليوم قبل أن تفعل شيئاً لا يرضي الله عز وجل ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(106)وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ)

(سورة آل عمران)

2 ـ بيض الوجوه المطيع لله والخادم لخلق الله :

أمضى حياته في طاعة الله ، أمضى حياته في خدمة الخلق ، أمضى حياته في رفع البؤس عن الآخرين ، ما تكلم كلمة فيها سخرية ، ما نظر نظرة مشبوهة ، ما متع عينيه بما لا يحل له ، ما ظلم زوجة ، ولا ابناً ، ولا جاراً ، لا صديقاً ، ولا مشترياً ، ما غش مسلماً ، أدى صلواته الخمس ، صلى قيام الليل ، ذكر الله كثيراً ، وقف عند كلام الله ، تَتَبَّع الحكم الشرعي في كل شيء ، حضر مجالس العلم ، تزود بزاد التقوى قبل أن يموت ، هذا يأتي يوم القيامة أبيض الوجه ، أنت لاحظ يوم توزيع الجلاءات على الطلاب ، تجد طالبًا يكاد يرقص من شدة الفرح ، ومعه جلاؤه ، ينطلق إلى أبيه انطلاقاً ليريه الجلاء ، وتجد طالبًا آخر يبكي ، ويمزق الجلاء ، قال تعالى :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

3 ـ الفرق كبير لا يخفى على أحد :

أنت لاحظ هؤلاء الذين يرتكبون السرقات ، والموبقات حينما يقعون في قبضة العدالة ، وحينما يأتي المصورون ليصوروهم ، عيونهم في الأرض ، لا يستطيعون أن ينظروا إلى المصور .

مرة كنت عند قاضٍ للتحقيق ، صديق لي يحقق في جريمة ، فهذا المجرم ناكس الرأس ، خافض البصر ، وجهه أغبر اللون ، مسودّ الوجه ، فُتِح الباب ، ودخل شاب يطفح وجهه بِشْراً ، فقال له : هل الساعة جيدة ، يبدو أنه يصلح بعض الساعات ، فكلّفه بتصليح ساعته ، لأنه إنسان مواطن شريف بريء ، دخل عليه مستبشرا ، فقال له : جيدة جداً ، جزاك الله كل الخير ، وازنت بين هذا الإنسان الذي يُحَقق معه في جريمة قتل ، وبين هذا الشاب الذي يعمل عملاً شريفاً أنجز شيئًا كُلِّف به ، لاحظ كيف أن البريء واضح من وجهه ، مرتاح، هناك صفاء وراحة ، حتى لو اتُّهم كذباً لا يتأثر ، يعلم أنه مستقيم ، ومن عرف نفسه لم تضره مقالة الناس به .

لكن الملاحظة الدقيقة هي أن هؤلاء في رحمة الله ، أي في الجنة ، رحمة الله هي الجنة ، أي رحمة الله هي رمز لعطاء الله ، أعلى عطاء لله أن يكون نصيبك في الجنة .

مرة أخ كان في بلد غربي حدثنا عن نظافة البلد ، وأناقته ، وجماله ، ونظامه ، وعن الحقوق الإنسانية فيه ، وكيف يعيش الناس آمنين مطمئنين ، حاجاتهم كلها متوافرة ، وإلى آخر ما هنالك ، قال له أحدهم في المنهج القرآني :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

(سورة آل عمران : الآية 185)

الدنيا لا تساوي عند الله شيئا :

هذا هو الفوز ، أما أن تعيش سنوات محدودة في بلد جميل جداً ، الأمور كلها ميسرة فيه ، ينتهي ، أي أن الموت قدر الإنسان عندنا وفي بلاد أخرى ، لو عشت في أجمل بلد في العالم، في أغنى بلد في العالم، في أرقى بلد في العالم ، لا بد أن يأتي الموت ، وينهي هذه الحياة ، لذلك ليس من كرم الله أن يعطي عطاء مؤقتاً ، هذا العطاء المؤقت في الدنيا يتناقض مع كرم الله ، لا يليق بالله أن يعطيك الحياة الدنيا فقط ، إنها أحقر من أن تكون عطاءً لله ، لا يليق بكرم الله أن يعطيك الدنيا ، وأن تأتي يوم القيامة صفر اليدين ، لذلك عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي ، ابن ماجه]

إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ، ومن لا يحب ، ولكنه لا يعطي الآخرة إلا لمن يحب ، إن الله يعطي القوة ، والجمال ، والمال ، والذكاء للكثيرين من خلقه ، مع أنه يوجد كفاراً أقوياء جداً ، وكما يبدو لقصير النظر بيدهم مصير العالم ، بيدهم أن يراقبوا كل شبر في كل البلاد ، وأسلحتهم تطول أي مكان في العالم ، وهم متعجرفون متغطرسون ، ومع ذلك لا خلاق لهم عند الله .

4 ـ لابد من تهيئة أسباب دخول الجنة :

العِبرة أيها الإخوة أن تكون في رحمة الله ، هذه رحمة الله هي الجنة ، لكن كما قال علماء العقيدة : الجنة محض فضل ، سألني أحدهم سؤالاً على الهاتف قال لي : ما فهمت هذه : إلا أن يتغمدني الله برحمة منه ؟ فقلت له : لو أن أباً وعد ابنه إذا أخذ الشهادة الثانوية بتفوق أن يعطيه سيارة من وكالتها حديثة جداً ، فهذا الشاب تفوق في الدراسة ، ونجح كما يتمنى الأب ، وأمسك الجلاء ، وذهب مباشرة إلى بائع السيارات ، وقال له : هذا الجلاء ، أعطني هذه السيارة ، هل يعطيه إياها ؟ ورقة الجلاء ليست ثمن السيارة ، لكنها سبب اقتناء سيارة من جيب الوالد ، الجلاء سبب اقتناء السيارة إذا دفع الأب ثمنها ، فكما أنك تشتري بيتاً بخمسين مليونًا ، مفتاحه ثمنه عشرة ليرات ، فهل يعد المفتاح هو الثمن ، المفتاح سبب تدخل به هذا البيت الجديد ، هو هبة من الله ، ولم تدفع ثمنه ،

وكذلك الجنة ، أنت لم تدفع ثمنها ، ولكنك دفعت ثمن دخولها ، سبب دخولها الإيمان بالله ، والاستقامة على أمره ، والعمل الصالح، وذكره، هذا سبب دخولها ، أما هي فمنحة إلهية ، محض فضل من الله عز وجل ، الجنة محض فضل والنار محض عدل من أجمل ما قيل في هذا المقام : ادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم .

مراتب الجنة بحسب أعمالكم ، أما دخول الجنة فبرحمة الله ، وفضل منه ، ثم يقول الله عز وجل :

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 108)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِين

1 ـ الخطأ من العبد ، ولا يظلم ربُّك أحدا :

أنت قد تسأل : هؤلاء الذين دخلوا النار ، وذاقوا حرها ، وتلظوا بلظاها ، لماذا كانوا هكذا ؟ الخطأ منهم ، والله خلقهم ليسعدهم ، ولم يخلقهم لهذا العذاب .

أنت أحياناً تدخل إلى مدرسة رائعة جداً ، بناء فخم ، مُدرِّسون أكفاء ، إدارة ممتازة ، مناهج رائعة ، قيم ، أساليب تربوية ، وأحياناً يصدر قرار بفصل أحد الطلاب ، وأحياناً يُسلَّم إلى جهات كي يؤَدَّب ، فهل تقول : إنّ إنشاء هذه المدرسة من أجل تعذيب الطلاب ؟ معاذ الله، لكن إن كان هناك أحد الطلاب منحرفاً ، سارقًا مثلاً ، منحرفًا أخلاقياً فهذا يُعاقب ، أما في الأصل أن الإدارة لم تشأ فعل هذا مع طلابها ، أرادت أن يكونوا علماء وحكماء ، أن يكونوا قادة للأمة ، أما حينما ينحرف الإنسان يدفع ثمن انحرافه ، فالله عز وجل يقول : هؤلاء الذين اسودَّت وجوههم ، والذين كفروا مع موجبات الإيمان هؤلاء ما أراد الله لهم ذلك، قال تعالى :

(وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 108)

2 ـ الله غني عن تعذيب الناس :

أراد لهم أن يؤمنوا ، أن يسعدوا ، لا يوجد إنسان إلا مطلوب لله عز وجل ، هذا الفهم السقيم الجبرية أنّ الله عز وجل خلق للجنة أناساً ، وخلق للنار أناساً ، فهذه عقيدة فاسدة ، هذه العقيدة تشل الإنسان وينتهي ، لا الله خلق كل العباد للجنة ، قال تعالى :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)

(سورة هود : الآية 119)

ولذلك خلقهم ، خلقهم ليرحمهم فقط ، قال تعالى :

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 108)

ثم يقول الله عز وجل :

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

(سورة آل عمران : الآية 109)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

1 ـ الكون ملكٌ لله خَلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً :

(لله) هذه لام المُلك ، ما في السماوات وما في الأرض تعبير قرآني عن الكون ، الكون ما سوى الله ، هو مُلك لله ؛ خلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً ، أنت قد تملك موظفاً ، لكنك لم تخلقه ، أجريتَ مسابقة ، فتقدم لها ، ونجح فيها ، فأصبح موظفاً عندك ، أنت لا تملكه خلقاً ، بل تملكه استخداماً ، ثم إنك لك عليه صلاحيات محددة ، عليك أن يأتي في الساعة الثامنة ، وينجز ما يُطلب منه ، أما أن تكون مسيطراً على كل أجهزة جسمه ، أو على بيته ، وحياته الخاصة ، وأولاده فهذا مستحيل ، فأنت علاقتك معه محدودة جداً بهذا الدوام ، وهذا العمل ، لو أنه رفض أن يبقى عندك فله الحرية ، مصيره ليس بيدك ، وإنما بيده هو ، أضف لكم للإيضاح ، لكن ما معنى (لله) ؟ أي أنك أنت ملك لله خلقاً ، هو الذي خلقك ، وهو الذي يُسيِّرك، وإليه المصير قال تعالى :

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

2 ـ افعل ما بدا لك فإنك ملاقٍ ربَّك :

اضطر إنسان إلى اقتراض مبلغ من المال ، فلم يجبه إلى ذلك أحد ، إلا أنّ رجلاً قال له : أريد رهناً ، فقال له : عندي مزرعة أسجلها باسمك مؤقتاً ، فإذا نقدتك المبلغ رددتها إلي ، فقال له : موافق ، بعد أن أصبحت هذه المزرعة بيد المُقرِض ، والمقترض بعد حين توافر له المبلغ ، فجاء ، وقال له : رُدّ لي المزرعة ، وهذا مبلغك ، فقال له : لا ، كل واحد معه حقه ، المزرعة غالية جداً ، أضعافاً مضاعفة عن القرض ، فمن شدة الألم أصابته أزمة قلبية كادت تودي بحياته ، قبل أن يموت كتب وصية ، كلّف ابنه ـ أذكر القصة جيداً بيته في المهاجرين ، وخصمه في أحد أحياء دمشق الجنوبية ـ فقال له : سِر بالجنازة أمام دكان هذا الذي اغتصب مني مزرعتي ، وأوقف

الجنازة أمامه ، واخرج من الجنازة ، وقدِّم له هذه الرسالة ، والرسالة كتبها بخط يده ، وقال فيها : أنا ذاهب إلى دار الحق ، سأحاكمك هناك ، وإن كنت بطلاً فلا تلحق بي ، افعل ما بدا لك .

ظلمت زوجتك ، ضحكت على الناس ، غششتهم في بضاعتهم ، حققت ملايين من بضاعة فاسدة ، فعلت شيئاً لا يرضي الله عز وجل ، فافعل ما بدا لك ، قال تعالى :

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

هناك الحساب ، فكل إنسان لا يُدخل الآخرة في حساباته اليومية أحمق ، كل إنسان لا يُدخِل الآخرة ، أنّ الله سيسألك : لِمَ فعلت ؟ لِمَ أعطيت ؟ لِمَ منعت ؟ لِمَ وصلت ؟ لِمَ قطعت ؟ لِمَ سالمت ؟ لِمَ عاديت ؟ لِمَ بششت ؟ لِمَ قطبت ؟ قال تعالى :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

وقال تعالى :

هناك آيات كثيرة جداً :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر : الآية 92 - 93)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله إليه ، وهذه كلمة أقولها دائماً ، أُحمِّلها ما لا أستطيع من الشعور أن الله وحده هو المتصرف ، ليس إلا الله ، لا تنظر إلى قوي هو بيد الله، لا تنظر إلى غني هو بيد الله ، انظر إلى أنّ الله مالك الملوك ، وملك الملوك ، وقد ورد في بعض الآثار القدسية : " أنا ملك الملوك ومالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فإذا العباد أطاعوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم " .

ثم يقول الله عز وجل :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

أمة النبي خير أمّةٍ : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

أي أنتم أيها العرب بهذه الرسالة التي نزلت فيكم ، بهذا النبي الذي هو سيد الأنبياء والرسل ، الذي بُعث فيكم أصبحتم خير أمة أخرجت للناس ، أي جعلكم الله وسطاء بينه وبين خلقه قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)

(سورة البقرة : الآية 143)

أي وسطاء بين الله وبين خلقه ، أي أنّ الله عز وجل حمَّل هذه الأمة رسالة عظيمة ، حمَّلها رسالة الإسلام لتنقلها إلى الأنام ، هناك تقصير أحياناً ، فهذه الأمة التي خصَّها الله بهذه الرسالة ، وبهذا

النبي الكريم هي عنده خير أمة أخرجت للناس على الإطلاق ، لكنّ هذه الخيرية لها علة ، وعلتها قوله تعالى:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

علة خيرية هذه الأمة :

1 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفريضة السادسة :

ولعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة ، وأية أمة لا تأمر بالمعروف ولا تنه عن المنكر أمة هالكة ، والدليل أن الله أهلك بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ونحن - واللهِ - تلبَّسنا بهذه الصفة ، مجاملات ، مديح ، لا أحد يأمر بالمعروف، ولا أحد ينهَى عن المنكر ، لا يتأثر ، لو أن إنسانًا رأى ابنة أخيه بثياب فاضحة ، بالعكس يستقبلها ، ويبُش لها ، ويرحب بها ، ولا يعطيها أية ملاحظة على ثيابها ، لو رأى ابن أخيه الآخر لا يصلي ، فإنه يسأله عن دراسته فقط ، وعن تحصيله ، وعن علمه ، وعن وظيفته ، ودخله ، لو أن إنسانًا تزوج فتاة يُسأل عن بيته ، وعن دخله فقط ، لا عن دينه ، فحينما لا نتناهى عن منكر فعلناه نستحق الهلاك ، قال تعالى :

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة : الآية 79)

الآن لو تناهينا عن منكر بلا إخلاص ماذا نفعل ؟ ننهى عن المنكر إذا وقع به الفقير أو الضعيف ، ونسكت عن منكر وقع به الغني أو القوي ، وهذه وصمة عار بحق الأمة قال الرسول الكريم :

((... إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، أحمد ، الدارمي]

فيجب أن نأمر بالمعروف ، وأن ننهى عن المنكر ، والمعروف ما عرفته الفطرة السليمة ، والمنكر ما أنكرته الفطرة السليمة ، أي ائتِ بمئة إنسان لا على التعيين من الطريق ، أسمعهم قصة واسألهم من الظالم ، يقولون لك : فلان هو الظالم ، بالفطرة ، عند الناس فطرة صحيحة جداً ، هذه الفطرة تدعو إلى معرفة الخطأ ، لذلك :

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

2 ـ الإيمان بالله :

لماذا قدَّم الله الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر على الإيمان بالله

لماذا قدَّم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله ؟ قال لأن الإيمان بالله شيء داخلي، ولا يُرَ ، أنت ماذا ترى بعينك ؟ ترى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فالله عز وجل قدَّم الظاهر ، وأخَّر الباطن ، أما إذا لم نأمر بالمعروف ، ولم ننهَ من المنكر فنحن عندئذٍ لسنا خير الأمم إطلاقاً ، ليس لنا ولا أية ميزة ، ولا أدنى درجة ، ونستأنس بقوله تعالى :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة : الآية 18)

إذاً : العلماء اضطروا إلى أن يقسموا الأمة إلى قسمين ؛ أمة الاستجابة ، وهي خير أمة أُرسلت للناس، وأمة التبليغ ، وهي أمة كأي أمة من الأمم ، لا وزن لها عند الله إطلاقاً ، لأنه هان أمر الله عليها فهانت على الله ، ترتكب المعاصي والآثام جهراً ، وعمَّت الناس الموبقات ، الفساد في كل بيت ، نادٍ ليلي دون أن يشعر أصحابه ، عن طريق هذه الفضائيات ، الفساد عمَّ، المال أصبح مشبوهاً ، العلاقات علاقات استغلال ليست علاقات رحمة بين الناس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ ، فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا ، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

[الترمذي]

قال تعالى :

(وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ

اقرأ هذه الآية بتروٍّ ، أي يا عبدي لو آمنت بي لكان خيراً لك ، لو عرفتني لكان خيراً لك ، لو أطعتني لكان خيراً لك ، لو بذلت من مالك في سبيلي لكان خيراً لك ، لو خفت هذا اليوم يوم القيامة لكان خيراً لك قال تعالى :

(وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 110)

وقال :

(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى)

(سورة آل عمران : الآية 111)

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى

1 ـ الكفار يؤذون المسلمين باللسان :

لسان طويل ، يتكلمون ، يطعنون ، يسبون ، يشتمون ، لكنّ فِعلهم بيد الله ، من أجل أن نطمئن ، قال تعالى :

(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى)

(سورة آل عمران : الآية 111)

هؤلاء اليهود وقال تعالى :

(وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

2 ـ الكفار لا يصمدون في قتال المسلمين من شدة الخوف :

أي بعض هؤلاء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل هز كيان العدو أوقفوا السياحة ، أوقفوا الهجرة ، أصبحت هناك هجرة معاكسة ، عشرات رحلات الطيران ألغيت ، عشرات الرحل من أمريكا إلى بلاد اليهود ألغيت ، خافوا ، شباب قلة ضحوا بأنفسهم في سبيل هز كيان عدوهم ، فبلغوا الأثر الأقصى ، يقول كبير مجرميهم : نحن لم نضبط أنفسنا لكننا نصون أرواح شعبنا ، شعر أنّ الأمر يتفاقم ، قال تعالى :

(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

تصريح إلهي ، وإن يقاتلوكم ، وأنتم مع الله بإقبال وإخلاص يولوكم الأدبار ، قال تعالى :

(وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا)

(سورة آل عمران : الآية 111)

الكفار أذلة جبناء :

أينما كانوا ، إذا قال أحد الناس : ولماذا أذلاء ، بل أقوياء جداً ، قال تعالى :

(إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ

أي إذا عادوا إلى الله ترفع عنهم هذه الذلة ، لأنهم بشر ، وحبل من الناس ، أي إذا دخلوا في حماية جهة قوية ، أما هم وحدهم من دون جهة قوية تمدهم ، وترعاهم ، وتقلق لأمنهم ، ويأتون من أقاصي الدنيا كي يطمئنوا على سلامتهم ، لولا أن هناك جهة قوية تدعمهم ، وتدافع عنهم وتمدهم لـ :

(ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

إلا إذا تابوا إلى الله ، الله عندئذ ينصرهم ، قال تعالى :

(وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَةُ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَةُ

أي ضربت عليهم المسكنة إمعاناً في إذلالهم الله عز وجل ابتلاهم بالفقر ، ويضرب العوام مثلاً لهذا الذي ضيَّع آخرته ودنياه معاً ، قال تعالى :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ

1 ـ إن البُغاث بأرضنا يستنسر :

هناك مثل عربي يقول : إن البُغاث ـ وهو أضعف أنواع الطير ـ بأرضنا يستنسر ـ أي أصبح نسراً ، معنى ذلك نحن أضعف منهم ، إذا كان الضعيف الذي ضرب الله عليه الذلة ، والمسكنة ، وباء بغضب من الله أقوى من بعض المسلمين ، معنى ذلك أن هؤلاء المسلمين قصروا مع ربهم تقصيراً شديداً ، حتى سلط عليهم من لا يخافه ولا يرحمه ، قال تعالى :

(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ)

(سورة آل عمران : الآية 111)

2 ـ بِغَيْرِ حَقٍّ : قيد وصفي احترازي :

يقتلون أنبياءهم ، وما من نبي يُقتَل بحق ، مستحيل ، شأن قتل النبي أنه بغير الحق ، لا يوجد حالة اسمها قتل نبي بحق مستحيل هذا ، هذا اسمه احتراز وصفي ، صيغة احترازية وصفية ، قيد وصفي لا قيد احترازي ، هذا اسمه في البلاغة قيد وصفي ، لا قيد احترازي ، إذا قرأت قوله تعالى :

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)

(سورة النور : الآية 33)

لا يمكن أن نفهم من هذه الآية أن الفتاة إن لم ترد تحصناً لك أن ترغمها على الزنى ، لكن من شأن الفتاة أنها تريد تحصناً ، فسماه علماء البلاغة قيدًا وصفيًّا ، لا قيداً احترازياً ، قال تعالى :

(وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 112)

3 ـ تركُ الأمور تدريجي مآله إلى الكفر :

قال بعض العلماء : من ترك الآداب ابتلي بترك السنن ، ومن ترك السنن ابتلي بترك الفرائض ، ومن ترك الفرائض ابتلي بسوء العقيدة ، ومن ابتلي بسوء العقيدة أوصلته إلى الكفر ، هناك معنى أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فعَنْ سَلْمَانَ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا سَلْمَانُ ، لا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ أَبْغَضُكَ ، وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ ؟ قَالَ : تَبْغَضُ الْعَرَبَ فَتَبْغَضُنِي))

[الترمذي]

أي أن البغض ينتقل .

فتَرَكَ الآداب ، ترك السنة ، ترك الفرض ، ساءت عقيدته ، انتقل للكفر ، قال تعالى :

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 113)

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ

أيها الإخوة ، من ترك الآداب ابتلي بترك السنن ، ومن ترك السنن ابتلي بترك الفرائض ، ومن ترك الفرائض ابتلي بعقيدة فاسدة ، هذه العقيدة الفاسدة توصله إلى الكفر ، قال تعالى :

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 113)

1 ـ لابد من الموضوعية في الأحكام :

فالله عز وجل يعلمنا أن تكون أحكامنا موضوعية ، قال تعالى :

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ)

(سورة آل عمران : الآية 113)

أي قائمة بتطبيق منهج الله ، أو قائمة في عباداتها ، أو قائمة بالعدل ، ثلاثة معانٍ ، أمة قائمة بالعبادات أو قائمة بالالتزام ، أو قائمة بتطبيق العدل ، قال تعالى :

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 113)

2 ـ لا يتلى القرآن في الركوع والسجود :

أي ليس هناك تلاوة قرآن في الركوع والسجود ، نهى عنها النبي ، الركوع هو التعظيم ، والسجود هو الدعاء ، لكن إن سمينا الصلاة سجوداً أي يقرؤون القرآن في الصلاة .

قال تعالى :

(يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 114)

فريق منهم هكذا ، قال تعالى :

(وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 115)

الأسئلة :

أيها الإخوة ، لماذا يقول سيدنا عمر : **<< تعلموا العربية فإنها من الدين >> ؟**

س : كيف يقول الله عز وجل مخاطباً أهل الكتاب :

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)

(سورة الأنبياء : الآية 98)

ج : فإذا عبدوا نبياً من أنبيائهم فهل معنى ذلك أنّ هذا النبي مصيره إلى الله ؟ لو عرف أنّ (ما) تعني غير العاقل ، (من) تعني العاقل ، لما سأل هذا السؤال ؟ لو قال : إنكم ومن تعبدون من دون الله ، لكان السؤال وجيهاً ، لكنّ الله تعالى قال :

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ)

(سورة الأنبياء : الآية 98)

أي الحجر ، إن عبدتم حجرًا فهذا يعني أنكم أنتم والحجر في النار ، أحدهم أحب أن يتفاصح فقال :

ولست أبالي حين أقتَلُ مسـلماً   على أيّ جنب كان في الله مصرعي

مصيره إلى جهنم ، أما الصحابي فقد قال :

ولست أبالي حين أقتَلُ مسلــماً   على أي جنب كان في الله مصرعي

شتان بين أن أقول : حين أقتَل مسلماً إلى جهنم ، وبئس المصير ، وبين أن يقول حين أقتل مسلماً بسبب إسلامي فأنا شهيد .

س : نحن نعلم أن العبد إذا صلى ، وصام ، وبذل كل ما يستطيع من أجل أن يستقيم ، وحرَّر دخله ، وزوجته ، وأولاده لا يخرجون عن نطاق الشرع ، فما بال بعض المشايخ يتوعدون الناس عند نزول القبر بعذاب شديد ، وأشياء ليس لنا بها طاقة ؟

ج : الحقيقة أن الجواب سهل جداً ، وهو وفي قوله تعالى :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : الآية 164)

لو كنت في أفسق مجتمع على الإطلاق ، وكنت مستقيماً أنت ، وأهلك لك الجنة ، وكرم الله أعظم من أن تؤخذ بجريرة العُصاة ، إلا إذا قصَّرت في نشر الحق ، مثلاً احترق بيت في آخر الحي ، فالبيت الأول سوف ينجو إذا خرج لإطفاء ذلك الحريق ، أما إذا قال : أنا لا علاقة لي ، بيتي لا يوجد فيه حريق فعندها الحريق سيصل إلى بيتك ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال : الآية 25)

حينما تستقيم على أمر الله أنت وأهلك ، وتحرر دخلك والمجتمع غارق في الربا ، وفي الفسق والفجور، لا علاقة لك به ، فعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

[مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد]

قال تعالى :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : الآية 164)

والحقيقة أنّ الرحمة خاصة والبلاء خاص ، لا يوجد شيء عام ، إلا أن يكون هناك تقصير ، عندما أراد الله إهلاك قرية قالت الملائكة : إن فيها رجلاً صالحاً ، قال : به فابدؤوا ، قالوا : ولِمَ يا رب ؟ قال: لأنّ وجهه لا يتمعَر إذا رأى منكراً .

هذا موضوع آخر ، أما إذا أنت كنت مستقيماً ، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلك معاملة خاصة ، قال تعالى :

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ)

(سورة الزمر : الآية 61)

وقال :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا)

(فصلت : الآية 30)

فكلام واضح .

س : الحسن البصري يروي هذا الحديث : **" ليس من ولد آدم أحد إلا وقد خُلِق معه الحسد "** .

ج : هذا كلام صحيح ، الحسد صفة حيادية ، أنت تحب أن تكون مثل المتفوقين ، هذه الصفة لصالحك، رأيت إنساناً ملتزماً صالحاً حافظاً لكتاب الله يعمل في الدعوة ، عمله طيب ودخله حلال ألا تغار منه ؟ هذا حسد ، وفي الحديث عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لا حَسَدَ إِلا عَلَى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ ، وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد]

الحسد صفة حيادية لصالحك أن تتمنى ما عند الآخرين ، فإذا تمنيت ما في دنياهم فهذا الحسد المذموم، وإذا تمنيت أعمالهم الصالحة أن تكون لك مثلها ، فهذا الحسد الراقي ، فكل إنسان عنده رغبة أن يكون كالآخرين ، والذي لا يغار هو عند الناس كالحمار ، يجب أن تغار، هذه الغيرة حسد ، ولكن حسد في الآخرة ، سماه العلماء غبطة .

س : هل يجوز تعليق بعض الآيات في غرفة النوم ، فإن كان لا يجوز هل يمكن أن نغطيها في أثناء النوم ؟

ج : ولِمَ هذا التعب أن تغطيها ، وأحياناً تنسى أن تغطيها فتقوم لتغطيتها ، أزلها من الغرفة وأرح نفسك.

س : يقول أخ أنه ذهب إلى بلد خليجي ، وأخذ من شريكه ما لا يحق له أن يأخذه ، وأخذ من بضاعته ، وأتى إلى الشام ، البضاعة التي أخذها حلالاً بيعت ، والتي أخذها حراما لم تُبَع .

ج : نحن نقول : لا بد أن تُرجع الحق إلى أصحابه ، والأمر في الدنيا سهل أما في الآخرة فهو ليس كذلك ، لو أنّ الله جمعك مع رسول الله ، وقتلت في ساحة معركة مجاهداً في سبيل الله ، وعليك دين ، وليس مالاً مسروقاً فإنه يغفر الله للشهيد كل شيء ما عدا الدَّين ، فكيف إذا كان المال مسروقاً ؟ فعلى الإنسان أن يغتنم الفرصة الآن .

هذا البدوي الذي عند أرض شمال جدَّة ، فلما اقتربت جدَّة منه باعها ، وأخذها مكتب عقاري خبيث جداً ، اشتراها بربع ثمنها ، وأنشأ عليها عمارة طويلة باثني عشر طابقاً ، الشريك الأول وقع من أعلاها ، وخرَّ صريعاً ، والثاني دُهِس بسيارة ، انتبه الثالث ، وبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر حتى عثر عليه ، ودفع له ثلاثة أمثال حصته ، فقال له البدوي : أنت أنقذت نفسك ، فأنا أخاطب هذا الأخ وأقول له : وأنت أيضاً أنقذ نفسك ، ما دام القلب ينبض فهناك متسع من الوقت لتنقذ نفسك ما دام هذا المال حراماً .

س : حلف إنسان يميناً منعقداً ثم حنث به ناسياً فهل تجب عليه الكفارة ؟

ج : أجل ، هي واجبة عليه .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(30-60): تفسير الآيات 116 – 120
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-06-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة آل عمران ، و مع الآية السادسة عشرة بعد المئة ، و هي قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 116)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا

وفي آية أخرى يقول الله عز وجل :

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف : الآية 46)

1 ـ ذاك يومٌ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون :

أي أن تكون غنياً ، و أن يكون بين يديك أولاد أنعم الله بهم عليك ، هذه زينة الحياة الدنيا ، فهذا الذي كفر بالله ، و أدار ظهره لمنهج الله ، و لم يعبأ بوعيد الله ، و لم يبتغ رضوان الله ، و لم يعمل للجنة ، بل جعل الدنيا أكبر همه ، ومبلغ علمه ، فجمع الأموال الطائلة ، وأنجب ذرية تفوقت في الحياة الدنيا ، فإذا أراد الله أن يؤدبه فهل يمكن أن يمنعه المال الوفير الذي بين يديه من تأديب الله له ؟

2 ـ ما كلُّ شيء يُحلّ بالمال والولد :

ثمة شخص - وأرجو أن تكون هذه زلته الأخيرة - قال : الدراهم مراهم ، قال : كل شيء يحل بالمال ، فسَاقَ الله له مصيبة تنهد لها الجبال ، و المال لا يفعل فيها شيئاً ، قال لي : أدبني تأديباً كبيراً ، ما كل شيء يحل بالمال ، هناك أمراض وبيلة لو أنفقت كل ما تملك ليس لها شفاء ، هناك مصائب مخيفة لو كل ما تملك في الدنيا دفعته لم تحل المشكلة ، فهذا الذي أعرض عن الله عز وجل ، وأدار ظهره للدين لو أنه يملك الملايين المملينة من الدولارات ، وأراد الله تأديبه ، و ساق

الله له مصيبة ، والله حكيم حينما يسوق المصائب ، سميت مصائب لأنها تصيب الهدف ، الغني لا يتأثر بفقد مبلغ من المال ، لكن تأتيه مصيبة في صحته ، والقوي لا يتأثر بفقد بعض المال ، فتأتيه مصيبة من مركز قوته ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، أي مع الله لا يوجد إنسان ذكي أبداً ، الله عز وجل حينما يسوق مصيبة لا يمكن إلا أن تقع :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ)

(سورة الرعد : الآية 11)

مهما كنت غنياً ، أو مهما كنت قوياً ، أو مهما كانت لك ذرية طيبة ، أو ذرية متفوقة ، ماذا يفعل أولاد الغني حينما يأتيه المرض العضال ؟ لعل بعضهم يتمنى وفاته ، ولعل بعضهم إذا قال الطبيب : قضية عارضة يتألم ، فالعبرة أن الإنسان إذا كفر بالله عز وجل ، وأدار ظهره لمنهج الله لا ينفعه ماله ، حينها يتولى الله تأديبه ، ولا ينفعه أولاده النجباء المتفوقون إذا أراد الله معالجته ، بل إن هذا الذي ربيته ، وأنفقت مالك من أجله قد يتنكر لك ، وقد دخلت مرة إلى مكتب رجل يحتل منصباً مرموقاً ، ومعي والده، فما كان من صاحب هذا المنصب الرفيع إلا أن قال لوالده : اجلس هنا أبا فلان ، دون أن يعرف الناس بأنه أبوه ، وكأنه يستحي به ، فلما خرجت من عنده ، قلت له : ابنك على حساب من درس في أمريكا ؟ قال : و الله على حسابي يا بني ، على حسابي الشخصي ، فدرسه ، ونال أعلى شهادة ، و احتل أعلى منصب ، وها هو ذا يستحي بأبيه ، فلا ينفعك مالك إذا أراد الله تأديبك ، ولا تنفعك ذريتك القوية إذا أراد الله معالجتك ، و آية بليغة جداً .

إن الإنسان حينما يولد كل من حوله يضحك ، و هذا المولود يبكي وحده ، أما إذا جاء ملك الموت كل من حول الإنسان يبكي ، بطولة الإنسان أن يضحك وحده في هذه اللحظة ، أن تنطبق عليه الآية الكريمة :

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26)بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ)

(سورة يس : الآية 26 - 27)

وا كربتاه يا أبت ، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، غداً نلقى الأحبة محمداً و صحبه .

فهؤلاء الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً .

والله كنت عند طبيب قلب ، فجاءه اتصال هاتفي ، فسمعت فحوى المكالمة ، الجهاز قديم ، وصوته عال جداً ، قال له : أيّ مكان في العالم ، وأيّ مبلغ بلغ ما بلغ ندفعه ، قال له : والله لا يوجد أمل ، السرطان من الدرجة الخامسة .

حينما يـأتي المصاب الجلل لا ينفع المال ، ولا ينفع الولد ، وهذا الذي عصى الله من أجل أولاده لن ينفعه أولاده عندما تأتيه المصيبة ، هذا الذي عصى الله من أجل تجميع الأموال الطائلة لن تنفعه هذه الأموال حينما تأتي المصيبة.

حدثني طالب له خال صاحب دار سينما ، القصة في الخمسينات أصابه مرض عضال ، وهو على فراش الموت بكى ، فقال له : مالك تبكي ؟ ـ ابن أخيه ، وكان طالباً من طلابي ـ قال له : ـ القصة أعتقد أنها في الخمسينات ـ خمسة ملايين ، خمسة ملايين بالخمسينات أي خمسمائة مليون ، من أجل أن أعيش حياة ناعمة في خريف عمري ، ها أنا ذا أموت ، ولم أنتفع بها ، مساكين هم الأغنياء ، جمعوا أموالاً لا تأكلها النيران ، فأنهاهم مرض عضال ، ولم ينتفعوا بأموالهم .

أقام شخص في البلد الحرام خمساً وثلاثين عاماً ما صلى فرض صلاة ، ولا حج ، ولا اعتمر ، ذهب إلى بلد غربي ليستجم فوافته المنية في الفندق ، ترك أربعة آلاف مليون :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

رجل من أكبر أغنياء بعض البلدان وافته المنية في أيام مطيرة ، و القبر اُشتري ، فتح القبر فإذا مجرى المياه المالحة قد دخل إليه ، المياه سوداء ، وله ابن وحيد مدلّل ، فسئل : ماذا نفعل ، القبر هكذا ؟ قال : ادفنوه ، وانتهوا ، فوضعوه في قبر مع المياه المالحة السوداء .

3 ـ الابن الصالح ينفع والديه :

الابن لا يغنِي عنك من الله شيئاً ، اعتنِ به ، أما إذا كنت مؤمناً فابنك أكبر ثروة لك ، لأنه امتداد لك ، لأنه استمرار لك ، لأنه خير كسبك .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ : إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، أحمد ، الدارمي]

4 ـ إياك أن يكون مالُك وبالاً عليك :

إذا أعرض الإنسان عن الله ، وأدار ظهره لمنهج الله ، لو معه ملايين مملينة لم تنفعه ، إنسان في بأمريكا صاحب ، أكبر مجموعة مطاعم تطعم السمك ، عنده يخت في البحر ، ذهب هو وعشيقته في رحلة بحرية ، واختفت أخباره نهائياً ، لا خبر عنه ، ولا عن عشيقته ، ولا عن مركبته ، فتندر الناس في تلك البلدة ، وقالوا : أطعم الناس السمك أربعين عاماً ، وها هو ذا يأكله السمك ، مهما كنت غنياً ، وأكبر غني يهودي كان في بريطانيا ثروته الطائلة في غرفة ، صندوقه الحديدي في غرفة ، دخل إليها مرة ليتفقد أمواله ، فأغلق الباب خطأ ، والغرفة مصفحة ومسلحة ، بقي يصرخ ، وينادي حتى وافته المنية ، فجرح أصبعه ، وكتب على الحائط : أغنى أغنياء العالم يموت جوعاً و عطشاً .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

جمعت المال مما حلّ ، وحرم فأنفقته في حله ، و في غير حله ، فالهناء لكم ، و التبعة علي ، روح الميت ترفرف فوق النعش ، وتقول : يا أهلي ، يا ولدي ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حلّ ، وحرم فأنفقته في حله ، وفي غير حله ، فالهناء لكم ، والتبعة علي ، وأندم الناس يوم القيامة غني دخل ورثته بماله الجنة ، و دخل هو بماله النار .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

عندما يأتي ملك الموت لا تنفعك الملايين المملينة ، ولا الحسابات الكبيرة في البنوك ، و لا الأخضر ، ولا الأصفر ، ولا الأحمر ، لا ينفعك إلا عملك الصالح ، إن لك قريناً تدفن معه ، وأنت ميت ، ويدفن معك ، وهو حي ، فإن كان كريماً أكرمك ، و إن كان لئيماً أسلمك ، ألا وهو عملك .

5 ـ الغنى الحقيقي والفقر الحقيقي :

الغنى والفقر بعد العرض على الله ، والغنى غنى العمل الصالح ، والفقر فقر العمل الصالح ، حينما سقى لهما سيدنا موسى قال :

(فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(سورة القصص : الآية 24)

الغني الحقيقي الذي أجرى الله على يديه الخير ، و الفقير الحقيقي الذي حرمه الله من عمل صالح ، و الإنسان حينما يكفر لا يتحرك حركة إلا بالمال ، ولا ينطق بكلمة إلا بأجر ، و لا يدل دلالة إلا بنسبة ، ولا يسهم بعقد صفقة إلا بعمولة :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

6 ـ نقمة الولد فاقد التربية ، ونقمة المال الحرام :

أي لن تمنعهم أموالهم من قضاء الله ، من تأديب الله ، من مصيبة أرادها الله ، و لا أولادهم ، وكلكم يرى حينما يأتي تأديب الله ماذا يفعل الابن ؟ يبكي فقط ، هذا إذا كان الابن محبًا مخلصًا ، وإذا لم يربَ التربية الإسلامية يفرح لموت أبيه ، تسلم من بعده مركبته ، وأمواله ، ومكانته ، ومتجره ، قال له : إلى أين أنت ذاهب ـ سأرويها باللغة العامية ـ قال له : سأذهب لأسكر على روح أبي ، ترك له مالاً عريضاً، ولم يربه التربية العالية ، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية :

((أن يا عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال : يا ربي أنفقته على كل محتاج و مسكين لثقتي بأنك خير حافظاً و أنت أرحم الراحمين ، فقال الله : أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

والله ألوف مؤلفة من المؤمنين ماتوا ، و لم يدعوا شيئاً لأولادهم ، فتولاهم الله بالرعاية والعناية ، فكان أولادهم أعلاماً في المجتمع ، و أغنياء ومحترمين ، وقال لعبد آخر :

((عبدي ، أعطيتك مالاً ، فماذا صنعت فيه ؟ قال : يا رب ، لم أنفقه مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، قال : ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم))

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ و إذا كان الله عليك فمن معك ؟ إذا كان الله معك خدمك عدوك ، و إذا كان الله عليك تطاول عليك ابنك .

أقسم لي شخص بالله قال لي : إنه إذا دهس ابنه ليقيمن مولداً نبوياً فرحاً بهذا الحدث من شدة عقوقه .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

هذا الذي جمعت المال حراماً ، هذا الذي جمعت المال كذباً و نفاقاً و دجلاً ، هذا الذي جمعت المال و غششت المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ، وكذبت على المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ، و كنت مجرماً بحق المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ، وابتززت أموال المسلمين ، هذا الذي من أجله جمعت المال ، وخنت المسلمين ، لن ينفعك ، ولن يمنع عنك قضاء الله و قدره ، وهذه المعاصي التي ارتكبت من أجل جمع المال فهذا المال لن ينفعك .

هناك إنسان جمع في الستينات حوالي ثمانمائة مليون من دور القمار ، كان يدير شبكة دور قمار ، وهو على فراش الموت أوتي له برجل ممن يعمل في الحقل الديني ، قال له : ماذا أفعل ؟ هذا الرجل هكذا قال له ، أنا لا أقيم كلام الرجل صحيحا كان أو خطأ ، قال له : والله لو أنفقت الثمانمائة مليون الآن لن تنجو من عذاب الله ، ثمانمائة مليون في الستينات تركها ، لن تنجو من عذاب الله ، هذا مال جمع من القمار :

تشاد له المنازل شاهقات و في تشييد ساحتها الدمار

نصيب النازلين بها سهاد و إفلاس فيأس فانتــحار

***

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

7 ـ الأغنياء أربع فرق يوم القيامة :

يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة ، فريق جمع المال من حرام ، وأنفقه في حرام ، لا يوجد طول في الحساب ، ثانية حساب ، خذوه إلى النار ، وفريق جمع المال من حلال ، تجارة مشروعة ، وأنفقه على الموائد الخضراء ، وفي الليالي الحمراء ـ وفهمكم كفاية ـ فيقال : خذوه إلى النار ، وفريق جمع المال من حرام ، عنده دار ملهى ، وعنده راقصات ، وعنده مغنين ، وعنده عشاء مع الموسيقى ، والسيارات مكتظة حوله ، تجد أمام بعض الملاهي مئة سيارة تقف ، ماذا يوجد داخل الملهى ؟ يوجد راقصة ، ومغن ، وطعام ، وخمر ، إعلانات ، ودعاية ، فهذا جمع المال من حرام ، وتزوج ، وأنفقه في حلال ، فيقال خذوه إلى النار ، جمع المال من حرام ، وأنفقه في حرام ، خذوه إلى النار ، جمع المال من حلال وأنفقه في حرام ، خذوه إلى النار ، جمع المال من حرام ، وأنفقه في حلال ، خذوه إلى النار ، من هذا الذي سيحاسَب ؟ هذا الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال ، قال : هذا قفوه فاسألوه : هل فاتته فريضة ؟ هل قال جاره : يا رب ، لقد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقنا ؟ هل ضيَّع صلاة ، أو فريضة ، أو نسي مسكيناً ؟ فيقول عليه الصلاة والسلام : وما زال يُسأل ويُسأل ، وجد أمامه قائمة أسئلة طويلة جداً ، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

دققوا الآن في هذه الآية ، يقول الله عز وجل في الآية التي بعدها :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران : الآية 117)

8 ـ إنفاق المال في محله ولوجه الله يحتاج إلى إيمان وإخلاص :

الإنسان معه أموال طائلة ، يقول لك : المشروع الفلاني مئة ألف مليون ، عشرة ملايين ، الإنفاق يحتاج إلى إيمان ، وإلى معرفة بالله ، وإلى معرفة بالدار الآخرة حتى يكون الإنفاق عملاً صالحاً ، أما إذا لم يوجد إيمان فالإنفاق هدفه حينئذ أن يمدحك الناس ، وأن يثنوا عليك ، لذلك قد تعجب .

قد تجد غنياً في حفل خيري يتبرع بأموال طائلة ، له ابن أخ يعاني من الجوع ، له قريب حميم يعاني من الفقر ، لا يعطيه شيئًا ، هناك يوجد تصفيق ، وهنا لا يوجد رُخامة ، أنشأ هذه المحسن الكبير ، فهو يبحث عن سمعة ، عن مكانة ، عن ثناء الناس ، فهذا الذي لا يستقيم على أمر الله وينفق ماله ، إذا كان مخلصاً له عند الله أجر ، أما إذا أنفق المال رئاء الناس ، ولم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، قال تعالى :

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا)

(سورة البقرة : الآية 264)

كقوله تعالى :

(قُلْ أنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 53)

أنا لا أثبط عزائم المنفقين ، ولكن أتمنى عليهم أن يكون إيمانهم إيماناً قوياً ، وأن يكون إيمانهم بالآخرة يقينياً ، حتى يكون إنفاقهم درجات عند ربهم يوم القيامة ، قال تعالى :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ)

(سورة آل عمران : الآية 117)

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ

1 ـ معنى الصرّ :

الصر : هو البرد الشديد ، أو الصقيع ، وكلكم يعلم بأنه قد يكون هناك مزارع ، أو بساتين ، أو محاصيل يزيد قيمة بيعها عن مئة مليون في أقل من ستين ثانية يأتيها صقيع يُتلفها عن آخرها ، قال تعالى :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ)

(سورة آل عمران : الآية 117)

فيها صِرٌ ، أي فيها صقيع .

2 ـ الأهواء والمصالح تفسد العمل الصالح :

فالكفر ، والإعراض ، وحب الدنيا ، وحب الرئاسة ، والأهواء تُفسد العمل الصالح ، ولو كان صالحاً كما يفسد الخل العسل ، قال تعالى :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لو أنّ هؤلاء الكفار أنفقوا ، يقولون لك : الفلان الغني الأمريكي أنفق ثمانية ملايين لأطفال أفريقيا ، هذا جيد ، الغني الفلاني أنفق كذا مليار دولار لأبناء شرق آسيا ، وهذا أيضاً جيد ، ولكن إن لم يكن هناك إيمان حقيقي بالله ، وليس هناك التزام بمنهج الله فلا ينفعه ذلك ، قال تعالى :

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 19)

مرة ثانية ، أنا أبداً لا أُثبط المنفقين ، ولكن أوضح لكل إنسان أن يحتاج إلى إيمان ، إذا آمنت كان هذا الإنفاق درجة عالية في الجنة .

أنا والله كل إنسان ينفق في وجوه الخير أقول له : لعل الله يجعل لك من هذا الإنفاق قصوراً في الجنة ، أدعو له أن يحفظ الله له صحته ، وصحة زوجته ، وأولاده ، وبناته ، وأصهاره ، وصحة من يلوذ به ، وأن يحفظ له ماله ، ومكانته ، وسعادته ، أدعو له من أعماقي ، أي إنسان ساهم بإنفاق ، بعمل صالح ، ببر ، أنا أشجع المنفقين ، وأتمنى عليهم أن يضاعفوا إنفاقهم ، ولكن أُذكرهم أنّ الإنفاق وحده من دون إيمان بالله ، ومن دون التزام بمنهجه ربما لا يُجدي ، لقوله تعالى :

(قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

(التوبة : الآية 53)

3 ـ ينفقون باليمين ويذبحون بالشمال :

أليس هناك دول تقدم مساعدات لدول فقيرة باليد اليمنى ، وتذبحها باليد اليسرى ؟ أليس هناك بلاد تقدم مساعدة غذائية لبلد في حرب أهلية ، ومع المساعدة الأهلية نفايات ذرية تُلقى في شواطئ هذا البلد ؟ أليس هناك بلاد تقدم مساعدات لأبناء الشعوب الفقيرة ، ويُجعل أبناء الشعوب الفقيرة حقول تجارب للأدوية ؟ ففي الستينات والسبعينات كانت الفئران حقول تجارب للأدوية ، الآن بشر في الشعوب المتخلفة تُجرى عليها تجارب الأدوية ، فهذا الذي ينفق ماله كمساعدات ، ثم يرتكب جرائم في حق الشعوب ، ما قيمة هذا الإنفاق ، هذا إنفاق إبليسي أساساً ، قال تعالى :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ)

هناك بلد غربي قدَّم هدية لدول شمالي إفريقية ، هدية رائعة ، هدية لهذه الشعوب التائهة ، محطة فضائية إباحية ، قدَّم لهذه الشعوب محطة فضائية إباحية ، هذا إنفاق ، فهذا إنفاق الكفر ، أو حرب طاحنة بين شعبين ، تقدَّم المساعدات أسلحة لتزداد نار هذه الحرب .

أنا لا أنسى كلمة قالها رئيس أمريكي لرئيسة وزراء بريطانيا في مؤتمر أوروبي ، قال كلمة تُعبِّر عن حقيقة الكفار ، هدَّد رئيس أمريكا رئيسة وزراء بريطانيا بإيقاف الحرب بين شعبين مسلمين بين إيران والعراق ، معنى هذه الحرب التي دامت ثماني سنوات درَّت على الغرب مليارات ، ثمن أسلحة ، والجهة الواحدة كانت تبيع أسلحة للفريقين ، وتزداد نار الحرب ، فهناك إنفاق والعياذ بالله شرٌّ من الإمساك ، النبي الكريم نهى عن بيع السلاح في الفتنة ، فهؤلاء لو أنفقوا شكل مساعدات غذائية ، مساعدات صحية ، أحياناً محطة إباحية تُقدَّم هدية لشعوب شمال إفريقية ، قال تعالى :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 117)

4 ـ الكافر ينفق لينفع نفسه ويضرَّ غيرَه :

إنفاق المؤمن من أعظم الأعمال الصالحة ، قربة إلى الله ، قصر في الجنة ، درجات عند الله، أن تضع لقمة في فم زوجتك هي لك صدقة ، وتراها يوم القيامة كجبل أحد ، أن تُطعم جائعاً ، أن تكسو عارياً ، أن تعالج مريضاً ، أن تنفق على أسرة ، الله عز وجل في عليائه يرضى عنك ، هذا إنفاق المؤمنين ، أما إنفاق الكافرين يقدمون لك أسلحة كي تزداد الحرب ضراوة ، يقدم لك محطة إباحية ، يقدم لك أدوية لتُجرَّب ، مساعدة أدوية ، يرسلون مندوبين خفية ، ماذا حصل مع من استعمل هذا الدواء ؟ يتابعونه فإن مات فالدواء سيئ ، من دفع الثمن ؟ أبناء هذه الشعوب ، هذا إنفاق أيضاً ، فالكافر حتى لو أنفق فإنفاقه شرير ، إنفاقه تدمير ، إنفاقه إجرام :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 117)

أما المؤمن فينفق ماله الحلال ابتغاء وجه الله .

شيء آخر : أحياناً يكون هناك كساد بالدول الصناعية ، كساد كبير لا حل له إلا أن تقدم مساعدات لهذه الدول الفقيرة ، هذه المساعدات نحن نتوهمها مالاً ، لا ، تقدّم مساعدات ، إنها بضائع كاسدة عندهم ، أو أسلحة فاسدة ، أو مواد غذائية شبه تالفة ، هكذا يقدمون ، هناك مواد غذائية ليست صالحة للاستعمال البشري ، هناك حبوب مخزنة ثماني سنوات ، انتهت كل فاعليتها ، فهذه تقدم مساعدات ، فالكافر إذا أعطى أعطى ليضر لا لينفع ، أعطى ليحل مشكلته هو ، فقد تقدم المساعدات من أجل ترويج بضائعهم الكاسدة ، الدولة قدمت مساعدات ، وقلبت هذه المساعدات إلى بضائع للمعامل كاسدة ، قد تكون كاسدة لانتهاء مفعولها ، أو لسوء تصنيعها ، أو ما شاكل ذلك ، فلا تعجبوا بمساعدات تأتيكم من بلاد الكفر !! هذه ليست مساعدات :

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران : الآية 117)

الكفار طبعاً :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ)

معهم أموال طائلة .

(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ)

5 ـ خبث الكافر مريح فيها صقيع :

أي كفرهم و سوء طويتهم كمثل ريح فيها صقيع ، أتلفت هذا العمل الصالح ، إذا كان عملهم الصالح كالحرث فكفرهم ، ونياتهم الخبيثة كانت بمثابة ريح فيها صقيع أتلف هذا العمل الصالح فيما يبدو .

هناك موقف آخر ، موقف فيه عدم إنفاق ، في أستراليا قبل عدة سنوات تم إعدام عشرين مليون رأس غنم بالرصاص ، وحفرت مقابر جماعية ، ودفنت هذه الأغنام في مقابر جماعية حفاظاً على سعر اللحم فقط ، حفاظاً على سعر اللحم المرتفع ، أما هذه الشعوب التي تئن من الجوع ، هذه المجاعات التي تجدونها في إفريقيا ، وفي شرقي أسيا ، وفي بلاد كثيرة يموت الإنسان جوعاً ، وعشرون مليون رأس غنم يطلق عليه الرصاص ليموت ، ويدفن للحفاظ على أسعار اللحم المرتفع .

في بلاد بأوربا تتلف من الزبدة ومشتقات الألبان ما يساوي حجم ثلاثة أهرامات في القاهرة ، تتلف من أجل الحفاظ على أسعار مشتقات الحليب المرتفعة .

في بلاد أمريكا أكبر محصول للحمضيات يتلف للحفاظ على الأسعار ، صار الزنجي يتسلل إلى مكان الحمضيات ، ويأكل ، وفي العام القادم سمم المحصول حتى لا يستطيع أن يأكله فقير ، هكذا ، فلابد أن نكفر بالكفر ، حتى يكون الطريق إلى الله سالكاً ، وما دام الكافر عندنا كبيراً ، ومعظماً ، وإنسانياً ، ويعلم حقوق الإنسان ، وهو أول من ينتهكها ، هذا الذي يتفلسف عن حقوق الإنسان أول من ينتهك هذه الحقوق هم ، هؤلاء الذين يتحدثون عن الإرهاب هم أكبر إرهابًا في العالم ، هذه حقائق ، فلذلك إتلاف المحاصيل ، وإلقاؤها في عرض البحر ، إلقاء بواخر محملة بمئات الأطنان من القمح في عرض البحر حفاظاً على الأسعار المرتفعة ، هذا هو الكافر قلب كالصخر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

1 ـ لكل إنسان صديق وبطانة :

يا من آمنتم بالله لا تتخذوا بطانة من دونكم ، أقرب شيء لك بطانة الثوب ، لا يوجد إنسان ليس له صديق يسر إليه ما لا يبوح به لغيره ، يحدثه عن خصوصياته ، عن مشكلاته ، عن معاناته ، عن آلامه، عن آماله ، عن خططه ، عما يدور في خلده ، صديق حميم .

2 ـ الله ينهي أن نتخذ صديقاً غير مسلم :

الآية هنا تنهى المؤمنين نهياً قاطعاً أن يتخذوا غير مسلم صديقاً حميماً يجعلونه مقرباً كالبطانة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

أولاً : بطانة ليست مؤمنة كإيمانكم ، ليست مسلمة كإسلامكم ، ليست تخاف الله كخوفكم ، لا ترجو الله كما ترجون ، إذاً من هو الذي ينبغي أن يكون صديقاً حميماً ؟ من هذا الذي ينبغي أن تتخذه صديقاً حميماً تسر إليه بكل شيء ؟ من ؟ هذا المؤمن ، لأنه يؤمن كما يؤمن ، و يخاف الله كما تخاف ، و يرجو ما عند الله كما ترجو ، و ينضبط كما تنضبط ، ويسعى كما تسعى ، لا يمكن أن يكون الإنسان مقرباً إليك إلا إذا كان على شاكلتك ، إلا إذا كان مؤمناً بما أنت به مؤمن ، يخاف مما تخاف ، يرجو ما ترجو ، أبداً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

إنسان مقرب ، لصيق بك ، تمضي معه ساعات طويلة ، تسافر معه سفرا طويلا ، تقيم معه شراكة تجارية أمينة ، هذا ينبغي أن يكون مؤمناً على شاكلتك ، مؤمناً بما أنت به مؤمن ، مخلصاً كما أنت مخلص ، محباً كما أنت محب ، مندفعاً كما أنت مندفع ، مؤمناً بمنهجك كما أنت مؤمن بمنهجك ، هكذا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا)

(سورة آل عمران : الآية 118)

احذروا صديقا هذه أوصافه :

1 ـ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا

أي لا يقصرون بإفسادكم ، الخبال هو الإفساد ، لا يقصرون أن يفسدوا حياتكم ، أن يفقروكم ، أن يذلوكم ، أن يهبطوا مسعاكم ، أن يفسدوا أبناءكم :

(لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا)

لا يقصرون في إفسادكم ، في تدمير حياتكم ، في إفقاركم ، في تفرقتكم ، في إحباط مسعاكم ، في منعكم من إصلاح ذات أنفسكم :

(لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

تمنوا شقاءكم ، تمنوا هلاككم ، إله يبين لنا :

(لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا)

(سورة آل عمران : الآية 118)

أي لا يقصرون في تدميركم ، وإفقاركم ، واجتياح أراضيكم ، وإفساد أبنائكم .

2 ـ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ

قال تعالى :

(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

يتمنون دماركم ، و شقاءكم :

3 ـ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ

(قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

أنت قد تعجب !!! شعوب تموت بمئات الألوف ، مذبحة جرت في إفريقيا في ليلتين ذبح خمسمئة ألف ، الدول الكبرى تتفرج ، لكن قيل : إنها قلقة ، أحياناً يقولون : نحن قلقون لما يجري في هذه المنطقة ، فقط قلق ، أما إذا أرادوا التدخل بثلاثين دولة يتدخلون فوراً ، ويُنهون اجتياح بلد لبلد آخر ، فهم إذاً منافقون ، حينما تتوافق مصالحهم يتدخلون ، وحينما لا تعنيهم هذه المشكلة يتفرجون ، قال تعالى :

(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ)

إلا تفعلوا كذا وكذا أنهي الحرب ، معنى ذلك أنهم هم من أشعلوها ثماني سنوات ، إن لم تكن لصالحهم تُوقف فوراً بتدخل سريع ، يأتي أكبر شخص من آخر الدنيا حتى يُنهي الحرب إن لم تكن لصالحه ، قال تعالى :

(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

لذلك ورد في بعض الأحاديث : نية الكافر شر من عمله .

مهما رأيت شراً في عمله نيته أكبر ، ينوي ألا يُبقي شيئاً ، أن يُحرق الأخضر واليابس :

(وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

هذا هو الكفر ، لذلك لا يوجد مكان يُناسب الكفار إلا جهنم :

(كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا)

(سورة السجدة : الآية 20)

وقال :

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

(سورة الدخان : الآية 49)

لأنهم بنوا حياتهم على أنقاض الآخرين ، بنوا غناهم على إفقار الآخرين ، بنوا مجدهم على إتلاف الآخرين ، بنوا أمنهم على إقلاق الآخرين ، يقول لك بلد مثلاً فيه استقرار مئتي عام ، ونحن لا نعرف الاستقرار في الشرق الأوسط ، لأنهم زرعوا لنا هذا الكيان العدواني ، لا يوجد استقرار .

نحن دائماً نترقب ماذا سيحدث ، هذا حال يُعيق الاقتصاد ، يُعيق التعليم ، يُعيق أيَّ نمو ، فهم بنوا مجدهم على أنقاض الآخرين ، بنوا غناهم على إفقار الآخرين ، بنوا أمنهم على إقلاق الآخرين ، بنوا حياتهم على موت الآخرين ، لذلك لا ينبغي عن نواليهم : من هوى الكفرة حُشر معهم ، ولا ينفعه عمله شيئاً .

قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

(سورة المائدة : الآية 51)

وقال :

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

(سورة آل عمران : الآية 28)

قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ)

لا تتخذ إنساناً صديقاً حميماً ليس مؤمناً :

(لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا)

لا يقصرون في إفساد حياتكم ، تحت اسم التقدم يصبح كل بيت ملهى ليلي ، اصعد إلى جبل قاسيون وألق نظرة على بيوت دمشق ، وانظرْ ماذا على سطوحها ؟ يقول لك : حتى يرى الصلاة في الكعبة فقط ، لا تصدقوا ذلك ، ليس من أجل هذا يُشترى هذا الصحن ، قال تعالى :

(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ)

لا يألونكم خبالاً ، أي لا يقصرون في إفساد حياتكم ، أما ودوا ما عنتم ، أي تمنوا شقاءكم :

(قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 118)

إلهنا ، ربنا الخبير ، الرحيم ينصحنا :

(هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ

1 - لا للثناء على الكفار :

يقول لك : يا أخي أناقة ، رُقي ، يذهب أحدنا إلى بلاد الكفر فيعود مذهولاً ، يتحدث إليك عشر ساعات عن مزاياهم ، وهذه الشعوب التي تموت من الجوع ، وقد أفقروها ، أرض تُغتصب يُصطلح على اغتصابها أزمة الشرق الأوسط ، اغتصاب أرض :

قتل امرئ في غابة جريمة لا تُغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر نراقب بقلق ما يجري هنا ، هكذا يُصرِّحون لنا ، قال تعالى :

(هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ)

يا أخي رقي كبير ، مطارات ، أناقة ، نظافة ، ترتيب ، فنادق ، هذا رقي :

(هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

إله ينصحنا ، ولا يحبونكم ، قال تعالى :

(وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

تؤمنون بنبيهم وكتابهم ، قال تعالى :

(وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

عندهم أيضاً دبلوماسية عالية جداً ، وقد عُرِّفت الدبلوماسية بأنها التعبير عن أسوأ النوايا بأحلى الألفاظ:

(هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

أي إذا ذهبتم إلى بلادهم تُعجبون .

مرة قلت كلمة ، وأرجو أن أكون دقيقاً فيها ، قلت : إذا ذهبت إلى بلادهم ، ورأيت في الأرض جنة فهي هناك ، ولكن على الشبكية فقط ، فإذا انتقلت هذه الصورة إلى الدماغ أصبحت جهنم ، تفكك أُسري، إباحية ، انهيار خُلُق ، ماديِّة مُخيفة :

(هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

2 ـ الكفار لا يؤمن بما نؤمن به :

وهم لا يؤمنون بكتابكم ، ولا بنبيكم :

(وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ

1 ـ من الإعجاز العلمي : الموت من الغيظ :

هذا من الإعجاز العلمي ، الإنسان يموت من الغيظ ، يموت موتاً حقيقياً ، الشدة النفسية تُميته فوراً ، الشدة النفسية قد تصيبه بجلطة قاتلة ، أو بسكتة قلبية قاتلة ، أو بتوقف للقلب قاتل ، قال تعالى :

(قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(119)إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

هناك بلد مسلم بجنوب شرق آسيا حقق تقدماً اقتصادياً كبيرًا إلى درجة أصبح عنده فائض بقيمة ستين مليار ، أقاموا عليه مؤامرة ، ودمروه اقتصادياً .

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا

1 ـ من السنن الكونية : أذى الكفار للمسلمين :

قال تعالى :

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا)

(سورة آل عمران : الآية 119)

هذه الآية ، والله أيها الإخوة لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت المسلمين ، ذلك أن الله عز وجل يقول :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46)فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

(سورة إبراهيم)

هذا المكر الذي تزول منه الجبال ، جبل يزول **!!** مهما كان هناك عدوان لا سمح الله ، ولا قدر تختفي قاسيون ؟ هذا جبيل ، وليس جبلا ، جبال هيملايا تختفي بقنبلة ذرية ، قال :

(وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم : الآية 46)

و مع ذلك ، هنا الآية :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 120)

2 ـ الصبر والتقوى لمجابهة مكر الكفار :

ألغي كيدهم ، انتهى مكرهم ، أحبط مسعاهم ، هذا كلام خالق الأكوان ، زوال الكون أهون على الله من ألا تقع هذه الآية ، أنت اصبر ، واتق الله ، كل كيدهم يتلاشى ، ألم يقل الله عز جل :

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : الآية 249)

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((... وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود ، الترمذي ، الدارمي]

لن لنفي المستقبل .

اثنا عشر ألف مؤمن صادق لن يغلبوا في الأرض ، والمليار ومئتا مليون يُغلَبون !

حدثني أحد خطباء دمشق ، وهو من بلد أوربي ، أصله مسلم ، قال لي ذهبت إلى بلدي : وخطبت في أكبر مسجد هناك ، وأمامي عشرة آلاف مصل ، قال لي : تأثروا من خطبتي تأثراً لا حدود له ، ومعظمهم بكى من شدة تأثرهم ، وأخرجوا زجاجات خمر ، وشربوها في المسجد ، من شدة تأثرهم بهذه الخطبة :

((... وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود ، الترمذي ، الدارمي]

هذا الخطيب من فمه إلى أذني ، لا يوجد وسيط ، قال لي : أنا خطبت ، ثم شُرب الخمر في المسجد من شدة التأثر بهذه الخطبة .

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : الآية 249)

تصور دولة عظمى تراقب أي بقعة في العالم .

مرة اطلعت على مجلة ألمانية عليها صورة الأرض من القمر ، صورة مشهورة من القمر على الأرض ، مربع صغير ، كُبِّر هذا المربع ، فإذا أمريكا الشمالية ، على أمريكا الشمالية مربع صغير ، كُبِّر هذا المربع فإذا فلوريدا ، على فلوريدا مربع صغير ، كُبِّر هذا المربع فإذا ساحل من سواحلها ، عليه مربع صغير ، كُبِّر هذا المربع فإذا رصيف في ميناء لها ، وإلى جانبه أرض خضراء ، مساحة خضراء ، على هذه المساحة نقطة سوداء ، كُبِّرت هذه النقطة فإذا إنسان مستلق على ظهره يقرأ قصة عرفت عنوانها ، وإلى جانبه صحن فيه تفاح ، هذه صورة من الأقمار الصناعية أي على مستوى أنها ترصد إنساناً مستلق على الأرض ، ويقرأ قصة ، وقد عُرف عنوان القصة ، يرصدون كل مكان في العالم ، و بإمكانهم أن يدمروا أي مكان في العالم ، حتى إنه لما دمرت يوغسلافيا في حرب البلقان الصواريخ ، نزلت إلى غرفة نوم رئيسها من البنتاغون بالكومبيوتر ، إلى هذه الدقة وصلوا ، رصد أي مكان في العالم ، و تدمير أي مكان في العالم بإحكام ما بعده إحكام ، ماذا قال الله عز وجل :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس : الآية 24)

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

3 ـ تمسكوا بهذه الآية :

تمسكوا بهذه الآية ، والله خلاصنا بهذه الآية ، والله نجاتنا بهذه الآية ، تقدمنا بهذه الآية ، وحدتنا بهذه الآية ، سلامة ديننا بهذه الآية ، سلامة الأجيال الصاعدة بهذه الآية :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا)

كيده الذي تزول منه الجبال ينتهي ، يحبط ، يُعطل ، إذا كان الله معك فمن عليك ، لكن المسلمين مقصرون ، قال تعالى :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا)

تصبروا على قضاء الله و قدره ، و تصبروا على الطاعة ، وعلى المعصية ، و تتقوا ، أي تلتزموا منهج الله عز وجل عندئذ :

(يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

(سورة آل عمران : الآية 120)

الأسئلة :

نجيب عن بعض الأسئلة في هذه العجالة :

س ـ لماذا تكلم الله عز وجل بضمير الجمع ؟

ج ـ قال بعض علماء التفسير : إن الله إذا تكلم بضمير المفرد يقصد ذاته العلية :

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه : الآية 14)

أما :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)

(سورة الحجر : الآية 9)

إذا ذكر ذاته بضمير الجمع فالمقصود أسماؤه الحسنى كلها، فعل الله فيه رحمة ، وفيه عدل ، وفيه قدرة ، وفيه حكمة, وفيه علم فاذا ذكر اسم الله بضمير الجمع فالمقصود اسماؤه الحسنى وان ذكر بضمير المفرد فالمقصود ذاته العلية .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(31-60): تفسير الآية 121 ، درس معركة أحد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-06-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الواحدة والعشرين بعد المئة .

وقفات مع غزوة أُحُد :

أيها الإخوة الكرام ، بدءاً من هذه الآية إلى ستين آيةً قادمة يتحدث الله عز وجل عن موقعة أحد ، وقبل أن نَشرَعَ بفضل الله ، وبتوفيقه في تفسير هذه الآيات المتعلقة بموقعة أحد لابد من وقفتين ؛ وقفة أولى نتحدث عن حكمة هذه المعركة التي انهزم فيها المسلمون ، ووقفة ثانية نتحدث فيها عن وقائع هذه المعركة ، فمن حكم هذه المعركة إلى وقائع هذه المعركة ، وبعدها نبدأ بتفسير الآيات التي تبدأ بقوله تعالى :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ)

(سورة آل عمران : الآية 121)

1 ـ حياة النبي صلى الله عليه وسلم مقصودة من قِبَلِ الله عز وجل :

أيها الإخوة الكرام ، الحقيقة الأولى أن حياة النبي صلى الله عليه وسلم بما فيها من أحداث ومشكلات ، وأزمات ، ومضائق ، وصعوبات ، وانتصارات ، ونكسات ، حياة مقصودة من قبل الله عز وجل ، لأن كل موقف من هذه المواقف وقف النبي فيه موقفاً كاملاً ، وقف موقفاً مشرفاً ، فالأحداث التي جرت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أحداث متميزة كانت سبباً للتشريع ، فهناك انتصارات ، وهناك نكسات ، وهناك تقدم ، وتأخر ، ومؤامرات ، وتنكيل من الكفار ، وهناك موت في سبيل الله ، وهناك نصر عزيز، فكل هذه الأحداث كانت مقصودة لذاتها لتكون درساً بليغاً من بعده .

ما من حدث على الإطلاق إلا وقد أراده الله عز وجل لذاته ، ليكون سبباً لمنهج قويم ننتفع به ، فالأمة الإسلامية اليوم في أشد الحاجة إلى هذه الدروس ، وكأن هذه الدروس التي حصلت من

تفاعل النبي مع المحيط الذي أحاط به ، ومع البيئة ومع المعطيات ، ومع الأحداث هذه الدروس هي منهج يمكن أن ننتفع به في مشكلاتنا التي نعانيها هذه أول حقيقة .

2 ـ نكسةُ أحُدٍ و نكسةُ حُنَينٍ :

الحقيقة الثانية ، أيها الإخوة ، أن المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقعوا في نكستين ؛ نكسة أحد ، ونكسة حنين ، في أحد خالفوا النص القتالي ، يعني هزموا لأسباب متعلقة بالقتال نفسه ، وفي معركة حنين هزموا لأنهم وقعوا في شرك خفي ، فنحن إما أن نهزم لتقصير في الإعداد ، وإما أن نهزم لضعف في الإيمان ، قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال : الآية 60)

لابد من الإعداد والإيمان :

هذا بند الإعداد ، شرط الإعداد ، لكنه شرط لازم غير كاف ، الشرط الثاني شرط الإيمان ، قال تعالى:

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : الآية 47)

فهذا النبي الكريم سيد الخلق ، وحبيب الحق ، ومعه أصحابه الذين افتدوه بأرواحهم ، ومع ذلك عندما وضع خطة ، وألزمهم بتطبيقها ، وخالفوا هذه الخطة لم يستحقوا النصر ، يدل هذا على قيمة التنظيم ، وقيمة القيادة ، وقيمة الطاعة ، لم يهزم المسلمون بسبب خطأ من رسول الله ، ولكنهم هزموا بسبب من مقاتليهم ، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما وضع الرماة على تلٍّ من جبل أحد أمرهم أن يلزموا أماكنهم ، ولو رأوا أن الطير تأكل الجيش ، ينبغي أن يلزموا أماكنهم ، فعصوا رسول الله ، وانكبوا على ساحة المعركة ليأخذوا الغنائم ، وقد قال تعالى :

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

(سورة آل عمران : الآية 152)

فنحن لا ننتصر إلا بشرطين ، وكلٌّ من هذين الشرطين شرط لازم غير كاف ، لا ننتصر إلا بالتوحيد وبالافتقار إلى الله عز وجل ، وبالتوكل عليه كما انتصروا في بدر ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

وننتصر أيضاً بأن نعد ما نستطيع ، قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

وهناك ملمح لطيف في هذه الآية ما كلفنا الله جل جلاله أن نعد لهم القوة المكافئة ، وقد يكون هذا فوق طاقة المسلمين ، ولاسيما في هذه الأيام ، قطع أعداؤنا مراحل كثيرة جداً في التطوير والتحديث في الحروب الإلكترونية ، وفي الأقمار الصناعية ، والصواريخ ، ودقة الإصابة ، والأسلحة الجرثومية والكيماوية ، والفتاكة ، والأسلحة المعنوية ، والإعلام ، فلو أن الله عز وجل كلفنا أن نعد لأعدائنا القوة المكافئة هذا فوق طاقتنا الآن ، ولكنه جل جلاله رحمنا ، فأمرنا أن نعد القوة المتاحة فقط :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

وأمرنا أن نؤمن به حق الإيمان وأن نفتقر إليه ، فإذا آمنا به حق الإيمان ، وافتقرنا إليه كان النصر حليفنا ، لقول الله عز وجل :

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : الآية 173)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

(سورة محمد : الآية 7)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : الآية 47)

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر : الآية 51)

هذه حقائق مسلّم بها ، فمتى يهزم المسلمون إذًا ؟ إذا قصروا في الإعداد لعدوهم الإعداد المتاح ، أو إذا اعتدوا بأنفسهم ، ونسوا ربهم فأشركوا .

إما أن ننهزم لضعف في إيماننا ، وإما أن ننهزم لضعف في استعدادنا ، فإذا كنا مؤمنين الإيمان الكاف، ومستعدين الاستعداد المتاح كان النصر حليفنا ، ومن نحن أمام أصحاب رسول الله هؤلاء الذين شهد الله لهم بالفضل ، ولقد رضي عنهم في محكم القرآن الكريم ، قال سبحانه وتعالى :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح : الآية 18)

ومع ذلك حينما وقعوا في شرك خفي ورأوا أنفسهم عشرة آلاف مقاتل ، وقد دانت لهم الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، وكانوا أكبر قوة ضاربةٍ في الجزيرة مع ذلك ، قال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة : الآية 25)

ماذا نستفيد من هذا الدرس في حياتنا اليومية ؟ يشتري تاجر بضاعة من دون دراسة ، ومن دون معرفة لاحتياجات السوق فرضاً ، من دون معرفة لجدوى هذه الصفقة ، من دون دراسة لأسعار

السوق، يشتريها شراءً عشوائياً ، فقصر في الإعداد ، ثم إنه لما اشتراها قال : سوف أبيعها ، فقصر في الإيمان ، ولم يتوكل على الله ، إذاً لن يبيعها ، إذاً لا يربح .

درس أحد وحنين يطبقان في حياة المسلمين كلها :

هذان الدرسان يطبقان في كل حقول الحياة ، يطبقان في الدراسة ، قال طالب : يا رب أنا متفوق في الجبر ، وضعيف في الهندسة ، فرسب في الجبر ، ونجح في الهندسة ، في الامتحان الثاني قال : يا رب الهندسة والجبر عليك .

أنت حينما تتوهم أنك متفوق ، وأنك مستغن عن إمداد الله لك لا تحقق النجاح ، أو حينما تقصر ، كطالب لم يدرس أبداً ، ويقول : أنا مؤمن ، والله يحبني ، وإذا ما نجحت فهذا ترتيب الله ، وليس لي نصيب ، سبحان الله ، هذا أيضاً كلام مرفوض .

هذا درس بليغ في حياتنا ، في دراسة طلابنا ، في حرفنا ، في طبنا ، في هندستنا ، في تجارتنا ، في حربنا ، في سلمنا ، في كل شؤون حياتنا ، يجب أن نأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم نتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، فإذا كان التقصير في الإعداد لا ننتصر ، إذا كان التقصير في الإعداد المتاح لا ننتصر ، وإذا كان التقصير في الإيمان التوحيدي لا ننتصر ، إذا اعتددنا بأنفسنا ، ونسينا ربنا، واستغنينا عن الالتجاء إليه لا ننتصر ، وإذا قصرنا في الإعداد لعدونا لا ننتصر ، هذا درس بليغ من دروس السيرة ، وأصحاب النبي ، وهم على ما هم عليه من إيمان ، ومن تضحية ، ومن توحيد ، في بدر انتصروا ، لأنهم كانوا موحدين ، وأعدوا العدة التي أتيحت لهم ، وكانوا قلة قليلة ، وفي أحد عصوا أمر رسول الله ، لو أن الله نصرهم في أحد على الرغم من المعصية لألغي منهج الله ، لو أن الطالب ما درس أبداً ، ونجح معنى هذا أن الدراسة ليس لها قيمة أبداً .

لقد أراد الله عز وجل أن يدفع المسلمون ثمن هذا التقصير ، أليس الله قادراً أن يمسك النبي بحفنة من تراب ، ويلقيها في وجوه الأعداء ، فيولوا هاربين ، هذا شيء يمكن أن يقع ، ولكن لو فعل هذا النبي لانتقل النبي إلى الرفيق الأعلى ، فنقصر في الإعداد ، ونقول : ليس بيننا نبي الله حتى ينصرنا على أعدائنا ، لا فالله عز وجل جعل المسلمين يدفعون ثمناً باهظاً في تقصيرهم ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام صلى على هؤلاء الرماة الذين عصوه ، وقد استنبط العلماء استنباطاً رائعاً ، وهو أنهم عصوا أمراً تنظيمياً ، ولم يعصوا أمراً تشريعياً ، الأمر التشريعي شيء والتنظيمي شيء آخر .

قريشٌ لم تحقق مبتغاها في غزوة أحد :

أيها الإخوة الكرام ، لكن قريشًا في هذه المعركة لم تحقق ما أرادت ، لو أنها أرادت الثأر لقتلى بدر لحققت بعض ما أرادت ، ولو أنها أرادت أن تستعيد هيبتها لحققت بعض ما أرادت لبعض الوقت ، أما لو أنها أرادت أن تقضي على المسلمين ، وأن تفسح الطريق إلى تجارتها إلى الشام لم تحقق ما تريد ، فمهما أصيب المسلمون من نكسات فهم موجودون ، والله معهم ، ولن يتخلى عنهم ، لكنه سبحانه يؤدبهم ، تماماً كالابن يخطئ ، لكن الأب لا يتبرأ منه ، ولا يطرده من البيت ، لكنه يؤدبه ، فمعنى ذلك أنك إذا كنت مؤمناً بالله فينبغي أن تصبر على تأديب الله ، وإن الله لا يتخلى عنك بالكلية ، ولكن يسوق لك من الشدائد ما يحملك على معرفته وطاعته .

أيها الإخوة الكرام ، لقد كانت غزوةُ أحد فرزاً للمؤمنين ، ودائماً هذه المصائب تسمى محك الرجال ، وقد قال الله عز وجل في الخندق :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ(10)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : 10-11)

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

لا بد من امتحان يفرز المؤمن الصادق من غيره :

الطلاب في أثناء العام الدراسي كلهم يرتدون ثياب موحدة ، وكلهم محسوبون على المدرسة طلاباً ، وكلهم قد يرتدي ثياباً أنيقة ، ولكن بينهم تفاوت كبير في العلم ، بين طالب متفوق ، وطالب كسول ، وطالب يدرس ، وطالب لا يدرس متى يكشف التفاوت بينهم ؟ في الامتحان ، فلابد من امتحان ، وأنتم أيها الإخوة هيؤوا أنفسكم ، فكل يدعي أنه يحب الله ، وكل يدعي أنه يحب طاعته ، ويسعى إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، هذا كلام بكلام ، قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

فلابد من امتحان ، ففي مثل هذه المصائب هناك امتحان ، لذلك قال بعض المسلمين في الخندق :

(مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة الأحزاب : الآية 12)

بل قال أحدهم : أيعدنا صاحبكم ، ولم يقل رسول الله ، أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحَدنا لا يملك أن يقض حاجته ، وبالمقابل قال تعالى :

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : الآية 23)

فنحن في دار الابتلاء ، قال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت : الآية 2)

مستحيل ، يا إمام أندعوا الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال : لن تمكن قبل أن تبتلى ، إذاً نحن في دار امتحان ، نحن في دار ابتلاء ، قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون : الآية 30)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : الآية 2)

ومثل هذه المصائب ، ومثل هذه المعارك فيها ابتلاء .

حصل في القاهرة زلزال ، كثير من أطباء القاهرة ولّوا وجوههم شطر الإسكندرية ، وانسحبوا من هذا الزلزال طلباً للسلامة ، وأطباء بقوا في المستشفيات يعملون أربعاً وعشرين ساعة خدمةً لهؤلاء الجرحى ، هذا الزلزال فرز الأطباء .

دائماً وأبداً هناك فرز ، الهجرة فرزت المؤمنين ، مؤمنون انصاعوا إلى أمر النبي ، وهاجروا ، وآثروا الهجرة على أموالهم ، وبيوتهم ، ومكانتهم ، وأناس تشبثوا ببيوتهم ، وأموالهم ، ولم يهاجروا ، فالهجرة فرز ، والمعارك فرز ، والمصائب فرز ، وقهر الإنسان أحياناً فرز ، يأتي ضغط هؤلاء المؤمنون بعضهم لا يصمد لهذا الضغط ، فيعصي الله طلباً للسلامة ، وبعضهم يصمد ، لذلك الإيمان الحق لا يتغير ، ولا يتبدل ، لا تحت سياط الجلادين اللاذعة ، ولا أمام سبائك الذهب اللامعة ، المؤمن كالجبل لا تهزه هذه المغريات ، ولا تثنيه هذه الضغوط ، فهذا المعركة فرز للمؤمنين :

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

(آل عمران : من الآية 152)

أيها الإخوة ، وهناك حقيقة أيضاً دقيقة جداً ، لو أن مدرساً أعطى تعليمات للتوضيح ، وخالفها طالب فلم يعاقب سقطت قيمة هذه التعليمات ، لو أن المدرس كلف طلاباً بوظيفة ، وفي اليوم التالي طلاب كتبوا ، وهناك طلاب ما كتبوا ، استوى عند المدرس الذين كتبوا ، والذين لم يكتبوا، في اليوم الثالث لم يكتب أحد ، فإذا لم تنفذ التعليمات تلغى قيمتها ، فلو أن هؤلاء الصحابة على أنهم عصوا أمر رسول الله فانتصروا لسقطت قيمة الطاعة إطلاقاً ، وهذا شأن تربوي ، حينما لا يحاسب المقصر ، ولا يكافأ المحسن تسقط القيم ، يسقط الباعث ، يسقط الخوف يسقط الطمع .

معركة أحد استكمالٌ لبناء شخصية المسلمين :

الحقيقة تعد معركة أحد استكمالاً لبناء شخصية المسلمين ، والله ، وأنا في طريقي إلى هذا المسجد خطر في بالي أننا في هذه البلدة الطيبة نصلي ، وندعو الله عز وجل ، ونخطب ونلقي الدروس ، والمساجد مليئة بالمصلين ، إلى من يعود الفضل في ذلك ؟ إلى هؤلاء الصحابة الذين بذلوا الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، ففي أُحُد ، وبدر ، والخندق ، وسوف ترون بعد حين كم بذل هؤلاء الصحابة ، سبعون صحابياً من نخبة الصحابة قتلوا في أحد ، هذا الإسلام الذي وصل إلينا مدفوع ثمنه باهظاً ، نحن أخذنا من الإسلام ، ولم نعطه شيئاً ، نحن حملنا ، ولم نحمل ، نحن قطفنا الثمار ولم نزرع الشجر ، أما هؤلاء الصحابة الكرام بفضلهم ، وبفضل إيمانهم ، واستشهادهم ، وإراقة دمائهم وصل الإسلام إلى هذه البلاد.

والله الذي لا إله إلا هو لو أن الصحابة الكرام فهموا الدين كما نفهمه نحن عبادات شعائرية ، ومظاهر واحتفالات ، ومكتبات ، ومحطات فضائية، ندوات ، لو فهموا الإسلام كما نفهمه نحن ، والله الذي لا إله إلا هو ما خرج الإسلام من مكة لم يصل إلى المدينة ، لأنه وصل إلى إسبانيا ، ومن ذهب إلى هناك يرى معالم المسلمين ، ووصل إلى الصين ، حيث يوجد في خمسون مليون مسلم ، وفي إندونيسيا مئتان وخمسون مليون مسلم ، لولا أن الصحابة الكرام فهموا الإسلام فهماً حقيقياً ما انتقلوا من رعاة الغنم إلى قادة الأمم ، والآن نحن لا سبيل إلى استعادة هذا الدور القيادي لهذه الأمة إلا أن نعود إلى هذا المنهج القويم ، وإلى أن نتمسك بالتوحيد، أن نوحد وأن نستعد .

أيها الإخوة ، بعد هذه الهزيمة أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقلبها إلى نصر ، فأصحابه كلهم جرحى ، بعد يوم قتال عنيف ، وسوف ترون بعد حين أنواع الشدة التي شهدها المسلمين ، وأنواع الجراحات التي أصابتهم ، ومع ذلك أمرهم النبي أن يتوجهوا إلى حمراء الأسد ، ليلحقوا بالمشركين ، ولم يقبل إلا من خاض معركة البارحة ، على الرغم من تحمله الشدة ، ومن جراحه العميقة والثخينة لبى نداء النبي ، فخفف هذا الأمر إلى العشر ، وولى المشركون هاربين ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام ما أراد أن يحقق المشركون كل غايتهم .

لا تقلق على هذا الدين :

أيها الإخوة ، آخر تعليق لا تقلق على هذا الدين ، إنه دين الله ، وإن الله جل جلاله يتولى نصرته ، ولكن ليكن قلقك ما إذا سمح الله لك ، أو لم يسمح أن تكون جندياً في هذا الدين .

ويا أيها الإخوة الكرام ، وحينما لا يتاح لك مثل هذا الجهاد القتالي فهناك جهاد وصفه الله عز وجل بأنه جهاد كبير ، أن تجاهد بهذا القرآن ، أن تتعلمه ، وأن تعلمه ، لأنك قبل أن تجاهد الكفار ينبغي أن توصل القرآن إلى المؤمنين .

سأل بعضهم عالماً : أيصل ثواب قراءة القرآن على الموتى إلى الموتى ؟ فقال هذا العالم ، وقد أعجبتني إجابته : وهل بإمكانك أن توصل هذا القرآن إلى الأحياء ؟

دعك من الميت ، هل بإمكانك أن توصله إلى الأحياء ؟ هل بإمكانك أن تقنع الناس أن يطبقوا هذا القرآن في بيوتهم ، أن يطبقوه في زواجهم ، في نزههم ، في حلهم ، في ترحالهم ، في كسب أموالهم ، في أتراحهم ، هذا جهاد كبير .

الجهاد القتالي من أجل هذا الجهاد ، فإذا كان هذا متاحاً للمسلمين في كل العهود فما يمكنك أن تعقد مؤتمراً في أمريكا في عقر دار الأعداء إسلامياً ، متاح لك أن تدعو إلى الإسلام في أي مكان ، والشاهد المساجد مليئة ، والحمد لله فأنت حينما لا يتاح لك جهاد قتالي لسبب أو لآخر ، فإنه قد أتيح لك أن ترسخ هذا القرآن في نفوس المؤمنين ، متاح لك أن تفهمه ، أن تعلمه ، أن تجعل من هذا القرآن منهجاً لنا ، متاح لك أن تأمر بالمعروف ، وأن تنهى عن المنكر، متاح لك أن تبلغ من حولك آية ، أو حديثاً ، أو حكماً ، أو قصةً ، أو سيرةً ، متاح لك أن تفعل كل شيء لكنه التقصير ، من يمنعك أن تجلس مع أهلك لتعلمهم ؟ من يمنعك أن تجلس إلى أصدقائك لتعلمهم ، من يمنعك أن تنقل خطبة الجمعة إلى من حولك ؟

أيها الإخوة الكرام ، ورد في بعض الأحاديث

((ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا يَدَانِ لَكَ بِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَوَامِّ ، فَإِنَّ مَنْ وَرَائِكَ أَيَّامَ الصَّبْرِ ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ كَأَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ))

أبو داود ، ابن ماجه عن أبي ثعلبة الخشني)

أهلك ، جيرانك ، أصدقاؤك ، زملاؤك ، رواد مسجدك ، هؤلاء خاصة النفس ، فنحن إذا أردنا أن نعلم هؤلاء بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وأن نرسخ قيم الدين ، وأن نكون قدوةً للآخرين ، فهذا سماه الله عز وجل في كتابه الكريم الجهاد الكبير ، الكبير ، قال تعالى :

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(سورة الفرقان : الآية 52)

أبواب الخير مفتحة على مصاريعها ، أبواب الدعوة إلى الله مفتحة على مصاريعها ، الإسلام لا يحتاج إلا إلى نشر هذا الحق ، قوته بكلمته ، والأنبياء جاؤوا بالكلمة الصادقة الواضحة النيرة الصحيحة المخلصة ، فقلبوا وجه الأرض ، من هم العرب ؟ قبائل متناحرة في الجاهلية كان أحدهم يمد رجله ويقول : من كان أشرف مني فليضربها ، فيأتي من يضربها ، وتنشأ حرب تزيد عن عشر سنوات ، جاهلية ما بعدها جاهلية ، تنابز بالألقاب ، افتخار بقيم جاهلية ، غزل رخيص ، معاقرة خمرةٍ ، ربا لا يحتمل .

أتيت ، والناس فوضى ، فكان النبي عليه الصلاة والسلام في حياة قصيرة مفعمة بالخير ، حتى إن الله عز وجل أقسم بعمره الثمين ، فقال تعالى :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر : الآية 72)

أيها الإخوة الكرام ، هذه بعض حكم هذه المعركة معركة أحد ، والله عز وجل في هذه الآيات التي تحدث بها عن معركة أحد يبين أسباب هذه المعركة ، وتفاصيلها ، ولابد من رواية تفاصيلها قبل الشروع بشرح هذه الآيات .

أيها الإخوة الكرام ، الآية الكريمة :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 121)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

1 ـ سببُ غزوة أحدٍ :

هذه الآية هي افتتاح القصة ، وقد أنزل فيها ستون آية ، وأشير في هذه السورة إلى بعض الحكم ، والغايات المحمودة التي كانت في هذه الوقعة ، وكانت في شوال من السنة الثالثة باتفاق الجمهور ، وكان سببها أن الله تعالى لما قتل أشراف قريش ببدر ، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها وحزن أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم ، فجاؤوا إلى أطراف المدينة في غزوة السويق ، ولم ينل ما في نفسه أخذ يؤلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى المسلمين ، ويجمع الجموع ، قريباً من ثلاثة آلاف من قريش على رأسهم أبو سفيان ، بسبب معركة بدر التي انهزم فيها المشركون ، وانتصر فيها المؤمنون ، وقتل في بدر رؤوس الكفر ، فأخذ أبو سفيان يؤلب قريشاً على رسول الله ، وجمع ثلاثة آلاف مقاتل من قريش ، ومن حلفائها ، ومن الأحابيش ، وجاؤوا بنسائهم لئلا يفروا ليدافعوا عنهن ، ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريباً من جبل أحد .

2 ـ الاستعداد المادي والمعنوي والتنظيمي :

دققوا ، واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أيخرجون إليهم ، أم يمكثون في المدينة ؟ وكان رأي النبي صلى الله عليه وسلم ألا يخرجوا المسلمون من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلها المشركون قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت ، ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي ، وكان هو الرأيُ ، فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم

بدر ، وأشاروا عليه بالخروج ، والنبي يرى أن يبقى في المدينة ، وأن يتحصن بها ، وأن يقاتل الكفار من أفواه الأزقة، والنساء يضربون الجند من على السطوح ، وقد قال الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة الحجرات : الآية 1)

فنهض النبي عليه الصلاة والسلام ، ودخل بيته ، ولبس لأمته ، أي لبس درعه ، وخرج عليهم ، وقد انثنت عزائم أولئك الملحين لما رأوه لبس درعه ، وتأهب للخروج فندموا ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ ، وَرَأَيْتُ بَقَرًا مُنَحَّرَةً ، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ الْحَصِينَةَ الْمَدِينَةُ ، وَأَنَّ الْبَقَرَ هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ ، قَالَ : فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : لَوْ أَنَّا أَقَمْنَا بِالْمَدِينَةِ فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا فِيهَا قَاتَلْنَاهُمْ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَاللَّهِ مَا دُخِلَ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَكَيْفَ يُدْخَلُ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْإِسْلَامِ ؟ فَقَالَ : شَأْنَكُمْ إِذًا ، قَالَ : فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ ، قَالَ : فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ : رَدَدْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْيَهُ ، فَجَاءُوا فَقَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، شَأْنَكَ إِذًا ، فَقَالَ : إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ))

(أحمد)

لقد بيّن النبي أن التردد آفة كبيرة ، اتخذ قرارًا بالخروج ، أما هذا التردد فمشكلة كبيرة جداً ، والتردد في أغلب الأحيان سبب الإحباط ، وخرج النبي عليه الصلاة والسلام في ألف من أصحابه ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين في المدينة ، انظر إلى النظام ، لابد من أمير على المدينة ، والمسلمون جميعاً في أحد ، استعمل ابن أم مكتوم على المسلمين في المدينة .

3 ـ رؤيا النبي عليه الصلاة والسلام ليلة المعركة :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا ، وهو في المدينة ، رأى أن في سيفه ثلمة ، ورأى أن بقراً تذبح ، وأنه أدخل يده في درع حصينة ، فتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، إنه سيدنا حمزة ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون ، وتأول الدرع بالمدينة .

4 ـ خروج النبي إلى أحد وهو يحث أصحابه على القتال :

رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوم الجمعة ، فلما صار بالشوط بين المدينة وأحد خذل عنه عبد الله بن أبي في ثلث الناس مغاضباً لمخالفة رأيه في المقام ، فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر رضي الله عنهما يوبخهم ، ثلث المقاتلين رجعوا ، ولم يقاتلوا مع النبي ، فهذا والد جابر تبعهم يوبخهم ، ويحضهم على الرجوع ، ويقول لهم : تعالوا قاتلوا في سبيل الله ، أو ادفعوا عن مدينتكم العدو .

(قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

فرجع عنهم ، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى ، هذا درس ثان ، أول درس عدم التردد ، الدرس الثاني ينبغي ألا تستعين بمشرك على مشرك ، وسلك حرة بني حارثة ، ومر بين الحوائط ، حتى نزل الشعب من أحد ، مستنداً إلى الجبل ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، هذا النظام ، بما أن قوة الجيش في نظامه ، هذه فاتحة يتعلمها الجنود ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم .

5 ـ تنظيم النبي جيشه ، ووضعه الرماة على الجبل :

لما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال هو وأصحابه السبعمئة ، كانوا ألفاً ، فيهم خمسون فارساً ، وخمسون رامياً ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، وأمره وأصحابه أن يلزموا مكانهم ، وألاّ يفارقوه ولو رأوا الطير تخطف العسكر .

الآن في أي شأن في سفر هناك أمير ، الأمير له رؤية ، يرى ما لا يراه أتباعه ، فإذا أعطى أمرًا فينبغي أن ينفذ ، بالمناسبة ما كل أمر يعلل ، أذكر مرةً أن النبي صلى الله عليه وسلم في معركة بدر قال بإيجاز شديد : لا تقتلوا عمي العباس ، فقط ، صحابي فكر ، وقال : أينهانا عن قتل عمه ، ونحن نقتل آباءنا ، وإخواننا ! هو عمه ، يجب ألاّ نقتله ، ونحن نقتل آباءنا وإخواننا ، فأبقاها في نفسه ، النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيع أن يقول كلمة واحدة زائدة ، لأن عمه مسلم ، وقد أسلم خفية ، وهو عينه في قريش لكل أخبارها ، فتأتيه تباعاً ، كل قرار متخذ في أعلى مستوى يأتي النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذه قيادة حكيمة وذكية فلو قال : عمي مسلم لا تقتلوه لكشفه ، وأنهى مهمته ، لو أن عمه لم يخرج لانكشف أمره ، لو خرج لقتله أصحاب النبي ، لا يستطيع أن يقول إلا كلمة واحدة ، لا تقتلوا عمي العباس ، فما كل أمر يعلل، وهذا نحتاجه في حياتنا اليومية ، هناك أمير يرأس القوم ، وقد علم الله عز وجل منه الحكمة ، والحرص ، والإخلاص ، فأمّره على هؤلاء ، وليس كل فرد يحق له أن يسأل ، وأن يطلب التعليل ، هناك مواقف عصيبة ، يجب أن تأمر دون أن تعلل ، لا تقتلوا عمي العباس ، فقط . هؤلاء الخمسون رامياً أمر عليهم عبد الله بن جبير ، وأمره وأصحابه أن يلزموا مراكزهم ، وألاّ يفارقوه ، ولو رأوا الطير تخطف العسكر ، نص واضح من قيادة حكيمة ، وكانوا خلف الجيش ، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم ، وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين ، أيْ لبس درعين أخذاً بالحيطة ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(سورة النساء : الآية 71)

وهؤلاء المسلمون السذج ، كلما ترك أحدُهم الأخذ بالأسباب ، وأهمل ، ولم يتقن ، تركها لسيدك، ليس لنا إلا الله ، الله يحمي ، هذا كله كلام الجهل ، ينبغي أن تأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق ، وحبيب الحق ، ومع ذلك لبس درعين ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، وجعل على إحدى المجنتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى منذر بن عمر .

6 ـ ردّ النبي لصغار الصحابة :

الآن دققوا ، دققوا بين شبابنا وشبابهم ، واستعرض الشباب يومئذٍ ، وكان بينهم أفراد استصغرهم عن القتال ، منهم عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، كلهم صغار جاؤوا ليقاتلوا فردَّهم ، وأسيد بن حضير، والبراء بن عازب ، وزيد بن الأرقم ، وزيد بن ثابت ، وعبابة بن أوس ، وعمرو بن حزام ، وأجاز من رآه مطيقاً ، منهم سمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، أجاز سمرة ، ورد رافعًا ، أو العكس ، فذهب أحدهما يبكي إلى أمه ، فجاءت أمه إلى النبي الكريم ، الآن الأم على الخدمة الإلزامية ، أمّ الولد تولول، مثلاً هذا الجهل .

فجاءت أم أحدهما تتوسل إلى النبي أن يجيزه ، فتصارعا أمام النبي صلى الله عليه وسلم، النبي هل لديه وقت ؟ الوقت عصيب ، والعدو على الأبواب ، لكن احترام شخصية الصغير جزء أساسي من التربية ، طفل يريد أن يقاتل فتصارعا أمامه ، فأجازهما معاً ، أجاز سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، ولهما خمسة عشر عامًا .

الآن يمسك الهمبرغر ، ويذهب إلى الملعب ، وله خمسة عشر عامًا ، أجازهم للقتال ، فقيل أجاز من أجاز لبلوغه السن ، ورد من رده لصغر سنه ، وقالت طائفة : إنما أجاز من أجاز لإطاقته ، ورد من رد لعدم إطاقته ، ولا تأثير للبلوغ ، وعدمه في ذلك .

7 ـ تقسيم الجيش إلى ميمنة وميسرة :

قال أحد الشابين : فلما رآني مطيقاً أجازني ، وتعبّأت قريش للقتال ، وهم في ثلاثة آلاف ، ثلاثة آلاف أمام خمسين فارساً فقط ، وخمسين رامياً ، وسبعمئة ، قريش هم ثلاثة آلاف ، وفيهم مئتا فارس ، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد ، لا تحكم على الشخص إلا حتى يتوفاه الله ، كان من ألد أعداء النبي ، وهو الذي سبب الهزيمة للمسلمين ، ثم أصبح من كبار الصحابة ، ثم أصبح سيف الله المسلول ، لا تيأس من إنسان ، ولو رأيته غارقاً في المعصية ، ولو رأيته يعادي الدين أشد العداء ، لعل الله يهديه، ولعله يرجع ، فلا تقطع الأمل من أحد ، حينما أسلم خالد قال له النبي الكريم : عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً .

هذا الذي بسببه قتل سبعون صحابياً من خيرة أصحاب رسول الله ، والسبب خالد ، كيف أصبح خالد بعد ذلك ؟ قال : والله خضت مئة معركة ، أو زهاءها ، وما في بدني إلا فيه موضع ضربة سيف ، أو طعنة برمح ، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .
وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، كانوا أقطاب الكفر ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه إلى أبي دجانة ، وكان شجاعاً بطلاً يختال عند الحرب .

8 ـ بدء القتال :

وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق ، واسمه عبد الله بن عمرو ، وكان يسمى الراهب ، لترهبه وتمسكه في الجاهلية ، فسماه رسول الله الفاسق ، وكان رأس الأوس في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شرق به ، وما تحمل ، يريد مكسبًا ، فلما جاء النبي ضاع هذا المكسب ، وجاهر رسول الله بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحضهم على قتاله ، ووعدهم أن قومهم إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معهم ، فكان أول من لقي من المسلمين قومه، فنادى قومه ، وتعرف إليهم قالوا : لا أنعم الله عليك ، لا أنعم الله لك عيناً يا فاسق ، أرأيتم إلى الولاء .
فقاتل المسلمون قتالاً شديداً ، وأبلى يومئذ حمزة ، وطلحة ، وشيبة ، وأبو دجانة ، والنضر بن أنس بلاءً شديداً ، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين ، واشتد القتال ، وكانت الدولة أي الغلبة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهزم أعداء الله ، وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم ، هنا العقدة.

9 ـ نزول الرماة من الجبل :

لما رأوا الرماة هزيمتهم انتهى كل شيء ، معهم نص ، معهم توجيه من النبي : لو رأيتم الطير تأكلنا فلا تغادروا أماكنكم ، فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذي أمرهم النبي الكريم بحفظه ، وقالوا : يا قوم الغنيمة الغنيمة ، قال تعالى :

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

(آل عمران : الآية 152)

فذكرهم أميرهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، فذهبوا في طلب الغنيمة ، وأخلوا الثغر ، ولم يطع أميرهم منهم إلا نحو العشرة من خمسين ، فكرَّ المشركون ، وقتلوا من بقي من الرماة ، ثم أتوا الصحابة من ورائهم ، وهم ينتهبون ، فأحاطوا بهم ، واستشهد منهم من أكرمه الله ، ووثب العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
نتابع هذا في درس قادم إن شاء الله .

الأسئلة :

س : يسأل أخ : إذا كتب الإنسان كتاب شيخ ؟

ج : تعليق بسيط ، الحقوق لا تثبت الآن إلا بالكتاب الرسمي ، العقد الشرعي المسجل في سجلات المحكمة الشرعية ، يجوز قبل خمسين سنة أي كتاب شيخ صحيح ، الآن الحقوق لا تثبت إلا بالكتاب الرسمي ، فأنا أنصح الإخوة بعقد رسمي ، إلا إذا في ضرورة بالغة ، فهذا موضوع آخر ، أما من دون ضرورة ، حتى يدخل ويخرج ، لا يدخل ولا يخرج ، اكتبوا الكتاب ، ويدخل ويخرج .

س : إذا كان الشاب خاطبًا ، وكتب كتاب شيخ ، ليس كتاب محكمة ، وأراد أن يترك العروس ، هل يستحق له النقد شرعاً ؟

ج : يستحق ، إن لم يدخل بها فعليه نصف المهر المسمى ، وإن لم يسمِّ المهر فعليه نصف مهر المثل ، ولو كان بكلمتين من شيخ ، هذا دين الله عز وجل .

س : هناك بعض المشايخ مع مريديهم يجعلون من أنفسهم حكماء ، كشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يريدون أن يعترض عليهم أحد ، بدعوى أن الأنبياء معهم ورثة ، ألا وهم العلماء ؟

ج : لا نعتقد نحن بحسب العقيدة الإسلامية أن أحداً معصوماً عن الخطأ ، الكل يخطئ إلا رسول الله ، الصحابة منهم من يريد الدنيا ، ومنهم من يرد الآخرة ، لا نعتقد العصمة إلا لرسول الله ، أما أمته فمعصومة بمجموعها ، فكل من يدعي العصمة وقع في مطب كبير وادعاء العصمة أكبر خطأ يرتكبه من يدعي العصمة .

س : أليس النصر والهزيمة هو قضاء وقدر ؟

ج : نعم ، وهذا لامتحان المؤمنين بإيمانهم وصدقهم ، أحياناً يقوى الكفار ، ويفعلون ما يريدون ، ويفتكون ، ويقتلون كما ترون في أطراف العالم ، هذا امتحان صعب جداً ، هذا الامتحان صعب، فضعاف المؤمنين يسقطون ، يقولون : أين الله ؟ أما أقوياء المؤمنين فلا يتأثرون ، يرون حكمة الله ، ويرون امتحان الله ، يرون يد الله تعمل في الخفاء ، يرون الدنيا دار عمل ، دار امتحان ، ولو لم تنجح، لك إيمانك ، ولك عملك الصالح ، ولك نيتك ، ولك الآخرة ، الفوز الحقيقي ليس في الدنيا ، النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق قال له المولى جل جلاله :

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

(سورة يونس : الآية 46)

قد تموت ، ولا ترى النصر ، أنا علي أن أكون مع منهج الله ، علي أن أكون في مرضاة الله ، أما أن أطالب الله أن يغير سننه هذا شيء مستحيل .

س :هل يجوز للمرأة أن ترتدي البنطال سواء أكانت تحت المعطف ولكم جزيل الشكر ؟

ج : ثياب المرأة ينبغي أن تكون فضفاضة ثخينة لا تظهر خطوط جسمها ، فإذا كانت ترتدي معطفاً سابغاً ، فضفاضاً ، ثخيناً ، لا يشف ، ولا يجسد خطوط جسمها فهذا هو اللباس الشرعي ، أما إذا كانت ترتدي تحت هذا المعطف فهذا شيء لا يعنيها إلا إذا دخلت إلى بيت إحدى قريباتها، وقالت لها اخلعي المعطف ، وكان هناك من ينظر إليها فقد وقعت في معصية ، البنطال إذا كان يصف حجم أعضائها فهذا ثوب لا يجوز ، إلا أن يراها أقرب الناس إليها ، زوجها ، فله أن يراها بأي شكل ، وبأي ثياب ، ولو أنها ثياب حديثة جداً ، أما محارمها فينبغي أن ترتدي أمامهم ثياب الخدمة ، حيث لا ترتفع عن نصف الساعد ، وتحت الركبة ، وفوق الصدر ، ثياب محتشمة سماها الفقهاء ثياب الخدمة ، فالبنت التي تتعرى أمام أخيها ، هذا أخي ، هذا أبي ، هذا ابني ، هذا كله حرام ، ينبغي أن ترتدي المرأة أمام محارمها ثياب الخدمة ، وليس هناك أي قيد أمام الزوج وزوجته ، أما إذا خرجت فلا بد من ثياب تستر كل جسم المرأة ، ونكون ثخينة وفضفاضة ، هذا هو الحكم الشرعي .

س : خلاف بين زوجين ، ارتأى الزوج أن تذهب إلى بيت أهلها كل شهر ساعة ؟

ج : لا يكفي ، هل تستطيع إذا كنت ابناً باراً ألاّ ترى أمك ، ولا أباك في الشهر إلا ساعة ؟ عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ، كما تحب أمك وأباك فهي تحب أمها و أباها ، ولن تستطيع أن تدعهم شهراً بأكمله لتراهم ساعة مقننة .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الواحدة والعشرين بعد المئة .

غزوة أحد :

1 ـ وقفتان عند غزوة أحد :

أيها الإخوة ، بينت لكم في الدرس الماضي أن هناك ستين آية تتحدث عن موقعة أُحد ، وقبل الشروع في تفسيرها بفضل الله عز وجل وتوفيقه ، أردت أن أقف وقفتين ، وقفة عند المعاني الدقيقة التي يمكن أن نستنبطها من معركة أُحد ، والوقفة الثانية حول تفاصيل هذه المعركة من أجل أن تكون أرضية لشرح الآيات التي بعدها ، وقد بينت لكم أيضاً في الدرس الماضي ، حديثاً حول تفاصيل هذه المعركة ، ووصلت إلى أن هؤلاء المشركين حينما التفوا على المسلمين من ظهورهم بسبب معصية الرماة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، التفوا على الرماة ، وقتلوا من بقي منهم .

2 ـ نزول الرماة من الجبل :

كلكم يعلم أيها الإخوة أنهم حينما رأوا الكفار يولون الأدبار قالوا : الغنيمة الغنِيمة ، فذكرهم أميرهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعوا ، وظنوا أنه ليس للمشركين رجعة ، فذهبوا في طلب الغنيمة ، وأخلوا الثغر ، ولم يطع أميرهم منهم إلا نحو العشرة ، فكَرّ المشركون وقتلوا من بقي من الرماة ، ثم أتوا الصحابة من ورائهم .

لله في أفعاله حِكَمٌ :

أيها الإخوة ، المسلمون هُزموا مرتين ، والنبي صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، هُزموا المرة الأولى ، لأنهم عَصَوا أمر قائدهم ، وهُزموا في المرة الثانية في حنين ، لأنهم داخَلَهم شرك خفي ،

فقالوا : لن نُغلَبَ من قلة ، فالإنسان حينما يستغني وحينما يعتدُّ بنفسه لا يستحق نصر الله عز وجل ، وحينما يخالف الأمر الإلهي الذي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستحق النصر ، قد يقول قائل : لو أن الله جل جلاله نصرهم فهم المؤمنون ، وهم أصحاب رسوله ، والنبي صلى الله عليه وسلم، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق بين ظهرانيهم ، لِمَ لَمْ ينصرهم على خطئهم ؟ لو أن النصر جاء بعد أحد على ما فعل الرماة من معصية رسول الله ، لسقطت قيمة الأمر النبوي .

3 ـ لابد من تطبيق الأمر النبوي :

أنت مؤمن يجب أن تفتقر إلى الله عز وجل دائماً توحيداً ، وينبغي أن تنفذ الأمر تطبيقاً ، فإن أخليت بأحد هذين الشرطين لا تستحق نصر الله ، وهذا يعلمنا الآن أننا إذا أردنا أن ننتصر على أعدائنا لا بد أن نُحْكِم إيماننا ، لا بد أن نُحْكِم توحيدنا ، لا بد أن نُعَمِّق فهمنا لتوحيد الألوهية في القرآن الكريم ، بعد ذلك نستحق النصر ، ثم أتوا الصحابة من ورائهم ، وهم يأخذون الغنائم ، وقد التفَّ عليهم جيش المشركين ، فأحاطوا بهم ، واستشهد منهم من أكرمه الله ، ووصل العدو إلى رسول الله .

4 ـ العطاء الكبير في الآخرة :

تعلمنا هذه الواقعة أن هذا العطاء الكبير في الآخرة ، لابد له من امتحان صعب ، فكلما كان المغنم كبيراً ، كان الامتحان صعباً ، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق دخل في مضائق صعبة جداً ، هذه المضائق صبر ، وانتصر على ذاته فاستحق هذا المقام العلي ، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن بْن جُبَيْرٍ عَنْ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ))

(رواه أحمد)

استنباطاً من هذا لا تتمنى أن تصل إلى مقامات عالية في الجنة من دون ثمن ، لا تتصور أن الله يمكن أن يعطيك عطاء لا حدود له من دون ثمن ، من دون امتحان ، لا بد من أن توضع في امتحان صعب ، لا بد أن تُمْتَحن ، لا بد أن توضع في ظرف عصيب ، هل تصبر أم لا تصبر ؟ وصل المشركون إلى رسول الله .

5 ـ صبر الصحابة في غزوة أحد :

وقاتل مصعب بن عمير صاحب اللواء دونه حتى قُتِلَ ، الذي كان يحمل لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مصعب ابن عمير قُتِل ، وجُرِحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه ، أرسله الله رحمة للعالمين ليوقظ الضالين من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، هؤلاء الذين حاربوه آذوه ، لذلك شر الخلق قاطبة من قتلهُ نبي ، أو من قَتَلَ نبياً ، جُرِح النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه ، وكُسِرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر ، جُرِح وكُسِرت إحدى أسنانه ، وهُشِّمَت البيضة في رأسه ، يُقال أن الذي تولى ذلك عتبة بن أبي وقاص ، وعمرو بن قمئة القيسي ، وشد حنظلة الغسيلُ على أبي سفيان ليقتله ، فاعترضه شداد بن الأوس الليثي في شعوب فقتَلَه ، وكان حنظلة جُنُبَاً، أي استيقظ ، وكان في جنابة فقُتِل ، قُتِل جُنُباً فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنّ الملائكة غسَّلَته ، وقد استُنبط أن الذي يُقتَل شهيداً لو قُتِل جنباً فالملائكة تغسِّله ، وأكَبَّت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط في بعض حفرٍ هناك ، جُرِحت وجنته ، وكُسِرت رباعيته ، وهُشِّمت البيضة من على رأسه ، وسقط في حفرة ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق .

6 ـ النبي عليه الصلاة والسلام أصيب يوم أحد :

بينت لكم أيها الإخوة ، أن هناك مصائب تصيب الأنبياء ، إنها من نوع خاص مصائب الكشف ، لأنهم ينطوون على كمال لا يمكن أن يظهر إلا في مثل هذه الحالات ، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما تأتيه شدة كهذه الشدة هو قدوتنا ، هو مثلُنا الأعلى ، فأيُّ مؤمن إلى يوم القيامة أصابته شدة فله أُسوة برسول الله عليه الصلاة والسلام ، أي أن يكون النبي في هذه الشدة الشديدة هذا هو قدوتنا ، وهو أُسوتنا، وهو مثلُنا الأعلى ، فحينما يُصاب أحدنا بمصيبة في الدنيا يجب أن يتلو قوله سبحانه وتعالى :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب : الآية 21)

أنا لا أتمنى الشدائد ، لكن لا بد أن تكون هناك امتحانات صعبة للذي يطمح إلى مراتب عليَّة في الآخرة ، إن أردت الآخرة فادفع ثمنها :

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : الآية 11)

فسقط النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الحفر فأخذ علي بيده ، واحتضنه طلحة حتى قام ، ومصَّ الدم من جرحه مالك بن سنان الخدري ، والد أبي سعيد ، ونشبت حلقتان من حِلَق المِغفَر في وجهه صلى الله عليه وسلم ، أي حلقتان من حلقات الدرع ، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجرّاح ، فسقطت ثنيتاه فصار أهثم ، أبو عبيدة انتزع حلقتين من حلقات المِغفر غرستا في وجنة النبي صلى

الله عليه وسلم ، انتزعهما بأسنانه فأصبح أهثم ، ولحق المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكرَّ دونه نفر من المسلمين فقُتِلوا كلهم . أذكركم بما قلت لكم في الدرس الماضي من أنّ أصحاب النبي دفعوا ثمن هذا الدين باهظاً حتى وصل إلينا ، إلى بلادنا ، هم فتحوا هذه البلاد ، ونشروا الحق في الخافِقَين ، هم بذلوا دماءهم ، وبذلوا الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس حتى وصل هذا الدين إلينا ، ولولا جهادهم واستشهادهم لكانت هذه البلاد تابعة لبلاد أخرى .

وكرّ دونه نفر من المسلمين فقُتِلوا كلهم ، وكان آخرهم عمار بن زيد ، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركون ، وأبو دُجانة يلي النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يلي النبي مدافعاً عنه بظهره وتقع فيه النبل فلا يتحرك ، يلي النبي ، ويأتيه النبل من ظهره .

جُلُّ ما هنالك أن يُقال للإخوة المؤمنين : تعالوا احضروا درس التفسير ، تعالوا استمعوا إلى هذه الخطبة ، تعالوا افعلوا هذا العمل ، هذا الذي فعله أصحاب النبي شيء يفوق حد الوصف ، من شدة حرصهم على سلامة نبيهم ، وقف نفرٌ من أصحاب رسول الله أمامه ليدافعوا عنه ، فقُتلوا واحداً وَاحداً، أما أبو دُجانة رضي الله عنه فكان يلي النبي صلى الله عليه وسلم بظهره ، وتقع فيه النبل فلا يتحرك ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان فرجع وهي على وجنته ، فردّها عليه الصلاة والسلام بيده فصحَّت ، وكانت أحسن عينيه ، وانتهى نظر ابن أنس إلى جماعة من الصحابة ، وقد دُهشوا .

7 ـ إشاعة مقتل النبي عليه الصلاة والسلام :

وقالوا : قُتل رسول الله ، سرت شائعة بين الصحابة الكرام أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قُتل ، فقال : فما تصنعون في الحياة بعده ، قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل الناس ، وقاتل حتى قُتل ، ووجِد به سبعون ضربة ، وجُرِح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة ، بعضها في رجله فعرج منها ، وقُتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ، هكذا الحرب سجال بين الكفار والمسلمين ، ونادى الشيطان الذي سماه النبي شيطاناً : ألا إن محمداً قد قُتل ، لأنّ عُمْر بن قمئة كان قد قتل مصعب بن عمير ، ويظن أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فسرت هذه الشائعة بين أوساط المقاتلين ، ووهن المسلمون لصريخ الشيطان ، قيمة القائد في معنوياته التي يبُثّها جنودَه ، ثم إنّ كعب بن مالك الشاعر من بني سلمة عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى بأعلى صوته يُبشّر الناس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : أنصت ، فاجتمع عليه المسلمون ، ونهضوا معه نحو الشِعب ، وأدركه أُبي بن خلف في الشِعب ، أدركه أحد الكفار أُبي بن خلف في الشِعب ، فتناول صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصُمة ، وطعنه بها في عنقه ، فكرَّ أُبي منهزماً ، وقال له المشركون : ما بك من بأس ؟ فقال : والله لو بصق عليّ لقتلني ، لأنه قال : أين محمد لا نجوت إن نجا ، فأبى النبي إلا أن يقتله بنفسه ، تناول حربة من الحارث بن الصُمة فطعنه بها في عنقه ، فكرَّ أُبي منهزماً ، وقال له المشركون : ما بك من بأس ؟ فقال : والله لو بصق

علي لقتلني ، وكان صلى الله عليه وسلم قد توعده بالقتل ، لا نجوت إن نجا ، قال : أنا قاتلك ، فمات عدو الله بسرف في مكان بين مكة والمدينة ، ثم جاء علي رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالماء فغسل وجهه ونهض ، فاستوى على الصخرة من الجبل ، وحانت الصلاة ، وهناك من يُهمل الصلاة لأتفه الأسباب ، هنا في المعركة وبعض الصحابة قتلى ، ومعظمهم جرحى ، وقد نُهكت قواهم ، فدخل وقت الصلاة ، وحانت ، فصلى بهم قعوداً صلى الله عليه وسلم ، وغفر الله للمنهزمين من المسلمين ، ونزل قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 155)

واستشهد نحو سبعين رجلاً ، معظمهم من الأنصار ، وقُتل من المشركين اثنان وعشرون ، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، ويُقال : إنه قال لعلي رضي الله عنه : لا يصيب المشركين منها مثلها حتى يفتح الله علينا .

8 ـ استفزاز أبي سفيان للصحابة بعد المعركة :

أيها الإخوة ، بعد أن انتهت هذه المعركة هناك موقف يجدر بنا أن نستمع إليه ، لما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه، فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه ، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة ، يُفهم من هذا أنهم كانوا أركان الدين ، أعمدة كبار ، والناس بقوادهم ، والناس بأكابرهم ، وعَلِم قومه أنّ قوام الإسلام بهم، فقال : أما هؤلاء فقد كُفيتموهم ـ أي انتهينا منهم ـ فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ، فقال : قد كان في القوم مُثلة لم آمُر بها ولم تسؤني ، فقال: اعلُ هُبَل ـ يمجد آلهة قريش ـ فقال عليه الصلاة والسلام : ألا تجيبونه ؟ فقالوا : ما نقول ؟ فقال : قولوا: الله أعلى وأجلّ ، ثم قال : لنا العُزّى ، ولا عُزّى لكم ، فقال: ألا تجيبونه ؟ قالوا : ماذا نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم .

أيها الإخوة الكرام ، ما معركة أُحد إلا دليل على أنّ هذه الحياة دار ابتلاء ، وليست دار استواء .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

يقول الله عز وجل بعد ذلك :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 121)

لابد من الأخذ بالأسباب :

هذه الآية تشير إلى التخطيط الذي كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ، أي خطط لهذه المعركة تخطيطاً ، وتوكل على الله ، هذا يعلمنا أنه لا بد أن تأخذ بالأسباب ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يعلم ما عند أصحابه من ميزات ، فقد بوّأ كل واحد منهم مكانه الصحيح ، والله سميع عليم ، أي سميع لما تدعونه به ، وعليم بأحوالكم ، قال تعالى :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121)إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة آل عمران)

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ

الفشل هنا هو الضعف ، والله عز وجل يريد أن يذكرهم ببدر ، لماذا انتصروا ببدر ؟ قال :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

تذكير الله لنصره المؤمنين في بدر :

أنتم ضعاف ، أذلة ، أي إنكم ضعاف ، أو قِلة فكنتم أذلة ، وبعضهم قال : أذلة أي مفتقرون إلى الله عز وجل ، إما أنها تصف العدد القليل ، مع العدد القليل ضعف وذِلة ، وإما أن تصف حالهم مع الله عز وجل ، حالهم حال افتقار إلى الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

وقد ذكرت لكم أن المؤمن دائماً وأبداً بين امتحانين ؛ إذا قال : الله ، تولاه الله بالرعاية والتوفيق ، وإذا قال : أنا ، تخلى الله عنه ، فأنت بين التولي والتخلي ، أصحاب النبي رضوان الله عليهم افتقروا إلى الله في بدر فتولاهم بالنصر ، وعصوا أمر قائدهم في أُحد فتخلى الله عنهم ، واعتدّوا بعددهم في حنين فتخلى الله عنهم ، يمكن أن نأخذ هذا درساً لحياتنا اليومية ، إن عصيت لا بد من دفع الثمن ، وإن أشركت شركاً خفياً فلا بد من دفع الثمن ، وحينما يدفع أصحاب النبي وهم خيرة الخلق الثمن على خطأ مادي أو معنوي على معصية لقائدهم ، أو على اعتدادهم بعددهم ، وقد دفعوا الثمن ، فمن نحن حتى لا نُعاقب إن وقعنا في الخطأ نفسه ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

والمؤمن الصادق يراقب الله دائماً ، لعلي أخطأت ، لعلي اعتددت بشيء ، لعلي قلت : أنا ، وينبغي أن أقول : الله ، لعلي اعتددت بمالي ، أو بذكائي ، أو بخبرتي ، فحينما لا تحقق هدفك في الحياة فلا

بد أن تلوم نفسك ، لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسية ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

(مسلم ، الترمذي ، ابن ماجة ، أحمد ، الدارمي)

قال تعالى :

(إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 124)

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ

1 ـ الملائكة تقاتل مع المؤمنين في أحدٍ :

يمكن أن يكون النصر من عند الله عز وجل مباشرة ، ولكنه سبحانه طمأن المؤمنين أنّ الملائكة تدافع معكم ، وهذه من كرامات الله للمؤمنين ، لكرامة المؤمن عند الله ، الله عز وجل يرسل ملائكته يدافعون عنه ، ويعينونه في ساحة المعركة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

(مسلم ، الترمذي ، ابن ماجة ، أحمد ، الدارمي ، أبو داود)

حفتهم الملائكة أي حفظتهم ، أي سددت خطاهم ، أي ألهمتهم الخير ، وهذا ينقلنا إلى موضوع دقيق وهو أن لكل إنسان ملك يلهمه ، وشيطان يوسوس له ، وأنت مخير ، ولا سلطان لأحدهما عليك ، إما أن تستجيب لوسوسة الشيطان فتقع ، وإما أن تستجيب لإلهام الملائكة فتنجو :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم : الآية 22)

هناك قرين من الجن يوسوس لك ولا سلطان له عليك ، وهناك ملَك يلهمك الخير ، ولا سلطان له عليك ، وأنت مخير لك أن تستجيب إلى وسوسة الشيطان ، ولك أن تستجيب لإلهام الملائكة قال تعالى :

(بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا)

(سورة آل عمران : الآية 124)

هذه الكلمة وردت في آيات كثيرة :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم : الآية 46)

ومع ذلك :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 120)

الصبر والتقوى لمجابهة كيد الأعداء :

انتهى كل شيء ، ونحن الآن والأعداء محيطون بنا من كل جانب ، والعالم كله يتآمر على الإسلام ، ولا ننجو من مؤامراتهم ، ولا من كيدهم ، ولا من تخطيطاتهم إلا إن صبرنا واتقينا ، والصبر كما تعلمون في ثلاثة مواطن ؛ على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى قضاء الله وقدره ، هذا هو الصبر والإيمان هو الصبر ، وبالمناسبة لم يأمرنا الله عز وجل رحمة بنا في كل الآيات التي تتحدث عن القتال أن نُعدَّ القوة المكافئة ، وهذا فوق طاقة المسلمين ، أمرنا أن نُعدّ القوة المتاحة فقال :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال : الآية 60)

وقتها رباط الخيل ، والقوة مطلقة ، فينبغي أن يكون لكل عصر قوة ، فكل عصر له قوة معينة ، ففي عهد النبي الكريم رباط الخيل ، ثم جاء المنجنيق ، ثم جاءت المدرعات ، والآن المسلمون ينبغي أن يخططوا ليكونوا على مستوى من الإعداد الكافي ، كي يُسقطوا عن أنفسهم إثم عدم الإعداد ، نعتمد على الله بكل ما نملك ، ونستعد لعدونا بكل ما نملك ، قال تعالى :

(بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ(125)وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران)

أي :

(قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)

(سورة البقرة : الآية 260)

أحياناً الله عز وجل يسوق للمؤمن توفيقاً بأسباب مادية ، كان من الممكن أن يسوق له توفيقاً بلا سبب ، هذا النصر أو هذا التوفيق بلا سبب قد يقلقه ، فيأتيه الله بأسباب من طبيعة البشر ، هذه الأسباب تطمئنه.

مثلاً لماذا قال الله عز وجل :

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

(سورة الأنعام : الآية 54)

لماذا قال الله عز وجل :

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)

(سورة المجادلة : الآية 21)

هل يكتب الله عز وجل ؟ الله جل جلاله لا يكتب ، هذا من صفات البشر ، لكن قوله تعالى :

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)

(سورة المجادلة : الآية 21)

الشيء المكتوب يبعث في النفس الطمأنينة ، يقول لك : معي عقد ، أو معي إيصال ، فالله عز وجل أحياناً يخاطبنا بحسب مفاهيمنا ، فهنا هؤلاء الملائكة الذين أمد الله بهم المؤمنين قال تعالى :

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

النصر الاستحقاقي ، والنصر التفضلي ، والنصر التكويني :

فما من معركة على وجه الأرض إلا وهي بيد الله ، ينصر من يشاء ، ويحقق الهزيمة على من يشاء بحكمة بالغة ، ولكن ، وهذا أوان أن نقول لكم : هناك نصر استحقاقي ، وهناك نصر تفضلي ، وهناك نصر تكويني ، حينما يقتتل مؤمنون صادقون مع أعدائهم ، صادقين في إيمانهم ، وفي توحيدهم ، وفي افتقارهم إلى الله ، وهم صادقون في إعداد العُدَّة ، فالذي علينا أن نُحكم توحيدنا ، وافتقارنا ، وإيماننا ، وأن نُعدّ القوة المتاحة لعدونا ، إن فعلنا هذا استحققنا النصر الاستحقاقي ، وكتب الله لنا نصراً استحقاقياً، وهذا تؤكده الآية الكريمة :

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 249)

وهناك نصر آخر اسمه نصر تفضُّلي ، هؤلاء الطرفان بعضهم أولى من بعض ، لكنّ الطرفين على انحراف ، تؤكد هذه الحقيقة الآية الكريمة :

(غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3)فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(4)بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

الروم كانوا أهل كتاب ، والفرس كانوا وثنيين يعبدون النار ، فإذا تقاتل كتابي مع وثني من هو الأقرب إلى الله نسبياً ؟ الكتابي ، هم آمنوا أنّ لهذا الكون إلهاً ، وأنّ هناك جنة وناراً ، ولكن أشركوا ، ولكن هؤلاء الوثنيون عُبَّاد النار ، فالله جل جلاله نصر الكتابيون على الوثنيين نصراً تفضُّلياً ، أي هم لا يستحقونه ، ولكنّ حكمة الله اقتضت أن ينتصر هؤلاء على هؤلاء ، لكنّ المشكلة في النوع الثالث ؛ حينما يشرد الفريقان عن الله ، وحينما لا يعتدُّ الفريقان بالإيمان ، ولا بالاستعداد ، وينطلقان من كفر بالله ، ومن تهميش لكل جانب ديني في حياتهم ، عندئذ ينتصر الأقوى ، والذي يملك أحدث أسلحة ، فكل صفات النصر عندئذ متعلقة بالإعداد ، والسلاح ، وما إلى ذلك ، هذا النصر اسمه نصر تكويني ، قال تعالى :

(لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 127)

الأمر بيد الله ، ويؤكد هذا قوله تعالى :

الأمر بيد الله :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

الأمر بيد الله ، وحينما تعلم أنّ يد الله تعمل في الخفاء وحدها ، وليس لأحد من الأمر شيء ، ألم يقل الله عز وجل :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر : الآية 19)

وقوله :

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(سورة الجن : الآية 21)

وقال :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

(سورة الأعراف : الآية 188)

هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، الأمر كله بيد الله ، وأنت حينما تُوحد وصلت إلى أعلى درجة في العلم ، نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل التقوى ، قال تعالى :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

أي يتوب عليهم لحكمة أرادها ، يعذبهم لحكمة أرادها ، وهذا من شأن الله وحده ، وقد أكد هذا المعنى القرآن الكريم في آية أخرى :

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة : الآية 118)

أيها الإخوة حينما تصل إلى أن الله وحده المتصرف ، ولا أحد سواه ، وأن سيد الخلق ، وحبيب الحق لا يملك لك نفعاً ولا ضراً ، وأن ما من مخلوق على وجه الأرض يملك لك نفعاً ولا ضراً ، وأن الخلق جميعاً بيد الله ، فهو الذي يحركهم ، وهذا هو التوحيد .

أحد الأنبياء قال :

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

والله أيها الإخوة ، حتى في التفاصيل ، حتى في حركتك اليومية ، حتى في تجارتك ، حتى في بيعك وشرائك ، حتى في امتحاناتك ، حتى في سفرك ، الأمر كله بيد الله ، فحينما تتجه إلى الله وحده ، وحينما تأخذ بالأسباب ، ثم تتوكل على رب الأرباب ، هذا هو الموقف الإيماني ، ليس لك من الأمر شيء ، حتى لو أنك انتزعت من فم النبي صلى الله عليه وسلم فتوى لصالحك ، ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله ، فهذا الذي يعلق آمالاً على زيد أو عبيد ، ويضع كل ثقته بفلان أو علان قد وقع في شرك خفي .

وكما تعلمون أيها الإخوة ، الشرك الجلي قلما يقع فيه مسلم ، أي ليس هناك مسلم يعبد صنماً من دون الله ، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا وَلا وَثَنًا ، وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

(أحمد ، ابن ماجة)

قال تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف : الآية 106)

تطبيقات درس : الأمر بيد الله :

وهذا الدرس أيها الإخوة ، له تطبيقات كثيرة ، أنت غداً في عملك حينما ترضي إنساناً ، وتعصي خالقك وقعت في الشرك ، حينما تكسب مالاً حراماً إرضاء لزوجتك وقعت في الشرك ، رأيت رضاها أعظم من رضاء الله عز وجل ، فأكثر أخطاء المسلمين سببها شرك خفي ، حينما تنافق وقعت في الشرك ، رأيت أنّ هذا الذي تنافق له ينفعك ، أو يضرك، لو رأيت أنه لا ينفعك ولا

يضرك لا تنافق له، حينما حجّ بعض خلفاء بني أمية سألوا عن عالِم جليل في مكة المكرمة كي يكرموه ، فدُلَّ على عالِم من علماء مكة ، قال له الخليفة : سلني حاجتك ، وهو في بيت الله الحرام ، قال : والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله ، فلما التقى به خارج الحرم ، قال له : سلني حاجتك ، قال : والله ما سألتها من يملكها ، أفسألها من لا يملكها ، فلما أصرّ عليه ، قال : لي عندك حاجة ، أن تُنقذني من النار ، وأن تُدخلني الجنة ، قال : هذه ليست لي ، قال : إذاً ليس لي عندك حاجة ، هذا الكلام له تطبيقات واسعة ، غداً في بيوتكم ، وفي أعمالكم ، وتجارتكم ، وفي وظيفتكم ، ونشاطاتكم حينما تتجه إلى إنسان ، وتعلّق عليه الآمال ، فقد وقعت بشرك خفي ، لك أن تأخذ بالأسباب ، لكنّ قلبك معلّق بالله ، ترى أنّ الله يلهمه أو لا يلهمه ، يعطيك أو لا يعطيك بأمره وحده ، ليس لك من الأمر شيء ، قلت لكم قبل قليل حتى لو استطعت أن تنتزع من فم النبي صلى الله عليه وسلم فتوى لصالحك ، ولم تكن محقاً فلا تنجو من عذاب الله .

حينما وافت النبي صلى الله عليه وسلم المنية ، ودخل الصدِّيق ، وكشف عن وجهه ، وقبَّله ، وقال : طبت حياً ، وطبت ميتاً ، خرج إلى المسلمين ، ماذا قال ؟ هذا الذي أحبّ النبي حباً لا حدود له ، هذا الذي قدّم له ماله كله ، هذا الذي قال عنه النبي : والله ما ساءني قط ، هذا الذي قال عنه النبي : ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر ، هذا الذي قال عنه النبي : أبو بكر وعمر بمثابة السمع والبصر ، ماذا قال هذا الصدِّيق ؟ دققوا في قوله ، قال : من كان يعبد محمداً ـ لم يقل رسول الله ـ فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، لذلك هناك مطبّات كثيرة ، مثلاً إنسان في مسجد إذا ظنّ أنه يرضي زيداً في هذا المسجد أو عبيداً، وينسى أن يرضي الله عز وجل وقع في الشرك ، ينبغي أن ترضي الله عز وجل ، علامة إيمانك أن يستوي عملك في السر والعلانية ، وأن يستوي قصدك لله عند الحاجة ومن دون حاجة ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو فيقول :

((اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى))

(أحمد ، النسائي ، أبو داود)

أيها الإخوة ، أن تقول : الله خالق الكون هذه حقيقة أقرّ بها الكفار ، وأقرّ بها المشركون ، قال تعالى :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

(سورة الزمر : الآية 38)

لكن الحقيقة الخطيرة في الدين أن ترى أنّ الله وحده هو المتصرف ، هو وحده الفعال ، هو وحده يرفع ويخفض ، يعطي ويمنع ، يعز ويذل ، يبسط ويقبض ، حينما ترى أن الله وحده هو المتصرف لا تتجه إلى غيره بل تتجه إليه وحده .

قال تعالى :

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(126)لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ(127)لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

(سورة آل عمران)

حكم منع الحمل :

أيها الإخوة المؤمنون ، بادئ ذي بدء لا بد من تنويه وإشارة ، في الأسبوع الماضي سُئلت عن حكم منع الحمل ، وقد بينت أن الصحابة الكرام كانوا يعزلون على عهد رسول الله ، والعزل ألا يأتي الماء في الرحم ، وقد اشترط الفقهاء على صحة العزل موافقة الزوجة ، لأن الرجل قد يتزوج امرأتين ، وله من الأولى أولاد ، ولا يرغب بأولاد من الثانية ، لكنّ هذه الثانية حُرمت النسل ، وهذا ظلم كبير ، فلا يُسمح بالعزل إلا بموافقة الزوجة .

ثم سُئلت عن أنواع أساليب منع الحمل ؟ أنا رجحت أنّ هذه الأساليب قد تؤذي أحياناً ، لأن الطب أحياناً يُتاجَر به ، ومن يقوم على صناعة بعض الأدوية من صالحه أن يروِّج بضاعته بكلام غير صحيح ، فهناك أدوية لمنع الحمل أساسها التغيير في النظام الهرموني ، وهذا قد يسبب نتائج وخيمة جداً ، أنا معلوماتي الطبية أنّ بعض وسائل منع الحمل قد تكون مؤذية للمرأة .

حُكم ربط المبيض :

ثم أُدرج في أثناء سؤالي موضوع الربط ، هذا بعيد عن اختصاصي ، أنا ظننت الربط أحد أسباب منع الحمل ، ثم فوجئت أن الربط منع حمل أبدي ، ربط المبيض انتهى الحمل كلياً لهذه المرأة ، فقد تُطلَّق ، وقد يتزوجها إنسان آخر يريد ولداً ، فأسلوب واحد من أساليب منع الحمل هذا لا يجوز ، لأنه يمنع الحمل كلياً ، إلا أن هناك استثناء لو أنّ طبيباً مسلماً حاذقاً ورعاً أكّد أن حمل هذه المرأة يُميتها ، فعندئذ يجوز الربط .

أريد من هذا أن أؤكد لكم أنه في حالات كثيرة لا بد للمفتي أن يُجيّر فتواه إلى طبيب مسلم حاذق ورع، هذا كلام دقيق ، وقد ضربت على هذا مثلاً ، فلو أن واحداً سأل عالِماً كبيراً من أعلم علماء الأرض في الدين : أنا مصاب بمرض في القلب ، أأجري عملية زرع شريان ، أم عملية بالون ؟ لا يوجّه مثل هذا السؤال للشيخ ، يوجّه إلى طبيب مسلم حاذق ورع ، ففي حالات كثيرة تُجيَّر الفتوى للمتخصصين ، وهذا معنى قول الله عز وجل :

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا)

(سورة الفرقان : الآية 59)

وأيضاً قوله :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنبياء : الآية 7)

فأدرج سؤال حول الربط ، أنا ظننته خطأ وسيلة من وسائل منع الحمل المؤقتة ، ثم أُخبرت بعد حين أنها وسيلة أبدية ، إذاً لا يجوز أن نستخدم الربط ، لأنّ هذه المرأة حرمت الولد إلى الأبد ، إلا في حالة إذا أقرّ الأطباء المسلمون الحاذقون الورعون أنّ هذه المرأة لو حملت لماتت عندئذ يمكن أن نستخدم هذا، هذه واحدة .

رسالة وشكوى من متزوجة قهرًا :

الشيء الثاني أخت كريمة أخطأ أهلها في زواجها ، واحتسبت هذا عند الله ، ولكن أرادت أن تُبصّر من بعدها بمصيبتها ليتعظوا بها ، أنا والله قرأت الرسالة وتأثرت ، قالت : هي توجه الرسالة إلى أمها ، قالت : يا أمي أنا أعيش في جحيم هنا مع زوجي في بلد نفطي ، مع زوجي هذا الرجل العاجز عما تحمله الرجولة من معنى ، هو يكبرني بالعمر بكثير ، فهو في عمر جدي ، وأنا في الثامنة عشر من عمري ، وهو في عمر الخامسة وأربعين ، وهكذا أراد والدي أن يبيعني لهذا الرجل لقاء بعض الريالات ، ليصرفها والدي على نفسه ، وأنا أعيش ، وأتخبط في حياتي ، أرجوك يا أمي أسرعي بالحضور إلى مكان وجودي ، ونجدتي من مشكلتي لأعود معك إلى الشام ، أرجوك يا أمي السعي مع القنصلية هناك بالوقوف بجانبي ، ومساعدتي للعودة إلى الشام ، أرجوك يا أمي أن تخلّصيني من هذا الكابوس الذي أعيشه ، الباب دوماً مقفل علي ، الطعام القديم الذي لا يؤكل هو طعامي في المنزل ، يتركني وحدي في المنزل لعدة أيام بلا شيء ، ولا حتى بسؤال عني ، أو مرور إلى المنزل ليسأل إذا كنت أريد شيئاً ، أمي رغم معرفتي بأن الانتحار هو من المحرمات في الدين الإسلامي ، وفي جميع الأديان ، ولكني كثيراً ما أفكر في الانتحار ، وقد أفعلها إن لم تسعفيني ، وتأتي بي إلى الشام ، رسالة طويلة .

هذا الذي يزوج ابنته ، وهي في الثامنة عشر إلى من يكبرها بعشرات السنين من أجل دريهمات قليلة ، وكأنه باع ابنته ، طبعاً قرأت بعضاً من هذه الرسالة كي تعدّوا للمليون قبل أن توافقوا على زواج ابنتكم من إنسان بينه وبينها فارق كبير جداً ، وقبل أن توافقوا على زواج ابنتكم من إنسان قد يكون بخيلاً ، وقد يكون قاسي القلب ، وقد يكون بعيداً عن كل معاني الإنسانية ، هذه الأخت تريد أن أقرأ الرسالة فقط ليتعظ المسلمون بها ، فهي في جحيم لا يُطاق ، وكيف لا تكون كذلك ، وقد تجد أن الانتحار قد يكون حلاً لمشكلتها .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(33-60): تفسير الآيات 121 - 123
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-07-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الواحدة والعشرين بعد المائة ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

1 ـ مهمةُ وضع الرجلِ المناسب في المكان المناسب :

هذه الآية مررنا عليها سريعاً في الدرس الماضي ، ولكن فيها ملمح دقيق ، هو أن مهمة القيادة الأولى هي أن تضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، فكان سينا عمر رضي الله عنه يقول : << أريد أميراً ! إن كان أميراً بدا وكأنه واحد منكم ، وإن لم يكن أميراً بدا وكأنه أمير >> ، إن لم يكن أميراً من شدة غيرته على المصلحة العامة بدا وكأنه أمير ، وإن كان أميراً فعلاً بدا من شدة تواضعه وكأنه واحد من أصحابه .

البطولة في القيادة أن تختار الإنسان المخلص الكفء ، الكفاءة والإخلاص ، القوة والأمانة ، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم من كمال قيادته لأصحابه أنه يعرف قدراتهم الخاصة وإمكاناتهم ، وأين هم من سلّم الإيمان ، وأين هم من سلّم التضحية ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يندب صحابياً لمهمة ، واقترح عليه شخص يقول : ليس هناك ، أي ليس في هذا المستوى .

الحقيقة أيها الإخوة أنك إذا أدرت مدرسة ، أو مستشفىً ، أو مؤسسةً ، أو كنت رئيس بلدية في أي عمل قيادي ، مهمتك الأولى أن تعرف إمكانات من حولك ، وقدراتهم الخاصة ، وأن تستخدم هذه الإمكانات وتلك القدرات بمكانها الصحيح ، فإذا وضعت الإنسان المناسب في المكان المناسب فقد وفقت أيما توفيق .

ذكرت لكم أن سيدنا عمر قال لأحد الولاة : << خذ عهدك ، وانصرف إلى عملك ، واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنك تصير إلى أربع خلال ، فاختر واحدة منها ، إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعفك ، وسلمتك من معرتنا أمانتك ، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك ، وأوجعنا

ظهرك ، وأحسنا أدبك ، وإن جمعت الجرمين جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً زدناك في عملك ، ورفعنا لك ذكرك وأوطأنا لك عقبك >> .

من ولي أمْرَ عشرة فولى عليهم رجلاً ، وفيهم من هو خيرٌ منه خان الله ورسوله ، لو كنت معلماً في الابتدائي ، وعينت عريفاً على هؤلاء الطلاب ، بسبب قرابة أو بسبب محاباة ، وفي الطلاب من هو أجدر بهذا المنصب فقد خنت الله ورسوله .

عَن ابْن حُجَيْرَةَ الْأَكْبَرِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ :

((قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي ؟ قَالَ : فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))

(صحيح مسلم)

لا يوجد إنسان إلا وعنده محل ، وموظفون ، موظف قرّبه ، وموظف بعّده ، موظف رقّاه ، وموظف لم يرقّه ، موظف ابتسم في وجهه ، وموظف عبس بوجهه ، هذا كله محاسب عليه ، ينبغي أن تضع الإنسان الكفء في مكانه الصحيح ، دون محاباة ، ودون تزوير للحقائق ، فكأن الله جل جلاله يبين أن النبي عليه الصلاة والسلام كان خبيراً لأصحابه ، وقد علمت أن كتاباً في طور التأليف حول وصف النبي لأصحابه ، ما من صحابي جليل إلا وأخذ من رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة دقيقة ، هذا سيف الله ، وهذا أمين هذه الأمة ، وهذا لو كان نبياً لكان عمر ، وهذا مني بمثابة السمع والبصر ، وهذا حبر هذه الأمة ، وهذا حواري رسول الله .

هكذا يجب أن تأخذ الوضع الصحيح ، النبي عليه الصلاة والسلام فضلاً عن كونه زعيماً سياسياً فهو قائد عسكري ، والقيادة تحتاج إلى تعيين قواد فرعيين ، فكان يضع الإنسان المناسب في المكان المناسب ، كل هذا من قوله تعالى :

(وَإِذْ غَدَوْتَ)

2 - وَإِذْ غَدَوْتَ :

أي خرجت ، بالمناسبة : غدا ذهب إلى عمله باكراً قبل الشمس .

وراح : عاد إلى بيته .

هذا هو المعنى اللغوي الصحيح ، لو أن واحداً طرق باب بيتك في المغرب وسأل : هل أبوك في الداخل ؟ فقال له ابنه : والله الآن راح ، فقال له : سلم عليه ، هذه الكلمة معناها الآن أتى ، لأنه غدا : ذهب ، وراح : عاد .

نحن في اللغة الدارجة نستخدم راح بمعنى ذهب ، أما في اللغة الفصيحة فإن راح بمعنى أتى .

لو أن ابناً ذكياً جاء دائنٌ لأبيه ، وقال له : أبوك في البيت ؟ قال له : الآن راح ، هل هو كاذب أم

صادق ؟ هو كاذب فقهاً شرعاً ، لأنه أوهم السائل أنه خرج من البيت ، هو صادق لغة ، العبرة ماذا فهم منك ؟ فهم منك أنه ليس في البيت ، فقد كذبت عليه ، وإن كانت كلمتك في اللغة صادقة ، لكن هنا النبي عليه الصلاة والسلام خرج من المدينة إلى معركة بدر بعد الظهر ، بعد ظهر الجمعة ، فكيف نوفق بين غدا بمعنى ذهب قبل الفجر ، وبين غدا هنا بمعنى ذهب ؟ قال بعض علماء اللغة : يستخدم الغدو والرواح ، الغدو للخروج ، والرواح للعودة مطلقاً من غير قيد زمني ،

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ)

3 ـ مِنْ أَهْلِكَ :

حبُّ الصحابة للنبي عليه الصلاة والسلام :

أي أنت جالس بين أهلك .. يذكرني هذا أن أبا سفيان حينما ألقى القبض على بعض أصحاب رسول الله المحبين أظنه خبيبًا ، وأرادوا أن يصلبوه ، قال : يا خبيب أتحب أن يكون محمد مكانك ؟ هو سيصلب ! وأنت معافىً في أهلك ، فقال قولة ، والله لو لم يقل غيرها لكان من أهل الجنة ، قال له : والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي (أي زوجته أمامه مزينة ، وأولاده بمظهر حسن ، وأذكياء) وعندي عافية الدنيا (لا يوجد مشكلة ، ولا مرض ، ولا فقر ، ولا قضية) عافية الدنيا ونعيمها (باقة ورد جميلة ، طعام ما لذ وطاب) ويصاب رسول الله بشوكة .

هكذا كان أصحاب النبي ، نحن ينقصنا الحب ، ينقصنا الود ، ينقصنا أن نكون متعاونين ، متكاتفين ، فقال أبو سفيان : والله ما رأيت أحداً يحب أحداً ، كما يحب أصحاب محمد محمداً ، وبهذا الحب أحبهم الله عز وجل ، ففي الحديث :

((الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ ، قَالَ فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَقُلْتُ : يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، لَا أُحَدِّثُكَ بِمَا حَدَّثَنِي مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فِي الْمُتَحَابِّينَ قَالَ : فَأَنَا أُحَدِّثُكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْفَعُهُ إِلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ))

[أحمد]

امرأة أنصارية بلغها أن النبي قتل في أحد ، تخرج إلى ساحة المعركة لترى زوجها مقتولاً، تسأل : أين محمد ؟ ثم رأت أباها مقتولاً ، ثم رأت ابنها مقتولاً ، ثم رأت أخاها مقتولاً ، هذه مصيبة ؛ أب ، وزوج ، وابن ، وأخ !! وتقول : ما فعل رسول الله ؟ ولما وقعت عينها على رسول الله قالت : يا رسول الله كل مصيبة بعدك تهون .

هذه امرأة عندها حب للنبي ، والله لو وزع على العالم الإسلامي اليوم لوسعه، بهذا الحب انتصروا ، بهذه التضحية انتصروا ، ابن أبي رواحة الشاعر ، أرسله النبي إلى يهود خيبر ليقيِّم تمرهم ، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ إِلَى خَيْبَرَ فَيَخْرُصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِ خَيْبَرَ ، قَالَ : فَجَمَعُوا لَهُ حَلْيًا مِنْ حَلْيِ نِسَائِهِمْ ، فَقَالُوا لَهُ : هَذَا لَكَ ، وَخَفِّفْ عَنَّا ، وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْمِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ ، وَمَا ذَاكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ ، فَأَمَّا مَا عَرَضْتُمْ مِنْ الرَّشْوَةِ فَإِنَّهَا سُحْتٌ ، وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا ، فَقَالُوا : بِهَذَا قَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ))

[مالك في الموطأ]

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

أيها الإخوة الكرام ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ

1 ـ القلة ذلة والكثرة عزة :

فسر بعض العلماء كلمة أذلة بأنهم قلة ، القلة أذلة ، والكثرة أعزة ، فكانوا قلة ، لكنهم اعتمدوا على الله، وتوكلوا عليه وافتقروا إليه ، وأخذوا بالأسباب ، فاستحقوا النصر .

أليس هذا الدرس نافعاً لنا ؟ نحن قلة ، ونحن ضعاف ، إذا أخذنا بالأسباب قدر ما نستطيع ، وتوكلنا على الله ننتصر .

2 ـ موازنة بين غزوتي بدر وبين أُحُد :

أيها الإخوة لا بأس من قراءة قصة معركة بدر ، لأن الموازنة بين بدر وبين أحد مهمة جداً ، بماذا انتصر المسلمون في بدر ، ولماذا هزموا في أحد ؟

ذكرت في الدرس قبل الماضي أن المسلمين في عهد النبي الكريم هزموا مرتين ، مرة في أحد ، ومرة في حنين ، في أحد لأسباب سلوكية ، وفي حنين لأسباب اعتقادية ، في أحد لم يطيعوا أمر الأمير ، لو انتصروا لسقط أمر القائد ، ولا قيمة له ، وفي حنين ظنوا أنهم لن يغلبوا من قلة .

مرة قال لي أحده ـ أصلحه الله ـ قال لي : الدراهم مراهم ، تحل أي مشكلة ، تورط في تهمة ، وقبع في السجن ستون يوماً ، قال لي : كل يوم يأتيني هذا الخاطر : الدراهم مراهم ، تحل كل مشكلة ،

الإنسان أحياناً يتكلم كلمة كبيرة ، فيها شرك ، فأدبه الله عز وجل ، لا تنفعك إلا رحمة الله ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

لأن المسلمين يوم بدر كانوا في غاية الضعف ، عدداً وعُدداً ، والكفار كانوا في غاية الشدة والقوة ، ثم إنه تعالى نصر المسلمين ، وهم في غاية الضعف ، والقلة عدداً وعُدداً ، على الكافرين ، وكانوا في غاية القوة والكثرة ، فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن ثمرة التوكل عليه تعالى ، والصبر والتقوى ، هو النصر والمعونة والتأييد ، أي إن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، ولا يمكن أن يذكر الله لنا قصة في القرآن وقعت ، ولن تقع ، إذاً لأصبح القرآن كتاب تاريخ !!

3 ـ عزوة بدر وأحد درس لنا :

لابد من أن تكون قصص القرآن قوانين ، سننًا ، قواعد متكررة ، هذا الدرس لنا الآن ، إذا أردنا أن ننتصر على أعدائنا فلابد أن نكون كأهل بدر ، أن نكون مؤمنين بالله حق الإيمان ، متوكلين عليه ، مفتقرين إليه ، موحدين له ، ولابد أن نستعد ، الاستعداد المتاح ، وعندئذٍ لابد من النصر ، وبدر موضع بين الحرمين الشريفين ، بين حرم مكة ، وحرم المدينة ، إلى المدينة أقرب ، يقال : هو منها على ثمانية وعشرين فرسخاً ، من بدر ، أو اسم بئر حفرها رجل اسمه بدر ، هكذا .

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

وقوله تعالى :

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أي راجين أن تشكروا ما أنعم به عليكم بتقواكم ، من نصرته .

غزوة بدر :

1 ـ سبب غزوة بدر : الخروج للتعرض لقافلة قريش التجارية :

أيها الإخوة ، وكان سبب هذه الواقعة أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن عيراً لقريش (أي جمال عليها بضاعة ثمينة) فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة ، معها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش ، عميدهم أبو سفيان ، قافلة تجارية فيها بضائع كثيرة جداً ، معها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش ، عميدهم أبو سفيان ، ومعه عمرو بن العاص ، ومخرمة بن نوفل ، انظر إلى قوة النبي الكريم ، أحياناً يوجد هجوم دفاعي ، نحن كل حياتنا ردود فعل ، لكن قلما نفعل فعلاً فيه

مبادرة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لحكمته القيادية رأى أن يبادر ، فنزل صلى الله عليه وسلم إلى هذه العير ، وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج ، معنى الظهر أي من كان عنده فرس يركبه ، أو ناقة يركبها ، هذا الشيء ثمين جداً ، ولم يحتفل في الحشد ، لم يعنى عليه الصلاة والسلام بالعدد ، عملية مناورة ، عملية حركة ، عملية إثبات وجود ، عملية لفت نظر ، عملية تلويح العصا ، هذا من معاني غزوة بدر ، ولم يحتفل بالحشد ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يظن قتالاً ، أي ما توقع أن تكون هذه المناوشة معركة ، وخرج مسرعاً في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، عدد مقاتلي بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فقط ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان ، ثلاثمائة رجل وفرسان ، وكان معهم سبعون بعيراً يتعقبونها ، أي يتناوبونها .

النبي عليه الصلاة والسلام يسوّي نفسه مع أبسط الجنود :

والقصة التي أرويها آلاف المرات أنه صلى الله عليه وسلم قال : كل ثلاثة على راحلة ، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة ، قائد الجيش ، نبي هذه الأمة ، زعيم هذه الأمة ، سوى نفسه مع جنديين ، فركب النبي الناقة في نوبته ، فلما انتهت نوبته ، وجاء دوره في المشي ، طبعاً الصحابيان مؤدبان جداً توسلا إليه أن يبقى راكباً في نوبتهما ، فقال هذه الكلمة ، والله تكتب بماء الذهب : قال عليه الصلاة والسلام : ما أنتما بأقوى مني على السير ، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر ، زعيم هذه الأمة ، ونبي هذه الأمة محتاج أن يكسب أجراً وثواباً على مشي .

الإنسان يكون له دعوة بسيطة فتنفع عن ألف عمل صالح ، هذا ليس مقامي **!!** فما مقامك ؟ المؤمن الصادق يحب أن يفعل كل أنواع الخير ، سيدنا الصديق رضي الله عنه الصحابي الأول، وكان ملازم للنبي عليه الصلاة والسلام ، كان أمين سره ، وكان أقرب أصحابه إليه

ومما ورد في الأثر قوله :

((ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر))

ومع ذلك كان يحلب شياه جيرانه كل يوم ، فلما صار خليفة المسلمين توقع جيرانه أن يترفع عن هذه الخدمة ، في اليوم التالي لتوليه الخلافة طرق باب الجيران ، فقالت الأم لابنتها : افتحي الباب يا بنيتي ، فتحت الباب فقالت : من الطارق يا بنيتي ؟ فقالت : جاء حالب الشاة يا أماه ، أي سيدنا الصديق خليفة المسلمين ، جاء ليحلب الشاة .

لا تخجل من أي خدمة في سبيل الله :

قال النبي : ما أنتما بأقوى مني على السير ، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر ، كنت مرة مع صديق ، قال لي : مرة كنت بأحد المساجد الكبيرة ، فوجدت هناك رجلا هيئته ، وثيابه ينمان عن علو شأنه

، فسأل عنه فإذا هو ضابط كبير جداً في البحرية الأمريكية ، وهو يغسل دورات المياه في المسجد ، هذا أسلم ، فتقرب إلى الله بخدمة المسجد .

والله مرة زارنا أخ من مصر ، ودخل إلى دورات المياه قال لي : شيء لا يصدق !! كأنها في بيت صاحبته من كثرة في النظافة ، وأنا والله أحبه كأحد أولادي ، يخدم هذه الدورات ، فخدمة المسجد شرف ، بل إن سيدنا إبراهيم أبا الأنبياء صلوات الله عليه كان في خدمة بيت الله الحرام :

(أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ)

(سورة البقرة الآية:125)

مهمته تنظيف البيت الحرام ، والآن تقريباً في كل موسم حج ملك المملكة السعودية يغسل الكعبة المشرفة بيده ، هذا شرف ، إذا خدمت مسجداً ، أو قدمت خدمة لمسجد ، أو بنيت مسجداً فهذا بيت الله ، فكلما كان قدرك عظيمًا خارج المسجد تزداد شرفاً بخدمة المسجد ، مهما كان قدرك عظيماً خارج المسجد تزداد شرفاً بخدمة المسجد ، هذا كله من أن النبي عليه الصلاة والسلام ما زهد بعمل ، وهو أن يمشي وصاحبه يركب الناقة ، كان معهم سبعون بعيراً يتعقبونها ، أي يتناوبون ركبوها .

واتصل خروجه بأبي سفيان ، فاستأجر ضمضمة بن عمرو الغفاري ، وبعثه إلى أهل مكة ليحموا عيرهم ، المؤمن إنسان بسيط ، ساذج لا يخيف ، لكن هنا الإيمان قوة ، النبي تحرش بهم ، هذه مبادرة، هذا فعل ، أما الأمة الضعيفة فكل حياتها ردود فعل ، أما النبي عليه الصلاة والسلام هو بدأ

2 ـ خروج النبي إلى بدر في رمضان :

وخرج صلى الله عليه وسلم لثمانٍ خلون من رمضان ، من زار الديار المقدسة في الصيف يعلم ما معنى الصيف هناك ، ثمانٌ وخمسون درجة ، ستون درجة ، وفي رمضان :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)

(سورة البقرة الآية : 214)

الآية الكريمة :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

لابد من بذل كل شيء في سبيل الله

اسأل نفسك : أنا ماذا أفعل ؟ هل سهرت الليل في سبيل الله ؟ هل بذلت الغالي والرخيص في سبيل الله؟ هل جعت في سبيل الله ؟ فَعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلا مَا وَارَى إِبِطُ بِلالٍ))

[سنن ابن ماجه]

الإنسان يحاسب نفسه ، هل خفت في الله ؟ هل جعت في الله ؟ هل أوذيت في الله ؟ هل أوذيت لأنك مسلم ؟ هل حرمت مغنماً لأنك مسلم ؟ هل حرمت بعثة لأنك مسلم ؟ هل ضيق عليك لأنك مسلم ؟ ماذا فعلت ؟ الله عز وجل يريد أن نفعل شيئاً في سبيله ، حتى يرقى بنا إلى أعلى عليين .

3 ـ استخلاف النبي بعض أصحابة لإدارة شؤون المدينة :

فالنبي عليه الصلاة والسلام خرج لثمانٍ خلون من رمضان ، واستخلف على الصلاة ابن أم مكتوم ، يوجد نظام ، الحضارة نظام ، هناك من استخلفه النبي للصلاة في المدينة ، ورد أبا لبابة من الروحاء ، موقع قريب لبدر ، واستعمله على المدينة والياً في غيبته ، يوجد أمير للمدينة ، ويوجد إمام ، أمير وإمام، وصنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس ، الأمراء والعلماء ، العلماء ملح البلد ، فمن يصلح الملح إذا الملح فسد ؟ حينما يقصر العالم بواجبه الديني فالمشكلة كبيرة جداً ، سيدنا علي يقول : قوام الدين والدنيا أربعة رجال ، عالم مستعمل علمه ، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم ، وغني لا يبخل بماله ، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه ، قال : فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره .

4 ـ تنظيم الأمور قبل الوصول على بدر :

رد أبا لبابة إلى المدينة من الروحاء ، واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، أي القيادة العامة ، ودفع إلى علي راية ، وإلى أنصاري راية أخرى ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة ، راية الأنصار كانت مع سعد بن معاذ ، فسلكوا نقب المدينة إلى ذي الحليفة ، ثم انتهوا إلى صخيرات يمام ، ثم إلى بئر الروحاء ، ثم رجعوا ذات اليمين بالطريق إلى الصفراء ، وبعث صلى الله عليه وسلم قبلها بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر ليتجسسا ، لابد من تقصي أخبار العدو، هذا هو التجسس ، فما هو التحسس ؟ قالوا : التجسس تتبع الأخبار السيئة ، أما التحسس فتتبع الأخبار الطيبة ، والآية :

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾

(سورة الحجرات الآية:12)

فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، كم تأخذ في الشهر ؟ أخبار طيبة ، لكن هذا فضول !! هذا أسلوب حشري ، لم يطلب منك أن تساعده حتى تسأله كم بأخذ في الشهر ، لا تجسسوا ولا تحسسوا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

فمن لوازم القيادة الحكيمة أن تستطلع أخبار العدو ، بعث بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر يتجسسان أخبار أبي سفيان وعيره .

5 ـ استشارة النبي أصحابَه في أمر القتال وسروره بموقف الأنصار :

ثم تنكب عن الصفراء يميناً ، وخرج على وادي دقران ، فبلغه خروج قريش ونفيرهم ، فاستشار أصحابه ، فالقصة من أولها كانت مناورة ، فإذا هي معركة ، استشار أصحابه فتكلم المهاجرون وأحسنوا ، وهو يريد ما يقوله الأنصار ، الأنصار وعدوه أن يمنعوه ، وليس ثمة اتفاق أن يخرجوا معه، فوجد شيئًا جديدًا ، لابد من موافقة الأنصار ، هم وعدوه أن يمنعوه في مدينتهم ، لا أن يحاربوا معه ، فحتى يتأكد من الوضع سألهم ، فقال : أشيروا علي أيها الناس ، فقال سيدنا سعد : لعلك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ، فقال سيدنا سعد كلامًا لو كل إنسان دعا إلى الله معه أمثال سيدنا سعد ، وكل إنسان أراد أن يفعل شيئاً لصالح المسلمين معه أمثال هؤلاء ، لكنا في حال غير هذا الحال ، قال له سيدنا سعد : امض لما أردت ، فو الله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، سر بنا على بركة الله، صِل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعادِ من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل ، لصبرٌ في الحرب صدق عند اللقاء ، فلعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

قوة العالِم بقوة مَن معه :

تقول : إن العلماء مقصرون ، هذا يقال في أكثر من مجلس ، العلماء قوتهم بقوة من معهم ، ولكن لو وجد ولاء بسيط !

تروى قصة شهيرة ، هي طرفة ، في عهود قديمة أحد كبار العلماء كثر أتباعه جداً ، فاستدعاه الوالي ، قال له الوالي : أأنت أم أنا ؟ قال له : أنت الوالي ، وأنا لست بوالٍ ، قال له : ما هذا الجمع الغفير الذي حولك ؟ قال له : ما عندي أحد ، عندي واحد ونصف ، قال له : عندك عشرون أو ثلاثون ألفًا ، قال له: عندي مريد ونصف فقط ، قال له : ما هذا الكلام ؟ قال له : أشع في البلد أنك حبستني ، وانظر ماذا سيكون !! أشيع هذا الخبر فتفرق كل هؤلاء ، ولم يبق أحد ، وجاء يومًا حطاب أراد أن يهدم القصر بفأسه ، لأن شيخه مسجون ، قال له : هذا المريد ، وجاء آخر ناعم ، وقال : لماذا حبستم الشيخ ؟ قال له : هذا النصف ، تجمع فارغ ، لا شيء فيه .

قال له : لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، صل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعادِ من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، ائت لي بأتباع بنصف هذا الصدق ، وبنصف هذه القوة فترى حال المسلمين بغير هذا الوضع ،

النبي سر بهذا الكلام جداً ، وقال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه عن جده قال :

((خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر ، حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا ، ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال عمر مثل قول أبي بكر ، ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله إيانا تريد ، فو الذي أكرمك ، وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم ، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك ، ولا نكونن كالذين قالوا لموسى :

(اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)

، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول سعد :

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق)

إلى قوله

(ويقطع دابر الكافرين)

، وإنما رسول الله يريد غنيمة مع أبي سفيان فأحدث الله إليه القتال))

(الدر المنثور للتفسير بالمأمور للإمام جلال الدين السيوطي)

فالنبي سر بهذا الكلام جداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((سيروا ، فإن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم))

[الدر المنثور للتفسير بالمأمور للإمام جلال الدين السيوطي]

قال له سعد بن معاذ :

((واللّه لكأنك تريدنا يا رسول اللّه ، قال : أجل ، فقال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول اللّه لما أمرك اللّه ، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل اللّه يريك ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة اللّه ، فسر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا على بركة اللّه ، وأبشروا فإن اللّه قد وعدني إحدى الطائفتين ، واللّه لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم))

[مختصر تفسير ابن كثير اختصار الصابوني]

عدل النبي عليه الصلاة والسلام مع أعدائه :

ثم ارتحلوا من بقران إلى قريب من بدر ، وبعث علياً والزبير وسعداً في نفر يلتمسون الخبر ، أرسل اثنين ، ثم أرسل ثلاثة لتقصي الأخبار ، لم يوجد حينها أقمار صناعية ، فأصابوا غلامين لقريش ، فأتوا بهما والنبي قائم يصلي ، وقال الغلامان : نحن سقاة قريش ، فكذبوهما ، كراهية في الخبر ، ورجاء أن يكون من العير ، فجعلوا يضربونهما فيقولان نحن من العير ، فسلم النبي وأنكر عليهم ، هكذا العدل ؟! حصل خطأ ، فالنبي أنكر هذا الخطأ إنكاراً شديداً .

قال أحد الولاة لسيدنا عمر : إن أناساً اغتصبوا مالاً ليس لهم ، ولست أقدر على استرداده منهم إلا أن أمسهم بالعذاب ، إن أذنت لي فعلت ، قال له : يا سبحان الله أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا حصن لك من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البينة ، فإن قامت فخذهم بالبينة، فإن لم تقم فادعهم إلى الإقرار ، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم ، وإن لم يقروا فادعهم لحلف اليمين ، فإن حلفوا فأطلق سراحهم ، وإني والله لأن يلقوا الله بخيانتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم ، هذا هو الورع.

((فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صنيعهم بهما سلم من صلاته وقال : ماذا أخبراكم ؟ قالوا : أخبرانا أن قريشا قد جاءت ، قال : فإنهما قد صدقا ، والله إنكم لتضربونهما إذا صدقا ، وتتركونهما إذا كذبا ، خرجت قريش لتحرز ركبها وخافوكم عليهم ، ثم دعا رسول الله العبدين فسألهما ؟ فأخبراه بقريش وقالا : لا علم لنا بأبي سفيان ، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم ؟ قالا : لا ندري ، والله هم كثير ، فزعموا أن رسول الله قال : من أطعمهم أمس ؟ فسميا رجلا من القوم ، قال : كم نحر لهم ؟ قالا : عشر جزائر ، قال : فمن أطعمهم أول أمس؟ فسميا رجلا آخر من القوم ، قال: كم نحر لهم؟ قالا : تسعا ، فزعموا أن رسول الله قال : القوم ما بين التسعمائة والألف ، يعتبر ذلك بتسع جزائر ينحرونها يوما وعشر ينحرونها يوما))

[الدر المنثور للتفسير بالمأمور للإمام السيوطي]

فقال عليه الصلاة والسلام :

((القوم ما بين التسعمائة والألف))

استخبارات دقيقة جداً ، يسمونه استخبارا وتحليلا ، أحياناً يأتيك إنسان بالخبر ، هذا الخبر يحتاج إلى تحليل ، هذا الغلام جاء بالخبر ، ينحرون في اليوم تسعة إبل أو عشرة ، النبي قال :

((القوم ما بين التسعمائة والألف))

وكان بسبس وعدي مضيا يتجسسان ولا خبر ، حتى نزلا وأناخا قرب الماء ، واستقيا في شنن لهما (دلو) ، ومجد بن عمرو بقربهما ، فسمع عدي جارية من جواري الحي تقول صاحبتها : العير تأتي غداً أو بعد غد ، وأعمل لهم ، وأقضيكِ الذي لكِ ، وجاءت إلى مجد بن عمرو فصدقها ، فرجع

بسبس وعدي بالخبر ، وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر ، فقال لمجد : هل أحسست أحداً ؟ فقال : راكبين أناخا يميلان لهذا التل ، فالتقيا الماء ونهضا ، فأتى أبو سفيان بناخهما - مكان إناخة الإبل - وفت من أبعار واحدهما ، أخذ بعرة من أبعار الإبل وفتّها ، فقال : هذه علائف يثرب ، أي بعر جمل أكل علفاً من يثرب ، أرأيتم إلى الدقة في الاستنباط !! فرجع سريعاً وقد حذر ، وتنكب بالعير إلى طريق الساحل فنجا ، أي نجا بالقافلة وبالبضاعة ، وأوصى إلى قريش أننا قد نجونا بالعير فارجعوا (انتهت المشكلة)، هو خاف على هذه التجارة الكبيرة ، وهذه البضاعة الثمينة والغالية ، فاستطلع ونجا بقافلته إلى الساحل وانتهى الأمر ، فقال : ارجعوا القافلة نجت ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونقيم به ثلاثاً .

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

مستحيل ؛ إنسان كافر منحرف ، فاجر ، عاص لله ، إلا أن يرتكب خطأً فادحاً ، وحماقة كبرى ، لأن الله يحجب عنه الحقائق ، لا يملك رؤيا صحيحة ، قال : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونقيم به ثلاثاً ، وتهابنا العرب أبداً .

أما الأخنس بن شريق فرجع بجميع بني زهرة ، لم يقبل ، لقد جمعتمونا من أجل قافلة قريش ، فانسحب، وكان حليفهم ، ومطاعاً فيهم ، قال: إنما خرجتم تمنعون أموالكم ، وقد نجت فارجعوا ، وكان بنو عدي لم ينفروا مع القوم ، فلم يشهد بدراً عدوي ولا زهري .

6 ـ نزول النبي عليه الصلاة والسلام عند ماء بدر :

وسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً إلى ماء بدر ، وثبطهم عنه مطر نزل وبله مما يليهم ، وأصاب مما يلي المسلمين ماء الوادي ، وأعانهم على السير .

الآن هنا نقطة دقيقة جداً ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من بدر .

أخذُ النبي عليه الصلاة برأي الحباب بن المنذر في مكان العسكر :

بالمناسبة كما ذكرت قبل درسين ما حدث في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان حدثاً مقصوداً لذاته ، وكان من هذا الحدث تشريع ، فالله عز وجل فيما يقول كتاب السيرة حجب عن النبي صلى الله عليه وسلم الموقع المناسب ، حجبه عنه وحياً ، وحجبه إلهاماً ، وحجبه عنه اجتهاداً ، الآن ماذا سيكون؟ هناك فضيلة في الإنسان مهمة جداً غالية جداً ، هذه الفضيلة أن ترجع إلى الصواب إن كنت مخطئاً ، هذا الكمال الأخلاقي لا يمكن أن يفعله نبي لأنه لا يخطئ ، الآن أراد الله عز وجل أن يقف النبي موقفاً كاملاً حينما حجبت عنه الحقيقة العسكرية في موقعة بدر ، جاء صحابي جليل اسمه الحباب بن المنذر جاء بأدب يفوق حد التصور ، وقال : يا رسول الله إن هذا الموقع (انظر

إلى الاحتياط ، والدقة ، والورع) ، أوحاه الله إليك ؟ أم هو الرأي والمشورة ؟ قال : بل هو الرأي والمشورة ، قال والله يا رسول الله ليس بموقع ، انظر إلى جرأة الصحابي ، هو يعترض على سيد الأنبياء ، على سيد الخلق ، وحبيب الحق ، وهذا النبي العظيم المتواضع ما أنكر عليه ولا هدر كرامته ، أو أخرجه من وجهه لانتقاده ، سيد الخلق أشير عليه أن هذا ليس بموقع ، فقبل النبي ، فقال : يا رسول الله ليس بموقع ، وإننا نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ونبني عليه حوضاً نملأه ، ونمنع القوم من الماء (ضغطنا عليهم) ، فاستحسنه النبي .

إخواننا الكرام ، بقدر إخلاصك لله ، وبقدر طاعتك له ، وبقدر حرصك على نجاح المسلمين تصغي إلى النصيحة ، وبقدر مكاسبك التي كسبتها من الدين ، والتي أنت تحافظ عليها ، تصغي إلى النصيحة ، الإصغاء إلى النصيحة علامة الإخلاص ، وأي إنسان يلغي المعارضة يلغى هو ، وهذا موقف ، النبي عليه الصلاة والسلام مع أنه معصوم ، ومع أنه سيد الخلق ، ومع أنه حبيب الحق ، ومع أنه لا يخطئ ، أصغى إلى هذا الصحابي الجليل ، وكان هذا الصحابي الجليل قمة في الأدب ، يا رسول الله ! هذا الموقع وحي أوحاه الله إليك ؟ أم هو الرأي والمشورة ؟ قال : هو الرأي والمشورة ، فلما بين له الصحابي الموقع المناسب استحسنه النبي ، وشكره على نصيحته ، ثم بنوا عريشاً على تل مشرف على المعركة ، يكون فيه النبي صلى الله عليه وسلم يأتيه النصر من ربه ، أنا زرت هذا الموقع ، في طريق بين مكة والمدينة طريق قديم ، على هذا الطريق القديم موقع بدر ، ورأيت موقع العريش ، لكن طرفة!! وجدت هذه السيارات الفخمة جداً أهلها جالسون يأكلون ما لذ وطاب ، المركبات مكيفة ، برادات الماء من أعلى مستوى ، الطعام نفيس ، فقلت هذه الكلمة في نفسي : والله هذا الطقم غير ذاك الطقم .

7 ـ النبي عليه الصلاة والسلام يري الصحابة أمكنة مصرع صناديد قريش :

ومشى النبي عليه الصلاة والسلام يريهم مصارع القوم واحداً وَاحداً ، ولما نزلت قريش مما يليهم بعثوا عريش بن وهب الجمحي يحزر أصحاب رسول الله ، أي يتخمن عددهم ، فحزرهم وانصرف ، وخبرهم الخبر ، ورام حكيم بن حزام ، وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ، فلا يكون الحرب فأبى أبو جهل ، أي ركب رأسه ، وساعده المشركون ، وتوافقت الفئتان .

8 ـ النبي عليه الصلاة والسلام يدعو ربه ويسأله النصر :

عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف بيده ، ورجع إلى العريش ومعه أبو بكر وحده ، وطفق يدعو ويلح في الدعاء ، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه :

((اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني ، اللهم إن تَهْلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعْبَد في الأرض))

فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه .

[الجامع لأحكام القرآن للقرطبي]

وسعد بن معاذ وقوم من الأنصار على باب العريش يحمونه ، وأخفق النبي عليه الصلاة والسلام ثم انتبه ، أي غفا غفوة ثم انتبه ، فقال : أبشر يا أبا بكر ، فقد أتى نصر الله ، ثم خرج يحرض الناس ، ورمى بوجوه القوم بحفنة من حصى .

9 ـ بداية المعركة بالمبارزة الفردية :

((... فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قَامَ عَلَى رُءُوسِهِمْ ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَقَالَ : شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا ، فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حَصَاةٌ إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا))

[صحيح مسلم]

ثم تزاحفوا ، وخرج عتبة ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد ، يطلبون البراز ، أي المبارزة ، فخرج إليهم عبيدة بن الحارث ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ، وقتل حمزة وعلي شيبة والوليد ، وضرب عتبة عبيدة فقطع رجله فمات ، وجاء حمزة وعلي إلى عتبة فقتلاه ، وقد كان برز إليهم عوف ومعوض ابنا عفراء ، وعبد الله بن رواحة من الأنصار ، فأبوا إلا قومهم ، وجال القوم جولة فهزم المشركون ، وقتل منهم يومئذٍ سبعون رجلاً ، من وجوههم ، وأسر سبعون آخرون ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً ، ثم انجلت الحرب ، وانصرف إلى المدينة وقسمت الغنائم ، ودخل المدينة لثمانٍ بقين من رمضان ، دامت هذه المعركة تقريباً أربعة عشر يوماً .

عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : ذَكَرَ لَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ أَبِي طَلْحَةَ

((أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ رَجُلاً مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ ، فَقُذِفُوا فِي طَوِيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ ، وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالْعَرْصَةِ ثَلاثَ لَيَالٍ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرٍ الْيَوْمَ الثَّالِثَ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا ، ثُمَّ مَشَى ، وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ ، وَقَالُوا : مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إِلا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ : يَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ ، وَيَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ ، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالَ : فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لا أَرْوَاحَ لَهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، قَالَ قَتَادَةُ : أَحْيَاهُمُ اللَّهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا))

[صحيح البخاري]

لابد من معرفة سيرة النبي ، لأنها منهج كامل :

أيها الإخوة الكرام ، هذه موقعة بدر بشكل موجز ، لكن لي تعليق لابد منه ، من منا يصدق أن سيرة النبي عليه أتم الصلاة والسلام منهج كامل ، ومعرفتها فرض عين ، لا يوجد مسلم معفى من قراءة سيرة رسول الله ، في كل موقف له ، في كل كلمة ، في كل حركة ، في كل سكنة ، في كل تصرف ، منهج ، فنحن نستنبط الشيء الكثير من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وأقوى دليل قول الله عز وجل :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

(سورة الأحزاب)

ثلاثمائة صحابي ، وبضعة عشر رجلاً ، معهم فرسان فقط ، وسبعون بعيراً ، أمام قوة كبيرة عاتية من قريش ، ومع ذلك انتصروا ، فلما في حنين قالوا : لن نغلب من قلة . يكفي هذان الدرسان .

درسان في حياة كل مؤمن : درس بدر ودرس حنين :

أنا أقول في النهاية : هناك درسان في حياة كل مؤمن ، درس بدر ودرس حنين ، إذا قلت الله تولاك ، ونصرك ، وأيدك ، وأنهضك ، وأغناك ورزقك ، وأكرمك ، ورفع شأنك ، وإن قلت أنا ، فلان بن فلان، أبي فلان ، أحمل الشهادة الفلانية ، عندي أموال لا تأكلها النيران ، تأتي مصائب لا تنفع فيها الأموال ، هناك عند الله أبواب للمصائب لا تنتهي ، وكل إنسان له المصيبة التي تناسبه ، فإذا كنت مع الله كان الله معك ، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق مما في يديك ، إن أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله

الأسئلة :

أيها الأخوة

س : رجل مسلم يدعي بأن شرب الخمر حلال .

ج : هذا لا بد له من مشفى المجانين ، هذا لا يجاب عنه ، قال : استناده إلى ذلك قوله تعالى في سورة النحل :

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

(النحل : الآية 67)

هل السكر رزق حسن ؟ سأقول لك : عندي ولدان ، مثلاً ، الأول جيد ، معنى هذا أن الثاني غير جيد ، هذا أول استنباط خاطئ ، أول إشارة إلى أن الخمر خبيثة هذه الآية :

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا)

(النحل : الآية 67)

شراباً مسكراً ، أو تتخذون منها :

(رِزْقًا حَسَنًا)

معنى ذلك أن الشراب المسكر ليس بحسن ، هذه أول إشارة ، أما الإشارة الثانية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء الآية :43)

معنى ذلك أن الخمر تذهب العقل ، الإشارة الثالثة ، والحكم الثالث :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة : الآية 90)

الرجس الشيء الذي ينبغي ألاّ تقترب منه :

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الْأَوْثَانِ)

(سورة الحج الآية :30)

أي أن تعبد غير الله رجس ، وأن تشرب الخمر رجس ، إذاً رفعت هذه المعصية إلى مستوى الشرك بالله ، لماذا ؟ لأنك تعتدي على عقلك ، وتعطله ، وهو أداة التكليف ، ومناط التكليف والمسؤولية .

الشيء الآخر قال : فاجتنبوه ، لو أن الله قال : حرمت عليكم الخمر ، أي حرم عليكم شربها ، ولم يحرم بيعها ، ولم يحرم الاتجار بها ، أما حينما قال : فاجتنبوه ، فينبغي ألاّ تشربها ، وألا تجلس إلى من يشربها ، وألاّ تبيعها ، وألاّ تعصرها ، وألاّ تنقلها ، وألاّ تعلن عليها ، هذا كله محرم ، لقوله تعالى :

(فَاجْتَنِبُوهُ)

فهذا المسلم الذي يدَّعي بأن شرب الخمر ليس بحرام ، واتخذ هذه الآية دليلا ، قال: لم يقتنع معي، فإن لم يقتنع معك اتلُ عليه الآية الكريمة :

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)

(سورة المدثر)

امرأة لم تقتنع بالحجاب ، لم يبق أحد من إخوتها وأقاربها ، أبداً لم تقتنع ، فأصيبت بمرض عضال ، فقالت كلمة ، والله لا أنساها ، طبعاً نقلت إلي ، قالت : والله لئن شفاني الله لوضعت ستاراً ، وليس حجاباً .

الله أحياناً يرجئ ، فإن لم يقتنع بالحق ، وهو معافى يوجد طريقة تقنعه بالحق ، لا يتكبر أحد على الله عز وجل !! إن لم تقنع بالحق وأنت معافى ، يأتي وقت تقنع به وأنت في مصيبة ، فاقنع بالحق

وأنت صحيح ، قبل أن تقنع به قسراً ، قال لي أحدهم : لا يعاش في هذا البلد ، ودخله والله بالملايين ، أصيب بمرض .

قال لي مرة : يكفي الشخص ألف ليرة بالشهر ، كان ينفق مئات الألوف في الشهر ، ولما أصابه مرض عضال تمنى أن يشفيه الله منه ، وأن يعيش على ألف ليرة بالشهر ، ليكن الإنسان أديباً مع الله عز وجل .

س : خطب شاب ابنتي ، وتم الفراق بينهما ، وبعد أن مشى في شرفها بغير حق ، وهي بريئة ، والآن أعرض لكثير من الأسئلة عن سبب فراقهما ، فهل يصح لي في الدين أن أنوه بعيوبه ؟

ج : قال تعالى :

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

(سورة النساء الآية:148)

لكن أتمنى على كل شريكين انفصلا عن بعضهما ، وعلى كل خطيبين انفصلا عن بعضهما أن يلزما الصمت ، فهذا والله أكمل ، لا يوجد نصيب ، لكن والله أنا أحتقر احتقاراً لا حدود له هذا الذي ينهش في أعراض الناس ، والله عز وجل من أسمائه الستِّير ، المؤمن ستير ، قد يكون الخطأ من البنت ، وقد يكون ثمة انحراف ، لكنه يستر عليها .

س : بالنسبة للنذر هل يجوز أن يأكل منه أولاد الناذر أم لا ؟

ج : لا يجوز ، فالنذر لا يؤكل منه شيء ، إلا أنه يجوز أن تعطي الفقراء منه ، أما أولادك فأنت ترعاهم ، وتنفق عليهم ، فإذا أطعمتهم من هذا النذر وفرت النفقة على نفسك ، وهذا لا يجوز .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(34-60): تفسير الآيات 123 - 129
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-07-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثالثة والعشرين بعد المئة ، يقول الله عز وجل :

لماذا انتصر المسلمون في بدر ولم ينتصروا في أحد ؟

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 123)

أيها الإخوة ، معركة بدر وردت مفصَّلة في سورة الأنفال ، أو وردت مستوفاة في سورة الأنفال ، ومعركة أحد وردت مفصَّلة ومستوفاة في سورة آل عمران ، ولكنّ حكمة الله عز وجل أن قصة معركة أحد اعترضتها إشارة إلى معركة بدر ، الله هو هوَ ، والأمر بيده ، هو الناصر ، المعين ، القوي ، فلماذا نصركم في بد ولم ينصركم في أحد ؟ معنى ذلك أن السبب منكم ، الأمر بيد الله ، قال تعالى :

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

(سورة الشورى : الآية 53)

هو هوَ ، الأمر كله بيده :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود : الآية 123)

فلماذا نُصِرتُم في بدر ، ولم تُنصروا في أحد ، والنبي بين أضلعكم ، وأنتم أنتم ؟ معنى ذلك أن هناك شيئا جديدا في أحد لم يكن من قبل ، هذا الشيء الجديد هو معصية القائد ، لو أنكم انتصرتم مع معصيتكم لرسول الله لسقط أمر النبي ، ولم يعد له قيمة .

أيها الإخوة ، في قوله تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(123)إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)

(سورة آل عمران)

إذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ

1 ـ تبشير النبي الصحابة بنزول الملائكة للقتال معهم :

إذ تقول يا محمد للمؤمنين ، الحقيقة أن الملائكة نزلت في معركة بدر ، والدليل قوله تعالى :

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

(سورة الأنفال : الآية 9)

2 ـ لماذا جعل النصر في بدر عن طريق الملائكة ؟

فالملائكة نزلت في بدر ، وقد يسأل سائل : إذا كانت القوة كلها بيد الله ، وأنّ الله وحده هو الناصر ، فلماذا جعل النصر في بدر عن طريق الملائكة ؟ قال : الإنسان بُني على الأسباب ، ولا يطمئن إلا بنصر عن طريق السبب ، والشيء الذي يَلفت النظر أنّ كل عطاء من الله له سبب ، له سبب أرضي ، وله سبب دنيوي ، والله مسبب الأسباب ، وكل عقاب إلهي له سبب أرضي ، وله سبب دنيوي ، والله مسبب الأسباب ، لأن الإنسان بُني عقله على السببية ، فالله عز وجل من قدرته أن ينصرهم من دون الملائكة ، مباشرة ، ولكنهم يقلقون ، فمن أجل أن يطمئنوا جعل النصر في بدر بمعاونة الملائكة ، وقد أمدهم بألف من الملائكة مسومين ، إذ تقول الآن يا محمد في أُحد للمؤمنين :

(أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 124)

لابد من الفرح لانتصار المسلمين :

قال بعض علماء التفسير : هذه الآيات تابعة لمعركة بدر ، أي أمدهم الله بألف ، وقال : مردَفين ، أتبعهم بثلاثة آلاف ، وأتبعهم بخمسة آلاف ، لكنّ بعض العلماء يقول : سياق الآيات عن معركة أُحد فالنبي عليه الصلاة والسلام شجع أصحابه ، وقال لهم فيما أخبرنا الله عز وجل :

(إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ

(124)

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

(سورة آل عمران)

أيها الإخوة الكرام ، قضية النصر قضية أساسية جداً في حياة الأمة ، والمؤمنون ولا شك يفرحون بنصر الله أيما فرح ، قال تعالى :

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(4)بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

ونحن أمة إسلامية عندما نرى أن المسلمين انتصروا في مكان ما في العالَم نفرح جميعاً ، وحينما تأتينا الأنباء السيئة بأنهم لم ينتصروا نتألم جميعاً ، وهذا من علامة الإيمان ، ذلك أنّ المؤمن لا بد أن يتفاعل مع قضايا المسلمين في العالَم ، إليكم دليلاً من القرآن حينما قال الله عز وجل :

(الم(1)غُلِبَتْ الرُّومُ(2)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(3)فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(4)بِنَصْرِ اللَّهِ)

[سورة الروم]

المؤمنون فضلاً عن أنهم مهتمون ببقية المؤمنين في العالم ، مهتمون بمن يجمعهم بهم ، قاسم مشترك، هم أهل الكتاب ، الذين انتصروا هم الروم على الفُرس ، الفُرْس عُبَّاد النار ، أما الروم من أهل الكتاب، مع أنّ هناك أشياء لا تجمعنا بهم ، وهناك قواسم تجمعنا بهم ، فهذا المؤمن مهتم بانتصارٍ لفئة تجمعنا بهم بعض القواسم ، إيمان بالله ، إيمان بالآخرة وهكذا ...

إذاً : أن تحمل همَّ المسلمين ، وأن تقلق لهزائمهم ، وأن تفرح بانتصاراتهم ، وهذه علامة إيمانهم ، أما أن تنسلخ من المجتمع ، وأن تنتمي إلى ذاتك ، وألاّ تُعنى إلا بدخلك ، وبيتك ، وأولادك ، وراحتك ، وإنفاقك ، وما إلى ذلك ، هذا دليل بُعد الإنسان عن الله .

والحقيقة أنّ الأحداث نراها نحن جميعاً ، ونستمع إليها ، ولكنّ البطولة لا في رؤيتها ولا في الاستماع إليها ، البطولة في تحليلها ، تحليل الخبر أهم من الخبر ، المؤمن بحسب إيمانه يعطي تحليلاً دقيقاً لأي خبر يسمعه .

التقيت بأخ كريم ، فأراد أن يقرأ الكتاب الفلاني ، والكتاب الفلاني ، وهذه الكتب لفِرَق ضالّة ، فقلت له: استيعاب الباطل مُجهد جداً ، وطريق طويل جداً ، لو أنك استوعبت الحق لكان الطريق أقصر وأسهل ، وإن استوعبت الحق كان معك ميزان تزن به كل شيء ، والدليل أن الله عز وجل قال :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام : الآية 153)

السبيل للحق واحد ، أما الباطل فمتعدد ، ومتعدد تعدد لا حدود له ، لو عشت ألف عام ، وأمضيت هذا العمر كله في قراءة أفكار المذاهب الوضعية والضالة والمنحرفة ، عمرك هذا لا يكفي ، أما لو أنك استوعبت كلام الله فهمته ، واستوعبت سنة رسوله ، هذا هو الحق ، فاستيعاب الحق أولى وهو أسهل وأقصر وأقوى وأمتن ، لا بد أن تتعاطف مع المؤمنين في شتى بقاعهم ، لا بد من أن تفرح لانتصاراتهم ، وأن تتألم أشد الألم لانهزامهم ، لأنك واحد منهم ، ومن لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم، ولا بد أن يكون في قلبك رحمة على هؤلاء المسلمين .

ذاك الذي يقول لك : أنا ليس عندي مشكلة ، أي أموره مُيسرة ، دخله كافٍ ، هؤلاء الذين يموتون ، يُشردون ، يخرجون من ديارهم ، يُقتّلون لأتفه الأسباب ، يُطهَّرون عِرقياً ، ينبغي أن تتألم لأجلهم ، لا ينبغي أن تعتب على الله لأجلهم أيضاً ، هذا تطرف ، والله عز وجل أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين، هو العدل ، هو الرؤوف الرحيم ، هو الحكيم الغفور ، لكن لا بد من تعاطف بشكل أو بآخر .

العلماء قالوا : هذه الآيات وإن كان بعض العلماء يجعلها في معركة بدر لكنهم يرجِّحون أنها في معركة أُحد ، لكن لا يوجد دليل قطعي أبداً أن الله أمدَّ المؤمنين في معركة أُحد بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، كما أنه لا دليل من أنه لم يمدهم ، لكن الدليل القطعي أن سيدنا سعد بن أبي وقاص يروي عن رسول الله أن النبي قد أعانه في معركة بدر مَلَكَان يلبسان ثياباً بيضاء ، وقد قيل أنّ هذه من خصوصيات النبي لأنه كان في موضع الأمر والنهي تماماً ، قال تعالى :

(بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 126)

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا

الحقيقة يرجح بعض العلماء أنه في أحد لم يكن هناك مدد ، هذا عرض من النبي أخبرنا الله به ، لأنه لو كان هناك مدد من الملائكة ، ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف ولم ينتصروا هناك مشكلة في فهمنا لأمور التوحيد ، ويقول الله عز وجل :

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران : الآية 127)

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

القرآن كله نزل من أجل التوحيد :

إخواننا الكرام ، لو سألتني ما المحور الذي تتمحور عليه آيات القرآن كلها ، أجيبك : إنه التوحيد ، طبعاً الإيمان بالله لا يكفي ، وأي إنسان آمن بالله خالقاً ، ولم يستجب له فهذا إيمان لا ينجيه من عذاب الدنيا ، ولا من عذاب الآخرة ، وإبليس آمن بالله ، قال تعالى :

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص : الآية 82)

وقال :

(قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف : الآية 14)

وقال :

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة ص : الآية 76)

آمن بالله خالقاً ، وآمن بالله عزيزاً ، وآمن بالله رباً ، وآمن باليوم الآخر ، ومع ذلك فهو إبليس ، إذاً الإيمان الذي لا يتبعه عمل لا قيمة له إطلاقاً ، الإنسان متى يستقيم على أمر الله ؟ حينما يعلم أنه لا إله إلا الله هذه كلمة نقولها في اليوم الواحد مئات المرات ، ولكن حينما نتحقق بفحواها أنّ الفعل بيد الله ، أنّ الذي يعطي هو الله ، وأنّ الذي يمنع هو الله ، وأنّ الذي يرفع هو الله ، وأنّ الذي يخفض هو الله ، أنّ الذي يُسعد هو الله ، أنّ الذي يُشقي هو الله ، أنّ الذي يميت هو الله ، أنّ الذي يحيي هو الله ، هذا التوحيد قد يكون كلاماً ، ولكن إذا تحققت منه تحققاً يقينياً تجد نفسك منساقاً إلى الله وحده ، والاستقامة كما بينتها اليوم استقامة في العقيدة ، وفي الوجهة ، وفي العمل ، فإنّ الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، فمن أجل أن تعتمد عليه ، وتتوكل عليه ، وأن تحبه ، وأن تعلّق الآمال عليه ، وأن تنصاع إلى أمره ، وأن تكون عند الأمر والنهي ، وأن يجدك حيث أمرك ، وأن يفتقدك حيث نهاك ، لا بد أن تعرفه واحداً فرضاً صمداً .

الإنسان لأنه بُني على مبدأ السببية فقد جعل الله عز وجل هؤلاء الملائكة التي أنزلها في معركة بدر جعلها بشرى للمؤمنين ، كي تطمئن قلوبهم ، لكن يقول الله عز وجل :

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران : الآية 126)

معنى : الْعَزِيز

1 ـ المعنى الأول :

كلمة العزيز دقيقة جداً ، العزيز هو الذي ينفرد ، لا شبيه له ، لا مثيل له ، لا يشبهه شيء ، ولا يرقى إليه شيء ، عزيز .

2 ـ المعنى الثاني :

المعنى الثاني : تشتد الحاجة إليه ، بل يحتاجه كل شيء في كل شيء .

مصير الإنسان بيد الله :

لكل واحد من إخوتنا الكرام له قلب ، وله دسام ، وله شريان أبهر ، وله شريان تاجي ، وله كليتان ، ورئتان ، ومعدة ، وأمعاء ، وبنكرياس ، وغدة نخامية ، وغدة الكظر ، هناك أجهزة بالغة التعقيد

، وأي خلل في هذه الأجهزة يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق ، فالله معنا ، لأنه يمدنا بعمل هذه الأجهزة ، لو توقف أحد هذه الأجهزة عن العمل لانقلبت حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق ، لكنّ الإنسان حينما يرى شيئاً مألوفاً ينسى وجوده ، لذلك قالوا : الصحة تاج على رؤوس الأصحاء ، لا يراه إلا المرضى ، فأيّ شخص يتمتع ببصره لا سمح الله ولا قدّر لو فقد بصره ليقولن : أتمنى أن أتسول في الطريق على أن يُرد بصري ، أن تستمتع ببصرك ، وبسمعك ، وبشمك ، وبنطقك ، وبحركتك ، وبهضمك ، وبعمل أجهزتك هذه نعمة كبرى .

الله عز وجل يحتاجه كل شيء في كل شيء ، وهو واحد أحد ، فرض صمد ، ويستحيل أن تحيد به ، هذا هو العزيز ، فإذا كنت مع العزيز أعزك الله ، وإذا كنت مع العبد الذليل أذلك الله معه ، من اتكل على ماله ضلّ ، من اتكل على غير الله ذل ، من اتكل على الله لا ضل ولا ذل ، إذاً :

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران : الآية 126)

3 ـ النصر من عند الله :

أي كل قوى الأرض مجتمعة تحتاج إلى كلمة من الله ، زُلْ فيزول كل شيء ، الإنسان من ضعف إيمانه ، وتوحيده يرى أعداءه يتمتعون بقوى جبّارة ، بقوى عملاقة ، بدرع من الصواريخ كما يقال الآن ، صاروخ يضرب صاروخًا على بعد مئتين وخمسين كيلو مترًا ، هناك إحكام ما بعده إحكام ، من ضعف إيماننا نُعظّم ما يفعله الإنسان المنحرف ، أما إذا آمنا بالله فالأمر : كن فيكون ، زُل فيزول ، لا تستغربوا ، بلد ضعيف جداً ، دولة ضعيفة وصغيرة فيها مجتمع متخلف بدائي قبلي مثل هذه الدولة المتخلفة البدائية لا يمكن أن تنتصر على أقوى دولة في العالَم ، مستحيل ، وألف ألف مستحيل ، لكنّ هذا هو الذي حصل في صدر الإسلام ، المسلمون خرجوا من الصحراء بلادهم فقيرة ، حياتهم خشنة ، حياتهم بسيطة جداً ، يهزمون أقوى دولتين في العالَم الفرس والروم ، شيء لا يصدق ، لأنه إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك ، وقد أعزنا الله بالإسلام ، ومهما ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله ، قال تعالى :

(لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 127)

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ

لن ينجح شيء إلا بتوفيق الله :

أي فعل الله هذا ليضعف الكفار ، أو يمنعهم من تحقيق مرادهم ، فينقلبوا خائبين ، لأنه لن ينجح شيء في الأرض من بدء الخليقة حتى نهاية العالَم إلا بتوفيق الله ، وهذا معنى قول الله عز وجل :

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود : الآية 88)

لا ينجح مشروع ، ولا تنجح معركة ، ولا ينجح اختراع ، و لا تنجح تجارة ولا ينجح شيء على وجه الأرض من بدء الخليقة وإلى نهاية العالَم إلا بتوفيق الله ، لذلك الذكي قد لا يحقق أهدافه ، لكن المستقيم هو الذي يحقق أهدافه ، الآية الدقيقة التي بعدها :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ

1 ـ لا دخْلَ للنبي في تعامل الله مع المشركين ، يتوب عليهم أو يعذبهم :

هو سيد الخلق ، وحبيب الحق ، قمة البشر ، ومع ذلك توحيداً ليس لك من الأمر شيء ، أنت لا تفعل شيء ، ليس لك دخل في توبتهم ، ولا في إهلاكهم ، الله عز وجل يهلكهم أو يتوب عليهم .

الآن قد يسأل أحدنا هؤلاء الكفار الأشداء الذين التفوا على المسلمين من ظهورهم وانقضوا عليهم وقتَّلوا منهم ، بل قتلوا عمّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وشُجَّ وجه النبي ، وكُسرت رباعيته ، ودخل المِغفر في وجنته الشريفة ، ووقع في الحفرة ، وصاحبه الذي يحبه أشد الحب مات أمامه مصعب بن عمير ، وصحابة كبار ماتوا في أُحد ، هؤلاء الذين التفوا حوله ، وحققوا هذا النصر ، وكانوا سبب هزيمة المسلمين ، لماذا لم يقضِ الله عليهم ؟ لِمَ لَمْ يُهلكهم الله عز وجل ؟ بعلم الله أنّ هؤلاء الكفار الأشداء الذين أوقعوا أشد الأذى بالمؤمنين منهم سيدنا خالد بن الوليد ، منهم سيدنا عكرمة بن أبي جهل، منهم سيدنا عمر بن العاص ، سوف يؤمنون ، أي يا محمد أنت لا تعلم ، لكنّ الله يعلم ، أي مؤمن لو احتك بكافر ورأى منه القسوة والغلظة والظلم والشدة يتمنى أن يموت ، يتمنى أن يُهلكه الله عز وجل ، لكن الله يعلم أن هذا الإنسان الآن هكذا وضعه ، لكن فيه بذرة خير ، وسوف يؤمن ، فلا بد أن نستسلم لله عز وجل .

2 ـ لا لليأس :

والله أيها الإخوة ، في هذه الدعوة المتواضعة ، وفي عمر ليس بالمديد التقيت بأناس كثيرين يزيدون على عشرة أشخاص كان يقول أحدهم : ما من معصية على وجه الأرض إلا اقترفتها مهما تكن قذرة ، ومع ذلك تاب إلى الله توبة نصوحًا .

هذا الكلام أيها الإخوة ، يجب أن يمنحنا نَفَساً طويلاً مع الطرف الآخر ، يجب ألا تيأس من إنسان غارق في المعصية ، لعل الله يهديه ، لذلك كبار العلماء عندهم أدب مع الله كبير ، إذا رأوا إنساناً يعاقر الخمر يقولون : هذا الآن في معصية ، أما إنه يمكن أن يتوب ، وأن يسبقنا ، هذا شيء واقعي ، لا تحتقر عاصيًا .

سيدنا خالد ما هو ظن المؤمنين ، وهو يقاتل رسول الله ، ويقاتل صحابته الكرام ، والتف عليهم من ظهورهم ، وأوقع فيهم الأذى ، وقتَّل بعضهم ، ألم يمتلئوا كراهية له ؟ ألم يمتلئوا تمنيات أن يموت ، أو أن يُهلكه الله عز وجل ؟ فإذا هو بعد قليل سيف الإسلام ، يقول هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه : << خُضت مئة معركة أو زُهاءها ، وليس في جسمي موضع إلا فيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء >> .

فأنت كمؤمن يجب أن يكون لك قلب كبيرًا حتى لو رأيت عاصياً ، هذا الذي يعصي الله الآن قد يتوب ، وقد يستغفر ، وقد يقبله الله عز وجل ، وقد يرفع قدره ، والآية الكريمة :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر : الآية 53)

هذا الكلام يعلمنا الأدب مع خلق الله عز وجل ، قال تعالى :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

3 ـ النبي بشر كسائر البشر :

فمن حيث التصرف النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه ، نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ، ولا حياةً ، ولا نشوراً ، بل لا يملك لنا :

(فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

(سورة سبأ : الآية 42)

علاقتنا بالله وحده ، لكنه جاء بالهدى ، وجاء بالحق ، وهو يهدي إلى صراط مستقيم ، أما من حيث الفعل فعلاقتك بالله عز وجل ، والدليل لو أنك استطعت أن تنزع من فمه الشريف فتوى، ولم تكن محقاً فيها لم تنجُ من عذاب الله ، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلا يَأْخُذْهَا))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، أبي داود ، ابن ماجة ، أحمد ، مالك]

سيدنا الصديق حينما مات رسول الله عليه الصلاة والسلام نظر إلى وجهه ، وقبَّله ، وقال : << طِبت حياً وطِبت ميتاً ، وخرج إلى الناس وقال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت >> .

نحن في أمسّ الحاجة إلى التوحيد ، نحن في أمس الحاجة إلى أن نرى يد الله تعمل وحده ، مهما سمعت من أخبار ، ومهما قرأت من أخبار ينبغي أن تؤمن أن الفعّال هو الله ، وأنّ كل واقع له حكمة بالغة ، ولو كان الموقع أحمق أو مجرماً ، لكل واقع حكمة ما دام الله قد سمح به فهناك حكمة بالغة ، بل هناك حكمة مطلقة ، بل هناك خير مطلق ، هذا معناه يُريح الإنسان ، الإيمان بالقدر يُذهب الهمَّ والحزن، الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فلا تدعو مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذَّبين ، قال تعالى :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

لو طبقنا هذا التوحيد على مجتمع إسلامي ، أحياناً إنسان في المجتمع الإسلامي قد يكون قويًّا ، أو له مكانة كبيرة ، أو من الدعاة الكبار ، فالمؤمن إذا ظن أن هذا الإنسان ينفعه ، أو يضره ، أو يمنع عنه عذاب الله فقد أشرك ، وهذا شرك خفي خطير جداً ، لذلك حينما دخل عبد الله بن المبارك على إخوانه كانوا آلافًا مؤلفة قال : يا رب لا تحجبني عنك بهم ، ولا تحجبهم عنك بي ، الإنسان يجب أن يبقى موحداً مع الله دائماً ، يستمع من أستاذه ، ويحبه ، ويقدم كل ما يستطيعه في سبيل الدعوة ، لكن لا ينبغي أن يتوهم أنّ هذا الذي يرشده بإمكانه أن يفعل شيئاً معه ، الفعّال هو الله ، لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي ، ولكن أخي وصاحبي ، قال تعالى :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

4 ـ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

أو أن يتوب عليهم أمر توبتهم ، وأمر تعذيبهم ليس بيدك ، بيد الله عز وجل ، هو يعلم بدليل أنه لم يعذبهم ، لم يُهلكهم مع أنهم أوقعوا بالمسلمين أشد الضرر ، لأنه علم أن فيهم بذرة خير، وهذه البذرة عملت فعلها وجعلته من كبار المؤمنين ، تصور في أثناء صلح الحديبية ماذا قال سهيل النبي : اكتب هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله ، قال له : امحُ رسول الله ، لو آمنا بك لما حاربناك ، فمحيت كلمة رسول الله ، بعد أن أصبح من كبار الصحابة يقول : أنا أذوب خجلاً من الله عز وجل كيف لم أسمح بهذا الاتفاق ألا يُكتب فيه رسول الله ، الناس أعداء ما جهلوا ، أنت حينما تعرف الحقيقة .

والله أيها الإخوة ، أخ كريم ليس بيننا الآن قال لي : أنا أسرفت على نفسي كثيراً ، ثم أُصيب بمرض عضال وُضع في العناية المشددة ، قال لي : ناجيت الله وأنا في العناية ؛ أن يا رب أيليق أن ألقاك وأنا عارٍ من عمل صالح ، إنسان بلا ثياب يا رب ، يقصد بالثياب العمل الصالح ، أمهلني يا رب ، أعطني فرصة لأتوب إليك ، وهو في غرفة العناية المشددة ، لكن الله امتن عليه بأن أعطاه فرصة ، وحضر الدروس كلها ، وأقبل على الله ، وخشع في صلاته ، وغض بصره ، وأنفق ماله ، وفعل ما فعل ، ذاق طعم القُرب ، قال لي : مرة وأنا أُناجيه قلت له : يا رب كل هذه السعادة من القرب منك لِمَ لَمْ تُرسل لي هذه الأزمة قبل عشر سنوات ، من شدة سعادته ، أنت قد تجد شيئاً مزعجاً ، مرض مزعج ، فقر مدقع أحياناً هذه كلها أبواب إلى الله عز وجل ، دوافع .

هناك صحابة كانوا كفاراً والتفوا على المؤمنين ، وأوقعوا فيهم أشد الخسائر ، وقتلوا منهم الكثير ، وفيهم سيدنا خالد ، وسيدنا عكرمة ، وسيدنا عمرو بن العاص ، بعد ذلك أسلموا ، وأصبحت كل طاقتهم الحربية في خدمة الإسلام ، سيدنا عكرمة بن أبي جهل أبلى بلاءً حسناً في بعض المعارك ، وسيدنا خالد ، وسيدنا عمرو بن العاص ، قال تعالى :

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْر شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 128)

لكن لعلمه أن فيهم بذرة خير لم يهلكهم الله عز وجل ، والذي حصل بعد ذلك يؤكد هذه الحقيقة .

قال تعالى :

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 129)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

1 ـ الملك بيد لله عز وجل :

الملك بيد لله عز وجل ؛ خلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً ، وهذا أوسع أنواع المُلك ، قال تعالى :

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة آل عمران : الآية 129)

الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل ، له الخلق والأمر ، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : الآية 123)

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الشورى : الآية 12)

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

(سورة آل عمران : الآية 129)

2 ـ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاء

يغفر من شاء المغفرة ، ويعذب من شاء العذاب ، كلام بسيط ، يقول لك الطبيب : إن فعلت كذا وكذا ، وكذا شُفيت من دون عملية جراحية ، وإن استهترت وتابعت التدخين مثلاً ، ولم تعتن بنظام غذائك ، ولم تتحرك في جسمك فلا بد من عملية جراحية ، فأنت مُخيَّر ، فإما أن تختار المعافاة من دون عملية ، أو أن تفرط ، وأن تتساهل بشأن معاشك ، وحياتك فتحتاج إلى عملية جراحية ، فإما أن تطلب التوبة فيتوب الله عليك ، وإما أن تطلب العذاب ضمناً فيأتي العذاب ، قال تعالى :

(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 129)

لكن الله يريد أن يغفر لك ، يريد أن يرحمك ، أي إذا قال أب لابنه : يا بني أنت حر ، إما أن تتفوق في دراستك يكون لك مستقبلاً زاهراً ، أو أن تُقصِّر ، أنا لا أجبرك على الدراسة ، لكن الأب يتمنى من ابنه أن يختار الأول :

(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أنت مخير ، فإن أردت المغفرة غفر الله لك ، وإن ركب الإنسان رأسه ، وطلب المعصية والتفلت عذّبه الله عز وجل ، لكن الله غفور رحيم ، أي يريد الله المغفرة والرحمة .

ثم يقول الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(130)وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(131)وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

(سورة آل عمران)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا َمضاعفة

1 ـ أصلُ المالِ أن يكون متداوَلاً بين الناس :

أيها الإخوة ، شاءت حكمة الله أنّ منهجه يقتضي بأن تكون الكتلة النقدية موزعة بين الناس جميعاً ، قال تعالى :

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾

(سورة الحشر : الآية 7)

المال إذا لم يكن متداول بين جميع الناس هناك مشكلة كبيرة يعاني منها العالّم من بدء الخليقة وإلى قيام الساعة .

2 ـ الربا سبيل الشقاء والجرائم والفساد في الأرض :

حينما يلد المالُ المالَ عن طريق الربا ، تتجمع الأموال في أيد قليلة ، وتُحرم منها الكثرة الكثيرة ، فهذا التجمع الكبير في أيدٍ قليلة ، وهذا الحرمان الشديد للكثرة الكثيرة هذا يسبب الثورات والجرائم والدعارة والسرقات والاحتيالات والفساد الأخلاقي وشقاء الإنسان .

والله أيها الإخوة ، إن الشقاء الذي تعاني منه البشرية في شتى بقاع الأرض يمكن أن يُردّ إلى الربا ، ذلك أن الإنسان إذا شرب الخمر آذى نفسه ، أضرّ بنفسه وحده ، أما إذا زنى أضرَّ بنفسه وأفسد فتاة معه ، أما إذا أكل الربا أضرَّ بمجتمع بأكمله ، لأن هذه الكتلة النقدية ينبغي أن تكون بين الناس جميعاً متداولة ، أما إذا ولد المالُ المالَ تجمعت في أيدٍ قليلة ، ذلك أن الأعمال إذا ولدت المال فلا بد أن يوزع المال على أطراف كثيرة جداً .

3 ـ لابد أن تلد الأعمالُ المالَ :

أبسط مثل ؛ افتح محلاً تجارياً أكثر من ثلث الربح يذهب مصاريف ، يحتاج إلى موظفين ، يحتاج إلى مستودع ، يحتاج إلى نقل بضاعة ، يحتاج إلى معاملات وقرطاسية ، أبسط محل تجاري ثلث أرباحه تذهب مصاريف ، لأنه حرّك الفعاليات الأخرى ، أما لو وضع ماله في مصرف ، وأخذ الربح ، وعاش به ، كل هذا الربح له وحده ، هو لم يفعل شيئاً ، ما قدَّم شيئاً ، ما ساهم في الإنتاج .

لو فرضنا أن إنسانا هيَّأ مزرعة تفاح ، هو هدفه الربح ، هدفه أن يؤمِّن دخل له ولأولاده ، دون أن يشعر ، ما دام هناك إنتاج جديد من هذه الفاكهة هذا يسهم في تخفيض الأسعار ، كلما حوّلت أرضاً يابسة إلى أرض خضراء ، وطرحت إنتاجها في الأسواق معنى ذلك أنت وفرت الحاجات ، وانخفضت الأسعار ، وانخفضت تكاليف المعيشة .

عندنا قاعدة أساسية : إذا ارتفعت الأسعار ضاقت الشريحة ، كالموشور تماماً ، لو أتينا بألف دائرة متدرجة في التناقص ، ووضعناها فوق بعضها البعض شكلت موشوراً ، فكلما انخفض السعر اتسعت دائرة المنتفعين بهذه السلعة .

أبسط مثل لو نزلت فاكهة الكيلو بمئة ليرة كم من إنسان يشتريها في الشهر ؟ قد يكون خمسة آلاف ، الشام فيها خمسة ملايين ، لو كان الكيلو بعشرين ليرة لاشتراها مليونان ، لو كان الكيلو بخمس

ليرات لاشتراها أربعة ملايين ، فالسعر كلما ارتفع كلما ضاقت شريحة المنتفعين به ، فما الذي يخفض الأسعار ؟ حينما تلد الأعمال المال ، أما إذا ولد المالُ المالَ ارتفعت الأسعار .

هذا الموضوع يحتاج إلى بحث طويل ، لأن النظام الاقتصادي في الإسلام مهم جداً ، وكاد الفقر أن يكون كفراً ، في كل مجتمع منضبط بالشرع تكون هذه الكتلة النقدية متداولة بين الناس جميعاً ، أما حينما يحل الربا محل البيع ، أي الإنسان يُجمِّد أمواله بالبنوك من دون أن يقيم مشروعات ، يقال لك بأي بلد في العالم : أول مشكلة هي البطالة ، وحلها إنشاء مشاريع ، وإيجاد فرص عمل ، شاب في أول حياته وجد عمل ، معناها تزوج ، معناها سكن بيتاً ، اشترى حاجاته من ألبسة وطعام ، أساس الحياة أن يكون لك دخل ، والدخل يحتاج إلى فرصة عمل ، فالربا يتناقض مع الأعمال ، أما حين تُسَخِّر مالك في التجارة ، أو الصناعة ، أو الزراعة ، أو في مشروع استثماري ، أو في خدمة ، أو حرفة ، أو صنعة ، عندها تكون قد قدمت شيئا ، وأخذت شيئًا .

الأسئلة :

س : جاءتني بعض الأسئلة قال إنكم ترددون في دعاء خطبة الجمعة دعاء لا أدري معناه وهو : اللهم كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك.

ج : أي يكون أحدهم قد ورث أرضاً ، وكانت الأرض قديماً تباع مقابل حمار صغير ، أما الآن فأصبحت الأرض غالية جداً ، فالدنم مثلاً يباع بثلاثة ملايين ، ومن عنده مئتا دنم ، وكل دنم بثلاثة ملايين يُضرب اثنان بثلاثة فهم ستمئة مليون ، يشعر بسرور ، عنده بيت ارتفع سعره ، عنده تجارة رابحة جداً ، وكيل حصري لمادة تجارية أساسية ، وبيعها رائج جداً ، تجد أن لديه شعورا أنه غني ، وأموره ميسرة ، وليس لديه مشكلة مادية ، عينه قرّت بهذه التجارة ، وطرب لها ، ظن أنه ملك كل شيء ، فأنا بالدعاء : اللهم كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم ، أنت مثلاً قد تكون أخذت بيتاً بخمسة عشر ألفاً ، والآن لا تبيعه بخمسة عشر مليوناً ، وهذا الآن قد بطل ، والأسعار قد نزلت إلى الثلث ، لكن كل إنسان اشترى بيتاً بعشرة آلاف ، وصار ثمنه عشرة ملايين ، يقولها عدة مرات بأنه يملك ثروة ضخمة ، أو عنده أولاد نجباء ، كلهم أطباء ، ومهندسون ، لكنهم جميعاً بلا دين ، فقط يفرح بمناصبهم العلمية ، فقد يفتخر الإنسان بزوجته ، قد يفتخر بأولاده ، قد يفتخر ببيته .

دخلت على شخص فقال لي : هذا البيت مساحته أربعمئة متر ، فقلت الله : هنيئاً لك ، قال لي : هذا البلاط أتيت به من إيطاليا ، شحن جوي ، فقلت له : والله هذا شيء جميل ، بيت فخم في حي راق جداً، له إطلالة جميلة ، سعره من ستين إلى سبعين مليوناً ، فمن كان عنده بيت فخم ، من كان عنده مرتبة ، من كان عنده أرض تنظمت ، وأخذها بسعر بخس ، ثم أصبح كل دنم بالملايين ، ألا يشعر أنه متفوق ، كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم ، فأقرر أعيننا من رضوانك ، المؤمن يقول : أنا لم أؤذِ أحداً في حياتي ، كل عمري أمضيته في خدمة الناس ، أحس بسعادة لا توصف ، فإذا أخذ الله

عز وجل أمانته سأجد لي عند الله شيئاً ، قدمت الكثير ، وتعبت كثيراً ، وسهرت كثيراً ، أنفقت الكثير من المال ، هذه الأعمال الصالحة كلها تصبح رصيداً ضخماً عند الله ، ومن قدَّم ماله أمامه سرَّه اللحاق به . إذا رأى الإنسان أهل الدنيا يطربون لما عندهم من بيوت فخمة ، من مركبات فارهة ، من أراضٍ شاسعة ، من مزارع جميلة جداً .

والله هناك إنسان يملك مزرعة لا تقل كلفتها عن مئة مليون ، كل شيء فيها ، فإذا قرَّت عين إنسان في هذه الدنيا ، يا رب اجعل عيني تقرّ برحمتك ، قال تعالى :

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس : الآية 58)

أي افرح برحمة الله ، افرح أن هداك الله إليه ، افرح أن جعلك في بلد مسلم تستمع إلى هذا الكلام ، فإن ثمة بلادًا ليس فيها إلا الملاهي ، والنوادي الليلية ، والخمر ، والقمار ، بلاد جميلة جداً ، لا تجد فيها إلا النوادي الليلية ، والمسابح ، والمطاعم ، والفسق ، والفجور على أشده ، هنا عندنا مساجد ، عندنا دروس علم ، عندنا ولد يحترم أباه ، عندنا زوجة مخلصة ، عندنا ابنة تحب أباها حباً لا حدود له، عندنا صهر له ولاء لعمه ، عندنا أشياء جميلة جداً في بلادنا .

والله زارنا أخ من أمريكا بقي عندنا مدة شهر ، فقال : والله عندنا كل شيء ، ولكن عندكم الحب والإيمان ، هناك صلات اجتماعية ، رحمة ، تعاون ، بذل لأعمال صالحة ، كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا برضوانك ، هذا الذي قال لي بيتي مساحته أربعمئة متر ، والبلاط من إيطاليا، والطقم مستورد ، والثريا فخمة جداً ، لم يترك شيئاً لم يصفه لي ، فقلت لنفسي : يجب لي أن أبين له ، فقلت له : ما قولك في بيت من أحياء دمشق الفقيرة جداً ، بغرفتين شماليتان على العظم ، والناس ساكنون فيه ، عوضاً عن الأبواب يضعون قطعة من القماش ، هل يتوازنان ؟ فقال لي : أعوذ بالله ، وازنت له بين بيت ثمنه سبعون أو ثمانون مليون ، وبين بيت في حي فقير ، وتحت الأرض ، وازنت له بين ممرض مهنته أن ينظف المرضى ، وبين أكبر جراح ، كل عملية يأخذ عليها مئة وخمسين ألفاً ، في اليوم يجري عملية أو اثنتين ، وازنت له بين معلم في قرية يحمل طعامه ، ويمشي هو المدير ، والآذن ، والمعلم ، وبين أستاذ جامعة عنده ساعتان تدريسًا ، وأستاذ له كرسي ، رئيس قسم مثلاً ، بين رئيس أركان ، وبين جندي يرابط على الخطوط الأمامية ، فقد قارنت له بين هؤلاء قد يكون أستاذ الابتدائي أرقى عند الله من ألف أستاذ جامعي ، أنا لا أذكر أحداً بسوء ، وبين بيت في حي فقير جداً وبين بيت فخم ، قال لي : ما الذي تقصده ، قلت له :

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء : الآية 21)

لكن درجات الدنيا لا تعني شيئاً ، وقد تعني العكس ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 44)

قلت له : درجات الدنيا لا تعني شيئاً ، وقد تعني العكس والدليل أن سيد الخلق كان إذا أراد أن يصلي قيام الليل لا تتسع غرفته لصلاته ونوم زوجته ، لا بد أن تنزاح جانباً كي تصلي ، لم تكن مساحة بيته أربعمئة متر ، أما درجات الآخرة فتعني كل شيء ، وهي أبدية .

والله أيها الإخوة كلام من القلب ، مثلاً : الواحد وأمامه ثلاثة أصفار أصبح ألفاً ، ثلاثة أخر يصبح مليونا ، ثلاثة أخر ألف مليون ، ثلاثة أخر مليون مليون ، الأصفار إلى الشمس ، تصور مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر ، كل ميليمتر صفر ، إن ساوى هذا الرقم الدنيا ، والآخرة لا نهاية قيمته صفر، لو عشت ألف مليون مليون مليون سنة ببحبوحة ، ودخل فلكي ، وبصحة جيدة ، وزوجة جميلة ، وأولاد ممتازين ، وكل شيء عندك والآخرة إلى جهنم ، فأنت أكبر خاسر ، والدليل قول سيدنا علي : << يا بني ما خير بعده النار بخير ، وما شر بعده الجنة بشر ، وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية >> ، فالبطولة لا أن تحقق دخل كبير ، البطولة أن تزحزح عن النار ، وهذا هو الدليل :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : الآية 185)

س : عزمت على الزواج وتطبيقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا ، وَلِجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[مسلم ، البخاري ، النسائي ، أبي داود ، ابن ماجة ، أحمد ، الدارمي عن أبي هريرة]

طرقت أبواب عدة من المتدينين ، ففوجئت بأسلوب تبييت الاستخارة ، مع أنني لم أرَ الأهل ولا الفتاة ، وهم لم يعرفوني فيبيتون الاستخارة عند الشيخ الملتزمين عنده ، فيكون جوابهم : الاستخارة ليست جيدة، وهذا حدث أكثر من مرة .

ج : إخواننا الكرام ، إن أردتم السُّنة فليس في السنة استخارة بالنيابة أبداً ، الاستخارة تكون مباشرة من صاحب الاستخارة ، الفتاة تستخير الله ، أما أن يستخير إنسانا مكان إنسان فهذا لم يرد في السُّنة أبداً .

س : نتيجة لظروف مر بها زوجي فقد حُرِم من نعمة الصلاة ، فهل يجوز أن أقوم بالصلاة عني وعنه؟

ج : لا ، والدليل قوله تعالى :

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

(سورة النجم : الآية 39)

إن كان هناك ظروف صحية قاهرة فالله يعفيه ، طبعاً هي فرض لا يسقط بحال ، إلا بالإغماء الشديد ، أو السبات ، فإذا دخل إنسان في السُبات فهذا لا يصلي ، ولا يوجد عليه شيء إطلاقاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الخامس والثلاثون من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 130)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

1 ـ سببُ ورودِ آية الربا في سياق آيات غزوة بدر وأُحُد :

قد يسأل سائل : سياق الآيات متعلق بالمعارك معركة أحد ومعركة بدر ، فلماذا أقحمت آية الربا في هذا السياق ؟ لو أن هذا كلام بشر نقبله منه خطر في باله هذا الخاطر فأقحمه ، أما لأنه كلام خالق البشر لابد من حكمة بالغة.

أيها الإخوة المؤمنون ، السياق سياق حرب وسياق قتل ، في الحرب يوجد قتل ، ولا يوجد تقديم باقات ورود ، فالقتل ملازم للحرب ، وما من معصية في القرآن توعد الله فاعلها بحرب من الله إلا الربا ، فكما أن الإنسان في الحرب يقتل ، إذا أكل الربا يحاربه الله عز وجل ويتلف ماله ، ويتلفه مع ماله هذه نقطة دقيقة ، كيف أن سياق الآيات المكية :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس : الآية 1)

(وَالْفَجْرِ (1)وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

(سورة الفجر)

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

(سورة الليل : الآية 1)

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

(سورة الطارق : الآية 1)

كل آيات سور الجزء الثلاثين تتعلق بالكونيات ، فإذا وُجِدت سورة واحدة مقحمة ضمن هذه السور ، ولا علاقة لها بالكونيات ، وهي قوله تعالى :

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1)الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(2)وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)

(سورة المطففين)

فلماذا أقحمت هذه السورة المتعلقة بحكم شرعي مع سور تتحدث عن الكون ؟ قال علماء التفسير : لأن الإنسانَ إذا بخس حق إنسانٍ توعده الله بالهلاك ، كمن اشترى منك قماشًا فلم تعطه الكيل الدقيق ، إن كنت مطففاً تستحق الهلاك من الله ، فكيف إذا قصرت في حقك اتجاه الله ؟ الهلاك مصير من طفف ، فكيف مصير من نسي أن الله خلقه ، ولم يكُن شيئاً ، وأنعم عليه بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد .

أيها الإخوة ، أيضاً هنا السياق سياق بدر ، وأحد ، وانتصار ، وهزيمة ، وقتل ، وأسر ، جاءت هذه الآية آية الربا ، فكيف أنك في الحرب إن لم تنتصر تقتل ، فهنا توعد الله المؤمنين بحرب من الله ورسوله إذا هم أكلوا الربا ، ذلك أن كل معصية لها أثر محدود إلا الربا ، فإنها تهدم مجتمعاً بأكمله ، هذا مجتمع الطبقتين ؛ مجتمع الأثرياء الذين يحتارون كيف ينفقون المال في عرس واحد ، خمسة وثمانين مليونًا ، والفقراء الذين لا يذوقون طعم الطعام .

الربا آثاره مدمرة ، يجمع الأموال بأيدٍ قليلة ، ويحرم منها الكثرة الكثيرة بسبب بسيط ؛ هو أن المال يلد المال ، بينما في البيع والشراء الأعمال تلد المال ، وحينما تلد الأعمال المال فلابد من إنفاق كثير ، ولابد من مصاريف ، ومن متعلقات بهذا المشروع ، هذا بشكل مختصر شرحته في الدرس الماضي ، لكن هناك ملمح في الآية .

2 ـ النداء بالإيمان إيقاظا للمشاعر :

يا أيها الذين آمنوا ، ما دمتم قد آمنتم بالله ، ما دمتم قد آمنتم أن الله عز وجل هو الخالق ، وهو الرازق، وهو المربي ، وهو المسير ، وإليه المصير ، ومنهجه حق ، وكلامه حق ، والجنة حق ، والنار حق ، إذاً لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة.

3 ـ إياكم وهذا الفهمَ السقيمَ لهذه الآية :

بينت لكم في الدرس الماضي ، ولابد من التذكير أن بعضهم يفهم هذه الآية فهماً ساذجاً ؛ لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة على أن النهي عن الأضعاف المضاعفة فقط ، فلو أكلنا الربا أضعافاً غير مضاعفة لجاز ، هذا كلام مردود ، ولأن الله عز وجل يقول :

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

(سورة البقرة : الآية 279)

القيدُ الاحترازي والقيد الوصفي :

أيها الإخوة ، هذا قادنا إلى ما يسمى القيدَ الاحترازي ، والقيدَ الوصفي ، لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، فقد كان المرابون في الجاهلية يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة كيف ؟ أقرضه بالربا ، واستحق الأجل ، فجاء الأجل ، واستحق الدفع ، وليس معه ، يقول له : إما أن تؤدي ، وإما أن أربي ، يضاعف الفائدة لشهر آخر ، يأتي الشهر الآخر ، فإما أن تؤدي ، وإما أن تربي ، فكأن الجاهليون يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة ، كلما زاد الأجل ارتفعت نسبة الربا .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة : الآية 189)

3 ـ اتقوا الله بتركِ الربا :

اتقوا الله هنا بمعنى دعوا الربا ، ففي حياة الإنسان قضية مهمة جداً ، وهي كسب المال :

((يا سعد أطب ، مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

الأحكام الشرعية كلها بكفة ، وكسب المال بكفة واحدة ، إنه إن طاب دخلك استجيبت دعوتك ، إنه إن طاب دخلك بارك الله لك بمالك ، وبارك الله لك بأولادك ، بارك الله لك بزوجتك ، بارك الله لك بدخلك إن طاب دخلك ، معنى أطب مطعمك أن تشتري طعاماً بثمن كسبته من كد يمينك ، وعرق جبينك .

(وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 131)

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

الكافر بحكم تحريم الربا مصيرُه النارُ :

أي أن النار مصير من أكل الربا ، وكفر بهذا الأمر .

إخواننا الكرام ، عندنا كفر يخرج من الملة ، صاحبه كافر ، وعندنا كفر دون كفر ، فالأمر إن لم تنفذه، وأنت متوهم أن هذا الأمر غير معقول فهذا نوع من الكفر ، وإذا قال لك أحدهم : هل من المعقول أن أقرضه مبلغ نصف مليون لسنة ، وما أربح ؟ معنى هذا أني جمدت مالي هذا ، ولو أنني استثمرته في منشأة لعاد علي بالربح .

أنت حينما تحكم عقلك فيما قطع الله به فهذا نوع من الكفر ، قال تعالى :

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

(سورة التوبة : الآية 54)

معنى هذا أن الكفر ألاّ تعظّم أمر الله عز وجل ، ألاّ تراه من عند خالق الكون ، علة أي أمر أنه أمر ، قال تعالى :

(وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 131)

كنت أقول لكم دائماً : إن الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، مسلمون يؤدون شعائر الدين ، يصلون ، يصومون ، يتصدقون ، اسمعوا ، عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا ، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

إذاً أصبحت أعمالهم هباءً منثوراً ، في موقف آخر حينما سأل النبي أصحابه رضوان الله عليهم سألهم من المفلس ؟ قالوا بحسب العرف من لا درهم له ولا متاع ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((هَلْ تَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، قَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ مِنْ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّار))

[مسلم ، الترمذي ، أحمد]

لا تصح: العبادات الشعائرية إلا بصحة المعاملات

معنى هذا أن هناك معاملات وعبادات ، عبادات شعائرية ، وعبادات تعاملية ، والعبادات الشعائرية ، لا تصح ، ولا تقبل إلا بالعبادات التعاملية ، لذلك ترك دانق من حرام ، أي ثلث الدرهم خير من ثمانين حجة بعد الإسلام ، لذلك لما سيدنا ابن عباس رأى رجلاً كئيباً سأله : << مالي أراك كئيباً ؟ قال : ديون لزمتني ، ما أطيق سدادها ، قال : لمن ؟ قال : لفلان ، قال : أتحب أن أكلمه لك ، قال : إن شئت ، فقام من معتكفه ، فقال له أحدهم : يا ابن ، عباس أنسيت أنك معتكف ؟ قال : لا ، ولكنني سمعت صاحب هذا القبر ـ والعهد به قريب ، ودمعت عيناه ـ يقول :

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا))

حقيقة الدين ترك الحرام ، وفعل الخيرات ، هذه هي حقيقة الدين ، وهذا الراعي الذي امتحنه سيدنا عمر وقال له : << بعني هذه الشاة وخذ ثمنها قال : ليست لي ، قال له : قل لصاحبها أنها ماتت ، قال: ليست لي ، قال : خذ ثمنها ، قال : والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : إنها ، ماتت أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق ، أمين ولكن أين الله ؟ >> .

تضع يدك على حقيقة الدين حينما تدع المال الحرام ، وتضع يدك على حقيقة الدين حينما تعمل صالحاً ابتغاء مرضاة الله هذه حقيقة الدين ، أما الصلاة منشطة ، وترفع شأنك عند الناس ، وهذه العبادات الشعائرية ، الحج يرجع زينة ، والحاج فلان ، والله ينفعنا ببركته ، وادعُ لنا يا سيدي ، أنتم كنتم في الحج ، أعمال فيها وجاهة .

العبادات الشعائرية لا تصح ، ولا تقبل إن لم تصح العبادات التعاملية ، أعيد وأكرر : ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة آل عمران : الآية 130)

يا من آمنتم بالله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران : الآية 130)

لا تأكلوا الربا ، وكان الجاهليون يأكلونه أضعافاً مضاعفة ، فالنهي هنا عن كل الربا ، وعن جنس الربا .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)

(سورة آل عمران : الآية 130)

أي أطيعوا الله في ترك الربا .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(130)وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 130)

إياكم والأساليب الملتوية لأكل الربا :

هؤلاء الذين كفروا بهذا الحكم ، وقالوا : لابد أن نستثمر أموالنا ، ولا يمكن أن نجمد هذه الأموال ، فنقرضها قرضاً حسناً ، طبعاً الآن إذا كان هذا الربا محرمًا تحريماً واضحاً صارخاً في الشرع فهناك آلاف الأساليب التي يحتال بها الناس على أكل الربا .

يقدم لك بيتاً تسكنه بلا مقابل ، على أن تجعل عندنا مبلغاً من المال نحن نستثمره ، فإذا خرجت من البيت أعطيناك المبلغ .

تدخل شريكاً في ، بيت تأخذ أجرته ، وأنت في الحقيقة تأخذ فائدةً على هذا القرض، مبلغك مضمون بالتمام والكمال بعد سنتين ، وما دام ثمة ضمان فقد صارت هذه الأجرة نوعاً من الربا .

وضعت مالك في الاستثمار بربح ثابت ، قد يقول هذا المستثمر البسيط : أنا تاجر صالح ، حججت ثماني عشرة حجة ، ولا يحب أن يدخل في متاهات الحسابات ، يعطي على الألف كذا ، أفضل لي ، ليس له مصلحة أن يقوم بجرد ، هذا أيضاً ربا .

الربا الصارخ واضح ، قرض ربوي ، هناك ألف أسلوب للربا بشكل ملتوٍ في بعض البلاد الإسلامية يوجد عشرة أكياس رز ، يمكن أن يكون عمرها عشرين سنة ، يأتي إنسان ، ويشتري عشرة أكياس فرضاً بعشرة آلاف ديناً ، ثم يبيعها نقداً لصاحب الأكياس مثلاً بثمانية آلاف ، الذي حصل أن صاحب المشتري دفع ثمانية آلاف ، وقبض بعد حين عشرة آلاف ، هذا بيع العينة ، وهو ربا محقق ، ومشاركة في بيت ، وأخذ أجرة ، ومبلغك مضمون ، هذا ربا .

تشتري الصوف فرضاً بربع قيمتهم لستة أشهر ، الآن كيلو الصوف ثمنه مئة ليرة ، تشتري بعشرين ليرة لستة أشهر ، أنت أخذت قرضًا ربويًا كبيرًا جداً ، الراعي بحاجة إلى علف لغنمه ، وليس معه ثمنه، والغنم يكاد يموت ، فيبيع الصوف بخمس قيمته بقرض لستة أشهر ، وهو قرض اسمه سلم ، الصورة بيع سلم ، وهو ربا ، لذلك من دخل السوق دون أن يتفقه أكل الربا شاء أم أبى ، وأخطر شيء في حياة الرجل موضوع كسب المال ، المرأة دينها سهل ، فإذا صلت خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت نفسها ، وأطاعت زوجها ، دخلت جنة ربها ، ولكن ثمة مزالق في كسب المال لا تعد ولا تحصى ، أكثرها تحايل على الربا ، والعملية عملية ربا ، لكن بأسلوب آخر .

حتى قيل في مصر : إذا وضعت مالك في البنك ، أو في المصرف فهو أمانة عند هؤلاء ، لأنهم أصحاب ذوق ، يقدمون لك عوائد ، وليست فوائد ، الأسماء غيرناها ، ويمكن أن نغير الاسم ، نغير الشكل ، نغير الصيغة ، الطريقة ، الربا ربا بأي اسم ، وبأي طريق ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(130)وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(131)وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

(سورة آل عمران)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

1 ـ رحمة الله واسعة :

رحمة الله مطلق عطائه ، رحمة الله يصعب تفسيرها ، فهي تبدأ من الصحة وتنتهي بالجنة ، تبدأ من التوفيق ، ومن راحة البال ، ومن الشعور بالأمن ، ومن الشعور بالسكينة ، ومن حسن السمعة

بين الناس ، ومن القناعة ، ومن الرضا عن الله عز وجل ، رحمة الله كلمة لا حدود لها ، أقلها الصحة ، وأعلاها الجنة ، قال تعالى :

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

(سورة آل عمران)

2 ـ رحمة الله ثمنها طاعته :

رحمة الله ثمنها طاعته ، لذلك لما التقى سيدنا عمر بسيدنا سعد بن أبي وقاص ، وكان هذا الصحابي الجليل خال رسول الله ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحبه حباً جماً ، وكان يداعبه ، ويفتخر به ، فكان إذا دخل عليه يقول :

((هذا خالي أروني خالاً مثل خالي))

وما فدى أحداً بأمه وأبيه إلا سيدنا سعد ، قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَقَدْ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ أَبَوَيْهِ كِلَيْهِمَا يُرِيدُ حِينَ قَالَ :

((فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ، وَهُوَ يُقَاتِلُ))

[متفق عليه]

ومع ذلك لقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : << يا سعد ، لا يغرنك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم له فقط ، ليس بينك وبين الله إلا الطاعة ، ليس بينك وبين الله إلا الطاعة فقط .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجب نا فإنا منحنا بالرضى من أحبنا

و لذ بحمانا واحتم بجنابنــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

الآن الآية التي تليها :

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 133)

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

1 ـ دقق في كلمة سارعوا :

أولاً : دقق في كلمة سارعوا ، أنت في الدنيا في أيام معدودة ، بل أنت بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك ، لذلك ينبغي أن تسارع ، وليس هناك مسارعة إلا للسباق ، فأنت في سباق ، ومن لم يكن في زيادة ، فهو في نقصان ، والمغبون من تساوى يوماه .

2 ـ ينبغي أن تكون مع الجماعة :

(وسارعوا)

فيها واو جماعة ، فينبغي أن تكون مع الجماعة ، وليس هناك سباق فردي في الأرض كلها ، ولكن سمعت إنسانًا دخل في سباق بمفرده فكان الأول ، هذا كلام مضحك ، لا يوجد في الأرض سباق فردي، كلمة سباق في جماعة ، أو اثنين ، ينبغي أن تكون مع الجماعة ، لأن الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، والشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

(وَسَارِعُوا)

المسارعة في سباق أولاً : تقتضي هذه الآية أن تكون في جماعة ، وتقتضي هذه الآية أن تكون متفوقاً، أن تكون في المقدمة ، لأن علو الهمة من الإيمان ، وهناك ملمح دقيق في آية أخرى يفيدنا ، الآن قال تعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك : الآية 2)

إذا كانت الشعبة متفوقة كلها نقرأ النتائج لا لنعرف من نجح ، ومن رسب ، لا كلهم ناجحون ، بل نقرأ النتائج لنعرف من هو الأول ، ومن هو الثاني ، ومن هو الثالث.

كل شيء ميسر ، لك الكون ينطق بوجود الله ، وبوحدانيته ، وكماله ، وهذا القرآن فيه إعجاز ، وكلام النبي فيه رحمة ، فكل شيء جاهز أمامك ، النجاح مفروغ منه ، لكن الامتحان من أجل معرفة المتفوقين فقط ، ليبلوكم أيكم أحسن عملاً فقط .

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 133)

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ

1 ـ المعنى الأول :

كلمة عرضها تعني جنة واسعة أرجاؤها ، كلمة عريض يعني واسع ، فلان له جاه عريض ، مصطلح لغوي ، فلان ذو دعاء عريض ، يرفع صوته بالدعاء ، فلان مثلاً له جاه عريض ، العرض العظم والسعة ، هذا المعنى الأول :

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ)

(سورة آل عمران : الآية 133)

هناك ذنوب تمحى أولاً ، وهناك جنة ثانية ، تخلية وتحلية ، محو سلبي ، وشيء إيجابي ، سارع إلى شيئين ؛ إلى مغفرة ، وإلى جنة ، لو أننا قلنا : سارع إلى مغفرة الله ، غفر لك ، لا يوجد شيء إيجابي ، عفا عنك ، أنت إذا عفوت عن طالب مقصر ، فمقتضى هذا الإعفاء أن تقدم له جائزة أيضاً ، فأنت إن سارعت إلى شيئين ؛ إلى مغفرة الله أولاً ، وإلى جنة عرضها السماوات والأرض .

2 ـ المعنى الثاني :

إذا كان عرضها السماوات والأرض فكم طولها ، السماوات والأرض تعبير قرآني عن الكون ، والكون ما سوى الله ، إذا كانت هذه الجنة الذي دعينا إليها عرضها السماوات والأرض فكم طولها ؟

في آية أخرى :

(فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ)

(سورة الرحمن : الآية 54)

إذا كانت البطانة من إستبرق فما نوع القماش الأساسي ، هذا نوع من المبالغة ، البطانة من إستبرق ، فما قولك بالقماش الذي يظهر إلى الظاهر ، إذا كانت هذه الجنة عرضها السماوات والأرض فكم طولها؟

(أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 133)

3 ـ الجنة لمن اتقى :

الذي يقول : معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، الذي يقول : الله الغني ، هذا الذي يتورع عن المعصية، هو المتقي ، وهذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض ، والتي هو فيها إلى أبد الآبدين :

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر : الآية 48)

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)

(سورة الزمر : الآية 34)

(جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة طه : الآية 76)

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

(سورة الدخان : الآية 54)

الفائز الحقيقي مَن فاز بالجنة :

اقرأ أوصاف الجنة في القرآن الكريم ، كلام خالق هذا ، كلام لابد أن يقع ، من هو الفائز ؟ ما هو الفوز عند الناس الآن ؟ من هو الفائز ؟ معظم الناس يرون أن الفائز هو الغني الذي له دخل كبير ، إما من تجارة ، أو صناعة ، أو زراعة ، أو منصب رفيع ، أو بيت واسع جداً في أرقى أحياء دمشق ، أو مركبة فارهة جداً ، أو مزرعة كالجنة مثلاً ، أو بيده وكالات حصرية ، تدر عليه دخلاً فلكياً ، أو عنده أراض أخذها بثمن بخس ، فإذا ثمنها اليوم أضعاف مضاعفة ، هذا الفوز عند الناس ، أو له زوجة تروق له ، أو له أولاد كلهم أطباء ومهندسون ... هذه كلها مقاييس الدنيا ، لكن ما مقياس الفوز عند الله؟ آية واحدة قال تعالى :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : الآية 185)

من زحزح عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز ، الزحزحة فعل ثنائي مضعف ، مثل ك قلقل ، ودمدم ، وعسعس ، وزلزل ، وهو أساسه زل وزل ، تصبح زلزل ، سمّاه علماء اللغة ثنائيًا مضعّفا ، هذا يفيد الحركة ، فكل ما في الدنيا يدعو إلى جهنم ؛ نساء كاسيات عاريات ، الدنيا خضرة نضرة ، مالها يغري، ونساؤها تغري ، وقصورها تغري ، ومركباتها تغري ، وتجارتها تغري ، إنها ترقص للناس ، وقد افتتنوا بها ، فإذا أخذ الإنسان الآن تأشيرة دخول إلى أمريكا فكأنه حج ، يقول : الله يطعمها لكل مشتهٍ مثلاً ، هذه قيم الناس ، استطاع أن يأخذ تأشيرة دخول إلى أمريكا ، أو إلى أوروبا مثلاً ، أو تمكن من تجارة رابحة مثلاً ، لكن في القرآن :

(فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

هذا المؤمن ، المؤمن مصدق ، لذلك لما خرج قارون بزينته قال تعالى عنه :

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص)

طريق الجنة شاقٌ لكنه مريح في النهاية

وبشكل مبسط تمشي على طريق مستوٍ ، ثم وجدت طريقين ؛ طريقًا هابطة معبدة ، فيها ورود ، ورياحين ، وأشجار ، وأنت راكب دراجة ، والطريق الآخر صاعدة ، فيها ، حفر ، وأكمات ، وغبار طبعاً تختار بالفطرة الطريق الهابطة ، لأنها مريحة جداً ، وجميلة ، ومن دون جهد ، وعند مفترق الطريقين لوحة كُتب عليها : هذه الطريق الصاعدة تنتهي بقصر منيف ، فيه كل شيء لمن دخله ، وهذه الطريق النازلة تنتهي بحفرة ما لها من قرار ، فيها وحوش كاسرة ، بعد أن قرأت الإعلان أيّ طريق تختار ؟ الصاعدة تتناقض مع طبيعتك ، أنت راكب دراجة تحتاج إلى جهد كبير

جداً ، والطريق غير مستوية ، وعرة ، وفيها أكمات ، وحفر وحرّ ، ولكن بعد نصف ساعة أنت في قصر منيف ، وهذه الطريق الهابطة مريحة ، معبدة ، محاطة بالأزهار ، والرياحين ، فيها نساء جميلات ، لكن تنتهي بحفرة ما لها من قرار، هذه اللوحة تكفي أن تقلبك مئة وثمانين درجة ، هذه اللوحة تكفي أن تنعكس موازينك ، ما قولك إذا كان معلقًا إلى جانب اللوحة منظارٌ ، إذا أردت فانظر إلى نهاية الطريقين ، هذا ما قاله النبي الكريم ، فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَن بِيَدِهِ إِلَى الأَرْض :

((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْح جَهَنَّمَ ، أَلا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلاثًا ، أَلا إِنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ ، وَمَا مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلا مَلأَ اللَّهُ جَوْفَهُ إِيمَانًا))

[أحمد]

كل شيء مريح آخرته إلى جهنم ، يأكل بلا قيد ، حرام ، حلال ، يجوز ، لا يجوز ، خنزير ، يمتع عينيه بكل امرأة تحل له ، ولا تحل له ، امرأة أجنبية ، يقول لك : أريد أن أعيش وقتي ، هذا كلام شيطان ، استرخاء من دون قيد ، تفلت ، لا قيد ، ولا قيمة لشيء حرام ، دابة أفلتتْ ، فهي تفعل ما تشاء ، أما عمل الجنة ففيه قيود ، حرام ، حلال ، مكروه ، مستحب ، أمر ، نهي ، يجوز ، ولا يجوز ، جهنم ، ترى حياة المؤمن كلها قيود .

مثلاً : إذا التقى شابان مع بعضهما ، قال الأول : أنا في المدرسة ، وعندنا ست وثلاثون ساعة دوام ، وعندنا أساتذة مخيفون ، وكل يوم هناك وظيفتان ، أو ثلاثة ، وتقارير ، ومحاضرات ، وتلخيص كتب ، وأبي قاسٍ جداً ، فبإشارة من المدرسة أنني مقصر يؤنبني ، والله حياتنا كلها لا تطاق ، فالثاني لا يوجد عنده مدرسة ، من أبناء الأزقة ، ينام إلى الظهر إذا أراد ، يقول : لا يوجد شيء أفعله ، مساءً أذهب إلى السينما ، وقبل الظهر نائم ، وألعب في الليل النرد مع أصدقائي ، في الحقيقة من الناجح ؟ المتعب أم المستريح ؟ العبرة أن ترى النهاية ، العبرة أن تضحك متأخراً ، فكل إنسان يضحك أولاً يبكي كثيراً ، وكل إنسان يبكي كثيراً ، ثم يضحك فهو الفائز ، فبطولتك لا أنْ تضحك الآن ، بل أن تضحك غداً ، قال تعالى :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّار يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين : الآية 34)

أما الكفار إذا رأوا مؤمنًا محدودًا ، متزمتًا ، عقله صغير ، يلحق الدين ، ماذا في الدين ؟ تعال ، وانظر معنا ، وانظر المناظر الجميلة ، الاختلاط ما أجمله ، تعال معنا ، نحن شباب طيبون ، ومرحون ، فالذين آمنوا يوم القيامة من الكفار يضحكون .

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

(سورة المؤمنون)

أيها الإخوة الكرام ، المسارعة تقتضي أن تكون في جماعة ، والمسارعة تقتضي أن تكون ذا همة عالية ، والمسارعة تقتضي أن تكون ملتزماً بالأمر والنهي تماماً من أجل المغفرة ، وملتزماً بالعمل الصالح من أجل الجنة ، فالمغفرة تحتاج إلى توبة ، والجنة تحتاج إلى عمل صالح ، والدليل :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

(سورة الكهف : الآية 110)

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133))

جنة تساوي الكون ، هؤلاء المتقون :

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 134)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع شرح هذه الآيات .

الأسئلة :

هناك بعض الأسئلة :

س : إذا كان المسلم قد اقترف ذنباً معيناً ، فتاب إلى الله عن هذا الذنب ، ثم عاد إلى هذا الذنب مرةً ثانية ، وثالثة ، وأكثر فهل يلزم لتوبته الجديدة كفارةً .

ج : الحقيقة القضية نفسية ، كنت أقول لكم دائماً : أهون توبة أول توبة ، بكلمة يا ربِ لقد تبت إليك تشعر أن الله عزو جل ألقى في روعك ، وأنا يا عبدي قد قبلت ، ولو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي ، لكن ثاني توبة صعبة ، لذلك كاقتراح التوبة الثانية من الذنب نفسه تحتاج إلى ترميم ، إلى صدقة ، إلى إحسان ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، من أجل أن ترضى عن نفسك ، وأن تستعيد توازنك مع الله عز وجل إذا وقعت بالذنب أول مرة يكفي أن تقول يا رب لقد تبت إليك ، أما إذا وقعت في الذنب مرةً ثانية ينبغي أن تعمل عملاً يرمم هذه التوبة التي نقضت ، ثم تبت مرةً ثانية ، لذلك الصدقة ممكنة ، الصيام ممكن ، عمل صالح ممكن ، إذا رافق التوبة الثانية هذه الأعمال الله سبحانه وتعالى يمكن أن يقبل هذه التوبة ، لكن في بالنهاية ليس لنا إلا الله ، لو الذنب أعاده مليون مرة يجب أن تتوب للمرة المليون ، لا يوجد طريق ثاني ، إذا لم تتب إليه ماذا سيكون المصير ؟ أطمئنك بقوله تعالى :

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 27)

الله عز وجل يريد التوبة على عباده ، والله عز وجل يحب التوابين .

س : سؤال متعلق بعرض أسعار ؟

ج : أقول لك : من طلب منك هذا العرض يجب أن تضيف على السعر الذي تأخذه مني سعراً إضافياً يكون لي عمولة هذا لا يجوز ، أما أنت إذا أكرمته من تلقاء نفسك فلا مشكلة ، أما أن

تضيف على السعر في الفاتورة الرسمية سعرا إضافيا ليأخذه طالب هذا العرض فهذا لا يجوز ، أما إن أكرمته من عندك ، ومن دون شرط ، ومن ربحك فهذا ممكن .

س : هل يجوز أن تعمل على قدر الأجرة ؟

ج : لا يجوز ، أنت معلّم عندك خمسة وثلاثون طفلاً بين يديك ، والمعاش لا يكفي ، والدرس تعطي ربعه من دون شرح ، اقرأ قراءة صامتة يا بني ، وأنت نائم على الطاولة ، لماذا تفعل هذا ؟ أنا على قدر المعاش أعمل ، هذه ليست واردة أبداً ، إذا لم يعجبك المعاش فاترك العمل فوراً ، وإذا كان معاش هذا العمل قليلاً فاتركه ، أنت الآن تؤذي أناساً بريئين ، وضعوك في مستوصف بمعاش لا يكفي ، وجاء رجل يريد إسعافًا ، ومات ، لماذا أنت أهملته ؟ أنا أعمل على قدر المعاش ، هذا كلام خطير جداً، كلام مخيف ، العمل أمانة في عنقك ، أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك ، إن كنت لا تتحمل هذا الدخل فاترك ، قدم استقالتك ، واعمل عملاً يكفيك دخله ، وإذا لم تجد عملاً آخر معنى هذا أن همتك ضعيفة ، لذلك قالوا : من يتأفف من عمله لا يصلح لأي عمل آخر ، يوجد إنسان نوعه نفاق ، أينما تضعه يقول لك : لا يؤدي المعاش ، وهذا العمل متعب ، والله يخلصني منها ، أحياناً الله عز وجل يبارك لك في هذا الدخل القليل ، يعفيك من مرض ، وأدوية ، وتحاليل ، وتصوير ، والإيكو . أحياناً تجد أن الدخل لا يكفي ، ولكن الله يبارك لك ، يجب أن نؤمن بالبركة ، أنت أدِّ عملك بإتقان والله عز وجل لا ينساك من فضله ، هذا هو المؤمن ، أما أعمل على قدر الراتب والعياذ بالله فهذه إذا بدأت تنتهي حياتنا .

عندك خمسة وثلاثون طفلاً ، كل واحد مثل الوردة ، جاء يتعلم ، لا أعلمه ، المعاش لا يكفي ، وكثير من المدرسين لا يصحح وظيفة ، لا يسأل طالباً ، اقرأ أنت ، وانتهى الدرس ، أنت تضع ابنك في مدرسة يخرج ، ولا يتعلم شيئًا ، فما الحل ؟ لا يوجد حل ، ابنك في مدرسة رسمية ، وهذا المعلم إيمانه ضعيف يعمل على قدر الراتب ، وهذه ليست واردة أبداً ، وأنا أعدها خرقًا للاستقامة ، وخيانة لما ائتمنت عليه ، أنت كمؤمن ابذل كامل جهدك ، واطلب من الله الأجر ، وإذا ما وجدت عملاً آخر ماذا تفعل ؟ هذا الصبر ، الناس يطلبون الرفاه ، وليس الأساسيات ، الأساسيات مؤنة ، أنت تريد غرفة تؤويك ، وثوبًا يسترك ، ويكون عندك قوت يومك ، هكذا النبي قال ، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي ، ابن ماجه]

فإذا كان مع الإنسان - لا سمح الله ولا قدر - مرض عضال ، ودخله فرضاً خمسة آلاف ، وخيروه نشفيك ، ولكن يبقى ألفان ، هل يقبل ؟ يقبل ، ويتمنى ، ويقول لك آكل خبزة يابسة مع الشاي ، ولكن الله يشفيني .

حدثني أخ قصة من يومين جاءته مولودة فيها مشكلة ، قال لي كلفتني سبعمئة ألف خلال يومين ، فقال لي كلمة تأثرت بها : كل إنسان يأتيه مولودة أو مولود سليم كأن معه هدية مليون ليرة ، خطأ بسيط في شريان القلب عوض الشريان وريد بالعكس ، لونها زرقاء .

طبعاً هذا عمل طيب هو أنقذ مولودًا ، إذا جاءت الإنسانَ مولودة سليمة معنى هذا جاءت معها هدية مليون ليرة ، إذا الله عافى لك أولادك وزوجتك ، وأعطاك صحة وسمعة طيبة ، وعندك شيء تعيش منه فكأنما حيزت لك الدنيا بحذافيرها ، ابتعد عن الحرام ، وإن كان مغريًا وسهل .

س : رجل اقترض من البنك قرضًا ثم تاب ؟

ج : قال تعالى :

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

المقترض إذا أودع ماله في البنك ، وأخذ فائدة يجب أن يتبرأ منها ، وأن ينفقها في وجوه الخير ، وأن لا تدخل إليه إطلاقاً ، وليس له وليس له سوى أن يتوب إلى الله عز وجل .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(36-60): تفسير الآيات 134 - 137
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-08-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والثلاثين بعد المئة ، وقد شرح جانب منها في الدرس الماضي من قوله تعالى :

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 133)

الإنفاق :

هؤلاء صنفان المتقون والعاملون ، المتقون من صفاتهم :

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

1 - يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

إنفاق المال صعب محالف لطباع النفس :

بدأ الله بالإنفاق لأنه أصعب شيء ، فقد تتوضأ ، قد تصلي ، قد تذهب إلى العمرة سياحة ، قد تحضر مجلس علم ، أما حينما تنفق ، وقد حبب الله إليك المال ، والمال مادة الشهوات ، والمال يحل مشكلات كثيرة ، أنت حينما أودع الله في قلبك حب المال كلفك أن تنفق معنى ذلك أنك فعلت شيئاً مهماً . بدأ الله بالإنفاق ، بل إن إنفاق المال أهون بكثير من إنفاق النفس ، أكثر الآيات جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وبدأ الله بالمال ، لأنه أهون في إنفاقه ألف مرة أن تنفق من أن تضحي بحياتك ، فجعل الله إنفاق المال أولاً ، ثم إنفاق النفس ثانياً ، إلا في آية واحدة عكست الآية ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 111)

في معرض البيع القطعي نبدأ بالعقد بكتابة المهم ، ثم الأقل أهمية فهنا ينفقون في السراء والضراء .

2 ـ الإنفاق مجاله واسع :

وكلمة ينفق كلمة واسعة ينفق ماله ، وقد ينفق علمه ، وقد ينفق وقته ، هناك أشخاص أثمن شيء في حياتهم وقتهم ، ينفقون من أوقاتهم ، هناك أشخاص أثمن شيء في حياتهم أموالهم ينفقون أموالهم ، هناك أشخاص أثمن شيء في حياتهم ماء وجههم فينفقونه في خدمة أخ مظلوم في سبيل الله ، له صديق، وبيده الأمر يحب أن يبقى معه مترفعاً ، ولو ذهبت إلى هذا الإنسان الذي بيده الأمر لحلت مشكلة هذا المؤمن ، لكن تحتاج أن تزوره في مكتبه ، وأن تسأله عن صحته ، وأن تعرض له هذه ، والقضية هذا يحتاج إلى بذل ماء وجه.

الحقيقة :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران : الآية 92)

يجب أن تنفق شيئاً تحبه ، يجب أن تنفق شيئاً ثميناً جداً ، الحقيقة أن الإنسان يرقى بالإنفاق ، ويسلم بالاستقامة ، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : الآية 30)

بالاستقامة تسلم ، لكن بالإنفاق تسعد ، وأوضح دليل على ذلك قوله تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : الآية 110)

قد تملك حقيقة ، ويأتيك إنسان مؤمن طاهر يسألك عن هذه الحقيقة ، هذه تملكها ، وتربح منها في مجال التجارة والصناعة ، فإذا بذلتها لمؤمن تتوهم أنت أن ربحك سيهبط ، لكن المؤمن يبني حياته على البذل ، فقد يعطي من أسرار حرفته لمؤمن .

حدثني أخ توفي رحمه الله ، كان عنده محل حلويات ، دخل إليه شخص من بلاد بعيدة من أقصى الشمال الشرقي ، وليس مسلماً ، وقال له : أتعلمني صناعة هذه الحلويات ؟ قال له : حباً وكرامة ، مباشرةً طبخ طبخةً أمامه ، ثم كلفه أن يطبخ طبخةً تجريبية ، يقول لي هذا الأخ رحمه الله : ثلاثون عاماً كل عام يأتي هذا الذي علمه صناعة الحلويات من أقصى البلاد ليقدم له هدية ، وشكراً على هذا العمل الطيب .

3 ـ المؤمن يبني حياته على الإنفاق :

إخواننا الكرام ، بالمناسبة المؤمن يبني حياته على الإنفاق ، قال تعالى :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل : الآية 5-7)

لأنه صدق بالحسنى ، لأنه صدق أنه مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض ، لأنه صدق بالحسنى، والحسنى هي الجنة ، قال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس : الآية 26)

ما دام قد صدق بالحسنى ، فهو يتقي أن يعصي الله ، وهذه استقامة ، وفيها السلامة ، لكن لا يكفي لابد أن يبني حياته على العطاء ، بل إن حجمك عند الله بحجم عطائك ، بل إن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح والدليل :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام : الآية 132)

من أنت ؟ من أنت عند الله ؟ بقدر عملك الصالح ، بقدر بذلك وعطائك ، المؤمن الصادق بنى حياته على العطاء يسعده أن يعطي لا أن يأخذ ، يسعده أن يسهر الليل في سبيل الله ، يسعده أن ينفق ماله في سبيل الله ، يسعده أن ينفق وقته في سبيل الله ، يسعده أن ينفق ماء وجهه في سبيل الله .

إخوة كرام يطرقون أبواب التجار ليأخذوا منهم مساعدات للفقراء والمساكين ، هذا العمل ليس سهلا ، فيه بذل ماء وجه ، لكنك تفعل هذا ، وأنت مرتاح ، لكن آثرت بذل ماء الوجه حتى يرضى الله عز وجل. إخواننا الكرام ، حقيقة الإيمان ما أن تستقر في قلب المؤمن حتى تعبر عن ذاتها بعمل ، والإسلام حركة ، الإسلام عمل ، الإسلام بذل ، وتضحية ، ولن يتألق المؤمن إلا بالعمل ، لن يتألق المؤمن إلا بخدمة الخلق ، وقد ناجى أحدهم ربه قال : يا رب لا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك ، ولا يطيب الليل إلا بمناجاتك ، النهار لا يطيب إلا بخدمة عباده ، وجرب أن الله عز وجل إذا تفضل عليك قدر على يديك عملاً صالحاً ، توفيق بين زوجين ، إكرام يتيم ، إطعام مسكين ، توفيق بين شخصين ، حينما تنفق من حكمتك ، ومن ذكائك ، ومن علمك ، ومن وقتك ، ومن مالك ، ومن ماء وجهك ، والآية الأساسية :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران الآية : 92)

4 ـ لابد من الإنفاق في السراء والضراء :

لكن هناك أناس ينفقون في الرخاء ، ليس عنده عمل يذهب إلى المسجد ، الوقت شتاء ، والليل طويل ، والدرس ممتع ، أما لأدنى عمل ، لأدنى انشغال يلغي الدرس ، أما هنا :

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)

ينفق وهو في بحبوحة ، وينفق ، وهو في ضائقة ، هناك أناس ينفقون برخاء ، وهم على فراش الموت، انتهى المال ، عنده المال لا قيمة له ، أن تنفق ، وأنت صحيح شحيح .

سيدنا الصديق كان ينفق على مسطح ، فلما تكلم في ابنته ، واتهمها في الزنا أوقف الإنفاق ، هو بشر ، والبنت غالية جداً ، وهي بريئة ، فعاتبه الله عز وجل :

(أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)

(سورة النور الآية : 22)

فبكى ، وقال : أحب أن يغفر الله لي .

إخواننا الكرام ، ما من صفةٍ صارخةٍ واضحةٍ جليةٍ في حياة المؤمن كالإنفاق ، فإنه يسعده أن ينفق ، أحياناً تعرض على مؤمن خدمةٌ لله ، تعرض عليه أجراً ، فكأنك صفعته ، ابتغى ذلك عند الله ، أراد هذا العمل أن يكون قربةً لله ، أراد من هذا العمل أن يكون وسيلةً لله عز وجل ، قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : الآية 110)

إذا شكوت جفاف القلب فاعمل عملا صالحا خالصا لله :

بالمناسبة أيها الإخوة ، قد يشكو أحد المؤمنين الصادقين فينكر قلبه ، يشكو جفافاً في قلبه ، يشكو تصحراً في قلبه ، أقول : أنا أصلي ، وأصوم ، وأنا مستقيم ، لكن لا يوجد سرور ، يتضايق ، النصيحة بمثل هذه الحالة اعمل عملاً صالحاً ، اعمل عملاً صالحاً لا تبتغي به إلا وجه الله .

حدثني أخ قال لي : أنا جئت إلى الشام ، وكنت في مصيف الساعة الثانية عشر في بلدة من ضواحي دمشق ، رأيت رجلاً وامرأته يمسكان بطفل ، وهما قلقان جداً ، قال لي : أوقفت مركبتي ، وسألتهم : ما الأمر ؟ وهم نازحون من لبنان في أيام حوادثها ، وقد ارتفعت حرارة الطفل إلى الواحد والأربعين ، وهم قلقون ، قال لي : أخذتهم بسيارتي إلى مستشفى ، ثم إلى صيدلية لتناول الأدوية ، وبقيت معهم حتى الساعة الرابعة صباحاً ، وأعدتهم إلى بيتهم ، أقسم لي بالله أنه خلال عشرة أيام كأنه مغموس في سعادةٍ لا توصف .

كل هؤلاء الخلق عباد الله ، فإذا أردت أن تتقرب إلى الله ، اخدم عباده ، يسرْ لهم أمرهم ، خفف عنهم آلامهم ، يسر لهم حياتهم ، أدخل السرور على قلبهم ، طمئنهم ، لا تخفهم ، لا تبتز أموالهم ، لا تحرجهم ، لا تستغلهم ، لا تتحكم بهم ، لا تلقي في قلبهم الرعب كي يعطوك مالاً ، لا تزور لهم

الحقائق، تصور أن هؤلاء عباد الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، المؤمن كله خير ، المؤمن حينما يموت تبكي عليه السماوات والأرض ، بدليل قوله تعالى أن أهل الكفر :

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)

(سورة الدخان الآية : 29)

لأنهم أستريح منهم ، أما المؤمن يبكي عليه كل شيء كتلة عطاء ، كتلة خير ، كتلة نصيحة ، كتلة توفيق ، كتلة تيسير ، كتلة حب هذا المؤمن لأنه اتصل بالله ، ما فيه من كمال ، من أثر كمال الله ، المؤمن محسوب على الله ، المؤمن لأنه عرف الله ، وأقبل عليه ملك القلوب ، والقوي ملك الرقاب ، الأقوياء ملكوا الرقاب والأنبياء ملكوا القلوب ، وأنت اختر إما أن تكون تابعاً لنبي ، فتملك القلوب بكمالك ، وإما أن تكون تابعاً لقوي ، فتملك الرقاب بقوتك ، وشتان بين من يملك الرقاب ، وبين من يملك القلوب ، من يملك الرقاب يلعن في غيبته ، ومن يملك القلوب يُدعى له في غيبته ، والمحك والمقياس الصحيح ما يقال في غيبتك ، لا ما يقال في حضرتك ، هذا هو المقياس .

فهؤلاء ينفقون ، ينفق وقتاً ، مالاً ، علمه ، خبرته ، حدثني أخ وضع ابنه عند محل إصلاح كي يتعلم هذه الحرفة قال لي : استخدمه لخدمته الشخصية ، وحينما فك المحرك يقول له : اخرج ، لا يعلّم علماً لأحد ، أما المؤمن فلا يبخل بشيء ، ولا يضنّ بشيء ، لأنه يعطي فالله عز وجل يعطيه ، وكلما أعطى يزداد عطاء الله له ، كلما مكن الناس في أعمالهم مكنه الله في عمله ، كلما أدخل على قلب الناس الطمأنينة طمأنه الله عز وجل ، كلما حل مشكلات الناس حل الله مشكلاته ، لأن الله شكور ، الله عز وجل شكور .

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران الآية : 134)

وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ

1 ـ لابد من العفو إن كان يصلِح المذنبَ :

لماذا يعفو بالمناسبة ؟ الله عز وجل يقول :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

(سورة الشورى : الآية 39)

المؤمن عزيز ، المؤمن لا يذل لأحد ، لا يسمح لأحد أن يتجاوزه ، ولا أن يتطاول عليه ، لكن إذا غلب على ظنه أن عفوه يصلح هذا الإنسان عفا عنه ؟

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى : 39 -40)

عفا لأنه رأى في عفوه صلاحاً لهذا الإنسان ، عندئذ يتولى الله مكافأته ، فإذا قال لك ملك في الأرض : أنا أكافئك ، ماذا يقدم لك قلمَ رصاص ؟! أم مركبة ضخمة جداً ، أم بيتًا ؟ يقول الله عز وجل :

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى : الآية 40)

أنت تعفو عن الناس حينما يكون عفوك مصلحاً لهم ، أما إذا كان عفوك يشجعهم على متابعة الأذى فلا تعفُ عنهم ، رجل وقع بين يدي رسول الله ، بكى ، وتباكى ، بكى عن بناته الصغار ، فرق إليه النبي ، وعفا عنه ، فعاد إلى ما كان عليه من التنكيل بأصحاب رسول الله ، وهجائهم ، ووقع مرةً ثانية ، وأعاد قصته مرةً ثانية ، توسل إليه ، واسترق قلبه ، وذكر له بناته ، قال : لا أعفو عنك لئلا تقول : خدعت محمداً مرتين .

مؤمن له شخصيته ، وله حلمه ، وذكاؤه ، سيدنا عمر قال : << لست بالخب ولا الخب يخدعني >> ، يعني لست من الخبث حيث أخدَع ، ولا من السذاجة حيث أُخدَع ، هذا الموقف متوازن ، ليس خبيثاً فَيَخْدَع ، ولا ساذجاً فَيُخْدع ، تعفو إذا غلب على ظنك أن عفوك على هذا الإنسان سيصلحه ، أما إذا عفوت عنه فتطاول ، وتجترّأ على الحق ، فينبغي أن تكون حازماً معه.

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

(سورة آل عمران : الآية 134)

2 ـ الغضب رأس البلاء :

إخواننا الكرام ، الرسول عليه الصلاة والسلام استنصحه أحد أصحابه فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصِنِي ؟ قَالَ :

((لا تَغْضَبْ ، فَرَدَّدَ مِرَارًا ، قَالَ : لا تَغْضَبْ))

[البخاري ، الترمذي، أحمد]

وهناك أحاديث كثيرة ، لا تغضب ، بعض شراح الحديث قالوا : الغضب أحياناً رأس البلاء ، قد تطلق زوجتك في ساعة غضب ، وقد تفقد شريكك في ساعة غضب ، وقد تفضح نفسك في ساعة غضب ، وقد تقضي على أحب الناس إليك في ساعة غضب .

جاء إنسان إلى بيتك ، وقد اشتريت قطع أثاث غالية جداً ، له ابن أمسك بشفرة ، ومزق قماش هذا الأثاث ، فلما جاء إلى البيت ما تحمل هذا المنظر ، فجاء بأصابع ابنه فضربها بمسطرة بعنف شديد ، وبعد حين اسودت يداه ، فأخذه إلى الطبيب ، فقال له : إلى المستشفى فوراً ، في المستشفى قالوا

له : لابد من قطع يديه ، فلما توسل الابن بسذاجة ألا تقطع يداه قتل الأب نفسه من شدة ألمه ، ساعة غضب، ابنك أثمن مِن أي شيء في البيت ، ربما لا تحتمل في الغضب ، قد تقضي على أحب الناس إليك ، بالغضب قد تفقد أقرب الناس إليك ، بالغضب قد تفقد وظيفتك ، قد تفقد عملك ، قد تفقد شريك ، لا تغضب ، فلا تتخذ قراراً وأنت غاضب ، غضبت جمد كل حركة إلى أن ترتاح ، وقل : هذا الموضوع أبتّ فيه بعد يومين.

أيها الإخوة ، العدو الأول هو الغضب ، فلا تغضب ، وحينما يغضب الإنسان يصبح كالوحش الكاسر، فالمؤمن كرمه الله بالحلم ، وبالحلم تحل كل مشكلة ، بل تحل كل شيء ، بتعبير آخر كل شيء يحل عند الموت ، لكن قد يدمر الإنسان نفسه بالغضب ، وهناك حروب دمرت أممًا في ساعة غضب ، حرب بأكملها جرت في الجاهلية بقيت عشر سنوات أحرقت الأخضر واليابس في ساعة غضب ، الإنسان بالغضب ، فيصبح أحمقَ ، ويصبح وحشاً ، ويعطل عقله ، تعطل خبرته ، ويرتكب أشد حماقة ، لذلك أكبر عطاء على الإطلاق يناله المؤمن من الله عز وجل الحكمة ، قال تعالى :

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : الآية 269)

النبي عليه الصلاة والسلام تصور إنساناً ملك الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، بعد حنين بلغ أوج قوته دانت له الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، ثم جاءه أحدهم وهو من أصحابه يخبره بغضب قومه من توزيع الفيء ، و هو في أوج قوته ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ :

((لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي ، وَمَا أَنَا ، قَالَ : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ ، قَالَ : فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قال : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ ، قَالَ : أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا : وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ ، قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ

يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ قَالَ : فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ ، وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا))

[أحمد ، الدارمي]

هذه القصة مع حكمته ، أم مع كظم غيظه ، أم مع وفائه ، أم مع رحمته ، أم مع حنكته السياسية امتص هذه النقمة ، التعبير المعاصر طوقها ، استوعبها ، هكذا المؤمن .

المؤمن بحكمة يسعد بزوجة من الدرجة الخامسة ، و من دون حكمة يشقى بزوجة من الدرجة الأولى ، بحكمة يسعد بدخل محدود ، ومن دون حكمة يشقى بدخل غير محدود ، بحكمة يربي أولاده المتعبين ، ومن دون حكمة يفسد أولاده الصالحين ، دققوا في هذه الكلمة :

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : الآية 269)

لا يمكن للمقطوع عن الله عز وجل أن يكون حكيماً ، لابد أن يرتكب حماقة ما بعدها حماقة ، وهو في أوج ذكائه ، وكانوا مستبصرين ، والدليل :

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

(سورة الجاثية : الآية 23)

يحمل شهادة عالية ، تسمع كل قصة فيها دمار ، قال تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

(سورة الحشر : الآية 2)

هؤلاء يهود خيبر ، وكلما كان الإنسان بعيداً عن الله يتحامق ، قال تعالى :

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد : الآية 1)

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 134)

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

1 ـ أسباب محبة الله لك بيدك :

لكنك إذا أحسنت إلى خلق الله أحبك الله ، وما من مرتبةٍ على الإطلاق أعظم من أن يحبك الله ، ومحبة الله بيديك أسبابها بيديك ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 222)

تب إلى الله يحبك الله ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة المائدة : الآية 42)

كن منصفاً ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة البقرة : الآية 195)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 4)

(وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 222)

تطهر ، وتب ، وأنصف ، وأحسن يحبك الله عز وجل ، فإذا أحبك الله كان معك .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ قَالَ :

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[البخاري]

أن يحبك الله هذه أعلى مرتبة في الأرض ، أن يحبك خالق السماوات والأرض.

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 134)

2 ـ الإحسان مجاله واسع وكبير :

كلمة محسنين واسعة جداً ، إتقان العمل إحسان ، الإنصاف إحسان ، الحلم إحسان ، خدمة الخلق إحسان ، محسن ، قد تحسن مع حيوان في أثناء ذبحه ، قال تعالى ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : اثْنَتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[مسلم ، النسائي ، الترمذي ، أحمد ، الدارمي]

قد تحسن إلى عدوك فتردعه عن غيه .

عَن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أحمد]

الإحسان يبدأ بإتقان العمل ، وينتهي بخدمة الخلق ، وما من إحسان أعظم من أن تدل الإنسان على الله دللته على الخير المطلق .

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 134)

هؤلاء هم الذين ينفقون في السراء ، والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين .

الآن إياكم ، ثم إياكم ، ثم إياكم أن تتوهموا أن هذه الواو الذي بعد هذه الآية واو العطف .

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134)وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)

(سورة آل عمران)

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

1 ـ هذه الواو للاستئناف لا للعطف :

هذه ليست عطفاً هذه واو الاستئناف ، هؤلاء فرق ، وسيأتي وصف فريق آخر ، القضية فيها مشكلة كبيرة ، ينفق في السراء والضراء ، كاظم لغيظه ، عاف عن الناس ، محسن ، ثم إذا فعل فاحشة ، يعني زنا أعوذ بالله ، هذه الواو واو الاستئناف ، وليست واو العطف ، هؤلاء زمرة ، هذا فريق أول ، والنمط الآخر والفريق الآخر .

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة آل عمران : الآية 135)

2 ـ المؤمن المذنب سريع العودة والأوبة :

هو في صراع إذا غلبته نفسه ففعل فاحشة ، أو ظلم إنساناً سريعاً ما يستغفر يذكر الله يذكر عدله ، يذكر حكمته ، يذكر بطشه فيستغفر ، استغفروا الله ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم ، لكنهم يعتقدون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله وحده .

(وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا)

(سورة آل عمران : الآية 135)

3 ـ المؤمن المذنب لا يصر على المعصية :

لا يقيمون على هذه المعصية ، أولاً يعتقدون أنها معصية ، وأنها مهلكة ، ثم هم من باب العمل لا يقيمون عليها ، من باب الاعتقاد يعتقدون أنها مهلكة ، وأنها تسبب لهم غضب الله تعالى ، تسبب لهم سخط الله وغضبه ، وأنها تستدعي بطش الله عز وجل هذه عقيدتهم .

سلوكهم يقلعون عنها ، لذلك قالوا : النبي معصوم ، والولي محفوظ ، النبي معصوم ، لأن الله عصمه ، فلا يخطئ في قول ، ولا عمل ، ولا في فتوى ، ولا في شرع ، ولا في موقف ، لكن الولي محفوظ يخطئ ، لكن خطأه لا يضره ، لأنه سريعاً ما يستغفر ، وسريعاً ما يرجع ، وسريعاً ما يخاف ، قال تعالى :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 135)

لم يصروا ، أي لا يقول لك : ما عملنا شيئًا ، هذا الذي يستهين بالمعصية ويستهين بالذنب منافق ، لأن ذنب المنافق كالذبابة ، وذنب المؤمن كالجبل يخشى أن يقع عليه ، وشتان في الوزن بين الذبابة والجبل، هذا من تشبيه النبي ، ذنب المنافق ذبابة يقول : ماذا صار ؟ أكلناها ؟ نظرنا فقط ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، هكذا ذنب المنافق كالذبابة ، وذنب المؤمن كالجبل ، يخشى أن يقع عليه ، لذلك الصنف الثاني يخطئ ، ولكن مع خطأه يستغفر ، ومع خطئه يعلم أن هذا ذنب كبير ، وأن الله قد يعاقبه عليه عقاباً أليماً ، هذا الذنب يوجب سخط الله عز وجل ، هذا الذنب يوجب بطش الله عز وجل .

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة آل عمران : الآية 135)

لو فعلت الذنب ألف مرة من الذي يغفر غير الله ؟ قال تعالى :

(وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 135)

لم يصروا لا قولاً ولا فعلاً ، لا يقول لك : هذا ليس بذنب ، هذا معناه أنه أصرَّ على أنه ليس بذنب ، يقول لك : والله ذنب كبير ، وقد أخطأت ، ثم يقلع ، لم يعتقد أنه لا شيء ، لم يستهن به اعتقاداً ، ثم إنه لا يقيم عليه سلوكاً ، يبتعد عنه :

(وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 135)

قال :

(أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 136)

أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ

تواضع ، متواضع ، ذنبه كبير ، تاب منه سريعاً ، استغفر الله ، اعتقد أنه ذنب مدمِّر يحجب عن الله عز وجل ، ثم أقلع عنه ، قال :

(أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 136)

ربهم ، وليس ربي ، الزمرة الأولى محسنون ، والزمرة الثانية عاملون ، يقول لك : هناك ضباط وصف ضباط ، موظفون من الدرجة الأولى ، وآخرون من الدرجة الثانية ، كن طموحاً ، وكن من الزمرة الأولى ، قال تعالى :

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134)وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة آل عمران)

تطبيق سنة النبي واستغفار الله أمان من العذاب :

إخواننا الكرام ، نحن في بحبوحة في حالتين ؛ في حالة أن سنة النبي عليه الصلاة والسلام فينا قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : الآية 33)

إذا كان بيتك إسلاميًا ، وعملك إسلاميًا ، وأفراحك إسلامية ، وأتراحك لا سمح الله إسلامية ، وتجارتك وكسب مالك إسلاميين ، ونزهاتك إسلامية ، وعلاقاتك الاجتماعية إسلامية ، إذا كان الإسلام فينا فنحن في بحبوحة من أن يدمرنا الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : الآية 33)

عندنا بحبوحة ثانية لو أنّ أقدامنا زلت ، لو أننا عصينا ، قال :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال : الآية 33)

أنت في بحبوحتين ؛ بحبوحة الاستقامة ، وبحبوحة الاستغفار ، أنت مستقيم فأنت في بحبوحة ، أنت مستغفر فأنت في بحبوحة ، لكن لا أنت مستقيم ، ولا مستغفر ، فهذه معصية الكبر ، معصية الرد ، إبليس عصى ، وآدم عصى ، لكن إبليس قال :

(قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

(سورة الحجر : الآية 33)

رد الأمر الإلهي استكبر أن يطيع الله عز وجل ، فكان إبليس اللعين ، أما سيدنا آدم فقال تعالى في حقه:

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)

(سورة طه : الآية 115)

فرق كبير كبيرٌ بين معصية الغلبة ، ومعصية الكبر ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس أن ترد الحق وأن تحتقر الناس .

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

في آية أخرى تفيدنا هنا :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : الآية 11)

1 ـ لابد للمكذب من عقاب عاجلا أو آجلاً :

المكذب بالحق له جزاء وبيل ، فإما أن يأتي تباعاً ، وإما أن يأتي على التراخي ، مرة قال تعالى : ثم ، ومرة : بالفاء :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام : الآية 11)

قد يأتي العقابُ بعد الذنب مباشرةً ، وقد يأتي العقاب بعد مهلةٍ على كل الدنيا ، وحدها تبين لنا كل شيء.

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

2 ـ السنن الإلهية قوانين ثابتة :

أي قوانين ثابتة :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(37-60): تفسير الآيتان 137 – 138
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-08-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية السابعة والثلاثين بعد المئة ، يقول الله عز وجل ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

1 ـ تعامل الله مع عباده وفق قوانين ثابتة :

معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يتعامل مع عباده وفق قوانين ثابتة ، ثم تأتي السنن ، أي طرائق واضحة ، قواعد محددة ، قوانين ثابتة ، مبادئ معينة ، التعامل بين الله وعباده ليس تعاملاً مزاجياً وليس تعاملاً كيفياً ، أية مقدمة لها نتيجة ، إن فعلت كذا كان كذا ، فهناك سنن يمكن أن تستنبطوها من التاريخ .

ومن خلال استنباط هذه السنن يمكن أن تتنبؤوا بما سيكون ، لمن وقع في الأسباب نفسها ، فمثلاً : لو أن معلماً لم يتكلم ولا كلمة ، نظر إلى طالب ، وقد وكز زميله ، فضربه ، وبقي المعلم ساكتاً ، في المرة الثانية الطالب وكز صديقه ، فضربه المعلم ، في المرة الثالثة الطالب وكز صديقه ، فضربه المعلم ، ألا يستنبط هذا الطالب أن هناك قاعدة ثابتة لتعامل أستاذه مع الطلاب ، المعلم لم يتكلم ولا كلمة، لكن حينما يضرب الطالب زميله ، يضربه المعلم ، أول مرة ، وثاني مرة ، وثالث مرة ، المرة الثالثة هذا الطالب قدم مكافئة لزميله ، فكافأه المعلم ، ألا يستطيع أن يستنبط من سلوك المعلم الثابت المبني على قواعد قانونا ؟

2 ـ انظر إلى معاملة الله للمجرمين تستنبط السنن والقوانين :

لو لم يكن بين أيدينا هذا القرآن ، ونظرنا كيف يفعل الله بالمجرمين ، بالمكذبين ، بالخائنين ، بالمنحرفين ، بالشاردين ، لوجدنا أن هناك قواعد ثابتة تحكمهم جميعاً ، وأي أمة فعلت مثل ما فعلت

هذه الأمة السابقة مصيرها كمصيرهم ، لذلك من البطولة الرائعة أن تستنبط ما في القرآن الكريم من قوانين ثابتة ، تعالوا بنا نستعرض بعض هذه القوانين .

قوانين قرآنية ثابتة :

1 - لابد من كشف الخائن :

من هذه القوانين قال تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 52)

في أي مكان ، وفي أي زمان ، وفي أي عصر ، وفي أي مصر ، الخائن لابد من أن يكشف ، قال تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف : الآية 52)

2 - الإحسان ثمرته الحكم والعلم :

قانون ثان ، قال تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص : الآية 14)

الإحسان من ثماره اليانعة أن الله يؤتي المحسن حكماً وعلماً ، قال تعالى :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف : الآية 56)

3 - الإحسان سببٌ لعطاء الله المطلق :

قانون ثالث مطلق عطاء الله عز وجل سببه أن تكون محسناً ، الله جل جلاله من يحب ؟ قال :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة : الآية 222)

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 146)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 4)

أتمنى أنكم إذا قرأتم القرآن أن تضعوا أيديكم على القوانين ، القوانين التي تحكم علاقتكم بالله .

4 ـ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ

قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)

(سورة الزمر : الآية 3)

5 ـ قانون التيسير والتعسير :

قانون التيسير ، قال تعالى :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(8)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(9)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل : الآية 5-10)

قانون التيسير والتعسير ، لا تقل : حظ ، وليس لي حظ ، كلام ليس له معنى ، كلام شيطاني ، أنت إما أن تيسر أمورك ، وإما أن تعسر أمورك ، إن أعطيت ، واتقيت ، وتصدقت بالحسنى تيسر أمورك ، وإن بخلت ، واستغنيت ، وكذبت بالحسنى تعسر أمورك ، هذا قانون التيسير والتعسير .

6 ـ قانون الود والخصومة :

قانون الود والخصومة ، قال تعالى :

(فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة : الآية 14)

أيّ مؤمنين ، أيّ مجموعة مؤمنين ، إذا عصى أحدهم ربه ، دخل الشيطان بينهم ، فرق بينهم ، فعَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ :

((مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أبي داود ، أحمد]

هذا قانون ، فإن أطعنا الله جميعاً كان بيننا من الود ما لا يوصف ، من الود والحب والتعاون ، فإذا اختلت علاقتنا بالله عز وجل ، انعكست خصومات وعداوة فيما بيننا ، قانون العداوة والبغضاء .

7 ـ قانون الخوف :

قانون الخوف ، قال تعالى :

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ)

(سورة الحشر : الآية 2)

فرد ، أو ، جماعة أو أمة حينما تشرك يلقي الله في قلبها الخوف ، الخوف له قانون .

8 ـ قانون العزة والذل :

العزة والذل ، قال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

(سورة يونس : الآية 26)

إن كان عملك طيباً فأنت رافع الرأس ، ولا يستطيع أحد في الأرض أن ينال منك ، أما إذا كان هناك تقصير فهناك :

(وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

(سورة يونس : الآية 26)

قانون العزة والذل .

9 ـ قانون الخوف والأمن :

قانون الخوف والأمن ، قال تعالى :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام : 81-82)

قانون الخوف والأمن والتيسير ، العداوة والبغضاء .

10 ـ قانون التوفيق :

قانون التوفيق ، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : الآية 97)

هذا قانون إلهي ، وهو فوق المكان والزمان والمعطيات ، يقال : بلد موارده قليلة ، هذا القانون فوق كل المعطيات ، فوق المكان ، والزمان ، والمعطيات ، والأسباب والمضائق .

أسعد الناس من كشف القوانين القرآنية :

أيها الإخوة ، أسعد الناس من كشف القوانين التي في كتاب الله ، والتي تحكم علاقة الله عز وجل بالإنسان ، يخادعون الله وهو خادعهم إذا حصل مخادعة فلا بد أن تعود المخادعة على صاحبها ، على كلٍ هذه نماذج .

لكن إذا قرأت القرآن الكريم يمكن أن تضع يديك على كل قانون ، فإذا أيقنت أن هذا قانون قطعي فأنت ما عليك إلا أن تأتي بالمقدمات حتى تقطف الثمار ، هذه المقدمة لها هذه النتيجة ، هذا السبب له هذه النتيجة ، فأنت إذا تعاملت مع الله وفق قوانينه ، سعدت وأسعدت ، أما إذا فهمت الدين فهماً سطحياً وفهماً عشوائياً .

والله أربعة أخماس كلام العوام ليس له معنى ، مسكينة لم تحظ هذه البنت ؟ ما معنى ذلك ؟ الحظ ما قانونه ؟ إن كانت طائعة لله عز وجل فالله سبحانه وتعالى سيكرمها ، وإن كانت عاصية فالله سبحانه وتعالى سيؤدبها ، أدق ما في هذه الآية ، عليك أن تكتشف القوانين ، إما من بيان الله عز وجل كالقرآن، أو من أفعاله ، إما من بيان الله عز وجل لما في هذا القرآن أو من أفعاله ، فإذا كشفت هذا القانون .

فالقانون علاقة ثابتة بين متغيرين وبإمكانك أن تتنبأ بالمستقبل ، إنك لا تعلم الغيب ، ولكن تتنبأ بالمستقبل لإنسان ماله من الربا ، فقد يُرخى له الحبل لكن لا بد من أن يمحق الله ماله ، هذا قانون ، قال تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : الآية 276)

بعكس الواقع ، أنت حينما تقرض قرضاً ربوياً يعود عليك بمئة وعشرين زيادة ، المئة مئة وعشرون ، وحينما تتصدق ، أو حينما تقرض قرضاً حسناً لا تأتيك أية زيادة ، ومع ذلك فالقانون الإلهي :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : الآية 276)

أيها الإخوة ، أحياناً قد يقع شخص في مشكلة مع شخص آخر فوكل محاميًا ، المحامي إن رأى اجتهاد محكمة النقض خمس كلمات يطير فرحاً ، يقول لك : كسبنا الدعوى ، أن هناك اجتهادا في محكمة النقض لصالحك ، أنت حينما تحتفل بكلام إنسان ، وترى أن هذا الكلام حافل ، وأنه قد يربحك دعوى حجمها بالملايين ، ولا تصدق كلام الله عز وجل .

أتمنى عليكم ، وعلى نفسي أيضاً أننا إذا قرأنا القرآن الكريم أن نكتشف هذه القوانين ، قانون التيسير والتعسير ، قانون العزة والذلة ، قانون الأمن والخوف ، قانون الوفاق والخصام ، قانون الحياة الطيبة ، حينما تقول هذا كلام خالق الكون ، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق

وعوده للمؤمنين قد يقول لك : هؤلاء دعوا الله فلم يُوفقوا ، ظروف صعبة جداً والطرف الآخر قوي جداً وحاقد جداً ، حسناً ماذا نفعل بقوله تعالى :

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر : الآية 51)

وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيل

معنى ذلك أني لك أقدم الأسباب :

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء : الآية 141)

هناك ألف سبيل وسبيل على المؤمنين الآن ، لو أنهم كانوا مؤمنين كما أرادهم الله عز وجل من سابع المستحيلات أن يكون لهؤلاء الكفار على المؤمنين سبيلا .

إمبراطورة الرومان كانت تدفع جزية لهارون الرشيد ، ثم جاء بعدها إمبراطور اسمه نقفور أرسل رسالة لهارون الرشيد يقول فيها : عليك أن تعيد لي كل ما أخذته من التي كانت قبلي وإلا لي ولك شأن، ماذا فعل هارون الرشيد ؟ كتب : من خليفة المسلمين هارون الرشيد : إلى كلب الروم نقفور الخبر ما ترى لا ما تسمع ، وذهب إليه ، وغزاه في عقر داره ، وكلفه بجزية مضاعفة ، قال تعالى

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء : الآية 141)

هذه قوانين الله عز وجل ، هذا النصر الإلهي لا يتنزل على أنصاف مسلمين ، ولا على أرباع مسلمين، ولا على أعشار مسلمين ، ولا على أصفار مسلمين ، سيدنا عبد الله بن رواحة حينما ذهب إلى خيبر يُقيِّم تمرها أغروه بحلي نسائهم ليقيِّم تقييماً أقل من الواقع ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ

((أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانُوا ، وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ، أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ ، قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي ، فَقَالُوا : بِهَذَا قَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، قَدْ أَخَذْنَا فَاخْرُجُوا عَنَّا))

[أحمد]

والله الذي لا إله إلا هو لو أن أصحاب رسول الله فهموا الإسلام كما نفهمه نحن ، نفهمه أن نرتدي ثياباً بيضاء يوم الجمعة ، وأن تتعطر بالمسك ، وأن تحمل سبحة ، وأن تأتي إلى المسجد، أما في متجرك تجد أيماناً كاذبة ، ودخلا حرامًا ، وغشًّا للمسلمين ، وهناك سهرات مختلطة ، وهناك انحراف أخلاقي ، لكن نحن مسلمون ، نحن أمة محمد ، لو أن الصحابة الكرام فهموا الإسلام كما

نفهمه نحن عبادات ، استعراضات ، مظاهر ، أما حياتنا في واد ، والإسلام في واد آخر ، والله ما خرج الإسلام من مكة المكرمة ، كيف وصل الإسلام إلى أطراف الدنيا ؟

بهذا الالتزام ، نحن لسنا بحاجة الآن إلى كلام ، ولا إلى دروس ، ولا إلى خطب ، ولا إلى أشرطة ، ولا إلى كتب ، ولا إلى محاضرات ، ولا إلى مؤتمرات ، بحاجة إلى مسلم يعيش الإسلام ، مسلم يطبق تعاليم دينه ، مسلم يعتز بإسلامه ، مسلم لا تأخذه في الله لومة لائم ، مسلم لا يكذب ، مسلم لا يخون ، لا يرتكب معصية إطلاقاً ، هذا الذي نحتاجه ، فعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[ابن ماجة]

أيها الإخوة :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

انظروا إلى عاد وثمود وعليهما فقسْ !!!

عاد وثمود ، أي إنسان ذهب إلى أمريكا يقول لك : لم يُخلَق مثلها في البلاد ، جنة الله في الأرض ، كلها معامل ، مطارات ، أماكن جميلة ، جامعات ، مرافق ، وبعد ذلك :

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت : الآية 15)

هذه الصفة الثانية ، الصفة الثالثة :

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 130)

وأيضاً :

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر : الآية 8)

قال :

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(13)إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر : 12-14)

وأية أمة تشبه عاداً وثمود مصيرها كعاد وثمود ، فاطمئنوا ، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله .

قبل أسبوع صدر في ألمانيا قوانين تجعل الشذوذ مشروعاً ، فأي شاب من أية أمة له علاقة شائنة بشاب ألماني يستحق الجنسية الألمانية ، كأنه تزوجه ، وصار هناك عقود قران ، نساء على نساء ،

ورجال على رجال ، في الكنائس أيضاً ، أي إنسان له علاقة شائنة بشريك جنسي ، له تعويضات ، وله أذن سفر ، وله مكافئات ، هذا هو العالم اليوم .

فيا أيها الإخوة :

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(13)إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر : 12-14)

بطولتنا أن نكتشف القوانين قوانين الله عز وجل في هذا القرآن الكريم ، فزوال الكون أهون على الله من ألا تقع قوانينه وسننه .

إياك أن تغفل القوانين فتهلك :

لو أنك أغفلت المسافات البينية في الفيزياء لوقع البناء ، لأن المعادن تتمدد بالحرارة ، هذا القانون في العلم مطَّرد ، وشامل ، أي في أي مكان في العالم إن لم تجعل فراغاً بينياً بين أقسام البناء ، هذا البناء يتصدع ، حينما تفهم قوانين الله عز وجل كما تفهم قوانين الفيزياء ، فالبارود ينفجر بالنار ، هذا قانون ، والغاز يلتهب لأدنى شرارة ، هذا قانون ، فإذا كان عقلك علمياً ، وقرأت القرآن الكريم ، وأيقنت أنه من رب العالمين ، وأن زوال الكون أهون على الله من ألا تقع هذه القوانين تأدبت معها ، قانون الوفاق الزوجي ، طاعة الزوجين بالله ، إذا بُني الزواج على طاعة الله تولى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين ، إذا بُني على معصية الله تولى الشيطان التفريق بينهما .

في العلاقة الزوجية ، في العلاقة مع الشريك ، في العلاقة الأسرية ، حينما تُسوي بين أولادك كلهم يحبونك ، فإذا خالفت شرع الله عز وجل وفرّقت بينهم في العطية أبغضك المبغض ، فأنت إن أردت السلامة والسعادة إليك هذه القوانين ، وعوِّد نفسك أنك إذا قرأت القرآن أن تكشف القوانين ، ولا مانع من أن تجعل مصحفاً في بيتك تشير فيه إلى القوانين بخط أحمر ، قال تعالى :

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس : الآية 33)

إنسان غارق في معاملة ربوية ، هذا لا يقبل أن الربا حرام ، يناقش ، ويحاور ، إنسان غارق في علاقة محرمة مع النساء ، يقول لك : هذا العصر غير عصر النبي ، فهذا الذي غارق في معاملة منحرفة لا يقبل الحق .

أيها الإخوة ، أنا ما أردت أن أجعل هذا الدرس عرضاً للقوانين ، هذا موضوع يطول ، ولكن أتمنى عليكم إن قرأتم القرآن أن تضعوا أيديكم على هذه القوانين ، والعملية سهلة جداً ، ثم هذه القوانين ينبغي أن تحفظوها ، وأن تعملوا بها ، تجدون الثمار يانعة ، قال تعالى :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ)

أي قد مضت من قبلكم قوانين ، أي علاقات ثابتة بين المتغيرات ، أي قواعد عامة .

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين

قال تعالى :

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 137)

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(112)وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ(113))

(سورة الأنعام)

أحياناً يظهر من حين لآخر كتاب - والعياذ بالله - كله باطل ، لكن يروج رواجاً غير معقول ، عشر طبعات لأنه يبيح لقارئه كل شيء ، تحت غطاء إسلامي ، هذه الحالة لها قانون ، الله عز وجل شاءت حكمته أن يسمح لهذه الكتب أن تنتشر ، قال تعالى :

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ(113))

(سورة الأنعام)

1 ـ كلما قرأت القرآن فسرت ما حولك :

كلما قرأت القرآن فسرت ما حولك ، تجد أمة في غنى يفوق حد الخيال ، دخل الفرد بما يعادل دخل مئة فرد في بلادنا ، كل إنسان له بيت مستقل ، ومسابح ، ومركبات ، ويخت ، وطائرة خاصة أحياناً ، وأموال لا تأكلها النيران ، وهم على فسق ، وفجور ، وخمر ، وزنى ، وشذوذ ، وعنجهية ، واستكبار ، واستعلاء وهم آمنون مطمئنون ، هذا شيء محير والله ، اقرأ القرآن :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام : الآية 44)

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ

هناك شيء آخر ، آية ظاهرة فيها إشكال ، إن قرأت القرآن تجد تفسيرها واضحاً ، قال تعالى :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا)

(سورة القصص : الآية 4)

فرعون علا في الأرض ، فئة تلوذ به محكمة بكل شيء :

(يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص)

بربك أيهم أحب إليك بعد هذه الآية ، أن تكون مستضعفاً ليمنّ الله عليك ، ويقويك ويمكّنك ، أم أن تكون مستكبراً ؟ هذا قانون ، أي هناك جهتين ، جهة لا تعرف الله إطلاقاً ممكنة في الأرض كما هم الكفار في بلاد العالم ، ممكنة في الأرض ، كل شيء بيدها ، أموال الأرض بيدها ، أسلحة الأرض بيدها ، وفئة مؤمنة مقصرة ، القانون الإلهي أنّ الله يسلط الأولى التي لا تعرفه على الثانية التي تعرفه ، وقد قصرت في حقه قال تعالى :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

قم فعالج الألَمَ :

قانون عام ، جهة لا تعرف الله أبداً ممكنة في الأرض ، جهة تعرف الله وهي مقصرة ، هذه تحت العلاج إلى أن تعرف الله ، إلى أن تصطلح مع الله .

ذكرت اليوم في الخطبة كلام دقيق في نهايتها ، قلت : أنت حينما لا سمح الله ولا قدّر تتألم ألماً لا يُحتمل بمرض أصابك ، فهل تصدق أن هذا الألم جزء من الشفاء ، هذا الألم إنذار ، أي قم وعالج نفسك، هذا الألم يدفعك إلى معالجة هذا المرض ، وكأن هذا الألم جزء من الشفاء ، لكن ما هو المرض الخطير ؟ والعياذ بالله إنه الورم ، ليس له آلام أبداً ، ينتشر ، يستحكم ، ينمو ، إلى أن يصل إلى درجة لا شفاء له عندها يظهر ، متى يظهر ؟ بعد فوات الأوان .

إذاً حينما يأتي عدو لنا ويبالغ في قهرنا ، ويبالغ في إذلالنا ، ويُقتّل أبناءنا كما تسمعون كل يوم ، ويهدم بيوتنا ، ويحرق المزروعات ، هذا جزء من النصر إن شاء الله لأنه يدعو إلى الصحوة ، إلى التعاون ، إلى الوحدة ، رب ضارة نافعة ، وكلما ازداد العدو حماقة اقترب الفرج إن شاء الله ، فلا تتألم من آلام المرض إنها جزء من الشفاء ، لا تتألم لقسوة الكافر ، ولجرمه ، ولحماقته فهي جزء من أسباب النصر عليه ، وكفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله .

هناك حساب دقيق أيها الإخوة ، الناس في غفلة شديدة ، الناس في جهالة جهلاء ، وأيّ إنسان أيها الإخوة لا يدخل الله جل جلاله في حساباته اليومية فهو أكبر غبي ، وأكبر أحمق ، لأن الله سينتقم منه أشد الانتقام :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج : الآية 12)

لكن الله سبحانه وتعالى له سياسة ، سياسة إرخاء الحبل ، يرخي الحبل حتى يتوهم هذا المجرم أنه حر طليق ، يفعل ما يريد ، ثم يضعه الله في قبضته في ثانية واحدة ، فالعبرة أن تكون متحركاً في رضوان الله ، لا أن تكون قوياً متحركاً في سخط الله ، قال تعالى :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

2 ـ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

أي هؤلاء الذين عارضوا رسول الله ، وأخرجوه ، وائتمروا على قتله ، ونكلوا بأصحابه ، أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ ، وهؤلاء الذين نصروه ، وأيدوه ، وأعانوه ، واستقبلوه ، وقدموا له أرواحهم ، أين هم الآن ؟ في أعلى عليين ، هذا هو التاريخ ، حتى في حياتنا المعاصرة لا يوجد إنسان وقف مع الحق إلا أعزه الله ، ولا يوجد إنسان وقف مع الباطل إلا أذله الله عز وجل ، أي أشقى الناس قاطبة هو الذي في خندق معادٍ للحق ، قال تعالى :

(فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

ثم يقول الله عز وجل :

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 138)

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ

1 ـ أي دعوة الله بيانية :

بيان ، أي دعوة الله بيانية ، أنا أقول لك : هذا الشيء ينتهي إلى هذا الشيء ، هذه المقدمة تنتهي إلى هذه النتيجة ، من جد وجد ، ومن سار على الدرب وصل ، هناك قوانين كثيرة جداً ، كن أميناً تكسب أثمن شيء في الحياة ثقة الناس ، وثقة الناس هي أكبر رأسمال تملكه ، أتقن عملك يتهافت الناس عليك في كل زمان ومكان ، مهما يكن من كساد المتقن لا يقف عمله أبداً ، أما في أثناء الرواج يروج كل شيء حتى العمل السيئ ، أما عند الكساد فيبقى المتقن مستمراً في عمله ، وإتقان العمل جزء من الدين، قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق : الآية 2)

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

هذا قانون ، والله يكاد يكون القرآن كله قوانين :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق : الآية 2)

يُكتب حول هذه الآية مجلدات ، من يتق الله في اختيار زوجته ، اختارها ذات دين ، يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي ، من اتقى الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم ، من اتقى الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من تلف المال ، من اتقى الله في معاملة جيرانه ، فهناك ألف شيء إن طبقت منهج الله قطفت الثمار ، يجعل الله لك مخرجاً من كل هم وحزن ، هذا بيان .

وبالمناسبة هناك دعوة بيانية ، وأنت صحيح معافى ، في بيتك ، ومعك أهلك وأولادك ، وليس عندك أية مشكلة ، قرأت القرآن ، الله عز وجل بيّن لك أنك مخلوق للجنة ، وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهذه الجنة ثمنها طاعة الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

والأوامر الكلية في الكتاب والتفصيلية في السُّنة ، وليس هناك حرمان ، الآية الكريمة :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ)

(سورة القصص : الآية 50)

المعنى المخالف لو أنك اتبعت هواك وفق منهج الله لا شيء عليك ، هذا بيان ، وأنت صحيح معافى ، لا مشكلة عندك ، الله بيّن لك .

مراحل معاملة الله للعبد :

1 ـ الدعوة البيانية يُنتظر منها الاستجابة :

الدعوة البيانية يُنتَظر ممن دُعي إليها أن يستجيب :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال : الآية 24)

2 ـ عدم الاستجابة يوجِب مرحلة التأديب التربوي :

إن لم يستجب الإنسان فلا بأس لأن هناك مرحلة أعلى ، وهي التأديب التربوي ، الله عز وجل يسوق مصيبة ، قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ)

(سورة البقرة : الآية 155)

في معظم البلاد الآن حر لا يُحتمل ، كساد لا يُحتمل ، قلق لا يُحتمل ، تلوث لا يُحتمل ، تلوث ، وكساد، وحر ، وقلق ، وجفاف ، بما قدمت أيدي العباد ، هذه الدعوة البيانية سهلة جداً ينبغي أن تستجيب لله ، إن لم تستجب فهناك تأديب تربوي ، ونحن الآن تحت التأديب التربوي ، هناك تأديب ، هناك قلق عام ، هناك عدو شرس ، وحش ، أنا وصفت هذا العدو ، قلتُ : هو ثور هائج ، مصاب بجنون البقر ، أي لأي شيء يدمر بيوت ، هذا التأديب التربوي ، الله عز وجل ينتظر من هؤلاء المؤدبين الذين أصابهم التأديب التربوي أن يتوبوا :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : الآية 21)

3 ـ بعد التأديب الإكرام الاستدراجي :

إن لم يتوبوا فهناك حل ثالث ، وهو الإكرام الاستدراجي على المعصية ، والإثم ، والانحراف ، يرتفع الدخل ، تروج البضاعة .

حدثني أخ في بلد إسلامي عن معمل تفوق أرباحه حد الخيال ، إعلاناته نساء شبه عاريات ، يأكل الربا ، ويؤكِل الربا ، ويسلك أي طريق قذر لترويج بضاعته ، وأرباحه فلكية ، والقائمون عليه لا يعرفون مَن هو الله ، هذا المعمل بهذا الرواج الكبير ، وهذا الدخل الفلكي ، وهذا النجاح منقطع النظير أربك بعض المؤمنين ، كل دخله ربوي ، وكل إعلاناته فيها فسوق ومجون ، ثم احترق هذا المعمل فجأة ، ولم يبقَ فيه شيء أبداً ، فالله يرخي الحبل .

هناك هدى بياني ، تأديب تربوي ، إكرام استدراجي ، ثم القصم ، قطع ، أكرم شيء أن تستجيب لله بعد دعوته البيانية ، الخطبة دعوة ، الدرس دعوة ، القرآن دعوة ، السُّنة دعوة ، الشريط دعوة ، الكتاب دعوة ، نصيحة الأخ المؤمن دعوة ، دعوة بيانية قال تعالى :

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

أيها الإخوة ، الفرق بين :

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

فرقٌ بين أن يأتيك أمرٌ وأن تعيش هذا الأمر :

أي الله عز وجل يخبرنا أن الزنا حرام ، وأن أكل أموال الناس بالباطل حرام ، وأن الكذب حرام ، وأن السرقة حرام ، لكن حينما يتصل الإنسان بالله عز وجل يُلقي الله في قلبه نوراً ، هو يبتعد عن السرقة لا لأنها حرام فقط ، بل لأن نفسه تشمئز منها ، هذه أرقى ، لقد اهتدى ، أي حينما يدع الكذب لا لأنه محرم فقط ، بل لأن نفسه تعاف الكذب ، ارتقت نفسه من مستوى الهدى البياني إلى مستوى الهدى النوراني ، أي ممكن لأب أن يضغط على ابنه ألاّ ينام قبل أن ينظف أسنانه ، أما إذا سافر الأب يومين فلا ينظفها ، ارتاح ، هذا مشكلته ، أما حين ينمو هذا الطفل على هذه النظافة الرائعة ، فلو سافر أباه شهراً لا يدع تنظيف أسنانه يوماً ، ففرق كبير بين أن يأتيك أمر ، وبين أن تعيش هذا الأمر ، فمثلاً قرأت القرآن ، قال تعالى :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(الأحزاب)

هذه واضحة جداً ، لك صديق لا يصلي ، شارب خمر ، زير نساء ، دخله فلكي ، وأنت موظف دخلك لا يكفيك أسبوعًا ، وتعاني ما تعاني من ضيق الدخل ، يكفي أن تقول هنيئاً له ، ما شاء الله ، الله يجعلني مثله ، فأنت لا تعرف شيئاً في الدين ، الآية فهمتها ، ولكن لم تعِشْها ، لمجرد أن تشتهي أن تكون كالمنحرفين في دخلهم ، مع انحرافهم أنت لا تفقه شيئاً ، ولا تعرف شيئاً ، ولم تذق طعم الإيمان أبداً ، أما المؤمن الصادق لو أمامه ملايين كثيرة من الحرام ، وهو يعيش عيش الكفاف لا يتمنى أن يكون بحال هؤلاء ، لذلك عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، ابن ماجة ، أحمد]

رجل له دعوة ، وصالح ، ويعمل للآخرة مثلاً ، وله زوجة وازنت حياتها مع حياة أختها ، وزوج أختها متفلت ، لا صلاة ، ولا دين ، يعيش لشهواته ، لأن أختها في بحبوحة مادية أكثر قالت : هنيئاً لأختي ، والله حياتها أفضل من حياتي ، فهذه المرأة لا تعرف الله إطلاقاً ، ولم تذق معنى الإيمان إطلاقاً، العبرة أن تكون معتزاً بما أنت فيه ، قال :

((يا عم ، والله لو وضعوا القمر في يميني ، والشمس في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

الاهتداء والاستقامة أبلغ من البيان :

فيا أيها الإخوة ، هذا بيان ، البيان واضح ، لكن هناك ما هو أبلغ من البيان ، وهو أن تكون مهتدياً ، أن يقذف الله في قلبك الهدى ، إن رآك مستقيماً قذف في قلبك الهدى ، لذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد : الآية 28)

وهذه التقوى بمعانيها العلية جداً ، أن يقذف الله في قلبك نوراً يريك الحق حقاً ، والباطل باطلاً .

أيّ شخص سأل ألف رجل : لماذا لا تخون زوجتك ؟ فالإجابات جاءت متعددة ، قسم من هؤلاء قالوا : لا نستطيع لأنها معه في البقالية لا يقدر ، تراقبه ليلاً ونهاراً ، قسم آخر قال : لا أحتمل الشعور بالذنب، الشعور بالذنب ضاغط ، أما لو أن خيانة الزوجة لا يرافقها شعور بالذنب فلا مانع عنده ، أما الجهة الراقية قالت : لا نحب الخيانة ، هناك من قال : لا نحب الخيانة ، وهناك من قال : لا نحتمل الشعور بالذنب ، وهناك من قال : لا نستطيع .

أيها الإخوة موضوع البيان هذا الذي تسمعونه ، أما الهدى فأن يقذف الله في قلبك نوراً يُريك الحق حقاً والباطل باطلاً، وهذا دعاء النبي عليه الصلاة والسلام :

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[ورد في الأثر]

هذا الذي يسرق لماذا يسرق ؟ لأنه رأى أن أفضل شيء أن يسرق ، هذا الذي يزني لماذا يزني ؟ رأى أن الزنى ممتع ، وليس فيه أعباء ومسؤوليات .

حينما تمشي إلى مكان حول دمشق ، وتجد ملهى ، مئة سيارة واقفة ، وقد كُتب : المغني الفلاني ، والراقصة الفلانية ، والموسيقى الفلانية ، والطعام ، والخمور ... إلى آخره ، هذا لماذا دخل إلى هذا الملهى ؟ ألم يقرأ القرآن ؟ إنه يبحث عن لذته ، لو أن الله عز وجل ألقى في قلبه نوراً لرأى أن جلوسه مع أهله ، وأولاده ، وطاعته لله ، وحضور مجلس علم ، أسعد له من كل هذه النزهات .

اطلب من الله أن يلقي في قلبك النور ، يريك الحق حقاً ، والباطل باطلاً ، لأن الذي يحركنا هو رؤيتنا، الذي يغش المسلمين لماذا يغشهم ؟ لكي يضاعف أرباحه ، يغير بيته ، يغير سيارته تأتيه مصيبة تمحقه من أصله ، لم ير الحقيقة ، لو رأى الحقيقة فلن يتردد ، وسيعد للمليون قبل أن يغش المسلمين .

هناك غش كثير في المواد الغذائية ، في بعض البلاد يأتون بلحم كلاب ، ويطعمونه للبشر ، أو مواد فاسدة انتهى مفعولها يبيعها للناس ، لا يهمه ، من أجل أن يربح وحده يسيء للمسلمين جميعاً ، لذلك نحن لا نريد كلمات فارغة ، الله أكبر ، أنت حين تغش المسلمين ما قلت : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو رددتها بلسانك ألف مرة ، لأنك رأيت هذا المبلغ الذي يأتيك من غش المسلمين أكبر عندك من الله . حينما تطيع زوجتك ، وتعصي خالقك فما قلت : الله أكبر ولا مرة ، ولو رددتها بلسانك

ألف مرة ، لأنك رأيت أن طاعة الزوجة أكبر عندك من طاعة الله ، هذه الكلمات التي يرددها المسلمون ولم تكن في مستواها ، فليس لها قيمة أبداً ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، أي لا مُسَيِّر ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا رافع ، ولا خافض ، ولا معز ، ولا مذل إلا الله ، فأنت تتذلل أمام إنسان ، وقد تبيع دينك من أجله ، وربما لا تصلي من أجله ، وقد تنطق بالكفر من أجله ، هل أنت مسلم ؟

كلمة لا إله إلا الله ، الله أكبر ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، حسبي الله ونعم الوكيل ، سبحان الله والحمد لله ، هذه الكلمات الضخمة هي معاني ضخمة جداً .

فيا أيها الإخوة ، كلمة بيان غير هدى ، بيان النفس ، أما هدى : أي يوجد بقلبك نور ، يقال : نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه ، لو فرضنا فرضاً وجدلاً أنه لا توجد آية تحرم الزنى ، المؤمن الصادق الموصول بالله ، الذي ألقى الله في قلبه النور لا يمكن أن يزني فالزنى خيانة ، لا يمكن أن يسرق ، لذلك حينما كان يؤمن الرجل في الجاهلية ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ))

[مسلم ، البخاري ، أحمد]

وقال تعالى :

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

هدى أي الله عز وجل ألقى في قلبك النور :

مثلاً : تمشي في طريق مكتوب لوحة : هنا تقاطع خطر ، لوحة ثانية : يوجد جسر هنا ، لوحة ثالثة : حفريات ، وتحويل ، كلها لوحات ، ولكن لو كان معك ضوء كاشف في الليل ولو لم يوجد لوحات فإنك تراهم جميعاً ، فلو كان عندك ضوء كاشف من الله عز وجل لكنت أقوى بكثير ، فلن تحتاج ولا إلى لوحة ، أما إذا لم يكن ثمة ضوء كاشف فتعطى تعليمات ، فالطيار في الليل كيف ينزل ؟ على اللاسلكي ، انحرف مترا ، يُعطى تعليمات معينة ، أحياناً في حال الضباب ينزل باللاسلكي ، أما إذا كانت الشمس ساطعة ، والطريق واضح فلا يحتاج إلى اللاسلكي ، ينزل معتمدا على الرؤية الواضحة :

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

والحمد لله رب العالمين

الأسئلة :

إخواننا الكرام ، هناك سؤال من الأسبوع الماضي يقول :

س : يروى أن إنساناً طائعاً لله متعبداً حدثته نفسه ذات يوم الذهاب إلى مواطن الشرك والمعصية فترك صومعته ، وذهب ، فتوفاه الله في الطريق ، فأخذته ملائكة النار إلى النار ، كيف يكون هذا ، ولم يفعل هذا الإنسان شيئاً ؟

ج : الحقيقة هذه القصة رواها النبي عليه الصلاة والسلام ، أحدهم قتل تسع وتسعين نفسًا فسأل راهباً : هل لي توبة عند الله ؟ فقال له : ليس لك توبة ، فقال في نفسه : ليس لي توبة فأكملهم على المئة ، فسأل آخر ؟ فقال له : لك توبة ، ولكن اخرج من هذا البلد إلى بلد آخر ، في الطريق وافته المنية ، اختصم الملائكة ، فقاسوا المسافة هل هو أقرب إلى بلد الخير أم إلى بلد الشر ؟

العبرة من هذه القصة عميقة جداً ، لا تقل لإنسان : ليس لك توبة ، لكن قل له : غَيِّر البيئة .

مرة كنت في درس في الطاووسية ، شخص سبحان الله أخذه الانفعال ، وقف ، وقاطعني ، وقال لي : يا أستاذ نسمع منك شيئاً جميلاً جداً ، ونذهب إلى البيت فننسى ، ونعود إلى ما كنا عليه ، فما هو الحل ؟ قلت له : غيِّر الطقم ، أنت عندك طقم سيئ ، فتجلس معهم ، يقولون لك مثلاً : تعال لنلعب الطاولة ، تتحدثون عن النساء ، كلام فارغ ، غيبة ، نميمة ، فإن أنت لم تغيِّر الطقم فلن تجد الحل أبداً ، يجب عليك أن تغيِّر الطقم كله ، يجب أن تعمل طقماً جديداً ، مؤمناً ، فيه أمانة ، وصدق ، وعفاف ، وتوبة ، ونصيحة ، فهذا الإنسان الذي قال له الأول : ليس لك توبة ، فأكمل به المئة ، لأنه لم يعالجه ، ليس لك توبة فقط ، أما الآخر فقد كان فقيهاً قال له : لك توبة ، ولكن عليك أن تخرج من هذا البلد إلى بلد يُطاع الله فيه ، إذاً انظر إلى تغيير البيئة ، أي إنسان يجلس مع مؤمنين يتمنى أن يكون مثلهم ، حديثهم والله جميل ، وهناك منافسة على الطاعة ، الأدب وحفظ اللسان ، حفظ الفرج ، حفظ البصر والسمع ، المداولة بالعلم ، يفهم كتاب الله وحديث رسوله ، يتأثر بأصحاب رسول الله ، اجلس مع إنسان آخر لا يوجد عنده غير الفنانين والفنانات الأحياء منهم والأموات ليس له حديث آخر :

((يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي ، فَيَقُولانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاه لا أَدْرِي ؟ فَيَقُولانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، ابن ماجة ، أحمد]

طبعاً إذا كان في كل يوم يتغذى تغذية غير إسلامية ، لا يوجد عنده شيء آخر ، أنت عندك وعاء له فتحة في الأعلى وله صنبور مثلاً ، إن وضعت فيه الماء يبقى ماء ، واللبن لبناً ، والشراب شراباً ، أنت لاحظ من أي منهل تتغذى ، ما هي تغذيتك ؟ أخبار فقط ، أخبار لاعبي الكرة مثلاً ، أخبار الفنانين ، مسلسلات ، ما هي تغذيتك ؟ المؤمن يتغذى بالقرآن والسُّنة نظرياً ، وبسيرة النبي وأصحابه عملياً ، عنده أعلى مستوى من الكمال ، عنده عقيدة صحيحة ورؤية صحيحة ، فهم صحيح وقيم ثابتة ، عنده منهج كامل ، غير المؤمن هذا الذي يراه على الشاشة وهذا الذي يسمعه وهذه المجلات والقصص هذه تغذيته ، هذه كلها فيها أشياء ما أنزل الله بها من سلطان .

فيا أيها الإخوة ، الهدى أن يقذف الله في قلبك نوراً ، يُريك الحق حقاً والباطل باطلاً ، فإذاً : نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه ، مستحيل وألف مستحيل إن كنت موصولاً بالله أن تقترف معصية ، لأن نفسك تعافها .

أوضح مثلٍ لو أنك كنت البارحة لا سمح الله غارق في الأغاني ، واليوم تبت إلى الله ، وركبت سيارة ، فوضع لك السائق الأغنية التي تحبها ، التي تذوب بها ، تتفاعل معها ، وتقول في نفسك : أنا لست مؤاخذاً ، الحديث يتحدث عن من استمع ، قد تذهب أحياناً إلى حلب ، ويضع لك السائق أغاني تحبها ، ولكن تعال بعد سنتين أو ثلاث ، الأغنية نفسها التي كنت تطرب لها ، وترقص حين سماعها تعافها نفس

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(38-60): تفسيرالآيات 139 - 147
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-08-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

1 ـ الإيمان الحقيقي هو سبب من أسباب النصر :

إن كنتم مؤمنين الإيمان الحق ، الإيمان المنجي ، الإيمان كما يريد الله عز وجل ، إن كنتم كذلك فأنتم الأعلون ، والعاقبة لكم ، ومهما ألمت بكم المحن فأنتم المنتصرون ، فلا تهنوا ، ولا تحزنوا .

2 ـ أخطر هزيمة الهزيمة من الداخل :

قد يفهم من هذه الآية أن أخطر هزيمة أن يهزم الإنسان من داخله ، قد يهزم هزيمة في ساحة المعركة الخطورة لا أن تهزم من الداخل ، الخطورة أن تيأس ، الخطورة أن تهن ، أن تحزن ، أن تندم على أنك في طريق الإيمان ، أكبر هزيمة أن تكون من الداخل ؟

3 ـ لابد من الصبر ، فإن الدنيا دار ابتلاء :

سيأتي بعد قليل أن المؤمن تصيبه السراء ، وتصيبه الضراء ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا جاءت الأمور كما يحب قال :

((الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات))

[ابن ماجه عن عائشة]

فإذا جاءت على غير ما يحب يقول :

((الحمد لله على كل حال))

[ابن ماجه عن عائشة]

نحن في دار ابتلاء ، نحن في دار عمل لا في دار جزاء في الجنة دار جزاء لهم ما يشاؤون فيها ، أما في الدنيا فليس لك ما تشاء ، من هنا كان دعاء النبي عليه الصلاة والسلام :

((اللهم ما رزقتني فيما أحب فاجعله عوناً لي فيما تحب وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب))

[جامع العلوم والحكم ، لابن رجب]

وطن نفسك أنك في دار ابتلاء ، قد تأتي الأمور كما تحب ، وقد تأتي كما لا تحب ، قد تكون غنياً وقد تكون فقيراً ، قد تكون قوياً ، وقد تكون ضعيفاً ، قد تكون صحيحاً ، وقد تكون سقيماً ، قد تكون وسيماً ، وقد تكون ذميماً ، نحن في دار ابتلاء ، بل إن هذه الدنيا دار التواء ، الزوجة جيدة الأولاد غير جيدين ، الأولاد جيدون الزوجة غير جيدة ، الزوجة والأولاد جيدون ، الدخل غير جيد ، الدخل جيد الصحة غير جيدة شاءت حكمة الله أن تكون هذه الدنيا دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترح ، لا منزل فرح ، لأنه من عرفها لم يفرح لرخاء ، الرخاء مؤقت ، ولم يحزن لشقاء ، الشقاء مؤقت ، قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبة فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي .

الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل :

شاءت حكمة الله جبراً لخاطر المؤمنين أن يكون أنبياؤه وهم قمم البشر ، وهم أصفياؤه ، وهم أحبابه أن يُبتَلَوا ، فالنبي عاش فقيراً :

((كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة))

[البخاري]

سيد الخلق ، وحبيب الحق ، فإذا كان للإنسان عمل بسيط متواضع ، مغمور في الدرجة الدنيا في المجتمع ، فقد كان عليه الصلاة والسلام راعي غنم ، ولا أعتقد في الأرض أي حرفةً أقل منها :

((كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة))

فالأنبياء بعضهم فقراء ، كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته ، ولم يجد ما يأكل قال : إني صائم

.

لم يجد شيئاً يأكله في البيت قال : إني صائم ، لأنه لو كان غنياً ، ونصح الفقراء بالصبر لم يصدقوه ، يقولون له : ما ذقت الفقر يا رسول الله ، لا ، ذاق الفقر ، وذاق الغنى ، حينما ذاق الغنى قيل له : لِمن هذا الوادي ؟ قال : هو لك ، قال : أتهزأ بي ؟ قال : هو لك ، قال : أشهد أنك رسول الله ، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وادٍ من غنم .

أذاقه الله القهر في الطائف ، يا محمد لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين ؟ قال : لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون .

أذاقه النصر ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ عشرة آلاف سيف متوهجة تنتظر حركة من شفتيه، اقتلوهم يقتلون جميعاً ، قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ذاق طعم الفقر فصبر ، وذاق طعم الغنى فشكر ، وذاق النصر فتواضع، وذاق القهر فقال : يا رب إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى .

ذاق أن يقال عن زوجته شيءٌ لا يحتمل ، حديث الإفك ، اتهمت زوجته بالزنا ، وشاع الخبر في المدينة ، وتأخر الوحي شهراً ماذا يفعل ؟

وذاق الهجرة ، أنت في بلد لك بيت ، ولك عمل ، ولك مركز ، ومعارف ، ودخل ، تذهب إلى بلد آخر لا تملك فيه شيئاً ، اقتلعت من جذورك ، ذاق طعم الهجرة .

ذاق موت الولد ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[متفق عليه]

ما من مصيبة إلا وذاقها النبي عليه الصلاة والسلام ، قال :

((أوذيت في الله وما أوذي أحد مثلي ، وخفت ، وما خاف أحد مثلي ، ومضى علي ثلاثون لم يدخل جوفي إلا ما يواريه إبط بلال))

[الترمذي عن أنس]

نبي كريم ؛ سيدنا نوح كان ابنه ضالاً ، ونبي كريم سيدنا إبراهيم كان أبوه مشركاً ، قال تعالى :

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا)

(سورة مريم : الآية 43)

نبي كريم كانت زوجته كافرة ، قال تعالى :

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا)

(سورة التحريم : الآية 10)

امرأة صديقة ، زوجها طاغية كافرًا ، إنها آسية امرأة فرعون ، قال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة التحريم : الآية 11)

نبي كريم كان عقيماً ، قال تعالى :

(نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(3)قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا(4)وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا(5)يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

(سورة مريم :3-6)

ما من مشكلة كبيرة إلا وهناك نبي قد حلت به ، وهو عند الله في أعلى مقام ، فوطن نفسك ، هذه دار ابتلاء ، لا دار استواء ، دار امتحان ، دار عمل ، قد ترقى بمصيبة رقياً ما بعده رقي ، قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

الذي عاش في الدنيا فقيراً يدخل الجنة قبل الغني بخمسمئة عام ، المجموع ثابت .

أيها الإخوة ، الآية الكريمة :

(وَلَا تَهِنُوا)

(سورة آل عمران : الآية 139)

وَلَا تَهِنُوا

1 ـ لا ينبغي للمؤمن أن يحزن ويضعف :

إذا كنت مؤمناً فيجب أن تؤمن أنك في أعلى مقام ، يجب أن تؤمن أنك الفائز ، أنك المفلح ، ولو أن الدنيا لا تعجبك ، هذه الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق ، يحكم فيه ملك عادل ، أعطى الدنيا لمن يحب ، وأعطاها لمن لا يحب ، أعطاها لسيدنا سليمان ، وأعطاها لقارون، قال تعالى :

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص : الآية 76)

أعطى الملك لمن يحب أعطاه لسيدنا سليمان ، قال تعالى :

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)

(سورة ص : الآية 35)

وأعطاه لمن لا يحب لفرعون .

إذا كان الشيء يعطيه لمن يحب ، ولمن لا يحب ، ليس له قيمة ، وليس مقياساً ، لكن ماذا قال الله عز وجل ؟

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 113)

الفضل العظيم أن تعرف الحقيقة ، أن تعرف الله ، أن تعرف سر وجودك ، وغاية وجودك ، الفضل العظيم أن تكون مستقيماً على أمر الله ، الفضل العظيم أن تعمل لآخرتك ، الفضل العظيم أن تكون قريباً من الله عز وجل .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 139)

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف : الآية 128)

2 ـ المؤمنون هم الأعلون ، ولهم العاقبة :

الأيام تدور ، ولا تستقر إلا على نصرة المؤمنين ، قال تعالى :

بنو إسرائيل كانت لهم العاقبة بعد الامتحان :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص : الآية 4)

ثم قال تعالى بعدها :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص : 5-6)

إن كنت مستضعفاً ، وقد أراد الله بك الخير ، أراد أن يطهرك ، أراد أن يعلي مقامك ، أراد أن يؤهلك للجنة ، فأنت بخير ، وإن كنت مستضعفاً ،

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

يجب أن تجعل كل همك أن تكون مؤمناً كما ينبغي كي تكون العاقبة لك ، قال تعالى :

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : الآية 173)

3 ـ كن أهلاً للنصر :

يجب أن تكون جنديتك لله ، قال تعالى :

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

(سورة غافر : الآية 51)

ينبغي أن ينصب جهدك على أن تكون أهلاً لعطاء الله ، من أدب النبي عليه الصلاة والسلام مع ربه ما ثبت في حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللَّهِ حَاجَةٌ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضَّأْ ، فَلْيُحْسِنْ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ لِيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ لِيُثْنِ عَلَى اللَّهِ ، وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ))

[الترمذي ، ابن ماجه]

الموجبات يعني أسباب الرحمة ، وعزائم مغفرتك أن تملك موجبات الرحمة ، وأن تملك عزائم المغفرة.

كن على الدين الذي رضيه الله لعباده :

هناك ملمح لطيف حينما قال الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور : الآية 55)

أي دين يمكنه الله ؟ إذا كان قد ارتضاه لهم ، وأي إيمان يجعلك في أعلى مستوى ؟ الإيمان الذي يحملك على طاعة الله ، فإن لم تمكن في الأرض معنى ذلك أن دينك الذي تعتنقه لم يرض الله عز وجل، أو لم يرتضِه الله لك ، وأي إيمان الذي يجعلك في أعلى عليين ؟ ذلك الإيمان الذي يحملك على طاعة الله .

أيها الإخوة ، الآية التي تليها :

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

1 ـ تسلية الله للصحابة لمصابهم في أحد :

القرح هو الجرح ، أو مطلق الألم ، يا أصحاب رسول الله ، إن يمسسكم قرح في أحد فقد مسح القوم قرح مثله في بدر ، ومع ذلك لم ييأسوا ، وأعادوا عليكم الكرة ، أصابهم قرح لا يحتمل ، قتل عدد كبير منهم ، قتل زعماؤهم ، صناديدهم ، أبطالهم ، ومع ذلك أعادوا عليكم الكرة ، ولم ييأسوا ، إن يمسسكم قرح الآن في أحد فقد مس القوم - قريشًا - في بدر قرح مثله ، فهم لم ييأسوا ، بل أعادوا عليكم الكرة ، فما بالكم أنتم قد وهنتم ، يوجد آية دقيقة جداً :

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

(سورة النساء : الآية 104)

شتان بين ألم المؤمن وألم الكافر :

الألم واحد ، ولكن شتان بينكم وبينهم ، شتان بين من يتألم ، وقد وعده الله بالجنة ، وبين من يتألم ، وقد أوعده الله بالنار ، التجارة فيها متاعب كثيرة جداً ، لكن المؤمن يرجو من هذا العمل التقرب إلى الله ، حبذا المال أصون به عرضي ، وأتقرب به إلى ربي ، يرجو من هذا المال أن يعينه على طاعة الله ، بينما الكافر يرجو من التجارة مالاً ينغمس فيه بالشهوات إلى قمة رأسه ، شتان بين الهدفين ، وشتان بين الباعثين مع أن المتاعب واحدة .

يتزوج الشاب ، متاعب لا تعد ولا تحصى ، بدأ من تأمين البيت ، وفرشه ، وتأمين المهر ، والحلي ، ومعالجة الموضوعات المتفجرة ، أحياناً في أثناء الخطبة هذا شيء متعب ، ومؤلم ، ولكن

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

(سورة النساء : الآية 104)

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

2 ـ معنى آخر للقرح الذي مس الصحابة في أحد :

هناك تفسير آخر : إن يمسسكم قرح في نهاية المعركة فقد مس القوم قرح في بدايتها ، معركة أحد في آخر مرحلة كانت الهزيمة ، أما في أولها فكان هناك نصر ، لكن لبعض العلماء الأجلاء تعليق لطيف قال : وتلك الأيام نداولها بين الناس ، تنتصرون مرةً ، ولا تنتصرون مرة ، بل تهزمون ، لماذا ؟ تصور أن المؤمنين لو شاءت حكمة الله أن ينتصروا دائماً ، أبداً ، في أية معركة ينتصروا

ما الذي يحصل ؟ كل الناس ينضمون إليهم حتى المنافقون ، حتى الكفار ، حتى المشركون ، وإذا وجدت دولة قوية جداً فكل الدول تكون معها ، وكلهم يعلمون أنها على باطل ، و أنها ظالمة ، و أنها منحازة ، و أنها تكيل بمكيالين ، وأنها لا ترحم ، وأنها لا تفي بوعدها ، لكن لأنها قوية جداً ، ودائماً تنتصر في المعارك ، و معها سلاح قوي جداً ، فكل العالم معها ، معها على باطل ، لو أن الله عز وجل جعل المؤمنين ينتصرون دائماً لانضم إليهم كل الخلق ، وقد يكونون كفاراً ، و مشركين ، ومنافقين ، ولو أن الله عز وجل شاءت حكمته ألا ينتصر المؤمنون دائماً لانفض الناس عنهم ، لكن الله عز وجل يمتحن ، المؤمنون ينتصرون تارة ، ولا ينتصرون تارة أخرى ، هذه حكمة كبيرة ، هناك مؤمن غني ، ومؤمن فقير ، هناك مؤمن صحيح ، ومؤمن مريض ، هناك مؤمن يعيش حياة زوجية سعيدة جداً ، وهناك مؤمن وله عند الله مقام كبير يعيش حياة زوجية غير سعيدة ، شاءت حكمة الله أن يكون هكذا ، لو أن الله عز وجل جعل الجزاء معجلاً في الدنيا لكانت هناك مشكلة كبيرة ، أو لو أن الجزاء جاء عقب العمل الصالح ، والعقاب جاء عقب العمل السيئ لألغِي الاختيار ، فلو أنّ كل من دفع مئة ليرة يأخذ مساء ألف ليرة ، تجد صفاً كبير أكثره منافقون ، وأكثره كفاراً ، يقول لك أدفع مئة و أخذ ألفاً ، قد تدفع مئات ، و قد تدفع ألوفاً و لا يأتيك شيء ، وقد يعصي الإنسان الله عز وجل ، يقول لك : لا يوجد شيء ، عملت فحصاً ، كله كامل ، ممكن ، ممكن أن تعصيه إلى أمد طويل دون أن ترى شيئاً مزعجاً ، وممكن أن تطيعه إلى أمد طويل دون أن ترى شيئاً مريحاً ، هذا هو الاختيار :

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ

1 ـ امتحان النصر :

فهذه الدنيا ليست دار جزاء ، قد تغتني فيها ، وقد تفتقر ، وأنت مؤمن ، وقد تصح ، وقد تمرض ، وأنت مؤمن ، بالمناسبة لحكمة أرادها الله عز وجل فهناك ابتلاءان كبيران يبتلى بهما المؤمنون ، أول ابتلاء أنهم ينتصرون ، وتغدو كلمتهم هي العليا ، وأن الأمر بيدهم ، وأنهم قادة ، وأنهم سادة ، هذا ابتلاء ، فحينما يبتلى المؤمن بالنصر ، والتمكين ، والسيطرة ، والعلو ، فهناك مؤمنون تزل قدمهم ، وينصرفون إلى اللهو ، وهذا ما حدث لهؤلاء الذين فتحوا الأندلس ، فتحوا هذه شبه الجزيرة ـ إسبانية ـ فتحوها ، و أنشؤوا حضارة عريقة ، مكن الله لهم في الأرض ، ملكوا ، وحكموا ، واغتنوا ، و كان هناك رخاء يفوق حد الخيال ، ثم مالوا إلى الموشحات ، وإلى الغناء ، وإلى

القيان ، وإلى الجواري ، فسلب الله ملكهم دَولة دولة ، وكان آخر ملك من ملوك إسبانيا اسمه عبد الله الصغير ، قالت له أمه :

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

لما مالوا إلى اللهو سلب الملك منهم ، قال بعض الشعراء :

لكل شيء إذا ما تم نقصـان فلا يُغر بطيب العيش إنسـان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمــان

و هذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شــان

أول امتحان أن الله يمكن المؤمنين ، قد تزل قدمهم ، قد ينصرفون إلى اللهو .

افتح بعض كتب الأدب التي أُلفت في العصر العباسي تجد أن القيان ، والغلمان ، والدنان ، والخمور يصفها الشعراء في بغداد بعد هذا العصر ، وبعد هذا الانحراف جاء عصر التخلف ، وعصر الدول المتتابعة ، وجاء الغزاة من الشرق ، جنكيز خان ، وهولاكو ، وقد سئل مرة تيمور لنك : من أنت ؟ فقال أنا غضب الرب :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

يمكن لبعض المؤمنين أن تزل قدمه ، و يتجه إلى اللهو ، و إلى المعاصي ، و الآثام فينتزع الملك منه.

2 ـ امتحان الهزيمة والذل :

الامتحان الثاني القاسي : أن يجعل القوة في الكفار ، هم أصحاب القرار ، هم الممكنون في الأرض ، كلمتهم هي العليا ، أمرهم هو النافذ ، فيما يبدو يفعلون ما يقولون ، لذلك يقوي الله الكافر ، ويطغى هذا الكافر ، ويطغي ، ويستعلي ، ويتغطرس ، إلى أن يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ وهذا يحدث في فلسطين الآن ، وحش ، ثور هائج ، مصاب بجنون البقر ، ثور معه سلاح فتاك ، والطرف الآخر أعزل ، يقتل ، ويغتال ، ولا يعبأ بكل ما يقال عنه في العالم الغربي ، هذا ابتلاء .

إن الله عز وجل يُظهر آياته حتى يقول الملحد : لا إله إلا الله ، ويقوي الكافر حتى يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ ثم يُظهر آياته حتى يقول الملحد : لا إله إلا الله ، فرعون تبع موسى وقومه ، شرذمة قليلون ، خائفون ، هاربون ، فزعون ، وراءهم فرعون بأسلحته الفتاكة ، وجنوده ، وجبروته ، و طغيانه ، والبحر أمامهم ، وبحسب منطق الأحداث لا أمل ، ولا واحدا بالمليار إلا ويقتلهم كلهم :

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء : 61-62)

فلما وصل إلى شاطئ البحر أوحى الله إلى سيدنا موسى أن اضرب البحر ، أصبح طريقاً يبساً فمشى فيه ، فلما خرج من الضفة الثانية ، وتبعه فرعون عاد البحر بحراً ، فأغرقه الله عز وجل ، هذه القصص في القرآن ليست للتسلية .

إخواننا الكرام ، أرجو أن يكون هذا الكلام واضحاً ، إذا تدخل الله ولو كان مع عدوك مليون قنبلة ذرية، لو معه ترسانة أسلحة تدمر العالم خمس مرات فإن الله ينصرك ، وإذا تخلى الله عز وجل عن جهة استعلى عليها أضعف الخلق .

عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ...))

[متفق عليه]

أما حينما لم تطبق أمته سننه هزموا بالرعب مسيرة عام قال تعالى :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

سبب الهزيمة في أحد المعصية والمخالفة :

ما استحق الصحابة نصر الله عز وجل يوم أحد ، لأنهم عصوا أمر النبي ، وعصوه لا في أمر تشريعي ، بل في أمر تنفيذي ، ما شربوا الخمر ، وما زنوا ، لكن عصوا أمرًا تنظيميًّا ، اقبعوا هنا ، ولا تتركوا أمكنتكم ، هذا أمر نبوي ، فلما عصوا هذا الأمر لم يستحقوا هذا النصر ، معنى ذلك أن نصر الله عز وجل لا يستحقه أنصاف المؤمنين ، ولا أرباع المؤمنين ، ولا أخماس المؤمنين ، ولا أعشار المؤمنين ، ولا أصفار المؤمنين ، نصر خالق الكون تأخذه بلا ثمن ، فلو كنا كما يرضى الله عنا، على منهجه سائرون ، والله لا شارون ـ إن صح التعبير ـ ولا اليهود ، ولا أمريكا تستطيع أن تفعل معنا شيئاً ، قال تعالى :

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 160)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : الآية 47)

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : الآية 173)

البطولة أن تملك موجبات رحمة الله ، أن تملك أسباب النصر ، وهي إيمان قوي ، واستقامة على أمر الله .

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

1 ـ معنى : وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ

ليعلم الله ، الله يعلم ، أما هذا العلم كما قال عنه علماء العقيدة هو العلم الحصولي ، هو يعلم علم كشف، أما حينما ينقلب علمه إلى عمل نقول : هذا علم آخر ، هذا علم حصولي .

معلّم بارع عنده خبرة عالية جداً ، نظر في أحد طلابه فقال : هذا لا ينجح ، والفحص لم يأتِ بعد ، وهو طالب ، واسمه طالب في الصف الثاني عشر ، والامتحان لم يأتِ بعد ، أما حينما يأتي الامتحان ، ويقدم الامتحان ، ويرسب نقول : إن علم المدرس الكشفي قد أصبح علماً أصولياً ، وقع الذي توقعه المدرس تحقق ، فالله عز وجل يعلم ، وعلم الله عز وجل لا يكفي للثواب والعقاب ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيا عن بينة ، لابد من عمل تستحق الثواب والعقاب ، فعلم الله بالإنسان علم كشف ، هذا العلم علم الكشف لا يقتضي ثواباً ولا عقاباً ، لو أننا قلنا لطالب : أنت راسب في منتصف العام الدراسي يقيم الدنيا ، ولا يقعدها أنا أقوى من أي طالب ، لكن بعد الامتحان حينما تأتي إجاباته كلها مغلوطة ، وينال علامة الصفر تقول له : أنت راسب يسكت .

فعلم الله الكشفي لا يقتضي الثواب ، ولا العقاب ، أما علم الله الحصولي فهو الذي يقتضي الثواب والعقاب ، لذلك قال تعالى :

2 ـ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

ويقول الله عز وجل :

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد : الآية 4)

يمكن أن يقول الله عز وجل كلمة فيموت كل أعداء المسلمين ، زل فيزولوا ، صيحة واحدة ، لكن المؤمنين لم يرتقوا عند الله ، أما حينما يجابه المؤمنون هؤلاء ، ويدخلون معهم في حرب صعبة جداً ، ويجرح بعضهم ، ويتحمل بعضهم ، ويواجهون كل المتاعب ، ثم ينتصرون ، فقد ارتقى المؤمنون ، قال تعالى:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد : الآية 4)

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 140)

معنى دقيق ، يمكن لله عز وجل أن يتولى بذاته نصرنا على أعدائنا ، وهناك قصص كثيرة جداً بتدخل إلهي مباشر هذه القوة العاتية حطمت ، زل فزالت ، مرض عضال ، حينما جاء نابليون إلى عكا فتك بجنوده مرض فتاك ، إنه الطاعون ، وانتهى الأمر :

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

(سورة المدثر : الآية 31)

مرض أحياناً ، أو حرب ، أو عاصفة هوجاء ، فتنهي المعركة ، في معركة الخندق هبت رياح عاتية قلبت قدورهم ، واقتلعت خيامهم ، وأطفأت نيرانهم ، وكفى الله المؤمنين القتال ، يمكن لله عز وجل أن يتدخل مباشرةً ، وينهي كل شيء ، لكن بهذا التدخل لم يبقَ لهؤلاء المؤمنين من أجر ، أما حينما يحقق المؤمنين الأجر بجهدهم ، وبصبرهم ، وجلدهم ، ويقينهم ، عندئذ يرتقون عند الله عز وجل ، قال تعالى:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(140)وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران)

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ

1 ـ معنى التمحيص :

التمحيص التطهير ، الإنسان حينما يؤمن ، ويسعد بلقاء الله عز وجل يتوهم أنه طاهر النفس ، قد يكون فيه آلاف الشهوات ، وآلاف الأمراض النفسية ، لكن لحكمةٍ بالغة يكشف الله عز وجل له مَرضاً مرضاً، وكل مرض له علاج ، نحن في العناية المشددة ، نحن في طور العناية المشددة ، كان العيب خافياً عن صاحبه ، ثم يظهر ، ثم يعالج ، ثم يطهر المؤمن منه .

(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 141)

حدثني أخ عنده معمل بسيط ألبسة ، دخل عليه أخ من إخوان المسجد ، قال له : أريد عدة قطع لأولادي ، المعمل يبيع بالجملة ، فشعر أن هذا الطلب إهانة ، قال : أنا لا أبيع بالمفرق ؟! فالأخ اعتذر، وخرج من المعمل ، فقال لي : لم يدخل المعمل زبون ثلاثة وثلاثين يوماً .

هذا كبر ، لا تبيع بالمفرق ، أخ كريم مؤمن دخل إلى معملك لا تبيعه بالمفرق ، فأدبه الله عز وجل ثلاثة وثلاثين يوماً ، الآن يبيع بالقطعة .

يمحص المقصرين أحياناً ، وأحيانا يستعلي الإنسان ، يتكلم كلمة قاسية ، يبتسم ابتسامة ساخرة ، يفتخر، فيعالجه الله عز وجل ، دائماً يعالج الله عز وجل هذا المؤمن .

(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

2 ـ إذا كنت في العناية المشددة فاحمد الله :

إذا كنت في العناية المشددة فاشكر الله عز وجل ، اشكر الله إذا كان الله يتابعك ، إذا حاسبك على كلمة، أو على ابتسامة ، أو على تقصير ، أو على نية لا ترضيه ، ورأيت الحساب جاء سريعاً ، فأنت في العناية المشددة ، وينبغي أن ترتعد مفاصلك إذا أهملك الله عز وجل ، وإذا فعلت السيئات ، وأهملك الله عز وجل فأكبر مصيبة أن تكون خارج العناية المشددة ، أكبر مصيبة أن تفعل السيئات ، وتأتيك الخيرات ، إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك ، وأنت تعصيه فاحذره ، فإن هذا ليس إكراماً ، إنما هو استدراج ، إكرام استدراجي ، ينتهي بالقصم ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام : الآية 44)

فالتمحيص كلما أخطأ عاقبه الله ، وكلما تكلم كلمةً سيئة عاقبه الله ، وكلما ابتسم ابتسامة ساخرةً عاقبه الله ، وكلما اغتاب أحداً واجه مشكلةً لم تكن بالحسبان ، إذا كنت كذلك فاعلم أن الله يحبك ، وإذا أحب الله عبده ابتلاه ، إذا أحب الله عبده عجل له بالعقوبة ، إذا أحب الله عبده محصه يعني طهره ، أدبه ، ما هذا الأدب يا رسول الله ؟ قال : أدبني ربي فأحسن تأديبي .

المؤمن أديب جداً وهذا الأدب ناتج من تأديب الله له .

(وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(141)أَمْ حَسِبْتُمْ)

(سورة آل عمران)

أَمْ حَسِبْتُمْ

1 ـ لابد للجنة من ثمن كبير :

سذاجة ما بعدها سذاجة جنة عرضها السماوات والأرض ، جنة إلى أبد الآبدين فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، هذه الجنة تأتي بركعتين شكليتين ، وليرتين تنفقهما من دون اهتمام ، تدخل بهما الجنة لا والله ؟!

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 142)

2 ـ إيثار الآخرة على الدنيا ثمن الجنة :

إله عظيم ، جنته لها ثمن كبير ، ثمن كبير ، حتى تنفقوا مما تحبون ، حتى تخضع لله خضوعاً تاماً ، وحتى تؤثره على كل شيء ، قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 24)

إذا كان بيتك أغلى عليك من الله ، وقد اغتصبته اغتصاباً ، وهو أغلى عليك من الله ، إذا كانت الزوجة أغلى عليك من الله تطيعها ، وتعصي الله ، إذا كان المبلغ الكبير يأتي من غش المسلمين تؤثره على طاعة الله ، فإن الطريق إلى الله غير سالك ، بل هو مسدود :

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

(سورة التوبة : الآية 24)

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

لابد من الجهاد ، ومن بذل الجهد ، أن تجاهد نفسك ، وهواك ، وأن تجاهد جهاداً دعوياً ، وأن تجاهد جهاداً قتالياً ، حينما يجتاح العدو أرضك .

أيها الإخوة الكرام .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

3 ـ طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب :

طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب ، كنت أضرب مثلاً مضحكاً ، محل كبير ضخم جداً في الشام لبيع السجاد ، وبائعو السجاد يضعون بعضه فوق بعضٍ ، فزرت هذا المحل ، فأراك الأولى ، تقول له : أريد الأغلى ، أعطاك الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، الخامسة ، أراك كل شيء في المحل ، تقول له : أريد الأغلى ، أخذك إلى مكان آخر فيه قطع نفيسة جداً ، سعر الواحدة ثمانمئة ألف ، أراك واحدة أعجبتك فقلت له : أتأخذ ثمنها خمس ليرات ، هل تخرج من المحل سالماً ؟

إنسان لا يقرأ ولا يكتب توفي والده ، فذهب إلى المقبرة ليزوره ، فوجد شاباً يقرأ القرآن ، فأعطاه عشرة قروش فقط ، قال له : اقرأ على روح والدي ، فهذا اغتاظ جداً من هذا المبلغ الذي لا يساوي شيئاً ، فقرأ :

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)

(سورة الطور : الآية 30)

هذا الابن بدأ يغلي ، ما وجد غير هذه الآية :

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)

(سورة الطور : الآية 31 - 32)

قبضه فقال له : ما وجدت غير هذه الآيات ؟ فقال له : تريد الجنة بعشرة قروش ؟

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

4 ـ الجنة تحتاج إلى جهاد وصبر :

مرتاح ، تقصير في الصلاة ، غيبة ، نميمة ، تملأ عينيك من الحرام ، تأكل ما تشاء ، تفوتك صلوات وصلوات ، ونحن مسلمون ، والحمد لله ، ومن أمة محمد .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

أيها الإخوة ، الجنة تحتاج إلى جهد كبير ، وإلى سهر طويل ، وإلى إنفاق ، وإلى معاكسة الشهوات ، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : 40-41)

تحتاج إلى غض بصر ، إلى ضبط لسان ، إلى إنفاق مال ، إلى حضور مجالس علم ، أما هذا الذي يعطي نفسه ما تشتهي ، ويتمنى على الله الأماني ، فهذا قال سمّاه النبي الكريم العاجز ، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي ، ابن ماجه]

فلابد من الجهاد ، ولا بد من الصبر على قضاء الله ، وقدره ، وعن معصيته ، وعلى طاعته ، دقق على طاعته ، وعن معصيته ، وعلى قضاء الله وقدره ، لابد أن تصبر ، وأن تجاهد ، تبدأ بجهاد النفس، والهوى ، وتمر بالجهاد الدعوي إلى الله عز وجل ، ثم تنتهي بالجهاد القتالي .

(وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 143)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(39-60): تفسير الآيات 139 – 145
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-08-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الثانية والأربعين بعد المائة ، وهي قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ

1 ـ ثمن الجنة باهظ :

أي من السذاجة والحمق أن تتوهم أن هذه الجنة التي فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والتي هي نعيم مقيم إلى أبد الآبدين ، أن هذه الجنة يمكن أن تنالها بلا ثمن ، أو بثمن بخس ، كنت أقول بركعتين وليرتين ، لا .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

2 ـ الله وعدَ المؤمنين بالنصر :

نقيس على هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالنصر ، وعدهم بالتأييد والتوفيق ، لكن وعد المؤمنين الملتزمين المتمسكين المطبقين الذين يؤثرون طاعة الله على كل شيء ، هؤلاء يتنزل عليهم نصر الله ، ولا عبرة بهذا التفوق الذي يتبجح به الأعداء ، لذلك لا ينزل الله عز وجل نصره على أنصاف المؤمنين ، ولا على أرباع المؤمنين ، ولا على أثلاث المؤمنين ، ولا على أخماس المؤمنين ، ولا على أسداس المؤمنين ، ولا على أصفار المؤمنين ، لا ينزل نصره إلا على المؤمنين ز

كل بطولتك أن تستكمل موجبات النصر ، وموجبات رحمة الله ، اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، فلذلك هذه الجنة لا بد لها من ثمن باهظ ، وطلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب ! ثمنها الباهظ أن تؤثر الله على كل شهواتك .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : 40-41)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : 50)

هما طريقان لا ثالث لهما ، إما أن تستجيب لله ، وإما أنك على خط هوى قطعاً ، وليس هناك منزلة ثالثة .

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : 50)

تكاد الحياة الدنيا تجمع الناس على خطين فقط ، إما أن تطلب الآخرة ، وإما أن تطلب الدنيا ، إما أن تلبي الحاجة العليا ، وإما أن تلبي الحاجة السفلى ، إما أن تحكمك القيم ، وإما أن تحكمك المصالح ، إما أن تستجيب للشهوة ، وإما أن تستجيب للعقل ، هكذا فإن لم تكن مع العقل فأنت مع الشهوة ، إن لم تكن مع المبدأ فأنت مع المصلحة ، إن لم تكن تسعى للآخرة فأنت تسعى للدنيا ، فلذلك :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

3 ـ الجهاد و الصبر طريقان للجنة :

أي بذلوا الجهد ، هذا شيء ليس من السهل أن تصل إليه ، هناك جهاد النفس والهوى ،وهذا من أصعب أنواع الجهاد ، بل من أهم أنواع الجهاد ، ثم هناك الجهاد الدعوي ، ثم هناك الجهاد القتالي ، هذا الذي لا يستطيع أن يغض بصره كيف يحارب ؟ لا يستطع أن يضبط لسانه كيف يحارب ؟ لا يستطيع أن يحرر دخله من الحرام كيف يحارب ؟

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ)

جاهدوا بذلوا الجهد ، إما جهاد النفس والهوى ، وإما الجهاد الدعوي ، وإما الجهاد القتالي .

(وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

4 ـ الصبر هو حقيقة الإيمان :

الإيمان كله صبر ، الإنسان مجموعة شهوات ، ومعه منهج ، والمنهج يقنن شهواته ، يوجد مسارات نظيفة ، تقنين الشهوات في مسارات نظيفة هو الجهاد ، والصبر هو حقيقة الإيمان ، لك أن تقول ما تشاء ، ولكن حينما تريد أن تضبط لسانك بكلام يرضي الله عز وجل فأنت مجاهد، لك أن تملأ عينيك من محاسن أية امرأة على الشاشة ، أو في مجلة ، أو في الطريق ، أما حينما لا تسمح

لعينيك أن تستمتعا إلا بمن تحل لك فهذا ضبط ، لك أن تأخذ المال من كل جهة ، أما حينما تتحرى أن تكسب المال من وجه مشروع فهذا جهد ، وضبط ، واتباع الحق .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

سُئل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : " أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال : لن تمكن قبل أن تبتلى".

وطّن نفسك ، مستحيل أن تصل إلى مرتبة عالية عند الله ، مستحيل أن تستحق الجنة من دون بذل جهد، ومن دون امتحان صعب .

أنا لا أخيفكم ، لا والله ، لكن لا أطمّعكم بشيء كالسراب ، الجنة تحتاج إلى جهد كبير ، حتى تضع إلى جانب اسمك حرف دال فقط كم سنة تدرس ؟ ومع كم أستاذ تلتقي ، وكم من كتاب تقرأ ؟ وكم من بحث تعيد صياغته ؟ وكم من سفر تسافر ؟ من أجل أن يضاف حرف الدال إلى اسمك ؟ فكيف إذا أضيف إلى اسمك المؤمن فلان ؟ هذه أعلى مرتبة علمية ، وأخلاقية ، وجمالية ، كلمة مؤمن كلمة علمية ، ومرتبة أخلاقية ، ومرتبة جمالية ، أذواق المؤمن عالية جداً ، تعرف إلى أصل الجمال ، كل الناس مع الجمال وهو مع أصل الجمال ، كل الناس مع النعمة ، وهو مع المنعم ، كل الناس مع الشهوات الآنيّة . إخواننا الكرام ، شيء بدهي أن اللذات تأتي من الخارج ، من المال ، من مركبة فارهة ، من بيت فخم، من دخل كبير ، من منصب خطير ، هذه لذات تأتي من الخارج ، وطابعها حسّي ، وتأثيرها متناقص ، وتعقبها كآبة ، وقد تنتهي بالنار ، بينما السعادة تنبع من الداخل ، ولو كنت في كوخ حقير . نبي كريم فجأة رأى نفسه في بطن الحوت ، كم نسب الفوز بالنجاة في هذه الحال ؟ نسبة النجاة ، وأنت في بطن حوت ، في ظلمة الليل الحالك ، في ظلمة البحر ، إنه سيدنا يونس :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء : 87 - 88)

العبرة أيها الإخوة أن تكون مع الله ، هذه الرحمة العظيمة وجدها إبراهيم في النار ، فلما رحمه الله عز وجل قال تعالى :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء : 69)

ووجدها يونس في بطن الحوت ، وجدها النبي الكريم في غار ثور ، وجدها أصحاب الكهف في الكهف ، وافتقدها أصحاب القصور ، والمليارات ، وأصحاب المكان العلي في المجتمع .

اتخذ الطريق المشروع لتلبية الشهوة :

أيها الإخوة ، هذه الجنة ثمنها بين يديك ، أحياناً ترى قصراً فتقول : هنيئاً لمن يسكنه ، لكنه لا تملك ثمنه ، وليس هناك أمل أن تسكنه ، إلا أن الجنة ثمنها بين يديك ، ثمنها معتدل معقول ، ما منعك أن تتزوج ، لا ، لم يحرمك من النساء ، بل قال لك : تزوج ، وما حرمك من المال ، قال لك : اعمل ، ما حرمك من الطعام والشراب ، قال :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

(سورة الأعراف)

كل ، واشرب ، واعمل ، واكسب المال ، وتزوج ، وأنجب ذرية طيبة ، واستمتع بها ، من دون إسراف ، ولا مخيلة ، شيء بمتناول يدك ، وتملكه ، ولا تحتاج إلى جهة أخرى .

أيها الإخوة ، الذي يضاعف عذاب الكافر في النار أنه كان بإمكانه أن يدخل الجنة ، فإذا رأيت شيئاً فوق طاقتك هل تندم على عدم وصولك إليه ؟ لا ، لو فرضنا أن ملكًا عُيّن في بلد ، تقول : لماذا لم أكن أنا مكانه ؟ مستحيل أن تكون مكانه ، أنت لست من ذاك البلد ، ليس عندك مؤهلات لهذا المنصب الرفيع ، فالشيء الذي لا يمكن أن تصل إليه لا تندم على فواته ، لكن ما الذي يؤلمك أشد الألم ؟ أن يباع بيت بثمن بخس ، وتملك هذا الثمن ، ولأسباب تافهة ترفعت عنه ، ثم تضاعف سعره إلى مائة ضعف ، وأنت في أمسّ الحاجة إليه ، يقول : احترق قلبي ، لما لم أشتر هذا البيت ، معك ثمنه ، وأنت في أمس الحاجة إليه ، ولأسباب تافهة أعرضت عنه ، ثم ندمت أشد الندم ، لماذا حالة الندم في الآخرة عالية جداً وصعبة ؟ لأن هذا الذي استحق النار كان بإمكانه أن يدخل الجنة ، وثمنها بين يديه ، ليس هناك شهوة منعك الله منها ، ليس في الإسلام حرمان أبداً ، في الإسلام تنظيم فقط .

الجهاد الدعوي فرض عين :

ذكرت أن الجهاد جهاد النفس ، والهوى ، وجهاد دعوي ، والجهاد الدعوي فرض عين ـ بدليل قول الله عز وجل :

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

أحد أسباب النجاة التواصي بالحق .

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف)

فإن لم تدع إلى على بصيرة فلست متّبعاً لرسول الله ، وإن لم تتبع رسول الله فلن يحبك الله ، أنت في خندق آخر ، معنى ذلك أن الجهاد الدعوي فرض عين ، ومن مات ، ولم يجاهد ، ولم يحدّث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق ، ببساطة ما بعدها بساطة .

اقتنى أخ كريم مائة شريط ، ووزعها على أقربائه بالتناوب ، قام بدعوة ، هو قد يعجز عن الكلام ، لكن عنده رغبة أن يكون من الدعاة إلى الله عز وجل ، وزّع هذه الأشرطة ، الشيء الذي تفاعل معه ، وذابت نفسه تقديراً له ، وزعه على من حوله ، بعد حين جلبهم إلى المسجد ، ثم بعد حين التزموا ، فكانوا كلهم في صحيفته ! قضية الدعوة فرض عين ، لكن في حدود ما تعلم ، وفي حدود من تعرف فقط ، وعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة ، لو أن كل واحد وطّن نفسه إذا سمع تفسير آية تفسير ، أو حديثًا ، أو حكمًا فقهيًا ، أو موقفًا لصحابي شريفًا حدّث به من حوله طوال أسبوع ، هذا معنى قول النبي :

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ...))

[البخاري]

بلغ ، ما أجمل أن تجعل من هذا الأسبوع من السبت إلى الجمعة ، كل لقاءاتك ، وكل علاقاتك ، وولائمك ، وسهراتك ، وندواتك ، وسفرك ، وجلوسك في مكتبك ، موضوع الحديث عادي ، عن الطعام ، والشراب ، وعن ، الأسعار ، والحر الشديد ، والتلوث ، والجفاف ، والكساد ، والقلق ، والحديث عما يجري في فلسطين ، إذا طعمت هذا الموضوع بدعوة إلى الله ، وببيان حكم شرعي ، ببيان آية كريمة ، ببيان حديث شريف ، ببيان موقف بطولي لأصحاب رسول الله ، هذه الدعوة إلى الله بسيطة جداً ، في حدود ما تعلم ، ومع من تعرف ، فرض عين في حدود ما تعلم فقط ، ومع من تعرف، خاصة نفسك ، من حولك ، أولادك ، إخوانك ، أخواتك ، أولاد إخوتك ، زملاؤك في العمل ، جيرانك أصدقاؤك ، أقرباؤك .

إذا رأيت شحاً مطاعًا ، وهو المتّبع ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فالزم بيتك ، في زمن الفتن ، في الهرج والمرج ، في الطرق المليئة بالكاسيات العاريات ، في كل المقاصف التي توزع فيها الخمور ، في زمن الفسق والفجور ، في زمن يقظة الفتنة ، في زمن الجنس ، في زمن الأفلام ، في زمن النوادي المختلطة ، في زمن السياحة الجنسية ، في هذه الأزمان المفعمة بالمعاصي ، والآثام الجأ إلى كهفك ، وإلى بيتك ، وإلى مسجدك .

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا)

(سورة الكهف : 16)

هذا المجلس إن شاء الله هناك بلاد إسلامية كثيرة لا يعقل أن يعقد فيها مثل هذا المجلس ، فإذا كنت في بلد بإمكانك أن تأتي إلى مجلس علم ، وأن تستمع إلى خطبة مؤثرة ، وأن تلتقي بأخ صادق مؤمن ، هذه نعمة لا تعرف قيمتها إلا إذا فقدتها .

(وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

(سورة آل عمران)

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

1 ـ تمني بعض الصحابة الشهادة :

حينما سمع بعض أصحاب رسول الله في معركة بدر عن بطولات الصحابة ، وعن استشهاد هؤلاء الأبطال ، وعن قربهم من الله عز وجل ، تمنوا أن يكونوا في معركة قادمة من الشهداء ، لكن حينما واجهوا الموت اختلف الأمر .

(وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

(سورة آل عمران)

أحياناً الحديث عن الشيء أمتع من الشيء ، أن تتحدث عن الشهادة أهون من أن تكون شهيداً ، قبل أن يموت الإنسان ، سيدنا أبو رواحة هو القائد الثالث في مؤتة ، فأول قائد قاتل حتى قُتل ، والثاني قاتل حتى قُتل ، جاء دور الثالث كان شاعراً تردد قلبه هكذا تروي الروايات قال :

يا نفس إن لم تُقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليتِ

إن تفعلي فعلهما رضيتِ   وإن توليت فقد شقيـــتِ

فقاتل حتى قُتل ، قال عليه الصلاة والسلام :

((أخذ الراية أخوكم زيد ، فقاتل بها حتى قتل ، وإني لأرى مقامه في الجنة ، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر ، فقاتل بها حتى قتل ، وإني لأرى مقامه في الجنة ، وسكت النبي عليه الصلاة والسلام ، وقلق الصحب الكرام على أخيهم عبد الله ، ثم سألوا النبي الكريم : يا رسول الله ما فعل عبد الله ؟ قال : ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله ، فقاتل بها حتى قتل ، وإني أرى في مقامه ازورارا عن صاحبيه))

[كنز العمال]

تردد ثلاثين ثانية ! تردد في ماذا ؟ في إنفاق مائة ليرة ؟ في تقديم بيته ؟ لا تردد في بذل روحه ، والجود في النفس أقصى غاية الجود ، هكذا كان الصحابة ، لأنهم ترددوا في بذل أرواحهم هبطت مكانتهم ، فكيف المسلمون اليوم ؟

بماذا أنتم مطالبون أيها الإخوة ؟ مطالبون بضبط اللسان ، وضبط الدخل ، وغض البصر ، وحضور مجلس علم فقط ، مطالبون بشيء يفعله كل إنسان بلا حرج ، وبلا مشقة ، وبلا جهد .

لذلك أيها الإخوة ، الإنسان مسؤول مسؤولية كبيرة إذا وصله الحق ، ثم أعرض .

﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

(سورة آل عمران)

2 ـ البطولة أن نفعل هذه الأعمال الصالحة لا أن نتمناها :

ليست البطولة أن نتمنى الأعمال الصالحة ، لكن البطولة أن نفعل هذه الأعمال الصالحة ، مسافة كبيرة جداً بين من يتحدث عن القيم ، وبين من يعيش القيم ، أي إنسان منحرف يحدثك عن الاستقامة يطرب ، الاستقامة بطولة ، التواضع بطولة ، الكرم بطولة ، الشجاعة بطولة ، فالحديث عن القيم ممتع ، لكن أن تعيش هذه القيم مسعد ، وفرق كبير بين أن تستمتع ، وبين أن تسعد ، لاحظ نفسك حينما تعمل عملاً صالحاً خالصاً لله ، حينما ترقى غلى مستوى البطولة تشعر بنشوة ما بعدها نشوة ، رائحة . موقف صمت ، وكان بإمكانك أن تتفوه بأقصى الكلمات ، لكنك ضبطت نفسك ، في موقف آخر بذلت ، وكان بإمكانك أن تبخل ، في موقف سادس عفوت ، وكان بإمكانك أن تنتقل ، في موقف رابع وضعت نفسك في الذل ، وكان بإمكانك أن تتألق خوفاً من الله عز وجل ، هذا الذي تفعله لوجه الله له طعم لا ينسى ، الله عز وجل عوضك عن الدنيا بأن ألقى في قلبك السكينة .

في قلب المؤمن الصادق سعادة وسكينة :

والله أيها الإخوة ، المؤمن الصادق مع الله في قلبه سكينة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم ، نحن نبحث عن السعادة بالمال ، والمال محدود ، وغير ميسور للجميع ، نبحث عنها في البيت ، في المرأة ، في المركبة ، في المنصب ، لو علمنا حق العلم أن السعادة بين أيدينا بالاتصال بالله عز وجل ، أنت إذا اتصلت بالله اتصلت بأهل الجمال بمنبع القوة ، بمنبع السكينة ، بمنبع الحلم ، لذلك لا يمكن أن ترى مسلماً مصلياً حقوداً ، أو حسوداً ، أو بخيلاً ، أو جباناً ، أو لئيماً ، أو محتالاً ، هذا مستحيل ، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى ، فإذا أحب الله مخلوقاً منحه خلقاً حسناً ، لا يمكن أن يقبل اتصالا بالله مع البخل ، واللؤم ، والجبن ، مستحيل ، لذلك الذي يشد الناس إلى الدين ليس أفكاره ، مع أنها أفكار منطقية ورائعة ، لكن الذي يشد الناس إلى الدين أخلاق المؤمنين هذه دعوة قوية جداً ، دعوة صامتة لا تحتاج إلى كلام ، الأمين يدعو إلى الله بصمت ، الصادق يدعو إلى الله بصدقه ، المتقن عمله يدعو إلى الله بإتقان عمله ، الحليم يدعو إلى الله بحلمه .

فرق كبير بين التحدث عن القيم والأخلاق والاتصاف بها :

سهل جداً أن تتغنى بالقيم ، أو أن تتحدث عنها ، أو أن تستمتع بالحديث عنها ، لكن البطولة أن تعيشها.

ملاحظة طريفة : حدثني أخ : دخل عليهم أستاذ فألقى عليهم محاضرة في التواضع ، شيء لا يصدق ، الأدلة من القرآن ، والسنّة ، وأقوال العلماء ، والقصص الرائعة عن التواضع ، ثم دخل غرفة المدرسين، ووضع رجلاً على رجل ، وترفع عن كل من حوله ، وهو لا يشعر ، حدثتنا عن التواضع حديثاً ممتعاً ، لكنك لست متواضعاً ، هذه المشكلة ، الأخلاق ينبغي أن تعيشها ، لا أن تتحدث عنها ، فالحديث عنها سهل جداً ، لذلك كفر الناس بالمواعظ ، إن أردت أن تحتقر متكلماً ، أخي لا تعظنا ، بلا وعظ ، مع أن الوعظ كلمة قرآنية :

(وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)

(سورة النساء : 63)

كلمة موعظة قرآنية ، لكن لأن الناس فرغوها من مضمونها تحدثوا عن الأخلاق فقط .

مرة ركبت مع سائق ، لشدة ما تحدث عن نفسه ، شيء لا يحتمل ، ثم ركب معه إنسان فقير ، معه بضاعة أتى بها من لبنان طعامًا لأولاده ، فهذا السائق دون أن يشعر هذا الراكب وضع بعضاً منها وراء العجلة في الصندوق ، إذاً هو سارق ، فالحديث عن الخلق سهل جداً ، حتى اللص يتحدث عن أخلاقه ، ومروءته ، القضية قاسم مشترك ،

كل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

العبرة لا أن تتحدث عن القيم ، بأي مجتمع الإنسان منطقي ، والإنسان يحب أن يكون رجل مبدأ، لا يوجد إنسان إلا ويتحدث عن فضائله ، وقد يكون عديم الفضائل ، أكبر دليل :

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

(سورة غافر : 29)

هذا حديثه ، مع أنه كان أكبر طاغية **!** فالحديث لا قيمة له ، الإنسان ينبغي ألا يُقيّم من حديثه إطلاقاً .

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

(سورة آل عمران)

1 ـ إشاعة خبر مقال النبي وأثر ذلك في الصحابة :

لأنه أُشيع أن محمداً قد قُتل ، أحد من كان حول النبي قال : لو كان رسولاً لم يُقتل ، لمجرد أنه سمع أنه قد قُتل كفر برسالته ، لو كان رسولاً لم يُقتل ، من قال لك ذلك ؟ النبي بشر ، وتجري عليه كل خصائص البشر ، فالذين كانوا على إيمان رفيع قال : إن يمت محمد فرب محمد حي لا يموت ! المحاكمة السليمة ، بعضهم من شدة ألمه ، وحرصه على حياة النبي قال : ماذا تفعلون بعد موت نبيكم؟ موتوا على ما مات عليه ، فانطلقوا إلى العدو ، بعضهم قال : لو كان رسولاً لم يمت ، فجاء الجواب :

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

(سورة آل عمران)

2 ـ الجواب الإلهي : النبي بشرٌ :

محمد بشر ، تجري عليه كل خصائص البشر ، لأنه انتصر على بشريته فكان سيد البشر .

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ)

لكن هناك معاني تفصيلية ، حينما قال الله عز وجل :

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة : 67)

3 ـ عصمة الله لنبيه من القتل :

وعد إلهي ، إذاً لا يمكن أن يغتال محمد ، لأنه باغتيال محمد تغتال الدعوة ، هو رسول مَن ؟ إنه رسول خالق الأكوان ، أما إذا قتل يمكن أن يقتل بعد انتهاء دعوته ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة، الموت حق ، وقد يكون الموت قتلاً ، أما أن يأتي كافر ، وقبل أن ينتهي النبي من تبليغ دعوته يقتله ، وكأنه تحدى الإله ، لذلك طمأنه الله عز وجل قال :

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة : 67)

يتكلمون عنك ما شاؤوا ، أما أن ينهوا حياتك لا يستطيعون .

حينما كان النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، وتبعه سراقة ، وسراقة طمع بمائة ناقة وضعت لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، وقد أهدر دمه ، فلما تبع النبي عليه الصلاة والسلام شعر أنه ممنوع منه ، غارت قدما فرس سراقة في الرمال ، قال له النبي الكريم :

((يا سراقة كيف بك إذا بلغت سوار كسرى))

[السيرة لنبوية]

حللوا هذا الكلام ؟ إنسان مهدور دمه ، وضعت مائة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، يقول لسراقة : كيف بك إذا لبست سوار كسرى ، أي أنا سأصل وواثق ، وسأؤسس دولة في المدينة ، وسأحارب كسرى ، وسوف يهزم كسرى ، كما لو قلت لمجموعة قبائل في اليمن : سوف تنتصرون على أمريكا ، وسوف تدخلون البيت الأبيض مثلاً ! نفس النسبة :

((يا سراقة ، كيف بك إذا بلغت سوار كسرى)) ؟

معنى ذلك أن الله عز وجل وعد نبيه أن يحميه من القتل .

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة : 67)

لكن قد يقتل بعد انتهاء دعوته ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة فقد يموت على فراشه ، وقد يموت قتلاً ، سيدنا خالد قال : << ما في بدني موضع إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح >> ، في بداية قوله يقول : << خضتُ مائة معركة ، وما في بدني موضع وإلا فيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء >> .

إخواننا الكرام ، المعركة لا تميت ، والمرض لا يميت ، لا يميت إلا انتهاء الأجل .

فكم من صحيح مات من غير علية وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)

4 ـ الدعوة إلى الله ينبغي أن تبنى على التوحيد لا على أشخاص :

هذا يعلمنا أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تبنى على التوحيد ، لا على أشخاص ، فإن بنيت على أشخاص، وكان التركيز عليهم ، والأضواء مسلطة عليهم ، ومات هؤلاء الأشخاص فقد انتهت الدعوة إلى الله ، أما إذا بنيت على التوحيد ، وأن الله حي باق على الدوام ، لذلك أروع كلمة قالها الصديق رضي الله عنه ببساطة ما بعدها بساطة : << من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت >> ، هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، ما خاطبه في حياته إلا يا رسول الله ، بأعلى درجات الأدب ، قال الصديق : << من كان يعبد محمداً ـ بلا لقب ـ فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت >> .

(أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

5 ـ تطبيق عملي للآية في واقعنا :

هؤلاء الموحدون الذين تعلقوا بخالق الأكوان ، وعبدوا الله عز وجل ، ولم يهتزوا بموت النبي عليه الصلاة والسلام ، هؤلاء وصلوا إلى قمة السعادة ، لو أردنا أن نطبق هذا على واقعنا ، أنت يمكن أن تكون مستقيمًا في بلدك ، أما إذا سافرت فينبغي أن تكون مستقيماً ، في تعريف لطيف ، إسلام جغرافي، ما دمت في هذا البلد فأنت مستقيم ، كم من امرأة كانت محجبة في الطائرة ، وحينما تسافر ، وتغادر البلد الذي ألزمت فيه بالحجاب تخلع معظم ثيابها في الطريق ، هذا يعني أن دينها جغرافي ، دين متعلق بمكانه ، بالمجتمع فقط ، أما المؤمن فتطبيقاً لهذه الآية أينما ذهب وحلّ فهو مستقيم ، لا يتأثر بالبيئة ، هو مع الله ، لا يوجد دعوة عميقة جداً يدعو بها الدعاة أعمق من التوحيد ، أن تربط الإنسان مع خالق الأكوان .

قال رجل لعبد الله بن عمر : << بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال : قل لصاحبها ماتت ، قال : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟! >> .

هذا الدين كله ، الدين كله أن تقول : أين الله ؟ أن تخشى أن تأكل درهماً حراماً ، أن تتكلم كلمة نادبية ، أن تنظر نظرة شهوانية ، هذا الدين ، حينما تصل إلى هذه الاستقامة فقد قطعت أربعة أخماس الطريق إلى الله .

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا)

والله يا إخوان في سورة الأحزاب آيات إذا قرأها الإنسان يشعر بقشعريرة .

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : 23)

6 ـ المؤمن الصادق ثابت في السراء الضراء :

في السراء مستقيم ، في الضراء مستقيم ، في الفقر مستقيم ، في الغني مستقيم ، في الصحة مستقيم ، في المرض مستقيم ، قبل الزواج مستقيم ، بعد الزواج مستقيم ، في منصب متواضع مستقيم ، في منصب رفيع مستقيم ، عاهدنا رسول الله في السراء والضراء ، وفي المنشط ، والمكر ، هذا المؤمن لا يتأثر لا بدخل ، ولا ببيئة ، ولا بزواج ، إيمانه فوق كل هذه المتبدلات والمتغيرات .

(وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا)

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا

1 ـ الضال لا يضر إلا نفسه :

مثل مضحك : لو جاء رجل بمطرقة ، وكسر البلّور مركبته الذي ثمنه ستون ألفًا ، من ضرّ ؟ لم يضر أحدًا ، لقد ضر نفسه ، أحياناً يظن الإنسان نفسه انتقم ، أو أخذ موقفًا إذا كان انتكس ، لا ، لا ، إذا انتكس الإنسان فإنما ينتكس على نفسه ، إذا نقض عهده مع الله فإن الله غني عنا ، يكون قد نقض عهده مع سلامته وسعادته .

(وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا)

لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم ، وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص في ملكه شيئاً .

(وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

هؤلاء الذين شكروا ، واستقاموا سوف يجزيهم الله عز وجل .

أيها الإخوة ، ثم تأتي الحقيقة الصارخة ، وكأنها القانون :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

1 ـ أخطر حدث بعد وجودك أيها الإنسان هو موتك :

أخطر حدث بعد وجودك هو موتك ، موت صدفة بسبب طائش تافه ، الموت كتاب مؤجل ، كتب علينا الموت جميعاً ، لكن مع وقف التنفيذ ، وسينفذ الموت في الثانية ، والدقيقة ، والساعة ، و، اليوم ، والأسبوع ، والشهر ، والسنة المحدد له ، في وقت محدد بالتمام .

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا)

2 ـ الموت لا يكون إلا بأجل مسمى :

المرض لا يميت ، ساحة المعركة لا تميت ، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ، ولا تقرب أجلاً ، أن تجهر بالحق فهذا لا ينهي حياتك .

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا)

الموت حق ، وميقاته حق ، ودقيقته حق .

(وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران)

وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ

1 ـ اطلب من الدنيا ما تشتهي فإنها منقطعة :

اطلب ما شئت ، إن أردت الدنيا فلك منها ، وإن أردت الآخرة فلك الآخرة ، افعل ما بدا لك ، اختر ما تشاء .

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)

أيها الإخوة ، عطاء الدنيا بيد الله ، وعطاء الآخرة بيد الله ، الصحابي الجليل سيدنا ربيعة خدم النبي سبعة أيام ، فعَنْ خَادِمٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَقُولُ لِلْخَادِمِ :

((أَلَكَ حَاجَةٌ ؟ قَالَ : حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَاجَتِي ، قَالَ : وَمَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ حَاجَتِي أَنْ تَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ : وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ : رَبِّي ، قَالَ : إِمَّا لَا فَأَعِنِّي بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

(مسند الإمام أحمد)

فإن أردت الدنيا فلك الدنيا ، لكن الدنيا لا تليق كعطاء لله ، لأنها منقطعة ، مهما علوت .

توفي شخص ، وترك أربعة آلاف مليون ، ما صلى ركعتين في حياته ، فمهما علوت في جمع المال ، أو في منصب رفيع ، أو في مكانة علمية فلا بد أن تموت ، وماذا بعد الموت ؟ ثم ماذا ؟ لابد أن ينتهي كل شيء بالموت ، لذلك من أراد الدنيا فقد احتقر نفسه .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة : 130)

ما عرف قيمته عند الله ، هل من المعقول أن تدخل على ملك ، وتطلب منه قلم رصاص فقط ؟ يُطلب منه بيت ، منصب رفيع ، مركبة غالية جداً ، يطلب منه أن تكون سفيرًا في بلد ، قلم رصاص **!** إنك لا تعرف قيمة هذا الملك من هذا الطلب ، ولا تعرف مكانتك عنده من هذا الطلب ، لذلك من عرف نفسه عرف ربه ، فكل إنسان يريد الدنيا فقد سفه نفسه احتقرها ، أراد شيئاً زائلاً .

2 ـ الدنيا لا تستقيم لأحَدٍ :

الدنيا سبحان الله تغر ، وتضر ، وتمر ، متى يأتي ملك الموت ؟ بعد أن تنضج ، لك بيت فخم ، علاقاتك كلها إيجابية ، ووضعك جيد ، أمرك نافذ ، مسيطر ، تفضل الآن ، بعد النضج ، وبعد الغنى ، وبعد القوة ، فما هذه الدنيا ؟

يكون الإنسان قد شاب ، وليس معه ثمن طعام طيب ، إذا اغتنى ، وأصبح معه ثمن طعام طيب لا يستطيع أن يأكل الطعام الطيب ، لوجود خمسين علة في جسمه ، هذه الحياة .

إن هذه الدنيا دار التواء ، لا دار استواء ، الزوجة جيدة ، الأولاد سيئون ، الأولاد جيدون الزوجة سيئة ، الزوجة والأولاد جيدون ، الدخل قليل ، الدخل قليل ، فيه مرض ، هكذا الدنيا .

إن هذه الدنيا دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، فقد جعلها الله دار بلوى ، وقد جعلها دار عقبى ، فجعل بلاد الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية السادسة والأربعين بعد المائة ، الآية الكريمة :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

1 - (كم)الخبرية و (كم)الاستفهامية :

كأين بمعنى كم الخبرية ، وكم لها استعمالان ؛ كم الخبرية ، وكم الاستفهامية ، تسأله : كم كتابا عندك؟ استفهامية ، قد تقول : كم كتاب عندي ! أي عندي كتب كثيرة ، فإما أن تسأل ، وإما أن تفتخر ، كم كتاب عندي ؟ أي عندي كتب كثيرة ! تسأله : كم كتابا عندك ؟ فإما أن نستخدمها استفهاماً ، أو إخباراً ، لذلك إعرابها كم الخبرية ، أو الاستفهامية ، كأين تساوي كم الخبرية أو الاستفهامية .

2 - مَن هو الربِّيّ ؟

كم من نبي ، أي ما أكثر الأنبياء الذين قاتل معه ربيون كثير .

الربي هو الرباني ، الإنسان الذي عرف الله فأخلص له ، وجعل كل وقته ، وعمله ، وطاقته ، وجهده ، وماله في سبيل الله ، سئل رجل : كم الزكاة ؟ فقال : عندنا أم عندكم ؟ غريب كم دينا يوجد ؟ قال : ما عندنا ؟ وما عندكم ؟ قال : عندكم اثنان ونصف بالمائة ، أما عندنا فالعبد وماله لسيده ، هؤلاء :

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(10)أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

(سورة الواقعة : 10-11)

هؤلاء الذين انطبق عليهم قول الله عز وجل :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة : 111)

باعوا أنفسهم ، وباعوا أموالهم ، نظير الجنة ، فلذلك :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ)

العبرة أيها الإخوة ، ألا نهزم من الداخل .

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

لماذا قال الله عز وجل :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

الانتصار والهزيمة تابعة لمشيئة الله وحكمته :

شاءت حكمة الله أن ينتصر المسلمون تارة ، وأن ينهزموا تارة ، لو أن الله كتب لهم النصر الأبدي لانضم إليهم كل الخلق نفاقاً ومنفعة ! لكن أحياناً ينهزمون ، أيعقل أن يكون سيد الخلق ، وحبيب الحق يرى أحد أصحابه يعذب كعمار بن ياسر ولا يستطيع أن ينقذه ؟ فيقول :

((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))

[ورد في الأثر]

ليس عنده مال يعطيه لأصحابه ، ليس عنده قوة يمنحها لهم ، الدنيا ليست بيده ، كان من الممكن أن يكون النبي قوياً كهؤلاء الطغاة ، إذا كان النبي قوياً فكل من حوله يسلم ، لا حباً ، ولا تعبداً ، ولا خوفاً من الله ، بل خوفًا منه ، هذا الإسلام لا قيمة له ، لذلك شاءت حكمة الله أن يكون النبي ضعيفاً أحياناً ، لا يستطيع أن يدفع العذاب عن أحد أصحابه .

((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))

(ورد في الأثر)

فحكمة الله تقتضي أن ينتصر المسلمون تارة ، وأن ينهزموا .

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

ينتصرون فيتواضعون لله ، ينهزمون فيتوبون إلى الله ، هذه حكمة الله جل جلاله ، يقول الله عز وجل:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا)

3 ـ الضعف النفسي مرض خطيرٌ :

هذا الضعف النفسي مرض ، دليل عدم الثقة بالله ، دليل عدم معرفة المؤمن لربه معرفة تامة ، معرفته لا تكفي لذلك ضعف .

(فَمَا وَهَنُوا)

ما ضعفوا ، يقال : إن أحد شيوخ الأزهر قبل أن يطلب العلم التحق فلم ينجح ، فيئس ، كان جالساً مرة في بيته ، فرأى نملة تصعد على الحائط ، ثم وقعت ، أعادت الكرة ثانية ، هذا الشيخ عدّ محاولات الصعود فكانت ثلاثا وأربعين محاولة ! هذه النملة علّمته درساً لا ينسى ، ألا ييأس ، وأن يعيد الكرة .

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ)

هناك أناس كثيرون أمام أول عقبة يتراجعون ، أمام أي صعوبة ينسحبون ، أمام أي عقبة يعتذرون ، هذا الإنسان ليس أهلاً أن يكون جندياً لله عز وجل ، الله عز وجل يربي المؤمنين ، ويسوق لهم من الشدائد ومن المتاعب .

4 ـ الضغط يؤدِّب المؤمنَ :

أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي ، وتكدري ، وتضيقي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ، هذا الماس ، أنا رأيت قطعة ماسٍ في متحف في استانبول قيل ثمنها : مائة وخمسون مليون دولار ! بحجم البيضة ، أكبر قياس ! موضوعة في خزانة ، وعليها إضاءة ، فكأنها شمس ، ما أصل الماس ؟ فحم ، لو أردت أن تشتري فحماً مثل هذه القطعة قد تساوي نصف ليرة ، تلك الماسة مائة وخمسون مليون دولار ، كيف تحوّل الفحم إلى الماس ؟ من شدة الضغط والحرارة ، إذا ضغط الفحم ضغطاً ضغطا لا حدود له ، وأصابته حرارة عالية جداً يصبح ماسًا ، الآن هناك ماس صناعي ، تقريباً يشبه الماس الطبيعي ، لكن بالاستعمال يخبو وهجه ووضاءته ، فالضغط الشديد ، والحر الشديد يقلبان الفحم إلى ماس ، هذا مثل مادي .

وأنت أيها المؤمن ، هذا الضغط يؤدبك ، ما هذا الأدب يا رسول الله ؟ قال :

((أدبني ربي ، فأحسن تأديبي))

هذا الذي تراه مؤدباً ساق الله له من الشدائد ما لا يعد ، ولا يحصى ، حتى أصبح دقيقاً ، منضبطاً ، أديباً ، متواضعاً ، رحيماً ، وقافاً عند كتاب الله .

فالعبرة لا أن تنجو من الامتحان ، لكن العبرة أن تنجح في الامتحان ، هذا كلام دقيق .

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا)

أحياناً تخور قوى الإنسان ، ويهبط ، ويُحبط ، وييأس يستخذي ، ويخضع ، ويلين ، لا الله معكم ، ولن يتركم أعمالكم .

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا)

5 ـ المؤمن الصادق لا تخور عزائمه عند الشدائد :

مؤمنون صادقون مخلصون ، مؤمنون باعوا أنفسهم في سبيل الله ، مؤمنون اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم ، مؤمنون سخروا كل شيء في خدمة الحق ، قال :

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

والله الذي لا إله إلا هو نحن لن نذق شيئاً إطلاقاً ، كل ما تكلف به أن تأتي إلى الدرس فقط ، وأن تصلي الخمس ، هؤلاء الذين ضحوا بأموالهم في الهجرة ، وتركوها كلها في مكة ، إنسان يسكن في بلد، له بيت ، وله مركز تجاري ، وله مركبة ، وله رصيد في بيته ، يذهب بثيابه إلى بلد بعيدة ، لا عمل ، ولا بيت ، ولا مكتب ، هذه الهجرة ، اقتلاع من الجذور ، هؤلاء أصحاب رسول الله ضحوا بأموالهم ، وأنفسهم ، ووضعوا أرواحهم على أكفهم في سبيل الله ، قطعت يده اليمنى ، فحمل الراية باليسرى ، قطعت اليسرى فحملها بعضديه ، حتى قتل في سبيل الله ، إنه سيدنا جعفر .

أحدهم جُرحت إصبعه ، يحتاج إلى تعقيم ، وإبرة ضد الكزاز ، وقلق لجرح طفيف أصابه ، أعرابي أسلم ، ثم كانت غزوة ، فشارك فيها ، فانتصر المسلمون ، أُعطي الغنيمة ، قال : ما هذه ؟ قال : غنيمة! قال : ما على هذا أسلمت ، أنا أسلمت على الذبح .

نحن والله ما قدمنا شيئاً ، والله نحن تمتعنا بالإسلام ، نحن الإسلام رفعنا وحملنا ، لكن أصحاب رسول الله حملوا الإسلام ، وجاؤوا به إلينا وتجشموا المشاق .

رأت أنصارية أباها مقتولا في المعركة ، ثم رأت ابنها ، ثم رأت أخاها ، ثم رأت زوجها ، وتقول : ما فعل رسول الله ؟ إلى أن رأته ، واطمأنت على سلامته ، فقالت : يا رسول الله كل مصيبة بعدك تهون .

هؤلاء أصحاب رسول الله بذلوا الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ،

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ))

[صحيح البخاري]

ويقول عليه الصلاة والسلام :

((إذا ذكر أصحابي فأمسكوا))

[ورد في الأثر]

نحن ما فعلنا شيئاً ، ذهب النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف فاستهزؤوا به ، وكذبوه ، وأغروا سفهاءَهم ، ونالوه بالأذى ، حتى سال الدم من قدميه الشريفتين قال :

((رب إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى ، وإن عافيتك أوسع لي))

[ورد في الأثر]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[سنن الترمذي]

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

6 ـ لا للاستكانة والركون إلى الدنيا :

أحياناً قبل الزواج يكون الرجل متألقًا ، بعد الزواج خبا نوره ، وانطفأت همته ، وأصبح على الهامش ، فتاة سلبته عقله ، طلبت منه بعض الطلبات ، قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اعلمي أن في الجنة من الحور من العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أضحي بهن من أجلك))

[ورد في الأثر]

على ماذا عاهد أصحاب رسول الله رسول الله ؟ على الطاعة في المنشط والمكر ، في إقبال الدنيا وإدبارها ، في الصحة والمرض ، في الغنى والفقر .

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : 23)

الثبات نبات ، فقد تجد أخًا التزم فانتهى ، هذا وقت الدرس ، التزم فغض البصر ، التزم فضبط اللسان، التزم فحرّر الدخل ، انتهى الأمر ، عاهد خالق الكون ، أما أن يقبل ، ويدبر ، ويتقدم ، ويتراجع ، أخ أزعجه صاحبه فترك الجامع ، فلان أزعجني ، لا أستطيع رؤيته بالجامع ، شيء جيد ، والله ، لأتفه سبب يتراجع ، وينتكس ، ويقصر ، ويلغي الدرس كله ، لو جاءه ضيف ثقيل قبل الدرس أخجل منه .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((سَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ))

[صحيح البخاري]

كان عليه الصلاة والسلام عمله ديمة دائم ، المؤمن الصادق يبرمج حياته وفق منهجه الديني ، أمور حياته تؤدى في الوقت الفارق ، أما أن يجعل منهجه الديني فضلة ، وعلى الهامش فهذا مستحيل .

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

الاستكانة أن تكون مستخذياً أمام قوي ، متذللاً أمامه ، خانعاً أمامه ، خائفاً منه ، وتنسى أن الله معك ، قال تعالى :

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء : 61-62)

إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ؟

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا)

قال :

هل أنت إلا إصبع دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

المؤمن هدفه كبير في سبيل هذا الهدف يضحي بكل شيء .

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا)

ما تذللوا للعدو ، ولا وقفوا موقفاً ضعيفاً أمامه ، ولا رجوه ، ولا استخذوا .

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

7 - وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ

هناك آية أيها الإخوة تملأ المشاعر :

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)

(سورة ص : 44)

ويعاب من يشكو الرحيم إلى من لا يرحم .

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف : 86)

إن الله يحب الصابر المتماسك ، القوي في الله ، الثابت ، لكن لا يحب المتضعضع المتذلل ، لا يحب الإنسان الذي مقاومته هشّة ، أول ضغط يكسر ، أي سريع العطب ، لسبب تافه جداً يترك ، وينتكس ، وينقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، لأنه يعبد الله على حرف.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

أتحب أن يحبك الله عز وجل ؟ كن صابراً .

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور : 48)

لو كان حكم ربك واضحاً ، لو كان حكم الله واضحاً لا يحتاج إلى صبر ، لو قال لك طبيب الأسنان : أنت لا يناسبك المخدر ، لابد من قلع هذا السن بلا مخدر ، هذا واضح ، هو لصالحك ، ولصالح قلبك ، فالمخدر يؤذي القلب ، قلبك ليس قوياً ، ولا يحتمل المخدر ، لابد من قلع هذا السن بلا مخدر .

الأمر واضح جداً ، الأمر الواضح لا يحتاج إلى صبر ، لكن الأمر الغامض يحتاج إلى صبر ، قد يكون الإنسان مستقيماً ، وتأتيه مصيبة ، هنا الصبر ، الحكمة غير واضحة أمامك ، وكلما اتضحت الحكمة ضعف الصبر ، وكلما غابت عنك الحكمة ارتفع الصبر ، أنت بحاجة إلى صبر .

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

أتمنى على بعض الإخوة الكرام أن يقرأ القرآن الكريم قراءة تصنيفية ، ماذا يحب الله عزوجل ؟ يحب الصابر ، والشاكر ، والمتقي ، والصادق ، والتواب ، والمتطهر ، أسباب محبة الله بين يديك ، محبة الله مقننة ، لها قانون ، كن صابراً ، وشاكراً ، ومتطهراً ، وتواباً يحبك الله .

(وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا)

(سورة آل عمران)

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

1 ـ الاستغفار بعد المصيبة دليل الرضا والقناعة والتقصير في حق الله :

عندهم إحساس ، وعندهم قناعة ، أن الله عز وجل لا يسوق مصيبة إلا لحكمة بالغة ، والأولى أن تكون هذه المصيبة سبب تقصير من هذا الإنسان .

(وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

لعلنا قصرنا في حق ، أو تجاوزنا حدنا ، فإذا قصرنا في حق فهذا ذنب كبير ، أو تجاوزنا الحد فذنب آخر .

((ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، وما يعفو الله أكثر))

[ورد في الأثر]

هذا الذي أصابنا بذنوبنا ، الله غني عن تعذيبنا ، غني عن أن يسوق لنا شدة بلا سبب ، وبلا حكمة ، غني عن ذلك ، لذلك .

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ

(146)

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد]

إنسان يقصر ، وإنسان يتجاوز الحد ، وإنسان يسرف على نفسه ، وإنسان لا تثبت قدمه ، فكان الدعاء:

(اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا)

وهناك ذنوب قد تظنها حسنات ، وهي ذنوب ، لذلك كلما صغر الذنب عند الإنسان كبر عند الله ، وكلما كبر عند الإنسان صغر عند الله ، إذا كان سيد الخلق يستغفر ربه فمن أنت حتى لا تستغفر ؟ لماذا شُرع الاستغفار بعد الصلاة ؟ قد تكون في الصلاة ساهيًا ، أو لم تحكم الاتصال بالله عز وجل ، وهذا ذنب أيضاً ، ينبغي أن تستغفر الله منه .

(وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

نحن في دار تعذيب ، وتكليف لا في دار تشريف ، نحن في دار عمل ، لا في دار جزاء ، اليوم عمل ولا جزاء ، وغداً جزاء ولا عمل ، نحن في دار منقطعة ، في دار فيها هم ، وانقطاع ، وسوف نأتي إلى دار إذا أكرمنا الله ، ونرجو ذلك فيها عطاء ، وامتداد عطاء أبدي ، لذلك من الحمق الشديد أن نذهب طيباتنا في الآخرة في الحياة الدنيا .

(إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

قال :

(فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ)

1 ـ الراضي باختيار الله يكسب ثواب الدنيا والآخرة :

اخترت رضاء الله عز وجل فكسبت الدنيا والآخرة ، والذي اختار الدنيا بسخط الله خسر الدنيا والآخرة، ربح المؤمن لا يوصف ، استقيموا ولن تعصوا ، من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ، من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً .

(فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا)

ما هو ثواب الدنيا ؟ سمعة طيبة ، حكمة بالغة ، شعور آمن ، ذرية طيبة ، زوجة صالحة ، مكانة عالية ، هذا ثواب الدنيا ، وإذا مات .

(وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ)

قال بعضهم في قوله تعالى :

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

(سورة البقرة : 201)

2 ـ ثواب الدنيا عامٌ :

هي الزوجة الصالحة ، التي إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، إن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها ، فثواب الدنيا زوجة صالحة ، سمعة طيبة ، شعور بالأمن ، شعور بالسعادة ، شعور بالرضا ، رائحة زكية ، أينما جلست يحبك الناس ، ألقى الله حبك في قلوب الخلق ، وثمة إنسان مبغوض ، أينما جلس يلعنه الناس ، ماذا يمنع أن تكون نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة ؟ يمكن أن تنال ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة .

(فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

هذا الذي حينما يسوق الله له مصيبة لا يضعف ، ولا يستكين ، وهذا الذي يستغفر ، يستغفر من تقصيره ، أو من مجاوزته الحد ، وهذا الذي يدعو بالأقدام ، والنصر على القوم الكافرين ، هذا عند الله محسن .

(فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(148)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

1 ـ اتباع الكفار في نمط حياتهم خسارة فادحة :

والله هذه الآية أيها الإخوة ، مفصلية ، أنت حينما تتبع الكفار في تجارتك ، أحياناً طرائق في التجارة مستقاة من العالم الغربي ، نظام ربوي ، وفوائد ، وعملات ، فكل هذه الحركة خلاف الشرع ، أنت حينما تقلد الغرب تطيعهم ، أحياناً تطيعهم في تربية أولادك تؤمن بالاختلاط، أيعقل أن تسمح لبناتك أن يكن مع شباب بدافع الانفتاح ، والحضارة ، والمرونة ، والثقة في البنت ؟ أنت بهذا تقلد الأجانب ، دقق؛ أعراس مختلطة ، وإذا لم يكن ثمة اختلاط فيجب أن يقف العريس أمام النساء الكاسيات العاريات، نمط غربي ، في أفراحنا ، وأتراحنا ، وفي كل شؤون حياتنا ، نقلد الأجانب .

كان أحد المعامل يحقق أرباحًا عالية جداً بأعماله الصالحة ، بإحسانه ، بصداقاته ، بزكاته ، الآن يدفع كل هذه المبالغ للإعلانات ، هذا نمط غربي ، يدفع ملايين مملينة على الإعلانات فقط ، بدل الإحسان ، والزكاة ، والصدقة ، النجاح بالتجارة ، والصناعة أساسه التوفيق ، والتوفيق أساسه الطاعة لله عز وجل

، مؤمن بالتسويق الغربي بالإعلان فقط ، ومتى يكون الإعلان مثيراً ؟ بالمرأة ، فلابد من امرأة كاسية عارية مع هذه البضاعة ، هذا التسويق الغربي الأجنبي ، وهناك من يؤمن بالتسويق الغربي ، ولا يؤمن بالتسويق الإسلامي ، الإسلامي أتقن بضاعتك .

2 ـ النمط الإسلامي فيه الخير كلّه :

لي أخ رصد مبلغا كبيرا بالملايين للإعلان ، فماذا فعل صاحب هذا المعمل ؟ وظفه في الأعمال الصالحة فقط ، قال : لاقت بضاعتي رواجاً لا يوصف ، عنده معمل أجهزة كهربائية ، رصد مبلغًا للإعلان ، فجعله مقابل صيانة كل جهاز أصابه عطب دون مقابل لسنتين ، المبلغ الذي رصده للإعلان جعله في خدمة هؤلاء المشتريين ، أيّ إنسان عنده جهاز أصابه عطب يصلح ، وتبدل القطع التالفة مجاناً ، قال : فراجت البضاعة ، فهل يجب أن تتقيد بالتسويق الغربي ؟

ومعمل آخر سمعت عنه كان له مدير محسن ، ويعطف على العمال ، ويعطيهم مساعدات استثنائية في الأيام الحرجة ، في أيام الولادة فرضاً ، في أيام الشتاء ، وكان العمال منصرفين إلى إتقان عملهم إتقاناً بارعاً ، والمعمل كله أسرة واحدة ، جاء أخ لهذا المدير ، واستلم مكانه على النمط

الغربي ، لم يعط مساعدات أبداً ، وما رحم أحدًا من العمال ، لكن بذل أموالا فلكية على الإعلان ، هذا التسويق الغربي ، فإذا أردت التوسع في الآية فترى أن نظام حياتنا كله غربي .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

3 ـ اتباع الكفار طاعةٌ لهم :

حتى في بيوت المسلمين أجهزة اللهو هي في واد ، وأنت في واد ، هي في الشهوات ، والعلاقات، والمسلسلات ، وكل عمل فني فيه معاص لا تعد ولا تحصى ، والأصل أن الدين شيء قديم لا قيمة له ، نحن نطيعهم دون أن ندري ، ممنوع أن يكون فندق من خمس نجوم دون خمر ؟! مستحيل ، هذه طاعة لهم ، ثم لم يعد هناك نجوم ، لقد طُمست النجوم من دون خمر ، اعتنِ بالفندق عناية بالغة ، سمه باسم إسلامي ، لا خمس نجوم ، ولا فيه خمر ، ونحن نطيعهم بهذا ، طبعاً إذا أطعناهم في الربا ، وفي الكسب الحرام ، وفي الغش مثلاً فلابد لهذه الدجاجة من أن تبقى من دون نوم أربعين يوماً ، هي متوترة ، والذي يأكلها يتوتر ! هكذا تعلمنا بالمداجن ، يطعمون البقر طحين اللحم ، البقر نباتي ، أطعموه طحين اللحم فجنّ ، وما جنون البقر إلا من جنون البشر .

في الغرب يقولون : كل شيء قابل للدراسة والرفض ، لا شيء مقدس أبداً ، نحن عندنا منهج ، أصول الذبح ، وأصول الطعام .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

في سبيل السياحة نسمح بكل شيء ، إطاعة للغرب ، صناعة السياحة تحتاج إلى بيوت إلى شق مفروشة ، وغض البصر عن الدعارة أحياناً ، من أجل الدخل السياحي .

(إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(149)بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

4 ـ منهجُ اللهِ كاملٌ :

أيها الإخوة ، أعيد وأكرر ؛ منهج الله منهج كامل ، ومن الخطأ الكبير أن نظن أن منهج الله هي هذه العبادات الشعائرية وحدها ، منهج الله في كل شيء ؛ في كسب المال ، وإنفاقه ، والزواج ، والطلاق ، والاحتفال ، والأتراح ، والأفراح ، والسفر ، والإقامة ، إنه منهج الله الكامل ، فحينما نطيع الذين كفروا في مناهج حياتنا ، من أجل تقوية أولادنا باللغة الأجنبية لا بد من السفر إلى بلاد بعيدة ، السفر مسموح، أما أن يسكنوا مع أسرة متفلتة ، واحتمال أن يعود الابن زانياً فلا مشكلة ، لكنه قوي باللغة ، هذه مشكلة كبيرة جداً ، يجب أن ننشئ معاهد للتقوية في بلادنا ، أما أن نضحي بأخلاق أولادنا من أجل تعلم اللغة فهذه مشكلة كبيرة جداً ، فنحن ينبغي أن نأتي بالبدائل الإسلامية

لكل شيء ، أما أن نفهم الدين فقط صومًا وصلاة وحجّا ، وزكاة ، وفي شؤون الدنيا كالنمط الغربي ، هذا تنطبق عليه هذه الآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

حينما خرجت المرأة إلى العمل ، وانغمست فيه ، وفقد الأولاد الأم المربية ماذا حصل ؟ حصل خطأ كبير جداً ، يدفع الآباء الآن ثمنه ، لست ضد العمل إذا كان مشروعًا ، أما إذا كان على حساب دين المرأة ، أو على حساب استقامتها ، أو على حساب عفتها ، أو على حسب إخلاصها لزوجها ، هذا عمل يسيء للأسرة ، فما كل عمل نرضاه للمرأة ، نرضى لها عمل يتناسب مع طبيعتها ، ومع حشمتها ، ومع استقامتها ، وإخلاصها لزوجها .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ)

مُطلَقة ، تطيعه في ماذا ؟ في شؤون حياتنا ، في أنماط حياتنا ، في منهجنا ، في اقتصادنا ، وعلاقاتنا ، وفي منهجنا ، في أفراحنا .

(إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(149)بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

لو أنكم أطعتم ربكم تولاكم ، ونقلكم من حال إلى حال ، ومن نجاح إلى نجاح ، ومن خير إلى خير .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)

الأسئلة :

- أخ سأل سؤالا وجيها :

س : أنا ذكرت في الخطبة اليوم أنه يستحيل على الله عز وجل أن يقول في قرآنه كلاماً لا معنى له ، أو كلاماً لا يعنيه ، أو أن يخوفنا ، أو أن يبالغ في قوله ، فقال لي أحد الإخوة : كيف نوفق بين هذا الكلام وبين قول الله عز وجل :

(ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ)

(سورة الزمر: 16)

ج : التخويف بالمعنى العامي يستحيل على الله ، أن تقول شيئاً لا تعنيه ، أو أن تهدد ولا تفعل ، هذا تخويف البشر ، لكن إذا خوّف الله ذكر الحقيقة ، ذكر ما سيكون هذا تخويف بالمعنى القرآني هذا على العين والرأس ، الله عز وجل يذكر ما سيكون في النار ، هذا تخويف حقيقي ، أما

التخويف بالمعنى العامي أنني أبالغ وأقول مالا أفعل ، يقول : أخفته ، فهذا المعنى لا يصح أن ينسب لله عز وجل ، هذا هو الجواب .

س : زوجتي لا تقيم وزناً لطلباتي الشخصية ، وهي هنا ، أرجو إبداء النصيحة لها .

ج : قدمي له طلباته الشخصية ، ما هذه الطلبات معقولة أم غير معقولة ، نعرف هل هي وفق الشرع أم بخلافه ؟ هذا كلام عام ، لكن إذا صلت خمسها ، وصامت شهرها ، وصانت نفسها ، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها ، فطاعة زوجها ربع دينها . لكن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، إذا طلب منها أشياء معقولة كأن تؤدي واجبها تجاه زوجها وعصته تعد آثمة ، وقد فقدت ربع دينها ، وأيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض ، وليس أي زوج ، بل الزوج المؤمن فبعض الأزواج فاسقين لا يرضوا عن زوجاتهم إلا بالمعصية ، وأيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة .

س : كيف يكون المؤمن في سكينة ، وهو عليه أن يخاف الله دائماً رأو أن يخاف من النار ؟

ج : حينما يلقي الله في قلب المؤمن السكينة هذا لا يتناقض مع خوفه من النار ، في الإيمان جماليات ، لولاها لما سار أحد في طريق الإيمان ، الله عز وجل يقرب ، ويتجلى ، ويطمئن ، فإذا وجد التقصير يخوّف ، فالمؤمن يخاف من النار ، فإذا التقى النار يطمئن ، فإذا قصر يقلق ، فيجتمعان ولا يتناقضان .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية التاسعة والأربعين بعد المائة ، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(149)بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

(سورة آل عمران)

طاعة غير المسلمين واتباع منهجهم خسارة ما بعدها خسارة :

ذكرت في الدرس الماضي في تفسير هذه الآية أن المسلم حينما يؤدي عباداته الشعائرية ، ثم يطبق في حياته اليومية مناهج غير المسلمين ينقلب خاسراً أشد الخسارة ، الإسلام منهج كامل في كل شؤون حياتك ، فما لم تعتمده في أمورك اليومية ، وفي كل المجالات فلن تفلح ، لذلك اكتفى المسلمون اليوم من الإسلام بعباداته الشعائرية ، وغاب عنهم أن المنهج الإسلامي ينبغي أن يكون في كسب المال ، وإنفاقه ، وفي الزواج ، والطلاق ، وفي الأفراح ، وفي الأتراح ، وفي الحل وفي السفر ، حينما ترفض مفردات هذا المنهج ثم تطبقه على حياتك اليومية عندئذ تنجو من أن تخسر ، أو أن تهلك .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

التسويق عند المسلمين نسخة طبق الأصل للتسويق الغربي:

ذكرت في الدرس الماضي دليلين صارخين ، قضية التسويق ، هناك في جامعات في الغرب اختصاصها التسويق ، التسويق عند الغرب هو الإعلان ، والدعاية فقط ، والإعلان لا ينجح إلا بامرأة شبه عارية ، هكذا التسويق الغربي ، أما التسويق الإسلامي فأنا لا أنكر قيمة الإعلان ، لكن هناك منهج يضبط هذا الإعلان .

لابد من تربية المجتمع على هذا الدين في جميع المجالات :

حينما أتقن صناعتي ، وأدفع زكاة مالي ، وحينما أنصح المسلمين فهذا هو التسويق الإسلامي ، فلذلك المسلم يغفل منهج الإسلام في تسويق البضاعة ، ويأخذ منهج الغرب ، قد يطبق منهج الغرب في تربية أولادي ، أعطيهم حرية ، قد يتفلتون ، أهتم بتحصيلهم الدراسي فقط ، ولا يعنيني إيمانهم أبداً ، قد أرشدهم إلى بلاد بعيدة ، وأنا لست واثقاً من انضباطهم ، التفوق في تربية الأولاد بمنهج غربي هكذا ، أما التفوق في تربية الأولاد أن يكون ابنك معك ، أن تلزم أولادك ، أن تأتي بهم إلى المسجد ، أن تربيهم على حب الله ، وحب رسوله ، ففي تربية أولادنا منهجنا غربي ، في تسويق بضاعتنا منهجنا غربي ، في أفراحنا ، وفي أتراحنا منهجنا غربي ، في حل مشكلاتنا منهجنا غربي ، حتى في قضايانا الكبرى .

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

(سورة الحجرات : 9)

نحتكم إلى أعداء الله ، وإلى الكفار كي يحلوا مشكلاتنا فيما بيننا .

القضية خطيرة جداً ، أيها الإخوة ، هذا الإسلام لن نستطيع أن نقطف ثماره إلا إذا طبقناه كله من دون استثناء ، أنا لا أقول كما يقول بعضهم : إما أن تأخذه كله ، أو تدعه كله ، لا لكن أقول : ينبغي أن تأخذه كله في كل شؤون حياتك .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

(سورة آل عمران)

لابد أن نؤمن على البضاعة ، التأمين حرام إلا إذا كان تعاونياً ، هناك من يؤمن على البضاعة عند الله بدفع القيمة لفقراء المسلمين ، ما من تشريع غربي إلا له بديل إسلامي ، لابد من استخدام اليانصيب في ترويج السلع ، أضيف مبلغاً على ثمن القطعة ، وأجمعه من كل القطع ثمن سيارة ، ثم أجعله يا نصيب، هكذا التسويق الغربي ، فالذي يؤلم أن المسلمين في شكلهم الظاهري مسلمون ، في عباداتهم الشعائرية، ولكنهم حينما يدخلون حياتهم العملية الذين يطبقون مناهج غربية .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

لابد أن تخرج المرأة من البيت لتعمل ، وقد يكون العمل مناقضاً لمنهج الله عز وجل ، وقد يكون مع العمل فتنة ، ومع الفتنة فساد ، ومع الفساد انحراف ، ومع الانحراف اختلاط ، فلابد أن نقلد الأجانب ، هذه هي المشكلة ، الإسلام منهج متكامل يجب أن نأخذه كله حتى نستطيع أن ننتظر من الله أن ينصرنا، حتى نقطف ثمار هذا الدين ، لذلك تجد في أسر كثيرة مخالفات للشرع كبيرة جداً في البيوت ، ورب الأسرة محسوب على المسلمين ، ويأتي إلى بيوت الله ، ويجلس في دروس العلم ، وهو مسلم ، لكن لو دققت في عمله لا يطبق الإسلام.

دعوة إلى تطبيق منهج الله الكامل :

أنا أدعوكم أيها الإخوة من خلال هذه الآية إلى تطبيق منهج الله كاملاً ، المسلم الحقيقي هو مسلم ينصاع لأمر الله .

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

(سورة آل عمران : 19)

أما أن نطبق في تجارتنا منهج الأجانب ، وفي تسويق البضاعة ، وفي صنع البضاعة قد أغير خلق الله عز وجل ، قد أطعم هذه الحيوانات التي أتاجر بها مسحوق اللحم الحرام ، لماذا جن البقر ؟ لأنه أطعم مسحوق الجيف ، صممه الله نباتياً فجعلته لاحماً ، فجن البقر ، وما جنون البقر إلا من جنون البشر ، هذه الآية واسعة جداً ، حتى في الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والتسويق ، وفي الزواج ، والطلاق.....

سمعت البارحة عن إنسان يقيم في بلاد غربية حينما كبر أولاده خاف على دينهم ، ومستقبلهم ، فأراد أن يعود إلى بلده ، يقول : إن زوجته داعية ، وقفت أمامه معارضة العودة إلى بلاد المسلمين ، فلما اشتد الخلاف بينه وبينها ، رفعت قضيتها أمام القضاء الأمريكي لتأخذ من زوجها نصف ما يملك ، ولم ترض بالقضاء الإسلامي أن تأخذ مهرها فقط ، أين الدعوة ؟ الذي لا يقبل منهج الله عز وجل ، ويحتكم إلى مناهج أخرى هذا ليس من الله في شيء ، فالذي يلفت النظر أن المسلمين أنفسهم لا يطبقون منهج الله ، توهموا وهماً عجيباً ، توهموا أنهم إذا صاموا ، وحجوا ، وزكوا ، وصلوا فقد طبقوا الإسلام ، وما هي إلا عبادات شعائرية ، لا يمكن أن تقبل عند الله إلا إذا صحت العبادات التعاملية ، إلا إذا انصعت لأوامر الله ، على كل هذا شرحته في الدرس الماضي .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(149)بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِين

1 ـ النموّ الاقتصادي ليس إلهًا يُعبَد :

لا يرتقي دخلنا إلا بالسياحة ، ومن لوازم السياحة الفنادق الفخمة ، وأن تبيع الخمور ، وأن يكون فيها نساء كاسيات عاريات ، والمسابح ، والمقاصف ، وما إلى ذلك ، فهذا أيضاً منهج غربي .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة : 28)

لا ينبغي أن نؤله النمو الاقتصادي ، لا ينبغي أن نجعل هذا النمو إلهاً نعبده من دون الله ، لا ينبغي أن نضحي بقيمنا ، ومبادئنا من أجل دخلنا .

(بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ)

2 ـ الله هو الرازق وهو الناصر :

هو الذي يرزقكم ، وينصركم ، ويحفظكم ، ويؤيدكم ، وهو مولاكم .

(وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

مشكلة المسلمين مشكلة عويصة أيها الإخوة ، إنهم استغربوا ، وأصبحوا غربيين في كل شؤون حياتهم، ولم يبق لهم من الإسلام إلا هذه العبادات الشعائرية ، لماذا ينتظرون أن ينصرهم الله عز وجل؟ لماذا يعتبون على الله ؟ شيء لا يصدق ؛ في كل شؤون حياتي غربي الملبن ، أما في مظهري فشرقي الضرع ، لا أن تكون غربي الملبن شرقي الضرع ، ينبغي أن تكون شرقي الضرع ، وشرقي الملبن ، إسلامي الضرع والملبن .

(بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

بيد الله عز وجل الخيارات لا تعد ولا تحصى ، يقويك ، فينصرك ، أو يلقي الرعب في قلب أعدائك فينصرك .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)

(سورة آل عمران)

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

1 ـ الكافر في رعب بسبب الشرك :

اجعل هذا قانوناً ، أي كافر قلبه ممتلئ رعباً ، والمؤمن يلقي في قلبه الأمن قانون الأمن والخوف .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام : 81-82)

من لوازم إيمانك أن قلبك ممتلئ أمناً ، ومن لوازم الكفر ، والشرك أن قلبك ممتلئ رعباً ، فإذا كان قلب الإنسان كفؤاد أم موسى خالياً هذه علامة الشرك ، وعلامة البعد عن الله ، وإذا كان قلب المؤمن ممتلئا أمناً فهذه علامة الإيمان .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران)

هذه الباء باب السبب ، أي بسبب شركهم .

(بِمَا أَشْرَكُوا)

بسبب شركهم ، قلب معه شرك يساوي رعبًا شديدًا ، قلب معه إيمان يساوي طمأنينة شديدة .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

الآية الكريمة :

(تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213)وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِين (214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء : 213-215)

2 ـ سبب العذاب الدنيوي هو الشرك :

أحد أسباب العذاب في الدنيا الشرك ، أن تعبد غير الله ، لا بلسانك ، ولكن بلسان حالك ، قد تتعلق بإنسان قوي من أقربائك ، قلبك ممتلئ تعظيماً له ، وهو لا يعرف الله ، لأنه قوي ، فاعتمادك عليه نوع من العبادة ، قد تعتمد على مالك فهذا شرك ، قد تعتمد على نفسك ، على خبراتك ، ومكانتك ، وشهرتك، فهذا نوع من الشرك ، قد تعتمد على ابنك ، وهذا نوع من الشرك ، الاعتماد النفسي قد تستعين به دون أن تعتمد عليه ، قد تعتمد على زوجتك ، هذا نوع من الشرك ، أو على شريكك .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا باللهِ)

بسبب شركهم سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، وكأن هذا مقياس دقيق للإيمان ، قلب ممتلئ رعباً دليل شركه ، وقلب ممتلئ أمناً دليل إيمانه ، المؤمن في قلبه أمناً ما لو وزّع على أهل بلد لكفاهم .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

3 ـ ليس هناك دليل على الشرك :

ليس هناك دليل على الشرك ، أنت توهمت أنه قوي ، وهو في قبضة الله عزوجل ، توهمت أنه يعطيك، والمعطي هو الله ، أنت توهمت أنه يمنع عنك ، والمانع هو الله ، توهمت أنه سيرفعك ، والرافع هو الله ، توهمت أنه سيخفضك ، والخافض هو الله ، توهمت أن بهذه العلاقة المتينة يعزك ، والمعز هو الله ، توهمت أنه يذلك لو أغضبته ، والمذل هو الله .

أرأيت إلى هذا التابعي الجليل الحسن البصري ، حينما كان عند والي البصرة ؟ جاءه توجيه من يزيد ، هذا التوجيه لعله لا يرضي الله عز وجل ، فلو أنه نفذه لأغضب الله عز وجل ، ولو لم ينفذه

لأغضب يزيد ، ولعزله من ولاية البصرة ، كان عنده الحسن البصري قال : يا إمام ماذا أفعل ؟ أجاب هذا الإيمان إجابة يمكن أن تكون شعاراً لكل مؤمن إلى يوم القيامة ، قال له : " إن الله يمنعك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " .

الله عزوجل يمنعك من أقوى قوي ، ولكنك لو أطعت القوي ، وعصيت الله هذا القوي فلا يمنع عنك الورم الخبيث ، لا يمنع عنك الفشل الكلوي ، أو تشمع الكبد ، أو خثرة في الدماغ ، أو الشلل ... " إن الله يمنعك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله " ، فكن مع الأقوى لمصلحتك ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

ليس هناك دليل على الشرك

4 ـ لا تتوهم النفع والضر عند غير الله :

نحن توهمنا أشخاصاً أقوياء ، توهمنا أنهم يرفعون ، ويخفضون ، ويعزون ، ويذلون ، ويعطون، ويأخذون ، نحن توهمنا ما لم ينزل به سلطانا ، وما سوى الله لا يفعل شيئاً ، الفعال هو الله ، لا يكمل إيمانك إلا إذا رأيت يد الله وحدها تعمل ، وليس مع الله أحد .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : 84)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : 123)

قال لي أحدهم : أخاف أن أطيع الله فأخسر عملي ، قلت له : الإله الذي تعبده إذا كان لا يحميك فلا تعبده ، ينبغي أن تعبد إلهاً يحميك ، تعبد إلهاً كل أقوياء الأرض بيده .

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(45)قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه : 45-46)

هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، ألا ترى مع الله أحداً .

كما قلت قبل قليل :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : 123)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 26)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر : 62)

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف : 54)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود : 56)

هذا هو الإيمان .

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ)

(سورة يونس : 24)

كما هي الآن :

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس : 24)

قالوا قبل حين : إن هذه الكتلة الشرقية عندها من القنابل الذرية ما تستطيع به تدمير الأرض خمس مرات ! هم دمروا من داخلهم ، تهاوت قلعتهم من الداخل .

أيها الإخوة الكرام .

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس : 24)

ستهلك عاد الثانية كما أهلك عاد الأولى :

وهذا الذي ترونه أيها الإخوة من شأن عاد الثانية ، التي وصفها القرآن الكريم فقال :

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت : 15)

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر : 8)

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(128)وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء : 128-129)

هذه عاد الثانية ، الله عز وجل قال :

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى)

(سورة النجم : 50)

هذا يعني وجود عاد ثانية على شاكلتها .

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت : 15)

أقوى دولة في العالم .

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر : 8)

أجمل بلاد في العالم .

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(128)وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء : 128-129)

أقوى قوة غاشمة في العالم .

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء : 130)

وعندهم أذكياء العالم .

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت : 38)

أرأيت إلى هذه الآيات ؟ واحدة تلو الأخرى ، كانوا أذكياء مستبصرين ، وكانوا بطاشين ، وكانوا يبنون بكل ريع آية يعبثون ، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون ، وقالوا من أشد منا قوة ، ووصفت أنه لم يخلق مثلها في البلاد .

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(6)سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(7)فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)

(سورة الحاقة : 6-8)

هذا مصيرها الذي ينتظرها .

أيها الإخوة الكرام :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ !!!

والله هؤلاء الأقوياء ينفقون على تسليح بلادهم من شدة الخوف الذي يملأ قلوبهم ما لو أنفق على العالم كله لملأه أمناً وطمأنينة ورخاء ، والأرقام التي تنفق على التسليح في العالم العقل لا يقبلها ، أرقام فلكية، ألوف ألوف ألوف البلايين من شدة الخوف الذي ملأ القلوب ، أما النبي عليه الصلاة فاسمه حديثه ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً))

[صحيح البخاري]

أما حينما تركت أمته سنته هزمت بالرعب مسيرة عام !

(بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

نحن أسبغنا على بعض الأشخاص قوة ، هم ليسوا أقوياء ، نحن توهمنا أن بعض الدول لا تهزم ، هي ليس كذلك هم بشر ، نحن أسبغنا عليهم هذه الأوهام ، وهذه الهالات الكبيرة ، وهم ليسوا كذلك

، هم أقل من ذلك بكثير ، لكن الضعيف أحياناً يعظم القوي ، ويسبغ عليه من الصفات ما ليست فيه إطلاقاً ، هذا شأن الضعيف دائماً ، كم توهم الناس أن هؤلاء الأعداء لا يقهرون ، إن قلوبهم الآن ممتلئة رعباً . سمعت من أخ أنه حتى الآن عاد إلى أمريكا مليون يهودي ! وأن الخوف والفزع ملأ قلوبهم ، وأن شدة الرعب لا توصف ، بسبب شباب مؤمنين أرادوا أن يضحوا بأنفسهم في سبيل هز كيان الأعداء ، أليس كذلك ؟ فنحن واهمون مهما تصورنا أعدائنا أقوياء هم أقل من ذلك ، لكن المؤمن يملأ الله قلبه أمناً وطمأنينة .

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ)

(سورة آل عمران : 151)

حينما وعدكم بالنصر صدق وعده ، فنصركم في بدر ، ثم نصركم في أول مرحلة في أحد.

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ)

(سورة آل عمران : 151)

وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِه

1 ـ معنى : تَحُسُّونَهُمْ

معنى تحسونهم تقتلونهم ، سلطكم عليهم ، فقوّاكم وأضعفهم ، ملأ قلوبهم خوفاً ، حسّ قتل ، وجعله بلا إحساس ، وجعله جثة هامدة .

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ)

(سورة آل عمران : 151)

شيء دقيق جداً :

(حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ)

2 ـ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ

معصية الرماة الذين نصبهم النبي على جبل أحدٍ :

ضعفتم ، رأيتم أن النصر قد تحقق ، وأن أرض المعركة ممتلئة بالغنائم ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبقى الرماة في أماكنهم ، ولو تخطف الكفار أصحاب النبي ، أمر واضح من عند رسول الله ، ابقوا في أماكنكم ، حينما ضعفت نفوسهم أمام الغنائم هنا المشكلة ، ضعف النفس ،

حينما ضعفت نفوس بعض الصحابة أمام الغنائم ، وعصوا أمر رسولهم ضعفوا ، تأتيك القوة من طاعة الله ، ويأتيك الضعف من معصية الله ، بالتعبير المألوف معنويات المطيع عالية جداً ، ومعنويات العاصي متدنية ، لذلك :

(حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ)

ضعفتم أمام الغنائم .

(وَتَنَازَعْتُمْ)

3 - وَتَنَازَعْتُمْ

بعضهم قال : الغنيمة الغنيمَة ، وبعضهم قال : ألم يأمر رسول الله أن نبقى في أماكننا ؟ فشلتم ، أي ضعفتم أمام الغنائم ، وتنازعتم أي اختلفتم ، بعض أصحاب النبي كان حريصاً على تطبيق أمر النبي ، وأمر النبي واضح وضوح الشمس ، لو رأيتم الكفار يتخطفوننا فلا تغادروا أماكنكم ، موقع استراتيجي.

النصر يشترط له الإيمان والإعداد :

بالمناسبة أيها الإخوة ، المسلمون انهزموا مرتين ؛ مرة في أحد ، لأنهم عصوا أمر قائدهم عليه الصلاة والسلام ، ومرة في حنين لأنهم أشركوا ، وقالوا : لن نغلب من قلة ، اعتمدوا على عددهم ، في أحد عصوا أمراً ، وفي حنين وقعوا في الشرك ، وهذان درسان بليغان .

لقد ذكرت اليوم أننا نعاني ما نعاني من أعدائنا ، وأن النصر بيد الله وحده ، هذه أول حقيقة ، وأن هذا النصر له أسباب بأيدينا .

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد : 7)

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران)

بيد الله النصر ، الآن سببه :

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد : 7)

التفاصيل :

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : 47)

الإيمان شرط لازم غير كاف للنصر ، الأمر الثاني :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال : 60)

والإعداد شرط لازم غير كاف ، الإيمان الحق الذي يحملنا على طاعة الله ، وهو شرط أول ، والإعداد إعداد القوة المتاحة ، وهو شرط ثان ، فإذا تحقق الإيمان الذي يحملنا على طاعة الله ، والإعداد الذي يكون سبباً آخر للنصر جاء نصر الله ، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، هذا هو النصر .

لابد من إرجاع الأمور إلى أسبابها الحقيقية :

أما أن تحلل ، وتذكر أسباباً للنصر ليست في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله فهذا نوع من الجهل ، إذا كنا مع هؤلاء انتصرنا ، وإذا لم نكن معهم انهزمنا ، هذا شرك ، لذلك الشيء المؤلم إذا وقع فوقوعه ثابت ، لكن الاختلاف في تحليل هذا الشيء ، إلى أي سبب يرد ؟ بطولة المؤمن أن ترد الشيء إلى سببه الحقيقي ، فبهذا تلغي السبب ، وتلغى النتيجة ، شيء واضح تماماً ، هذه مشكلة سببها هذا الشيء ، عد إلى كتاب الله ، وإلى سنة رسوله ، عد إلى الوحيين ، واستنبط منهما أسباب ما يعاني منه المسلمون اليوم ! تلافَ السبب يأتِ ما يسعدنا .

أمة انحرفت ، وتركت منهج الله ، أعرضت عن منهج خالقها ، فقيد الله لها كابوساً يؤلمها ، هذا الكابوس لن يزاح عنها إلا إذا عادت إلى منهج الله ، هذا ملخص الملخص .

(حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ)

ضعفتم أمام الغنيمة ، تنازعتم ، بعضهم أراد أن يبقى مطيعاً لرسول الله ، وبقي نفر من أصحاب النبي، وبعضهم نزل إلى ساحة المعركة ليأخذوا الغنائم ، وعصيتم أمر نبيكم .

(وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ)

من بعد ما أراكم ملامح النصر ، والتفوق ، قال :

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ

أرادوا الدنيا والغنائم فانهزموا :

آية صريحة ، بعض أصحاب النبي أرادوا الدنيا ، لو أن الله نصرهم على ما هم فيه لاختل نظام الدين، البطولة أن تأتي النتائج وفق المقدمات .

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد : 7)

لو أن الله نصرهم على معصيتهم لسقطت الطاعة ، ولا قيمة لها إطلاقاً .

مثل بسيط جداً : مدرس يعطي طلابه وظيفة ، يأتي في اليوم التالي يقول : افتحوا الوظائف ، نصف الطلاب ما كتب الوظيفة ، لو أنه تساهل مع الذين لم يكتبوا الوظيفة فلن يكتبها أحد في اليوم التالي ، لابد من أن يأخذ موقفاً من الذي لم يكتبها ، وإلا سقط أمره ، وانتهى هذا النظام ، نظام التدريس ، والوظائف ، والمتابعة ، فمتى ينتهي إذا استوى الذي كتبها والذي لم يكتبها ، ولو أن المسلمين في أحد انتصروا على معصيتهم لرسول الله لسقطت قيمة الأمر إطلاقاً ، إذاً لابد أن يدفعوا ثمن معصيتهم .

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ)

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ

ابتلاهم بهذه الغنائم بعض من كان مع النبي عليه الصلاة والسلام صبر ، وصمد ، ونجح في الامتحان، وبعضهم ضعفت نفسه ، وعصى ، لكن لأعمالكم الصالحة السابقة ، ولنصرتكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(152)إِذْ تُصْعِدُونَ)

تبتعدون عن ساحة المعركة .

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ

(إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ)

1 ـ تفرّق المسلمين يوم أحدٍ والنبي يدعوهم للقتال :

من شدة الخوف تفرق أصحاب النبي ، ولم يبق معه إلا عدد يزيد على عشرة من الصحابة ، جيش عرمرم تفرق ، وكان النبي يخاطبهم : ارجعوا قاتلوا .

(وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ)

هو يدعو أصحابه أن يصمدوا ، وأن يقاتلوا ، هم ألقي في قلبهم الخوف والرعب .

(فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ)

2 ـ من قصّر في العمل ابتلاه الله بالهمّ :

من قصّر في العمل ابتلاه الله بالهم ، الهم مصيبة كبيرة ، أصابهم غم لأنهم عصوا ربهم ، وهذا أكبر غم ، أصابهم غم أن أصحابهم قتلوا ، وأن بعضهم جرحوا ، أصابهم غم الهزيمة ، وأنهم سمعوا أن النبي قُتل !

قال علماء التفسير : هذه الآية لا تعني غمّين ، بل تعني غموما متتابعة ، غم المعصية ، والهزيمة ، وقتل الأقارب ، والجراح ، ونبأ مقتل النبي .

(فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ)

ولو أردنا أن نستنبط من هذه الآية شيئاً ؛ فمن قصر في العمل ابتلاه الله بالغم ، هذا هو الحزن والخوف والقلق والانقباض .

(فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ)

لو أنهم في وعيهم لتألموا أشد الألم بهذا النصر الذي فاتهم ، والنصر شيء ثمين جداً .

(يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(4)بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم : 3-4)

الإنسان في علاقة مع إنسان لم ينجح في هذه العلاقة ، لو خسر عمله أحياناً ، لو نشأت مشكلة مع زوجته يتألم .

(فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

قد يكون العمل ظاهره طيب ، لكن حقيقته يعلمها الله وحده .

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

مرأى الغنائم أضعفهم ، وحملهم على أن يعصوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام .

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(153)ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ)

على الذين نفذوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام .

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا)

1 ـ بعض الصحابة أخذهم النعاس في أرض معركة أحد :

عرفوا أن الإنسان لا ينام إلا إذا كان في بيته مرتاحاً مطمئناً ، أما أن يكون في ساحة معركة ، وروحه على كفه ، وقتله قائم ، وينام فهذا إكرام من الله عز وجل .

فالذين التزموا طاعة الله أكرمهم الله بالأمن قال :

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا)

هذه المنة التي هي نعاس يغشى طائفة منكم ، من هم ؟ الذين نفذوا أمر النبي ، معنى ذلك هذا بشارة كبيرة جداً ، فإنك إن أطعت الله عز وجل فأنت مستثنى من الخوف العام ، قد يقع خوف عام يأكل القلوب ، إن كنت مع الله أنت مستثنى من هذا الخوف العام .

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ)

معنى ذلك الذين عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم هم صحابة كرام ، ألقي في قلبهم الغم ، غم على غم على غم ، وقد تجد إنسانًا كل أمور الدنيا مريحة له ، ومع ذلك يكاد يخرج من جلده غماً وهماً ، فهو متألم ، قلق ، مضطرب ، خائف من لا شيء ، بل من مجهول ، خائف من المستقبل ، هذا عقاب من الله .

إذا ملأ الله قلب الإنسان خوفاً وهماً وحزناً فهذا عقاب من الله عز وجل ، وهؤلاء الذين عصوا أهمتهم أنفسهم ، عصوا أمر النبي ، وحجبوا عن الله عز وجل ، وخافوا ، وامتلأ قلبهم خوفاً وغماً ، قال :

(وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ)

2 ـ القسم الثاني من الصحابة أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ :

أحياناً يقول الإنسان في ساعة غفلة عن الله : أعداؤنا أقوى منا ، ليس لنا أمل أن ننتصر ، ينسى أن الله موجود ، وأن الأمر بيد الله وحده ، يغلب عليه التشاؤم واليأس ، هذا اليأس من معاصينا ، أنت حينما ترى عدوك قوياً ، ولا سبيل أن تنتصر عليه فهذا نوع من اليأس والضعف .

(يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

3 ـ كل شيء بقدَرٍ :

لو أننا بقينا في المدينة ، ولم نخرج ما قتلنا .

(هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

لو أن النبي أخذ برأينا ، وأقمنا في المدينة ما قتلنا ، ولا جرحنا ، ولا هزمنا ، ولا خفنا .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)

خروجك سمح الله به ، كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

(يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ)

4 ـ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ

العبرة ما في نفسك ، لا ما تقوله على لسانك ، كل إنسان يقول كلامًا مقبولا عند الناس حفاظاً على مكانته وسمعته ، أما حينما يظن بالله ظن السوء والجاهلية تظهر حقيقته ، وما أكثر المسلمين اليوم الذين يظنون بالله ظن الجاهلية يقول لك : أين الله ؟ لِمَ لا ينصر المسلمين ؟ لمَ تخلى عنهم ؟ أنت هل رأيت ما يفعل المسلمين أساساً ؟

أجريت مقابلة مع مفتي البوسنة منذ خمس سنوات ، وصديقي استمع إلى هذه المقابلة ، شيء لا يصدق قال : إخواننا في المشرق لا ينبغي أن يعتبوا على الله من أجلنا ، نحن لسنا مسلمين ، نحن نأكل الربا ، ونشرب الخمر ، ونأكل لحم الخنزير ، لكن بعد هذه المحنة الشديدة أصبحنا مسلمين ، فحينما تأتي مصيبة متعبة جداً للمسلمين فهذا يعني أن هناك معالجة إلهية .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

5 ـ لابد من حسن الظن بالله :

ينبغي أن تحسن الظن بالله ، ينبغي أن تكون معنوياتك عالية جداً ، ينبغي أن تنطبق عليك الآية الكريمة:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران)

س : هزمت أمته بالرعب مسيرة عام ؟

ج : الإنسان حينما يعصي الله عز وجل تضعف نفسه ، يتوهم القوة بعدوه فييأس من الانتصار عليه ، والخوف من العدو أحد أسباب عدم النصر .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(42-60): تفسير الآية 154 ، حسن الظن بالله (1)

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-09-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والخمسين بعد المائة ، وقد وعدتكم أن أشرح لكم بفضل الله وعونه قوله تعالى :

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ

1 ـ حُسنُ الظن بالله :

ولأن حسن الظن بالله ثمن الجنة ، ولأن الإيمان كله حسن ظن بالله ، وأن تظن بالله خيراً ، وأن تصفه بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، فكم من كلام يطرح بين المسلمين يؤكد جهلاً بالله عز وجل ، وسوءَ ظنٍّ بالله ، فهؤلاء الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية ، ومن أجمل ما قرأت حول هذه الآية من كتاب زاد المعاد كلام طيب مناسب جداً أن نقرأه كلمَةً كلمة ، فهذا الدرس له طبيعة خاصة ، سأحاول أن أقرأ ، وأشرح ما في كتاب زاد المعاد للعالم الجليل ابن القيم حول هذه الآية .

2 ـ معنى : سوء الظن بالله في هذه الآية :

يقول الإمام الجليل ، وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه وتعالى فسر هذه الآية بأنه من ظن أن الله لا ينصر رسوله ، وأن أمر هذا النبي سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل ، فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية ، كتطبيق عملي من يقول الآن : المسلمون انتهوا ، لأن كل قوى الشر تحاربهم ، وتلصق أشد التهم بهم ظلماً وعدواناً ، فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية ، الله جل جلاله لا يتخلى عن دينه ولا يتخلى عن عباده الطيبين الطاهرين .

قد يقع إنسان غير مسلم عملا فينسب إليه فقط ، أما إذا وقع العمل على يد مسلم فينسب إلى إسلامه ، هكذا ظلماً وعدواناً ، فمن ظن أن الله سبحناه وتعالى لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل ، فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية .

ومن ظن أن ما أصابهم يوم أحد لم يكن بقضائه وقدره ، الله عز وجل خلق وترك ، خلق قوياً وضعيفاً، وتركهم وشأنهم ، فالقوي يأكل الضعيف ، والغني يمتص دم الفقير ، ومن ملك من الدنيا حظوظاً عالية تمتع بالحياة وحده ، واستغل الآخرين كل شيء وقع أراده الله ، لا يمكن أن يقع في الكون شيء لا يريده الله ، إنه دائماً تستوعب خطة الله خطة أهل الدنيا ، يضربون ، ويسفكون الدماء ، ويقتلون ، ويُغيرون ، لكن لو لم يكن الله مريداً لهذا ما وقع ، كل شيء وقع أراده الله .

كلّ شيء وقع فلحكمة بالغة :

لذلك اعتقدوا هذا الشيء اعتقاداً صحيحاً ، لكل واقع حكمة ، سواء أكان الموقع أحمق أم عاقلاً ، خيراً أم شريراً ن فما دام الشيء قد وقع فقد أراده الله ، ولحكمة بالِغةٍ بالغةٍ ، ما دام هذا البناء قد تهاوى فلحكمة بالغَةٍ بالغةٍ بصرف النظر عما إذا كان الذين فعلوا هذا على حق أو على باطل ، اعتقد هذا ، كل شيء وقع أراده الله ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، ومن ظن أن هذا الذي وقع بقضاء الله وقدره ، ولكن لا حكمة له فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية . والله أيها الإخوة ، هناك كلمات يتلفظ بها العامة هي الكفر بعينه ، يقولون : الله يعطي الحلاوة للذي ليس له أضراس ، الله ليس حكيما ، هذا الكلام هو الكفر بعينه ، من ظن أن الله لا ينصر رسوله ، من ظن أنه يتخلى عن رسوله ، وبالتالي يتخلى عن المؤمنين ، من ظن أن هذا الذي وقع ليس بقضاء الله وقدره ، من ظن أن هذا الذي وقع بقضاء الله وقدره لا حكمة فيه ، يقول : سبحان الله ! يأتي المسلم بجهل شديد ، يصف شيئاً غير مقبول ، ويقول : سبحان الله ! هذا الذي وقع ، يجب أن تعتقد أن الذي وقعَ وقعَ بقضاء الله وقدره .

في أثناء الهجرة أبيح دم النبي ، ووضعت مائة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، فلما تبعه سراقة ، وكان يطمع بالمائة ناقة قال له النبي عليه الصلاة والسلام : كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى ؟

ما معنى ذلك ؟ يعني أن النبي عليه الصلاة والسلام واثق أنه سيصل إلى المدينة ، لأن الله لابد أن يتم أمره ، ولابد أن يؤسس دولة ، ولابد أن تنتشر هذه الدعوة في الآفاق ، والله وصلت إلى أقصى مدينة في العالم شرق جنوب سيدني بأسترالية ، رأيت فيها المساجد ، ورأيت فيها جالية إسلامية ، وإذاعة للقرآن الكريم ، ودروس العلم تنتشر هناك ، سبحان الله !ر هذا مصداق قول النبي :

((يبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

[ابن حبان]

أي مكان على سطح الأرض فيه ليل ونهار ستبلغه دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلابد أن يتم الله رسالته .

ماذا قال الله عز وجل ؟ قال :

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ)

(سورة الفتح : الآية 6)

3 ـ الذي يسيء الظن بالله يتخلى الله عنه :

وكل واحد الآن يقول ، المسلمون انتهوا ، لأن كل قوى الشر ضدهم ، الله جل جلاله لا يتخلى عنهم ، قل هذه المقولة دائماً : لا تقلق على هذا الدين ، إنه دين الله ، هذا الدين شأنه كشأن وقود سائل ملتهب ، كلما أردت أن تقمعه كأنك أردت أن تطفئه بالزيت ! والزيت يزيده لهباً ، اعتقد أنه ما ضر السحاب نبح الكلاب ، وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بحجر ، ولو تحول الناس جميعاً إلى كنّاسين ليثيروا الغبار على الإسلام ما أثاروه إلا على أنفسهم ، ويبقى الإسلام هو الإسلام ، ولكن إن رأيت أن الله سبحانه وتعالى لا ينصر المسلمين فلعلة في المسلمين ، لأنهم نقضوا عهد الله وعهد رسوله ، لأنهم ما عبدوه حق العبادة ، لأنهم أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، ولو كانوا كما أراد الله عز وجل لرأيتم من الآيات مالا يصدق .

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

شيء خطير جداً أن تظن بالله ظن السوء ، وظن الجاهلية ، ومن ظن أن الله لا ينصر رسله ، ولا يتم أمره ، ولا يؤيد جنده ، ولا يعليهم ، ولا يظفرهم على أعدائهم ، وأنه لا ينصر دينه ، ولا كتابه ، وأنه يقوي الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق إدالة مستقرة ، ويضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً ، ولا يقوم بعده أبداً فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية .

مرة ثانية أيها الإخوة الكرام ، هذا الدين دين الله ، والله سبحانه وتعالى يتولى نصرهم ، ولو شاء ربك لانتصر منهم ، إذا تدخل الله أمره كن فيكون ، لكن أراد أن يكسبنا شرف نصر هذا الدين :

(وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد الآية : 4)

لو أن الله تدخل بالأمر مباشرة لا أجر لك ، لكن أراد الله أن يكون هذا النصر على يديك ، قال : إن عزة الله وحكمته تأبى أن يتخلى عن عباده المؤمنين ، هؤلاء الذين عارضوا النبي وكانوا أشداء ، أقوياء ، أبطالاً ، أغنياء ، وكانوا صناديد ، فأين هم الآن ؟ في مزبلة التاريخ ، هؤلاء الذين وقفوا معه ، ونصروه ، وفدوه بأرواحهم وأموالهم أين هم الآن ؟ في أعلى عليين .

قال : فإن عزة الله تأبى أن يذل حزبه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم ، هذا يعني أنهم قد ينتصرون نصراً مؤقتاً للباطل جولة ، ثم يضمحل ، قال : من ظن كذلك فإنه ما عرف الله عز وجل ، وما عرف أسماءه ، ولا عرف صفاته وكماله .

لن يسلِمك الله لعدوّ ما دمت متمسكا بدينه :

مرة ثانية : من أنكر أن يكون ذلك بقضائه ، وقدره فما عرفه ، أنا لا أتكلم من فراغ شعوب بأكملها في الغرب ، تعتقد أن الله خلاق ، وليس فعالاً ، خلق ، وأعطى كل إنسان طاقات ، وتركهم ، افعلوا ما شئتم ، فالقوي يأكل الضعيف ، والغني يستعبد الفقير ، والذكي يسخر من البليد ، إذا أسلمك الله إلى غيره فلا يستحق أن تعبده .

تخيل أن الله أسلم المسلمين إلى عدو لدود قوي جداً ، لمجرد أن يسلم المسلم لعدو لا يرحمه ، إنه قوي جداً ، أين معنى قوله تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : الآية 123)

ما معنى قوله تعالى :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : 26)

ماذا نفعل بقوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : الآية 84)

ما معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند الإمام أحمد عن أبي الدرداء]

لذلك ليس في حياة المؤمن كلمة لو .

كلّ شيء بقضاء وقدَر :

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[صحيح مسلم]

ومن أنكر أن يكون قدره من غير حكمة بالغة ، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وإنما صدر ذلك من مشيئة مجردة عن حكمة ، وغاية مطلوبة فهو قد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية ، لمجرد أن تقول: يا رب بلادنا فقيرة ، أمطار لا يوجد ، تذهب لبلاد الغرب جنان ، أنهار ، أمطار ، ثلوج ، خيرات ، لمجرد أن تقول : لماذا نحن هكذا يا رب فقد ظننت بالله غير الحق ، ظن الجاهلية ، وكأنك تشك بحكمته .

لذلك قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : " ليس بالإمكان أبدع مما كان ، هذا الذي وقع هو أمثل شيء لو كشفت الحقيقة .

سيدنا علي كرم الله وجهه يقول : << والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً >> ، أي يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء ، يقول هذا العالم الجليل : " هذه الأسباب المكروهة المفضية إلى قضاء الله وقدره لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإخضاعها إلى ما يحب ، وإن كانت مكروهة له " ، كيف ؟ الله عز وجل يصب في عبده مرضاً عضالاً ، لأن الله يحب عبده ، ويكره أن يصيبه بهذا المرض ، لكن هذا المرض لابد لشفائه من مرض نفسي .

قد يقدر الله قدراً ، ويكره أن يصيب المؤمن به ، لكن لابد من ذلك تماماً كأب طبيب جراح ، التهبت زائدة ابنه ، يضع ابنه على الطاولة ، ويفتح بطنه ، ويخدره ، ويستأصل الزائدة ، ويتمنى ألف مرة أن تكون هذه الزائدة سليمة لا تحتاج إلى استئصال ، هو يفعل هذا بيديه لكنه يعلم علم اليقين أنه لابد من استئصالها .

لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ قَالَ :

((وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[البخاري]

تماماً لو أن ابنك ارتكب معصية فلابد أن تؤدبه عليها ، وتحبه حباً لا حدود له ، تضربه ، وتتألم أنت أكثر منه حين ضربه ، لابد أن تحدث عنده خبرة مؤلمة مع هذا العمل الذي فعله ، هذا هو الأب الحكيم، هذه الأشياء التي نكرهها قدرها الله عز وجل ، لم يقدرها سدى ، ولا أنسأها عبثاً ، ولا خلقها باطلاً ، قال :

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ)

(سورة ص : 27)

المصائب لتستفيق من الغفلة والسبات :

ظن السوء منتشر أشد الانتشار . مرة قرأت كلمة في مجلة : أنت ضعيف لأنك أخلاقي ، وأنت أخلاقي لأنك ضعيف ، هذا كلام خطير جداً ، في العالم الغربي ولاسيما في هذه الدولة العملاقة

يقولون مثل عندهم كالفاتحة عندنا : أنت قوي ، إذاً أنت على حق ، القوة تصنع الحق ، خذ أموال الناس بالباطل ، لأنك قوي، هذا هو الحق ، قيل في هذه الأيام : القوة من دون حيلة تدمر صاحبها ، هذا الذي وقع قوة وعنجهية ، وغطرسة ، وتجاهل لحقوق الآخرين ، أدى هذا كله إلى شيء لا تحمد عقباه .

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ)

(سورة ص : 27)

أكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ، تكون أنت في وضع مريح ، لو أنك رأيت طفلاً مصاباً بمرض عضال تعترض على الله ، لماذا أصابه هكذا ؟ ما ذنبه؟ الإنسان أحياناً يتجاوز سوء ظنه لا إلى ما يفعله الله به ، بل إلى ما يفعله بغيره .

أنا لا أنسى أن مقابلة جرت بين أحد من يعمل في الإعلام في البوسنة ومفتي البوسنة ، قال كلامًا خطيرًا : " لا تعتبوا على الله من أجلنا ، يخاطب المسلمين في المشرق ، نحن لسنا مسلمين ، نأكل الخنزير ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونشرب الخمر ، بعد هذه الشدة الشديدة أصبحنا مسلمين " .

أحياناً يصاب إنسان بمصيبة بالغةٍ بالِغةٍ ، وعقب هذه المصيبة يستقيم على أمر الله ، فلا تعرف حكمة المصائب إلا من نتائجها ، فهي في أثناء وقوعها مؤلمة جداً ، لكن لولا هذه المصيبة لما كنت بهذا الحال .

قال : " ولا يسلم من هذا الظن السوء إلا من عرف الله ، وعرف أسماءه ، وصفاته ، وعرف موجب حمده وحكمته ، فمن قنط من رحمة الله تعالى ، ويئس من روحه فقد ظن به ظن السوء " ، فكل إنسان يقول : انتهينا هذا إنسان يظن بالله غير الحق ظناً الجاهلية .

قال : " ومن جوّز على الله ، أي قبل من الله أن يعذب أولياءه مع إحسانهم ، وإخلاصهم ، ويسوي بينهم ، وبين أعدائه فقد ظنوا به ظن السوء " .

والله مرة قال لي واحد : كلما دعونا على أعدائنا ازدادوا قوة ، قلت له : شيء جيد والله ، إنه يظن بالله ظن السوء ، لكن الله يملي للظالم ، ويستدرجه من حيث لا يعلم ، وقد قيل : إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك ، وأنت تعصيه فاحذره .

هذا الإنسان خارج العناية المشددة ، وهذا كلام دقيق : إن رأيت الله يتابعك كلما زلّت قدمك يعاقبك ، كلما انحرفت سيرتك شدد عليك ، فاشكر الله عز وجل لأنك ضمن العناية المشددة .

لا توازن نفسك مع أهل الدنيا :

لو أن طالبًا شكا إلى صديق له خارج المدرسة ، قال له : أنا مرهق بالدراسة ، ووالدي شديد جداً، والأساتذة كثر ، والوظائف مرهقة ، والكتب ضخمة ، والفحوص شديدة ، والأسئلة صعبة ، ولا أنام

الليل ، فقال له الثاني الذي هو خارج المدرسة : أنا مرتاح جداً ، أستيقظ الظهر ، آكل ، وألعب مع رفاقي ، ونذهب إلى السينما ، مسكين أنت ، لكن من المسكين حقيقة ؟ الثاني المتفلت ، هذا في المدرسة ينتظره مستقبل باهر ، هذا ينتظره مستقبل مظلم ، فلا توازن نفسك مع أهل الدنيا ، هذه الموازنة فيها خطأ كبير ، أهل الدنيا أحياناً تنطبق عليهم الآية الكريمة :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام)

سيدنا عمر دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد اضطجع على حصير ، وقد أثّر على خده الشريف فبكى ، قال :

((فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ ، فَبَكَيْتُ ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيكَ ؟ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ))

[البخاري عن ابن عباس]

هذه المفارقة ما فهمها ، هذا سيد الخلق حبيب الحق ينام على حصير ، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟ قال : يا عمر ، أما ترضى أن تكون الدنيا لهم ، والآخرة لنا ؟ قال : يا عمر أفي شك أنت من هذا الأمر ؟ قال : يا عمر إنما هي نبوة ، وليست ملكاً ، أنا لست ملكًا ، والنبي قدوة ، من جوّز على الله عز وجل أن يعذب أولياءه مع إحسانه ، وإخلاصه ، ويساوي بينه وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أن الله يترك خلقه سدى معطلين من الأمر والنهي ، يقول : ترك أناس لا أنبياء ولا رسل غافلون ، الله عز وجل قال :

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

(سورة الرعد : 7)

لا يمكن أن تنقطع رسالاته جل جلاله ، لكن لماذا جعل النبي الكريم خاتم الأنبياء ؟ لأنه علم أن سيكون العالم كله غرفة صغيرة .

والله ذهبت إلى أماكن بعيدة جداً في الأرض ، كل علماء المسلمين تسمع دروسهم هناك من دون استثناء ، الآن أصبح العالم قرية صغيرة ، أينما ذهبت تجد القرآن ، والسنة ، والعلماء ، والمحاضرات، والأشرطة ، والأفلام ، والمؤتمرات ، فهذا الأمر يصل إلى كل مكان .

قال : من ظن أن يترك خلقه سدى معطلين من الأمر ، والنهي ، ولا يرسل إليهم رسله ، ولا ينزل عليهم كتبه ، بل يتركهم هملاً كالأنعام فقد ظن به ظن السوء .

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال : من الآية 23)

لو أنه أسمعهم ، وليس فيهم خير .

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال: من الآية 23)

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل : 12)

تولى الله بنفسه الهدى ، وكلمة على إذا أضيفت إلى لفظ الجلالة ، هذا هو الإلزام الذاتي ، ألزم نفسه جل جلاله أن يهدي الخلق ، يهديهم بالكون ، ويهديهم بالقرآن ، وبالرسل ، وبالأنبياء ، وبالدعاة ، وبالمعالجة النفسية المباشرة ، وبالمصائب ، وبأفعاله ... ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب . يقول : والله فلان غني ، رأى ليلة القدر ، هذا كلام فيه كفر ، وفلان فقير مسكين راحت عليه ، لا يرى شيء .

هذا أيضا سوء ظن بالله فاحذره :

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ، وليظهروا للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين ، فقد ظن به ظن السوء ، ما الذي يريحك ؟ أنه يوجد بعد الموت حياة أبدية .

رجل فقير دخله محدود ، مجهول ، في التعتيم ، لا أحد يعرفه ، لكنه يطيع الله ورسوله ، وإنسان آخر كافر من هؤلاء الطغاة ، الذين يكيدون لأهل الأرض ، كافر ، جميل الصورة ، قوي ، ذو صحة جيدة ، يتربع على أعلى منصب في العالم مثلاً ، فهذا لا شيء ، وذاك كل شيء ، العبرة بعد الموت ، هذا الذي تظنه لا شيء في الجنة ، وهذا الذي تظنه كل شيء في النار ، لمجرد أن تظن أن هذه الدنيا هي كل شيء ، أنت لا تعرف الله ، السبب لأن الحظوظ متفاوتة ، امرأة وسيمة ، يتزوجها غني كبير ، وامرأة تتمنى أن تتزوج ، فلا تجد الزوج ، ما ذنب هذه ؟ هكذا خلقها الله عز وجل ، لو لم يكن هناك دار آخرة تسوى فيها السحابات ، إنسان تمتع بغنى فاحش ، أكل ما لذّ ، وطاب ، وسكن في أجمل البيوت ، وركب أجمل المركبات ، وإنسان يتمنى أن يأكل قطعة لحم في الشهر لا يجدها !

ومن ظن أن الله جل جلاله يضيع على المؤمن عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه الكريم على انكسار أمره ، ويبطله عليه بلا سبب ، والله آلاف الأشخاص ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ :

((إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ : بِرِزْقِهِ ، وَأَجَلِهِ ، وَشَقِيٌّ ، أَوْ سَعِيدٌ ، فَوَاللَّهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ أَو الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ

بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُهَا))

[صحيح البخاري]

هذا حديث صحيح له تفسير دقيق جداً ، لكن يفهمه على ظاهره أن الله أحياناً يضع عبداً مؤمناً أفنى كل عمره في طاعته في النار ، هكذا الجواب : يقول لك : لا يسأل عما يفعل ، شيء جيد ، كيف تتعالم مع إله عظيم ؟ يضع عبده الذي أفنى حياته في طاعته في النار ؟ هذا أيضاً ظن سوء شديد .

من ظن أن الله يضيع على المؤمن عمله الصالح ، كان من الممكن أن يكون معه مائة مليون بقي على راتب محدود ، لأن ذاك الغنى فيه شبهة ، فبقي فقيراً معذبًا كل حياته ، يقول لك : يا ليتني فعلت ، وربحت هذا المال ، ممكن تترك شيئًا لله خوفاً من الله ، وراجياً رحمته ، وأن تندم ؟ يمكن أن تعصيه وتربح ؟ يمكن أن تطيعه وتخسر ؟ أهكذا ظنك بالله ؟ تطيعه فتكسب ؟ وقالوا :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص : 57)

كم من إنسان يتوهم الآن أنه إذا استقام تماماً تضيع تجارته ، أو يخسر منصبه ؟ كم من إنسان يتوهم أن في طاعة الله خسارة كبيرة في الدنيا ؟ كم من فتاة تتوهم أنها كلما تبرجت تزوجت ، وكلما تحجبت كسدت ؟ أي إنسان يتوهم أنه إذا أطاع الله خسر ، وإذا عصاه ربح إيمانه صفر .

كم من إنسان يتوهم أنه إذا أظهر إعلانا وفيه امرأة شبه عارية يربح ؟ أما إذا التزم بشرع الله يخسر ؟

أي إنسان يتوهم أنه إذا أكل الربا يربح ، فإذا تعفف عنه يخسر ؟ هكذا ، مسلمون في الظاهر ، وفي زيهم ، وفي حضورهم المساجد ، أما في تعاملهم اليومي فليسوا مسلمين :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص : 57)

ومن ظن أن الله يعاقبه بما لا صنيع له ، يقول : سبحان الله ! أنت تظن أنه سيقول لك شيئًا يقشعر منه الجلد ، فإذا به يقول : الرحمة خاصة ، والبلاء يعم ، هذا الذي تفوهت به ؟

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ : 17)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : 97)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

(سورة طه : 124)

يقول : سبحان الله يسبح الله ، وأنه يعاقبه بما لا صنيع له به ، ولا اختيار له ، يقول : هكذا يريد الله ، كله شغل سيدك ، قضاء وقدر ، لا تعترض فتنطرد ، كله كلام باطل ، من ظن أن الله خلقه كافراً ، أو أن إنسانًا خلقه الله كافراً ، ثم أودعه في جهنم إلى أبد الآبدين ، من ظن أن في جيناته انحرافاً

فقد انحرف ، ثم عاقبه الله على هذا الانحراف ، حسب زعم الإنسان ، هذا الانحراف من هذه الجينات ، وهذه الجينات من خلق الله عز وجل ، كل أوروبا ، وأمريكا تعتقد أن المنحرف جنسياً في جيناته خطأ ، وتركيبة خاصة ، لا .

آخر حدث علمي ، أعلن أن الجينات لا علاقة لها بالسلوك أبداً ، مقبول عندك أن الله يركب الإنسان تركيبة فيها انحراف ، ثم يحاسبه على هذا الانحراف ؟! يقول : الله قبض قبضتين ؛ قبضة إلى الجنة ، ولا أبالي ، وقبضة إلى النار ، ولا أبالي .

مدير مدرسة جمع الطلاب أول يوم من العام الدراسي ، قرأ أسماء الراسبين في آخر العام ، وأسماء الناجحين ، واذهبوا وادرسوا ! أصبحت الدراسة لا طعم لها ، كل من يتوهم هذا يسيء الظن بالله عز وجل .

من ظن أن الله يؤيد أعداءه الكاذبين بالمعجزات ، يقول : أنزلوا المطر عن طريق الطائرات ، كل شيء عظيم خارق يعزى إليهم ! وقد ضربوا في عقر دارهم ، رأيتم قبل يومين ، أين ذكاؤهم ، وأمنهم، ودرعهم الصاروخي ؟ أين أصبح هذا ؟ من ظن أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين بالمعجزات التي يؤيد بها أنبيائه ورسله ، ويجريها على أيديهم ، يضلون بها عباده ، فقد ظن بالله ظن السوء ، معقول الله عز وجل أن يعطي للكافر معجزات خارقة يستوي بها مع النبي ؟

الآن هناك فكرة أخطر في هذا الموضوع قال : من ظن أنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته ، واحد كل عمره قيام ليل ، وصوم ، وإنفاق ، وغض بصر ، ووضعه في جهنم ، هكذا يريد الله .

من ظن أنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته ، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين ، وينعم على من استنفذ عمره في عداوته ، وعداوة أنبيائه ، ورسله ، ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين ، الله عز وجل واحد استنفذ كل عمره في المعصية ، ووضعه في الجنة ! وآخر أمضى كل عمره في طاعة الله فوضعه في النار ! وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء ، ما دام ورد نص يا أخي هكذا ورد .

ولا يعرف امتناع أحدهما وقوع الآخر إلا بخبر صادق ، هكذا النص .

ما دام ورد النص فقد عطل عقله نهائياً ، أنت يمكن أن تكون بأمريكا تدخل إلى أضخم دار نشر ، تجد كتاب الأطلس حضّره ثمانية وسبعون دكتوراً ، من أضخم دار نشر ، ثمنه عشرات الألوف ، فتحت على الشرق الأوسط ، وجدت دمشق فوق بيوت على البحر ! هذا صحيح إذًا ، أي صحة هذه ؟ لو تجد مليون دكتور لا تصدقهم ، أنت ابن الشام ، وهي مدينة داخلية ، أحياناً الواقع أقوى من أي نص ، طبعاً لا يمكن أن يكون النص الصحيح خلاف الواقع ، النص من عند الله ، الواقع خلقه ، والنص وحيه ، لكن لو كان النص مكذوبًا أو موضوعًا أو ضعيفًا ، وتوهمت أنه صحيح ، فصدقت

هذا النص ، وتخليت عن قناعتك الكبرى ألاّ تعرف الله ، أي خلقه كافرًا ، وقدر عليه جهنم إلى أبد الآبدين ، هكذا ورد .

خاتمة :

إذا كنت لا تستطيع أن تميز ، بينما يجوز ، وبينما لا يجوز ، فأنت لا تعرف الله ، الموضوع طويل ، وإن شاء الله نتابع هذا الموضوع في درس قادم ، هذا الدرس مهم جداً ، العقيدة أهم شيء في الدين ، وأهم ما في العقيدة حسن الظن بالله ، وحسن الظن بالله ثمن الجنة ، ويريحك ، ويملأ قلبك ثقة وطمأنينة، وتفهم الأمور فهماً عميقاً ، لكن من دون حسن ظن بالله يرتعد قلبك خوفاً مما تسمع ، ومما يتوعد به المتوعدون .

أنا عبد لله ، والله لا يتخلى عني ، ولا يسلمني إلى أعدائي .

الأسئلة :

س : كيف نجمع بين قول الله عز وجل لا إكراه في الدين ، وبين إكراه أهل الكتاب على دفع الجزية ؟

ج : الحقيقة الجهاد فريضة على كل مسلم ، بل هو ذروة سنام الإسلام فهذا الذي يعيش في كنف المسلمين لا يمكن أن يجاهد معهم ، لأن الجهاد أساسه العقيدة الصحيحة ، إذاً هو معفى من الجهاد ، وما دام معفى من الجهاد فعليه بدل نقدي ، هذه هي الجزية كلها ، ما دام هذا الكتابي معفى من الجهاد ، والجهاد فرض عين ما عليه إلا أن يدفع البدل النقدي نظير إعفائه من الجهاد وحماية المسلمين له ، أما نحميه ، وهو آمن مطمئن ، ومرتاح في بيته ، والمسلمون يقاتلون بلا ثمن ، فهذا لا يصح ، بالضبط كالبدل النقدي ، هذا لا علاقة له بالإكراه ، الإسلام سمح لأهل الكتاب أن يبقوا على دينهم ، لكن حروب المسلمين حروب عقائدية ، لا تقبل إلا صاحب عقيدة سليمة ، إذاً هو معفى من حروب الفتوحات طبعاً ، وفي الجهاد في سبيل الله ، أما الحروب الدفاعية فهذا موضوع ثان ، لكن حروب الفتوحات تحتاج إلى إنسان يحمل رسالة إسلامية معينة.

إذاً هو لا يحارب إلا بعقيدة صحيحة ، فإذا أعفيناه من القتال نأمره بدفع الجزية فقط.

س : كيف يأتي المسلمين نصرُ الله ، وهم بهذه الحال ؟

ج : إذا كانوا بحال فيها معصية ، وضعف عقيدة ، وإيمان ، فالنصر أبعد عنهم كبعد السماء عن الأرض ، أما إذا صحت عقيدتهم ، وأعدوا لعدوهم العدة المتاحة ، عندئذ تتحقق قوانين الله عز وجل فينصرهم ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة الأنفال : 10)

النصر محصور قطعاً بيد الله ، لكن هذا النصر له قوانين .

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد : الآية 7)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(43-60): تفسير الآية 154 ، حسن الظن بالله (2)

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-09-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والخمسين بعد المائة .

أيها الإخوة الكرام : بدأنا في الدرس الماضي بتفصيل معنى :

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران : الآية 154)

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ

1 ـ ظن السوء بالله خطرٌ على عقيدة المؤمن :

وقد بينت من قبل أن الله سبحانه وتعالى ذكر المعاصي والآثام فسلسلها تسلسلاً تصاعدياً ، بدأ بالفحشاء، والمنكر ، والإثم ، والعدوان ، ثم الشرك ، ثم الكفر ، وجعل في أعلى هذه الآثام :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف : 33)

والإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول : " لأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون " .

خطر شديد أن تفسد العقيدة ، وأن تظن بالله غير الحق ظن الجاهلية ، خطر على عقيدتك ، وعلى كيانك ، وعلى سلامتك ، وسعادتك أن تسيء الظن بالله .

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

(سورة الفتح : 6)

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف : 180)

كل أسمائه حسنى ، عدله ، ورحمته مطلقة .

2 ـ الموازنة تكون بين الدنيا والآخرة :

ولكن من أجل أن تفهم الحقيقة لا ينبغي أن توازن بين أمتين ، ولا بين رجلين ، ولا بين عملين ، ولا بين مؤسستين ، إلا أن تضم آخرة كل منهما إلى الآخر .

أوضح مثل : مطعم متواضع جداً دخله محدود ، ومطعم يبيع الخمر ، ودخله غير محدود ، قد تقول : هذا دخله أكبر ، ضم الآخرة إلى صاحب هذا المطعم ، وضم الآخرة إلى صاحب ذاك المطعم ينعكس التوازن ، فأنت لا توازن إلا إذا ضممت الآخرة إلى الأولى .

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص : 79-80)

الموازنة ينبغي أن تكون بين الدنيا والآخرة ، لذلك قد ترى أمة قوية مستعلية متجبرة متكبرة متغطرسة، فيما يبدو للناس تفعل ما تريد ، ينبغي أن تضم آخرة هذه الأمة إن أردت أن توازنها مع أمة مستضعفة فقيرة لكنها تقيم شرع الله عز وجل .

العبرة في الذي يضحك آخرًا ، فلذلك من هذا القبيل أردت أن أتابع الحديث عن سوء الظن بالله عز وجل .

3 ـ الله تعلى عدلٌ في قضائه وأفعاله وأحكامه :

أيها الإخوة ، قال بعض العلماء الأجلاء : " من ظن أن الله أخبر عن نفسه وصفاته ، وأفعاله بما ظاهره باطن ، وترك الحق لم يخبر به ، وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملغزة لن يصرح به ، وصرح دائماً بما يلتبس عليه الناس فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية " .

مثلاً : لو أن نجارًا عنده لوحان من الخشب ، وضع الأول على باب قصر ، ووضع الثاني على باب مرحاض ، ألك عنده دعوى ؟ إن هذين اللوحين ملكه ، يفعل بهما ما يريد ، لكن لو أنك قلت : وضع اللوح النظيف على باب القصر ، ووضع اللوح السيئ على باب المرحاض لكان هذا أقرب إلى قبول النفس بهذه الفكرة ، تقول له : الله عز وجل عدل ، يقول لك : عدله غير عدلي ، ينبغي أن نفهم عدله كما يفهمه جميع الناس ، لا ينبغي أن تصدق أن الذي قاله لا يعنيه ، وإنما يعني غيره ، هناك آيات كثيرة واضحة .

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

يقول : البلاء يعم ، والله عز وجل يقول :

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

تقول لي : البلاء يعم ؟

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : الآية 164)

4 ـ ينبغي أن تفهم النصوص فهماً يليق بكمال الله :

أنت لا ترتاح في إيمانك ، ولا في عبادتك ، ولا في تعبدك مع الله إلا إذا أحسنت الظن به ، لا يعقل أن يعبد العبد ربه على عمره ، ثم يضعه في النار ، والجواب : لا يسأل عما يفعل ، لا يكفي هذا الجواب ، هذا سوء ظن بالله ، الله عز وجل ينمي الخير ويجعله كثيراً ثم يرحم صاحبه ، لا أن الخيّر حقيقة يدفعه إلى النار دون أن يعلم ، هذه ليست من صفات الله ، ولا من أسمائه الحسنى ، يجب أن نحسن الظن بالله عز وجل .

سألني أحد الإخوة الكرام : ما معنى قول النبي الكريم :

((إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ : بِرِزْقِهِ ، وَأَجَلِهِ ، وَشَقِيٌّ ، أَوْ سَعِيدٌ ، فَوَاللَّهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ ، أَوِ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُهَا))

[صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود]

هذا الحديث له رواية في صحيح مسلم عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ))

[صحيح مسلم]

المعنى : أن الذي مصالحه مرتبطة بالمسلمين فنافق لهم ، وعبد الله كما يعبدونه شكلاً لا مضموناً ، وأراد أن يحقق مصالحه معهم فهذا ليس من أهل الجنة ، إنما يعمل بعمل أهل الجنة ، والحديث واضح:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ))

أما إذا خلا بنفسه انتهك حرمات الله ، فعَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا ، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[سنن ابن ماجة]

ينبغي أن تفهم النصوص فهماً يليق بكمال الله .

أضرب لكم أمثلة : يقول الله عز وجل :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة : 13)

لو أن الإنسان غير متمرس في فهم كلام الله ، فهم هذه الآية على ظاهرها ، فهمها فهماً بدائياً .

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

ولكننا لم نشأ ، كان من الممكن أن يهتدي جميع الناس ، ولكن شاء الله أن يكونوا ضالين ، هل تقبل هذا من الله عز وجل ؟ هل تقبل من أب عادي أن يكون خيرُ ابنه بيده ويمنعه ؟ لا ليس هذا هو المعنى .

إنّ العباد حينما ينسبون أخطاءهم إلى الله بدعوى أنهم مجبورون عليها ، كلما رأيت شارب خمر يقول: طاسات معدودة في أماكن محدودة ، الله قدر عليه شرب الخمر ، تجد إنسانًا يأكل المال الحرام يقول : هكذا ترتيبه ، دائماً الإنسان الكافر المنافق يعزو سيئاته إلى الله من باب القضاء والقدر ، فالله رد عليهم: لو شئنا يا عبادي أن نسلبكم اختياركم ، ونلغي تكليفكم ، ونجبركم على عمل ما ، لما أجبرناكم إلا على الهدى ، ولو شئنا أن تكونوا مقهورين أنتم مخيرون ، ما سوى الإنس والجن مسيّر .

(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

(سورة فصلت : الآية 11)

الملك والجماد مسير ، أما الإنسان فمخير .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

أنت مخير ، لو شاء الله أن يأخذ منك اختيارك ، لو شاء الله أن يعطّل هذه الميزة الكبيرة فيك وأراد أن يجبرك على شيء ما ، لو أراد أن يجعلك كبقية المخلوقات مسيراً لما أجبرك إلا على الهدى ، أنت مخير ، لو أراد الله إلغاء اختيارك ، وأن يسيرك لما سيرك إلا إلى الهدى ، هذا المعنى :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

ليس معنى ذلك أن الله لم يشأ أن يهدي الناس ، قال تعالى :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود : الآية 119)

حينما تعرف الله عز وجل تفسّر كل الآيات المتشابهة بما يليق بكمال الله عز وجل ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

[مسلم ، وأحمد]

ظاهر الحديث أن الذنب لابد منه ، وإلاّ نهلك ، يجب أن نرتكب الذنوب ، هذا غير مقبول ، لو لم تذنبوا ، أي إذا بلغ مستوى إيمانكم أنكم تذنبون ، ولا تشعرون بذنوبكم ، ولا تتأثرون لها ، ولا تتألمون من فعلها ، ولا تندمون على فعلها ، فأنتم ميتون ، ولذهب الله بكم .

من هو الحي ؟ الذي إذا أذنب لم ينم الليل ، إذا اغتاب راجع نفسه ، إذا تكلم كلمة قاسية راجع نفسه ، واعتذر ، واستغفر ، هذا الذي يشعر بذنبه فيه حياة .

فيا أيها الإخوة ، العبرة أن تفهم كلام الله فهماً يليق بكمال الله .

سيدنا موسى خاطب الله عز وجل :

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ)

(سورة الأعراف الآية 155)

الفتنة لها معنى راق جداً ، الفتنة امتحان ، مجرد الامتحان ، وقد تنجح بالامتحان .

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا)

(سورة طه : الآية 40)

معنى فتناك فتونا أظهرنا حبك للحق ، لمَ لمْ يجامل ؟ قبطي من أهل فرعون ، وآل فرعون مخيفون ، وإنسان آخر مستضعف ، فالشيء الطبيعي في مجتمع فيه تفرقة ، واستكبار ، واستضعاف ، وفيه قوي، وضعيف أن تكون مع القوي من أجل أن ترتاح ، وهذا ما يفعله العالم كله اليوم ، كل العالم مع القوي كي يرتاح ، الذي يملك سلاح نووي قال : أنا أتعاون بلا حدود ، ومع ذك خاف ، فسيدنا موسى مع من وقف ؟ مع الحق ، ومع المظلوم ، ولو كان مضطهداً ، ولم يقف مع القوي لأنه ظالم .

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا)

وكزه موسى فقضى عليه ، ما أراد أن يقتله دفعه ، هكذا شاءت حكمة الله ليخرج من قصر فرعون ، ويتبع سيدنا شعيب .

إذاً : لا ينبغي أن نفهم الآية :

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنْ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا)

(سورة طه : الآية 40)

أجبرناك على قتل النفس ، لا ، هذا المعنى لا يقبله الله عز وجل .

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف : 28)

مئات الآيات أيها الإخوة ، حينما تعرف الله عز وجل تعرف أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، لا يمكن أن تفسر آية بما لا يليق بكماله ، لابد أن تفسر الآية وفق ما يليق بكماله .

إيّاكم وهذه الظنون :

أيها الإخوة الأكارم :

ـ من ظن أن الله عز وجل حينما قال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7-8)

المقصود العدل المطلق بهذه الآية ، يقول : الله غفور رحيم ، يظن أن هذه الآية لا يعنيها الله عز وجل.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر : الآية 92-93)

ـ يا رب لا تسألنا عن شيء ، يقول : ما هذا الكلام ؟! القصد من هذا الكلام أنه لا ينبغي أن تأخذ كلام الله عز وجل إلا على النحو التالي : أنه إذا قال كلاماً ، المعنى المتبادر إلى ذهنك هو المقصود ، أما عدله فغير عدلنا ، لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، هذه الآيات لها معنى آخر يليق بكماله ، عدله يسكت الألسنة ، فإذا وزعت شيئاً بالعدل ، وقلت : هل من اعتراض ، كلهم صامتون ، أي هناك اعتراض .

ـ أيها الإخوة الأكارم ، الآن من ظن بالله عز وجل خلاف ما وصف به نفسه ، الله عز وجل قال :

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة التغابن : الآية 11)

قال : الله لا يعلم ، ما هذا الكلام ؟ من قال لك : لا يعلم ؟ ألوهيته تقتضي أن يعلم ، لكن علمه علم كشف ، لا علم جبر ، علم الله بما ستفعل لا يتناقض مع اختيارك إطلاقاً أنت مخير .

ـ من ظن بالله خلاف ما وصف به نفسه ووصف به رسله ، رسله عباد مكرمون معصومون منزهون، فالذي يقول مثلاً : إن النبي نظر إلى بيت مفتوح بابه ، فرأى امرأة عارية فعلقت بنفسه ، وقال : سبحان الله ! والقصة لا أصل لها ، لكن وردت في بعض الكتب ، فالله عز وجل بناء على

ذلك زوجه إياها ، وأمر زيداً أن يطلقها ، وأمر النبي أن يتزوجها ، القصة وقعت ، لكن لا لهذا التفسير ، أراد الله عز وجل أن يلغي التبني إلغاءً تاماً ، فكان النبي هو أداة إلغاء التبني ، فينبغي أن تفهم أفعال الرسل .

ـ عبس وتولى ينبغي ؛ أن تفهمها بما يليق بكمال رسول الله ، الله عز وجل في هذه الآية يعتب له ، ولا يعتب عليه ، ليس هناك حكم شرعي خالفه النبي إطلاقاً ، لكنه اجتهد واختار الأصعب ، بدل من أن يجلس مع ابن أم مكتوم هو الصحابي المحب الجليل جلس مع أهل العناد ، والكفر ، والضلال ، وتحمل من غلظتهم ، ووقاحتهم ، ومن ... لعلهم يؤمنون ، فيؤمن من معهم ، هذا اجتهاد النبي ، لكن الله عزوجل يقول له : لا تتعب نفسك معهم لا خير فيهم ، عتب له ولم يعتب عليه .

الأم التي ترى ابنها يسهر حتى الساعة الثالثة ليلاً ، وهو يدرس قد تعنفه .

إن لجسمك عليك حقاً ارتح قليلاً ، إنها تعنفه ، لكنها عاتبة له ، وليست عاتبة عليه ، فرق كبير بين أن تعتب له ، وبين أن تعتب عليه ، هذا النبي الذي تزوج مائة امرأة ، وأحب أن يأخذ أحد زوجة قواده فقال : قدموه ، قدموه لعله يموت ، فيأخذ امرأته ، كي يتم بها المائة ، هذا نبي ؟

))

(وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً)

يُقَالُ لِلمَرْأَةِ نَعْجَةٌ ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا : شَاةٌ

(وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا)

((

[صحيح البخاري]

القصة لها تفسير آخر ، لذلك كتب التفاسير فيها من الإسرائيليات ما هب ودب ، هذه ينبغي أن تنقى من هذه القصص الباطلة ، التي استعان بها المفسرون كي يوضحوا بعض الآيات ، لكنهم في كثير من الأحيان جانبوا الصواب .

ـ أيها الإخوة ، من ظن به بخلاف ما وصف به نفسه ، الله قال :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية : 180)

كيف تفهم الجبار ؟ المنتقم ، المتكبر ، ينبغي أن ترى أن اسم الجبار غاية في الكمال ، واسم المنتقم ، والمتكبر غاية في الكمال ، ينبغي أن تفهم أسماء الله الحسنى ، أو أن تفهم أسماء الله فهماً يليق بكماله ، لا أن تفهمها فهماً أرضياً .

الله عزوجل يعاقب المجرم ليردعه عن إجرامه ، هذا هو المؤمن ، والمتكبر أنبأك أنه كريم ، وعظيم ، وقوي ، فاعتمد عليه ، وثق ، به وهكذا .

ـ قال : ومن ظن أن أحداً يشفع عنده من دون إذنه ، توجد قصص كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان .

أحد أتباع الشيوخ مات ، ودفن ، ثم جاء ملكان ليسألاه ، فتلقيا رفسة من شيخه ، فدفعا بها إلى خارج القبر ، وقال لهم : أمثل هذا يُسأل ؟ شيء جيد والله ! أنا لا أقبض القصة تتناقض مع كلام الله ، ومع كلام رسول الله ، فعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ :

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ : اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ))

[سنن أبي داود]

عنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَقُولُ :

((إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ يَشُكُّ عُمَرُ ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ ، وَيَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ ...))

[صحيح البخاري]

ـ ومن ظن أن أحداً يشفع عنده من دون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط ، فقد ظن بالله ظن السوء ، لأن هذا الوسيط لا يعلم أحوال هذا المؤمن ، أما الله عز وجل فيعلم كل أحواله ، يعلم سره وجهره ، ليس بينك وبين الله وسيط ، لذلك حينما قال الله عز وجل :

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة : الآية 219)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

(سورة البقرة : الآية 222)

أكثر من عشر آيات يسألونك قل ، إلا في آية واحدة :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة : الآية 186)

لا يوجد : فقل ، فهم العلماء من هذه الآية الوحيدة أنه ليس بين العباد وبين الله وسيط ، الشيخ له مهمة أخرى يبين ، ويقرب ، لكن ليس وسيطاً بينك وبين الله مسرّع .

أنت راكب دراجة تحتاج إلى جهد أمسكت بمركبة ، فقادتك هذه المركبة إلى سرعة أعلى بكثير ، مسرع معين مقرب إلى الله ، أما أن يكون وسيطاً بينك وبين الله فليس بين العباد وبين الله وسيط ، لذلك ما هذه البدعة التي انتشرت ؟ امرأة تطلب ممن تدرسها أن تبيت لها استخارة ، هذه لم ترد في السنة إطلاقاً ، ما ورد في السنة إطلاقاً أن يستخير أحد عن أحد ، أنت مسلم ، صلِّ ركعتين وادع دعاء الاستخارة ، وليس بينك وبين الله حجاب .

ـ ومن ظن أن الله نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليهم ، ويتوسلون بهم إليه ، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه ، فيدعونهم ، ويخافونهم ، ويرجونهم فقد ظن بالله ظن السوء ، ليس بينك وبين الله وسيط ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ الْوُضُوءِ ، وَلَأَخَّرْتُ الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِ اللَّيْلِ ، فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ))

[مسند الإمام أحمد]

إن تاريخ الصحابة لا يذكر أن أحداً فداه النبي بأبيه وأمه إلا سعداً ، عن عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ

((مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفَدِّي رَجُلًا بَعْدَ سَعْدٍ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ : ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي))

[صحيح البخاري]

وما سجّل تاريخ الصحابة أن صحابياً كان يداعبه النبي أشد مداعبة من شدة محبته إليه كسيدنا سعد ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :

((أَقْبَلَ سَعْدٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَذَا خَالِي ، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ))

[سنن الترمذي]

لما توفي النبي عليه الصلاة والسلام لقيه عمر ، دققوا ، قال : << يا سعد ، لا يغرنك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم له >> .

هكذا ينبغي أن نؤمن ، يجب أن تكون مع المؤمنين ، أن تكون مع الصادقين ، أن تكون مع جماعة المؤمنين ، أن تحب الذي يعلمك ، وتقدره ، هذا كله مطلوب ، لا أن تعبده من دون الله ، وتجعله وسيطاً بينك وبين الله ، هذا يسرع يقوي الإيمان يبين ، إن أحببته شعرت أنك قريب من الله ، هذا كله صحيح ، لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ، ويدلك على الله مقاله ، هذا كله صحيح ، لا أن تعبده من دون الله ، لماذا أهلك الله بني إسرائيل ؟ قال :

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة التوبة : الآية 31)

هذا كله في أصل العقيدة مهم جداً ، ليس بينك وبين الله وسيط ، كلنا عند الله سواسية ، ادعوه مباشرة ، لأنك إذا جعلت بينك وبين الله وسيط ، هذا الوسيط لا يراك في بيتك ، ولا في عملك .

من مقتضيات التوحيد : الطاعة في المعروف :

هؤلاء الذين يقيمون لأنفسهم هالة كبيرة جداً ، هذه الهالة من أخطارها أنك إن كنت في بيتك وفي عملك ، والشيخ لا يراك يمكن أن تؤذي ، وأن تعصي ، مادام الشيخ راضياً عنك فأنت في حرز

حريز، هذه عقيدة فاسدة ، لو أنك التقيت برسول الله صلى الله عليه وسلم وسألته سؤالاً ، أو استفتيته فتيا ، فأخذت من فمه الشريف فتوى لصالحك ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله .

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[صحيح البخاري]

أرأيت إلى التوحيد ، هذا هو التوحيد ، ينبغي أن تحب الصالحين ، وتجلس في مجالسهم ، ينبغي أن تكون ودوداً لهم ، وأن تكون في خدمة الحق ، ينبغي أن تحبهم ، لا أن تعبدهم من دون الله ، لا أن ترضيهم ، وتسخط الله ، لا أن تنفذ تعليماتهم فيما لا يرضي الله ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أمر النبي عليه الصلاة والسلام على بعض الأنصار أنصارياً في سرية ، هذا الأنصاري فيما تروي كتب السيرة أنه كان ذو دعابة ، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً ، فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ، فَغَضِبَ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا ، فَجَمَعُوا ، فَقَالَ : أَوْقِدُوا نَارًا ، فَأَوْقَدُوهَا ، فَقَالَ : ادْخُلُوهَا ، فَهَمُّوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا ، وَيَقُولُونَ : فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النَّارِ ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[متفق عليه]

مهما كان الإثم كبيرا ، لو أمرك بمعصية لا ينبغي أن تنصاع له ، لا ينبغي أن تنصاع لأمر من أي شخص كائن من كان إذا كان الأمر لا يرضي الله ، إذا كان الأمر في قطعة رحم أو في إساءة لمخلوق، ينبغي ألا تطيعه ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

سيدنا الصديق : ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر ، ومع ذلك ماذا قال ؟ قال : << أطيعوني ما أطعت الله فيكم ـ أي راقبوني ـ فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم ، بيني وبينكم كتاب الله وسنة رسول الله ، مادمت على الحق فأطيعوني ، فإن خرجت عنه فلا تطيعوني >> ، هذا أعظم إنسان بعد رسول الله .

<< والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك سيوفنا >> ، قالها أعرابي لسيدنا عمر على المنبر ، قال : << والله لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها >> .

قالت أم عائشة : << قومي فاشكري رسول الله ـ بعد أن برأها القرآن من حديث الإفك ـ فقالت : والله لا أقوم إلا بالله بحضرة النبي >> ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((عرفت الحق بأهله))

[ورد في الأثر]

هذا التوحيد ، تعبد إلهاً واحداً ، وما سواه تحبهم جميعاً ، وتتأدب معهم جميعاً وتخدمهم ولا تعبدهم من دون الله .

إخواننا الكرام : ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة ، والرهبة ، وتضرع إليه ، وسأله ، واستعان به، وتوكل عليه أنه يخيبه ، ولا يعطيه ما سأله فقد ظن به ظن السوء .

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تلجأ إليه ، وتتضرع إليه ، وتسأله مخلصاً من خير الدنيا والآخرة ، ثم يخيبك مستحيل .

لو أن أخاً دعا لأخيه ، وهو يعوده ، يقول : اللهم اشفه ، رب العرش العظيم اشفه ، اشفِ عبدك فلانًا ، إلا شفاه الله تعالى ، أرأيت إلى هذا التوجيه النبوي ؟

ـ لذلك من ظن أنه إذا صدقه في الرغبة ، والرهبة ، وتضرع إليه ، وسأله ، واستعان به ، وتوكل عليه أنه يخيبه ، ولا يعطيه ما سأله فقد ظن به ظن السوء وظن به خلاف ما هو أهله .

نفسُك هي أحقُّ بسوء الظن :

أيها الإخوة الكرام ، وليظن المرء السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين ، وأرحم الراحمين .

وأنا أنصح إخوتي ، وانصح نفسي قبلهم ، والله إذا جاء شيء تكرهه فأسئ الظن بنفسك ، هناك مشكلة، أو تقصير ، لا تتهم الله في عدله ، أسئ الظن بنفسك .

والآن أيها الإخوة ، كلكم تسمعون ما يجري في العالم الإسلامي ، هم على شفا جرف .

أقول لكم من أعماقي والله : وأضرب مثلا قبل أن أذكر الحقيقة : أنشأ مهندس بناء ، هذه الشرفة فيها تشققات ، ماذا نفعل بها ؟ أنبقيها ؟ فقد تنهار بأصحابها ، أفنهدمها ؟ قد تكون جيدة ، مثلاً ، قال : نأتي ببراميل ماء ، ونملأها ماء ، ونضعها بهذه الشرفة ، فإذا وقعت فلا خير فيها ، وإن صمدت فهي جيدة ، هؤلاء الذين يحسبون مسلمين ليسوا كذلك ، هم يزعمون أنهم مسلمون ، وهم مليار ومائتا مليون ، وقد حدثني عالم جليل والله من فمه إلى أذني يشهد الله كنا في دعوة ، قال : ذهبت إلى بلد إسلامي في أوروبا ، وهو من هناك ، ودخل إلى أكبر مساجدها ليلقي خطبة ، ألقى خطبة رائعة جداً ، فما ملك المستمعون أنفسهم إلا بكوا ، ومن شدة تأثرهم ، وبكائهم أخرجوا زجاجات خمر من جيوبهم فشربوها ! لأنهم تأثروا بهذه الخطبة ، هؤلاء المسلمون في دول إسلامية كثيرة في آسيا يشربون (الفوتكا)وكأنها ماء ، وهي محرمة .

مفتي البوسنة في لقاء إذاعي قال : إخوتنا في المشرق لا يعتبوا على الله من أجلنا ، إننا لسنا مسلمين نأكل الربا ونشر بالخمر .... بعد هذه المحنة الشديدة أصبحنا مسلمين .

لذلك إذا رأيت شدة من جهة قوية ينبغي أن تظن أن هناك تأديباً إلهياً ، فما لم نعد إلى ديننا، وإلى قرآننا، وما لم نضبط بيوتنا ، ونربي أولادنا ، وما لم نحرر دخلنا ، وما لم نتقن إنفاقه فيما شرع الله فنحن أمام امتحان صعب .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

لابد من امتحان لإظهار حقيقة النفس :

ذكرت من مدة رأيت قطعة ماس باستنبول ، ثمنها مائة وخمسون مليون دولار ! أصلها فحم من شدة الضغط ، والحرارة أصبحت ماساً ، فالضغط الشديد أحياناً نتألق به ، نحن متعلقون بالدنيا ، نريد أن نستريح ، ونستجم ، ونأكل ، ونجلس في أماكن جميلة ، ونتزوج أجمل النساء ، أن يكون لنا أولاد أذكياء نجباء متفوقون فقط ، نحن لا نحمل رسالة أبداً ، لا نحمل هم المسلمين ، لا نريد أن نؤدي شيئاً إلى العالم الآخر ، فنحن الآن الله يمتحننا امتحاناً شديداً ، وسيوف مسلطة علينا جميعاً في شتى بقاع الأرض ، فلابد من أن يكون هذا إنذاراً لنا ، إما أن تصطلحوا معي ، وإلا فأمامكم يوم صعب .

فلا رحب القصور غدا باق لساكنـها ولا ضيق الخصـــاص

وأنت أيها المسلم كما عهدتك لا تبالي بغير مظاهر العبث الرخاص

أي عملية تحميل ، ينبغي أن تقبل هذا الامتحان الصعب ، والله ليس إلا الله .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : الآية 10)

دخلت مرة إلى مسجد آية بحجم كبير جداً :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : الآية 10)

شيء مريح ، الأمر بيد الله وحده ، ذكرت آية اليوم ، والله كأنني أقرأها أول مرة في حياتي والله وكأنها أنزلت لتوها :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

(سورة آل عمران)

خاتمة :

ألم يقل لنا الناس عبر وسائل الإعلام كلها ، والمحطات الفضائية ، واللقاءات ، ووكالات الأنباء ، والتصريحات ، والمناقشات ، ألم يقولوا لنا : إن الناس قد جمعوا لكم ؟ كم حاملة طائرات توجهت نحو الشرق الأوسط ؟ ومائة طائرة توجهت إلى القواعد هنا وهناك ، من أجل أن تشن عدواناً قوياً على بلاد المسلمين .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(174)إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

يخوف الناس من أولياءه .

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

هاتان الآيتان الآن تغطيان وضع المسلمين ، كن كما يحب الله ، عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، عبدي أنت تريد ، وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد ، وحّد ، اقرأ آيات التوحيد :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف : الآية 84)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر : الآية 62)

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف : الآية 54)

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس الآية : 24)

(فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

(سورة الحشر : الآية 2)

اقرأ القرآن ، كما أن العسل شفاء للأبدان ، القرآن شفاء للنفوس ، والله إن قرأت آية ، وفهمتها فهماً عميقاً ألقت في قلبك أمناً وسلاماً لو وزعت على أهل بلد لكفتهم ! لكن لابد من عودة إلى الله ، ومن صلح معه ، لابد من مراجعة الحسابات ، لابد من ضبط البيوت ، لابد من ضبط الدخل ، وضبط العين، تجلس حتى منتصف الليل ، تتابع أعمالا فنية ساقطة ، كلها مثيرة جنسياً ، هذا لا يليق بالمؤمن ، ولا بالمسلم ، حينما تنصاع لما يبثونه لك عبر الأقنية الفضائية فأنت عبد لهم ، إذا خوفوك تخاف منهم ، أما إذا كنت حراً لا تخاف منهم .

أيها الإخوة ، والله لست متشائماً بل إني متفائلاً ، أذكركم أن كتاب سلمان رشدي هذا الذي وصف بيت أهل النبي بأوصاف لا تليق بإنسان ساقط ، هذا الكتاب سبّب إسلامَ أربعين ألف بريطاني !

الآن الشيء الدقيق أن الكتب الإسلامية كادت تنفذ في أوروبا ، ما هذا الإسلام ؟ شيء يلفت النظر

حدثني أخ كريم رئيس الجالية الإسلامية في أمريكا ، وهو الآن في الشام ، جاءه اتصال هاتفي أن النساء المحجبات في واشنطن يبدو أن لهم سيرة عطرة ، هناك جمعية فيها خمسة آلاف امرأة أمريكية غير مسلمات ، تضامناً معهم وضعن الحجاب ! يبدو أن هناك نقلة نوعية لصالح المسلمين بالعين المجردة ، ليس هذا الذي حصل لصالح المسلمين ، أما في النهاية فلعل الله عز وجل يسمعنا أخبارا طيبة ، أن هذا الدين سوف ينتشر في العالم كله ، وهذا مصداق قول الله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

(سورة الصف : الآية 9)

ادعوا لإخوانكم أن ينصرهم الله ، وأن يجعل تدمير أعدائهم في تدبيرهم ، وأن يجعل الدائرة تدور عليهم ، يا رب العالمين .

الأسئلة :

س : كيف نوفق بين قوله تعالى :

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال : الآية 25)

مع قوله تعالى :

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

ج : إذا اكتفى الإنسان بنفسه ، أنا ناج ، والناس أحرار ، لا خير فيهم ، ما أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر يصيبه ما أصابهم ، لذلك :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

ما قال : صالحون قال : مصلحون ، فإذا كنت مصلحاً لا تهلك ، أما إذا كنت صالحاً فتهلك .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(44-60): تفسير الآيات 154 - 158
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-09-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الرابعة والخمسين بعد المئة ، وقد شُرح بعضها ، ووقفنا في ثنايا قوله سبحانه :

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران : 154)

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُم

يقول الله عز وجل في مطلع هذه الآية :

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران : 154)

1 ـ الأمن والخوف مرتبطان بطاعة الله :

فالذي أطاع رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألقى الله في قلبه الأمن ، والذي لم يطع رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألقى الله في قلبه الخوف ، إذاً الأمن والخوف متعلقان بطاعة الله عز وجل ، ألم يقل الله عز وجل :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : 173 - 174)

ثم يقول الله عز وجل :

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 175)

إن خفت من الله لن تخاف من عبيده ، وإن لم تخف منه أخافك من عبيده ، انخلع قلبك من عبيده .

(وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران : 154)

2 ـ ظن السوء بالله ينعكس سلبا على العقيدة والسلوك :

وقد بينت في درسين سابقين تفاصيل أن تظن بالله غير الحق ، أن تظن أنه لا ينصر رسوله ولا المؤمنين ، يضيع على المؤمن عمله ، ويستوي عنده الذي عصاه ، والذي آمن به ، فهذا كله يعد ظن سوء ، ولو أنه ظنٌّ ليس غير لما كان هناك من مشكلة ، ولكن هذا الظن سيردي صاحبه ، وسيهلكه ، وما من شيء تعتقده خطأ إلا وله انعكاس خطير في سلوكك ، المحاسبة على السلوك ، أن تعتقد عقيدة زائغة ، وأن تتوهم وهماً غير صحيح ، أو أن تتوهم وهماً لا ينبغي ، أن تقول قولا غير صحيح ، وليس هناك وهم صحيح ، أو أن تتوهم وهماً ، هذا له انعكاس خطير في السلوك .

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة آل عمران : 154)

3 ـ اختلاف الصحابة في الخروج للقتال أو البقاء في المدينة :

بعضهم اقترح على النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبقى في المدينة ، ولكن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استجاب لنفر من أصحاب رسول الله الذين أرادوا أن يلقوا العدو خارج المدينة ، فارتدى درعه وخرج، لم شعروا أنهم طلبوا منه شيئاً لعله لا يريده ، فخجلوا ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا سار لم يلتفت ، فخرج ، والتقى بالعدو في أحد ، هؤلاء المنافقون حكى الله قوله فقال :

(هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

4 ـ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ

يعني ما سمع كلامنا ، ولا استجاب لنصحنا .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)

(سورة آل عمران : 154)

الأمر كله لله ، بالمناسبة هنا محل ذكر ، أن الشيء إذا وقع أراده الله ، بصرف النظر عن أن الذي أوقعه كان مريداً ، أو غير مريد ، حكيماً كان ، أو غير حكيم ، صالحاً كان أو طالحاً ، خيراً كان أو مجرماً ، ما دام وقع الذي وقع فقد أراده الله ، هذا نظام التوحيد ، لا يقع شيء في ملكه إلا أراده .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)

هذه الذكرى وحدها أيها الإخوة تجعلك لا تندم أبداً ، ما دام الشيء وقع أراده الله ، لحكمة أعرفها أو لا أعرفها .

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)

لأن النبي خرج إليهم ، والتقى بهم ، ولم يحصل ما يريد من النصر ، الله عز وجل قال :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة آل عمران : 140)

لو أن الله كتب النصر المستمر للمسلمين إلى أبد الآبدين لدخل في الإسلام كل منافقي الأرض ، ولو أنه كتب عليهم ألا لا يتنصروا لانفضَّ عنه كل أهل الأرض ، قال الله :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة آل عمران : 140)

يعني في الحياة الدنيا تارة تنتصر ، وإذا كان هناك خطأ لا تنتصر .

5 - إن لم ننتصر فهناك خلل فينا تجب مراجعته :

الآن محل الإشارة إلى فكرة خطيرة جداً : المؤمن لا يخاف ، وحينما يخاف الله ، ولا يخاف عباده أو عبيده ، يلقى الله في قلبه الأمن ويحفظه ، لكن لو أن إنسانًا فهم هذا الكلام ولم يتعمق به فجاءت ضربت مؤلمة لمجتمع مسلم بعد هذه التهديدات ماذا نقول ؟ نقول : الشيء الذي وقع أراده الله ، ونصر الله يتنزل على المؤمنين الذين يستحقونه ، أما أنصاف المؤمنين ، أما أرباع المؤمنين ، أما أثلاث المؤمنين، أما أخماس المؤمنين ، أما أسداس المؤمنين ، أما أعشار المؤمنين ، أما أصفار المؤمنين فهؤلاء ليسوا أهلاً أن يتنزل عليهم نصر الله ، نقول لهم : راجعوا إيمانكم ، وراجعوا عقيدتكم ، راجعوا توحيدكم ، ثم راجعوا سلوككم ، ودققوا في حركاتكم ، وسكناتكم ، دققوا في بيوتكم ، في متاجركم ، أنا أقول كلامًا أصوليًّا ، إنّ الله عز وجل ينصر الذين آمنوا .

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم : 47)

بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء : 141)

(إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ)

(سورة محمد : 7)

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : 173)

هذه كلها وعود ، وزوال الكون أهون على الله من ألاّ تحقق ، لكن لا تتحقق إلا لمن هو أهل لها ، هؤلاء الذين أهمتهم أنفسهم :

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

يعنون أن النبي لم يستمع إلينا ، فكان الذي كان ، إذاً دخلوا كلمة لو ، وكلمة لو تفتح عمل الشيطان .

((فَلاَ تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَ لَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَما شاء فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطانِ))

[أخرجه مسلم عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ]

ولكن هناك لو إيجابية واحدة سمح بها ، إنسان تعامل بالربا ، فألتف الله ماله ، فإذا قال : لو لم أتعامل بالربا لحفظ الله مالي ، هذا كلام صحيح ، إنسان سمح بالاختلاط في بيته ، فخانته زوجته ، فإذا قال : لو لم أسمح لم تخنِي زوجتي ، هذا كلام صحيح ، هذا سماها العلماء لو الإيجابية ، وهي مسموح بها .

(يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)

جاء الجواب الإلهي :

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا)

(سورة آل عمران : 154)

الجواب الإلهي : كل شيء بقضاء وقَدَرٍ :

لو أنه استمع إلينا ، ونفذ نصحنا :

(يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة آل عمران : 154)

هناك قصة رمزية ، إنسان سيسافر إلى بلد بعيد بالطائرة ، أمه رأت في المنام أن هذه الطائرة سوف تحترق ، وتسقط ، لذلك تعمدت ألا توقظه في الوقت المناسب ، وعدته أن توقظه ، ولم توقظه ليسلم من هذا الحادث الأليم ، بعد أن مضى بعض من النهار دخلت إلى غرفته فرأته ميتًا ، أرادت أن تخلصه من موت محقق بالطائرة فمات في فراشه ، لذلك قطع الله عز وجل سلطان البشر عن الرزق والأجل ، من هنا نقول : كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً.

سيدنا خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ مات على فراشه ، قال : << خضت مئة معركة ، وما في جسمي موضع إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وها أنا أموت على فراش كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء >> .

(يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

(سورة آل عمران : 154)

إذاً : أمضينا درسين بفضل الله تعالى في الظن السوء ، وظن السوء يقود إلى الكفر ، وظن السوء يردي الإنسان ، والمؤمن يحسن الظن بالله عز وجل ، والمؤمن يحسن الظن بالله ، وبأوليائه ، من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، لذلك حينما توقن أن الله حكيم فلا تقع في حيرة من أمرك ، حينما تسمع أخباراً مخيفة ، لحكمة أرادها الله " ليبتلي " ليمتحن :

(وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)

أي ليطهركم .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

إنّ الله يعلم ، وأنت لا تعلم ، قال بعض الصحابة : علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

(يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ)

(سورة الأنعام : 3)

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه : 7)

الذي خفي عنك يعلمه الله عز وجل ، والدليل :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ)

(سورة آل عمران : 179)

لابد من امتحان للفرز والتمحيص:

لا بد أن يمتحن الله عز وجل ، ومع الامتحان يكون الفرز ، الهجرة امتحان وفرز ، حديث الإسراء والمعراج الذي أخبر النبي به أصحابه امتحان وفرز ، بعض من كان مع النبي ارتد عن الإسلام ، غير معقول ، أن يذهب إلى بيت المقدس ، وأن يصعد إلى السماء ، وفراشه ساخن ، فبعض الأحاديث هي امتحان وفرز ، والهجرة امتحان وفرز ، ومعركة الخندق امتحان وفرز ، قال تعالى :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ(10)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : 10 - 11)

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : 11)

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة الأحزاب : 12)

لابد أن يكون المؤمن واثقا في نصر الله له :

والله في هذه الأيام العصيبة هناك من يقول : انتهى الإسلام ، الآن معركة ضد جميع المسلمين في العالم ، والطرف القوي لا يرحم ، قوي جداً معه من أنواع الأسلحة الذرية ، والنووية ، والكيمائية ، والجرثومية ، وما إلى ذلك ، والمسلمون ضعاف ، عزل ، فقراء ، عندهم جفاف ، هكذا نستمع ، هذا الذي إيمانه ضعيف يقول : انتهى الإسلام .

سراقة حينما اتبع النبي ليقتله ، ولينال مئة ناقة كجائزة ، قال له النبي الكريم ، والنبي مطارد ، وقد أهدر دمه ، وقد وضع لمن يأتي به مئة ناقة ، جائزة قال له :

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

[ورد في الأثر]

ما هذا الكلام ؟ إنسان مطارد ، مهدور دمه ، لعل يقتل بين ساعة أو أخرى ،

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

كأنه يقول : أنا سأصل المدينة ، وسأنشأ دولة ، وستحارب هذه الدولة أضخم دولة في العالم ، وسوف ننتصر عليها ، وسوف نأتي بكنوزها ، ويا سراقة الذي تتبعني لتقتلني ،

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

ما معنى ذلك ؟ أن النبي عليه الصلاة والسلام واثق من نصر الله له ، وكذلك المؤمن ، المؤمن لا يخضع لتضليلات الغرب ، الإعلام الغربي يضلل ، ويغسل الأدمغة ، ويخيف ، ويملأ القلوب خوفاً ، كي نعقد ، كي نستلم ، كي نبقى سوق لهم كي يغتنوا عن طريقنا ، ولكن المؤمن لا يخاف إلا من الله .

دقق مرة ثانية بقدر خوفك الله فأنت موحد ، وبقدر خوفك من خلقه فأنت مشرك .

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 175)

يعني علامة إيمانكم أنكم تخافونني ولا تخافونهم ، فإذا خفتوهم ، ولم تخافوني ، فهذا دليل الشرك .

1 ـ الله يعاتب الذين تولوا في غزوة أحد :

ثم يقول الله عز وجل :

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : 155)

الشيطان ، كما قال الله عز وجل :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر : 42)

2 ـ الشيطان يتحيّن أدنى فرصةِ ضعفٍ في الإنسان :

الشيطان كبعض الحشرات يشم رائحة فيأتي ، إن رأى في الإنسان ضعفاً ، حباً للدنيا ، تكاسلاً عن عبادة الله ، خوفاً من غير الله ، فبمخالفة بسيطة يأتي ، وحينما يخالف الإنسان أمرَ الله يضعف ، فإذا ضعف تمكن منه الشيطان .

مثلا : تريد أن تصلي السنة والفرض ، يقول لك الشيطان : اترك السنة ، يأتي وقت تترك الفرض ، السنة حصن ، إن رآك متهاونًا في السنة أغراك أن تترك الفرض ، أما إن رآك محافظًا على السنة يئس من أن تتبعه .

3 ـ معنى : اسْتَزَلَّهُمْ

قال :

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

استزلهم الشيطان يعني جعلهم يزلون ، جعلهم يخطئون .

(وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

4 ـ عفو الله عن الذين عصوا في غزو أحد :

هنا إشارة لطيفة إلى أن هؤلاء الذين عصوا أمر النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بماذا صلى النبي عليهم ، عصوا أمر النبي فقتلوا طبعاً ، لماذا صلى عليهم ، قال علماء التفسير : لأنهم عصوا أمراً

تنظيماً ، ولم يعصوا أمراً تشريعاً يعني اجتهد أن النبي أمرنا أن نقف هنا كي ندافع عن المسلمين فلما انتصرنا ، وتوهموا أنهم قد انتصروا نزلوا ، فليس هناك رغبة ، أو نية في إيقاع الأذى بالمؤمنين ، لكنهم عصوا ، وكان من جزاء عصيانهم أن الله لم ينصر مجموع المسلمين .

المسلمون في قارب واحد :

دائماً وأبداً أيها الإخوة نحن في قارب واحد ، هذا كلام بليغ ، والنبي من أحاديثه الرائعة أنه مثل لهذه الحقيقة ، فعن النّعْمَانِ بن بَشِيرٍ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

((مَثَلُ الْقَائمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالمُدْهِنِ فِيهَا كَمثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ في الْبَحْرِ ، فَأَصَابَ بَعْضهمْ أَعْلاَهَا وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الّذِينَ في أَسْفَلِهَا يَصْعَدُونَ فَيَسْتَقُونَ الْمَاءَ فَيَصُبّونَ عَلَى الّذِينَ في أَعْلاَهَا، فَقَالَ الّذِينَ في أعْلاَهَا : لاَ نَدَعُكُمْ تَصْعَدُونَ فَتُؤْذُونَنَا، فَقَالَ الّذِينَ في أَسْفَلِهَا : فَإِنّا نَنْقُبُهَا في أَسْفَلِهَا فَنَسْتَقِي ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ فَمَنَعُوهُمْ نَجَوْا جَمِيعاً ، وإِنْ تَرَكُوهُمْ غَرِقُوا جَمِيعاً))

[رواه الترمذي]

ونحن في قارب واحد ، إذاً : ينبغي أن نتعاون ، وينبغي أن نتناصح ، والطرف الآخر لا تعنيه فئاتنا ، بل يعنيه مجموعنا ، لذلك ينبغي أن نكون متعاونين ، كلما عصى الإنسان ربه دخل الشيطان ، وأغراه بمعصية أكبر .

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

ثم قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا)

(سورة آل عمران : 156)

لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا

1 ـ شنشنةٌ نعرفها من أخزم :

أحيانًا يعمل إنسان عملا صالحًا ، فتأتيه متاعب ، المنافق يشمت به ، نصحتك ألا تفعل هذا ، نصحتك ألا تحضر درساً دينياً ، نصحتك ألا تفعل كذا ، نصحتك ألا تقول هذه الكلمة ، نصحتك ألا تخطب ، ما لك وللناس ، المنافق شأنه أن يشمت ، لذلك من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله

، ومن اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله ، فإذا ألمت بك لا سمح الله ولا قدر مشكلة فإياك أن تشكو همك لكافر ، أول كلمة يقولها لك : ألم أنصحك ألا تفعل هذا .

2 ـ شأن المنافق والكافر الشماتة بالمؤمنين :

أنا أتمنى على كل أخ كريم إذا فعل خيراً ألا يندم ، والله الذي لا إله إلا هو حينما أرى أخاً مؤمناً فعل خيرًا ، ثم ندم أتألم عليه ، أنت لا تعرف الله ، تفعل خيراً وتندم ، تكون عفيفاً وتندم ، تكون ورعاً وتندم، تدع شيئاً حراماً وتندم ، كأنك فعلته ، لذلك قالوا : من غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها، ما قولك برجلٍ في (ألاسكا)، هي بأعلى نقطة في الأرض ، أو بأسترالية ، أو بأخفض نقطة عمل عملاً لا يرضي الله ، وأنت قلت ، وأنت في الشام : والله دبر أمره ، عمل طيبًا ، حينما أقررته على هذا العمل كأنك فعلته ، ومن شهد معصية فأنكرها كان كمن غاب عنها ، شأن الكافر والمنافق أنه يشمتوا المؤمن ، لذلك لا ترِ الطرف آخر منك ضعفاً ، لا تشكُ له همك ، اشكُ همك لمؤمن ، أما الطرف الآخر فكن قوياً أمامه ، تجلد ، تجلد أمامه ، يمكن أن تشكو همك لمؤمن ، أما أن تنهار أمام كافر ، ماذا يفعل معك ؟ يشمت بك ، ويعنفك ، ويلومك ، ويحملك على أن تندم على عمل طيب ، قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا)

3 ـ معنى الضرب في الأرض :

ضربوا في الأرض ، أي سافروا ابتغاء وجه الله ، الإنسان أحياناً يضيق رزقه في بلده ، فيضرب في الأرض ، ويسافر يبتغي الرزق ، أو كانوا في غزوة لنشر الحق ، إن رأيت إنسانًا سافر يبتغي رزق حلالاً ، وقد ضاق به الرزق في بلده فهو ضارب في الأرض .

أهمية الولاء والبراء عند المؤمن :

لكن بالمناسبة ، إذا كنت في بلد مسلم كهذا البلد الطيب ، ولك دخل يكفيك ، وزوجتك وأولادك معك ، وبإمكانك أن تؤدي شعائر الله أداء كاملاً ، وأن يكون ابنك في المسجد ، وأن تسمع الآذان ، من أجل أن ترفع مستوى معيشتك ، من أجل أن ترفع مستوى إنفاقك ، تذهب إلى بلاد الكفر ، وتقيم معهم إقامة دائمة ، وتندمج فيهم ، وتثني عليهم ، وتمدحهم ، وبالمقابل تزدري أمتك ، وتزدري وطنك ، وتضيع مستقبل أبنائك ، وأنت في الأعم الأغلب لست ضامنًا أن يكون ابنك مسلمًا فضلاً عن أن يكون ابن ابنك مسلمًا ، فضلاً عن أن يكون ابن ابْن ابنك مسلمًا ، فهؤلاء ينبغي أن ينتبهوا ،

لذلك الولاء والبراء شيء مهم جداً في الدين ، فينبغي أن توالي المؤمنين ، ولو كانوا فقراء وضعفاء ، وينبغي أن تتبرأ من الكفار والمنافقين ، ولو كانوا أقوياء وأغنياء ، وهؤلاء الأقوياء يتمتعون بحياة راقية جداً في وهم الناس ، فلما أصابهم ما أصابهم انقلبوا وحوشاً .

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(155)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة آل عمران : 155 - 156)

4 - إيّاك من كلمة (لو)فإنها تحرق القلب ، ولا تغيّر من الواقع شيئا :

لذلك أشد حالات الألم حالات الندم ، كلمة(لو)من إنسان غير مؤمن هذه تحرق القلب ، لو فعلت كذا ، لو اشتريت هذا البيت ، لو تزوجت هذه المرأة ، لو لم أرتكب حماقة لكنت كذا وكذا ، قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(156)وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة آل عمران : 156- 157)

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ)

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون

الآن دقق : إذا مات رجل في معركة في سبيل الله ، أو مات في سفر ، وكان مؤمناً ، وكان موحداً ، وكان مخلصاً ، وكان له عمل طيب .

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

1 - معنى : يَجْمَعُون

دقق في كلمة(يجمعون)، الإنسان يتاجر ، يربح ، يشتري بيتًا ، يشتري مركبة ، يتزوج ، يهيئ أموره، بعد مراحل مديدة بالتجارة ينتقل إلى شيء اسمه الجمع ، تجاوز موضوع رزقه ، وموضوع تأمين بيت لأولاده ، وتزويج أولاده ، وتجاوز موضوع طعامه وشرابه ، وموضوع ثيابه ، هذا كل شيء عنده منه ما يكفيه حتى الموت ، يدخل في متاهة الجمع ، يتنافس مع بقية التجار ، أنت كم مئة مليون جمعت هذه السنة ، ثلاثة مئة مليون ، هذا هو الجمع ، والجمع هو الكسب ، والكسب ليس لك

، تحاسب عليه ولا تنتفع به ، من الذي هو لك هو الرزق ، ما هو الرزق الذي أكلته ، والذي لبسته ، والذي تصدقت به :

((وَهَلْ لكَ مِنْ مَالِكَ إلاّ ما تَصَدّقتَ فأمْضَيْتَ ؟ أوْ أكَلْتَ فأفْنَيْتَ ؟ أو لَبست فأبْلَيْتَ ؟))

[رواه الترمذي عن عبد الله بن الشخير عن أبيه]

هذا هو الرزق ، الذي تنتفع به ، تنتفع بجزأين من الدنيا ، وليس له أثر مستقبلي ، أكلت ، الآن إذا واحد عُزم مئة عزيمة ، وكل عزيمة من أرقى أنواع الولائم ، وفي إحدى الليالي آلمه سنه ألماً لا يحتمل، لو أنه استرجع بذاكرته الطعام الذي أكله في الوليمة السابقة ، والتي قبلها ، والتي قبلها ، هل يزول هذا الألم ، أبداً ، هو شيء آني ، ومتاع الدنيا قليل ، والله عز وجل يخبرنا أنْ يا محمد قل لهم : متاع الدنيا قليل ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38)إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التوبة : 38 - 39)

فلذلك :

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

2 ـ جمعت كلَّ شيء من الدنيا ثم ماذا ؟

هؤلاء الذين يجمعون ، بعد أن جمعوا الأموال أين هم ؟ في القبور ، ما بعد هذا المال الكبير الكثير إلا القبر ، لذلك مرة ألقيت درسًا من فضل الله عنونته : ثم ماذا ، جمعت أكبر ثروة في الأرض ، ثم ماذا الموت بعد منها ، ارتقيت إلى أعلى مكانة في الأرض ، ثم ماذا ، الموت جمعت أكثر الناس حولك ، ثم ماذا ، الموت ، الموت ينهي قوة القوي ، وضعف الضعيف ، وغنى الغني ، وفقر الفقير ، وصحة الصحيح ، ومرض المريض ، ووسامة الوسيم ، ودمامة الدميم ، ينهي كل شيء .

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(157)وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران : 157 - 158)

1 ـ لسان حال المسلمين : وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

أيها الإخوة الكرام ، قبل أسبوعين أو أكثر ، بينت أن التكذيب بالآخرة نوعان ، تكذيب قولي ، وتكذيب عملي ، ربما لا تجد مسلمًا في العالم الإسلامي يكذب بالآخرة تكذيباً قولياً ، ولكن والله الذي لا إله إلا هو ، إن معظم المسلمين يكذبون بها تكذيباً عملياً ، كيف ؟ الذي يغش المسلمين ليزداد ربحه ، هل أدخل الآخرة في حسابه ، هل علم أنه سيوقفه الله عز وجل ، ويسأله لمَ فعلت هذا ؟ الذي يفعل المعاصي ، والآثام ، ويأكل الأموال الحرام ، ويعتدي على الأعراض ، ويغتاب الناس ، ويصلي في المسجد ، هذا الذي يسافر فيزني ، يسافر فيشرب الخمر ، وهو من المصلين في المسجد ، هذا هل أدخل في حسابه الآخرة ؟ لذلك أحد العلماء قال كلمة أعجبتني : حينما ألتقي بالمسلمين وكأن لسان حالهم يقول :

(وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة الأنعام : 29)

لا يمكن أن تؤمن أن هناك حساب بالمثاقيل ، وتغتصب هذا البيت ، وتغتصب هذه الأرض ، وتغتصب هذه الشركة ، وتطلق امرأتك طلاقاً تعسفياً ، هذا مستحيل ، لذلك الشيء الخطير ليس التكذيب القولي ، التكذيب العملي .

زرتَ طبيبًا ، ولم تقتنع بعلمه ، لكنك لطيف ، اجتماعي ومهذب ، أديت له الأجرة ، وصافحته ، وأثنيت عليه ، وشددت على يديه ، وأثنيت على علمه ، ولم تشترِ الدواء إطلاقاً ، ولم تعبأ به ، السلوك هو الأصل ، هذا كلام مجاملة ، كلام ذكاء ، أما لأنك لم تشترِ الدواء لأنك لست قانعاً بعلمه ، أنت تكذبه مع أنك تثني عليه .

دققوا في هذه الناحية هذا الذي يأكل المال الحرام ، يغش المسلمين ، وأنواع الغش الآن لا تعد ولا تحصى ، يبيع المواد المحرمة ، يضع المواد المسرطنة الضارة كي يتضاعف ربحه ، يتعامل مع الشيطان من أجل أن يربح ، يعرض النساء كاسيات عاريات كمعلنات على بضاعته ، من أجل أن يربح، هذا لو أنه صلى في المسجد ، لسان حاله يقول :

(وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة الأنعام : 29)

وما عنده إلا الدنيا ، لا تعبأ بالتكذيب القولي ، لا أحد يكذب بالآخرة قولياً ، ولكن انظر إلى عمله ، هذا الذي يسمح لابنته أن تكون في الطريق كاسية عارية ، كاسية ترتدي ثيابًا ضيقة تصف حجم جسمها ، أو ثيابًا رقيقة ، وهي تثير الفتنة في الطريق ، وهي مسلمة ، وأبواها مسلمان ، وأخوها

مسلم ، هذا الذي يسمح لبناته أن يكنّ هكذا ، هذا أدخل في حسابه الآخرة ؟ علم أن هذه الفتاة سوف تقف أمام الله يوم القيامة ، وتقول : يا رب ، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي ، هو سبب فسادي .

هذه الأم المحجبة التي تمشي في الطريق ، وابنتها شبه عارية تمشي إلى جانبها ، لا سلطان عليها أبداً؟ أين التربية والتوجيه ؟ أين تلقين العلم الشرعي ، أين البيت المسلم الذي ضبطها ؟

لذلك أيها الإخوة ، قضية التكذيب بالآخرة قلّمَا تجد في العالم الإسلامي كله واحدًا يقول لك : ليس هناك آخرة ، لا ، لكن لا يعدّ مصدّقاً بالآخرة إلا من كان عمله منسجمًا معها ، وترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام .

عندك مئة ألف ، ومئتا ألف ، وخمسة ملايين ، وهذا الحاضر ، وهي المحاكم ، ما لي لا أعطيك ، هي مشاكل المسلمين ، والله لا تمر جمعة إلا عندي ست أو سبع قضايا مالية ، بين مسلمين كلهم ، وبمئات الآلوف ، وبالملايين ، لا يدفع ما عليه ، يعد نفسه ذكيًّا ، والقانون معه ، وهذا الحاضر ، ثم يأتي بعدها ويقول : أريد حكم الشرع .

لذلك أيها الإخوة ، لعل الله سبحانه وتعالى لا ينصرنا بما نحن في من ضياع ، لعلكم تظنون أن الصلاة وحدها هي الدين ، قم فصل ، إنك لم تصلِ ، لا تستطيع أن تتصل بالله إلا إذا كنت مستقيمًا على أمره ، إلا إذا كنت وقافًا عند حدود الله ، إلا إذا كان دخلك حلالاً ، وإنفاقك حلالاً ، فلذلك :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

2 ـ موتٌ أو قتل ، بعده الرجوع إلى الله وحده :

مرة كنت في بلد إسلامي ، وقرأت قصة عالم جليل ، ألف كتيباً صغيراً عن تقليد الأعاجم ، لغطاء الرأس ، برنيطة ، هذا الرجل منع ارتداء العمامة والثياب الإسلامية ، فلما وُجد هذا الكتاب وُضع صاحبه في السجن ، الكتاب ألف بموافقة الحكومة ، ونشر وطبع بموافقتها ، لكن بعد حين منع هذا الزي ، عكف على كتابة مرافعة ، هذا العالم الجليل وهو في السجن ـ الذي يتكلم هذه القصة من كان معه في السجن ـ عكف على كتابة مرافعة في ثمانين صفحة ، يقول هذا الرجل : في أحد الأيام استيقظ هذا العالم الجليل ، وهو في السجن مستبشراً ، ومزق كل هذه المرافعة ، ماذا فعلت ؟ تكتبها في أسبوعين أو ثلاثة ، قال : رأيت رسول الله ، وقال لي : أنت ضيف عندنا غداً ، ما لي ولها ، في اليوم الثاني قتل ، أعدم ، فإذا كان لك عمل للآخرة فما هذه الدنيا ؟ الشيء الغريب أن الصحابة الكرام كانت أسعد لحظات حياتهم عندما غادروا الدنيا ، الآن أسال طبيب قلب ، أو أسال ركاب طائرة كادت أن تسقط ، تجد الهلع والجزع ، إذا لم يكن للإنسان للآخرة رصيد ينخلع قلبه من ذكر ألفاظ الموت .

حدثني أخ مضيف طائرة من إخواننا ، كان في طائرة حلقت فوق باريس ، ودخلت في سحابة مكهربة، وحطمت مقدمتها ، وتحطمت جهاز الرادار فيها ، وكسر بعض النوافذ ، وكان احتمال

سقوطها 99%، قال لي : دخلت على الركاب وهم يضربون وجوههم ، ويندبون وجوههم ، ويبكون على أولادهم وزوجاتهم ، ويصرخون ، قال له الطيار هدئهم ، قال : ما سمع مني واحد ، فرأى رجلا منهم هادئًا في أحد المقاعد ، فقال : لعل هذا عنده أعصاب قوية ، يهدئهم ، ذهب إليه ، فإذا هو مغمًى عليه ، هذا الوحيد .

العبرة أن يكون لك عمل للآخرة ، بمال دفعته ، بطاعة قدمتها ، بدعوة أقمتها ، بميتم بنيته ، بكتاب ألفته ، بتربية أولاد ، وإذا لم يكن لأحدنا رصيد للآخرة فمشكلته كبيرة ، فملامح الموت ترتعد منها مفاصله ، وينهد كيانه ، على كلمة :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ)

ماذا بعد ذلك ؟ قال :

(لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

3 ـ ساعة الموت أحلى لحظة عند المؤمن الصادق :

دقق في المؤمنين عند موتهم ، أحلى ساعات حياتهم ، النبي قال : الموت عرس المؤمن ، الموت تحفة المؤمن .

مرة ركّبت تركيبًا ، أن واحد قلنا له : أنت فقير جداً ، ائتِ بدكتوراه لتكون أغنى إنسان ، وأرقى إنسان في هذا البلد ، فذهب إلى بلاد الغرب ، اشتغل حارسًا ، اشتغل عاملا في مطعم ، أعمال مهينة ، متعبة ومشقية ، والدخل قليل ، ودرس عشر سنوات ، أخذ دكتوراه ، صدق الشهادة ، صدقها بالخارجية ، وصورها ، وقطع تذكرة عودة ، ودخل إلى المطار ، وأعطي بطاقة الصعود ، ووضع رجل على سلم الطائرة ، انتهى زمن التعب ، زمن الشقاء ، زمن الفقر ، زمن القهر ، هذا كله انتهى الآن ، سيتسلم أعلى منصب في بلده ، سيكون أغنى إنسان ، يسكن أجمل بيت ، وأجمل امرأة ، وأجمل مركبة ، هو مثل تركيبي ، حينما يضع رجل على سلم الطائرة أليست هذه أسعد لحظات حياته ، هذا الموت عند المؤمن ، وكل هذا العمر لهذه الساعة ، يغض بصره ، يضبط لسانه ، ينفق ماله ، يصلي الفجر ، يصلي قيام الليل ، يتحمل متاعب الناس ، وفي سبيل الله يحرم نفسه أشياء محببة جداً ، لكن لا ترضي الله ، والناس يعيشون لشهواتهم ، هذه لا ترضي الله ، قد يأكل طعاماً خشناً ، ويسكن بيتًا بأجرة ، وكان بإمكانه لو مد يده للحرام أن يسكن أجمل بيت ، وأن يركب أجمل مركبة ، لكنه آثر طاعة الله عز وجل، هذا الإنسان إذا جاءه ملك الموت ، أو اقترب منه فهو في أسعد لحظات حياته ، هذا معنى الآية :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

يقول هذا الذي في السجن : ما رأيت في حياتي إنسانًا ـ له كتيب صغير قرأته ـ ما رأيت في حياتي إنسانًا سعيدًا ، مستبشرًا ، ومنطلقًا إلا هذا الإنسان ، مزق المذكرة ثمانين صفحة لم يعد في حاجة إليها ، وفي اليوم الثاني غادر الدنيا إلى الله عز وجل .

كل بطولتك ، كل ذكائك ، كل توفيقك ، أن تعمل عملا إذا جاء ملك الموت تكون أسعد الناس .

حينما وُلدتَ كلّ من حولك يضحك ، وأنت تبكي وحدك ، عند المغادرة كل من حولك يبكي ، إلا حالات نادرة جداً .

مرة ورث أحدهم من عمته مبلغًا بالملايين ، طبعاً الحزن جعله يطيل ذقنه ، ويلبس الأسود ، فجاء صديق له ، وقال له : تهانينا ، ما قال له : عظم الله أجركم ، هو حكى الحقيقة طبعاً ، فمعظم الناس إذا وافته المنية كل من حوله يبكي ، فإذا كان بطلاً يضحك وحده ، لا ينفعك شيء .

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

4 ـ لابد من الإعداد لساعة الحقيقة :

تستطيع كل يوم أن تعد للآخرة ، تدخر عملاً صالحًا ، خدمة إنسان ، إنفاق مال ، أمرًا بالمعروف ، نهيًا عن منكر ، تلبية حاجة إنسان ، إعانة أرملة ، إطعام يتيم ، خدمة إنسان ، تستطيع كل يوم أن تعمل صالحًا ، تدخره عند الله ، فإذا جاء ملك الموت كنت أسعد الناس ، هذه مشكلة المشكلات ، وأخطر حدث على الإطلاق في المستقبل مغادرة الدنيا ، وبحسب منظور الناس من كل شيء إلى لا شيء ، أحدهم عنده سرير نظيف ، عليه ملاءة نظيفة ، ينام مرتاحًا ، وثمة غرفة طعام ، ومطبخ ، وأنواع من الطعام ، أولاده أمامه ، زوجته أمامه ، هل هذا الشيء يستمر على طول ؟ لا ، سوف يأتي يوم يرحم الله المرحوم ، فصار ذكرى ، فإذا كان محسنًا يذكره الناس ، وإلا قال لك : استرحنا منه ، والميت مستريح ومستراح منه .

أنا الذي أراه من هذه الآية :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

أن تجعل كل عملك ، وكل همك للآخرة ، حتى إذا كان اقترب الإنسان من الموت ما ينهار .

والله أيها الإخوة بحسب اطلاعي أرى أناسًا إذا اقتربوا من الموت أصبحوا من الضعف كالأطفال ، الموت حق ، ولا يمكن أن يبقى منا أحد ، كل هذا من في المسجد ، ولكن البطولة أن تحسن مغادرة الدنيا ، أن تغادرها إلى الجنة ، فإذا تمكن الواحد أن يأتيه الموت وهو نقي فقد فاز ، ففي الحديث الشريف القدسي :

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله وولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شدد عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

سيدنا سعد بن الربيع تعقب النبي عقب معركة أحد ، ما عرفوا مصيره ، وكّل صحابي يتفقد حاله ، ذهب إلى ساحة المعركة ، فإذا هو بين القتلى ، لكن فيه رمق ، قال له : يا سعد إن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرني أن أتفقدك ، هل أنت مع الأحياء أم مع الأموات ، قال : إنني مع الأموات ، ولكن ، الآن دقق ، واحد مع الأموات ، وسيغادر الدنيا ، وهو شاب ، قال له : << أبلغ رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السلام ، وقل له : جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل لأصحابه : لا عذر لكم إذا خلص إلى نبيكم ، وفيكم عين تطرف >> ، ما لكم عذر أبداً ، معنى ذلك أنه كان في أسعد أوقات حياته، على الإطلاق ، فنحنا جهدنا وتوفيقنا أن نجعل هذا اليوم الذي لا بد منه بعد أو اقترب أن نجعله أسعد لحظات حياتنا طبعاً باستقامتنا ، ومعرفتنا ، وعملنا الصالح :

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

فإذا قلنا الآن لشخص : ألقينا القبض عليك ، وسوف نسوقك إلى أمك ، أمه كلها رحمة ، لا يخاف إطلاقاً ، ما دام إلى الأم فلا مشكلة حينئذ ، والآية الأولى :

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(157)وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران : 157 - 158)

الأسئلة :

س : لماذا ورد في قوله تعالى :

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(البقرة : الآية 257)

لماذا جاءت الظلمات جمعاً والنور مفرداً .

ج : لأن الظلمات هي الباطل والباطل متعدد ، والنور هو الحق ، والحق لا يتعدد ، الحق طريق مستقيم بين نقطتين لا يمر منه إلا مستقيم واحد ، ضع نقطتين وائتِ بمسطرة ، وارسم خطًّا بينهما ، وارسم خطًّا ثانيًّا بين نقطتين يأتي فوقه ثالث ، ورابع ، وخامس ، ومليون خط ، الحق لا يتعدد ، أما إنه يمكن أن ترسم من نقطتين مليون خط منحنٍ ، مليون خط منكسر ، الباطل هو الانحراف ، عندنا مليون باطل اعتقادي ، مليون باطل سلوكي ، أما الحق فواحد ، لذلك :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام : 153)

" السبل " جمع .

(يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(البقرة : الآية 257)

س : بعضهم يقول : إن مصافحة النساء حرام ، وبعضهم يقول : إنها ليست محرمة ، وبعضهم يقول : إنها مكروهة ، النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

[النسائي ، وابن ماجه ، وأحمد]

ج : مصافحة المرأة محرمة ، وأنا قلت في بلد أجنبي في أمريكيا ، وقد سئلت هذا السؤال فقلت : الملكة(إيليزايت)لا يصافحها إلا سبعة رجال بحسب القانون البريطاني ، لعلو مقامها ، والمرأة المسلمة لا يصافحها إلا سبعة رجال بحكم القانون القرآني لعلو مقامها عند الله عز وجل ، فالمصافحة محرمة بالنصوص الثابتة .

س : ما موقف الإنسان من الموسيقى والغناء ، وهل الاستماع إلى الأغاني حرام ؟ هذا الأخ حديث عهد ، جزاك الله خيراً ، حديث عهد جداً بسلوكه مع الله عز وجل ؟

ج : الغناء حرام قولاً واحداً ، وليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن ، إن أراد التفصيل ففي درس الأحد عن الغناء ، فقد جمعنا فيه كل الأدلة والتفاصيل ، فليرجع إليه .

س : يقول أخ ثالث : إن في آخر الزمان يأتي عليكم رمضان ، أوله يوم جمعة ، ووسطه يوم جمعة ، وآخره يوم جمعة ، ويأتي بعده شوال ، وما أدراكم ما شوال ، يقتل فيه الناس هرجاً ومرجاً ، فإذا كنتم في ذلك الزمان فسددوا قواكم ، وأغلقوا أبوابكم .

أعتقد أن هذا الحديث لا أصل له .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(45-60): تفسير الآية 159، رحمة النبي صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-10-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية التاسعة والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 159)

مقدمة :

أيها الإخوة الكرام ، لابد من تمهيد لهذه الآية ، النبي عليه الصلاة والسلام بين للناس ما نزل إليه ، الأحكام الكلية التي جاءت في القرآن الكريم بينها النبي عليه الصلاة و السلام و فصلها، هذه سنته ، من سنته أقواله ، ومن سنته أفعاله ، و من سنته إقراره ، و لكن كيف عامل أصحابه ؟ كيف عامل من حوله؟ كيف دعا إلى الله ؟ و كيف كان سلوك النبي مع من دعاهم إلى الله ؟ هذه سنة تربوية ، أي عالم من بعده تبعه في سنته التربوية نجح و أفلح ، و أي داعية إلى الله خالف سنته التربوية أثار حوله جدلاً كثيراً ، إذاً الدعاة إلى الله في شتى أقطار المسلمين ينجحون و يتفوقون و يفلحون إذا اتبعوا سنة النبي التربوية ، كيف دعا أصحابه ، وكيف عاملهم ؟ فكل داعية لا يفلح ، ولا ينجح ، ولا يلتف الناس حوله إلا إذا قلد النبي في أصول دعوته ، فقضية الأحكام الشرعية شيء آخر ، قضية بيان النبي عليه الصلاة والسلام لكليات القرآن ، قال تعالى :

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل : الآية 44)

شيء آخر ، لكن كيف عاملهم ؟ منعهم أن يسألوا ، صادر شخصياتهم ، استعلى عليهم ، سخرهم لصالحه ، كيف عاملهم ؟ هذه الآية أيها الإخوة إحدى الآيات التي تبين أصول الدعوة إلى الله ، يقول الله عز وجل :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

1 ـ لين النبي لأصحابه سببه رحمة الله :

هذه الباء في الآية باء السببية ، أيْ بسبب رحمة في قلبك لنت لهم ، إذاً هناك علاقة بين لين الجانب ، وبين الرحمة المودعة في القلب ، ما لم يكن في القلب رحمة مشتقة من رحمة الله لن تستطيع أن تكون لين الجانب ، ولا أن تكون سهل العريكة ، هذه صفة أساسية فيمن دعا إلى الله، لين ورحمة ، فبما رحمة من الله لنت لهم .

أيْ بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد ، من خلال اتصالك بنا ، أي اتصال بالله يشتق من خلاله من كمال الله ، إذا كنت مع الرحيم فأنت رحيم ، إذا كنت مع الحكيم فأنت حكيم ، إذا كنت مع اللطيف فأنت لطيف ، هذا الكمال الذي جاء به الأنبياء ، وعلى رأسهم رسول الله يسبي العقول، يملأ القلوب محبة ، قال أبو سفيان : ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً ، لِمَ هذا الحب ؟ من كماله ، من رحمته ، من لين جانبه ، من تواضعه ، من حكمته ، من لطفه ، إذاً لن تستطيع أن تؤثر في إنسان على وجه الأرض إلا إذا كنت مشتقاً من كمال الله كمالاً .

2 ـ الخلق الحسن يجذب الناس إلى الدين :

ما الذي يجذب الناس إلى الدين ؟ الكمال الذي يتحلى به المؤمنون ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسيء الجوار ، وهناك جاهلية أشد من هذه الجاهلية ، حينما قال الله عز وجل :

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب : الآية 33)

معنى ذلك أن هناك جاهلية ثانية ، والجاهلية الثانية ليس فيها إساءة إلى أفراد ، بل فيها إساءات إلى شعوب ، ليس فيها عبودية فرد لفرد ، بل فيها عبودية شعوب لشعب ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسيء الجوار، ويأكل فينا القوي الضعيف ، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته ، وصدقه ، وعفافه ، إذا عاملناه فهو أمين ، وإذا حدثنا فهو صادق ، وإذا وضع في موطن شهوة كان عفيفاً ، فدعانا إلى الله كي نعبده ، ونوحده ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

3 ـ النبي يأمر بالخلق الحسن ويتصف به :

بماذا أمر النبي ؟ بمكارم الأخلاق ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))

[أحمد]

من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان ، الإيمان حسن الخلق ، فعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ : الْمُتَكَبِّرُونَ))

[الترمذي]

أكثر من عشر أحاديث صحيحة في البخاري ومسلم تؤكد هذه الأحاديث أن الإيمان يعني حسن الخلق .

فلذلك بين النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه الكرام فقال :

((تواضعوا لمن تعلمون ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه))

[ورد في الأثر]

والتواضع من صفات المؤمن ، قال تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

لأن في قلبك رحمة جاءتك من الإقبال على الله ، فكنت ليناً ، سمحاً ، سهلاً ، لطيفاً ، متواضعاً ، يدخل عليه رجل فترتعد مفاصله من شدة هيبته ، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ :

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ ، فَقَالَ لَهُ : هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه]

يكون مع أصحابه في سفر أرادوا أن يعالجوا شاة :

((علي ذبحها ، وقال الثاني : علي طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام : وعلي جمع الحطب ، قالوا : نكفيك ذلك يا رسول الله ، قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

كان مع أصحابه في بدر ثلاثمئة ، والرواحل قليلة ، قال : كل ثلاث على راحلة ، أمر من قائد الجيش ، وأنا ، وعلي ، وأبو لبابة على راحلة ، فما ميز نفسه عن جندي في الجيش ، ركب النبي ناقته ، فلما جاء دوره في المشي توسلا صاحباه أن يبقى راكباً ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي ، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد عن ابن مسعود]

هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام ، خدمه ربيعة سبعة أيام ، فقال له: يا ربيعة سلني حاجتك ، وكأنه رأى هذه الخدمة ديناً عليه ، لا فرضاً عليه .

السيدة فاطمة طلبت منه خادمة قال : والله لا أعطيك خادمة ، وفي المسلمين فقراء ، عدّ ابنته كأحد فقراء المسلمين ، حتى نلبي حاجات الفقراء .

بقدر ما يتبع الدعاة إلى الله منهج النبي في تربية أصحابه ، منهج النبي في معاملة أصحابه ، منهج النبي في تواضعه ، منهج النبي في رحمته يلتف الناس حوله ، فلما لنت لهم التفوا حولك .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

أشيروا علي أيها القوم ، في معركة بدر ، قال سيدنا سعد : امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، صل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فو الذي بعثك بالحق للذي تأخذه من أموالنا أحب إلينا مما تتركه لنا ، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا واحد ، إنا لصبر في الحق ، صدق عند اللقاء، فلعل الله يريك ما تقر بها عينك .

4 ـ النبي أحسن الناس أخلاقا :

لماذا التف أصحابه حوله ؟ لأنه ما ميز نفسه عليهم أبداً ، ما ميز نفسه عليهم أبداً ، لا في سلم ، ولا في حرب ، ولا في ضائقة مادية ، ولا في جوع ، ولا في خوف ، أبداً ، لو أن من يتولى شؤون الدعوة في العالم الإسلامي درس بعناية فائقة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وكيف كان يعامل أصحابه ، كيف كان يتفقدهم ، كيف كان يمشي مع المرأة المسكينة تسأله كل حاجتها ، كيف كانت الجارية البنت الصغيرة تأخذه من يده فتقوده ، وكيف كان يركب الحسن والحسين على ظهره في البيت ، فقد ارتحلاه وهو يقول :

((نِعْم الجمل جملكما ، ونعم الراكبان أنتما))

[ورد في الأثر]

كيف ؟ كيف كان يخطب ، فرأى الحسن أو الحسين يمشي ، ويتعثر فنزل من على المنبر ، وحمله ، وصعد به المنبر ، وتابع خطبته .

كيف كانت رحمته بالأطفال ؟ كيف كان يصلي صلاة الفجر ، وقد علمنا أن نقرأ الآيات الطوال في صلاة الفجر ، فسمع طفلاً يبكي ، ينادي أمه ببكائه ، فقرأ آيات قصيرة ، فقالوا : يا رسول الله لم تطل ، قال : سمعت طفلاً ينادي أمه ببكائه ، فأردت أن أرحمها ، كيف ؟

كيف حينما جاءه الوحي قالت له : خذ قسطاً من الراحة ، قال : انتهى عهد النوم يا خديجة كيف ؟ قبل أن يتوفاه الله جمع أصحابه وقال : من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه ، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ، ومن كنت شتم له عرضاً فهذا عرضي فليشتمني، ولا يخشى الشحناء ، فإنها ليست من شأني ، ولا من طبيعتي .

و أحسن منك لم ترَ قط عين وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءًا من كل عيـب كأنك خلقت كما تشـاء

بماذا مدحه الله عز وجل ؟ مدحه بفصاحته ، فكان فصيحاً ، بل كان أفصح العرب ، لكن القرآن لم يمدحه بفصاحته ، مدحه بقيادته ، كان من أحنك القادة ، مدحه بفطنته ، فقد كان من أفطن البشر ، بماذا مدحه ؟ قال تعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم : الآية 4)

دخل مرة أحد على ملك ليعظه ، قال : سأعظك ، وأغلظ عليك ، قال له : ولمَ الغلظة ؟ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني ، أرسل موسى إلى فرعون ، فقال :

(فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

لماذا التف الناس حول رسول الله ؟ لأخلاقه فقط ، لخلقه كان واحداً من أصحابه ، وما سحب يده من مصافح ، ولا رُئي ماداً رجليه بين أصحابه قط ، وكان لا يمدح طعاماً ، ولا يذمه ، وكان يقبل العذر ، ويأكل مع الخادم ، وكانت توقفه امرأة مسكينة في الطريق فيقف معها طويلاً .

رأى رجلاً في المسجد قال : من أنت ؟ قال : أنا عدي بن حاتم ، مالك من ملوك الجزيرة ، أخذه إلى بيته صلى الله عليه وسلم ، ودفع له وسادة من أدم محشوة ليفاً قال : اجلس عليها ، قال : أنا ، قال : بل أنت قال : فجلست عليها ، وجلس هو على الأرض ، قال : إيه يا عدي بن حاتم ألم تكن ركوسياً ، وهو دين بين النصرانية والمجوسية ؟ قال : نعم ، قال : أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ قال : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك ، أرأيت إلى هذا المنطق الصارم ، يناقشه بدينه قال : يا عدي ، لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، أصحابه فقراء ، وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم ، كما هو الآن، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحةً للعرب ، ولقد عاش عدي ورأى كل ذلك .

[ورد في الأثر]

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

هذا الإنسان كيف يحبك ، كيف يحترمك ؟ كيف يتعلق بك ؟ كيف يصغي إليك ؟

كنت أقول دائماً : الإحسان قبل البيان ، لا تطمع في هداية أحد قبل أن تحسن إليه ، لا تطمع بهداية أحد قبل أن تكون قدوة ، لا تطمع بهداية أحد قبل أن تتواضع له ، لا تطمع بهداية أحد قبل أن تكون مطبقاً قبله :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

5 ـ هذا ما تفعله أخلاق النبي في أصحابه :

كنت ليناً بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد من خلال اتصالك بنا فالتفوا من حولك ، وأحبوك ، وفدوك بأرواحهم وأنفسهم .

رجل على وشك أن يُقتَل ، خبيب بن عدي سأله أبو سفيان : يا خبيب أتحب أن يكون محمد مكانك ، وأنت معافى في أهلك ، ماذا قال خبيب وهو على وشك أن يموت صلباً ؟ انتفض وقال : والله لا أحب أن أكون في أهلي وفي ولدي ، يعني وأنا جالس في بيتي ، وزوجتي وأولادي أمامي ، وعندي عافية الدنيا ونعيمها ، طعام ، وشراب ، وبيت مدفأ شتاءً ، مكيف صيفاً ، ألوان الأطعمة ، ألوان الأزهار ، والله لا أحب أن أكون في أهلي وفي ، ولدي ، وعندي عافية الدنيا ، ونعيمها ، ويصاب رسول الله بشوكة ، عندها قال : ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ، كيف ؟

تفقد أحد أصحابه صلى الله عليه وسلم في أحد سعد بن الربيع أرسل إليه أحد أصحابه رآه بين القتلى لم يمت بعد ، قال له : يا سعد هل أنت بين الأحياء والأموات ؟ قال له : أنا مع الأموات ، ولكن أقرئ رسول الله مني السلام ، وقل : له جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل لأصحابه : لا عذر لكم إذا خلص إلى نبيكم ، وفيكم عين تطرف .

ما هذا ؟! إنسان على وشك الموت ، يمتلئ قلبه محبة لرسول الله ، هذا لأخلاقه العالية ، ورحمته بأصحابه ، وبالتعبير الدقيق كانت مشكلة أصحابه مشكلته ، وكانت أفراحهم أفراحه ، وأتراحهم أتراحه، نحن بحاجة إلى الحب أيها الإخوة ، بحاجة أن يحب بعضنا بعضاً ، بحاجة إلى تعاون ، بحاجة إلى البذل ، إلى التضحية ، بحاجة أن تشعر أنه لست وحدك في الحياة ، كل المؤمنين لك ، وأنت للكل ، كلهم لك بإمكاناتهم ، بخبراتهم ، وأنت لهم جميعاً .

هذا المجتمع كل شيء مادي موجود بشكل صارخ جامعات ، مؤلفات ، محاضرات ، مؤتمرات ، مساجد ، مطبوعات ، كل شيء مادي في الإسلام موجود بشكل صارخ ، لكن روح الإسلام هذا الحب بين المؤمنين ، هذه التضحية ، والإيثار .

مد يدك لأبايعك ، كذا قال الصديق لسيدنا عمر ، قال عمر : أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا كنت أميراً على قوم فيهم أبو بكر ، قال له : أنت يا عمر أقوى مني ، قال : أنت يا أبا بكر أفضل مني ، قال: قوتي إلى فضلك .

أيعقل أن يكون مع أصحابه سيدنا عمر ، وأن يقول أحدهم تقرباً إليه : والله يا أمير المؤمنين ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله ، فإذا به يحد بصره إليهم ، إلى درجة أنه كان يقطعهم وَاحداً واحداً ، إلى أن قال أحدهم : لا والله قد رأينا من هو خير منك ، قال : من هو ؟ قال : أبو بكر ، فقال هذا الخليفة العظيم: كذبتم جميعاً وصدق ، عد سكوتهم كذباً ، قال : كنت والله أضل من بعيري ، وكان أبو بكر أطيب من

ريح المسك ، ما هذه الموضوعية ؟

يقف على منبر ، وينزل درجة ، ويقول : ما كان الله ليراني أرى نفسي في مقام أبي بكر ، ماذا فعل النبي ؟ ربى أصحاباً ، ربى أبطالاً الواحد منهم كألف ، الآن المسلمون مليار ومئتا مليون ، لذلك حينما يسقط المسلمون من عين الله يأتي من يتحكم فيهم ، ومن يذلهم ، ومن يأخذ أموالهم ، ومن يوقع بينهم ، وكأنهم ليسوا موجودين ، المسلمون غائبون عن الساحة ، أين هم هؤلاء المسلمون ؟

أيها الإخوة الكرام ، الأنبياء العظام تركوا أصحاباً عظاماً ، ونحن نريد أن يكون المسلم شيئاً كبيراً ، كبيراً بطاعته لله ، كبيراً بمحبته لله ، كبيراً بإخلاصه لله .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران : الآية 159)

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

لو كنت منقطعاً عنا .

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

الفظاظة والغلظة تنفران الناس :

لو كنت منقطعاً عنا يمتلئ قلبنا قسوة ، و إذا امتلأ قلبك قسوة كنت فظاً غليظاً ، فيك قسوة ، وفظاظة ، وكبر ، ولا يوجد رحمة :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

معادلة رياضية : اتصال رحمة لين التفاف ، انقطاع قسوة غلظة انفضاض ، أليس هذا درساً لكل داعية على وجه الأرض ؟

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

من أصول الدعوة : التزكية الأخلاقية :

أيها الإخوة الكرام ، أتمنى أن يتتبع أحدكم الآيات المتعلقة بأصول الدعوة ، مثلاً :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة : الآية 2)

منهج الدعوة أن تعرف بالله من خلال آياته ، و أن تزكي النفوس ، أن ترقى النفوس ، أن تتصعد الميول :

(وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ)

أي القرآن :

(وَالْحِكْمَةَ)

السنة ، هكذا قال علماء التفسير .

إذاً : دعوة بلا تزكية لا قيمة لها ، و تزكية بلا علم لا قيمة لها ، لابد من دعوة إلى الله ، لابد من تعريف بالله من خلال آياته ، و لابد من تزكية للنفس من خلال الاتصال به ، ثم لابد من معرفة المنهج الكتاب و السنة .

حبذا لو تجمعوا الآيات المتعلقة بأصول الدعوة إلى الله ، و يجب أن تعلموا علم اليقين أنه ما من واحد من المسلمين إلا و الدعوة إلى الله في حقه فرض عين لا يعفى منها أحد ، فإن لم تفكر في الدعوة إلى الله فأنت لا تتبع رسول الله ، لأن الله عز وجل يقول :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : الآية 108)

فإن لم تكن متبعاً لرسول الله معنى ذلك أنك لا تحب الله ، والدليل قوله تعالى :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

(سورة آل عمران : الآية 31)

إن لم تتبع لا تحب ، و إن لم تدع لا تتبع ، ولكن تدعو إلى ماذا ؟ إلى ما تعلمت ، ومع من تعرف ، في حدود ما تعلم ، ومع من تعرف ، وهذا معنى حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ...))

[البخاري ، الترمذي ، أحمد ، الدارمي]

أن تحضر درس علم ، خطبة جمعة ، ما أخذت شيئاً منها ؛ ولا آية ، ولا حديثًا ، ولا فكرة ، هذه الآية، والحديث ، والفكرة انشرها في الأسبوع ، لك صديق ، لك زميل ، لك جار ، لك قريب ، كنت في دعوة ، في وليمة ، في سفر ، في نزهة ، في سهرة ، لا يوجد أحد ليس له عدة لقاءات في الأسبوع ، لا يوجد أحد على الإطلاق إلا ، وله لقاءات عديدة في الأسبوع مع من يلوذ به ، لذلك :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ)

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

أي فاعف عنهم يا محمد زلتهم ، لذلك صلى عليهم ، وصلى على من عصاه ، و قد فسر هذا بأن هذه معصية لأمر تنظيمي سببت هزيمة ، ولكنها ليست معصية لأمر تشريعي ، والفرق كبير بين الأمر التنظيمي ، وبين الأمر التشريعي :

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ)

أي خطأهم :

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

سيد الخلق أمره ربُّه بمشورة أصحابه :

المشاورة فيها رفع معنويات كبيرة جداً ، النبي سيد الخلق ، وحبيب الحق ، النبي سيد ولد آدم ، النبي معصوم ، النبي يوحى إليه ، ومع ذلك أُمر أن يشاورهم في الأمر ، من أنت حتى لا تستشير ؟ من أنت؟ إذا كان سيد الخلق ، وحبيب الحق قد أُمر أن يشاور أصحابه ، أشيروا علي أيها الناس ، حتى في حديث الإفك قال : أشيروا عليّ ماذا أفعل ؟ أعلمها عفيفة ماذا أفعل ؟ أنت حينما تشاور تستعير عقول الرجال ، من شاور الرجال استعار عقولهم ، بل إن المجتمع المسلم وصفه الله عز وجل بأن :

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

(سورة الشورى : الآية 38)

لا يوجد استبداد ، لا يوجد فرض رأي ، لا يوجد إرهاب فكري ، أمرهم شورى بينهم ، أشيروا عليّ أيها الناس :

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

وأنت سيد الخلق ، و أنت المعصوم ، وأنت قمة البشر ، شاورهم في الأمر ، استشار زوجته في صلح الحديبية ، فالصحابة الكرام تعلقوا بالعمرة ، ثم منعوا منها ، فتألموا ألماً شديداً ، حتى إن عمر قال :

<< ألسنا على حق ؟ قال : نعم ، قال : أليسوا على باطل ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ، قال : أنا أتبع وحي الله عز وجل >> ، و مع ذلك الصحابة تلكؤوا في الحلق ، والذبح ، فتألم النبي عليه الصلاة و السلام ، سأل أم سلمة : ماذا أفعل ؟ قالت : احلق أنت ، واذبح ، ما إن فعل حتى تبعه أصحابه ، علمنا أن نستشير أحياناً زوجاتنا ، هذا شيء ثابت في السنة ، والقصة صحيحة ، حتى إن القرآن الكريم قال :

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

(سورة الطلاق : الآية 6)

أي تأمره بالخير ، ويأمرها بالخير ، من صفات المؤمن المشاورة :

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

ولي أمر المسلمين اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يستشير :

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

(سورة الشورى : الآية 38)

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

لكنه حينما يستشير ، ويأخذ الآراء ، ويريه الله الطريق الصحيح قال :

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه

من دون بلبلة ، من دون اضطراب ، من دون تمييع للقضايا :

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ)

يا محمد ، ومن ينوب مكانك في ولاية أمر المسلمين :

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

خاتمة :

إذاً : من خلال هذه الآية الكريمة تتضح لنا أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام ، و كيف التف الناس حوله ، واجتمعوا عليه ، وكيف فدوه بأنفسهم وأموالهم ، وكيف كانوا قدوة للعالمين :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

(سورة الفتح : الآية 29)

كيف هم أشداء على الكفار ، محمد والذين معه ، أرأيت إلى هذا التعاون ، أشداء رحماء بينهم ، لذلك المؤمن في مجتمع المؤمنين موصوف بآية :

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المائدة : الآية 54)

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

(سورة الحشر : الآية 9)

وأن تعيش بين المؤمنين ، وأن تكون وفياً لهم ، وأن تكون متواضعاً لهم ، وأن تقدم لهم كل ما تستطيع، وأن تسألهم حاجتك أحياناً ، يجب أن نعلم أن المجموع لواحد ، وأن الواحد للمجموع .

أيها الإخوة ، هذه الآية منهج لنا في أصول الدعوة إلى الله عز وجل :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

و الحمد لله رب العالمين

الأسئلة :

س : أخ يقول : كيف تكون الدعوة فرض عين ، والآية تقول :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران : الآية 104)

هذه الدعوة فرض كفاية ، هناك داعية متفرغ تماماً عمله الدعوة إلى الله ، محصل علماً عالياً جداً، معه الأدلة التفصيلية ، يرد على كل شبهات الكفار ، هذه الدعوة بهذا المستوى فرض كفاية ، أن تكون متفرغاً للدعوة إلى الله ، متخصصاً بالعقيدة الإسلامية ، وفي الفقه ، وفي السيرة ، وليس لك عمل إلا الدعوة إلى الله ، هذا المستوى من الدعوة فرض كفاية ، إذا قام به بعضهم سقط عن الباقي ، و أما التي هي فرض عين فأحد أدلتها :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(يوسف : 108)

دليل آخر :

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

أحد أركان النجاة التواصي بالحق .

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(46-60): تفسير الآيتان 161 – 162
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-10-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الواحدة والستين بعد المئة الأولى ، وهي قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(سورة آل عمران : 161)

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

1 ـ أشد صيغ النفي(ما كان):

أيها الإخوة : أول ملاحظة أن في اللغة العربية صيغة من أشد صيغ النفي على الإطلاق ، هي قوله تعالى :

(ما كان)

قال عزوجل :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : 33)

يمكن أن تفهمها على الشكل التالي : مستحيل وألف ألف مستحيل .

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة التوبة : 70)

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : 179)

2 ـ بين نفي الحدث ونفي الشأن :

فأية صغية تأتي على شكل ما كان تفيد أن هذه من أشد صيغ النفي ، ذلك أن النفي نوعان ، نفي حدثٍ، ونفي شأنٍ ، قد نلتقي بسارق كبير ، نسأله : أسرقت هذه الحاجة ؟ يقول لك لا ، لم أسرقها ،

هو نفى سرقة هذا القلم ، لكن سرق أشياء أكبر من هذا بكثير ، أما إذا سألت إنساناً شريفاً ، هل أخذت هذا ؟ يقول لك : ما كان لي أن أفعل ، أي هذا ليس من شأني ، ولا من طبيعتي ، ولا أرضاه ، ولا أقبله ، ولا أقره ، ولا أفكر فيه ، ولا يخطر على بالي ، ولا أشجعه عليه ، ولا أوقر من فعله .

3 ـ النبي معصوم :

معنى : ما كان لنبي أن يغل ، جاء النفي نفي شأن ، لا نفي حدث ، لأنه معصوم ، النبي عليه الصلاة والسلام معصوم من أن يخطئ ، لماذا ؟ لأنه مشرع ، ولأن الله أمرنا أن نأخذ منه كل شيء ، بدليل قوله تعالى :

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر : 7)

فلو أنه يخطئ ، لو أنه غير معصوم ، كأن الله أمرنا أن نعصيه ، فما دام الله عز وجل قد أمرنا بآية قطعية الدلالة واضحة أن نأخذ منه وأن ننتهي عمن نهى عنه ، إذاً فهو معصوم ، معصوم أن يخطئ في أقواله ، وفي أفعاله ، وفي إقراره ، وفي صفاته ، لا في أقواله يخطئ ، ولا في أفعاله يخطئ ، ولا في إقراره يخطئ ، ولا في صفاته يخطئ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ :

((كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ ، وَقَالُوا : أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟ فَأَمْسَكْتُ عَنْ الْكِتَابِ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ ، فَقَالَ : اكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ))

لا ينطق إلا بالحق ، في غضبه وفي رضاه ، وفي كل أحواله جميعاً .

4 ـ أمة النبي معصومة بالمجموع :

إذاً : كل من لم يعتقد عصمة النبي فعقيدته زائغة ، بالمقابل ، وكل من يعتقد العصمة في غيره عقيدته زائغة ، أمة النبي صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصومة بمجموعها ، بينما النبي عليه الصلاة والسلام فمعصوم بمفرده ، بمفرده معصوم ، بينما أمته بمجموعها معصومة ، فَعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ :

((إِنَّ أُمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلاَفاً ، فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ))

[أخرجه ابن ماجه في سننه]

يلقى في اليوم ألوف المحاضرات ، وتؤلف مئات الكتب ، وتسجل آلاف الأشرطة ، وما دام المسلمون، ولا سيما علماء المسلمين ساكتون فهذا سماه العلماء إجماعًا سكوتيًا ، أي ليس هناك خطأ ، ألقيت خطبة وفق منهج الله ، وفق آيات وأحاديث ، واستنباطات دقيقة جداً ، ما دام الناس أخذوها بالقبول فمعنى ذلك أن كلامك لا شائبة فيه ، لكن لو أُلّف كتاب مثلاً يفسر القرآن تفسيراً غير معقول ، بعيداً عن المألوف ، بعيداً عن منهج النبي عليه الصلاة والسلام تقوم الدنيا ولا تقعد، معنى ذلك أن المسلمين معصومون بمجموعهم :

((إِنَّ أُمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ))

لكن ليس معنى هذا أن الأكثرية على حق ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : 116)

الآن نريد أن نفصل ، عندنا مليون إنسان ، سبعمئة وخمسون ألفًا شاردون ، تائهون ، ضالون ، جاهلون ، غارقون في المعاصي والآثام ، والباقي هم المؤمنون ، لا تسمى الأكثرية إجماعًا ، إذا قلنا : إجماع نقصد به المؤمنين ، وإذا كنت على حق فأنت وحدك جماعة ، والجماعة لا علاقة لها بالعدد ، علاقتها بمدى انضباطها بالحق ، لذلك أخطر مقياس أن نعرف الحق بالرجال ، هذا مقياس فاسد ، المقياس الصحيح أن نعرف الرجال بالحق ، هناك منهج من استوعبه ، من طبقه إنسان كبير ، أما أن أخذ الدين من أشخاص لهم شهرة ، كل إنسان يؤخذ منه ، ويرد عليه إلا صاحب هذه القبة الخضراء ، هو عليه الصلاة والسلام ، ما جاءنا عن رسول الله فعلى العين والرأس ، وما جاءنا عن سواه ، فنحن رجال وهم رجال ، تسمعون الحق ، ويسمع منكم ، ويسمع من يسمع منكم ، شهد النبي عليه الصلاة والسلام للقرون الثلاثة الأولى بالخيرية ، وذلك في حديث عُمرَ بن الخَطّابِ عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم :

((خَيْرُ النّاسِ قَرْنِي ، ثمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[أخرجه الشيخان والترمذي ، واللفظ له]

إذاً : ينبغي أن نفهم القرآن الكريم والسنة المطهرة وفق ما فهمها أصحاب النبي في قرونهم الثلاثة ، الأصحاب الكرام ، والتابعون ، وتابعو التابعين ، وبعدئذ نحتاج إلى تمحيص دقيق ، وإلى مراجعة طويلة .

النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده ، بينما أمته معصومة بمجموعها ، ورد في أسباب النزول أن بعض المنافقين اتهم النبي عليه الصلاة والسلام ، فجاءت الآية قاطعة الدلالة .

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ)

5 ـ مستحيل أن يقع من النبي غلول :

أيْ مستحيل ، وألف ألف ألف مستحيل أن يقع النبي في معصية من نوع الغلول ، ما الغلول ؟ تترجم بالخيانة في غنائم ، حصلت معركة ، يأتي أحد الجنود ، ويأخذ بعض الغنائم قبل أن تقسم، يأخذها خفيةً، المشكلة في هذا الإثم الكبير ، إثم الخيانة ، وقد ورد في بعض الأحاديث أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ذكروا اسماً عند رسول الله ، فقال : هو في النار ، تعجبوا ، كان في معركة مع رسول الله ، ثم علموا أنه دخل النار في عباءة غلها ، أيْ أخذها من دون حق قبل تقسيم الغنائم ، ماذا يشبه الغلول في حياتنا اليومية .

حينما يموت الأب ، ويدع إرثاً ، ويأتي بعض الإخوة الكبار فيأخذون ما طاب لهم ، قبل أن تقسم الممتلكات ، يأخذ شيئاً ثمينًا غالياً ، يقول : هذا من رائحة والدي ، هذا اسمه غلول ، إذا مات الإنسان أصبح ماله للورثة ، وينبغي أن يوزع المال وفق قواعد الإرث ، أما إذا أجاز بقية الورثة ، فلا شيء عليه ، هذه قضية أخرى .

لذلك :(وما كان)أيْ مستحيل ، وألف ألف مستحيل ، لأن هذا نفي الشأن ، لا نفي الحدث ، الآن لو أردت أن تقرأ القرآن ، وأن تتبع هذه الصيغة :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت : 40)

مستحيل أن يظلم الله أحداً ، ليس هناك ظلم حقيقي في الكون ، هناك ظلم ظاهري .

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام : 129)

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

(سورة آل عمران : 179)

لابد من امتحان لفرز المؤمنين :

لا بد من امتحان يفرز المؤمنين ، قال تعالى :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ(10)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : 10 - 11)

إن الصحابة الكرام عندهم شعور أن هذا نبي عظيم ، وسوف ننتصر على الكفار ، وسوف نفتح بلاد الغرب والشرق ، وسوف نأخذ ثروة كسرى وقيصر ، فلما جاء الأحزاب ، وقد اجتمعوا على أن يستأصلوا المسلمين من جذورهم ، لم تكن معركة الأحزاب معركة غلبة ، بل كانت معركة استئصال :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ (10)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

وأما الذين في قلوبهم مرض فقالوا :

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

(سورة الأحزاب : 12)

بل إن بعضهم قال : أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ، ثم يقول الله عز وجل :

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب : 23)

فمعركة الخندق فرزت المؤمنين ، والهجرة فرزت المؤمنين ، وقصة الإسراء والمعراج فرزت المؤمنين ، وكل حدث جلل في حياة المسلمين هو فرز للمؤمنين ، هناك من يخاف ، إذاً هو مشرك ، هناك من لا يخاف إلا الله ، إذا هو موحد ، هناك من يجبن ، هناك من يكون شجاعًا ، هناك من يعمل عملا طيباً ، ما من حدث عام إلا وهو في حقيقته فرز للمؤمنين .

إذاً :

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ)

مستحيل .

المؤمن الحقيقي لا يأكل المال الحرام :

ولو أردنا أن نوسع الدائرة قليلاً ، المؤمن الحقيقي يعلم أن الله حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأنه لا إله إلا الله ، وأن الأمر كله بيد الله ، هل يمكن أن يأكل درهماً حراماً ، مستحيل أيضاً ، لذلك من أروع ما قرأت أنه من أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه ، فقد أختصم مع أخ لي أحياناً ، لكن لا تحملني هذه الخصومة على أن أتهم أمانته ، ولا على أن أتهم عقيدته ، هذا حفظ ، النبي معصوم بمفرده، بينما الولي محفوظ ، ومعنى محفوظ أي لا يصر على صغيرة ، ولا يرتكب كبيرة ، فإذا بدرت منه صغيرة سرعان ما يتوب ، وسرعان ما يراجع نفسه .

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ)

وفي قراءة " أن يُغل " ـ " أن يَغُل " أن يرتكب معصية الغل ، يعني الخيانة .

بالمناسبة عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أخرجه أحمد في مسنده عن أبي أمامة]

إِلَّا الْخِيَانَة وَالْكَذِبَ ! إِلَّا الْخِيَانَة وَالْكَذِبَ ! إِلَّا الْخِيَانَة وَالْكَذِبَ !

أيضاً مستحيل لمؤمن أن يكذب ، ومستحيل لمؤمن أن يخون ، لكن هناك طباع أخرى ، فقد يوجد في المؤمن ، قد يكون عصبي المزاج ، وقد يكون هادئاً جداً ، وقد تجده يحب العلاقات الاجتماعية ، وقد تجده يحب العزلة ، فهذه طباع لا تقدم ولا تؤخر ، أما أن يرتكب المؤمن خيانة ، أن يكذب ، فهذا مستحيل ، وألف ألف مستحيل ، إذاً ينبغي أن تحسن الظن بأخيك ، الطرف الآخر الذين يقفون في خندق آخر يسهل عليهم كثيراً أن يتهموا المؤمن بأشنع الذنوب ، يستحيل على المؤمن أن يأخذ ما ليس له ، وأن يخون ، بل إن الله عز وجل حينما قال :

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان : 68)

إذاً :

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ)

بالفتح ، أن يقع في معصية الغل ، وفي قراءة ثانية :

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ)

بالضم ، أي أن ينسب إلى الغل ، وكلاهما لا يصح أن يكون من نبي ، لذلك من أجمل ما في مجتمع المؤمنين ، ثمة أخطاء كثيرة ، لكن من الصعب جداً أن يخونك مؤمن ، ومن الصعب جداً أن يكذب عليك مؤمن ، من الصعب جداً أن يطعنك مؤمن في ظهرك ، هذا مستحيل ، هناك أخطاء كثيرة ، لكن تبقى مجتمعات الإيمان مجتمعات مريحة جداً ، مجتمعات فيها طهر ، فيها صدق ، فيها أمانة ، فيها رحمة ، فيها إنصاف ، فيها حكمة ،

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

ما أشدَّ عقابَ من يغلّ :

عففت فعفوا ، ولو وقعت لوقعوا :

يبدو أن عقاب من يغلل أليم جداً يوم القيامة ، نوع من الخيانة ، لما جاءت كنوز كسرى ، ورآها عمر رضي الله عنه ، وتروي الروايات أن صحابيين رفعا رمحيهما فلم يرَ الأول الثاني ، أو لم ير

الأول رمح الثاني ، وكلها ذهب ، وماس ، وما إلى ذلك ، سيدنا عمر أخذته الدهشة ، قال : إن الذي أدى هذا لأمين ، هذا الذي جاء بالغنائم لما لم يذهب بها إلى أنطاكيا ، فيبيعها ، ويعيش حياة فارهة إلى أن يموت، فقال سيدنا عمر : << إن الذي أدى هذا لأمين >> ، إلى جانبه الإمام علي كرم الله وجهه ، قال: << يا أمير المؤمنين أعجبت من أمانته فقد عففت فعفوا ، ولو وقعت لوقعوا >> ، وفي رواية : << ولو ركعت لركعوا >> .

حينما يغض الأب بصره عن محارم الله يكون في البيت جو من الانضباط ، أما حينما ينفرد الأب ، فيتابع بعض الأفلام التي لا ترضي الله ، على مرأى من أولاده ، وعلى مسمع منهم ، فلن يستطيع أن يضبطهم بعد ذلك ، وإن لم يكن صادقًا فلن يستطيع أن يحمل أولاده على الصدق ، وإن لم يكن عفيفاً فلن يستطيع أن يحمل أولاده على العفة ، والأب الذي يدخن ، ثم رأى ابنه يدخن لن يستطيع أن يقول كلمة .

إن الابن يقلد الأب ، لذلك من أنجع أساليب التربية أن تكون أنت قدوة ، أنت تكون قدوة ، واسكت ، لأن فعلك تعليم ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ليست مهمة التبليغ فحسب ، مهمته الخطيرة أن يكون قدوة ، لذلك نجح الأنبياء في أن يقلبوا وجه العالم في ربع قرن ، بينما لم ينجح المصلحون في أن يغيروا شيئاً من البيئة ، يتكلمون كثيراً ، لكن لا أثر لكلامهم ، ذلك أن الأنبياء يبلغون الناس بأقوالهم ، وبأفعالهم ، بل إن أفعالهم تبليغ ، بل إن أفعالهم سنة ، سماها المحدِّثون السنة عملية ، هناك سنة قولية ، وهناك سنة عملية .

يوم كان مع أصحابه ، في سفر أرادوا أن يعالجوا شاة ، قال أحدهم :

((علي ذبحها ، الشاة ، وقال الثاني : علي سلخها ، وقال الثالث : علي طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام : وعلي جمع الحطب ، يا رسول ، نكفيك ذلك ، قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

هذا من سنته العملية ، لذلك لا بد من قراءة سنة النبي العملية ، لا بد من قراءة سيرة النبي ، بل إن بعض العلماء يرى أن قراءة سيرة النبي فرض عين ، كيف نستنبط ذلك ؟ كيف أن الضوء فرضٌ ، لأن الصلاة هي فرضٌ فلا تتم إلا به ، فالقاعدة الأصولية : ما لم يتم الفرض إلا بها فهو فرض ، وما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة .

إذاً حينما أمرك الله بآية هي قطعية الدلالة :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب : 21)

كيف يكون النبي عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة لي ، إن لم أعرف سيرته ، ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ما لا يتم أن يكون النبي أسوة حسنة لي إلا بقراءة سيرة النبي فقراءة سيرة النبي

فرض عين على كل مسلم ، حتى يتحرك في بيته ، وفي عمله ، ومع إخوانه ، ومع أقاربه، ومع بناته ، وفق منهج النبي .

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

يمكن أن تنتفع من طبيب ، وقد يكون فاسقاً ، وقد يكون ملحداً ، وقد يكون شارب خمر ، يعنيك علمه ، لكن في الحقل الديني لا يمكن أن تنتفع بدعوة إلى الله عز وجل إلا إذا رأيتها مطبقة بحذافيرها من قبل من يدعوك إليها ، في حقل الدين لا يمكن أن نفصل القول عن العمل .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : 162)

أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ

1 ـ المتبع لرضوان الله عزيز ، والمتبع لسخط الله ذليل :

كيف أنه لا يستوي العالم والجاهل ، لا يستوي الحر ولا القرّ ، لا تستوي الظلمات ولا النور ، لا يستوي الأحياء ولا الأموات ، إنسان حي متكلم متحدث لبق لطيف ، عالم ، كجثة هامدة تحتاج إلى دفن فقط ، لا يستوي الأحياء ولا الأموات ، لا يستوي الضد ، كذلك لا يستوي من كان في رضوان الله كمن كان في سخط الله ، إن كنت في رضوان الله فقد ملكت كل شيء ، ولو فاتك كل شيء ، و إن كنت في سخط الله فقد خسرت كل شيء ، ولو كان في حوزتك كل شيء .

أنت حينما تفعل أشياء لا ترضي الله ، حينما تظلم الناس ، حينما تأخذ ما ليس لك ، حينما تبني مجدك على أنقاضهم ، حينما تبني غناك على فقرهم ، حينما ترتكب المعاصي والآثام ، حينما تكون متلبساً بمعصية كل يوم ، حينما تبني مكانتك على إيقاع الأذى بالناس ، حينما تهدم بنيان الله وهو الإنسان ، فمثل هذا الإنسان يمشي في سخط الله ، يجب أن يكون محتقراً في نظر الناس ، هو أحقر من أن تخاطبه ، من الذي ينبغي أن تعزّه ، من كان في رضوان الله .

والله فيما أذكر كنت مرة في مؤتمر إسلامي ، ووصلت إلى الفندق ليلاً ، وفي وقت الفجر سمعت قراءة قرآن فأطللت من الشرفة ، فرأيت عامل الحديقة يصلي الفجر في وقته ، بصوت شجي ، والفندق من أرقى فنادق المغرب ، تعقد بها مؤتمرات القمة ، ونزلاءه كثر ، من علية القوم ، والله شعرت أن هذا الذي يصلي الفجر في وقته ، ويقرأ القرآن أقرب إلى الله من هؤلاء جميعاً ، مقاييسك ينبغي أن تكون إسلامية ، أن تمشي في رضوان الله ، أن يكون الكسب حلالاً ، أن يكون البيت إسلامياً ، أن يكون الحديث إسلامياً ، أن تكون العلاقات إسلامية ، أن تكون الأفراح إسلامية ، أن

تكون ربانياً قريباً من الله، كل بطولتنا إن سمح الله لنا ، أن نكون في رضوان الله ، وأنت بفطرتك تعرف بفطرتك تعرف ما إذا كنت في رضوان الله ، أو كنت في سخط الله .

2 ـ أمثلة لمتبعي سخط الله :

هناك أشياء دقيقة جداً ، ربما لا ننتبه إليها ، جاءك شخص ليشتري حاجة ، قال لك : انصحني ، أي لون أختار ؟ فأنت عندك لون كاسد ، فنصحته به ، ماذا فعلت ؟ بعته سروالا ، وقبضت ثمنه ، لكنه استنصحك باللون ، فنصحته باللون الكاسد ، إنك قد خنته ، تشعر أنك محجوب عن الله ، أنا جئت بمثل صغير جداً ، في حياة المسلمين أمثلة صارخة جداً ، اغتصاب ، وأخذ ما ليس لك ، وعلاقات شائنة ، وانحرافات أخلاقية ، وبيوت فاجرة ، وأجهزة تحرك الحائط ، كلها تعرض مفاتن النساء ، فهذه البيوت بيوت المسلمين ، كيف تنعقد الصلة مع الله عز وجل ، لذلك حينما ترون مليارا ومئتي مليون مسلم ليس أمرهم بيدهم ، وليست كلمتهم هي العليا ، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل ، ينبغي أن تعلموا السبب ، لأن الله سبحانه وتعالى ، يقول :

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء : 141)

هذا كلام خالق الأكوان ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : 173)

قولاً واحداً :

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : 162)

عندك مطعم عادي ، دخله محدود جداً ، تعيش منه ، لكن تبيع الناس طعاماً شرعياً ، وثمة مطعم خمس نجوم ، دخله فلكي ، ولكن يوزع فيه الخمر ، نقول له :

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

ليس هناك نسبة مقارنة ، فالبطولة أن تكون في رضوان الله ، أن يكون عملك مشروعاً ، أن تبني دخلك على نفع الآخرين ، لا على إيذائهم ، هذا كلام طويل ، والإنسان يعلم حقيقة نفسه :

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة : 14 - 15)

هناك مهن أساسها إيذاء الآخرين ، ومهن أساسها إفساد الآخرين ، الذي يبيع الدخان مثلاً ماذا يفعل مع الناس ؟ يؤذي صحتهم ، فالبطولة أن تكون حرفتك وفق منهج الله ، وأن يكون بيتك وفق منهج الله ، وأن تكون حركاتك ، وسكناتك وفق منهج الله ، وأن يكون لهوك وفق منهج الله ، وأن يكون بيتك وفق منهج الله ، وهذا تعلمه بفطرتك من دون معلم ، فهناك من يمشي برضوان الله .

أتى رجلان من أوربا إلى الشام ، هما من دمشق ، لكنهما ذهبا ليشتريا سيارتين ، ويعودا بهما إلى الشام ليتاجرا بهما ، يقول لي أحدهم : نزلنا في فندق في إحدى مدن أوربا الشرقية ، في الساعة الثانية عشرة طرق باب الغرفتين ، كل واحد بغرفة ، واحد فتح الباب ، وارتكب الفاحشة ، والثاني ما فتح الباب ، ثم تابعا طريقيهما إلى الشام ، الأول في صعود مستمر في عمله ، وفي بيته ، ومع أهله ، والثاني في انهيارٍ مستمر إلى إن طلق زوجته ، وباع محله ، وصار في وضع صعب جداً ، نقول له :

(أفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

والأمثلة لا تعد ولا تحصى ، وقت الفجر أين أنت ؟ في المسجد ، وهناك أناس يدخلون إلى البيت بعد الفجر من الملاهي ، هناك من يكون وقت الفجر في ملهى ، وهناك من يكون وقت الفجر في المسجد ، هناك من يكون وقت صلاة الجمعة في نزهة يشوي اللحم ، وهناك من تجده وقت صلاة الجمعة في المسجد ، هناك من يربي أولاده تربية دينة ، وهناك من يدعهم يربيهم الطريق ، وأصدقاء السوء ، الحديث لا ينتهي .

(أفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

بحرفتك ، هناك من ينصح هناك من يغش ، هناك من يصدق ، وهناك من يكذب ، هناك من يعطي ، وهناك من يأخذ ، هناك من ينظر ، ويملأ عينيه من الحرام ، وهناك من يغض البصر عن محارم الله ، هناك ابن بار ، وهناك ابن عاق ، هناك صانع أمين ، وهناك صانع خائن .

(أفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

لا يستويان ، المسافة بينهما كما بين الليل والنهار ، وكما بين السماء والأرض ، لا يستويان .

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

أيها الإخوة ، هذه الآية دقيقة جداً ، تنطبق على رجل معه مال ، وآخر ليس معه شيء من المال ، هل يستويان ! واحد بكامل صحته ، والثاني بأمراض كثيرة ، هل يستويان ، يجب أن تدركوا أن البون شاسع جداً بين من يمشي في رضوان الله ، ومن يمشي في سخط الله ، في كل شؤون حياتك ، فأنت تنجح وترقى عند الله ، وتسعد إذا كنت في رضوان الله ، والإنسان كما قلت قبل قليل بفطرته يعلم علم اليقين أنه في رضوان الله ، وبفطرته يعلم أنه في سخط الله ، والإنسان حينما يمشي في سخط الله ينقطع عن الله ، وحينما ينقطع عن الله ينطفئ نوره ، فيرتكب حماقات ما بعدها حماقات ، لو كان ذكياً ، إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لب لبه ، والشيء الثابت أن المؤمن يؤتى الحكمة ، وأن غير المؤمن لا يؤتى الحكمة ، بل يؤتى الحماقة ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : 269)

الآن القوي حينما يكون مقطوعاً عن الله يتوهم أن القوة هي الحق ، ثم يفاجأ من دون أن يحتسب أن القوة من دون حكمة تدمر صاحبها ، الحق يصنع القوة ، ولكن القوة لا تصنع الحق ، والقوي من دون حكمة يدمر ذاته ، والمؤمن بحكمته يحقق مراده ، فأنت حينما تكون في رضوان الله معك نور ، معك نور بنص القرآن الكريم .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد : 28)

قلّمَا تخطئ ، قلّمَا تقع في ورطة كبيرة ، معك نور ، معك رؤية صحيحة ، إذا كنت في رضوان الله معك نور الله .

3 ـ الشر كله في اتباع سخط الله :

دخل شخص إلى ملهى ، فأحب راقصة ، ثم تزوجها ، تتلقى اتصالات مخيفة ، مئة رجل في حياتها ، لم يحتمل فطردها ، أقامت عليه دعوى من أجل المهر المتقدم ، المبلغ لا يملكه في ساعة غضب ـ هذه قصة وقعت في الشام ـ أطلق النار عليها ، وعلى أمها ، وعلى أختها ، ثم أطلق النار على نفسه ، مات هو ، وبقي الثلاثة أحياء ، عولجوا وبقوا ، إنسان دمر نفسه ، طبعاً هذه حالة حادة ، وهناك حالات أقل من ذلك ، إذا مشى الإنسان في سخط الله فهو أعمى لا يرى ، يرتكب حماقات ، يخرب بيته في يده ، يطلق زوجة من الدرجة الأولى ، بينما إذا كنت مع الله تسعد بزوج من الدرجة الخامسة ، إذا كنت مقطوعاً عن الله يغدو أولادك أعداءك ، إذا كنت مع الله يغدو أولادك أحبابك ، فرق كبير كل الخير أن تكون في رضوان الله ، وكل الشر أن تكون في سخط الله .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

كيف تعامل من حولك ؟ حينما تعاملهم بهدي من الله ، أنت رحيم ، يلتفون حولك ، يحبونك ، تعيش في جنة ، وحينما تعامل من حولك بالقسوة ، والعنف ، والمصلحة ، والأنانية ينفضون الناس من حولك ، ويكيدون لك ، فأنت أشقى الناس ، يعني مستحيل ، وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، ومستحيل أن تعصيه ، وتربح .

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : 71)

إذا طلق الإنسان زوجته طلاقًا تعسفيًّا ، فهو في سخط الله ، طلقها بلا ذنب منها ، لكنه اشتهى غيرها ، فطلقها ، وإذا كنت في رضوان الله فأنت مع :

(الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)

(سورة النساء : 69)

الدين ليس أن تكون في المسجد ، الدين في أيام الأسبوع كلها ، ماذا تفعل ؟ كيف تبيع وتشتري ؟ دخلت امرأة إلى محلك ، هل تملأ عينيك منها ، دخل إنسان جاهل هل تستغل جهله فتبيعه بسعر

مضاعف ، وتظن نفسك ذكياً ، العبرة ألا تكون في سخط الله ، في بيعك ، وشرائك ، وحركاتك ، وسكناتك ، واحتفالاتك .

المشكلة أيها الإخوة ، بدأ يظهر انحراف خطير في المسلمين ، تأتيني شكاوى كثيرة ، مسلم من رواد المسجد له علاقة بامرأة ، علاقة غير شرعية ، وله زوجة ، وله أولاد ، وهي لها زوج ، ولها أولاد ، ما هذه القصة ، يعيش الناس جواً لا يرضي الله عز وجل ، الأجانب هكذا جوهم ، جو جنس فقط ، فحينما يكون بيت الإنسان كالمسجد يتلى فيه القرآن ، وتصلى فيه الصلوات ، يجلس الرجل مع أهله وأولاده يحدثهم ، أما حينما تشد الأبصار إلى هذه الأجهزة الملعونة التي تقلب الإنسان رأساً على عقب، كيف يتصل بالله عز وجل .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

هناك آيات من هذا القبيل :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة : 18)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم : 35 - 36)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : 61)

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر : 9)

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا

والله مرة دخلت إلى بيت أحد علماء دمشق ، وجدت آية قرآنية في صدر الغرفة ، والله قرأتها وما في جسمي خلية إلا وتأثرت ، ما هي الآية ؟ هي قوله تعالى :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : 113)

ما قال الله لمن يملك ملايين مليئة :

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

لأنه أعطى المال لمن لا يحب ، فأعطاه لقارون ، وأعطى الملك لفرعون ، وما قال لفرعون :

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

لكنه قاله لنبي عليه الصلاة والسلام :

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

وهذا الفضل بين يديك متاح ، متاح أن تحصل في أي وقت :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : 113)

ينبغي أن يطلب العلم تقرباً إلى الله ، وينبغي أن يكون العلم باعثاً على طاعة الله ، ينبغي أن يكون العلم سبيلاً إلى القرب من الله ، هذا العلم وهذا كتاب الله بين أيدينا ، والله ما من حدث يقع في الأرض الآن ، أترون إلى الدنيا ، وهي تضطرب الآن ، ما من حدث وقع إلا والقرآن يغطيه ، أبداً .

(فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ)

(سورة الحشر : 2)

طفل صغير ضرب باب الطيار ، هذا استدعى الأمر أن تقلع طائرتان أف 16 ليراقبوا الطائرة ، وعلى وشك أن تضرب :

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ)

هذا قانون هذا ، ونحن كذلك ، هناك إشراك فهناك رعب ، أنت تخاف بقدر ما أنت مشرك ، وأنت تطمئن بقدر ما أنت مؤمن ، أبداً .

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 175)

كلام مثل واضح الشمس ، هذا الحدث فرز ، فرز الناس جميعاً ، الذين امتلأ قلوبهم خوفاً وهلعاً ، في الأصل توحيدهم ضعيف :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء : 213)

أما الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان ، فيقينهم بالله عز وجل ، هو خلقهم ، هو الذي يحفظهم ، هو الذي يرعاهم ، هو الذي يوفقهم ، هو الذي يعطيهم ، هو الذي يحميهم ، هو الذي ينصرهم ، هو الذي يوفقهم، القضية قضية إيمان ، نحن في أمس الحاجة إلى التوحيد الآن ، وإلى العودة إلى الله .

ليس بمثل هذا الوضع ننتصر !!!

أنا لا أتشاءم ، أنا والله متفائل على الرغم مما حدث ، عملية قفزة نوعية للمؤمنين ، لكن ينبغي أن نستفيد منها ، لأن هم في بلاد الغرب يقولون : سوف نستفيد مما حدث بلا حدود ، نحن أولى منهم ، نستفيد مما حدث بلا حدود ، كيف ؟ أن نعود إلى الله ، أن نحكم اتصالنا بالله ، أن نقيم الإسلام في بيوتنا، أن نحب بعضنا بعضاً ، أن نسعى لخدمة بعضنا بعض ، أن نقوم بما يسميه المنظرون انتفاضة دينيه ، راجع كل حساباتك ، راجع كل سهراتك ، كل جلساتك ، كل أصدقائك ، وكل

علاقاتك ، وكل أهوائك ، تجد المسلم في سهرة يلعب النرد ، عَنْ بُرَيْدَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ))

[أبو داود]

لعب نرد ، وغيبة ، ونميمة ، ومتابعة مسلسلات ، هكذا الناس يعيشون ، ويا أخي الله ينصر المسلمين، هذا كلام لا بد من موجبات الرحمة ، كان عليه الصلاة والسلام أديباً مع الله ، قال يا اللهم إني أسالك موجبات رحمتك .

هناك امتحان شديد ، على مستوى العالم الإسلامي ، امتحان شديد ، ولا يصمد إلا المؤمن ، ولا يصمد إلا المستقيم ، ولا يصمد إلا الورع ، ولا يصمد إلا الوقاف عند كتاب الله ، لا يصمد إلا من كان بيته إسلامياً ، وقد أمر الله عز وجل ملائكته بإتلاف قرية ، قالوا : يا رب ، إن فيها صالحاً ، قال به فابدؤوا، قالوا : ولمَ يا رب ؟ قال : لأن وجهه لم يكن يتمعر لمنكر رآه ، يعيش لوحده ، يجب أن تسهم في حل مشكلة المسلمين ، أن تنصحهم ، وينبغي أن تدعو إلى الله بشكل أو بآخر ، أعطي شريطًا ، ادعوه إلى درس علم ، تقرب من أخيك ، من صديقك ، اجعل دائرة الحق تتنامى ، ولا تسمح لدائرة الباطل أن تتنامى ، كن قدوة لأولادك ، اكتفِ بأولادك ، ربِّ أولادك ، تجد الأطفال شاردين في الطرقات ، وكلامهم بذيء ، تقصير في الدراسة ، والأب في واد ، والأولاد في واد ، هذا لا يرضي الله، فهي كلمة :

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

لاحظ نفسك ، علاقتك مع جسمك ، مع زوجتك ، مع أولادك ، مع بيتك ، في كسب مالك ، في حديثك، أين تسهر ، وماذا تتكلم ؟ غيبة ، ونميمة ، فلان وعلان ، وفي موضوعات لا تقدم ولا تؤخر ، أما تتكلم في الحق ، قال عليه الصلاة والسلام :

((أمرني ربي بتسع ، خشية الله في السر والعلانية ، كلمة العدل في الغضب والرضا ، القصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرة))

[ورد في الأثر]

وفي الأرض آيات للموقنين ، ما أكثر العبر ، وما أقل المعتبر ، فهذه الآية شعرت أنها آية أساسية في هذه السورة ، ومحورية ، مفصلية .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ)

تعلم بفطرتك أنك في رضوان الله ، دخلت إلى بيتك ، سلمت على أهلك ، داعبت أولادك ، عطفت عليهم ، أطعمتهم لبيت حاجاتهم ، صليت فرضك ، أويت إلى فراشك ، أنت في رضوان الله ، لكن سهرة مختلطة ، هي غير زوجتي ، أجمل بكثير ، عينك عليها طول السهرة ، ومزح ، وضحك ،

وأذن العشاء قوموا لنصلي ، أي صلاة هذه ، أنت غارق في مخالفات كثيرة ، فإذا كانت السهرة إسلامية بلا اختلاط ، ولا معاص فلا مانع .

عَدَّ الإمام الغزالي أربعة عشر معصية باللسان ، قالت : إنها قصيرة ، الآن تجد النساء حينما يجلسن إلى بعضهم بعض يتحدثن عن الفتيات بشكل غير معقول ، يصفن عيوب بعضهن وصفاً صارخاً ، قالت: إنها قصيرة ، قال : يا عائشة لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته ، ما قالت شيئًا ، قصيرة ، أين جلسات النساء ، جلسات الرجال اللهو ، متابعة المسلسلات ، الفضائيات ، ألا تحب أن ينصرنا الله عز وجل ؟ أن يأخذ بيدنا ؟ أن يحمينا من أعدائنا الأشداء ، الأقوياء ، قساة القلوب ، الذين لا يرحمون ، كما ترون وتسمعون .

فيا أيها الإخوة ، أرجو الله أن تكون هذه الآية شعار لنا في هذا الأسبوع .

(أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(47-60): تفسير الآيتان 161 – 162
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-10-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الرابعة والستين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

هذه الآية منهج للدعوة إلى الله :

1 ـ هذه الآية منهج للدعوة إلى الله:

أيها الإخوة الكرام، هذه الآية في هذه السورة تعد منهجاً للدعوة إلى الله.
كلمة:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

الله أمَرَ في القرآن بالنظر في الكون :

أي أنه تفضل عليهم بما هو فوق حقهم، حقهم خلق كوناً واسع الأرجاء، كل شيء فيه آية تدل عليه، تدل على وجوده، وعلى وحدانيته، وعلى كماله، وقد أمرنا أن ننظر في خلق السماوات والأرض، وأمرنا أن ننظر فيما خلقنا منه،
قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق : الآية 5)

أمرنا أن ننظر فيما نأكل وما نشرب، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

أمرنا أن ننظر إلى السماء، قال تعالى:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس : الآية 101)

هذا الكون تجسيد لأسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، من أعمل فكره في الكون وصل إلى خالقه، من أعمل فكره في تربية الله لعباده وصل إلى رب العالمين، من أعمل فكره في خلق الله وصل إلى خالق الأرض والشمس وما بينهما.

إذاً: أودع الله في الإنسان عقلاً لو أعمله فيما خلقه الله عز وجل لوصل إليه، والآيات التي تتحدث عن العقل تقترب من ألف آية عن العقل والعلم، قال تعالى:

(أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 50)

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة يونس : الآية 3)

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

(سورة الغاشية : الآية 17)

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة الصافات : الآية 154)

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

(سورة يونس : الآية 32)

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر : الآية 9)

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة : الآية 11)

مقومات التكليف طريق لمعرفة الله :

أودع في الإنسان عقلاً يكفيه أن يعرف الله به، وخلق كوناً هو مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، كل أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى تتجلى فيما خلق، ثم أعطاك فطرةً تكشف لك الخطأ، قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس : 7-8)

ثم أودع فيك الشهوات لترقى بها إلى رب الأرض والسماوات، ثم منحك حرية الاختيار ليثمن عملك، ثم بعث لك الشرائع لتكون منهجك إلى الله عز وجل أعطاك كل شيء، وفوق هذا وذاك :

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم.

أيها الإخوة، مقومات التكليف كافية، مقومات التكليف كون ناطق بوجود الله وكماله، ووحدانيته، وعظمته، وعقل مبرمج وفق نظام الكون، ومتوافق في مبادئه مع مبادئ الكون كمبدأ السببية، والغائية، وعدم التناقض، وفطرة تكشف لك الخطأ كشفاً ذاتياً، وحرية اختيار كي يثمن عملك، وشهوة دافعة إلى الله عز وجل بها ترقى إلى رب الأرض والسماوات، هذه مقومات التكليف، وهي كافية كي تعرف الله، وكي تعرف أين أنت منه، وكافية أن تصل إلى الآخرة، وفوق هذا كله من الله علينا إذ بعث فينا رسولاً من أنفسنا.

كأن يضع الأب ابنه في أرقى مدرسة يدفع له أعلى قسط يهيئ له مركبة تنقله من بيته إلى المدرسة، ويعطيه مبلغاً من المال كي ينفقه، يخصص له غرفة خاصة ليدرس فيها، يهيئ له كل السبل، وفوق هذا وذاك هيأ له أساتذةً يأتون إلى بيته ليعلموه فضلاً، عما تعلمه المدرسة هذا عطاء هائل.

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

مهمة الرسول :

الرسالة التي تمثلت برسول الله صلى الله عليه وسلم لها مهمتان كبيرتان المهمة الأولى هي التبليغ، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة المائدة : الآية 67)

فإن لم تفعل فما بلغت رسالته، لكن المهمة الأكبر أن يكون النبي قدوةً لنا، إنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر، انتصر على نفسه فكان سيد البشر، النبي عليه الصلاة والسلام حينما يكون بشراً مثلنا، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف : الآية 110)

الرسول بشر تجري عليه خصائص البشر :

وحينما تجري عليه كل خصائص البشر، وحينما يتنصر على بشريته، ويسمو إلى ربه هو حجة قاطعة على أن هذا التشريع واقعي، وفي إمكان كل منا، وهو قابل للتطبيق، كل إنسان يقول: إن هذا التشريع ليس واقعياً يصعب تطبيقه ليس لهذا الزمان، فهو يرفض كلام الله عز وجل حينما يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة : الآية 286)

كل تكاليف البشر من وسع البشر، كل التكاليف التي كلف بها البشر ضمن وسعهم وطاقتهم، لكن هذا الوسع والطاقة لا تحددها أنت، بل يحددها خالق الكون، فحينما كان الصيام شاقاً في السفر أباح لك أن تفطر، وحينما كان في المرض شاقاً أباح لك أن تفطر، وحينما تكون مسافراً أباح لك أن تقصر الصلاة، فالله وحده يحدد ما إذا كان هذا التكليف في وسعك أو فوق وسعك، إن كان في وسعك ألزمك به وإن كان فوق وسعك خفف عنك برخصة من الرخص وبحالة من الحالات.

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

هو بشر، ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن من بني البشر، وأمرنا بغض البصر مثلاً لقال له كل الناس: لست بشراً مثلنا، لم تودع فيك الشهوات كما أودعت فينا، لو أنك بشر مثلنا لما أمرتنا بهذا.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ)

(سورة التوبة : الآية 128)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف : الآية 110)

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

يجوع كما نجوع، ويتألم كما نتألم، ويخاف كما نخاف، ويشتهي كما نشتهي، لكنه انتصر على شهواته، وعلى عوامل أرضيته، وسما إلى ربه، إذاً حينما كلفه الله أن يبلغنا كلفه أن يكون قدوةً لنا، وحينما كان قدوةً لنا أقيمت الحجة علينا، قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة : الآية 128)

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

ما مهمته؟ بل ما مهمة كل من جاء بعده؟ ما مهمته وما مهمة الذين أنابوا عنه في إبلاغ الناس الحق؟ قال تعالى:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

الآيات الكونية في السماء :

ولأنه بعد قليل جاءت: ويعلمهم الكتاب، فيغلب على الظن أن هذه الآيات التي يتلوها عليهم هي آيات الله الكونية، وآياته التكوينية التي تعرف به، ماذا أقول لكم؟ نحن محاطون بآيات لو فكرنا فيها لخررنا على الأرض ساجدين لله، قال لك الله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة : 75-76)

بعض النجوم تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، فكم يقطع بالدقيقة؟ وكم يقطع في الساعة؟ وكم يقطع في اليوم؟ وكم يقطع في الشهر؟ وكم يقطع في العام؟ وكم يقطع في عشرين مليار عام؟ هذه بعض أبعاد المجرات ، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة : 75)

من كلمة(مواقع) ، لو أن عالم فلك قرأها لخر ساجداً لله مواقع، الموقع لا يعني أن صاحب الموقع في الموقع، هذا موقع أي أن هذا النجم الذي كان في موقع ما، وأرسل ضوءًا إلينا مضى على هذا الضوء عشرون مليار سنة حتى وصل إلينا، وهو يقطع هذه المسافة بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، ثم إن هذا النجم يسير بسرعة تقترب من سرعة الضوء، فإذا كان في هذا المكان قبل عشرين مليار سنة، وسرعته مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، أين هو الآن؟ بقي يسير في الفضاء الخارجي عشرين مليار سنة بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر، فمن كلمة مواقع، ومن كلمة مواقع النجوم ما بين النجوم من مسافات، لو أن عالم فلك قرأ هذه الآية لخر مغشياً عليه، قال تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ)

(سورة فصلت : الآية 53)

ربنا عز وجل يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج : الآية 1)

هناك اثنا عشر برجاً في السماء والأرض في دورتها حول الشمس تمر على هذه الأبراج التي في السماء، أحد هذه الأبراج برج العقرب، فيه نجم صغير متألق اسمه قلب العقرب، يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، وبين الأرض والشمس مئة وستون مليون كيلو متر، والشمس تكبر

الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وهذا النجم الصغير المتألق أحمر اللون الذي اسمه قلب العقرب، يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، ذلكم الله رب العالمين.

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ)

(سورة فصلت : الآية 53)

والله أيها الإخوة، لو أردنا أن نستقصي الآيات التي وردت في القرآن الكريم تتحدث عن الفلك، وعن المجرات، وعن الشمس، والقمر لأمضينا سنوات وسنوات، بل إن مرصداً عملاقاً رصد نجماً اسمه عين القط، يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، الصورة وردة جورية بكل معاني هذه النجمة، لها أوراق حمراء داكنة، محاطة بوريقات خضراء زاهية، في وسطها كأس أرزق، هذه الوردة الجورية ليست إلا انفجار هذا النجم الذي يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، وقد قال الله عز وجل:

(فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ(37)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن : 37-38)

لكن لو تحدثنا عن أبعد المجرات إلينا، أو عن أبعد المجرات المكتشفة، ثم انتقلنا إلى أقربها إلينا، وأقرب نجم ملتهب إلينا يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، تلك عشرين مليار سنة ضوئية، وهذه أربعة، لو أردت أن تصل إلى هذا النجم الذي هو أقرب نجم ملتهب إلينا لاحتجت إلى خمسين مليون عام بمركبة أرضية، تركب مركبةً أرضية، وتتجه نحو أقرب نجم إلينا في خمسين مليون عام، القطب أربع آلاف سنة، عين القط ثلاث آلاف سنة، المرأة المسلسلة مليونا سنة، تلك المجرة عشرين مليار سنة، فهذا الكون يدل عليه، ويدل على قوته، وعلى عظمته، وعلى علمه، وعلى حكمته، على رحمته، وفي كل شيء له آية يدل على أنه واحد.

الآيات الكونية في الأرض :

الدماغ : لو نزلنا إلى الأرض، إلى أجسامنا، أنت تشم الروائح فهل تصدق أن هناك عشرين مليون عصب شمي، وكل عصب ينتهي بسبعة أهداب، وكل هدب مغمس بمادة تتفاعل مع الرائحة، فيتشكل منها شكلاً هندسياً، هذا الشكل ينتقل إلى الدماغ يعرض على قائمة فيها عشرة آلاف رائحة، فإلى أن يتوافق شكل مع شكل تقول: هذه رائحة الياسمين، فمن أجل أن تشم الروائح هناك جهاز بالغ التعقيد.

من أجل أن تعرف جهة الصوت هناك جهاز بالغ التعقيد، مركبة تطلق بوقها عن يمينك فيصل صوت بوقها إلى أذنك اليمنى قبل اليسرى بواحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية.

هناك في الدماغ جهاز يعلم أن الصوت وصل إلى اليمنى قبل اليسرى، إذاً: الصوت من جهة اليمين، فالدماغ يعطي أمراً أن تتجه إلى جهة الشمال دون أن تشعر.

ملكة الغدد : غدة هي ملكة الغدد، وزنها نصف غرام في الدماغ، بالقرب من الجسم، تحت السرير البصري مربوطة بالجسم بمئة وخمسين ألف عصب، هي ملكة الغدد، وزنها نصف غرام بالضبط، تفرز تسعة هرمونات، لو أن أي هرمون تعطل إفرازه لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، هرمون النمو مؤلف من مئة وثمانية وثمانين حمضاً أمينياً، يجب أن يكون في الدم عشرة ميكروغرامات في كل لتر، فإن قلّت هذه النسبة تقزم الإنسان، وإن زادت تعملق، هرمون الغدة النخامية يعطي أمراً إلى الغدة النخامية، فإذا واجه الإنسان خطراً تعطي أمراً إلى الكظر، والكظر يعطك خمسة أوامر؛ أمرًا إلى القلب فيرتفع نبضه، وأمرًا إلى الرئتين فيزداد وجيبهما، وأمرًا إلى الأوعية المحيطية فتضيق لمعتها، وأمرًا إلى الكبد فيطرح كمية سكر إضافية، وأمرًا آخر إلى الكبد فيطرح هرمون التجلط دون أن تشعر في ثوان معدودات، هرمون النمو، هرمون توازن السوائل، هرمون اللون، الهرمون الجنسي، وهذه الغدة لا تزيد على نصف غرام، فالله عز وجل حينما قال:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

في القرآن ألف وثلاثمئة آية كونية، هل يعقل أيها الإخوة أن يقول الله كلاماً لا معنى له ولا يعنيك ؟ هذا مستحيل ، هل يعقل أن يقول الله كلاماً لا علاقة لنا به إطلاقاً؟ مستحيل، إذاً: لماذا أودع الله هذه الآيات في القرآن؟ كي تكون منهجاً لنا في التفكير، قال تعالى:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

لأنك إن عرفت الله، ثم عرفت أمره تفانيت في طاعته، أما إذا عرفت أمره، ولم تعرفه تفننت في التفلت من أمره، وهذه مشكلة العالم الإسلامي، الأولى يعرفون الأمر، والنهي، ولكن معرفتهم بالله ضعيفة، ولأنها ضعيفة اجترؤوا، وفعلوا ما نهى الله عنه، ثم اجترؤوا، وقصروا فيما أمر الله به، إذاً في أية دعوة إلى الله، وهذا منهج الدعوة في أية دعوة إلى الله ينبغي أن تتلى علينا آيات الله الدالة على عظمته.

الشَّعر : شعرنا هذا الذي في رأسنا، لكل شعرة وريد، وشريان وعصب وعضلة، وغدة دهنية وغدة صبغية، وهناك تقريباً ثلاثمئة ألف شعرة عند الشاب.

شبكية العين: مئة وثلاثون مليون مخروط، العصب البصري تسعمئة ألف عصب في قطر لا يزيد على نصف ملم، هذا خلق الله.

الكبد: الكبد ثلاثمئة مليار خلية، كل خلية تقوم بكل وظائف الكبد، خمسمئة وظيفة.

في الكليتين طريق يزيد عن مئة كيلو متر يقطعه الدم في اليوم خمس مرات من أجل التصفية .

القلب: يضخ القلب في اليوم الواحد ما يملأ مستودعاً حجمه ثمانية أمتار مكعبة، القلب يضخ من الدم في العمر المتوسط ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم التي هدمت، هذا خلق الله عز وجل:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

في أية دعوة إلى الله لابد أن تعرف الناس بالله، معرفة الله أصل هذا الدين، التفكر في خلق السماوات والأرض أوسع باب ندخل منه إلى الله، وأقصر طريق نصل به إلى الله، والله عز وجل وصف المؤمنين لا بأنهم تفكروا مرةً واحدة، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة آل عمران : 190 -191)

الساعة البيولوجية: الإنسان مصمم تصميماً رائعاً، فأنت في النهار ينبض قلبك من عشر إلى عشرين نبضة زائدة عنها في الليل، وأنت في النهار تستهلك السكر خمسًا وثلاثين مرة بالمئة زيادة عن الليل، وفي النهار يزداد وجيب الرئتين، وفي النهار ترتفع الحرارة نصف درجة، وفي الليل تنخفض نصف درجة، هناك قائمة طويلة جداً لا أذكرها كلها تتحدث عن نشاط الجسم في النهار، أما في الليل فيرتفع هرمون النمو إلى أعلى درجة، ما الذي يعلم الأجهزة أن الوقت نهار أو ليل؟ أنت بعقلك تعلم أن الوقت ليل، أو الوقت نهار، لكن هذه الأجهزة؛ القلب، والرئتين، والغدد الصماء، والكبد كيف تعلم أن الوقت نهار أو ليل؟ هناك ساعة بيولوجية في الدماغ مرتبطة بقاع العين، فحينما يأتي الضوء إلى قاع العين تبرمج هذه الساعة كل هذه الأجهزة على أن ترفع نشاطها في النهار، وأن تخفضه في الليل، متى كشفت هذه الساعة، حينما تسافر إلى بلاد بعيدة جداً، فأنت هناك في الليل والساعة البيولوجية مبرمجة في النهار، وقد حدث هذا معي، ومع كل أخ يسافر إلى طرف العالم الآخر، يبقى يومين ينام في النهار، ويستيقظ في الليل، لأن ساعته البيولوجية إذا كان الوقت ليلاً هي في النهار إلى أن تعيد الساعة برمجتها على الليل والنهار، هناك فإذا عدت إلى بلدك بقيت أيضاً يومين تنام في النهار وتستيقظ في الليل، إلى أن تعيد الساعة برمجتها مرةً ثانية، هذا معنى يتلو عليهم آياته.

الحديث عن آيات الله في خلق الأكوان، وفي خلق الإنسان لا ينتهي، لكن حسبكم أيها الإخوة أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكون هي منهج لكم، قال تعالى :

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة النحل : الآية 16)

البطيخ : لقد خلق الله علامات، حدثني أخ ضمن حقلاً من البطيخ في شمال سوريا، قال لي: قطفت منه ما يزيد على تسعين سيارة، كل يوم أقطف سيارة، وأبيعها، معنى ذلك أن الله صمم هذه الفاكهة -البطيخ- على أن تنضج على مدى تسعين يوماً، سألت صاحب هذا الحقل: ما لون هذا البطيخ؟ كله أخضر اللون متشابه، كيف تعرف أن هذه البطيخة ناضجة؟ قال لي هناك علامة، قلت له: أين هذه العلامة؟ قال: هناك خيط حلزوني في أعلاها، نمسكه فإذا انكسر، أي جف فالحبة ناضجة، فإذا بقي طرياً فالحبة غير ناضجة، لولا هذه العلامة كيف تجني هذا البطيخ؟ وعلامات؟

قال تعالى عن الماء:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر : الآية 22)

الماء: لو أنني أردت أن أخزن ماءً يكفيني عاماً لاحتجت إلى بناء بحجم البناء الذي أسكنه تماماً ، هناك دراسات أن أسرة تسكن في مئتي متر مربع ، ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف ، لو أنها أرادت أن تخزن ماء العام لاحتاجت إلى حجم بيتها تماماً ، قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر : الآية 22)

خزن هذا الماء ، ولاسيما مياه عين الفيجة ، مياه دمشق ، خزنها في جوف يبدأ من عين الفيجة ، وينتهي قبيل حمص ، وفي عرض يبدأ من سيف البادية ، وينتهي تحت لبنان ، كل هذا الحوض مخزن، وفي هذا الجوف صخور معدنية فيها كلور ، فوسفور ، كالسيوم ، هذه المياه المعدنية هي المياه التي تصلح للشرب ، وحتى مياه التحلية التي يحلونها لابد من خلطها بمياه معدنية حتى تكون صالحة للشرب، قال تعالى :

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر : الآية 22)

قال تعالى :

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف : الآية 18)

التقلب في أثناء النوم: أهل الكهف؛ حينما ينام الإنسان أيها الإخوة يوجد جهاز عظمي، هيكله العظمي، وهذا الهيكل محاط من كل الجهات بعضلات، فإذا نام الإنسان على سرير الجهاز العظمي مع ما فوقه من عضلات يضغط على ما تحته من عضلات، فإذا ضغطت انعدمت فتحة الأوعية قلت التروية، وشعر الإنسان بتنميل في رجله، ينقلب على شقه الآخر، راقبوا إنسانًا ينام، يتقلب ثمانية وثلاثين مرة، مرةً على شقه الأيمن، ومرةً على شقه الأيسر، ولولا هذا التقليب لتفسخ اللحم الذي علينا، وكل مريض الآن يصاب بالثبات لابد من تقليبه، وإلا اهترأ لحمه، وهذا شيء ثابت، قال تعالى:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف : الآية 18)

لولا هذا التقليب لما بقي أهل الكهف في كهفهم ثلاثمئة من السنين، هذه آية، والآيات التي يتحدث الله عنها لا تنتهي، قال تعالى:

(فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)

(سورة الرحمن : الآية 41)

ناصية الرأس: جبهة الإنسان محل الفص المهم في الدماغ، محل محاكمته، فالإنسان يتخذ قراراً في الكذب في فصه الجبهي، ويتخذ قراراً بالإساءة والإفساد في هذا الفص الجبهي، قال تعالى:

(فَلْيَدْعُ نَادِيَه(17)سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة(18)كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق : 17-19)

الآية الكريمة:

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ(15)نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

(سورة العلق : 15-16)

دقق في هذه الآية، ناصية كاذبة خاطئة، أي الكذب والخطأ يبدأ من الفص الجبهي في الدماغ، لو مضينا في الحديث عن آيات الله على عظمته، إنْ في السماوات والأرض، إن في البحار، إن في الأسماك، إن في الأطيار فلا تنتهي.

الطير: حتى هذه اللحظة لا يعلم العلماء كيف تهتدي إلى بيوتها من خلال مسافات طويلة، الطير يقطع أكثر من سبعة عشر ألف كيلو متراً، ويبقى في الجو أحياناً ستاً وثمانين ساعة، أكبر طائرة عملاقة تقطع ما بين دمشق إلى سيدني سبع عشرة ساعة رحلة متصلة، أما هذا الطائر فيقطع ستاً وثمانين ساعة دون توقف، كيف يهتدي إلى هدفه؟ لا أحد يعلم، نظرية الشمس نقضت، نظرية الساحة المغناطيسية نقضت، نظرية ظواهر الأرض نقضت، ليس هناك من جواب إلا أن الله عز وجل قال:

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَانُ)

(سورة الملك : الآية 19)

يعني تولى الله بذاته هداية الطير إلى أهدافه، هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

أنا ما أردت أن أستقصي، لكن أردت أن أضع أمثلة بين أيديكم، قال تعالى:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

كيف نعرف الله؟ من خلال خلقه فالتفكر في خلق السماوات والأرض، فهو طريقنا إلى معرفة الله.

وَيُزَكِّيهِمْ

(وَيُزَكِّيهِمْ)

ليس هناك إسلام أساسه المعرفة الفكرية فقط، ليس هذا إسلاماً:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)

التزكية:

كيف يزكيهم؟ يدعوهم إلى طاعة الله، يدعوهم إلى الاتصال به، والإنسان إذا أطاع الله، واتصل به زكت نفسه، واصطبغت بالصبغة الكاملة، والإنسان مفطور فطرةً سليمة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم : الآية 30)

لكن إذا أقبل الإنسان على الله اصطبغ بصبغة الكمال:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يكون المسلم حاقداً، أو غداراً، أو محتالاً، أو قاسي القلب، أو جاحداً، أو ظالماً، ولا قيمة لكل ما تعتنق من معتقدات إن كنت بهذه الصفات، لأن الله عز وجل جعل من مهمة النبي عليه الصلاة والسلام أنه يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، وفي القرآن لم ترد قد أفلح إلا بالتزكية، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

(سورة الأعلى : 14-15)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس : 9-10)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون : 1-2)

فتزكية النفس هو غاية الغايات، لأنه ثمن الدخول إلى جنة الله عز وجل.

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)

وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

الآن كمنهج تفصيلي افعل ولا تفعل، قال تعالى:

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

الكتاب هو القرآن الكريم، والحكمة السنة النبوية، وعند الإمام الشافعي الحكمة البيان النبوي لهذه الآيات:

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

ينبغي اتباع هذا المنهج الدعوي :

أي داعية إلى الله، أيّ مدرس ديني، أي مرشد، أي عالم من علماء القلوب، أي خطيب منبر، أي مصلح ينبغي أن يتبع هذا المنهج، أن تعرف الناس بالله أولاً ، ثم أن تدعوهم إلى الاتصال به كي تزكو أنفسهم ، ثم تعلمهم التفصيلات المنهج التفصيلي :

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

تطبيق عملي لهذه الآية :

الآن كتطبيق عملي لهذه الآية، كل الأفكار التي تعتنقها إن لم تصاحبها تزكية نفسية؛ خلق كريم، رحمة بالخلق، إنصاف، لطف، غيرة، بعدٌ عن كل انحراف، أو خديعة، أو حقد، إن لم تتمثل مكارم الأخلاق التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام فلا قيمة إطلاقاً لهذا الاتجاه الذي أنت فيه، لابد من معرفة الله أولاً، يتلو عليهم آياته الدالة على وجوده، ووحدانيته، وكماله، ثم يزكيهم بالاتصال به، ثم يعطيهم المنهج التفصيلي الشرعي: افعل ولا تفعل .

معرفة الله، ومعرفة منهجه، وتزكية النفس، معرفة الله من خلال آياته، ومعرفة منهجه من خلال تشريعه، ثم تزكية النفس لتكون هذه التزكية ثمناً للجنة.

هذه الآية أيها الإخوة منهج لكل داعية إلى الله عز وجل، هذه الآية منهج لكل مصلح اجتماعي، أما ألاّ تهتم بتزكية النفس، ويصبح الدين ثقافةً كأي ثقافة يقترب من التقاليد والعادات، وقد يسميه الناس خطأً التراث التراث الإسلامي، فهذا ليس بالمنهج الذي ارتضاه لنا ربنا.

الأسئلة :

س: أنا عسكري مقيم في مدينة طرطوس، وصلت إلى بلدي دمشق عند صلاة المغرب، هل لي أن أصلي مع الجماعة، أم يحق لي أن أقصر، وأجمع في منزلي حيث أنني سأغادر منزلي غداً؟

ج: صلاة المغرب إن صليتها مع الجماعة في المسجد فهي ثلاث ركعات، وإن أردت أن تقصرها فهي ثلاث ركعات، الأمر لا يتغير، لكن الرباعية تصبح ثنائية، وما دمت قد تجاوزت الثمانين كيلو متراً فلك الحق أن تقصر في الصلاة.

ج: ما الحكم إذا ظهرت المرأة أمام أخي زوجها، أو صهر زوجها بملابس فضفاضة دون زينة؟

س: الحكم أن الحمو هو الموت، كما قال عليه الصلاة والسلام، ذلك أن العلاقة بين زوجة الأخ، وأخ الزوج قد تكون علاقة نابعة من السكنى، والعلاقات الاجتماعية، فقد يحدث في هذا القرب من الخطر ما لا يحدث مع امرأة أجنبية، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام سئل عن الحمو، فقال :

((الحَمْوُ المَوْتُ))

البخاري عن عقبة بن عامر

وهناك آلاف المشكلات الطاحنة التي وقعت في البيوت بسبب هذه العلاقة.

س: إذا كان الوالد كلف ولده ببيع محل، وقال لولده: يا بني بع هذا المحل حتى توفي الدين الذي قد ترتب عليّ، فالأب كلف ابنه أن يبيع محلاً تجارياً ليوفي عنه الدين، فذهب الولد، وباع المحل لوالده، ولم يأتِ له بثمن المحل كاملاً، بل باعه، وأخذ ثلث المبلغ، فهل هذا العمل يحاسب به أمام الله تعالى أم لا يحاسب ؟

ج: لاشك أنه يحاسب، لأن الأب كلف ولده أن يبيع المحل على طريقة الأمانة، وأن يأتيه بالمبلغ ليوفيه الدين الذي استحق عليه، العملية حرام، وسوء ائتمان، ما دام الأب كلف ابنه أن يبيع المحل ليوفي الدين له، وأن يدفع المصاريف التي باع بها المحل، لعلها مصاريف دلال أو شيء آخر، لو قال له: خذ من هذا المبلغ كذا ألف من حقه، لو سمح لك أن تأخذ من هذا المبلغ شيئاً فلك الحق، لو دفعت مصاريف حتى بيع المحل فلك الحق أن تخصمها، أما هو ما أعطاك، ولا وعدك، ولا سمح لك أن تأخذ، وأنت أخذت بالمئة ثلاثين من ثمن هذا البيت، أو هذا المحل، فأنت واقع في إثم كبير، وهو في الفقه سوء ائتمان .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(48-60): تفسير الآيتان 164 – 165
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-11-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الخامسة والستين بعد المئة، ولكن قبل أن نشرع بشرح هذه الآية بتوفيق الله وعونه لابد أن نقف وقفة عند الآية السابقة، وهي قوله تعالى :

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

تذكير بما سبق:

1 ـ هذه الآية أصل من أصول الدعوة:

بينت لكم أيها الإخوة بتوفيق الله في الدرس الماضي أن هذه الآية على قصرها تجمع أصول الدعوة إلى الله، بل تجمع حقيقة الدين، بل تجمع الأهداف الكبرى التي ينبغي أن تحقق من خلال هذا الدين، فلابد من معرفة بالله، وكل ما يعانيه العالم الإسلامي اليوم من مشكلات ما هي بسبب نقص في معرفة أمره و نهيه، الحق بين، الحلال بين، والحرام بين، ولكن بسبب نقص في معرفة الله عز وجل، فحينما قال الله تعالى :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

هذه الآية أصل من أصول الدعوة

الدالة على عظمته، و حينما قال الله عز وجل يصف حال أهل النار :

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة : الآية 33)

الإيمان بالله شيء، والإيمان بالله العظيم شيء آخر، فما لم تعظم الله عز وجل لا تعظم أمره، تعظيم الأمر يأتي من تعظيم الآمر، تعظيم الرسالة يأتي من تعظيم المرسل :

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة : الآية 33)

لعله آمن بالله، لكن ما آمن به عظيماً، قديراً، حكيماً، رحيماً، فعالاً، إليه يرجع الأمر كله، إذاً عصى أمره .

إذاً : مشكلة العالم الإسلامي الأولى نقص في معرفة الله، يظنون أن هذه الآية التي هي أصل من أصول الدعوة :

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

فتلاوة الآيات لابد لها من ثمرة، إن أينع ثمرة لتلاوة الآيات التزكية، حينما تتلو آيات الله الدالة على عظمته، تعظم الله عز وجل، وتقدم عليه من خلال هذا الإقبال تكون التزكية، تصبح مصبوغاً بصبغة الله، الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك، والحب فطرتك، والسمو حرفتك، ومشكلات الناس عبادتك .

هناك من يعيش الناس له، وهناك من يعيش للناس، هناك من يعيش كي يتقرب إلى الله بخدمة خلقه، فالثمرة الأولى لتلاوة الآيات الدالة على عظمته أن تزكو نفسك، فإذا زكت كانت في معية الله عز وجل، ولابد من معرفة تفصيلية بالكتاب و السنة كي تتقرب إلى الله بطاعته، هذا كان موضوع الدرس الماضي بفضل الله .

صيغ هذه الآية والحكمة في اختلافها :

ولكن سئلت خلال هذا الأسبوع أن هذه الآية وردت في ثلاث صيغ في القرآن الكريم .

الأولى: هي الآية الحالية :

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

هذه آية الدرس الماضي .

هناك صيغة ثانية :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)

(سورة الجمعة : الآية 2)

في الأولى التي هي من آل عمران :

(إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

المعنى واضح، و في الأولى أيضا :

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

و في الثانية :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

وفي الأولى :

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

وفي الثانية :

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الفرق بين الآيتين فقط أن الآية الأولى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 164)

وفي الآية الأخرى :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)

(سورة الجمعة : الآية 2)

إذاً: الآيتان متطابقتان .

لكن الآية الثالثة، دعاء سيدنا إبراهيم :

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ)

(سورة البقرة : الآية 129)

كالآيتين السابقتين :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ)

(سورة البقرة : الآية 129)

كالآيتين السابقتين، لكن :

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

(سورة البقرة : الآية 129)

فهناك تقديم: ويعلمهم الكتاب والحكمة، وتأخير: ويزكيهم، ما حكمة تغير ترتيب الأولى عن الآيتين السابقتين؟

أيها الإخوة، الله عز وجل ذكر على لسان نبيه إبراهيم هذا الكلام، هذا دعاء سيدنا إبراهيم، وعَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ، دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي))

(أحمد)

الآية هذه من كلام سيدنا إبراهيم، سيدنا إبراهيم سلسلها قال :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ)

(سورة البقرة : الآية 129)

أي آياتك الدالة على عظمتك، الآيات الكونية والتكوينية :

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ)

(سورة البقرة : الآية 129)

القرآن كلام الله :

(وَالْحِكْمَةَ)

(سورة البقرة : الآية 129)

السنة:

(وَيُزَكِّيهِمْ)

(سورة البقرة : الآية 129)

أو بيان القرآن، والله عز وجل قال في سورة آل عمران :

(يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ)

لا قيمة لمعرفة الكتاب والحكمة من دون تزكية:

هذا كله كلام الله، لكن كلام الله في هذه الآية على لسان سيدنا إبراهيم، وفي كلام سيدنا إبراهيم الذي جاء في القرآن الكريم هو أن التزكية تأخرت عند سيدنا إبراهيم، وقدم عليها تعليم الكتاب والسنة، كأن الله عز وجل أراد أن يبين أن معرفة الكتاب والحكمة من دون تزكية لا قيمة لها، فالله قدم التزكية على معرفة الكتاب والسنة، فأي مؤمن لم تزكُ نفسه ما استفاد من إيمانه شيئاً، مؤمن لئيم مثلاً، مؤمن بالكتاب، وقارئ للسنة، ويفقه أحكام القرآن، ويتلوه تلاوة رائعة، ويحفظ أحاديث رسول الله، لكنه يأكل مالاً حراماً، يعتدي على حقوق الناس، لم تزكُ نفسه، إذاً معرفته بالكتاب لا قيمة لها، من هنا نعرف أن العلم في الدين ليس هدفاً في ذاته بل هو وسيلة .

لماذا كان تعليم القرآن قبل خلق الإنسان؟

أنقلكم إلى آية توضح هذه الفكرة حينما قال الله عز وجل :

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآن(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن : 1-4)

دقق: الرحمن علم القرآن، بعد أن علم القرآن خلق الإنسان، لمن علمه؟ علمه للإنسان، أيعقل أن يعلمه قبل أن يخلقه؟ مستحيل، أيعقل أن يعلم القرآن قبل أن يخلق الإنسان؟ مستحيل، إذاً: ما هذا

الترتيب؟ قال علماء التفسير: هذا ترتيب رتبي، وليس ترتيباً زمنياً، أي لا معنى لحياة الإنسان من دون منهج يسير عليه، المنهج مقدم على حياته في الأصل إذاً .

ولتوضيح هذه الفكرة: لو أن هناك جهاز حاسوب يحلل الدم آليًّا في ثوان معدودة، كلما جاء إنسان يطلب التحليل تأخذ قطرة من دمه تضعها في هذا الحاسوب، وتضغط على بعض الأزرار فإذا الشاشة ممتلئة بتحليلات دقيقة، سبع عشرة تحليلاً في ضغطة زر واحدة، هذا جهاز مجدٍ، وغالٍ جداً، وريعه كبير جداً، لو أنك اشتريت هذا الجهاز، ونسيت الشركة الصانعة أن تبعث لك بكتيب عن استعماله، وتخاف عليه أن يعطب بين يديك، فلم تستخدمه خوفاً عليه، معنى ذلك أنك جمدت ثمنه، إن استخدمته بلا تعليمات أعطبته، ومعنى ذلك أتلفته، أليس هذا الكتيب أهم من هذا الجهاز؟ إن لم تستخدم الكتيب أعطبته، وخسرت ثمنه، وإن خفت عليه جمدت ثمنه .

إذاً: قد تطير بالطائرة إلى الشركة الصانعة كي تستقدم تعليمات التشغيل، لذلك حينما قدم الله تعليم القرآن على خلق الإنسان، أي أن وجود الإنسان في أصل وجوده لا معنى له من دون منهج يسير عليه، ذلك أن الله جل جلاله هو الخبير، قال سبحانه :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر : الآية 14)

فالإنسان أودع الله فيه الشهوات، فالنفس الإنسانية أودع الله فيها الشهوات، إن لم يكن معها تعليمات؛ افعل، ولا تفعل فسوف تتحرك بدافع من شهواتك حركة عشوائية، سوف تعتدي على أعراض الآخرين هذا ما يحصل في كل مكان بالعالم، سوف تعتدي على أموالهم، على أعراضهم، سوف تكون الفوضى، سوف تكون الجرائم سوف يكون البغاء، سوف يكون العدوان، لذلك ما من فساد على وجه الأرض إلا بسبب حركة عشوائية بدوافع من الشهوة من دون منهج ينهجه الإنسان في حركته في الحياة .

إذاً: عندما قال سيدنا إبراهيم :

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

(سورة البقرة : الآية 129)

فردّ الله عليه قال :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة : الآية 2)

فتعليم الكتاب والحكمة يأتي بعد التزكية، أما أن يكون هو الأصل، وأن ننسى التزكية فلا .

ابحثوا كم دعوة إسلامية في العالم ـ والله وأنا أحترم كل الدعوات الإسلامية ـ تبرز عظمة الله عز وجل كي تنصاع لأمره، وتلح على تزكية النفس، على استقامتها، على عفتها، على طهارتها، على صفاء نيتها، على تواضعها، على رحمتها، على حكمتها، إسلام من دون تزكية لا معنى له إطلاقاً،

إسلام من دون تزكية أصبح ثقافة لا غير، أصبح تقليداً، أصبح عادات، أصبح فلكلورا، أصبح نزعة، اتجاهًا، اهتمامًا، أما أن يكون الإسلام ديناً فعالأفهذا مفقود .

أيها الإخوة الكرام، كلكم يتابع ما يجري في العالم، أي هذا الدين العظيم الذي منّ الله به علينا، هذا الدين الذي هو قوام سعادتنا، هذا الدين هو سبب نصرنا :

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : الآية 173)

هو سبب دفاع الله عنا :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : الآية 38)

الإسلام الصافي هو سعادتنا وسلامتنا :

هذا الدين العظيم هو سبب سلامتنا في الدنيا، هو سبب سعادتنا في الدنيا، هو سبب توحدنا في الدنيا، هو سبب انتصارنا على أعدائنا، هذا الدين العظيم بفضله انتقلنا من رعاة للغنم إلى سادة للأمم سابقاً .

إذاً: هذا الدين العظيم :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور : الآية 55)

أترون معي أن هناك تمكيناً في الأرض؟ لا و الله، أن هناك استخلافاً في الأرض؟ لا والله، أن هناك اطمئناناً؟ لا و الله، كونوا واقعيين، لا يمكن أن تقنع طفلاً إلا إذا كنت واقعياً، هل المسلمون اليوم مستخلفون في الأرض، و قد قال الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

لا و الله، هل هم ممكنون؟ لا و الله، هل هم مطمئنون؟ لا والله؟ إذاً ما الجواب؟ الجواب الدقيق هو أنهم لم يزكوا أنفسهم، هو أنهم لم يعظموا ربهم، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله .

حضرت قبل سنتين مؤتمراً في بلد عربي إسلامي حول الأسرة، وأمضينا في هذا المؤتمر أربعة أيام، شهد الله أنه في اليوم الأول صباحاً ومساء، وفي اليوم الثاني صباحاً حتى المحاضرة الرابعة، و المؤتمر في بلد إسلامي، والمؤتمرون نخبة من رجال الفكر في العالم العربي و الإسلامي، والموضوع ألصق موضوع بالإسلام وبالقرآن، وهو الأسرة، والله الذي لا إله إلا هو لم يذكر اسم الله، ولا كلمة الدين، ولا الإسلام، ولا مرة في اليومين الأولين، كل شيء طرح في هذا المؤتمر لا علاقة له لا بالدين، ولا بالقرآن، ولا بالإسلام، معنى ذلك :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم : الآية 59)

إذاً: دين من دون تزكية لا قيمة له إطلاقاً، لا يوجد مؤمن لئيم، ولا مؤمن محتال ، ولا مؤمن كذاب ، ولا مؤمن يملأ عينيه من الحرام ، لا يمكن أن يكون هذا مؤمناً :

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان : الآية 68)

وإطلاق البصر نوع من الزنا، فهذا الدين العظيم سبب نصرنا :

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات : الآية 173)

سبب دفاع الله عنا :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : الآية 38)

سبب وحدتنا :

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(سورة المؤمنون : الآية 52)

سبب تفوقنا على أعدائنا :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ)

(سورة آل عمران : الآية 139)

ترك التزكية سبب للهزيمة والغيّ :

أي الأعلون إن كنتم مؤمنين، هذا الدين إذا ألغينا منه التزكية، إنسان مسلم، لكنه قاسي القلب، يأخذ ما ليس له، يقيم دعوة كيدية على أخيه المؤمن، يتفلت من منهج الله، يطلق بصره في الحرام، يمد يده إلى الحرام، يقبل دخلاً حراماً، و يصلي في المسجد، إذا ألغينا التزكية من هذا الدين بسبب أننا لم نعرف هذا الإنسان بالله عز وجل ماذا يصبح الدين؟ استمعوا ، يصبح الدين على عظمته ظاهرة صوتية كيف؟ أنت قد تأتي بإذاعة، وتضع شريطاً، وتملأ ملعباً كبيراً صخباً، وضجيجاً، بضغطة زر واحدة يشتغل الصوت، ظاهرة صوتية، هذا معنى قول الله عز وجل :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(مريم : الآية 59)

و قد لقي المسلمون ذلك الغي، و أنتم تنظرون كيف أن المسلمين على أنهم يزيدون على مليار ومئتي مليون ، ليس أمرهم بيدهم ، وليست كلمتهم هي العليا ، و للكفار عليهم ألف سبيل و سبيل.

الإيمان مرتبة عالية :

إذاً: أيها الإخوة ، هذه الآية التي تم شرحها في الدرس الماضي خطيرة جداً جداً ، أساس هذا الدين أن تعرف الله ، أساس هذا الدين أن تزكي نفسك ، فما الذي يجذب الناس إلى الإسلام؟ الصدق، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسيء الجوار ، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته ، وصدقه ، وعفافه ، ونسبه ، أمانته ، وصدقه ، وعفافه ، ونسبه ، هذا المؤمن ، المؤمن مرتبة عالية جداً ، المؤمن مرتبة علمية ، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه ، اقرأ هذه الآية :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 113)

ما هو الفضل العظيم؟

الفضل العظيم أن تعرف الله، الفضل العظيم أن تعرف سر وجودك، الفضل العظيم أن تعرف غاية وجودك، الفضل العظيم أن توقع حركتك وفق منهج الله، الفضل العظيم أن يكون لك عمل صالح يصلح للعرض على الله، هذا الفضل العظيم، شق على صدر الناس الآن ما هو الفضل العظيم؟ يكون له دخل فلكي، يركب مركبة راقية جداً ثمنها أربعة وعشرون مليوناً، يسكن منزلا فخمًا جداً، فيه كل وسائل الراحة، يكن له مكانة عالية، هذا الفضل العظيم عنده، كل هذا الفضل عند الناس فضل دنيوي ينتهي كلياً عند الموت، وكل شيء يجمعه الإنسان في الدنيا يخسره في ثانية واحدة، لذلك هذا الدين حينما نلغي منه التزكية، ونلغي منه معرفة الله عز وجل، ويبقى أحكاماً، وأفكاراً، وكتباً، ومجلدات، ومؤتمرات، الحقيقة المظاهر قوية وصارخة، المظاهر الإسلامية قوية وصارخة .

والله دخلت إلى مسجد في الدار البيضاء كلف مليار دولار، مئذنته جامعة، أعلى مئذنة في العالم، مساحة المئذنة جامعة، كل طابق قسم ـ هذه مئذنة ـ بني على ساحل البحر، قالوا فيه :

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

(سورة هود : الآية 7)

المصلي، وهو في الحرم يرى أمواج البحر في فتحات صغيرة في البلور، مسجد كلّف ألف مليون دولار، أي مليار دولار، أقسم لي أحدهم زار المغرب، وصلى الجمعة في هذا المسجد، أقسم لي بالله لا يوجد فيه نصف صف، في خطبة الجمعة، العبرة لا بهذه المظاهر، مظاهر إسلامية كبيرة جداً، مؤتمرات ، حضرت عدة مؤتمرات، كل دولة لها علم، و لها مرافقة، ولها جناح في الفندق، شيء فخم جداً ، ولكن المحصلة ليس أمرنا بيدنا، ولعدونا علينا ألف سبيل وسبيل، النتيجة لسنا

ممكنين في الأرض، لسنا مستخلفين، لسنا آمنين، تسمعون من حين لآخر كيف أن التهديدات تأتينا من كل جانب، هذا هو النصر العزيز :

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

(سورة الفتح : الآية 3)

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

(سورة النساء : الآية 141)

صار الدين ظاهرة صوتية، خطابات، ولقاءات، وحوارات، وندوات بالفضائيات، و مظاهر دينية، ومساجد كبيرة، و مراكز إسلامية، و مكتبات إسلامية، و مؤتمرات إسلامية، لكن لا يوجد التزام بالدين، ألغي منه التزكية و معرفة الله عز وجل ، وبقي :

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

هذه الآية خطيرة جداً، والله عز وجل حينما دعاه إبراهيم عليه السلام ، سيدنا إبراهيم بشر على علو قدره، وهو أبو الأنبياء فقال له :

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

(البقرة : الآية 129)

فكان رد الله عليه :

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة : الآية 2)

الإيمان قبل القرآن، والمعرفة قبل الطاعة :

لذلك قال الصحابة الكرام، أوتينا الإيمان قبل القرآن، ما لم تؤمن بهذا الخالق العظيم من خلال خلقه في السماوات و الأرض، و من خلال خلقه في النفس البشرية لم تستطيع أن تعرف الله، لذلك سيدنا بلال يقول : <<لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت>> .

أيها الإخوة، سواء كنت مؤمناً عادياً فلابد أن تعرف الله كي تحملك هذه المعرفة على طاعته، إذا كنت مؤمناً عادياً لابد أن تزكو نفسك، هل تحقد؟ هل تتمنى أن تزول عن أخيك نعمة لتصبح لك؟ هل تأخذ ما ليس لك؟ هل تكذب؟ هل تحتال على أخذ ما ليس لك؟ هل تملأ عينيك من الحرام؟ إذاً أنت لست في المستوى الذي أراده الله .

أحياناً بعض المسلمين يعتبون على الله في أنفسهم، لماذا ربنا هكذا؟ لمَ لم يكن معنا؟ لمَ لا يظهرنا على أعدائنا؟ لمَ لا يحقق لنا نصراً مؤزراً؟ فالجواب: العباد جميعاً عباده، وهذا الذي ينتمي إلى الله، هذا الذي محسوب على الله، لا يمكن أن يتنزل عليه نصر الله إلا إذا كان كما يريد الله عز وجل: "عبدي، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد و لا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد ،

وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد" .

لا لإيمان إبليس :

أتمنى على الله عز وجل أن تكون هذه الآية التي كانت محور الدرس الماضي، مع هذا التعليق اليوم أن تكون هذه الآية باعثاً لنا على معرفة الله، ثم على تزكية النفس، راقب نفسك، سيدنا عمر قال: <<تعهد قلبك>> ،راقب نفسك، حينما تعصي الله معنى ذلك أن إيمانك لم يكن كافياً بحيث يحملك على طاعة الله، سمه إن شئت إيماناً إبليسياً: إبليس قال :

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص : الآية 82)

قال: خلقتني، آمن بالله خالقاً، قال :

(قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف : الآية 14)

آمن بالآخرة، و مع ذلك مستوى إيمانه بهذه القضايا الكبرى أن الله خالق، وعزيز، ورب، والدار الآخرة، وأن مستوى إيمانه بهذه القضايا الكبرى لم يكن كافياً ليحمل صاحبه على طاعة الله عز وجل، ثم يقول الله عز وجل :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُم

العاقل يبحث عن سبب المصيبة:

والله لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

مسلم، الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي

ذلك بأن عطائي كلام، وأخذي كلام .

هناك كلام دقيق سأقوله لكم، وقلته مراراً: لا يمكن لإنسان فيه ذرة عقل أن يتلقى ضربة بعصا، ثم يحقد على العصا، العصا لا علاقة لها، العصا أداة، إذا كان عاقلاً، وتلقى ضربة بعصا فالعصا لا يُحقد عليها، لأنها أداة ليس غير، ينبغي أن يحقد على الضارب الذي استخدم هذه الأداة، فإذا كان الضارب هو الله جل جلاله، وهو صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى رجعت الكرة إلى ملعبها، عنده مشكلة، وكل إنسان على شيء من العقل ما من مصيبة تصيبه إلا ويبحث عن أسباب لها من عنده .

وهذه (لو)المسموح بها في العقيدة، لو لم آكل هذا المال الحرام لما دمر مالي، لو لم أسترق النظر إلى النساء لما نشأ خلاف بيني و بين زوجتي، لو اعتنيت بأولادي عناية بالغة لما عقوني الآن، كلام دقيق ، كل أدوات الشر في الكون يمكن أن تصفها بأنها عصي بيد الله، رجال أقوياء عصي بيد الله، أمراض، جراثيم، فيروسات، هدم، حرق، جفاف، أي شيء يزعجنا هو أداة تأديبية بيد الله عز وجل .

التأديب الإلهي أنواع كثيرة :

المشكلة أن الإنسان حينما يستحق التأديب يأتيه التأديب من مصادر لا تعد و لا تحصى ،ذكرت هذا في خطبة هلاك الأمم، أن الأمة الخطورة أن تستحق الأمة الهلاك، قد يأتيها الهلاك جفافاً، و قد يأتيها زلزال، و قد يأتيها بركان، وقد يأتيها حروباً أهلية، وقد يأتيها عدواناً خارجياً، لا قيمة لهذا التنوع في التأديب، القيمة والخطورة أن هذه الأمة فعلت ما يوجب التأديب، هذا على مستوى أمم، وعلى مستوى أفراد، أي يوجد عند الله عز وجل آلاف الأدوية المرة، يوجد مرض، والمرض مخيف، يوجد مشكلة زوجية، يوجد مشكلة مع أولادك، يوجد مشكلة في عملك، فالإنسان حينما يرتكب ما يوجب التأديب مهما سدّ الثغرات يأتيه التأديب من حيث لا يشعر، و هذا الذي جرى قبل شهر تقريباً في العالم الغربي هو تأديب من الله عز وجل، لأنهم قالوا :

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

فالتأديب موجود في كل مكان في العالم، فالعبرة ألاّ تصل مع الله إلى مرحلة وجوب التأديب .
أنت في بحبوحتين؛ في بحبوحة تطبيق منهج الله :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : الآية 33)

وفي بحبوحة الاستغفار، إن لم يكن هناك تطبيق، ولا استغفار، وفعلت ما يوجب التأديب فلابد أن يكون التأديب :

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد : الآية 11)

يؤتى الحذر من مأمنه، لا ينفع حذر من قدر، إذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لبٍّ لبَّه .
أحياناً الكافر على ذكائه الشديد يجمع، ويطرح، ويقسم، ثم يجعل الله تدميره في تدبيره، أحياناً يستدرجه من الغرب إلى الشرق لتكون مصيبته في الشرق، فلا ينفع حذر من قدر، لا ينفع ذا الجد منك الجد يا رب، مع الله لا يوجد ذكي، لا يوجد قوي معه، الله القوي ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي شَيْئًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ))

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ

دقق في قوله تعالى :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

انتهى الأمر، الكرة ردت إليك، فلا تحقد على أحد، ولا تندب حظك، هناك أمهات كثيرا يقلن : مسكينة ابنتي ، ليس لها حظ، ما هذا الحظ؟ لا يوجد حظ في الإسلام ، هناك توفيق وعدم توفيق، هناك إكرام وتأديب فقط، وتيسير وتعسير ، لا يوجد حظ، هناك حظ بمعنى آخر :

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت : الآية 34)

من كان له حظ عظيم من الله يمكن أن يصبر :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

فالمؤمن دائماً، وأبداً كلما أصابته ضائقة يراجع حساباته الداخلية، لا مشكلة عنده، طبعاً يقف موقفاً حكيماً مع الناس، لو أن سائقاً أرعناً أساء إلى ابنه يوقفه عند حده، ويشتكي عليه كي يمنعه عن عنفوانه، وعن طيشه في القيادة، لكن لا يحقد عليه :

(أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 165)

ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر، هذه الفكرة في الدين رائعة جداً، أي لم يعد هناك حقد، هناك شعور أن ثمة محاسبة ذاتية، لمَ كان ذلك؟ لأنك فعلت كذا، والله عز وجل كأنه تولى أن يلقي في روع كل مؤمن سبب المصيبة :

(أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

(سورة التغابن : الآية 11)

إلى حكمتها، إلى سببها، والمؤمن على فطنة عالية إن جاءته الأمور كما لا يشتهي يبحث عن سبب فيه، إن جاءته كما يشتهي تقول: الحمد لله، إن جاءت على ما لا يشتهي يسأل نفسه لماذا؟ لماذا حرمت هذا؟ لماذا تعسر هذا؟ لماذا فقدت رزقي؟ طبعاً إن لم يجد سبباً عليه أن يستسلم لكن في الأعم الأغلب يجد السبب.

الأسئلة :

س: كنت مقصراً مع والدي قبل أن يموت ماذا أفعل؟

ج: هل تصدقون أن هناك برًّا للأب بعد الموت، قال: ماذا بقي لي من بر والدي؟ قال: أن تصلي عليهما في الجنازة، وأن تدعو لهما في الصلاة، ربي اغفر لي ولوالدي، وأن تنفذ عهدهما، قال لك الأب: انتبه لأختك، يجب أن تعتني بها كثيراً، فإنفاذ عهد الأب نوع من بر الوالد بعد موته، وأن تصل صديقهما، وأن تصل الرحم التي لم يكن لها صلة إلا بهما، هذا نوع من بر الوالدين بعد الموت .

س: ما صفات المتكبر ؟

ج: رد الحق، وغمط الناس ، هذا تعريف النبي له، لا يقبل الحق، ويبخس الناس أشياءهم .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس49-60): تفسير الآيات 166 – 171
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-11-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية السادسة والستين بعد المائة، وهي قوله تعالى :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ(166)وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 166-167)

مقدمة :

شتان بين فهم القرآن وقطف ثماره :

أيها الإخوة، هناك حقيقة إن آمنت بها امتلأ قلبك أمنا وأمانا، ولكن قبل الحديث عنها يجب أن تعلم علم اليقين أن آيات القرآن الكريم أن تفهم معانيها شيء، وأن تعيش معانيها شيء آخر، وشتان بين من يفهم معنى الآية، وبين من يعيشها و يقطف ثمارها، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

لو أن مؤمنا طائعا لله ورسوله وكان فقيرا، و له صديق عاص لله ورسوله، و كان غنيا، الآية معناها واضح :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

ولكن بمجرد أن يقول: هنيئا لصديقي فهو أسعد مني، إذًا ما عاش الآية، ولا قطف ثمارها، ولا استقر في قلبه شيء من معانيها إطلاقا .

المشكلة أيها الإخوة أن آيات القرآن الكريم قد نفهمها، لكن لا نعيشها، حينما قال الله عزوجل

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

(سورة آل عمران : الآية 126)

المعنى واضح، لكن المسلمين اليوم لا يعيشون هذا المعنى، يرون النصر أن ترضى عنك جهة قوية فتنتصر، وإذا رفعت عنك الغطاء تنهزم، هناك شرك، فالبطولة لا أن تفهم المعنى، أن تعيش هذا المعنى.

موازين الترجيح في القرآن الكريم :

هذه مقدمة مهمة جدا، القرآن الكريم فيه آيات كثيرة فيها قوانين، لكن الناس في واد، وهذه الآيات في واد آخر، أوضح مثل :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

هل ترى نفسك فائزا إن صحت عقيدتك؟ وإن صح عملك؟ وإن انضبطت في حركاتك وسكناتك، أن ترى الفوز هو الغنى، أن ترى الفوز هو القوة، هناك قيم تعتمد في داخل الإنسان، قيم مرجحة، من هو المؤمن الراقي؟ إذا توافقت قيمك في تقييم الأشياء، وتقييم الأشخاص، وتقييم ذاتك مع تقييم القرآن الكريم، أما إذا كانت منظومة قيمك في واد، وقيم القرآن في واد، القرآن رجح العلم، قال تعالى :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 113)

قال :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة : الآية 11)

وقال تعالى :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

(سورة الزمر : الآية 9)

ورجح قيمة العمل فقال :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف : الآية 19)

وقال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : الآية 110)

فالغنى غنى العمل، والفقر فقر العمل، وتجد الناس يعظمون الأغنياء لقيمة المال، ويعظمون الأقوياء لقيمة القوة، ويعظمون الأذكياء لقيمة الذكاء، هذه قيم ليست في القرآن الكريم .

التوكل والأخذ بالأسباب :

أردت من هذه المقدمة أن فهم الآية سهل جدا، لكن أن تعيش هذه الآية شيء صعب، فهل من الممكن لإنسان أن يضع زوجته وابنه في واد غير ذي زرع، لا ماء فيه، ويتوكل على الله، نحن نقول :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق : الآية 3)

لكن لا يمكن إلا أن نأخذ بالأسباب، السبب الذي نأخذ به يطمئننا، ولا يطمئننا أننا على الله متوكلون، ينبغي أن نأخذ بالأسباب ولا شك، لكن ما الذي يملأ قلبك طمأنينة؟ أنك بالأسباب، أم أنك توكلت على الله رب الأرباب؟ فلذلك تجد العالَم الآن منقسم إلى قسمين، قسم أخذ بالأسباب واعتمد عليها، وألّهها فوقع في الشرك، وقسم لم يأخذ بها و توكل على الله توكلا غير صحيح سُمِّي تواكلا وقع في المعصية، لكن أن تجمع بين الأطراف جميعا هذه بطولة .

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ

إذًا: هذه الآية آلام لا تنتهي ولا تعد، لو عقلنا هذه الآية لزالت من أنفسنا كل هذه الآلام :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

لا يقع في الكون إلا ما أراد الله :

كل شيء وقع أراده الله، ولا يقع في كونه إلا ما يريده الله، لا يليق بمقام الألوهية أن يقع في ملكه شيء ما أراده، لا يستطيع الكافر أن يسبق الله عزوجل، قال تعالى :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال : الآية 59)

لا يمكن لكافر مهما كان كفره كبيرا أن يفعل شيئا ما أراده الله .

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن .

ليس في العالم المادي شر مطلق، هل تقبلون هذه الكلمة؟ معي الدليل، العالم المادي فيه حوادث، ما دامت هذه الحوادث وقعت إذًا سمح الله بها، والله عزوجل قدرته مطلقة، لا يقع شيء في ملكه إلا إذا أراده، و إرادة الله متعلقة بحكمته المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، ولكن عقولنا في الأعم الأغلب لا تستطيع أن تستوعب حكمة الله، وهذا الذي جرى في العالم ربما بعد سنوات، أو

بعد عقد من الزمان، تتكشف الحكمة المطلقة في الذي حدث، وكأنه قفزة نوعية للمسلمين، وكأنه تمحيص للمؤمنين، وكأنه فرز للمسلمين ، وكأنه دعوة للتمسك بهذا الدين ، قد لا نجد الآن الحكمة واضحة ، لكن المؤمن يقيس على ما سبق، قال بعضهم :

كن عن همومك معرضا و كِلِ الأمور إلى القضا

و أبشر بخير عاجـل تنسى به ما قد مضـى

فرب أمر مسخــط لك في عواقبه رضـى

و لربما ضاق المضيق و لربما اتسع الفضــا

الله يفعل ما يشـــاء فلا تكن معترضـــا

الله عوّدك الجميــل فقِس على مـا قد مضى

***

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

أي النبي كان يتمنى أن يبقى في المدينة، لكن أصحابه أشاروا عليه أن يخرج، فخرج بإذن الله، وخرج بمشيئة الله، و أمر الرماة ألاّ يغادروا فغادروا، فالتف عليهم العدو من خلفهم بإذن الله .

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

يقع مرض أحيانا، يقع فقر مفاجئ، تأتي حالة لم تكن في الحسبان، يقع حجر من بناء فيصيب إنسانًا .

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

سهل جدا أن نفهم معنى هذه الآية، سهل جدا أن نفهم معنى هذه الآية، ولكنه ليس من السهل أن نعيشها، ليس من السهل أن ترى يد الله تعمل في الخفاء، قال تعالى :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : الآية 17)

اقرأ قوله تعالى :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح : الآية 10)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال : الآية 17)

هذا هو التوحيد، التوحيد يملأ قلبك أمنا وطمأنينة، محنة قاسية أن ينهزم المسلمون، محنة قاسية أن يعصي الرماة أمر النبي، منة قاسية أن يلتف العدو حول المسلمين، محنة قاسية أن يُقتل عدد كبير من صحابة رسول الله يوم أحد، لكن ما دام وقع فهو لصالح المؤمنين، ولحكمة كبيرة جدا، وقس

على معركة أحد أية معركة أخرى، و أي جفاف، وأي زلزال، وأي صاعقة، و أي حرب، و أي اجتياح، و أي عدوان .

إِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ:

لكن إياكم ثم إياكم، ثم إياكم أن تفهموا أنه إذا جاء قضاء على يد البشر أن ترضاه، أو ألا تقاومه، هذا كلام يتناقض مع أصول العقيدة، لو أن عدوا اجتاح أرضنا نقول: هكذا أراد الله؟ لا، نحن راضون بمشيئته، لا، هذا عكس ما أراده الله عزوجل، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ :

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

رواه أبو داود

هذا حينما تُغلب، حينما تبذل كل ما تستطيع، ولا تأتي النتائج كما تتمنى، عندئذ تقول: حسبي الله ونعم الوكيل .

الحاجة ماسّة إلى هذه الآية بسبب طبيعة العصر :

بالمناسبة أيها الإخوة، يبدو أننا نحن نعيش عصرا غريبا جدا، هذا التواصل بين البشر، وارتباط المصالح بين المجتمعات جعل العالم بعد أن كان قرية صار العالم بيتا، وبعد أن كان بيتا صار غرفة، العالم الآن كله غرفة واحدة، من سلبيات هذا التشبيه أن كل شيء يحدث في طرف العالم يتأثر له المسلمون أيما تأثر في الطرف الثاني، طبيعة ها العصر عجيبة، هناك قطب واحد وقوي، ولا يرحم، وكل ما يجري في العالم ينتقل أثره إلى كل أنحاء الأرض، لذلك ما من حدث يقع في طرف الدنيا الآخر إلا و له انعكاس في أي مكان في العالم، لذلك هذه الآية نحن الآن في أمسّ الحاجة إليها :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

كل شيء وقع عن علم وحكمة :

شيء وقع، رهيب غيّر مجرى التاريخ بإذن الله، زلزال هدم مدينة بإذن الله، بركان أحرق قرية بإذن الله، جفاف أمات الحرث والنسل، بإذن الله، ليس معنى هذا أنا لا نتألم نحن، نتألم، ولكن لا نتهم الله في حكمته، ولنصبر، ونغير ونصحح، و نتوب، ولكن لا يحملنا ما جرى على أن نشك في حكمة الله ورحمته، وفي وحدانيته .

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

أتمنى أن أضع بعض الأمثلة بين أيديكم: أب، ورحمة الأب لا يُشك فيها إطلاقا، وعالم، وطبيب جراح، وقد التهبت زائدة ابنه، ولا بد من إجراء عملية فورية، لو أن هذا الأب الطبيب الجراح أخذ ابنه إلى المستشفى، وأعطى أمرا لمساعديه أن يفتحوا بطن الابن، خدروه، و جاؤوا بالمشرط، وفتح البطن، وهو ينظر، لو أن واحدا يراقب سكوت الأب، فهناك حكمة بالغة جدا، لأن الأب عالم رحيم في آن واحد، قد تجد عالما لا يرحمك، وقد تجد رحيما لا يعلم حالك .

أنا ضربت مثلا قبل قليل: الأب المثقف الطبيب الجراح يجتمع فيه العلم والرحمة، فحينما ترى الأب وابنه على طاولة العملية يرى ويسمع وهو صامت، معنى ذلك أن هذا الذي يجري بعلمه وتوجيهه، وبرحمته، ولحكمة بالغة بالغةٍ :

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 166)

إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، ولكن عافيتك أوسع لي، حجم أي مصيبة عند الله بأدق دقائقها، بأدق ميزاتها، لماذا ساق الله هذه المصيبة؟ لأن الله عزوجل أول هدف من أهداف الدنيا أنه دار ابتلاء، لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي .

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا

قال تعالى :

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا)

(سورة آل عمران : الآية 167)

إذًا الموضوع موضوع فرز، قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

ضرورة الفرز والامتحان كما في غزوة أُحُدٍ :

الموضوع موضوع فرز .

شيء آخر في هذا الفرز ينكشف الإنسان في وقت مبكر، فلعله يصحو، إذا أَلِفَ طالبٌ أن يغش في الامتحان، ولم يكشفه، يستمرئ هذه الطريقة فلا يدرس، ويأخذ شهادة بشكل مزوّر، وقد يؤذي

الناس بشهادته، فإذا كُشف الطالب الذي يغش في الامتحان في وقت مبكر، وتلقى عقابا أليما، وارتدع عن هذا، أليس في هذا خير له ولمجتمعه ؟

إذًا :

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا)

(سورة آل عمران : الآية 167)

هناك منافقون ما كانوا ظاهرين، فلما ساق الله هذه المصيبة، فلما انهزم المنافقون في أحُد ظهر نفاقهم وجبنهم وتخليهم عن رسول الله .

(وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

إذا كان عندك مكعبات إسمنتية، هي طبخات، وتريد أن تعمر بناء شاهقا، وخيرت أي هذه الطبخات تأخذ؟ ماذا تفعل أنت؟ ما دمت تنوي بناء شامخا تحتاج إلى أعلى مواصفات في الإسمنت، فتأتي بآلة رأيتها في بعض معامل الإسمنت، كلما طبخت طبخة يصب منها مكعب، هذا المكعب يربط من أعلى، وفي أسفله كفة ميزان توضع فيه الأوزان بالتسلسل، على أي وزن انقطع هذا المكعب، فهذه مقاومة هذه الطبخة بالضبط، معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بالمؤمنين خيرا، وإذا أراد أن يكلفهم عملا عظيما، وأن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعلهم قادة للأمم، لا بد أن يمتحنهم، تأتي هذه الشدائد كي تمتحن المؤمنين .

كان في القاهرة مثلا ألف طبيب في المستشفيات فرضا، لما جاء زلزال القاهرة هكذا سمعت أو قرأت، هؤلاء الأطباء فروا، منهم من هرب شطر الشمال حيث الأمن والدعة، ومنهم من عمل عشرين ساعة في اليوم لإنقاذ الجرحى والمصابين، فلولا هذا الزلزال لم تكن الأمور غير منكشفة، كلهم أطباء .

التجار: تأتي أزمة اقتصادية، فهناك من يركب هذه الأزمة، ويثري ثراء فاحشا على حساب مصالح المسلمين، وهناك من يقنع بالربح المحدود فلا يأخذ ما ليس له .

إذا: الشدائد أو المصائب محك الرجال، تظهر حقيقة الرجال في المصيبة، وهذا شيء بديهي جدا، ما منكم واحد يمتحن مركبة في الطريق النازلة، لا تمتحن المركبة إلا في الطريق الصاعدة .

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا)

(سورة آل عمران : الآية 167)

هذا حال المنافقين في غزوة أحد :

المنافقون انسحبوا، ولم يتابعوا السير مع رسول الله، فكانت هذه المعركة مناسبة كي يمتحن بها المؤمنون الصادقون، أو المنافقون .

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا)

(سورة آل عمران : الآية 167)

عن أنفسكم هذا العدوان .

(قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

حقيقة الأعذار لا يعلمها إلا الله :

الإنسان منطقي، ويعتذر دائما، ولكن مصداقية هذا الاعتذار لا يعلمها إلا الله، يعتذر، وكل إنسان آتاه الله جدلا بإمكانه أن يقدم آلاف المعاذير، و لكن مدى صدقها هذا لا يعلمه إلا الله .

(قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

كنت أقول دائما: عوام الناس ما عندهم إلا حالتان متعاكستان، أبيض أو أسود، الأشخاص وليّ أو منحرف، لم يتعودوا على أحكام معتدلة، أحكام بين بينَ، أحكام دقيقة، أحكام واقعية، فإذا قلت: هذا الشيء أبيض أو أسود، فأنت أخذت حالتين حادتين، لكن بين اللونين قد تجد مئات الألوان التي بينهما، فهذا حكم دقيق بين بينَ، قال :

(هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ

تعلّم الموضوعية في الأحكام

هو كافر؟ لا، مؤمن؟ لا، لكنه أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان، تأدب بآداب القرآن، عود نفسك أن تعطي حكما متوازنا، نحن ليس عندنا إلا جيد جدا، أو سيئ جدا، هذا في شؤون الزواج، يخطب الخاطب من أسرة يمدحه من في هذه الأسرة، و يمدحه من يعرفه، و يثنون على أخلاقه، وعلى تقواه، و على ورعه، وعلى ذكائه... ينشأ ظرف بين الأسرتين فيفسخ العقد، فإذا به أسوأ الناس، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أُرَاهُ رَفَعَهُ قَالَ :

((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا، مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا))

رواه الترمذي

هذه الآية تعلمنا الحكم المتوازن، الحكم الموضوعي، الحكم ما له، و ما عليه، المؤمن من صفاته أن رضاه لا يخرجه عن الحق، وأن غضبه لا يدخله في باطل، أما عامة الناس إذا أحبوا إنسانا تعاموا عن كل أخطائه، وإذا أبغضوا إنسانا هجروا له كل أعماله الصالحة، والحالات الحادة من صفات العوام، هذه الحالات الحادة في الحكم هذه ليست من شأن المؤمن، بل المؤمن يذكر ما له وما عليه .

سيدنا عمر لما ولاه سيدنا الصديق قيل له : <<أتولّي أشد الصحابة علينا؟ قال: أتخوفونني بالله؟ لو سئلت يوم القيامة أقول: يا رب، وليت عليهم أرحمهم، هذا علمي به، فإن بدّل وغيّر فلا علم لي بالغيب>> .

ما هذا الكلام الدقيق؟ <<هذا علمي به؟ فإن بدّل وغيّر فلا علم لي بالغيب>> .

أنا أقول: من معاناة حتى المثقفين يبالغون، أي إذا توسموا الصلاح في جهة أسبغوا عليها العصمة، فإذا عانت ما عانت من أعدائها عتبوا على الله، وإذا كرهوا جهة يجعلونها في أسفل سافلين، فعوّد نفسك أن تعطي الشيء ما له، وما عليه، أن يكون حكمك موضوعيا، فالموضوعية قيمة أخلاقية، و قيمة علمية في وقت واحد .

(هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

ليسوا كافرين، كما أنهم ليسوا كافرين، لكنهم أقرب إلى الكفر من الإيمان .

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

الازدواجية مرض خطير :

هذا النفاق، ازدواجية، كلام يعلن، و معنى يبطن، ابتسامة في وجه شخص، وحقد عليه في القلب، أمام الناس يظهر ورعا، وإذا خلا في بيته ارتكب معصية، وآفة المسلمين الازدواجية، يظهرون ما لا يبطنون، يعلنون ما لا يخفون، حالتهم في خلوتهم غير حالتهم في جلوتهم، هم مع الناس في حال، وفي خلوتهم في حال آخر .

(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه :

((من أسر سريرة ألبسه الله رداءها))

ورد في الأثر

شخص ركب في بيته جهاز نقل صوت بين المطبخ وغرفة الضيوف، بنية أنه إذا كان مع الضيوف ينادي زوجته: اصنعي لنا شيئا، فجاءه ضيوف ثقلاء، فجاملهم، وجاملهم، وجاملهم، وابتسم في وجوههم، وأثنى عليهم، فلما وصل إلى المطبخ، وكان الجهاز مفتوحا فسبّهم، وكال لهم كل شيء، هذه سريرته نقلت إليهم في حالة حادة جدا، لكن الإنسان أحيانا يبطن شيئا ، ويظهر شيئا، هذه حالة مرَضية.

لا ازدواجية عند المؤمن :

ما في قلب المؤمن على لسانه، وما ينطق به في قلبه، ليس عنده ازدواجية، سريرته كعلانيته، خلوته كجلوته، باطنه كظاهره، فعَن الْعِرْبَاض بْن سَارِيَةَ قَالَ :

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ))

رواه أحمد

الإسلام دين الله، لا يحتاج إلى أقبية، يتحدث عنه تحت ضوء الشمس، لأنه الحق، والحق لا يخشى البحث، والحق لا يحتاج أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، ولا أن تقلل من خصومه، ولا أن تبالغ به، لا تستح به، والحق لا يخشى البحث، و ليس بحاجة إلى مبالغة ولا إلى كذب، عليه أو له، فلذلك المؤمن علاقته واضحة .

واللهِ أكاد أقول: ليس في حياة المؤمن سر، كل أموره واضحة، ليس عنده شيء يستحيي أن يعرضه على الناس، وشيء يعرضه .

إذًا :

(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

لرجل فقير جدا عمّة تملك الملايين، فتوفيت فجأة، وهو وريثها، الكل يقول: عظّم الله أجركم، وشكر سعيكم، وإن شاء الله خاتمة الأحزان، جاءه صديق قال له: تهانينا، يبدو أن الصديق حكى

الحقيقة، فنحن عندنا كلام نقوله كثيرا لا نعنيه إطلاقا، بل نعني عكسه، ولكن التقاليد الاجتماعية تسير على هذا، قال له: <<أتحبني؟ قالها رجلٌ لسيدنا عمر، فقال: والله لا أحبك، قال له: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي؟ قال: لا والله، قال له: إذًا إنما يأسف على الحب النساء>> .

المؤمن واضح، إن أحب إنسانا أحبه، وإن رآه منحرفا لا يحبه، ولا يقول له: أنا أحبك، صار تضليلا، أما الآن فيعدّون الشخصية الجذابة هي الشخصية المنافقة، التي ترضي جميع الناس، بل إنهم قالوا بمصطلح حديث نستخدمه أحيانا جاءنا من الغرب: الدبلوماسية، وهي تعبير عن أسوأ النيات بأحلى الألفاظ .

هؤلاء :

(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 167)

ومن أسر سريرة ألبسه الله إياها .

قال تعالى :

(الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)

(سورة آل عمران : الآية 168)

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا

الكافر يشمت بالمؤمن حين المصيبة :

وهذا شأن البعيد عن الله، يترصد المؤمن، فإذا وقع في مشكلة قال: نصحتك أنه ينبغي ألاّ تكون كذا، وأنت ما طبقت نصيحتي، وأكبر شامت للمؤمن الكافر، المؤمن الصادق لا يستشير كافرا، ولا يهتدي بنصائحه، ولا يتضعضع أمامه، ولا يعرض عليه مشكلته، ومن اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله، لا تضعضع أمام كافر، كن متماسكا، لأنه يشمت بك.

(الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)

(سورة آل عمران : الآية 168)

هم ما قاتلوا، لما انهزم المسلمون قالوا :

(لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)

(سورة آل عمران : الآية 168)

نحن رأينا ألاّ نخرج من المدينة .

(قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 168)

هناك صحابة قتلوا في المعركة، هؤلاء الشامتون لا يموتون، لذلك قالوا: لا شماتة في الموت، هذا قدر إلهي على كل العباد، بما فيهم الأنبياء والمرسلون.

حقيقةُ الشهيد في سبيل الله:

قال تعالى :

(الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(168)وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا)

(سورة آل عمران : الآية 168- 169)

الشهيد حيٌّ يُرزَق عند ربه :

إياك، ثم إياك أن تقول عن الميت : فقيد، ويحيا حياة بكل معاني هذه الكلمة إذا كان مؤمنا، إذا مات على الإيمان، بل إذا مات شهيدا يحيا حياة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، والدليل هذه الآية :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 169)

علامة الحياة أنك تُرزق، تأكل وتشرب، و المؤمن بنمط آخر، بآلية أخرى، بنظام آخر، بقوانين أخرى بعد أن يموت حي يرزق، بل حي بأوسع ما في هذه الكلمة من معنى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 169)

الشهيد فرحٌ بفضل الله :

ليسوا أحياء فقط، بل هم فرحون .

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة آل عمران : الآية 170)

لكن لا تقل لي: كشفنا عن هذا الميت في القبر فقد فني، هذا الذي في القبر وعاؤه الذي احتواه في الدنيا، أما هو فشيء آخر، النفس لا تموت، أما الذي يموت فالجسم، فهذا الذي تراه في القبر وقد لُفّ في الأكفان فهذا وعاؤه، أما هو إن كان مؤمنا في أعلى عليين، إن كان مؤمنا في روضة من رياض الجنة، إن كان مؤمنا كما قال الله عز وجل :

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ(40)عَنِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة المدثر : الآية 38-41)

فالمؤمن طليق، أما الكافر فرهينُ عمله السيئ .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 169)

لكن عند ربهم، لا في هذه الدنيا الفانية، لا في هذه الدنيا المتعبة، التي كلها هموم ومتاعب ومصائب، لذلك فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ :

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 170)

يستبشر بإخوانه الذين لم يلحقوا به :

كما قال الله عزوجل في حديث قدسي ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ :

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَه))

رواه البخاري

فهؤلاء حينما عرفوا ما عند الله من نعيم لا يزالون في القبر، قبل الجنة ، القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران، هو حينما توفاه الله على الإيمان، كان في جنة، كان قبره جنة، لذلك فرح بما آتاه الله من فضله، واستبشر باللذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، مؤمن توفاه الله ، له أصدقاء مؤمنون ، رأى ما رأى من عطاء الله وكرمه ففرح ، استبشر بإخوانه الذين لم يموتوا بعد .

لا يخاف من المستقبل ولا يحزن على ما فاته:

(أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 170)

هكذا الدنيا .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة .

(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 171)

هؤلاء المؤمنون الذين توفاهم الله عزوجل ، أو استشهدوا في قبورهم في جنة ، بل إنهم في جنة يتمنون معها لو أن المؤمنين الذين تركوهم يعلمون حقيقتهم ، فهم يستبشرون لهم بهذه الجنة .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(50-60): تفسير الآيات 169 – 171
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-11-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية التاسعة والستين بعد المئة، قال تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 169)

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

الشهيد حي يُرزق :

بينت لكم أيها الإخوة أن للحياة نظامين، نظامًا في الدنيا، ونظامًا في الآخرة، فهذا الذي قتل في سبيل الله هو يحيا حياةً من أعلى مستوى، ولكن بنظام آخر، قد تجده مدفوناً في قبر، وقد تجده فَقَدَ بعض أعضائه، وقد يمثل الكفار بجثته، ولكن هذه الجثة ما هي إلا وعاء له، أما هو ففي أعلى عليين، وفي جنة عرضها السماوات والأرض، لذلك من الوهن أن تظن أن هذا الذي قتل في سبيل الله ميت، إنه حي بنص هذه الآية :

(بَلْ أَحْيَاءٌ)

وكلمة حي لها أبعاد، فهي وعي، إدراك، سعادة، سرور، اتصال بالله عز وجل، فهذا الذي قتل في سبيل الله هو حي يرزق :

(بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

الشهيد فرحٌ بفضل الله :

هؤلاء الذين رأوا ما عند الله من إكرام شديد فرحوا فرحاً كبيراً بفضل الله، وقد قال الله عز وجل :

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس : الآية 58)

وأنا أقول لكم : اجعل لنفسك هذا المقياس؛ ما الذي يفرحك، قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، حينما تفرح أن الله يحبك فأنت مؤمن، حينما تفرح أن الله أعانك على طاعته فأنت مؤمن حينما تفرح أن الله أجرى على يديك الخير أنت مؤمن، حينما تفرح أن الله عصمك من معصية فأنت مؤمن، حينما تفرح أن الله أعانك على تربية أولادك وكانوا صالحين فأنت مؤمن، حينما تفرح أن امرأتك مطيعة لله عز وجل، لا تؤذي أحداً في خروجها، ولا في زيها فأنت مؤمن، أما حينما تفرح في الدنيا في الدنيا فقط، ولو أنها جاءتك من معصية فأنت لست بمؤمن، قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، ما الذي يفرحك؟ ما الذي يملأ قلبك سعادةً؟ أن تكون غنياً فقط، أن تكون قوياً، أن تكون في منصب رفيع، أن تشعر أنه بإمكانك أن تتحكم في الآخرين، أما الذي يفرحك أن يسمح الله لك أن تكون جندياً من جنود الحق، الذي يفرحك أن تشعر أن الله سبحانه وتعالى استعملك في نصرته، استعملك في خدمة عباده، استعملك في ملء قلوب الناس أمناً وطمأنينة، ملء قلوب الناس سعادة، إذا استخدمك في الخير ينبغي أن تفرح .

"عبادي، الخير بيدي، والشر بيدي، فطوبى من قدرت على يده الخير، والويل لمن قدرت على يده الشر، لأن الإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، ملعون من هدم بنيان الله، إذا كان عملك مبنيًا على هدم بنيان الله، مبنيا على إلقاء الرعب في قلوب الناس المؤمنين فلست من الناجين، والمرعبون في النار .

إذا كان عملك مبنيًا على ابتزاز أموالهم، إذا كان عملك مبنيًا على إفساد أخلاقهم، يقول لك: هذا العمل عبادة، وهو يبيع أشياء محرمة، من الذي قال لك: العمل عبادة بهذا المعنى؟ قال تعالى :

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة : الآية 2)

كم حرفة في بلدنا المواد التي تتعامل معها لا ترضي الله عز وجل؟ كم حرفة لا تعد ولا تحصى مبنية على معصية، مبنية على إفساد، مبنية على تفرقة، قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت؟ متى يمتلئ قلبك فرحاً؟ إذا أتقنت صلاتك، إذا وجدت عينك تدمع من خشية الله، إذا وجدت نفسك مخلصاً لله، إذا صليت والناس نيام فانهمرت من عينيك الدموع، ما الذي يفرحك ؟ صنف نفسك مع أهل الدنيا، أو مع أهل الآخرة من خلال هذا المقياس؛ إن فرحت بالدنيا فأنت من أهل الدنيا، وإن فرحك بالآخرة فأنت من أهل الآخرة .

أحد خلفاء بني العباس كان في بيت الله الحرام، فالتقى عالماً جليلاً قال له: سَمِّ حاجتك، قال: والله إني لأستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما لقيه خارج الحرم قال له: سَمِّ حاجتك، قال: والله ما

سألها من يملكها حتى أسألها من لا يملكها، ألح عليه، قال: أنقذني من النار، وأدخلني الجنة، قال: هذه ليست لي، قال: إذاً ليس لي عندك حاجة .

عفة المؤمن صارخة، قال تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(169)فَرِحِينَ)

(سورة آل عمران)

الدنيا متاع ثم ماذا ؟

لذلك حينما يلقى المؤمن الله عز وجل، ويرى مقامه في الجنة يقول: لم أر شراً قط، وقد تكون حياته مفعمة بالمتاعب، لكنه ينسى، كطالب درس دراسة مجهدةً، فلما أحرز الدرجة الأولى في الامتحان أنسته فرحته بهذه الدرجة كل متاعبه، أما حينما الكافر يرى مكانه في النار يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، يقول: لم أر خيراً قط .

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز يقرأ قوله تعالى :

جنة الدنيا :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 205)

متعناهم سنين طويلة، طعام وشراب وبيوت فخمة ومركبات .

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء : الآية 205)

وبعد هذا :

(ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء : 206-207)

هذه الآية كان سيدنا عمر بن عبد العزيز يتلوها كلما دخل إلى مقر عمله.

يقول الله عز وجل :

(إِنَّ هَؤُلَاءِ)

(سورة الإنسان : الآية 27)

احتقاراً لهم .

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا)

(سورة الإنسان : الآية 2)

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

(سورة المدثر :8-10)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم : الآية 42)

(يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران : 196-197)

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة آل عمران : الآية 170)

إخواننا الكرام، كلمة من القلب إلى القلب: إن لم تقل: أنا أسعد الناس، وأنت في الدنيا، وأنت تعاني آلاف المشكلات، أنت سعيد بالله، سعيد بأن الله هداك إليه عرفك بمنهجه، أعانك على طاعته، سمح لك أن تتصل به، إن لم تقل: أنا أسعد الناس ففي إيمانك خلل، لأنه في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، بعضهم استنبط من قول النبي الكريم :

((أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنّةِ))

الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف

أنه في جنة القرب ، وهناك دليل قرآني :

(وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد : الآية 6)

عرفها لهم في الدنيا، أذاقهم بعضاً منها، أذاقهم طعمها، ينبغي أن تكون في جنة، ماذا يفعل أعدائي بي؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، وإن حبسوني فحبسي خلوة .

أنت موصول بالله عز وجل، لابد من أن تكون في جنة هذه الجنة فلنبحث عنها، إبراهيم عليه السلام كان في جنة وهو في النار، قال تعالى :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء : الآية 69)

أهل الكهف كانوا في جنة، وهم في كهف خشن، النبي عليه الصلاة والسلام كان في جنة، وهو في غار ثور، يا رسول الله لقد رأونا، قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف : الآية 198)

يونس عليه الصلاة والسلام كان في جنة، وهو في بطن الحوت، هذه السكينة التي ينعم الله بها على المؤمنين، تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بها ولو ملكت كل شيء .

والله أسمع من بعض الأشخاص الذين فقدوا حرياتهم سنوات طويلة أنهم كانوا في جنة، مع ما كان فيه من سوء المكان والعيش، ومع ذلك فهو مسرور بالله عز وجل، هذا هو جوهر الدين؛ أن تتصل بالله، أن تشعر أن الله يحبك، وأنك بعينه، قال تعالى :

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : الآية 48)

وأنك بحفظه، ورعايته، وأنك محاط برحمته .

((ومَا اجْتَمَعَ قوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَه))

مسلم

السعادة تحتاج إلى استقامة :

أنت بأي مرتبة؟ قوي، ضعيف، فقير، غني، صحيح، مريض، وسيم، ذميم، أنت في أي وضع؟ ما دمت مع الله فأنت في سعادة، هذه السعادة تحتاج إلى استقامة، إلى عفة، ورع، إذا كنت ورعاً ذقت من طعم القرب، فعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

متفق عليه

عند التعارض، تعارضت مصلحتك مع النص الشرعي، فركلت مصلحتك بقدمك، عندئذ تستحق أن تذوق من الله حلاوة الإيمان، الإيمان له حلاوة وله معان، قد تدرك معاني الإيمان، ولا تذوق حلاوة الإيمان، حلاوة الإيمان ثمنها باهظ، ثمنها مجاهدة، ثمنها أن تكون وقافاً عند كتاب الله، ثمنها أن تؤثر النص الشرعي على مصلحتك .

يجب أن تفرح بفضل الله، يجب أن تكون من أسعد الناس وقد تكون دنياك متواضعة جداً، خشنة قد تعاني ما تعاني :

فليتك تحلو والحيـاة مريـرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني و بينك عامـر وبيني وبين العالمين خـراب
إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

ألم تسمع دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

الطبراني عن عبد الله بن جعفر

إذا كان الله معك فمن عليك، هذا الذي أقوله فرحين، رأى ما أعد الله له في الجنة فرح، إنسان.

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 170)

أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

قال تعالى :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : الآية 61)

هل يستويان؟ قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة : الآية 18)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم : الآية 35-36)

لا يستوي إنسان معه حق معه نور، معه منهج دقيق، وإنسان آخر ضائع شارد .

على كلٍ معنى :

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

المؤمن لا يخاف من المستقبل ولا يحزن على الماضي:

ما من كلمات موسعة إلى درجة غير معقولة كهاتين الكلمتين، أنت هنا الماضي كله مغطى، لا هم يحزنون، والمستقبل كله مغطى، ألا خوف عليهم، أنت بخوفك الفقر في فقر، ومن خوفك المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، لمجرد أن تقبل طمأنة الله عز وجل، ولمجرد أن تقبل طمأنة الله عز وجل، قال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة : الآية 51)

فأنت في سعادة، كن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، لا يوجد عندك شيء، لا يوجد عندك منقول، ولا غير منقول، ولا أصفر، ولا أحمر، ولا عملة صعبة، ولا أرصدة، ولا شيء، ولكن أنت واثق من رحمة الله، أنت الغني، والذي يملك كتلا مكدسة فوق بعضها من أنواع العملات، وسبائك ذهبية، وشركات، ومساهمات فهذا فقير عند الله، فلذلك أنت في خوف الفقر في فقر، من خوف المرض في مرض، توقع المصيبة مصيبة أكبر منها .

(أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : الآية 30)

ألا تخافوا في المستقبل، ألاّ تحزنوا الماضي، وإذا تقدمت بإنسان السن، وكان في شبابه غارقاً في الملذات يتحسر على شبابه، دائماً في حسرة، وإذا كانت الأخبار غير سارة فهو خائف من المستقبل، يا ترى نبقى في بيتنا أم لا نبقى؟ يا ترى هل يصبح معنا مرض عضال؟ كيف نموت؟ هذا مات موتات قبل أن يموت، أما المؤمن فواثق من رحمة الله، قال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة : الآية 51)

إذاً :

(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 171)

لابد من الصبر على فقْد الأحبة :

مرة عثرت على حديث شريف رائع، أن أحد الصحابة كان يضع ابنه في حجره أمام رسول الله، وكان ابنه وسيم الصورة، النبي أراد أن يؤنسه فقال: يا فلان، أتحبه؟ قال: والله أحبك الله يا رسول الله كما أحبه، يبدو أنه يحبه حباً عالياً، فدعا للنبي أن يحبه الله كما يحبه، بعد حين افتقده النبي، فسأل عنه، قالوا: ابنه هلك، مات، فالنبي استدعاه، وعزاه، وقال له: يا فلان أيهما أحب إليك أن تمتع به عمرك، أو أن يسبقك إلى الجنة؟ فأي باب من أبوابها فتحها لك، قال: بل يسبقني إلى الجنة، قال: هي لك .

أنا تعليقي الآن: مؤمنان عندهم ولدان وسيمان يملآن البيت بهجة، مؤمن استمتع بابنه طول حياته، كبر ابنه، وصار شاباً وولدًا بارًّا حتى آخر لحظة في حياته، والمؤمن الثاني مات ابنه، وهو في سن صغيرة، المؤمن الثاني صبر، وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، هل من المعقول ألاّ يكون ثمة تعويض للثاني؟ يوجد عدل، هذا ما صبر، والثاني صبر، معنى هذا أن كل شيء بحسابه، فإذا كان الإنسان يعاني في الدنيا ما يعاني، وكان مؤمناً فله عند الله عطاء كبير، فالعبرة الغنى والفقر بعد العرض على الله .

(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

لا يضيع عند الله شيء :

والله لو أنقذت نملة من الغرق، وأنت تتوضأ لن تضيع عند الله، والله لو نزعت قشة من المسجد لقدسيته عندك، ووضعتها في المزبلة فلن تضيع عند الله، والله لو أطعمت امرأتك لقمة، لو أن في الصحن قطعة لحم واحدة، ودفعتها إلى زوجتك لن تضيع عند الله، لو أنك استقبلت ضيفاً، وآنسته، وأكرمته لن تضيع عند الله، لو أنك في عمل، وأنت رأس العمل، وابتسمت في وجه من يعمل عندك، فطمأنته لن تضام عند الله، يجب أن تعلم أنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، عبر عنها العلماء أنك في أيام الشتاء والشمس تدخل إلى أعماق الغرف اكنس أرض الغرفة، ثم انظر ماذا ترى؟ ترى ذرات عالقة في جو الغرفة يكشفها ضوء الشمس ما لها وزن أبداً، وليس لها حجم، إن عملت عملاً صالحاً بمستوى هذه الذرة فلن يضيع عند الله، لذلك نحن نقرأ ستمئة صفحة من القرآن الكريم في رمضان، ومعنا كتب فقه، وكتب حديث، ومعنا كتب تفسير، وتعليقات ومحاضرات، وندوات، وفضائيات، أعرابي قال للنبي عليه الصلاة والسلام :

((عظني ولا تطل ، قال له:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

قال: كفيت ـ اكتفى بآية، فقال عليه الصلاة والسلام: فقُهَ الرجل))

ورد في الأثر

وما قال: فَقِهَ، أي أصبح فقيهاً، آية واحدة :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

رأى زوجته متعبة، فعاونها بعمل بسيط، عاونها بصنع طبق طعام، بغسل صحن، آلاف الأعمال، أطعم هرةً، أطعم كلباً جائعاً ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا، قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

[البخاري، مسلم، أبو داود، أحمد، مالك]

فلذلك أبواب العمل لا تعد ولا تحصى، بيتك فيه ألف طريق إلى الله، تربية أولادك، جلست مع أولادك صبرت عليهم، ربيتهم، تجاوزوا حدودهم أدبتهم، ألبستهم، أطعمتهم، جلست مع أهلك كلها أعمال صالحة، إن كنت مؤمناً فما من حركة ولا سكنة إلا تعد عند الله عملاً صالحاً .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(120)وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة التوبة : 120 - 121)

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(170)يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

لا تخف ظلماً ولا هضماً، لا تخف أن تعمل عملاً صالحاً، ثم يضيع هذا هباءً منثوراً، أمثلة تدعم هذه الفكرة .

كنت مع صديق لي توفي رحمه الله، وهو من لبنان، في أحد أحياء دمشق يرجع بمركبته إلى الوراء، فاصطدم بمركبة عمومية، أنا قلقت، لعل هذا السائق ينزل، ويتكلم كلاماً، شيء غريب، نزل السائق، ونظر إلى ما أصيبت به مركبته من ضرر، الضرر يحتاج إلى آلاف الليرات، قال للسائق اللبناني: أنت مسامح، اذهب، وهذا في أثناء أحداث لبنان، هذا الموقف غريب جداً، وجدت هذا الصديق تنهمر من عينه دمعة، أنا عجبت، هل من المعقول أنه فرح لأنه ما دفع تعويضاً عن هذا الحادث؟ ليس هذا هو المعنى، سألته: لماذا تأثرت؟ قال لي: والله قبل سنتين، وأنا في بيروت، إنسان من سوريا ركب سيارة بيجو، ومعه أهله محجبون، صدم سيارتي، قال لي: والله ما أردت أن أفسد عليه نزهته، قال له: اذهب، فلما رأى من يعامله نفس المعاملة خشع لله .

لا يضيع عليك شيء أبداً، أطعمت طعاماً، تنقذ إنساناً، تنصح إنساناً، تتساهل مع إنسان، تعفو عن إنسان يعفو الله عنك، فلذلك يجب أن تعلم علم اليقين أنه ما من عمل صالح مهما دق فله عند الله أجر، ما أكرم شاب شيخاً لسنه، وأنت كنت شاباً تركب مركبة عامة، صعد إنسان متقدم في السن، بالمناسبة إن من إجلال الله إجلال ذا الشيبة المسلم، إنسان مسلم وجهه منير، عمره ثمانون سنة، هذا إكرامه إكرام لله عز وجل، فأنت وقفت له، وكنت جالسا في مقعد .

في المسجد يأتي إنسان متقدم في السن، يحب مكاناً مريحاً، وترى شبابًا صغارا جالسين، مرتاحين، وهذا الإنسان المتقدم في السن لا يجد مكاناً يرتاح فيه، جدير بالشاب إذا كان جالساً في مكان مريح، ورأى إنساناً متقدماً في السن أن يقدّمه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّه))

الترمذي

لا يمكن أن يعامل اللهُ المؤمن وغير المؤمن على حد سواء :

لي صديق بمصر قال لي: توفي لنا قريب قبل أن يتوفى قال لي : شخص عادي جداً، حتى أقلّ من العادي، دون الوسط، وأولاده في الدين دون الوسط، أسرة من عامة الأسر، غير متميزة إطلاقاً، فلما مرض الأب وجد من أولاده عناية لا يمكن أن تصدق، أولاد عاديون لا يوجد دين قوي يدفعهم لخدمة والدهم، ولا يوجد هذا الأب المثالي الذي قدم كل شيء لأولاده، لا هذه، ولا تلك، قال لي: عجيب، بقيت أشهراً وأنا في حيرة من هذا الوضع، سمع من خدمة الأولاد لأبيهم شيئا لا يصدق، مع أن الأبناء عاديون، والأب عادي، ثم اكتشف أن هذا الأب حينما كان شاباً كان يرعى أباه رعاية من هذا المستوى، فسخر له الله هؤلاء الأولاد ليرعوه، هذه الآية يجب أن تدخل للعظم، تدخل لأعماقنا، تكون مع ذرات دمائنا، مع خلايا جسمنا :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

اشترى رجلان سيارتين من ألمانيا، فجاءا بها إلى الشام، نزلا في فندق في بولونيا الساعة الثانية عشرة ليلاً، ثم طرق بابا الغرفتين من قبل فتاتين عاهرتين، الأول فتح الباب، والثاني ما فتح، في المستقبل الأول صاعد، والثاني نازل، سلم محله، اختلف مع زوجته فطلقها، وأفلس، والثاني الذي ما فتح ارتفع قدره، كل شيء بحسابه :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة التوبة : الآية 120)

كنت مرة راكبًا مع إنسان، فسألته سؤالاً، قد يكون سؤالاً عادياً، قلت له: هذه المركبة متى اشتريتها؟ قال لي: من كذا سنة، ولكن لها قصة، قلت له: ما قصتها؟ قال لي: أنا ساكن في حي بعيد عن عملي، وما عندي مركبة، وكنت متألماً جداً من أزمة المواصلات، ومن حمل الأغراض، فاشتريت ورقة يانصيب لعلي أربح، فأشتري بالمال مركبة أحل بها مشكلتي، اشتريت هذه الورقة، ودخلت إلى أحد المساجد، فإذا الخطبة عن اليانصيب، لا حول ولا قوة إلا بالله، علق الآمال على هذه الورقة، فما كان من هذا الخطيب إلا أن تكلم على اليانصيب، أخرج الورقة، ومزقها في المسجد خوفاً من الله، قال لي: أنا بالعادة أعمل في عشرين قطعة مئة قطعة، جاءني إنسان يريد خمسين ألف قطعة، قال لي: ربح هذه الصفقة ثمن هذه السيارة، كان تعليقي أنا: إنه معقول أن تمزق ورقة اليانصيب في الجامع خوفًا من الله، ثم لا يعطيك الله مقابلا، الله موجود .

هناك قصص لا تعد ولا تحصى، لو أردت أن أعزز هذه الحقائق بقصص لا تعد ولا تحصى، هل من المعقول أن تدع شيئاً لله، وتكون أنت الخاسر، معقول أن تطيعه وتخسر؟ وأن تعصيه وتربح؟ معقول أن ترعى أولادك والله عز وجل يجعلهم عاقين لك، مستحيل، معقول أن تختار زوجة لأنها مؤمنة، ثم لا تسعد بها؟ مستحيل، معقول أن تترك عملاً لله فيه دخل كبير وترضى بدخل يسير،

ولكنه شريف، وتكون آخر الناس؟ مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه، وتخسر، وأن تعصيه وتربح .

هذه الآية :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه (7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : الآية 7-8)

أيُعقل كلما رأى شاب فتاةً فقال: أعوذ بالله، معاذ الله، فغض بصره عنها، وإنسان يملأ عينيه من الحرام، لا يدع منطقة في جسم الفتاة إلا ملأ محاسنها بعينيه، ثم يتزوجان، ويعاملان معاملة واحدة؟ قال تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : الآية 21)

حياتهم الدنيا ومماتهم ساء ما يحكمون، تترفع عن شيء محرم ولا تأخذ الثمن، طبعاً قد يكون في الآخرة، وليس في الدنيا، والدنيا ليست دار جزاء .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : الآية 21)

أيُعقل أن تنصح مريضاً بعدم إجراء العملية لأنه لا يحتاجها، وطبيب آخر ينصحه بإجراء عملية، ولا يحتاجها، أن يعامل الطبيبان سواءً؟ معقول أن تعتذر عن أخذ دعوى، وأنت محامٍ، لأن الدعوة فيها ظلم، ومحامٍ آخر لو أنه ظالم يأخذ الدعوى، ويدافع عن الظالم ويربح، ويعامل المحاميان معاملة واحدة .

والله أذكر إنساناً دخل بيتي، فقال لي: كم تقدر عمري؟ قلت له: ستون، قال: ستة وسبعون، أنا تفاجأت، قال: والله بإمكاني أن أهدم هذا الجدار، أشعر كأنني حصان، مات منذ كم سنة، عاش إلى التسعين، والله أعلم، وليس متقيدًا بشيء من قواعد الصحة .

بالمناسبة، قال لي: ولكنني عملت في سلك صعب جداً، وفيه دخل مخيف، لو أراد أن يأخذ مالاً حراماً، قال: والله ما ضررت إنساناً واحداً في حياتي، ولا أكل قرشاً حراماً، والله عز وجل في نهاية حياته كان له بيت في الشام، وبيت في المصيف، وأولاد ومركبة، قال لي: أنا في بحبوحة كبيرة، ومرة أصيب بحادث، وكاد يفقد حياته، لأن دمه كله نزف منه، إلى أن وصل إلى المستشفى قال لي: وأنا مستلقٍ على طاولة العمليات ناجيت الله، وقلت له: يا رب إن آذيت لك عبداً واحداً من عبادك فأمتني الآن، وإلا فلي حق عليك أن تشفيني، قال لي: ما كنت سبباً في إيذاء واحد بكل حياتي، وغيري بنى مجده على أنقاض الناس، وبنى غناه على إفقار الناس، وملؤوا قلوب الناس رعباً، قال لي: قصموا وماتوا فقراء .

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(السجدة : الآية 18)

هذه حقيقة مهمة جداً، لا يمكن أنت تعامل كما يعامل الفاسق، لا يمكن أن تعامل كما يعامل المنحرف، لا يمكن أن تعامل إذا كان دخلك حلالاً كما يعامل الذي دخله حرام، لا يمكن أن تعامل إن أردت من زواجك طاعة الله كمن أراد من زواجه المتعة فقط، مستحيل، لذلك قال تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

أجرك محفوظ، بل إنك إن تضع لقمة في فم زوجتك تجدها يوم القيامة كجبل أحُدٍ .

أراد إنسان أن يتزوج، فخطب فتاة مناسبة جداً، الفتاة في طول رجليها فارق ثمانية سنتمترات، عاهة ولادية، فتلبس حذاء كعب ثمانية سنتمتر، وكعب زحاف، وتلبس الطويل، الأمر تمام، خطبت، وأعجبت من خطبها، فتم الزواج، وكتب العقد، يوم العرس انكشفت، وحماتها كشفتها، فحملت ابنها على تطليق امرأته، قال لها: لا أطلقها، ولا أكسر خاطرها، يقسمون بالله خلال سنوات معدودة صار معه مئتا مليون، ويوجد قرابة، قال لأمه: لا أكسر خاطرها، لا يوجد مشكلة، واستوعب الموضوع، ورحمها .

مستحيل أن تعمل عملاً طيباً لا ترى ثماره في الدنيا، أو في الآخرة، لذلك هناك قول ترتعد له المفاصل: "ما أحسن عبد من مسلم أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة"، ولو كان كافرًا، ملحدًا، خدم الله فهيأ له من يجازيه على خدمته في الدنيا .

ترى إنساناً لا يوجد به دين، ولكن يحب أن يخدم، ترى أموره ميسرة، دخله معقولا، ما عنده مشكلة، الآخرة موضوع ثان، تخدم إنساناً في الدنيا فيضيع عليك هذا العمل، هذا مستحيل، مستحيل على عظمة الله، وعلى كماله، وعلى فضله، وعلى عدله ورحمته :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

تترك بيتك المريح، وأنت مرتاح على الفراش، وزوجتك معك تشرب الشاي، والقهوة في الإفطار، أريد صحنًا من الفاكهة، وتترك هذا البيت المريح، وتلبس، وتأتي إلى المسجد، وتجلس على الأرض، لا يوجد كأس شاي، تسمع درس ساعة، وتعود ثلاث ساعات، هذه بلا مقابل ! مستحيل، الله يضيفك في المسجد، يضيفك سكينة، حكمة، توفيقًا في حياتك، أولادًا أبرارًا، زوجة صالحة .

قال أحدهم: "أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي"، إذا ما كنت مع الله جيداً تحرن الزوجة، تغلبك من دون سبب، الله يضيفك زوجة، أولادًا أبرارًا، يضيفك صحة، طمأنينة، سعادة، سكينة، "إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر " .

ممكن ألاّ تضيف إنساناً دخل إلى بيتك شيئًا؟ ولو سُكّرة، ولو كأسًا من الشاي، مستحيل، ما تضيف الله عز وجل، أنت في بيته، نوع ضيافته نوع متفوق جداً، يكرمك بسكينة تملأ قلبك يكرمك بالتوفيق، قال تعالى :

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل : الآية 7)

يكرمك بالتوفيق :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

لا تخف، ولو أديت أقل عمل تتصوره فلن يضيع هذا الأجر، بل هو محفوظ عند الله، إن شاء عجل لك ثوابه في الدنيا، أو أخّره إلى يوم القيامة .

ذهب إنسان إلى بلد غربي، يبدو أنه مربى تربية دينية، وجد الفسق غير معقول، أرسل إلى والده رسالة، وقال له: إما أن ترسل لي زوجةً على جناح السرعة، وإما أن أعود إلى البلد، أنا أعصي الله، والوضع لا يحتمل، فالأب طلب منه وكالة، وعمل عقدًا، وأرسلها له .

أسمع قصة أنه يوجد وفاق بين الزوجين لا يصدق، لماذا؟ لأن هذا الزواج بني على طاعة الله عز وجل، الإنسان يشاهد خمسين امرأة لا تعجبه، هذا على ذوق أبيه تزوج، يرى خمسين يكون ما شاهدها، طبعاً في المطار قال لها: إن فلانًا ما شاهدها، يمكن أن ينجح هذا الزواج إلى أقصى درجة، لأنه بني على طاعة، القصص لا تعد ولا تحصى في تعزيز معنى قوله تعالى :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

يأتي أخ يعمل في المسجد خمس ساعات يوم الخميس لوجه الله، بلا مقابل، هذه عند الله!

الله عز وجل قبل توبة بغِيّ رأت كلباً يأكل الثرى من العطش، فسقته، قال: فغفر الله لها، فشكر لها، تطعم كلباً بلا مقابل، تطعم هرة، تعتني بحيوان مريض بلا أجر! هذه انزعها من ذهنك، أهل الدنيا مساكين يتوهمون أن المؤمن أجدب، يبذل ماله، ما تريد بوجع الرأس، اجلس في بيتك أريح لك، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُم))

الترمذي، ابن ماجه، أحمد

يقول لك: أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح .

ورد في الأثر :

((من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل خطوة خطاها عبادة سنة ، قام ليلها وصام نهاره))

ورد في الأثر

والعوام يقولون: امش في جنازة ولا تمش في زواج، هذه لا أريد أن أوجع رأسي، وهذه أعتذرمنها، وهذه ليس لدي وقت فراغ، ترى نمطاً لا يعمل شيئاً، شخصان أحدهما أقدسه تقديساً لا

حدود له، لأنه لا يخطئ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم، ويوجد إنسان لا يخطئ، ولكن أحتقره، وهو الذي لا يعمل، فلا يغلط، لا يقدم خدمة، لا يعاون على عمل صالح، لا يساهم بمشروع، ينتقد فقط، لا يغلط، لا يتورط في شيء أبداً، اسمه العفريت النفريت، نازل واقف، دائماً لا يدخل في عمل صالح، مرتاح، فقط ينتقد، ينظر للناس، ويشمت بهم، وينتقدهم، هذا الإنسان مع أنه لا يخطئ يُحتقر، من لا يعمل لا يخطئ .

فلذلك نحن نرجو رحمة الله عز وجل، يستبشرون المؤمنين .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الثانية والسبعين بعد المائة، وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ

التضرع إلى الله عقب المصيبة :

شيء رائع أن تستجيب لله عقب مشكلة ألمت بك، معنى ذلك أنك فهمت على الله، أن هذه المشكلة لم تكن صدفة، لكنها كانت بتقدير عزيز حكيم، مرب رحيم، والذي تأتيه المصيبة، ولا يفهمها، لا يفهم حقيقتها، لا يفهم باعثها، لا يفهم من قدرها عليه، فمصيبته في نفسه أكبر، هو المصيبة، من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر بكثير، لذلك لو دخلت إلى مسجد لا تبالغ، فقد يكون تسعة أعشار الحاضرين التجؤوا إلى الله، وأقبلوا عليه، واصطلحوا معه عقب تدبير إلهي حكيم، عقب تدبير تربوي، وإن الله رحيم، والرحيم لا يحصي على الطرف الآخر أخطاءه، لكنه يعالجه .

الابتلاء والمحن من أجل التضرع :

لا بد من مثل أضربه كثيرا، لو أنك مدير مؤسسة، وعينت موظفا، واشترطت عليه أن هناك مدة للتجريب، فإما أن تفصله وإما أن تقبله، المدير في هذه المدة مهمته إحصاء الأخطاء، فإذا بلغت حدا غير معقول صرفه، واستبدل به آخر، لو أن هذا الموظف هو ابنه، مهمة المدير حينئذ ليست إحصاء الأخطاء، ولكنها معالجة الأخطاء، فكلما أخطأ بدافع رحمة، كلما أخطأ يأتي به، يوضح له، ينبهه، يبين له الصواب، هذا شأن الرحيم، شأن القوي إحصاء الأخطاء، شأن الرحيم معالجة الأخطاء، فالإنسان لو أن الله كلفه حمل الأمانة نصب له الكون دالا عليه، وعلى كماله، وعلى وحدانيته، وعلى وجوده، أرسل له الأنبياء والكتب، وأعطاه عقلا، وأعطاه فطرة، وأعطاه اختيارا، و أعطاه شهوة، و أعطاه كل حاجاته للتكليف، وانتهى الأمر، لوجدت أن معظم الناس استحقوا النار

أبدا مؤبدا، لكن الله يسوق لبعض الخلائق شدة، يقتر عليهم في الرزق أحيانا، يسوق لهم بعض الشدائد، يصيبهم بالجفاف أحيانا، يصيبهم بحكم قاهر أحيانا، قال تعالى :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: الآية 65)

هذا كله من أجل التربية ، هناك دليل أقوى ، قال تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم: الآية 41)

لا يمكن أن يكون هناك فساد من قِبَل الله عزوجل، كماله مطلق، فكل شيء يسيره الله عزوجل كمال مطلق .

مثلا: مجتمع النحل أرقى مجتمع في الوجود، لأن مجتمع النحل العلاقات فيما بين النحلات بأمر تكويني، لا بأمر تكليفي، النحلة ليست مكلفة، لكنها مسيَّرة، أن تكون منظمة، هناك أشياء مدهشة في النحل، التكافل، النظام، نحلة لكلمة السر، نحلات للتهوية، نحلات وصفات للملكة، نحلات يستكشفن مواقع الزهر، لو درست مجتمع النحل لذهلت، الملكة واحدة لو ادعت الملك ملكة أخرى تُقتل، نظام ما بعده نظام، لكن هذا نظام بأمر تكويني، لكن مجتمع البشر نظامهم بأمر تكليفي، بعضهم يطيع، و بعضهم لا يطيع، فالشيء من فعل الله مباشرة هو كمال مطلق، لذلك قال تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم: الآية 41)

وهذه الباء للسبب، بما كسبت أيدي الناس، لماذا؟ قال :

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

(سورة الروم: الآية 41)

شاءت حكمة الله أن يذوق هؤلاء البشر نتاج فسادهم، و كان من الممكن ألاّ يذوقوا نتاج الفساد . مرض الإيدز مثلا، هذا ظهر من الشذوذ تقريبا في الدرجة الأولى، كان من الممكن أن يكون هناك انحلال أخلاقي، وإباحية وشذوذ، يكتفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ولا يكون هذا المرض، و لكن هذا المرض شاءته حكمة الله، قال :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم: الآية 41)

لماذا ؟قال :

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم: الآية 41)

واضح تماما، معنى ذلك ما منا أحد إلا تولى الله تربيته، إما أن يخيفه، وإما أن يوهمه بشبح مصيبة ساحق إما أن يعالجه من خلال صحته، من خلال دخله، من خلال عمله، من خلال زوجته، أولاده، من خلال علاقاته الخارجية، لا بد من التربية :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الفاتحة: الآية 2)

المربي ليس مهمته أن يمدك بالغذاء، والطعام، والشراب فحسب، لكن مهمة المربي الأولى أن يأخذ بيدك إلى سعادتك، وإلى صلاحك، وإلى استقرارك، فلذلك قال تعالى :

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

الاستجابة لله والرسول هي الأخذ بالكتاب والسنة :

استجابتك لله أن تتوب إليه، وأن تصطلح معه، واستجابتك لله أن تنفذ ما في القرآن، واستجابتك لرسول الله أن تنفذ سنته الشريفة، لذلك فالإنسان عنده بحبوحة، قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

كيف نفهم الآية بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى؟ الآية دائمة، ما دامت سنة النبي مطبقة في بيوتنا، في أعمالنا، في أفراحنا، في أتراحنا، في علاقاتنا، في كسب أموالنا، في سفرنا، في حلنا وفي ترحالنا، فنحن في مأمن من عذاب الله، لقد أنشأ الله لنا حقا عليه، قال :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: الآية 33)

أما إذا اكتفينا بالشعائر، بالعبادات الشعائرية، بالصلاة والصوم والحج والزكاة، ولم نتقيد بالعبادات التعاملية، من الصدق، والأمانة، والعفة، وصلة الرحم، وإنجاز الوعد، وإحقاق الحق، إن لم نتقيد بهذه العبادات فقدنا حقنا في قطف ثمار هذه العبادات الشعائرية، فتغدو عبادات جوفاء لا معنى لها، فلذلك يقول الله عزوجل :

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

يمكن أن تستجيب لله إذا تفكرت في عظمة هذا الكون، يمكن أن تستجيب لله بمبادرة منك، يمكن أن تستجيب لله حينما تنظر أن هذا الكون ينطوي على عظمة خالقه، وأن هذا الخالق العظيم ينبغي أن أكون على صلة معه، ويمكن أن تستجيب بعد مشكلة، وكلاهما على العين والرأس، ومن أساليب النبي عليه الصلاة والسلام أنه يقول :

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

رواه مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ

ولكن النبي جبّار الخواطر، قال:

((وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

والمؤمن الضعيف على العين والرأس، أما القوي فنفعه أوسع، ومهمته أخطر، وبإمكانه أن يرقى إلى أعلى درجات الجنة من خلال القوة التي مكنه الله بها، لذلك كلما التقيت بإنسان ممكّن في الأرض بمنصب رفيع أقول له: لك حساب خاص مع الله، ما مكنك الله في الأرض إلا لتستخدم هذه القوة في نفع المسلمين، في إحقاق الحق، فإن لم تستفد من هذه القوة فلك إثم مضاعف، فكل إنسان ممكن في الأرض إن فعل خيرا فله جزاء مضاعف، وإن فعل سوءا فله عقاب مضاعف، لأنك قدوة، وكل من قلدك في الخير أعماله في صحيفتك، ولأنك قدوة، وكل من قلدك في الشر - لا سمح الله - فشره في صحيفتك، لذلك ذكر الله نساء النبي، وقد وعدهن بأن يؤتي كل واحدة منهن أجرها مرتين، لأنها السيدة الأولى في المجتمع، زوجة النبي الكريم، يؤتها أجرها مرتين، قال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

قالوا: ما ضاعت عَبرة - دمعة - كانت لصاحبها عِبرة .

المصائب نعمٌ باطنة:

واللهِ أحيانا إخوة كثر اهتدوا إلى الله عقب مشكلة ألمت بهم، قد يكون عقب مرض، قد يكون عقِب عقاب أليم نزل بهم، قد يكون عقب محنة خسروا بها حريتهم لفترة ما، هؤلاء الإخوة الكرام يقسمون بالله إن هذه المحنة سبب سعادتهم، وأن هذه المصيبة سبب اصطلاحهم مع الله، لذلك وقعها عندهم وقع مقبول جدا، بل محبب، لهذا سمى الله هذه المصاب نعما باطنة، قال:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان: الآية 20)

المصائب نعمة باطنة، واللهِ أخ قبل أسبوع ساق الله له محنة في عمله شديدة، أفقدته محله التجاري، أفقدته مكانته في السوق، وضاقت به الأحوال، وضاقت ذات يده، وعانى ما عانى، أقسم لي بالله قبل أيام أنه عرف عن الله أشياء ما كان يعرفها قبل المحنة، وارتقت عبادته إلى مستوى ما كان يحلم بها قبل المحنة، وازدادت معرفته بالله ما كان ليكون هذا إلا بعد هذه المحنة، فالمؤمن الصادق حينما يصيبه الله بمحنة ليعلم علم اليقين أن وراء المحنة منحة، وإذا ساق الله له شدة ليعلم علم اليقين أن

وراء هذه الشِّدة شَدة إلى الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

((يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

رواه مسلم

لابد من الرضى بقدر الله لجهل الإنسان بالحكمة الربانية :

إذا سلب الله منك بعض الصحة ليعوض عليك أضعافا مضاعفة قربا منه، لذلك النبي الكريم علّمنا أن المؤمن إذا جاءت الأمور كما يتمنى، وإذا جاءت الأمور على غير مراده يقول، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَال))

ابن ماجه

هو راض عن الله، سواء انتصر المسلمون أو لم ينتصروا، الأمر بيده، أنا عليّ أن أدعو لهم، و أتفاعل معهم، وأن تكون مشاعري معهم، لكن لله حكمة بالغة لا أعلمها أنا .

الفرق بين الذي يعبد ذاته والذي يعبد الله أن الذي يعبد ذاته إذا جاءت الأمور وفق مصالحه يسلم لها و يقبلها، ويثني على الله من خلالها، أما إذا جاءت على خلاف ما يريد أساء الظن بالله عزوجل، هذا الإنسان لا يعبد الله، يعبد ذاته، لذلك الله عزوجل لحكمة بالغة جعل مساحة كبيرة من الأمر التكليفي لمصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة، لكن هناك قيم من أوامره التكليفية لامتحان عبوديته لله، لو لم تفهمها، لو لم تقف على حكمتها، لو عجبت لماذا صار هكذا، لماذا تخلى الله عن هؤلاء؟ أنا عبد فقير، وعلمي محدود، لا يمكن أن تعرف الله من خلال أفعاله فقط، ينبغي أن تعرف الله من خلال خلقه، ومن خلال كلامه، هذان مصدران آمنان لمعرفة الله، في ضوء معرفتك بالله من خلال خلقه، ومن خلال كلامه تفسر أفعاله .

مثل بسيط جدا: أنت إنسان رأى رجلا طويلا قويا متينا يمسك بطفل صغير ويضربه، تقول: هذا وحش، لو علمت أنه أب، و قلب: الأب من آيات الله الدالة على عظمة الله، لعله ضبط ابنه بسرقة، وهو ابنه، لا بد أن يعاقبه، لا أن يحدث له خبرة مؤلمة، أنت لاحظ نفسك، تمشي في الطريق رأيت

ابنك وابن أخيك وصديق ابنك يدخنون، ينشأ عندك انفعا تجاه ابنك لا يصدق، وينشأ انفعال أخف من ابن أخيك، أما الثالث فتقول له: انطلق، الانفعال الشديد تجاه ابنك، قد تضربه، ابن أخيك أقلّ، تقول له: سأخبر أباك، أما صديق ابنك فلا علاقة لك معه، ما دام هناك رحمة، فهناك معالجة .

قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ)

(سورة التوبة: الآية 38)

ينصحكم .

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة: الآية 38)

هذا موقف الإله، لكن موقف الرب :

(إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التوبة: الآية 39)

معنى ذلك أن العقاب دليل رحمة، هناك دليل أقوى، قال تعالى :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ)

(سورة النعام: الآية 147)

جميل.

(وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النعام: الآية 147)

تقتضي رحمته الواسعة ألاّ يرد بأسه عن القوم المجرمين، لا سمح الله ولا قدر، لو أن أبا رحيما علم أن ابنه في حاجة إلى عملية، وإن لم تُجر في أيام ثلاثة يتفاقم المرض، هناك أورام، إن استأصلتها في الوقت المناسب لا تنتشر، و هناك أورام لا سمح الله ولا قدر إن أهملت استئصالها تنتشر، عندئذ الشفاء منعدم، فالأب الرحيم قد يبيع غرفة نومه ليجري لابنه العملية الجراحية، هذه الرحمة .

إذًا :

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

القرح، الجرح، مطلق الألم.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ

هنيئا لمن استجاب لله عقب مصيبة :

كنت في درس من دروس الأحد، فإذا أخ يتبعني ويقول: لك عندي قصة، لا بد أن ألقيها، تفضل، طبعا في لقاء في البيت، قال: أنا عندك منذ ثماني سنوات، قال لي: كنت في فرنسا أدرس، قال: ما من معصية إلا اقترفتها هناك، ولو أنها شاذة، و لو أنها قذرة، قال: ألفت حياة الفجور، والزنا، والشذوذ، والسهر، والخمر، طبعا حصل على دكتوراه في الكومبيوتر، قال: عدت إلى بلدي، نقلت ما في باريس إلى دمشق، بيتي فيه ملهى، وتفلت، أول السنة في فنادق، زوجته منطلقة إلى درجة غير معقولة، حدثني بالتفاصيل، وقال لي: أرجوك أن تتلو قصتي على الإخوة، القصة قديمة، في عمله مركزه قوي، وهو وسيم الصورة، له شهادة عالية جدا، منفتح إلى أقصى درجة، متفلت إلى أقصى درجة، بالتعبير الدارج، زوجته سافرة، وهو كذلك، قال لي: فجأة رأيت أشياء تتحرك أمامي هكذا، وفقدت التوافق الحركي، والتوازن في المشي، لا بد من إنسان يمسكني، إذ حاولت إمساك كأس شاي، ست أو سبع محاولات حتى تتوافق يدي مع كأس الشاي، ولا يمكن أن يمشي وحده إلا بمن يعينه، فقد التوازن، و الصورة مرتجة أمامه، وكل شيء يتحرك، قال لي: لم يبق طبيب في دمشق إلا وقد زرته، قال لي: زرت ستة و ثلاثين طبيبا، ولا أمل، فعاد إلى فرنسا مكان دراسته هناك، قال لي: بفرنسا أول ما لاحظوا أعراض هذا المرض أخذوني إلى مستشفى، وجاء طبيب بطائرة هيليكوبتر، فوجئوا أن هذا المرض نادر جدا، نسبة الإصابة به في العالم واحد من ثلاثة عشر مليونا، وسورية ثلاثة عشر مليونا، فهو مندوب سورية، قال لي: الذي آلمني أشد الألم أن معالجتي وإقامتي وعودتي بالمجان، هدية من فرنسا، لأني صرت حقل تجارب، هذا المرض نادر جدا، يقدم كحقل تجربة، قال لي: بقي الطبيب يعالجني ستة أشهر، و قال لي بالحرف الواحد: إن اختصاصي أعلى اختصاص في العالم في هذا المرض، قال لي: لا أمل في شفائك، أرقى مركز في العالم هنا، وأعلى اختصاص أنا، ولا أمل، نصحني أن أذهب إلى الهند كي أمارس اليوغا، وأن ألتحق بمهرجان من مهرجان التهنيد، فعدت إلى بلدي، والدنيا سوداء في عيني، حياة لا تحتمل، لا يستطيع المشي، ولا يستطيع أن يمسك شيئا بيده، والصورة مهتزة أمامه، يسكن هنا قريبا من جامع الحاجبية، وكان لي درس هناك قديما ، قال لي: كان لي قريب كان يحضني على حضور الدرس، بشكل غير معقول قال: مللت منه، لدرجة أني حضرت درسا واحدا كي أسكته، قال لي: واللهِ أنا في واد، وأنت في واد، كل تفكيري في المعاصي والآثام، وما فهمت كلمة من الدرس، هذا قبل أن يصاب بالمرض، قال لي: بعد أن عدت من فرنسا، وحالتي ميؤوس منها، دعاني مرة ثانية، قال لي: حضرت الدرس، هذه المرة هناك شيء من الاستماع، قال: وأنا في الدرس قلت: يا رب إن شفيتني فسأصلي، شرط، قال لي: في الدرس الثاني قلت أنت دون أن تشعر: إن الله عزوجل لا

يشارط، ولا يجرّب، الذات الإلهية علية، لا تشارط، ولا تجرب، قال لي: "دخلت إلى البيت، فقلت لزوجتي: أريد أن أغتسل لأصلي، قال لي: وقفت في الصلاة، وقرأت الفاتحة، وأنا أبكي، في منتصف الفاتحة الصورة ثبتت، قال لي: والله كدت أصعق، ما تركنا محلا في العالم، قال لي: بعد أن انتهت الصلاة مشيت فوقعت، لم تذهب الحالة الثانية، أمسكت الكأس لم أستطع، بعد ساعة عاد لي التوافق الحركي، و التوازن في المشي، وشفيت من مرضي، و لزم هذه الدروس ثماني سنوات، ورجاني أن أقول قصته، والقصة قديمة .

هذا لولا هذه المصيبة أين هو الآن؟ من ملهى إلى ملهى، ما الذي ساقه إلى الدين؟ هذه المصيبة، لذلك عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ :

((كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَالْخَنْدَقِ فَأَخَذْ الْكِرْزِينَ فَحَفَرَ بِهِ، فَصَادَفَ حَجَرًا، فَضَحِكَ ،قِيلَ: مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: ضَحِكْتُ مِنْ نَاسٍ يُؤْتَى بِهِمْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فِي النُّكُولِ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ))

رواه أحمد

ثمة رجل عنده مطبعة، يبدو في المواسم الجيدة جدا، قال لي: حققت أرباحا فلكية، هكذا قال لي بالضبط، وأنا أنقل لكم ما قال لي، قال لي: هيأت خمسمائة ألف ليرة، وضعتها عملة صعبة، أردت أن أمضي شهرا في أمريكا، من دون زوجته، حتى يأخذ حريته، هكذا صراحة، قال لي: هناك، ثالث يوم أو سادس يوم شعرت بآلام شديدة في ظهري، زار طبيبا فقال له: سرطان في النخاع الشوكي، قال لي: بركت، قطعت إجازته، عاد إلى الشام، من جامع إلى جامع، بعد ذلك لم يكن معه سرطان، ساق الله له هذه الشدة ليحمله على التوبة، ليس هناك واحد إلا والله عزوجل يعالجه، ويؤتى من مأمنه، المكان المرتاح فيه تأتي منه المشكلة، قال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

الاستجابة بعد المصيبة فضيلة كبيرة :

هذه فضيلة في الإنسان، أن هذه المصيبة فكر فيها، قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء: الآية 147)

إن الله لا مصلحة له أن يسوق لعباده شدة، جفاف، الجفاف تقنين تأديب، لا يمكن أن يكون الجفاف تقنين عجز، أما نحن كبشر فليس عندنا كهرباء زائدة، انقطعت الكهرباء، انقطع الماء، البشر إذا قننوا فتقنين عجز، الإله إذا قنن فتقنين تأديب، لقوله تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: الآية 21)

نحن كل طموحنا في الشام نريد مائتين وعشر ميلي طول السنة، خلال سبعة أشهر، نزلت اثنتي عشرة ساعة في الجزائر، ممكن ، فأن تستجيب لله بعد القرح هذا جيد جدا ، فضيلة، لكن بعد أن تستجيب لله تائبا، و بعد أن تعمل صالحا، لك أجر عظيم .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

استجاب وأحسن، استجاب و تفوق، استجاب وأعطى .

هناك إنسان إذا مر أمام أستاذ ظالم يمكن أن يضربه، هناك إنسان وضعه مع الله خائف، على طول خائف من الضرب، يجب أن تكون محبا، أن تكون محسنا، هناك فرق بين أن تدافع التدني، أو أن تتابع الترقي، فأنت حينما تأتي الله مطيعا منيبا خاشعا يقبلك الله، ويطمئنك، ويرفع شأنك، ويعلي قدرك، ويرفع لك ذكرك .

الإحسان بعد المصيبة شيء رائع :

فالذين استجابوا شيء رائع، لكن للذين أحسنوا منهم، بعد أن استجاب له عمل طيب، بذل، أعطى .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

عكرمة بن أبي جهل، أبو جهل أعدى أعداء النبي، أحد صناديد الكفر، و كان من أشد الناس عداوة للنبي عليه الصلاة والسلام، فيبدو أن عكرمة تاب، فالنبي الكريم لكماله العظيم قال :

((جاءكم عكرمة مسلما فإياكم أن تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذي الحي ، ولا يبلغ الميت))

ورد في الأثر

يؤذي ابنه، ولا يصل الميت، فلما كانت بعض المعارك نزل عن فرسه، سل سيفه، وانخرط في صفوف العدو، سيدنا خالد خاف عليه، لك مواقف وأنت مع رسول الله، أنا ليس عندي شيء .

المؤمن لما يستجيب يتمنى أن يعوض كل شيء قصّر فيه سابقا، يعمل فيه أعمالا صالحة، هذا استجاب، وأحسن، وليس أنه استجاب وبقي سلبيا، لا، كل موقف وقفه ضد الحق سيقف مكانه مع الحق، كل إنفاق أنفقه على شهواته الآن سينفقه في طاعة الله، كل وقت أمضاه مع رفقاء السوء سيمضيه مع طلاب العلم، هذا معنى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران: الآية 172)

قال تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية 173)

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

جمعوا لكم حشودا وتحالفات، و طائرات، حاملات طائرات، و صواريخ، وقنابل تلقى بمظلة، و شيء انشطاري، و شيء عنقودي، وشيء ذكي، قال :

(فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران: الآية 173)

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل

اعبد الله الذي بيده الأمر كلُّه :

ليس لنا إلا الله، الله عزوجل مستحيل، وألف ألف ألف ألف مستحيل أن يسلمنا لإنسان ظالم يفعل ما يشاء، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: الآية 123)

ينبغي أن تعبد من أمرك بيده، أما توهم الناس لضعف يقينهم وتوحيدهم، ولشركهم الخفي أن الأمر بيد واحد يملي إرادته على كل الناس وكل الشعوب، هذا وهم شركي، قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: الآية 123)

ولو لم تفهم حكمته من بعض أفعاله، أنا مؤمن بوجوده، و بكماله المطلق، وبحكمته، ورحمته وعدله، هذه الأمور أنا لا أفهمها، لا أفهمها إلا بحالة واحدة، أن يكون ليعلم كعلم الله، وهذا مستحيل، إذًا: أنا أسلّم لله عزوجل، أنا مهمتي أن أعبده، قال تعالى :

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر: الآية 66)

وقال تعالى :

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف: الآية 144)

أنا أتعاطف، وأبكي أحيانا ألما لما يجري، أتألم ألما شديدا، وأتمنى تمنيا شديدا، أدعو من أعماق قلبي، أنا عبد فقير لا أملك أن أحدث تغييرات في العالم، لكن أنا علي أن أطبق منهج الله في بيتي وعملي، وأن أشكره .

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف: الآية 144)

تنتهي مهمتك هنا .

قال تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

(سورة آل عمران: الآية 173-174)

إن الله عزوجل وعدنا، لكن متى تحقيق الوعد؟ لا نعرف، وعده قطعي، لكن متى؟ هذا في علمه، متى ينصرنا؟ لا نعلم، نعلم أنه يجب أن نطيعه، أن نحبه، و أن نعتمد عليه، وانتهت مهمتنا .

قال الله عزوجل :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران: الآية 175)

إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

الشيطان يخوف المؤمنين من أوليائه، فهنا نهي :

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران: الآية 175)

التفسير المطول - سورة أل عمران 003 - الدرس(52-60): تفسير الآيات 173 – 176
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-11-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الثالثة والسبعين بعد المائة، وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

مقدمة :

الدنيا دار امتحان وبلاء :

أيها الإخوة، بادئ ذي بدء، إن المؤمن حينما يوقن أن هذه الدنيا دار ابتلاء، وأنها مرتّبة على الامتحان، وفي آية أخرى يقول الله عزوجل :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون : الآية 30)

وفي آية ثالثة :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك : الآية 2)

أنت لست في دار نعيم، ولست في دار جزاء، ولست في دار سرور، أنت في دار ابتلاء، في دار امتحان ، في دار تكليف، في دار تعب، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق : الآية 6)

الابتلاء في المنع والعطاء :

ذلك أن الله خلق الإنسان للجنة، و ثمن الجنة في الدنيا، هو نجاحك في هذا الابتلاء، الأصل أنك مبتلى، أي ممتحن، ممتحن في شيئين؛ أو في زمرتين، فيما أُعطيت، وفيما سُلب منك، الدعاء الشريف :

((اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله لي عونا فيما تحب ، وما وزويت عني ما أحب فاجعله فراغا لي فيما تحب ...))

ورد في الأثر

إنسان آتاه الله الصحة، هو مبتلى بها، أينفقها في طاعة أم في معصية ؟

إنسان آتاه الله المال ، هو مبتلى به ، أينفقه في طاعة أم معصية ؟

بل إن كل حظ من حظوظ الدنيا آتاك الله إياه لا يعد نعمة، شيء موقوف على طريقة استخدامه، فإن أنفقت المال في طاعة اله عد نعمة، وإن أنفقته في معصية الله عد نقمة، فإياك أن تقول: هنيئا لفلان آتاه الله المال، قد يكون المال بلاء كبيرا، إن أنفقه في معصية، فلذلك القصة أن توقن أن الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء، أنت مبتلى بزمرتين من المواد، فيما آتاك الله، وفيما زوى عنك .

سئل الإمام الشافعي : " أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال : لن تُمكن قبل أن تُبتلى " .

أنا أقول لكم: اعتمادا على نصوص من الكتاب و السنة لا بد للمؤمن أن يبتلى، و لمجرد أن تتوهم أن الله لن يبتليك فأنت واهم، قال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت : الآية 2)

قال تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 142)

يجب أن تتأكد، وأن توقن أنك في دار ابتلاء، بل إن من خطب النبي عليه الصلاة والسلام :

((إن هذه الدنيا دار ابتلاء، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ومن عرفها لم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لثواب الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

الديلمي عن ابن عمر

الابتلاء لكشف حقيقة النفس :

هذه أول حقيقة، أنت حينما توطن نفسك أن هذه الدنيا دار ابتلاء، ذاك من ماله، وذاك من صحته، وذاك من زوجته، و هذا من أولاده، وهذا في عمله، وهذا عنده مشكلة نفسية، ليس هناك إنسان على الإطلاق إلا وقد ابتلاه الله عزوجل، طبعا الإيمان لا يظهر بالابتلاء الإيجابي، يظهر بالابتلاء السلبي، كما أن المركبة لا تظهر قوة محركها في الطريق الهابطة، لا تظهر قوة محركها إلا في الطريق الصاعدة .

أحيانا المدرس يسأل الطالب سؤالا، فيجيب إجابة صحيحة، قد يكون هذا الطالب سمع الجواب من زميله، عندئذ المدرس يتأكد من وثوق معلوماته، يغالطه، فإذا تشبث الطالب بإجابته معناه أنه عن دراسة، أما إذا غالطه فغيّر الإجابة فورا معنى ذلك أنه عن تقليد، لو كنت مؤمنا، و لو كنت مستقيما، فلا بد من أن تبتلى ليظهر عمق إيمانك .

كنت مرة في معمل إسمنت، و دخلت إلى مخبره، أطلعوني على مكعبات إسمنتية، كل مكعب خلطة، طبخة، يمسك من أعلاه المكعب، ومن أسفله بكف، يضعون بها أوزانا بالتدريج، على أي وزن قُطع المكعب هذه قوة تماسكه، فالطبخات مستويات، فكل واحد منا عنده تماسك، على وزن معين يفقد تماسكه، فكل واحد قد يعصي الله بضغط معين، أو لإغراء معين، الله يمتحن، أما أن نعيش حياة وادعة ليس فيها ابتلاء، و نحن في ضعف في إيماننا، لكن لم نُمتَحن فلا، لا بد من أن نمتحن ، قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون : الآية 30)

لذلك أحيانا الله عزوجل يخلق ظروفا معينة، ظروفا صعبة جدا لإنسان، قد يسقط ، قد يعصي الله، و قد يمد يده للحرام، فيرسب الإنسان في الامتحان .

يجب أن تؤمن أنك ممتحن في كل شيء، واحد طرق بابك، إنسان طلب منك حاجة، إنسان استقرضك، إنسان تطاول عليك، أنت مبتلى، هل تكيل له الصاع عشرة؟ أم الصاع بصاع، هل تعفو عنه؟ هل ترثي لحاله، وتأخذ بيده؟ فلذلك نحن في الدنيا في دار ابتلاء، و المضائق الصعبة التي مر بها النبي عليه الصلاة و السلام لا بد لكل مؤمن من أن يمر بمضائق مخففة، لكن لا بد منها .

الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

فمن هذا الابتلاء الذي ابتلى الله به المؤمنين قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

أحيانا إنسان وادع مرتاح مطمئن، أموره جيدة، معه رزقه وبيته وأولاده فيأتي خطر خارجي، ماذا نفعل؟ هناك من ينقم، وهناك من يصبر، هناك من يكشف الحقيقة، هناك من يأخذ موقفا، قال تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

الخطر الخارجي ابتلاء :

والشيء المزعج أن الإنسان أحيانا لأنه قال : لا إله إلا اله أصبح مدانا في بلاد كثيرة، نحن الحمد لله ترون اجتماعكم في المسجد، لكن في بلاد لو دخل الإنسان المسجد مرة واحدة يسجن، فقد يسأل سائل: لماذا هذا الابتلاء؟ الابتلاء لفرز المؤمنين، فمن أنواع الابتلاء أن يأتيك خطر خارجي ، يهدد

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

حشدوا الأسلحة والجيوش، والطيران ، والحاملات، والمروحيات، والقنابل العنقودية، والقنابل الانشطارية، والقنابل الذكية، والأقمار الصناعية، نسمع عن أسماء أسلحة ما سمعناها من قبل، فقد يأتي خطر خارجي فهذا ابتلاء، قد يأتي تهديد خارجي، هذا ابتلاء، قد يأتي وعيد، هذا ابتلاء، قد تبتلى بعدو قوي، عدو متغطرس، عدو لا يرحم، عدو حاقد، عدو ناقم، هذا ابتلاء .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون : الآية 30)

ومن خلال هذا الابتلاء يفرز المؤمنون؛ فريق يخاف، فريق يركع، فريق ينبطح، وفريق يوقن بأن الأمر بيد الله، فربنا عزوجل بين بعض أنواع الابتلاء :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا)

(سورة آل عمران : الآية 173)

التهديد الخارجي لم يؤثر في الصحابة ، بل زادهم إيمانا:

فهذا التهديد ما أثر فيهم، وهذا الوعيد ما أثر فيهم، وهذا الحشد ما أثر فيهم، وهذا الكبر ما أخافهم، وهذه الغطرسة ما أذلتهم .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا)

(سورة آل عمران : الآية 173)

زادهم إيمانا بأنه لا إله إلا الله، أي لا معطي، ولا مانع، ولا خافض، و رافع، ولا معز، ولا مذل إلا الله .

أمرك بيد الله :

بشكل مبسط: هذا الإله العظيم إذا سلمك إلى مخلوق مثلك لئيم ، ولا علاقة له بما يفعل بك كيف تعبده؟ لكنه طمأنك فقال لك :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : الآية 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر عائد إليه بشكل دقيق، هذا معنى قوله تعالى :

(فَزَادَهُمْ إِيمَانًا)

(سورة آل عمران : الآية 173)

هناك مثل، وإن كان مثلا مضحكا، جندي التحق بثكنة، أو بقطعة عسكرية، وهنك متقدم عنه عريف، هدده، وقائد الجيش أبو هذا الجندي، الذي بيده رتب عالية جدا، فلمجرد أن يبكي هذا الجندي من تهديد هذا العريف يكون أحمق، ولا يعرف أن والده هو قائد الجيش، وأن الأمر كله بيد والده، هذا مثل للتقريب، فأنت مؤمن، أمرك ليس بيد إنسان، ولا بيد جماعة، ولا بيد دولة، ولا بيد دولة عظمى، ولا بيد طاغية، أمرك بيد الله، ما دمت موقنا أن أمرك بيد الله فقد نفسك .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا)

(سورة آل عمران : الآية 173)

أحيانا الإنسان يتزلف، أو يتصنع الصبر، هذه القضية لا علاقة لها بدرسنا .

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربعُ

أحيانا يكون هناك تجلد فارغ، هذا يحدث قبل الانهيار، يتجلد، يتجلد، وبعد ذلك جلد لا معنى له، و ليس مستندا إلى قوة عظمى .

قال تعالى :

(فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

معنى : حَسْبُنَا :

حسبنا: أي يكفينا، حسبك أي اكتفِ، إنسان يعطيك طعاما، فقلت له : حسبك ، أي اكتف، قال تعالى :

(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

يكفينا أننا عبيد لله، يكفينا أننا طائعون لله، يكفينا أن الله بيده أمر عدونا وصديقنا .

(وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران : الآية 173)

فقال تعالى :

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 174)

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ

لذلك لما قال ربنا عزوجل على لسان المؤمنين :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة ، الآية 51)

لنا غير علينا، هذا المبلغ لي، لي تعني أنه لك، و أنه مكافأة، إنما علي تعني أنه عبء، وأنه عقاب .

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة : الآية 51)

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ)

(سورة آل عمران : الآية 174)

القضية قضية إيمان .

خذ مثلا فرعون الطاغية :

هناك مثل حاد جدا، فرعون و ما أدراك ما فرعون، فرعون بقوته، وجبروته، وأتباعه ، وأسلحته ، ولؤمه ، وقسوته ، وحقده ، وغطرسته ، يتبع سيدنا مع أصحابه ، الاتجاه نحو البحر الأحمر ، البحر لاح في الأفق ، قال تعالى :

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا)

(سورة الشعراء : الآية 61-62)

ليس هناك أمل، فرعون لا يقابل من حيث القوة، و لا يُسترحم من حيث الرحمة، وسيدنا موسى وأتباعه شرذمة قليلون، هم في اتجاه البحر، و البحر مانع، وفرعون من ورائهم .

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء : الآية 61-62)

والله عزوجل أجرى هذه المعجزة، سيدنا موسى ضرب بعصاه البحر فأصبح طريقا يبسا في البحر، والله على كل شيء قدير .

لا مستحيل على الله :

يجب أن توقن في الأشياء التي تبدو لك مستحيلة، مرض عضال، قال لك خمسون طبيبا :لا أمل، ولا له دواء، وبقي لك بضعة أشهر، هناك أورام خبيثة، عمرها شهر أو شهران، مهما كان المرض خبيثا، مهما كان العدو مخيفا فالله على كل شيء قدير .

واللهِ أيها الإخوة، لي صديق مدرّس، أصيب بمرض السرطان في رئتيه، أنا تابعت الموضوع، وُجد أن هذا المرض من الدرجة الخامسة، صاحبه منتهٍ، فأرسلوا خزعة إلى بريطانيا، الجواب نفسه، لا أمل أبدا، هناك أمل في المائة عشرون، أن تزرع له رئة جديدة في أمريكا، والمبلغ يساوي ثمن بيته، ورث بيتا في أرقى أحياء دمشق، ثمنه غال جدا، هذه العملية تساوي ثمن بيته، لا بد من بيع البيت، وأن يبقى أولاده في بيت بالأجرة، وقد يموت في المائة ثمانون، لا أدري ماذا حدث، والذين عالجوه أصدقائي، والتحليلات في الشام وفي بريطانيا، وكل طبيب شاهده قال: لا أمل له، ثم إن هذا المرض تراجع شيئا فشيئا، والقضية مضى عليها أعتقد خمسة عشر عاما، ولا يزال حيا يرزق .

حينما تؤمن أن الله على كل شيء قدير ترتاح .

البارحة أوقفني أخ اشترى ورقة يانصيب، وربح خمسين ألفا، ثم علم أن هذا مبلغ حرام، فأنفقه على فقراء المسلمين، قضية المشروعية موضوع ثان، هذا الذي فعله ما أدخله إلى حسابه، يعمل في شركة، استدعاه مدير الشركة، قال له: هل تزوجت؟ قال له: أنا خاطب، قال له: عندك بيت؟ قال له: لا، قال له: خذ هذه المائة والخمسين ألف ليرة دفعة من ثمن بيت، شيء لا يصدق، الله على كل شيء قدير، بيد الله كل الخيارات .

لو فتحنا باب القصص لا ننتهي، تحتاج إلى إيمان ، والواحد منا لا سمح الله ولا قدر لو ركب البحر ووقع، و جاء حوت التقمه، و دخل إلى بطن الحوت، والحوت وجبته المعتدلة أربعة أطنان، وزنه مائة و خمسون طنا، ينتج تسعين برميلَ زيتٍ، لحم خمسون طنا، دهنه خمسون طنا، وتسعون برميل زيت، دماغه وزنه أربعمائة وخمسون كيلوًا، نصف طن، وهذا الحوت ابتلعه، أحيانا الواحد يأكل كرزة أو زبيبة، الشخص الذي وزنه مائة كيلو إذا ابتلعه الحوت مثل الزبيبة لنا، هل هناك أمل ليعيش؟

سيدنا يونس التقمه الحوت، مقدار الأمل صفر، هذا الدرس بليغ لنا .

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء : الآية 87)

لم يكن معه خلوي، أساسا ليس هناك تغطية تحت .

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء : الآية 87-88)

واللهِ هذه القصة لو أرويها مليون مرة لا أشبع منها، لأن من قوله تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء : الآية 88)

أيّ همٍّ يركبك، أي شيء يقلقلك، لو أنك في بطن حوت، وفي ظلمة الليل، وظلمة البحر، و ظلمة بطن الحوت، فنادى في الظلمات، وقلت: يا رب صادقا لوجدت الله معك، كن مع الله تر الله معك .
القضية لا بد لها من إيمان، وقد تنجو بقدرة قادر، طائرة انشقت نصفين، فوق جبال الألب، ومات كل ركابها عدا واحدا مقعده مكان انشطار الطائرة، فوقع ونزل ثلاثة وأربعين ألف قدم، نزل فوق غابة كمية الثلج تزيد على خمسة أمتار، فوق أشجار الصنوبر، خمسة أمتار ثلج، مع أغصان الصنوبر، ونزل واقفا .

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم ، فالمخاوف كلهن أمان امرأة تسافر من جدة إلى باكستان، معها طفلان رضيعان، حدث خلل في نافذة الطائرة، والطائرة مضغوطة ثلاثة أمثال، فصار هناك قوة دفع نحو الخارج، فولداها الاثنان خرجا من النافذة، وسقطا حول دبي، في بحر الخليج، الموت محقق، بكت، بعد أيام جاءت برقية إلى الشركة بباكستان أن الطفلين حيّان يرزقان، تابعت الأمر، سقطا إلى جانب صياد، فرأى شيئا هبط من السماء إلى البحر، فغطس وأنقذهما، أخذهما إلى مستشفى، الله على كل شيء قدير، إياك أن تيأس، إياك أن تقول: انتهيت، إياك أن ينقبض قلبك .

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلها أمان هنا :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

(سورة آل عمران : الآية 173-174)

كن مع الله تر الله معك، وإذا كنت مع الله كان الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ ويا ربي ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ هذا الإيمان، تجد المؤمن كالباخرة العملاقة كأنها جبل، والمؤمن الضعيف الإيمان كأنه قارب، تتلاعب به الأمواج .

ثم يخبرنا الله عن سبب ذلك، قال تعالى :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

(سورة آل عمران : الآية 175)

إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ

قد تخاف بغير سببٍ:

بالمناسبة ربما لا يكون هناك سبب للخوف، الخوف يخلق في نفس الإنسان قلقا، والله عزوجل قادر أن يخيف الإنسان بلا سبب، يوهمه بمرض عضال، و ليس كذلك، يوهمه بأشياء كثيرة، فالله عزوجل قادر أن يسوق مصيبة حقيقية، ومصيبة وهمية، قادر أن يملأ قلبك خوفا، وقد تخاف بلا

سبب، وقد تطمئن بلا سبب، الله عزوجل قد يملأ قلبك أمنا وطمأنينة، ولا يوجد سبب، السبب مخيف، لذلك الآية الكريمة :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام : الآية 81-82)

في هذه الآية :

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

(سورة آل عمران : الآية 175)

معنى :إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ

الحقيقة: المعنى الدقيق يخوف المؤمنين من أوليائه، الطغاة أولياؤه، بل إن كل الأقوياء عصيٌّ بيد الله .

بالمناسبة، من منكم لا سمح الله ولا قدر لو أن جهة ضربته بعصا يحقد على العصا، الحقد على العصا غباء، تحقد على من؟ على من أمسك بالعصا وضربك بها .

في قضية التوحيد أنا حينما ينالني إنسان بأذى، و أنا أعلم أن هذا الإنسان بيد الله، كيف سمح الله له، فإذا نالني بأذى معنى ذلك أن الله سمح له، والله حكيم، ورحيم، وعادل، أنا عندي مشكلة، بدل أن أحقد على الآخرين، الكرة ارتدت إلي، تجد المؤمن حينما تأتيه المصيبة يفكر في السبب الحقيقي، ما الذي فعلته حتى ساق الله لي هذه المصيبة ؟

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(174)إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 174-175)

فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

في هذا نهي ، و كل نهي يقتضي أن تستجيب له، و كل أمر يقتضي أن تستجيب له .

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 175)

الخوف من غير الله دليل على عدم الإيمان أو ضعفه

المقياس إذًا: لمجرد أن تخاف من غير الله فأنت لست مؤمنا، أو على جانب من الشرك كبير، ولمجرد أن تخاف من الله وحده فأنت مؤمن، ومستحيل و ألف ألف مستحيل أن تخاف منه ثم يخيفك

من غيره، إن خفت منه فلن تخاف من غيره، و إن لم تخف منه أخافك من أحقر خلقه، لذلك فهذا الأمن يلقى في قلب المؤمن، و الآية واضحة .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام : الآية 81-82)

أولئك لهم الأمن وحدهم .

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ

ثم يقول الله عزوجل :

(وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 176)

إنسان في الأعماق وإنسان على حرف

هناك إنسان في الأعماق، وإنسان على حرف، فالذي على حرف كلمة تأخذه، وكلمة تذهبه، هذا نمط شائع، خفيف .

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

(سورة الزخرف : الآية 54)

لمجرد أن أحاط الأعداء برسول الله في الخندق، قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، كأنه خرج من الدين، فالبطولة أن تكون في الأعماق، لا أن تكون على حرف، إذا كانت الأخبار سارة بالشرق، لا إله إلا الله، جلت عظمة الله، وإذا لم تكن الأخبار غير سارة تجدهم يكذبون، كأنه شك في قدرة الله عزوجل، لأنه آمن بغير الله، لا .

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175)وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

(سورة آل عمران : الآية 175-176)

لا يفعل الكافر شيئا ما أراده الله :

كلمة تأخذه، وكلمة تأتي به، خبر برأسه، خبر يبكيه، هذا شيء غير طبيعي، عندك ثوابت في حياتك، أولا المؤمن الله حكيم، وعليم وقدير، ولن يستطيع كافر ما أن يفعل شيئا ما أراده الله، قال تعالى :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال : الآية 59)

هم في قبضة الله، لكن لله حكم لا نعلمها نحن، و المؤمن يحترم حكمة الله، يحترم قرار الله عزوجل، أنت لا تعلم .

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة : الآية 216)

قد تحزن من شيء هو لك خير :

أوضح مثل صلح الحديبية كان فيه مهانة للمسلمين، سيدنا عمر خرج من جلده، قال له: ألسنا مؤمنين؟ قال: بلى، قال: أليسوا كفارا؟ قال: بلى، قال له: فعلام نعطي الدنية في ديننا، قال له: إني رسول الله، معي أمر، لا يوجد صحابي إلا الصديق اقتنع بمواد الصلح، مهينة، ثم كان الخير من هذا الصلح، بشكل لا يوصف، الله قدير، تكون المقدمة مزعجة، أما الخاتمة فجيدة، تحتاج إلى إيمان، فضعف الإيمان كلمة تخرجه من الدين، وخبر يدخله في الدين، هؤلاء :

(يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 176)

أرضوا أم لم يرضوا، قضاء اللهو قدره نافذ في العباد .

قلت اليوم كلمة دقيقة: قانون السقوط، سقوط الأجسام، قانون له علاقة بالوزن، والهواء، والجاذبية، و الحجم ... إلخ، هذا القانون آمنت به أم لم تؤمن، أعجبك أم لم يعجبك، أرضيت عنه أم لم ترض، فهمته أم لم تفهمه، هو مطبق، و عدم إيمانك به لا يلغي وجوده، ولا يلغي فاعليته، السقوط سقوط، لو أن مظليا كفر بقانون السقوط و لم يفتح المطلة هل يعطل هذا القانون، لا، ينزل ميتا، قضاء الله واقع فينا، أعجبنا أو لم يعجبنا، آمنا به أو لم نؤمن ، وفي الأثر :

((أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، و إن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد))

ورد في الأثر

أمر الله هو الثابت .

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ :

((اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ))

رواه البخاري

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا))

رواه أحمد

قال تعالى :

(وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 176)

يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

معنى الإرادة:

معنى يريد أي سمح، وسمح تنفيذا لاختيارهم، هذا هو المعنى، كل شيء يسمح الله به، أو لا يسمح، فإن سمح به أي أذِن أن يكون، وأنت مخير، فإذا رفض الإنسان الدين فإن الله عزوجل جعلك مخيرا، وأنت رفضت الدين، إذًا: سمح لك ألاّ يكون لك حظ في الآخرة، هذا المعنى بالضبط، هنا الإرادة السماح، أراد كذا .

عندنا قاعدة في علم العقيدة أراد، ولم يأمر، أراد ولم يرض، إنسان أصرّ على السرقة، سمح الله له أن يسرق، مع أن الله لم يأمر بالسرقة، و لا رضي عنها، أراد أن يسرق تنفيذا لاختياره، مع أن الله لم بالسرقة، و لم يأمر بالفحشاء .

إذًا: هؤلاء الذين سارعوا في الكفر طبعا :

(إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 176)

هم في قبضة الله، يريد الله، أي ما دام اختار الكفر، وأصر عليه، فكانت مشيئة أن يطلقهم لما يريدون .

(يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 176)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية السادسة والسبعين بعد المئة، وهو قوله تعالى :

(وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 176)

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا

ومن الأحاديث القدسية الصحيحة عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((... يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ...))

مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي

الله لا تنفعه طاعة مطيع ولا تضره معصية عاصٍ :

أي أن طاعتنا لله لا تنفع الله، ومعصيتنا له لا تضره، هو غني عنا، وعن طاعتنا، وعن عبادتنا، وعن صلاتنا، وصيامنا، وحجنا، لكنه ما أمرنا بهذا إلا من أجل أن يسعدنا بها، هي لنا من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها .

فهؤلاء الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا، فضلاً عن ذلك فإن الكافر لا يستطيع أن يسبق الله، بمعنى أن يفعل شيئاً ما أراده الله، أو أن يتفلت من عقاب الله، هو في قبضة الله، وكل أفعال الكافر سمح الله بها، لأن خطة الله استوعبت خطته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن .

ورد في بعض الآثار القدسية: أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن أطاعني العباد حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم .

إذاً: أن يسارع الإنسان بالكفر لا يعني هذا أنه يضر الله عز وجل، فلو فرضنا إنسانًا حطم زجاج مركبته، وثمنه سبعون ألفًا أيرتاح؟ خسر؟ من انتكس فإنما ينتكس على نفسه، من مكر فإنما يُمكر به، ومن خادع الله فإن الله يخدعه، فكل عمل ابن آدم يعود عليه في النهاية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

أكاد أقول: إنه من منطلق حبك لذاتك ينبغي أن تطيع الله، من منطلق حبك لذاتك ينبغي أن تعطي ما عليك، وأن تأخذ الذي لك فقط، أما إذا أخذت فوق الذي لك وقعت في إثم كبير .

الإضلال الجزائي :

هناك شرح ضروري جداً حول هذه الآية، أية آية يشم منها أن الله أضل زيداً، أو ما أراد له الهدى، أو ما سمح له أن يهتدي هذا التفسير هو الذي يليق بكمال الله عز وجل، العلماء قالوا: الإضلال إذا عزي لله عز وجل فإنما هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، استناداً لقوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : الآية 5)

معنى الإرادة الإلهية :يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآَخِرَةِ

معنى أولئك الذين لم يرد الله أن يجعل لهم حظاً في الآخرة معنى الإرادة والسماح، أنت مخلوق مخير، فإذا طلبت شيئاً سمح الله لك به، لذلك قال علماء التوحيد: أراد، ولم يأمر، أراد ولم يرضَ، إنسان أصر على السرقة، وهو مخير، وهو في دار ابتلاء فإن منعه الله من أن يحقق رغبته ألغى حريته، وألغى خياره، وألغى الثواب والعقاب، لأن الله لو أنه أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة .

إذاً: كلمة إرادة ينبغي أن نفهمها بالمعنى الدقيق، أي سمح .

أوضح مثل: أنت صيدلي تريد موظفاً ينوب عنك في بعض الأوقات ليبيع الأدوية، فلابد من حد أدنى من خبرة بالأدوية، أردت أن تمتحنه، جئت بمجوعة أدوية منوّعة، وقلت له: هذه الخزانة للفيتامينات، وهذه للمضادات الحيوية، وهذه للسموم، وهذه للمقويات، وهذه للمغذيات، وهذه الأدوية التي أمامك وزعها بحسب خبرتك، لو أن هذا الذي تمتحنه أمسك دواءً في الفيتامينات، وذهب إلى السموم ليضعه هناك لو منعته ما امتحنته، هل أنت تريد الخطأ؟ لا، أنا أمتحنه الآن، فمن أجل أن ينجح الامتحان لابد أن أعطيه حرية الحركة، أمسك دواءً في الفيتامينات ذهب ليضعه في السموم، فسكوتك عن حركته، وسماحك له أن يتحرك هذا إرادة، فكلمة إرادة سمحت له فقط، لماذا سمحت له؟ لأنه مخير، هو مخير، اختار هذا، إرادتك أنك سمحت له، فلذلك معنى قوله تعالى :

(إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ)

أي سمح الله لهم أن يحققوا مرادهم في الاختيار، هم أرادوا الدنيا، وما أرادوا الآخرة، ما تركوا للآخرة من نصيب، أرادوا الدنيا وحدها أصروا على الدنيا، كفروا بالآخرة، هذا اختيارهم، نفذه الله لهم الآية أصبحت :

(يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ)

سمح الله لهم بناءً على اختيارهم أن يحرموا من الآخرة لأنه :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

(سورة الإسراء : 18-20)

الآية واضحة، كلمة(أريد)إذا تعلقت بإنسان فينبغي أن تفهم فهم عقيدة صحيحة، الإنسان مخير، ومعنى مخير أنه ينبغي أن يختار ما يشاء، وقد تعهد الله له بتنفيذ اختياره، تنفيذ اختيار الله له إرادة

(لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)

(المائدة : الآية 41)

هم اختاروا ألاّ يطهروا فنفذ الله لهم اختيارهم .

(وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ)

هم أرادوا الدنيا وحدها، وكفروا بالآخرة، وقد قال الله عن بعضهم :

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(سورة الروم : الآية 7)

من هو الأعور الدجال بالمفهوم الواسع؟ بالمفهوم الضيق هو إنسان يأتي في آخر الزمان، بالمفهوم الواسع هو الإنسان الذي رأى الدنيا فقط، وفعل عكس ما يقول، فدجل على الناس .

حينما يريد الإنسان الدنيا، ويصر عليها، ويكفر بالآخرة، ولا يعبأ بها، لأنه مخير، ولأنه في دار ابتلاء، ولأن عقده الإيماني مع الله يقتضي أن يفعل ما يريد تتعلق إرادة الله عز وجل بتحقيق مراده، فكأن الله حينما قال :

(يُرِيدُ اللَّهُ)

أي سمح الله لهم أن ينفذوا اختيارهم، هذا هو المعنى، سمح الله لهم أن ينفذوا اختيارهم، لأن عقداً إيمانياً بين الإنسان وخالقه أن يأتي إلى الدنيا ليفعل ما يختار، لو ألغيت اختيار الإنسان لألغيت الثواب والعقاب، والجنة والنار، وألغيت المسؤولية، وألغيت التكليف، وفقد الإنسان قيمته، لأنه أصبح مسيّراً، والمسير لا أجر له، ولا عقاب عليه .

<< أكان مسيرنا إلى الشام يا إمام - سيدنا علي - بقضاء من الله وقدر؟ قال له: ويحك، لو كان قضاء لازماً، أو قدراً حاتماً إذاً لبطل الوعد والوعيد، ولانتفى الثواب والعقاب، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً، ولم يطع مكرهاً >> .

لابد من فهم الآيات المتشابهات على الوجه الصحيح :

هذه الآيات مشتبهات، من كان سيئ الظن بالله يفهمها فهماً لا يليق بكمال الله، ومن كان إيمانه بالله قوياً، وظنه بالله حسناً يفهمها فهماً آخر يتناسب مع كمال الله .

(يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ)

هناك آيات أخرى :

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 27)

الإرادة الابتدائية لله أن يتوب عليكم، أن يرحمكم، أن يغفر لكم، أن يسعدكم، أما الإرادة التي هي تحقيق لإرادة الإنسان فهذه متعلقة باختيار الإنسان .

أب عنده أبناء كثر، طموحه أن يدرسوا، وأن يكونوا في أعلى مقام علمي، هناك ابن ما ترك الأب معه طريقة ، بالإكرام، والتهديد، والوعيد ، وغرفة خاصة، وأساتذة مختصين، وأعفاه من كل عبء، وأعطاه المال، وأعطاه الكتب، ونسبه إلى دورات، وهيأ له أجهزة، والابن مصر على ألاّ يدرس، بعد محاولات يائسة تيقن الأب أنه لا يمكن أن يدرس، فسحب منه الكتب، ودفعه إلى العمل في وقت مبكر، هذا العمل تجسيد لرغبة الابن، وليس قهراً له .

(وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ)

لأنهم أرادوا الدنيا، ويريد الله لهم ذلك لأنهم اختاروا ذلك، وهنا إرادة الله ليست ابتدائية، والابتدائية

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء : الآية 27)

أعطى طبيب مريضًا تعليمات مشددة في الحمية، والأدوية، وقال له: إن لم تأخذها فلابد من عمل جراحي، المريض أهمل، وتابع الدخان، وأصابته أزمة، وتضيق شرايين، فلابد من عمل جراحي، الطبيب أمر، وأخذ قراراً بعمل جراحي، من الذي اختار هذا القرار؟ المريض، لأنه تابع الدخان، وما تابع الحمية، وما مارس الرياضة، كان له أدوية تغنيه عن العمل الجراحي، فلما أهمل هذه الأدوية وتلك الحمية، وحينما تابع الدخان، وتضيق الشريان، وصارت حياته في خطر كان لابد من

فتح القلب، وتبديل الشريان، هو في الظاهر، الطبيب أمر، وأخذ القرار، ووقف المعالجة العادية، لأن هذا اختيار المريض، وهو اختار هذا، هذا اختياره .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

هناك عذاب أليم، وهناك عذاب مهين، وعذاب عظيم، عذاب الدنيا أدنى، وعذاب الآخرة ، قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : الآية 21)

وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن، وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبةً في ماله، أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي علي شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه .

(إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة آل عمران : الآية 177)

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

بيع الدين بعرض قليل من الدنيا :

هذا الذي يبيع دينه بدنياه، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، يحلف يميناً كاذباً كي يبيع هذه السلعة، يتكلم بما ليس مقتنعاً به من أجل أن يبقى في مكانه، هذا مشرك، هذا يرى الخير من عند غير الله، ولكن من عباد الله، فيعبد العباد من دون الله، وأنت كعبد لابد أن تعبد جهةً ما، فإما أن تعبد الله الواحد القهار، وإما أن تعبد عبداً لئيماً، وحينما يعبد الإنسان الله يكون حراً، أما حينما يعبد من دونه يكون عبداً، وحالة العبودية لغير الله شائعة جداً، أساسها الشرك بالله، لماذا اشترى الكفر؟ لأنه توهم أن في الكفر خيراً له، وأن الكفر يجعله يرقى في مناصب معينة، وأن الكفر يجلب له المال الوفير، وأن الكفر يعزز مكانته، وكل هذه أوهام، من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى، ومستحيل وألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، وأن تعصيه وتربح، وما عند الله لا ينال بمعصية الله، قد يبيع أمته بعرض من الدنيا قليل، يؤيد الكافر على المؤمن، والذي يناصر الكافر على المؤمن هذا خرج من ملة الإسلام .

هذا الكافر معجب بما عنده من الدنيا ، يتوهم أنه متفوق، وأنه ذكي، وأنه مفلح، وناجح، لأنه جمع أموالاً طائلة، وعاش حياةً رغيدة، لأنه ملك رقاب الناس، يفعلون ما يريدون، وغاب عنه أن هذه الحياة الدنيا محدودة، وأن الفوز الحقيقي بعد الموت، لذلك قال الله عز وجل :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

(سورة آل عمران : الآية 178)

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا

البيان أول أساليب الله مع خلقه :

هذا اسمه استدراج، لأن الله سبحانه وتعالى يبدأ بهداية خلقه بالبيان، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال : الآية 24)

التأديب التربوي :

فإن لم يستجب الإنسان إلى الله فإنه يقع تحت أسلوب آخر، هو التأديب التربوي، قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة : الآية 21)

الإكرام الاستدراجي :

فإن لم يرجع، ولم يتب خضع لمعالجة ثالثة، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : الآية 44)

هذا اسمه إكرام استدراجي، قال تعالى :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

الصعود الحاد على غير طاعة الله وراءه سقوط مريع، لذلك إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره، ليس هذا إكراماً، إنما هو استدراج، قال تعالى :

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(182)وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف : 182-183)

الكيد هو التدبير، الإنسان الشارد على الله في قبضة الله، وكأنه مربوط بحبل متين، لا يمكن أن ينقطع، والمتانة مقاومة قوى الشد، بينما القساوة مقاومة قوى الضغط، فالماس أقصى عنصر، والفولاذ المبروم أمتن عنصر، لذلك يصنع من الفولاذ مركبات التليفريك (المصاعد)، لأن الحبل من الفولاذ أو خيط من الفولاذ إذا كان قطره ملم يحمل مئتي كيلو غرام، أمتن عنصر هو الفولاذ، وأقسى عنصر هو الماس، وميناء الأسنان يأتي بعد الألماس، والإنسان خلق من نطفة من ماء مهين، ماء لزج، ويوجد على أسنانه مادة الميناء، تأتي بعد الماس من حيث القساوة .

أما :

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

(سورة الأعراف : 183)

أي أعطيهم المال والصحة، صحته من أعلى ما يكون، كله طبيعي، النبض، والضغط، والنسب، والسكر، كله طبيعي، ومال وفير، ونساء جميلات، وبيوت جميلة، ومركبات فارهة، غارق بالمتع والنعيم، أملي لهم، قال تعالى :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

أملى الله لهم لأنهم طلبوا الدنيا، وطلبوا الزيادة

المؤمن يقول :وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا

لقد نصح الله عز وجل المؤمنين بهذا الدعاء :

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه : الآية 114)

أما لسان حال الكفار: وقل رب زدني مالاً، وقل رب زدني جاهاً، وقل رب زدني استمتاعاً في الحياة، وقل رب زدني انغماساً في الشهوات، هذا لسان حال الكافر، قال تعالى :

(كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

(سورة الإسراء : الآية 20)

الدنيا منقطعة لا تليق عطاءمن الله :

أما العطاء الأبدي فهو العطاء السرمدي، لأنه لا يليق بكرم الله أن يعطيك الدنيا فقط، لأنها محدودة جداً، ولها سقوف، سقف للطعام، والشراب، فمهما كنت غنياً فلك وجبة، وسقف للشهوة الجنسية، وسقف للثياب، ثياب واحدة، سرير واحد، بيت واحد، مركبة واحدة، والآخرة ليس لها سقف، لذلك لا يليق بكرم الله أن يعطيك الدنيا، لأنها متاع قليل، وقد نصحنا الله بهذا، قال تعالى :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : الآية 38)

قل متاع الدنيا قليل، وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

الترمذي

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

الآخرة هي العطاءلأن الله يحقق فيها اسم العدل :

لكن أيها الإخوة، لا يمكن أن تكون الدنيا دار جزاء، إنما هي دار عمل، أما دار الجزاء فهي الآخرة، قد ترى أو تسمع جهة تقتل، وتذبح، وتستحيي النساء، وتقتل الأطفال، وتهدم البيوت، وهي قوية، والعالم كله معها، وأكبر قوة في العالم تبارك عملها، وتتفهم ما تفعل ولا ترى إلا جانباً واحداً، وهم في عز منيع، وفي قوة وغطرسةٍ وكبر، أنت حينما تنسى الآخرة يقفز أمامك آلاف الأسئلة التي تحير، أما حينما تؤمن بالآخرة تحل كل مشكلاتك الفكرية، حينما تؤمن بالتسوية بعد الموت، حينما تؤمن أن اسم الله العدل لا بد أن يحقق في الآخرة، فهذا الاسم الوحيد لا يحقق في الدنيا أبداً، تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، فيقتل الإنسان بلا سبب، بلا ذنب يرتكبه، يكذب الصادق، ويصدق الكاذب، يكال بمكيالين، القوي جرائمه دفاع عن النفس، والضعيف دفاعه عن حقوقه إرهاب، أليس كذلك ؟

عشرة آلاف مقتول في يومين في بلاد شرقي آسيا، قيل حينها: إنه دفاع عن النفس، أما لو قتل إنسان واحد لقامت الدنيا، ولم تقعد، هذا هو الكفر، وما لم نكفر بالكفر لن نصل إلى الله، من هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، من ظن بهم ظناً حسناً فقد كان مخطئاً، قال تعالى :

(هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 119)

فيا أيها الإخوة ، هذه الآية الكريمة :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

نملي لهم لأنهم طلبوا أن نملي لهم، ولأنهم اختاروا أن نملي لهم، ولأنهم لا يعبؤون بالإثم، ولا بالمعصية، فهم يريدون الشهوات .

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ

حينما تختلط الأوراق يقول الله عز وجل :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

الدنيا دار فرزٍ وتصفية :

طالب يرتدي ثياب المدرسة، هو عند الناس طالب علم، قد تكون كل علاماته أصفارًا، وبل قد يكون مطرودًا، أما عند الناس فيرتدي ثياب المدرسة، فالأمور مختلطة، طالب مجتهد، وطالب غير مجتهد، طالب لا يداوم، وطالب يداوم، طالب لا يكتب، وطالب يكتب، طالب يغش في الامتحان، الامتحان هو الفرز الدقيق للطلاب، قال تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت : الآية 2)

لا يمتحنون، لذلك قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

فالخبيث خبيث، والطيب طيب، الله يتكفل أن يفعل شيئاً يفرز به الناس، الهجرة كانت فرزاً للمؤمنين، فالذي هاجر كان مؤمناً، والذي آثر بيته، وعمله، وماله، ومن حوله على طاعة الله سقط في الامتحان، معركة الخندق امتحان، وفرز للمؤمنين، فبينما ثبت المؤمنون الصادقون مع رسول الله، وقال ضعاف الإيمان: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً .

معركة أحد فرز للمؤمنين، معركة حنين فرز، الإسراء والمعراج فرز، هناك من كفر بالنبي بعد الإسراء والمعراج، قالوا: هذا غير معقول، فرز، تكلم ما شئت، وادَّعِ ما شئت، وانسب لنفسك ما شئت، لكن الله متكفل أن يضعك في مكانك الطبيعي، أن يحجمك، أن يعطيك ما تريد، إنسان لا آكل درهماً حراماً، درهم لا يأكل، ولا مئة، ولا ألف، ولا مئة ألف، أما العرض خمسة ملايين ضعف أمام هذا الرقم، فجاءت تبريرات، عندي أولاد، بلوى عامة صغر، الله يعرف أين ينتهي يقينك، وأين ينتهي ورعك، وأين ينتهي إيمانك، فإذا أعطيت لنفسك حجماً كبيراً فإن الله يفعل شيئاً يكشفك به على حقيقتك .

إنسان يدعي أنه بار لأمه سنوات طويلة، وأنها أغلى كائن في حياته، وأنها ، وأنها، فإذا تزوج، ونشب خلاف بين امرأته وأمه انحاز إلى طرف امرأته، وقسا على أمه في الكلام، كل كلامه السابق

مرفوض، دعوى، خاضوا بحار الهوى دعوى، ولا اهتدوا، تكلم عن نفسك ما شئت، لكن الله متكفل أن يحجمك، أي أن يضعك في مكانك الصحيح، قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

لك أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت، هذا مستحيل، فلابد أن يكشف الله عز وجل هذا الإنسان :

(حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

الله عز وجل ستِّير، فإذا كان الشخص تحت المعالجة لا يكشفه الله عز وجل، يعطيه فرصة كي يتوب .

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ)

(سورة آل عمران : الآية 179)

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

الاصطفاء الكسبي والوهبي :

الله يختار، الدليل :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 33)

ثمة اصطفاء، في الاصطفاء جانب كسبي، وفي الاصطفاء جانب وهبي، فإن الله :

(اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : الآية 33)

هؤلاء كرموا البشر في إخلاصهم، ومعرفتهم، وطاعتهم لله عز وجل، فاصطفاهم الله على علم :

(وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

الإيمان والتقوى أجرهما عظيم :

إن تؤمنوا بالله، وتتقوا أن تعصوه، لا يكفي أن تؤمنوا، إن تؤمنوا، وتتقوا، ومادامت الأحداث خطيرة يقول الله عز وجل :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم : الآية 46)

يقول الله عز وجل :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 120)

يُلغى هذا الكيد وذاك التفوق، وذاك التغطرس، وهذا الاستعلاء، وهذه القوة الضاربة المخيفة، يلغى جميعه :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : الآية 120)

نرجو الله سبحانه و تعالى في دروس قادمة أن نتابع هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(54-60): تفسير الآيتان 181 – 182
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الواحدة والثمانين بعد المئة .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ

أيها الإخوة، قال تعالى :

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

(سورة آل عمران : الآية 181)

اليهود توهّموا أن الله فقير فطلب القرض :

هذه مقالة قالها اليهود حينما أمرهم الله أن يتصدقوا، توهموا أن الله فقير، وهم أغنياء ، قال تعالى :

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران : الآية 181)

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

مراقبة الله أعلى مستويات الإيمان :

أولاً: إن أعظم مستوى من مستويات الإيمان أن تشعر أن الله معك، وأن الله عليم بما في نفسك، سميع لقولك، يرى حركتك، و يسمع كلامك، و يعلم ما في قلبك، حينما قال الله عز وجل :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق : الآية 12)

الكون يدل على الله الخالق المسيّر :

هذه الآية عجيبة، علة خلق السماوات والأرض بالنسبة للإنسان :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق : الآية 12)

معنى ذلك أن هذا الكون العظيم مهمته أن يعرفك بالله، العين لا ترى الله، ولكن العقل يراه، فهذا الكون فيه أسماء الله الحسنى، و فيه صفاته الفضلى تجسيد لأسماء الله الحسنى، ومظهر لها، فأنت إن أعملت عقلك في الكون توصلت إلى خالق هذا الكون، من الخلق إلى الخالق، من التسيير للمسير، من النعمة للمنعم، من النظام للمنظم، من الحكمة للحكيم، هذا هو الفرق بين المؤمن و الكافر، المؤمن مع المنعم خلق النعمة إلى المنعم .

لكن الكافر مع النعمة يتذوقها، ويقتنصها، ويستمتع بها، لكنه حُجب عن المنعم، الكافر مع النظام، لكن لم يخرق هذا النظام إلى المنظم، وبطولة الإنسان كلُّها أن يخرق النظام إلى المنظم، والحكمة إلى الحكيم، والخلق إلى الخالق، والجمال إلى الجميل، إلى مبدع الجمال .

حين تتأمل وردة فواحة عطرة جميلة فيها ألوان تأخذ بالألباب ينبغي أن تنتقل منها إلى الجميل، القضية كلها أن تعبر هذا الكون إلى مكونيه، وأن تعبر هذا النظام إلى منظميه، وأن تنتقل من النعمة إلى المنعم:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق : الآية 12)

علمُك بأن الله يعلم يجعلك منضبطًا :

من أجل أن تعلموا أن الله على كل شيء قدير، و أن الله قد أحاط بكل شيء علماً، هل تستطيع أن تفعل شيئاً أمام مسؤول عن الأمن؟ لا تستطيع، فحينما تعلم أن الله يعلم هل تقتل طفلاً؟ هل تهدم بيتاً؟ هل تسرق مالاً؟ هل تحتال على مسلم؟

كأنني أقول: إن كل أخطاء الناس سببها أنك لا تعلم أن الله يعلم، وأن كل الانضباط الذي نطمح إليه، الانضباط القومي، والعملي، والانضباط في كسب المال، وفي إنفاق المال، وفي ممارسة الشهوات التي سمح الله لنا بها، لا يمكن أن ننضبط إلا إذا علمنا أن الله يعلم، وهناك آية أخرى :

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة : الآية 97)

فحينما تعلم أن الله يعلم صار هناك انضباط ذاتي، لأن أي إنسان في الأرض لا يمكن أن يقترف مخالفة أمام من بيده أن يعاقبه عليها .

هناك مثال بسيط جداً: لن تعبر الإشارة الحمراء في رابعة النهار، والشرطي واقف، ومعه كتاب الضبوط، لن تستطيع، لكنك تعبرها في الليل الساعة الثالثة، لأن واضع النظام غير موجود، واضع النظام يمثله هذا الشرطي، أما في الساعة الثالثة ليلاً فواضع النظام ليس له عين يراك بها، إذاً تعبر هذه الإشارة، أو أن تكون أقوى منه فلا تعبأ بنظامه .

متى ينضبط الإنسان بشكل علمي؟ ينضبط حينما يعلم أن الله يعلم، و أنه سيحاسب، وأنه سيعاقب، والله الذي لا إله إلا هو، أي انضباط آخر متوهم، يقول لك: وازع داخلي، ضمير مسلكي، تربية بيتية، كله كلام فارغ، ما لم تعلم أن الله يعلم، وما لم تعلم أن الله سيعاقب لا يمكن أن تنضبط .

بالمناسبة تنضبط مع إنسان من جلدتك من جنسك، قد يكون أصغر منك سنًّا، لكنه أقوى منك، أنت حينما ترى أن هذا الذي تخالفه يعلم وسيعاقب، من يجرؤ من التجار على أن يخفي من حساباته صفقة خارجية؟ لا أحد، لأن هذه الصفقة الخارجية تأتي نسبة منها إلى المالية، فإذا أغلفتها غدرت حساباتك، وكُلفت بضريبة فوق طاقتك، وأيّ تاجر حينما يعلم أن هذه الصفقة الخارجية هناك ورقة منها تذهب إلى المالية فلا يمكن أن تغفلها من حساباتك، وإلا يعاقب، فأنت تنضبط مع مخلوق من مثلك، من جنسك، لكنه أقوى منك فكيف للخالق .

أيها الإخوة الكرام .

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

المتفلّت يتوهمّ أوهاما هي سراب بقيعةٍ يحسبه ماء :

هذا الذي يغش المسلمين كيف تغشهم؟ والله لو علم أن الله يعلم، وسوف يدفع الثمن باهظاً من صحته، أو من أولاده، أو من أقرب الناس إليه لما فعل ذلك، ما من معصية تقترف في الأرض إلا بسبب توهم أن الله لا يعلم، أو يعلم و لا يحاسب، يقول لك: الله غفور رحيم، لا تسعنا إلا رحمته، هذا كلام فارغ، تسعنا رحمته حينما نطيع أمره :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر : الآية 53)

تسعنا رحمته إذا أنبنا إليه، و إذا عدنا، و إذا تبنا إليه، و إذا اصطلحنا معه عندئذ تسعنا رحمته، أما إنسان مقيم على معصية، مقيم على مخالفة، مقيم على دخل حرام، مقيم على علاقة محرمة مع امرأة، مقيم على تفلت، ويقول: لا تسعنا إلا رحمة الله عز وجل، لا يمكن أن تستهزئ بدين الله، وأن تنجو من عقاب الله، هذا استهزاء، لو قال شخص من باب الدعابة: أنا أكسب مالاً حراماً، و أدفع جزءاً منه صدقة، والصدقة بعشرة أمثالها، إذاً أنجو، لا تنجو أبداً .

احذروا الاستهزاء والتلاعب بالدين :

بالمناسبة، قضية دقيقة في الفقه الوقت مناسب جداً أن نبحثها: حينما تقول: أنا إذا حججت بيت الله الحرام ، ما جزاء من حجّ دون أن يرتدي ثياب الإحرام ، عليه هدي، و إنسان ميسور، وغني كبير

قال لك: أنا أقدم عشرة أغنام هدياً لارتداء الثياب العادية، لو يدفع مليون رأس غنم فحجه باطل، أما إذا دخل الميقات خطأ من غير ثياب إحرام فعليه هدي، هذه ترمم .

مثلاً: اتفق فقيران على أن يدفع كل منهما زكاة فطره للآخر، هذا عبث بدين الله، كأنهما لم يدفعا شيئاً، لكن ممكن أن تدفع زكاة فطرك، وأنت فقير، وأن تأتيك زكاة فطر دون أن تشعر، أو دون أن تخطط، ودون أن تعلم .

الفكرة لا يمكن أن تستباح محارم الله بشيء، قد يحدث أن حاجاً يحج أول مرة في حياته، ويركب الطائرة أول مرة في حياته، وقد وضع لباس الإحرام في حقائبه الكبيرة، وبعد أن صعد إلى الطائرة، وانطلقت الطائرة إلى بيت الله الحرام أذيع أن هذا المكان هو ميقات الإحرام، فقال: آتوني بالمناشف، لا يفهم بأن موضوع الحقائب لا يمكن أن تصل إلينا في الطائرة، فهي موضوعة في مكان آخر، ماذا حلّ بهذا الحاج؟ دخل الميقات من دون ثياب إحرام، قضية محلولة، عليه هدي، أو أن يعود إلى الميقات فيحرم، أما لو جاء غني، وقال: أنا أدفع ثمن مئة رأس غنم على أن أبقى مرتدياً غير ثياب الإحرام فالحج باطل .

مثل آخر: الواجب في الصلاة إذا ترك يسجد سجدتين سهواً، أحدهم قال: أنا لن أقعد القعود بين الأربع ركعات، وصلى أربع ركعات ثم سجد للسهو، صلاته باطلة، لو أنه سها هناك سجد للسهو، أما أنه قصد ذلك، وعبث بدين الله فهذا غير مقبول منه ذلك إطلاقاً .

أيها الإخوة، ذكرت هذا الكلام لأنه لا يمكن أن تستباح محارم الله بشيء، لا بصدقة، ولا بهدي، ولا بأي عمل، أما إذا وقع الإنسان سهواً، أو غير قاصد فلكل مخالفة كفارتها، أما أن تدفع الكفارات سلفاً تبريراً لانتهاك الحرمات فهذا مستحيل :

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

الله يعلم ويعاقب :

هم ما عرفوا أن الله يسمعهم، أو علموا أن الله يسمعهم، ولكن لا يعاقبهم، و الحقيقة نقطتان لابد منهما: يعلم و يعاقب، الذي نشأ في بلاد إسلامية يعلم أن الله يعلم، لكن يتوهم أن الله يعلم لكن لا يعاقب :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر : 92-93)

و كيف حال ذاك الإعرابي الذي سأل النبي أن يعظه، ويوجز، فتلا عليه قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7-8)

قال: كفيت، بربك لو أن لكل سيئة عقاباً، لو أنك مؤمن بها إيماناً قطعياً، هل ترتكب سيئة؟ حدثني صديق توفي رحمه الله، جاء إنسان ليصلح مركبته، مركبة جديدة، فيها خلل، وهو يجهل دقائقها، فالذي قُدمت له هذه المركبة كي يصلحها ذكي جداً، أدرك أن هذه المركبة جديدة، وأن صاحبها لا يفقه فيها شيئاً، والقضية تحل في عشر دقائق، طلب منه عشرة آلاف ليرة، فصدقه، وعده أن يأتيه بعد يومين، هذا الإنسان أول يوم أخذ أهله إلى مكان جميل، وثاني يوم إلى مكان آخر، وأصلحها في دقائق معدودة، وأخذ على تصليحها عشرة آلاف ليرة عداً ونقداً، له جار صديق لي عاتبه، قال له: هكذا العمل، أنت إنسان مغفل، أنا أدركت أن هذا الإنسان يجهل دقائق هذه المركبة، وهو حريص على سلامتها، و غني، جاء من بلد خليجي، هو يعلم أن الله يعلم، لأنه ناشئ في بلد إسلامي، ولكن ظنه أن الله لا يعاقب، له ابن يعمل في مخرطة، دخلت نثرة فولاذ في عينه، كلفته ستة عشر ألف ليرة لبنانية يوم كان اللبناني بمئة وستين قرشاً، أي قريبًا من اثنين وعشرين ألف ليرة، لو كان يعلم أن هذا المال الحرام الذي سوف يدفعه مضاعفاً ما فعل ذلك، فالقضية قضية علم .

أحدهم ركب مركبته، وجد جرواً صغيراً على طرف طريق المطار، أراد أن يُعبّر عن براعته في القيادة فقطع يديه فقط، دون أن يدهسه كله، وأطلق ضحكة هستيرية، يقسم لي شخص يركب معه في الأسبوع الثاني، وفي المكان نفسه أصاب العجلة خلل، فوقف يبدلها، رفع المركبة بآلة الرفع، وفجأة وقعت المركبة على العجلة، والعجلة على رسغيه فهُرستا، أُخذ إلى المستشفى اسودت كفاه، ولابد من قطعهما، يقسم لي و هو حي يرزق، قال لي: والله بعد أسبوع أصبح بلا كفين .

حينما يعلم الإنسان أن الله يعلم، وسيعاقب يعد للمليار قبل أن يعصيه، أو قبل أن يعتدي على أحد .

هؤلاء هم الأغبياء فلا تكن مثلهم :

من هم الأغبياء اليوم في العالم؟ والله أغبى أغبياء العالم الآن الذين يدمرون، ويقصفون، ويقتلون، هناك تقدير أن هناك ثلاثمئة إنسان قُتل ظلماً في بلاد شرق آسيا، ثلاثمئة ألف قتلوا بالقصف، ولا علاقة لهم بما حدث، من هم الأغبياء؟ هؤلاء الذين يتلذذون بالقتل، وهدم البيوت، وقتل البريئين، وقتل الأطفال، هؤلاء يظنون أنهم حققوا مجداً، لو أنهم يعلمون أن الله يعلم وسوف يخلدون في جهنم إلى أبد الآبدين، لأن الله عز وجل يقول :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم : الآية 42)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

قل :

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت : الآية 40)

هذا تهديد من الله عز وجل، العبرة أن تعلم أن الله يعلم، قبل أن تأكل المال الحرام، قبل أن تطالب الإنسان الذي وثق بعلمك بتحليل لا جدوى منه، أو قبل أن تطالبه بتعويض لا يقابله شيء، كم مهنة مبنية على الكذب، والخداع، والمماطلة، وغش المسلمين، والاحتيال عليهم؟

هذا الانحراف الشديد في سلوك المسلمين ما سببه؟ انحراف شديد في عقيدتهم، هم لا يعلمون أن الله يعلم، أما حينما تعلم أن الله يعلم سينضبط .

والله اليوم سمعت أن أحد الورثة، وهو أكبرهم اغتصب المال كله، و حرم إخوته كلهم من حصصهم في الميراث، وهو في مقتبل العمر أصيب بمرض خبيث، وهو الآن على فراش الموت .

حينما تعلم أن الله يعلم تعد للمليون قبل أن تعصيه، قبل أن تظلم إنساناً، قبل أن تكتسب درهماً حراماً، قبل أن تحتال على الناس، قبل أن تبالغ في إيذائهم .

من هو السعيد؟ الذي يعمل عملاً في نفع المسلمين، من هو أشقى الخلق؟ هو الذي يبني عمله و رزقه على إخافة المسلمين، و على ابتزاز أموالهم، و على هتك أعراضهم، هؤلاء الذين يروجون الفسق، والفجور على أي شيء يعيشون؟ على أخلاق الشباب .

لي طالب قديم قال لي: إن له خالاً يملك إحدى دور السينما في دمشق، قال لي: في مقتبل العمر في الأربعين سنة أصابه مرض عضال، دخل عليه فرآه يبكي، لمَ تبكي يا خالي؟ قال له: جمعت ثروة طائلة كي أستمتع بها في خريف عمري، ها قد عاجلني المرض دون أن أستمتع بها، هذا بنى هذه الثروة على إفساد أخلاق الشباب، كلما كان الفيلم فيه إثارة أكثر يروج أكثر، ويربح أكثر، كان يبحث عن أفلام فيها إثارة شديدة، يأتيه الشباب يستمتعون بالحرام، و قد تنتهي هذه المشاهدة إلى فعل حرام، أو إلى زنا، أو إلى ما شاكل ذلك .

حينما لا تعلم أن الله يعلم، أو تعلم أن الله يعلم، لكن لا يعاقب، هذا خلل خطير في العقيدة، وسوف يدفع الإنسان ثمنه باهظاً، فأخطر شيء في الدين هو أن تستقيم على أمر الله، إنك بالاستقامة تسلم، لكن بالعمل الصالح تسعد، بالاستقامة تسلم :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت : 30-32)

بالاستقامة تسلم، لكن :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف : الآية 110)

فيا أيها الإخوة، جوهر الدين أن تكون وقافاً عند كتاب الله، أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، وأن يكون عملك صالحاً، فالمسلم لا يكذب، ولا يأكل مالاً حراماً، ولا يحتال، ولا يغش، ولا يبتز أموال الناس، ولا يفسد أخلاقهم، ولا يقبل عملاً مبنياً على إيذاء المسلمين، أو إخافتهم، أو ابتزاز أموالهم .

أيها الإخوة، أردت من خلال هذه الآية أن تهتز قناعاتنا نحو الأصلح، أي هذا السلوك الإسلامي نؤدي العبادات الشعائرية، وفي أمورنا التعاملية لا نعبأ، هذا كله يؤكده حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ، هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

مسلم ، الترمذي ، أحمد

فالمفلس من خالف منهج الله، و أقام شعائر الله، هذا مفلس، فحتى يكسب الوقت والعمر أهم شيء في الدين بعد الإيمان بالله أن تستقيم على أمره، و لن تستقيم على أمره إلا إذا علمت أن الله يعلم، هذا أكبر رادع يردعك عن معصية الله، أن تعلم أن الله يعلم .

هؤلاء :

(قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران : الآية 181)

هذه مقولة كُتبت عليهم، كم من عمل يفعله الإنسان المسلم وهو يرتكب أكبر معصية دون أن يشعر ؟

وَقَتْلَهُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

(وَقَتْلَهُمْ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ)

(سورة آل عمران : الآية 181)

هذا من خصائصهم أيضاً :

(وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(181)ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة آل عمران : الآية 181)

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ

أي :

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء : الآية 47)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(الزلزلة : 7-8)

هذا ملخص الملخص، وهذا هو الدين، هذا الأعرابي الذي امتحنه سيدنا عمر قال له: << بعني هذه الشاة، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها: ماتت، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله >> ؟

هذا البدوي الراعي الأعرابي وضع يده على جوهر الدين، ما لم تقل: أين الله؟ ولن أفعل هذا، لأنني أخاف الله، فكل عباداتك الشعائرية لا وزن لها إطلاقاً، ما لم تقل إذا جاءك شيء، أو عرضوا عليك أمراً لا يرضي الله، ما لم تقل حينئذ: إني أخاف الله رب العالمين، لا أفعل هذا، فكل عباداتك الشعائرية لا وزن لها إن لم تستقم على أمر الله .

الأسئلة :

هناك سؤال يأتيني كثيراً :

س: هل يجوز للمرأة بقصد تعليمي أن تقرأ القرآن ولو كانت في الدورة ؟

ج: طالبة في مدرسة، وهناك حصة قرآن، أو معلمة، فلأسباب تعليمية يجوز في المذاهب كلها أن تقرأ القرآن .

س: هل يجوز لمجرد أن يذكر إنسان غير مسلم أن نشتمه ؟

ج: ما هذا الكلام :

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 7)

(لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة الممتحنة : الآية 8)

لك أن تزوره، و لك أن تهنئه بمولود، أو بنجاح في شهادة، و لك أن تعينه، و له أن يزورك دون أن تخترق حدود الشرع .

(لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

(سورة الممتحنة : الآية 8)

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 7)

هذا كلام الله، من أين يأتي هذا الكلام ؟ أساساً هذا التطرف الذي وقع فيه بعض المسلمين سبب ما يجري في العالم اليوم .

س: إنسان اشترى معطفاً، ثم تبين له أنه من جلد الخنزير ؟

ج: الأولى ألا يستخدمه، هناك من يذكر أن دباغة الجلد تطهره، لكن رأي الجمهور ألا تستخدمه .

س: كيف نجمع بين قوله تعالى :

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا(23)إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الكهف : 23-24)

و بين أن الله خلق الإنسان مخيراً ؟

ج: أنت مخير فيما كلفت، فهناك أمور أنت مخير بها، وهناك أمور لست مخيراً فيها، هل أنت مخير في أمك و أبيك؟ هل أنت مخير في مكان ولادتك و في زمن ولادتك؟ لا، هل أنت مخير في إمكاناتك و في شكلك؟ لا، لكن أنت مخير فيما كلفت، أمرك أن تكون صادقاً أنت مخير تصدق أو لا تصدق، فالتسيير في الأمور لا يتناقض مع التخيير في التكاليف، فأنت مخير فيما كلفت، ومسير فيما لا تكلف به، وهذا التسيير لصالحك قطعاً، ليس في الإمكان أبدع مما كان، و لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، أي الله سيرك إلى أفضل شيء يناسبك، المكان المناسب والوقت المناسب والأم المناسبة والشكل المناسب، والإمكانات المناسبة، ليس في الإمكان بالنسبة لك أبدع مما كان، كل شيء أنت مسير به هو لصالحك، و التخيير أنت مخير بين أن تطيع الله وأن تعصيه .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(55-60): تفسير الآيات 183 – 185
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-01-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الثالثة والثمانين بعد المائة، وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ)

من صفات اليهود معاندة الأنبياء :

(الَّذِينَ)

أي أهل الكتاب .

(الَّذِينَ قَالُوا)

أيْ الذين قالوا لأنبيائهم .

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ)

تعليق اليهود الإيمان بالنبي أن يأتيهم بقربان تأكله النار :

لو رجعنا إلى كتب بني إسرائيل لوجدنا أن أنبياءهم أمروهم بالتقرب إلى الله .

ما هو القربان ؟

والقُربان بضم القاف كل شيء تتقرب به إلى الله، فالصدقة قربان، والصوم قربان، وإعانة الفقير قربا، وأيّ عمل صالح على الإطلاق تبتغي به وجه الله قربان، والأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى، الكلمة الطيبة صدقة، أن تميط الأذى عن الطريق صدقة، أن ترشد الرجل الضال صدقة، أن تطعم فقيراً، أن تعين أرملة أن تعود مريضاً، أيّ عمل صالح على الإطلاق هو في حقيقته قربة إلى الله، والله عز وجل حينما يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

(سورة المائدة : 35)

أي ابتغ إلى مرضاته سبباً، لو أن الأمور كلها بيد ملك، ولا تستطيع أن تصل إليه ما نفعك منه؟ لا تستطيع أن تقابله، ولا أن تصل إليه، ولا أن تخط له رسالة، لكن الله سبحانه وتعالى وهو ملك

الملوك لمجرد أن تسأله يعطيك، أن تدعوه يجيبك، وجعل لك إليه ألف طريق وطريق، جعل إليه طرائق يكفي أن تكون أباً كاملاً ، فهذا طريق إلى الله، يكفي أن تكوني أماً كاملة فهذا طريق إلى الله، يكفي أن تكوني زوجة صالحة فهذا طريق إلى الله، يكفي أن تكون ابناً باراً طريق إلى الله، يكفي أن تكون مبتلى صابراً فهذا طريق، الصبر طريق إلى الله فهذا طريق، يكفي أن تكون منفقاً والإنفاق طريق إلى الله، يكفي أن تكون ناصحاً النصح للمسلمين فهذا طريق إلى الله، يكفي أن تكون أميناً فهذا طريق إلى الله ، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وأي عمل صالح تبتغي به وجه الله فهو عند الله قربان، أن توزع اللحم على الفقراء قربان، أن تضحي يوم عيد الأضحى المبارك قربان، أن تغض البصر عن محارم الله قربان، فالمؤمن همه الأول التقرب إلى الله، أعطاك الله عز وجل ملايين الوسائل، وأنت في البيت لك إليه ألف طريق وطريق! وأنت في الطريق كلما غضضت بصرك عن امرأة لا تحل لك هي لك قربان، وأنت في كربة عامة، لو وقفت لعاجز كبير السن فهذا قربان، لو أطعمت عصفوراً، لو سقيت كلباً، امرأة بغي غفر الله لها لأنها سقت كلباً .

حينما تعلم أنه إذا وصلت إلى الله وصلت إلى كل شيء، وإذا لم تصل إليه لم تصل إلى شيء، هذه حقيقة كبيرة، فلذلك المؤمن بعد أن آمن الإيمان الذي أراده الله والإيمان الذي حمله على طاعة الله ليس في حياته شيء أهم من أن يعمل صالحاً، لأن العمل الصالح العملة الرائجة في الآخرة .

هل تستطيع أن تسافر إلى بلد بعيد دون أن تحمل من عملته؟ اذهب إلى بلاد بعيدة ، وخذ معك العملة السورية، لا تقبل هناك تقبل، هنا في بلادنا أو بلاد مجاورة لنا تقبل، أما هناك فلا تقبل، العملة المتداولة في الآخرة العمل الصالح، وأكبر دليل على ذلك أن الإنسان إذا شارف الموت لا يندم إلا على عمل صالح فاته .

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون : 99-100)

الإيمان مقرون بالعمل الصالح والتقرب إلى الله :

بالمناسبة أيها الإخوة، وأنا مضطر لذكر هذه الحقيقة، وهي مؤلمة، لكنها حافزة، أنت حينما آمنت بالله ماذا فعلت؟ أنا أقول لك: ما فعلت شيئاً! توضيح ذلك: الشمس في رابعة النهار، وأنت في أمس الحاجة إلى أشعتها، لو أن واحدًا معه مرض جلدي، دواؤه الوحيد التعرض لأشعة الشمس، فإذا جلس في غرفة قميئة مظلمة، والشمس في خارج الغرفة ساطعة، ثم قال: أنا مؤمن أن الشمس ساطعة، إن شاء الله خير، لم تنتفع بها، يا لها من شمس ساطعة! إنها في كبد السماء! إنها في رابعة النهار! كل هذا الكلام فارغ ما لم تخرج من غرفتك لتتعرض إلى أشعة الشمس، فإيمانك بسطوع

الشمس لا يقدم ولا يؤخر، أنت إذا آمنت فقط ما فعلت شيئاً، لأنك إن لم تؤمن اتهمت في عقلك، وإن آمنت ما أضفت شيئاً، لكن الله عز وجل يقول :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

(سورة الكهف : 110)

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

(سورة الإسراء : 19)

هناك مائتا آية تقريباً ما ذكر الله الإيمان إلا وقرن به العمل الصالح . إذاً: حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وإذا كنت بسيطاً وموفقاً تحاسب نفسك كل يوم، هذا اليوم مضى من عمري ماذا فعلت به؟ أكلت ونمت نوماً مريحاً، نمت ثماني ساعات متواصلة، استيقظت كأنني حصان، أكلت أكلة لم أتذوقها من شهر، هذه لك، اسأل ماذا قدمت للآخرة ؟ في بعض الآثار: قال: يا رب زهدت في الدنيا، قال: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة لنفسك، يا رب أنا كنت صادقًا، صدقك أراحك، ورفع مكانتك بين الناس، أنت قبضت الثمن في الدنيا، يا رب أنا كنت أمينًا، الأمين موثوق، جاءتك خيرات كثيرة لأنك أمين، يا رب أنا غضضت بصري عن محارم الله، سعدت بزوجتك، لكن الله يقول لك: ماذا فعلت من أجلي؟

مثلاً للتقريب: ابن يعاتبه أبوه، يا أبتِ لم أنم حتى أنظف أسناني، قال: لك أسنانك، يا أبتِ كتبت وظائفي، لك شهادتك، يا أبتِ فعلت كذا لك، ماذا فعلت من أجلي؟ ماذا قدمت لله عز وجل؟ هل دللت إنساناً شارداً؟ هل أطعمت فقيراً؟ هل أخذت بيد صديق، أو زميل، أو جار، أو أخ إلى الله عز وجل؟ هل دعوت إلى الله؟ هل بذلت من مالك؟ دائماً اعتقد أن الاستقامة تسلم بها، لكنها لا تسعدك، بينما العمل الصالح تسعد به، استقامة سلبية، ما اغتبت ما أكلت مال حرام ما كذبت كلها ما، لكن ماذا فعلت؟ ماذا قدمت؟ هنا المشكلة الكبيرة، المسلمون يعانون ما يعانون، ماذا فعلت أنت من أجلهم، أحياناً تربي ابنك ليكون عنصراً نافعاً جيد، تربية ابنك هذا عمل جيد وإيجابي، حجبت بناتك لئلا يغروا الشباب في الطريق، هذا عمل إيجابي .

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح :

كلما فعلت شيئاً تقرباً إلى الله عز وجل ارتقيت إلى الله حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، لذلك ترى إنسان من ثلاثين سنة لا يغيب درس علم، لكن لم يقدم شيئا للدين، إلى أين؟ إلى المسجد، من أين؟ من المسجد، أنت ماذا فعلت؟ دققوا في هذه الآية :

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر : 10)

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام : 132)

عملك يرفعك عند الله، فهنا يقول الله عز وجل طبعاً هذا الاستطراد بسبب كلمة القربان هل قدمت قرباناً إلى الله عز وجل؟ هل مشيت مع أخ في حاجته ؟

كان ابن عباس رضي الله عنه معتكفاً في مسجد رسول الله، وهو في أعلى درجات القرب، رأى رجلاً كئيباً قال: << ما لي أراك كئيباً؟ قال: ديون لزمتني ما أطيق سدادها، قال: لمن؟ قال: لفلان، قال: أتحب أن أكلمه لك؟ قال: إذا شئت، فخرج من معتكفه، قال له أحدهم: يا ابن عباس أنسيت أنك معتكف؟ قال : لا والله ولكنني سمعت صاحب هذا القبر، وبكى، والعهد به قريب :

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكاف في مسجدي هذا))

الترغيب والترهيب عن ابن عمر

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، الصحابة الكرام فتحوا البلاد، وصلت رسالتهم إلى أطراف الدنيا، المسلم الآن ماذا فعل؟ محمول لم يفعل شيء، إذا تديّن يقال عنه: ما شاء الله، صاحب دين، شيخ، يكرم، يعظم، يبجل، يدعى إلى الولائم، ماذا قدمت أنت؟ ماذا قدمت؟ الصحابة حتى وصل هذا الدين إلينا بذلوا أرواحهم، ودمائهم، وأكلوا ورق الشجر .

السؤال الكبير: مـاذا قدمت للمسلمين؟ إنسـان يقدم مـاله، يملك المال، إنسان يقدم علمه، إنسان يقدم خبرته، إنسان يقدم مهارات يتقنها، أمـا ألا تقدم شيئا أبداً وأنت مؤمن ، وتظن نفسك فوق الناس جميعاً؟ إن آمنت دون أن تعمل ما فعلت شيئاً .

هذه كلمة لعلها قاسية: إن آمنت دون أن تفعل شيئاً فما فعلت شيئاً، لأن الذي يرفعك عند الله عملك الصالح .

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر : 10)

لابد من السعي لنفع الناس وإعانتهم:

ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، تزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة ،.

وفقت بين زوجين، أطعمت يتيماً، رعيت طالب علم، أنفقت من مالك، ساهمت بتأسيس مشفى، أو ميتم، معهد تحفيظ قرآن، معهد شرعي، ألفت كتابًا، وزعت شريطًا، عملت عملا طيبًا، إنسان بلا عمل متصحر القلب، الإنسان بالعمل يتألق .

هناك مثل أردده كثيراً: مجند التحق بلواء، وفي هذا اللواء من عرف إلى لواء، وحتى اللواء، هل يستطيع هذا المجند الغر بحكم النظام العسكري أن يدخل على قائد اللواء؟ مستحيل، قبله عشرون أو ثلاثون رتبة، لكنه يستطيع بحالة واحدة، إن رأى ابن هذا اللواء يشرف على الغرق، فألقى بنفسه،

وأنقذه، في اليوم التالي يدخل على قائد اللواء من دون استئذان، قل له: فلان، قد يقف له، ويرحب به، ويجلسه على مكان تكرمة، ويقدم له ضيافة، وهو جندي، لماذا؟ لأنه قدم عملاً صالحاً، أنت حينما تنفق مالك في سبيل الله، حينما تمسح دمعة من خد بائس، حينما تشبع جائعاً، وتلبي حاجة إنسان تعرفه جيداً، أو صديق لك، المؤمن ضعيف، له عنده قضية، حينما تذهب معه، وتعرض له قضيته، وتشفع له، ترقى عند الله، لا أحب أنا أبذل لأحد، لأنني أناني أناني .

تعرف شخصًا مهمًا، هذا الشخص بإمكانه أن يحل مشكلة، ويرفع ظلامة، لا تتنازل أن تذهب إليه، لكن هناك من يقول: أنا لا أبذل ماء وجهي، ضننت بهذا العمل، فيضن عليك يوم القيامة، هذا الذي أتمناه على الإخوة المؤمنين .

هذا الكلام واقعي، الآية الفلانية، والحديث الفلاني، والقضية الخلافية هذا شغل المسلمين الشاغل، دعكم من هذا، واعملوا أعمالاً صالحة، الناس لا ينجذبون إلى الدين بفلسفتكم، ولا يتحليلاتكم، ولا بمحفوظاتكم، بل بأعمالكم الطيبة، إن أردت أن تكون داعية كبيراً فأحسن إلى الناس، الإحسان قبل البيان .

هذا الكلام سقته من كلمة قربان، هل لك شيء تتقرب به إلى الله عز وجل؟ هل لك عمل طيب تعرضه على الله يوم القيامة .

ألخص ما قلته: بعد أن تؤمن الإيمان الذي يحملك على طاعة الله فلا شيء في حياة المؤمن يفوق أن تعمل عملاً صالحاً تبتغي به وجه الله تعالى .

حدثنا أحد إخوتنا العلماء الأجلاء كان في بلد إسلامي في الشمال، قيل له: إنه يوجد إنسان قدم ثلاثمائة مليون دولار لطلاب العلم، وتأسيس المعاهد الشرعية، مبلغ فلكي، تمنى أن يلتقي به، في اليوم التالي دعي إلى طعام فطور، على أمل أن يلتقيا، ويرى هذا المحسن الكبير، فجاء هذا العالم الضيف، وانتظر ساعة، فلم يأت هذا، أين فلان؟ جاء قبلك، أين هو؟ هذا هو، يجلس بأدب وتواضع .

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، بحجم إنفاقك، بحجم دعوتك إلى الله، وبحجم خدمتك للناس، بحجم حل مشكلات الناس، في كل قضية ينسحب، ليس لك مصلحة، أبقى مرتاحًا، امش في جنازة ولا تمش في زواج، لا يقبل أن يسهم في زواج أبداً، أفضل لي، ولا أريد أن أساعد إنسانًا، ولا يقابل إنسانًا مهمًّا، يقول لك: لا يساعدون، الناس ليس فيهم خير، هو وحده الذي ليس فيه الخير، هذا النمط من الإنسان الأناني يحب أن تقدم له الخدمات دون أن يقدم خدمة لأحد، يحب أن يأخذ جهد الآخرين، دون أن يبذل جهداً لأحد، هذا إنسان صغير عند الله جداً، ويوجد إنسان كبير يعيش هم المسلمين، يدمع قلبه إن جاءت الأخبار على غير ما يريد، يدمع قلبه، لا يشمت أبداً، لا يقول: هؤلاء مقصرون، دمرهم الله عز وجل، ليس هذا من أخلاق المؤمن أبداً، الأنبياء ابتلوا .

فيا أيها الإخوة، هذا الكلام سيق على كلمة قربان، بنوا إسرائيل قالوا :

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ)

جاءكم قربان أكلته النار فلماذا كذبتم بالأنبياء ؟

تروي كتبهم أنهم إذا قربوا قربانًا إلى الله عز وجل نزلت نار من السماء فأحرقته، هكذا تروي كتبهم، الذي جاءهم بهذا القربان، وأكلته النار، لماذا عصيتموه؟ انظروا إلى هذه الحجة القوية .

وازن بين عمل المسلم الضعيف وعمل اليهود :

أحياناً يقول لك إنسان: أنا أحتكم إلى الشرع، جيد، لماذا لم يحتكم إلى القضاء؟ لأنه عنده إدراك عميق أنه لا تحل مشكلته بالقضاء، القوانين ليست في صالحه، يلجأ إلى الشيوخ، وفي موضوع ثان، يأتيه حكم العلماء، فلا يقبل به، لمَ قبلت حكم العلماء في قضية لا حل لها في القانون، وفي حكم آخر لم تقبله؟ فالقضية انتقائية، وهذا الذي ينتقي إنسانًا ليس مؤمناً الإيمان الكامل، فيه زيغ، ومخاتلة، ومخادعة .

إن كنت صادقاً فتقبل الحكم الشرعي، إن كان لصالحك أو لغير صالحك، قضية مبدأ .

الله رد عليهم: هذا الرسول الذي جاءكم بقربان أكلته النار لماذا عصيتموه؟ الآن تدعون أن الله عهد إليكم ألا تؤمنوا لرسول حتى يأتيكم بقربان تأكله النار، سابقاً الذي جاءكم بقربان أكلته النار لمَ عصيتموه؟ القضية الانتقائية خطيرة جداً في الدين، يعجبه من الدين العمرة، يركب الطائرة، ينزل في فندق خمس نجوم، يدعى إلى ولائم، يطوف سبعة أشواط، تعجبه العمرة تماماً، لكن لا يعجبه غض البصر! تعجبه التجارة، ولا يعجبه تحريم الربا، يريد أن يستثمر أمواله، يعجبه أن يضعها عند الكفار، فإذا حدثت أزمة ما جُمّدت، سبعمائة مليار ضاعت على مسلمين وضعوها في بلاد الكفر! فهذا الذي يعجبه، هذا ليس مؤمناً، هذا الذي ينتقي من العبادات ما يعجبه، ويرفض مالا يعجبه، هذا الذي يأخذ من الدين ما يروق له، ويدع مالا يروق له هذا انتقائي، ويعبد ذاته، يعجبه أن يقيم مولدًا، والله شيء جميل، مسبح مختلط، وجاء بالدعاة، وألقوا كلمات، وأثنوا عليه، أبو فلان بارك الله بك، أعجبه أن يقيم مولدًا في المسبح المختلط، لكن ما أعجبه أن يكون هذا محرماً عند الله عز وجل، هذا حال المسلمين، ولا يخفى عليكم، وبسبب هذه الأحوال التي لا ترضي الله هانوا عليه، لأنه هان أمر الله عليهم فهانوا على الله .

أرأيتم في تاريخ المسلمين إلى حال من الضعف، والتمزق، وتفرق الكلمة، والخوف، والوجل، والخضوع كهذا الوقت؟ لأنهم هان أمر الله عليهم، فهانوا على الله، ولو أنهم اعتزوا بالله لأعزهم، ولو أنهم انتصروا لدينه لانتصر لهم، حينما لا يقام لأمر الله قيمة، وحينما لا يتبع منهج الله عز وجل المصائب كثرة .

حدثني أخ كان في بلد إسلامي في شمال إفريقيا يطبق هذا القانون، الزوجة إذا طلقها زوجها تستحق نصف أملاكه، أقسم لي بالله، وابنته هناك زارها لم يعد هناك زواج، فصار والد الفتاة يقدم سند أمانة بمبلغ فلكي لخاطب ابنته، فيما لو طالبناك بنصف ثروتك طالبنا بهذا السند ! من أجل أن يرضى أن يتزوج ابنته، قال تعالى :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر : 14)

خالق الكون وضع نظام المهر، لكن لم يجعل نظام نصف الأملاك، ومع الأسف الشديد نساء مسلمات، وبعضهن داعيات إذا طلقهن أزواجهن يحتكمن إلى قاض مدني، لا إلى قاضٍ مسلم، لتأخذ نصف مال زوجها هناك، فحينما يهون أمر الله على المسلمين يهونون على الله .

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(182)الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

هذا حوار منطقي .

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ

من السنن الجارية أن يكون للنبي والمسلم أعداء :

بربكم هل في الأرض كلها من آدم إلى يوم القيامة إنسان أكمل من النبي عليه الصلاة والسلام ؟

خلقت مبرأً من كل عيب كأنك خلقت كما تشاء

****

ومع ذلك ألم يكن له أعداء؟ ألم يكن له مبغِضون؟ لأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية .

ثم يقول الله عز وجل :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

حقيقة مهمة : كل مخلوق يموت مهما اعتنى بنفسه :

هل يستطيع كائن من كان أن يشك في هذه الحقيقة؟ الملوك ماتوا أم لم يموتوا؟ الأنبياء ماتوا أم لم يموتوا ؟ الأغنياء ماتوا أم لم يموتوا ؟ الذين اعتنوا بصحتهم إلى درجة خيالية في النهاية ماتوا .

سمعت عن رجل من أهل الفن ما ركب طائرة في حياته خشية أن تقع، وما أكل مساء إلا فاكهة طوال حياته، وما أكل إلا لحماً أبيض اللون، لأنه خفيف، ومارس الرياضة، وما ترك شيئاً يحمي له صحته إلا فعله، ثم مات .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

اعملوا ما شئتم، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت .

والليـل مهما طال فـلابد مـن طلوع الفـجر

و العمر مهما طال فلا بد مـن نـزول القبر

***

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنـازة فاعلم بأنك بعدها محمـول

***

يكون الإنسان ملء السمع والبصر، فإذا في طرفة عين يصبح خبراً على الجدران، المرحوم فلان، المهندس، الطبيب، الحاج، من له منصب رفيع، لذلك سيدنا عمر يقول :

<< اعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني >> .

مرة وجدت شريطًا في بيتي، نسيت ما هذا الشريط، هو رسالات إجابة على الهاتف، استمعت إليه قبل اثني عشر عاماً، فوجئت أن خمسة عشر إنسانًا في هذا الشريط لاقوا وجه ربهم، شريط اتصال هاتفي، هنا فلان؟ لا ليس هنا، سمعت هذه الأسماء خمسة عشر إنسانًا في هذا الشريط لاقوا وجه ربهم، والآن هم تحت أطباق الثرى، ونحن كذلك، وهؤلاء الحاضرون، ونـحن معكم بعد مائة عام هل يوجد أحد منا على سطح الأرض؟ هكذا كل مخلوق يموت، لذلك :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

العاقل اللبيب مَن يعدّ لـهذه اللحظة عدَّتها :

من هو البطل؟ والله، ثم والله، ثم والله، ما وجدت إنسانًا أعقل ممن أعدّ لـهذه الساعة التي لابد منها، الإنسان حين يولد كل من حوله يضحك، وهو يبكي وحده، حينما يغادر الدنيا حوله أولاد شباب، وأصهار، وبناته، هم شباب، أما هو فأصبح في جسمه خمسون علة، يريد أن يغادر الدنيا، كل من حوله يبكي، طبعاً إذا كان محسنا، أما إن لم يكن محسنًا فيهنؤون بعضهم .

مرة إنسان بخيل جداً أصابه مرض فجاؤوا بطبيب، وقبل أن يموت قال لهم: حالة عرضية، فتألم أهله، ماذا تقصد؟ خيب الطبيب ظنهم، أما إذا كان الأب محسنًا فكل من حوله يتمنى بقاءه، فإذا مات

كل من حوله يبكي، فإذا كان مع الله على استقامة، وعلى عمل طيب يضحك وحده، المشكلة أن تضحك الآخر لا الأول .

الذين قصفوا، وقتلوا خمسمائة ألف بريء لا علاقة لهم بالقصف إطلاقاً، وتغطرسوا، وخرجوا يتبجحون، انتصرنا، مثل بطل ملاكمة، ضربه ضربتين ساحقتين، وقال: أنا هكذا، هذا مجنون، انتصرت على من؟ على جهة ضعيفة فقيرة، لا يوجد أي تناسق بين ما عندك وما عندها، هذا ليس نصراً، النصر يكون على عملاق من مستواك، هذا هو النصر .

على كل، أنت حينما تعد لهذه الساعة التي لابد منها تكون أعقل الناس .

سمعت البارحة عن إنسان لعله صالح، ولا أشك في صلاحه أبداً، اشترى بيتًا، وكساه في أربع سنوات، ثم ما دخله إلا جثة هامدة، قبل أن يسكنه بيومين أصيب بأزمة، أخذ إلى المشفى، بقي فيها عشرين يومًا، ثم توفاه الله عز وجل، ثم دخل إلى البيت ليغسل !

احذروا مداخل عدوّكم إبليس :

هذه الدنيا لا تحتاج إلى هذا الاهتمام، لذلك بماذا الشيطان يوسوس؟ يبدأ بالكفر، فإن رأى العبد على الإيمان ينتقل إلى الشرك، يغريه أن يشرك، فإن رأى العبد على توحيد ينتقل إلى الكبائر، فإن رآه على طاعة يغريه بالصغائر، فإن رآه على ورع ماذا قبل؟ لا بالكفر قبل، ولا بالشرك قبل، ولا بالبدع قبل، ولا بالكبائر قبل، ولا بالصغائر قبل، بقي مع الشيطان ورقتان رابحتان، يغريه بالتحريش بين المؤمنين، يشق صفوف المسلمين، أنت كيف تصلي؟ أنت كيف تحرك إصبعك؟ يقيم عليها مشكلة، المنبر كم درجة؟ يقام عليها مشكلة، يغري بالتحريش بين المؤمنين، فإذا نجا من هذه بقي أمامه ورقة رابحة وحيدة، يغريه بالمباحات، يمضي عمره في تزيين حياته، وقد يأتي ملك الموت قبل أن ينتهي من خططه ونجاحاته . فيا أيها الإخوة .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

معنى توفية الأجر :

معنى توفون أجوركم: أي تأخذونها كاملة .

الدنيا لا تصلح جزاء وعطاء :

أما في الدنيا توجد دفعات على الحساب، قد يكافئ بعض المحسنين تشجيعاً لبقية المحسنين، وقد يعاقب بعض المسيئين ردعاً لبقية المسيئين، لكن الحساب الختامي، والترصيد وتوفية الجزاء يوم القيامة .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

ولو كنت من أصعب الناس حياة، حياة خشنة، فقر، وضيق، وانتهى بك المقام إلى الجنة، فأنت الرابح الأول .

للإمام علي كرم الله وجهه قول رائع يقول: << يا بني ما خير بعده النار بخير >>، قال تعالى :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء : 205-207)

دعاء سيدنا إبراهيم قال :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة البقرة : 126)

قال الله له :

(وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة : 126)

والله قال :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : 77)

لأنه محدود، وينتهي بالموت، لأن الإنسان مهما يكن غنياً ينتقل من كل شيء إلى لا شيء، القبر معروف أنه لا فيه رفاه إطلاقاً، والكفن أرخص أنواع الأقمشة، لا بدلة ممتازة للعروس فرضاً، أو كفن خام، أسمر لا جيب فيه، ولا دفتر شيكات، ولا شيء، من كل شيء إلى لا شيء فجأة، في ثانية واحدة .

الموت يأتي فجأة :

قبل أيام الرجل صاحب هذا البيت مصدر أنس للأهل، فإذا فارق الحياة خاف أهله من الدخول إليها ! يتشاءمون من غرفته، هذه المشكلة، كل ما تملك ما دام القلب ينبض، كل ميزات الحياة منوطة

بضربات القلب، وباتساع الشريان التاجي، إذا تجلط الدم في العروق مات الإنسان، وإذا وقفت حركات القلب انتهت حياة الإنسان، كل شيء يملكه لغيره .

سمعت عن واحد عاش ببلد نفطي كبير، جمع خمسة أو ستة آلاف مليون، هو في رحلة إلى تركيا، وهو بالفندق جاءته أزمة قلبية أودت به، كل هذه الأموال انتقلت إلى غيره، هذه الدنيا :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : 77)

لكن :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : 113)

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص : 14)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : 77)

متاع الدنيا قليل :

أعطى قارون المال، والله لا يحبه، أعطي فرعون الملك، والله لا يحبه، أعطي الأنبياء العلم والحكمة، وهو يحبهم، فانظر عطاءك من أي نوع؟ هناك من يملك الرقاب، وهناك من يملك القلوب، الأنبياء بكمالهم ملكوا القلوب، والأقوياء بقوتهم ملكوا الرقاب، والأنبياء لهم أتباع، والأقوياء لهم أتباع، أنت أتباع من؟ الأنبياء لهم أتباع، والأقوياء لهم أتباع، الأقوياء ملكوا رقاب الناس بقوتهم، والأنبياء ملكوا قلوب الناس بكمالهم .

أيها الإخوة الكرام، نتابع الآية الكريمة :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ

هذا هو الفوز العظيم بميزان القرآن الكريم :

الآن: ما هو الفوز العظيم؟ أن تملك قوة كبيرة جداً؟ لا، أن تنتصر في حروب؟ لا، أن تعيش في حياة ناعمة؟ أن تسكن في أجمل بيت؟ أن تركب أجمل مركبة؟ أن تملك ملايين مملينة؟ لا، أن تتزوج امرأة ساحرة؟ لا، قال :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

هل أنتم مصدقون ربكم ؟

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

الفوز الحقيقي والفلاح الحقيقي التفوق العقل الذكاء أن تزحزح عن النار وتدخل الجنة .

((وعزتي وجلال لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الداء، فإذا بقي منه عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

ورد في الأثر

فإذا أكرمنا الله عز وجل، وأوصلنا إلى القبر في عافية من الذنوب فهذه نعمة كبرى أنعم الله بها علينا .

إخواننا الكرام، هذا المطمح الكبير، هذا شعار كل مسلم، لو كنت فقيراً، لو كنت مريضاً، لو كنت في أمة مقهورة لا مشكلة .

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

هذا المقياس الحقيقي، هذا مقياس خالق الأكوان، هذا مقياس القرآن، الدنيا تغر، وتضر، وتمر .

قد تجد إنسانًا لا يملك ثمن دواء، وقد تجد إنسانًا الصنبور في بيته يعادل ثمن بيت ، هكذا حدثني بعض الإخوة! صنبور في بيت يساوي ثمن بيت، قد تجد إنسانًا غارقًا في النعيم، لكن الله لا يحبه، وقد تجد إنسانًا فقيرًا، لكنه مستقيم على أمر الله .

دخل رجل على النبي فوقف النبي له وقال :

((أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي؟ قال: نعم يا أخي، خامل في الأرض علم في السماء))

ورد في الأثر

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((ابتغوا الرفعة عند الله))

الجامع الصغير عن ابن عمر

العمل الصالح يرفعك عند الله، إخلاصك يرفعك، استقامتك ترفعك .

فلذلك أيها الإخوة، شعار كل مسلم، والهدف الأكبر، وهو الفلاح في مقياس القرآن، النجاح عند خالق الأكوان، أن تزحزح عن النار، وأن تدخل الجنة .

يبدو أن صديقًا له صديق غني مترف، وهو في الجنة، هذا الصديق الأول المؤمن تذكر صديقه، قال :

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(53)قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ(54)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

(سورة الصافات)

الغنى والفقر بعد العرض على الله، الدنيا لا قيمة لها، لو أنها تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء .

أيها الإخوة، تكاد تكون هذه الآية أهم آية نحن بحاجة إليها :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

عندك مطعم خمس نجوم، دخلك اليومي فلكي، تبيع فيه الخمر، ومطعم بطرف المدينة يقدم حمصً فقط، وفلافل، لكن الدخل يكفي مصروف صاحبه، وصاحبه فقير، صاحب هذا المطعم البسيط البَسيط الذي لا يوجد له إلا قليل من رواده، والدخل يكاد يغطي الطعام والشراب أفضل من مطعم خمس نجوم فيه خمر، هناك حرف كثيرة، وأموال طائلة، أساساً أغنى أغنياء العالم تجار المخدرات، يقول: غسيل الأموال، ما معنى غسيل الأموال؟ هذه كلها أموال مخدرات، أكبر تجارة الأسلحة كلها عقود لتدمير العالم، أرقام الأسلحة فلكية، ثم الأدوية الزراعية، وقتل الإنسان، والحيوان، والنبات أربح شيء، هكذا .

على كل حينما تؤمن فلك مقياس، حينما تؤمن فعندك ميزان .

الإيمان بالآخرة يقلب الموازين :

والله أيها الإخوة، حينما نؤمن إيماناً حقيقياً بالدار الآخرة ـ دققوا فيما سأقول ـ يجب أن تنعكس موازيننا، ترى الفلاح في العطاء لا في الأخذ، ترى الفلاح في حياة خشنة، لكنها في طاعة الله، لا يوجد حياة ناعمة، لكنها في سخط الله، لكن على أن تؤمن، إذا آمنت ترى الخشونة مع الطاعة هي السعادة، وترى النعومة مع المعصية هي الشقاء، لذلك في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

تغر وتضر وتمر .

كان عند رجل دعابة؛ يكنس محله بسوق الحميدية، ويضع قمامته في علبة فخمة، ويلفها بورق هدايا، ويجعل لها شريطًا من خيط فخمٍ، ويضعها على الرصيف، فيأتي إنسان فضولي ليرى إن كان فيها قطعة ماس، يحملها، ويعدو، يلحق به، بعد مائتي متر يفك الشريط، ومائتين أخرى يفك الورق، ومائتين ثالثة يجد زبالة المحل بالعلبة فيصعق، هكذا الدنيا والله، لكن عند الموت .

في بداية الحياة المال كل شيء، في المنتصف هو شيء، أما في النهاية فلا شيء، في البدايات المرأة كل شيء، في المنتصف هي شي، في النهاية لا شيء، فكلما ازددت قرباً من الله صغرت الدنيا في عينيك .

دخل سيدنا عمر رضي الله عنه على رسول الله وجده نائم على حصير أثر على خده الشريف فبكى ، قال عمر :

((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ؟ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى؟ وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا؟ قُلْتُ: بَلَى))

البخاري ومسلم

كل بطولتك أن تكون مطيعاً لله عز وجل، ولا تعبأ بهذه المقاييس المزيفة .

الأسئلة :

س: سيدنا موسى كيف قالت تلك المرأة ابنة سيدنا شعيب :

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص : 26)

القوة واضحة، أنه سقى لهما، لكن كيف عرفت أمانته ؟

ج: من غض بصره، الأمانة لا تتجزأ، الأمين أمين في المال، وفي الأعراض، غض بصره هو أمانة عند الله، هذه المرأة لا تحل له فلم ينظر إليها، عرفت أمانته من غض بصره .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السادس والخمسين من دروس آل عمران، ومع الآية السادسة والثمانين بعد المئة، وهي قول تعالى :

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

ليس من العقل أن تُجعل الدنيا دارَ قرارٍ :

أيها الإخوة الكرام، لا بد للإنسان أن يعرف حقيقة الحياة الدنيا، من توهمها دار نعيم شقي فيها، ومن أيقن أنها دار ابتلاء سعد بها، الدنيا دار ابتلاء، الدنيا دار امتحان، الدنيا دار عمل، الدنيا دار كدح، لكن النعيم المقيم في الآخرة، والسعادة المستمرة في الآخرة، ولك ما تشتهي في الآخرة، ولك ما تحب في الآخرة، والتكريم في الآخرة، لذلك شقي الناس حينما قلبوا هذه الحقيقة، جعلوا الدنيا دار نعيم ودار استقرار، هي ممر وليست مقراً، من هنا ورد عن رسول صلى الله عليه وسلم أن :

((أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها))

ورد في الأثر

خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه، وهو لا يشعر، والدنيا تغر وتضر وتمر، دار ابتلاء ، المؤمن العاقل هو في الدنيا ضيف، يتحول عنها سريعا .

أنا أضرب لكم مثلاً ذكرته سابقاً: لو أن بلداً من البلدان فيها قانون إيجار غريب، مالك البيت في أية لحظة، وفي أية ثانية يطرد المستأجر من دون إنذار، ولا يستطيع المستأجر أن يأخذ شيئاً، لا ألبسته، ولا أثاث بيته، ولا أي جهاز كهربائي، هذا المستأجر هل من العقل أن يضع هذا كل دخله في هذا البيت، أن يملأه بالثريات، أن يملئه بالأثاث، أن يملئه بالأجهزة، وهو معرض إلى أن يخسر كل شيء في ثانية واحدة، يخسر كل شيء، ولهذا المستأجر بيت بعيد على الهيكل، هل من العقل أن يزين بيته المستأجر الذي سيغادره في أية لحظة من دون إنذار، من دون إعلام مسبق، أمن العقل أن يكسو هذا البيت الذي على الهيكل، وهو مصيره إليه، هذه المشكلة كلها، وضع الناس كل البيض

في سلة واحدة، فكل ما تملك، وكل مكانتك، وكل مكتسباتك، وكل إنجازاتك، وكل هيمنتك، وكل سيطرتك، وكل استمتاعك في الدنيا منوط بضربات القلب، فإذا وقف القلب ألصق النعي في شتى أنحاء المدينة، وكان رجلاً صار خبراً، كان رجلاً ملء السمع والبصر، فأصبح خبراً تتناقله الأفواه

فيا أيها الإخوة، ليس من العقل أن تجعل الدنيا أكبر همك، ومبلغ علمك، الدنيا كما ورد جيفة، وطلابها كلابها، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((ما لي وللدنيا إنما أنا كعابر سبيل استظل بشجرة وتحول عنها))

ورد في الأثر

فأنت حينما تفهم حقيقة الدنيا تسعد بها، وحينما تراها مديدة طويلة الأمد ينبغي أن تستمتع بها، وأن تنشأ فيها البيوت، وأن تركب المركبات، وأن تقتني الأشياء الجميلة، هنا تبدأ المشكلة، لذلك أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه، لا خير في الدنيا إلا لذكر الله .

أيها الإخوة الكرام .

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ)

لابد من الابتلاء والمصائب:

معنى ذلك ولو كنت مؤمناً، ولو كنت مقرباً من الله، هناك مصائب ابتلاء، هناك مصائب عقاب، هناك مصائب ابتلاء .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون الآية : 30)

حقيقة الحياة الدنيا أنك مبتلى فيها، مبتلى بأشياء كثيرة، مبتلى في أشياء لا تعد ولا تحصى، مبتلى بالغنى، فإذا كنت غنياً فأنت مبتلى بالغنى، يعني مادة امتحانك الغنى، من أين كسبت هذا المال؟ وكيف أنفقته؟ وما الحالة النفسية التي رافقت هذا الغنى؟ هل كنت متكبراً؟ هل رأيت نفسك فوق الناس؟ كلهم فقراء أصحاب دخل محدود، أما أنت فلك أرقام في المؤسسات المالية كبير جداً، أنت مبتلى بالغنى ومبتلى بالفقر، هل أنت راضٍ عن الله؟ هل أنت متجمل؟ هل تصمد أمام غني؟ أم تتضعضع، من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، أنت مبتلى بالفقر، أنت مبتلى في الصحة، ماذا فعلت بهذه الصحة؟

اعرف نِعمَ الله عليك قبل زوالها :

ذكرت لكم في درس سابق، وذكرت هذا في العيد، أن أحد علماء دمشق الأجلاء رحمهم الله عز وجل كان من عادته ـ طبعاً وليست هذه سنة ـ لكن من عادته أن يأخذ إخوانه في صبيحة أيام العيد إلى المقابر ليعرف إخوانه نعمة الحياة، أنت حي، ومعنى حي أنه بإمكانك أن تتوب، معنى حي أنه

بإمكانك أن تستغفر، معنى حي أنه بإمكانك أن تكون باراً بوالديك، معنى حي أنه بإمكانك أن تنفق مالك، معنى حي أنه بإمكانك أن تطلب العلم، نعمة الحياة لا تقدر بثمن، لذلك وصف الله الموت بأنه مصيبة :

(فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ)

(سورة المائدة الآية : 106)

الموت أنهى الحياة، أنهى العمل، أنهى الاستغفار، أنهى التوبة كله انتهى، كم من باب مفتح لك وأنت حي، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم جئتني تائباً غفرتها لك ولا أبالي، ما دمت حياً، التوبة بين يديك، المغفرة بين يديك :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الحجر الآية : 49)

فكان هذا العالم الجليل يأخذ إخوانه إلى المقابر في صبيحة اليوم الأول، ليعرف إخوانه معنى الحياة، أنت حي، بإمكانك أن تنفق، وقد مر النبي عليه الصلاة والسلام بقبر فقال لأصحابه :

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

لو أنك تملك أكبر شركة في العالم، لو أن لك دخلا كل يوم مليون، لو أنك تملك كهذا الذي يضرب به المثل، تسعين مليار دولار، وهو شاب في الأربعين :

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

في اليوم الثاني يأخذهم إلى المستشفيات، لا يعرف نعمة الصحة إلا المريض، نعمة الحركة، في إنسان فقد حركته، نعمة الوعي في إنسان فقد وعيه، نعمة انتظام ضربات القلب، نعمة إفراغ المثانة، هناك نعم لا تعد ولا تحصى، وأية نعمة في الصحة فقدتها تصبح الحياة جحيماً لا يطاق، كأس الماء لو منع منك، أو لو منع إخراجه، هذا الطعام الذي يأكله الفقراء لو منع منك تدفع ثمنه مئات الألوف، هناك من يعيش على السائل السكري الملحي، سيروم، قد يشتهي هذا المريض أن يأكل شيئاً مما يأكله معظم الفقراء، لا يستطيع، لذلك قال تعالى :

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر الآية : 8)

ماذا فعلت بنعيم الصحة؟ ماذا فعلت بنعيم الأمن؟ أنت آمن، في اليوم التالي يأخذهم إلى المستشفيات، هذا معه خثرة في الدماغ، هذا معه تشمع بالكبد، هذا معه فشل كلوي، هذا معه التهاب بالأعصاب حاد، هذا معه ضمور في بعض الأجهزة والعياذ بالله، من أجل أن يعرفوا قيمة الصحة، وفي اليوم الثالث يأخذهم إلى السجون، من أجل أن يعرفوا قيمة الحرية، أنت حر، تذهب إلى أي مكان تريد لا تخشى أحداً، ليس هناك مذكرة قبض بحقك، ولا مذكرة بحث، حر، ليس هناك حكم جزائي يطولك، وفي اليوم الرابع يأخذهم إلى مستشفى الأمراض العقلية ليعرفوا نعمة العقل، عقلك برأسك .

فيا أيها الإخوة، معنى قوله تعالى :

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(1)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(2)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(3)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(4)كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ(6)ثُمَّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(7)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر : 1-8)

نعيم الصحة، نعيم الفراغ، نعيم الأمن، نعيم الكفاية، من منا يدخل بيته فيقول: الحمد لله، ألم تروا أن سبعين بيتا هدمت البارحة على رؤوس أصحابها ، فصاروا بلا مأوى، ألا يتفطر القلب لهؤلاء المسلمين المشردين في هذه الموجة الباردة ؟

فلذلك أيها الإخوة، الدنيا دار ابتلاء، الدنيا دار تكليف، الدنيا دار عمل، الدنيا دار كدح، من هنا ورد في خطب النبي عليه الصلاة والسلام :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء))

ورد في الأثر

لحكمة أرادها الله جل جلاله، لا تصفو لأحد، إن كنت قوياً مهيمناً مسيطراً فقدت الأمن .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

(سورة آل عمران الآية : 151)

وقد ترتعد من أقوى قوى في العالم، خوف، أعطاها كل شيء وسلبها نعمة الأمن، قد تكون الزوجة صالحة والأولاد ليسوا أبراراً، وقد يكون الأولاد أبراراً، والزوجة ليست صالحة، وقد يكون الأولاد والزوجة كما تتمنى، والدخل لا يكفي، وقد يكون الدخل كافيًا، والصحة متدهورة، ما من إنسان إلا وهو مبتلى بجانب من جوانب حياته .

حينما توطن نفسك على أن الدنيا دار ابتلاء ترتاح، لذلك عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قُلْتُ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))

الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد

لابد أن توقن بحكمة الله أن هذه الدنيا دار ابتلاء من أجل أن تتعلق بالآخرة لا من أجل أن تركن إليها، وأن تميل إليها، وأن تكره لقاء الله عز وجل المؤمن دائماً ينتظر أن يلقى الله عز وجل .

أيها الإخوة الكرام .

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ)

الابتلاء في المال وضرورة تقوى الله في الفقر :

لا أعتقد في الناس قلُّوا أو كثروا إلا وقد ابتلي أحدهم بماله، يفقد جزءًا منه، يتلف الله له بعض ماله، يخسر أحياناً، يفوته مال كثير، هناك من يقنصه، هناك من يحتال عليه، هناك من يبتز ماله .

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ)

لكن :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق الآية : 2)

قال العلماء: من يتق الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من إتلاف ماله، من يتق الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم، من يتق الله في إنفاق ماله يجعل الله له مخرجاً من محاسبته يوم القيامة، لذلك الإنسان في الدنيا في دار ابتلاء، في دار حساب، إنما هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، يتزوج الإنسان، فيأتيه طفل صغير، يخاف على عقله من محبته له، قد ترتفع حرارته فلا ينام الليل، قد يمرض، قد يغيب عن البيت، هذا الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، في أمراض لا تعد ولا تحصى، وكل مرض يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق .

قانون الرزق والصحة متحرك

لكن بالمناسبة أيها الإخوة، لحكمة بالغةٍ بَالغةٍ ثبت الله مليارات الأشياء، دورة الأفلاك ثابتة، خصائص المعادن ثابتة، خصائص البذور ثابتة، القوانين كلها ثابتة، من أجل أن ترتاح، أنت اشتريت سبائك ذهب لا تنقلب إلى حديد بعد حين، أنت أنشأت بناء، وسلحته بالحديد، هذا الحديد يبقى حديداً إلى ما شاء الله، لا ينهار البناء، من الذي ثبت خصائص المعادن، وثبت خصائص المواد، وثبت خصائص البذور، لكن الله حرك الرزق، وحرك الصحة ليؤدبنا بهما، جفاف .

حدثني أخ في بلد يظن أن أمطارها ألفا ميليمتر باستنبول، قال لي: مر سبع سنوات في الأربعة أيام يفتح الماء ساعة واحدة، ثم أكرمهم الله بأمطار غزيرة، ونحن قد امتحنا بهذا أليس كذلك؟ سبع سنوات عجاف، المعدلات للنصف والثلث، والينابيع جفت .

أنا أعلم حينما كنت صغيراً أن عشرات الأشخاص يموتون غرقاً في بردى، فهل سمع أحدكم أن أحدًا مات غرقاً في هذا النهر الآن؟ تمشي فيه قطة .

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن : الآية 16 - 17)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف : الآية 96)

وأنا أقول لكم دائماً: كلما قلّ ماء الحياء قلّ ماء السماء، وكلما رخص لحم النساء غلا لحم الضأن، وكلما اتسعت الصحون على السطوح ضاقت صحون المائدة، وكأن هذه الصحون ترد رحمة الله عز وجل .

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ)

فالابتلاء بالمال ثابت، قد تبتلى بالغنى، وقد تبتلى بالفقر، وقد تبتلى بأخذ مالك، وقد تبتلى بهدم بيتك، وقد تبتلى بفقد عملك، وقد تبتلى بسرقة مالك، إن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء ، دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، لأنه مؤقت :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء الآية : 205-207)

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(26)وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(27)كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ(28)فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)

(سورة الدخان الآية : 25 - 29)

كل شيء مؤقت، كل حال يزول، قال أحد الملوك لوزيره: قل لي كلمة إن كنت حزينًا أفرح، وإن كنت فرحاً أحزن، قال: كل حال يزول، لذلك ورد في بعض الأحاديث أن الموت ما ذكر في كثير إلا قل له، ولا ذكر في قليل إلا كثر، إذا كنت مؤمن حياتك صعبة فالموت فيه راحة للمؤمن، << لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه >>، وإن كنت في بحبوحة فعلم اليقين أن هذه البحبوحة مؤقتة، وأن بعد هذه البحبوحة حساب دقيق، لذلك :

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا)

وَأَنْفُسِكُمْ

الابتلاء في النفس أنواع :

أنفسكم، أي هناك أمراض تصيب الجسم، قد يفقد الإنسان ابنه، وقد سمعت عن إنسان فقد ابنه فترك الصلاة، مات ابنه وهو شاب، فعتب على الله عتباً شديداً، فترك الصلاة، وإنسان آخر فقد ابنه فكان شاكراً لله، راضياً بقضائه وقدر، وقد علمنا النبي صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما مات ابنه إبراهيم الصبر فقال :

((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

متفق عليه عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ)

بالمناسبة أيها الإخوة، أنت كمؤمن البطولة لا أن تنجوا من مصيبة، هذا ليس متاحاً لأحد، ما من إنسان إلا أصابته مصيبة، ولكن البطولة أن تقف موقفاً كاملاً من أية مصيبة، ليست البطولة أن تنجو من المصيبة، ولكن البطولة أن تقف منها الموقف الكامل، لذلك إنسان يطوف حول الكعبة

يقول: " يا رب هل أنت راضٍ عني، وكان وراءه الإمام الشافعي، قال: يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: من أنت يرحمك الله؟ كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ قال: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله "، لذلك قال تعالى :

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

(سورة البينة الآية : 8)

إن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في أصعب حالات حياته في الطائف حيث ضُرب، وكُذب، وسخر به بعد أن أخرجته مكة، ليس له ملجأ إطلاقاً ، علق الآمال عليهم، فخيبوا ظنه، ماذا قال؟ هذا الدعاء، والله يصلح لنا في هذه الأحوال :

((اللهم إنا نشكو إليك ضعف قوتنا ، وقلة حيلتنا ، وهواننا على الناس ، يا رب المستضعفين إلى من تكلنا ، إلى صديق يتجهمنا أم إلى عدو ملكته أمرنا ، إن لم يكن بك غضب علينا فلا نبالي ولك العتبة حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي))

الطبراني عن عبد الله بن جعفر

أيها الإخوة الكرام .

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا)

اتهامات الأعداء من الأذى :

وكل شيء تسمعونه يؤكد هذه الآية، المسلم متهم أنه إرهابي، متهم أنه مجرم، متهم أنه متخل، حضارته متخلفة، هذا نسمعه ليلاً ونهارًا .

(وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا)

يومياً، صباح مساء، الإسلام متهم، المسلمون متهمون، المسلمون مستهدفون بكل فئاتهم ومذاهبهم، ومللهم ونحلهم وطوائفهم، إنها حرب عالمية ثالثة معلنة على الإسلام، هكذا قال الله عز وجل، ولن يرضوا عنا إلا إذا كنا منهم، فإن لم نكن منهم لن يرضوا عنا، الله أخبرنا فقال :

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا)

أليس هذا تطيباً لقلوبنا؟ أليس هذا توضيحاً لما نعيشه نحن الآن؟ شيء عام .

وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُور

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا)

لابد من التقوى والصبر على كيد الأعداء :

تتقوا تطيعوا، إن صبرنا وأطعنا .

(فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُور)

لكن هل تصدقون أن هناك آية أخرى؟ والله الذي لا إله إلا هو لو علم الناس فحواها وبُعدها وخطورتها لكان فيها الحل، قال تعالى :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية : 120)

الكيد يعني عندهم أسلحة لا يعلم عددها إلا الله، تطير الطائرة خمسا وثلاثين ساعة محمَّلة بمئات الأطنان من القنابل، وليس في الأرض مطار يحتملها تطير من أقصى البلاد إلى أقصى البلاد تقصف، وترجع، وهذه صنعت عام 62، وصالحة لعام 2040 .

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم الآية : 46)

وهذا ترونه رأي العين :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم الآية : 46)

ومع ذلك قال :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية : 120)

تصور وأنت واقف في مكان فيه جدران ثلاثة حديدية، ومكعب حديدي متجه إليك بقوة كبيرة، ووراءك حائط حديدي، وجدران حديدية، وهذا المكعب تماماً بحسب الفراغ على مساحة الفراغ ، الموت محقق، الانسحاق محقق، لكن هناك زر على اليمين كتب عليه إن ضغط على هذا الزر يقف تقدُّم هذا المكعب، ماذا تفعل؟ أو ماذا تنتظر؟ الموت محقق، والانسحاق محقق، قال لك الله عز وجل، خالق الأكوان، مبدع الإنسان :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية : 120)

هذه آية اليوم، آية العصر، آية المشكلة، أي مسلم يتقي ويصبر لا يستطيع قوي مهما كان قوياً أن يصل إليه .

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

أما إن لم نتق فلسنا مستعدين أن نغير شيئاً من أنماط حياتنا، وكل أنماط حياتنا مخالفات في مخالفات، واستمرأنا هذه الحياة، وقبلنا هذه الفواحش والآثام، وألفنا هذه المعاصي والانحرافات، وندعو الله أن يخفف عنا، هذا كلام لا معنى له :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

قال تعالى :

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)

(سورة آل عمران الآية : 187)

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاس وَلَا تَكْتُمُونَهُ

لا يجوز للعالِم كتمان العلم ولا القول بخلاف ما يعلم :

هذا ميثاق الذين وكّلهم الله بنقل العلم، هذا ميثاق من تصدوا لتعليم الناس، الأنبياء أخذ الله عليهم العهد، ومن ينوب عنهم في إبلاغ العلم أخذ الله عليهم العهد .

(لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاس وَلَا تَكْتُمُونَهُ)

لذلك الذي يفتي بخلاف ما يعلم هذا مجرم، يعلم الحقيقة، لكن لمصلحة دنيوية ليرضي ظالماً، ليرضي قوياً، ليرضي غنياً ، أفتى له بخلاف ما يعلم ، هذا عليه إثم كبير جداً .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ)

لا تكونوا كأهل الكتاب الذين نبذوا الشريعة وراء ظهورهم :

هذا العهد لم يعبئوا به، لم يتمسكوا به، أي إنسان له إلمام بالعلم هذه الفتوى تعطيه مكسباً، أو ترضي عنه قوياً، أو تجعله في مكانة علية ... فأفتى بجهل آثم، أو أفتى بخلاف ما يعلم، خان أمانة الله، وأمانة الرسول .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)

رجل يعمل في عمل ديني في دولة إسلامية بمنصب رفيع جداً، يساوي رئيس وزارة، فأفتى في موضوع المصارف والربا، وما شاكل ذلك، حدثني أحد الإخوة العلماء، وهو على فراش الموت رفع يديه إلى السماء وقال: يا رب، أنا بريء من كل فتوى أفتيتها في المصارف، بعد فوات الأوان، وهو على فراش الموت أدرك أن ما أفتى به إرضاء لقوي، أو جلباً لمنفعة، أو وصولا إلى مقام وإلى منصب، فكانت هذه الفتوى الضالة ثمن هذا المنصب الرفيع، لكن عندما وجد أنه على

مشارف الآخرة شعر بفداحة عمله قال: يا رب إني بريء من كل فتوى أفتيتها في المصارف، الدعوة إلى الله أمانة .

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

هذه صفات العلماء الحقيقيين :

في هذه الآية وصفوا بصفة واحدة فقط ليس غير، قال :

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

وأغفلت الآية صفاتهم الكثيرة، والحقيقة لا معنى إطلاقاً لذكر صفاتهم إلا لم يتصفوا بهذه الصفة، فهذه الصفة مترابطة مع الموصوف ترابطًا وجوديًا، إذا ألغيت ألغي الموصوف، لأنهم إذا خافوا غير الله نطقوا بالباطل إرضاء لهذا القوي، أو سكتوا عن الحق إرضاء لهذا القوي، فإذا سكتوا عن الحق، أو نطقوا بالباطل ماذا بقي من دعوتهم؟ انتهت دعوتهم :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ)

لم يعبئوا بهذا الميثاق .

(وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

نبذ الشريعة سببه ابتغاء الدنيا ومتاعها الزائل :

وصل بفتوى إلى منصب، أو إلى مكانة، أو إلى مكسب كبير :

(وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

والله ما وجدت مثلاً أوضح به هذه الحقيقة إلا هذا: لو أن واحدًا معه شيك بمليون دولار، لكن لا يعلم أنه شيك، رآه ورقة بيضاء، رآه من ظهر الورقة، رآه ورقة بيضاء، كتب عليها كلامًا لا معنى له، ثم مزقه، وألقاه في سلة المهملات، ثم اكتشف أن هذه الورقة شيك بمليون دولار، هو استخدمها استخدامًا رخيصًا جداً، أحيانا الواحد عنده أوراق على الطاولة، يكتب عليها رقم هاتف، يتصل بإنسان يقول له: رقم هاتفي كذا، وهذا الإنسان لا يعيره اهتماما، لو أن هذه الورقة شيك بمليون دولار ما انتبه لها، رأى ظهر الشيك واستخدمه كورقة، وكتب عليها رقم هاتف، ثم وجد هذا الهاتف لا قيمة له فمزقها، وألقاها في المهملات، ثم اكتشف بعد ذلك أن هذا شيك بمليون دولار، وهو معاشه بالشهر خمسة آلاف، اشترى بهذا الشيك ثمناً قليلا، استخدمه أسوأ استخدام، وهذا الذي

يتعامل مع الدين لمكسب مادي، يا لطيف، أراد بالدين الدنيا، أراد بالدين منصبًا، أراد بالدين مكسبًا تجاريًا، أراد بالدين سمعة، أراد بالدين هيمنة، هذا الدين ليسعدك إلى أبد الآبدين، فجعلته من حطام الدنيا، جعلته مطية، لذلك قال الشافعي: " والله لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق من الدين "، الدين لا يرتزق به، الدين دين الله، الدين يطبق، الدين يعظم، الدين ينشر، أما أن ترتزق به فهذه مشكلة كبيرة .

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(187)لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا)

هو يقولب الدين كما يريد .

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا)

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا

ليس هذا هو الذكاء والحنكة!!!

أنه أرضى المؤمنين، وصل لأهدافه المادية، وركب الموج كما يقولون، أرضى المؤمنين، ووصل لأهدافه المادية، وركب الموجة، فظن أنه ذكي جداً، وأنه من خلال هذا الدين وصل إلى ما يصبو إليه :

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا)

وجد نفسه ذكيًا، وعنده حنكة، وعنده تجربة، واستطاع أن يلعب على الناس، ويضللهم، وأوهمهم أنه مؤمن، ثم وصل إلى مبتغاه المادي فقط، وظن أنه أذكى منهم .

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

لذلك :

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)

(سورة النساء : الآية 145)

تستطيع أن تخدع معظم الناس لبعض الوقت، وقد تستطيع أن تخدع بعض الناس بكل الوقت، أما أن تخدع الله عز وجل فمستحيل، الله عز وجل يكشفك، بأي لحظة يكشفك ويفضحك، ويحبط عملك، فالإخلاصَ الإخْلاصَ، إن أردت الدنيا فاسلك سبيل الدنيا، أما أن تستخدم الدين للدنيا فهذا عمل قبيح للإنسان، أن تستخدم الدين للدنيا .

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قدير أن يعطيك أي عطاء، ولكن بالأسباب التي رسمها لك .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية التسعين بعد المائة، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة آل عمران)

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

خلق السماوات والأرض مظهرٌ لعظمة الله :

أيها الإخوة، كلمة السماوات والأرض في المصطلح القرآني تعني الكون، والكون ما سوى الله، الله واجب الوجود، وما سواه فممكن الوجود .

إنّ خلق السماوات والأرض تتمثل فيه عظمة الله عز وجل، فكأن أسماء الله الحسنى مجسدة في خلق السماوات والأرض، وكأن صفاته الفضلى واضحة في خلق السماوات والأرض، فطبيعة البشر لا تستطيع أن تدرك الله عز وجل بحواسها، لأن الله عز وجل يقول :

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام : 103)

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)

(سورة الأعراف : 143)

الله لا يُرى في الدنيا ، بل يُرى يوم القيامة :

وطبيعة البشر في الدنيا لا تسمح لهم أن يروا ربهم، لكن المؤمنين في الجنة يرون ربهم رأي العين، لذلك في قوله تعالى :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(سورة القيامة : 22-23)

ورد في بعض الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى وجه الله الكريم فيغيبون خمسين ألف عام من نشوة النظر! بل إن هناك فوق النظر إلى وجه الله الكريم رضوانًا من الله أكبر! هناك جنة فيها ما

تشتهي الأنفس، فيها فاكهة، فيها أنهار، فيها حور عين، فيها ولدان مخلدون، هذا النعيم الأول، هناك نعيم أرقى من ذلك هو نظرة إلى وجه الله الكريم :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

الجنة .

(وَزِيَادَةٌ)

(يونس : الآية 26)

النظر إلى وجه الله الكريم، وفوق الزيادة رضوان من الله، قد تدخل بيتاً تجد فيه ما لذّ وطاب، قد تستمتع بالطعام وبالشراب، وبالورود وبالمناظر الجميلة، لكنك إذا نظرت إلى صاحب البيت وجدت في وجهه جمالاً يحير العقول، لكن هذا الصاحب لو أنه استقبلك بترحاب شديد، ومودة بالغة، فترحاب صاحب البيت أبلغ من التمتع بالنظر إلى وجهه، والنظر إلى وجه صاحب البيت أبلغ من التمتع بما في البيت من طعام وشراب .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى)

الجنة .

(وَزِيَادَةٌ)

النظر إلى وجه الله الكريم، وفوق الزيادة رضوان من الله أكبر .

نظام أجسامنا في الدنيا لا يتيح لنا أن ندرك الله عز وجل بعيون رؤوسنا، لكننا نستطيع أن ندركه بعقولنا، لذلك الكون الذي هو مسير الله ينطق بوجوده، وبكماله، وبوحدانيته، وكماله منوع، ينطق بلطفه، ينطق برحمته، ينطق بحكمته، ينطق بمودته، ينطق بقوته، ينطق بعظمته، وفي كل شيء آية تدل على أنه واحد .

الكون طريق إلى معرفة الله :

إذا كان أصل الدين معرفة الله، ومعرفة الله لا تتم إلا من خلال التفكر في خلق السماوات والأرض، لذلك المعرفة قد تكون حسية، وقد تكون عقلية، وقد تكون إخبارية، فالشيء الذي يعجز العقل عن إدراكه عن ذات الله أخبرنا الله به من خلال قرآنه، ومن خلال حديث رسوله صلى الله عليه وسلم، والشيء الذي بإمكان العقل أن يدركه فهو متاح لكل إنسان .

المقولة والمسلّمة الثابتة أن أصل الدين معرفة الله عز وجل، ومعرفته تحتاج إلى تفكر في خلق السماوات والأرض، بل إن هذا الكون في علة وجوده من أجل أن تعرف الله من خلاله، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق : 12)

من أجل أن تعلموا أن علمه وقدرته تطولكم، فإن أيقنتم أن علمه وقدرته تطولكم استقمتم على أمره، ولعل الاسمين اللذين ينفردن من بين بقية الأسماء العليم والقدير، يعلم ويعاقب! علمه يطولك، وقدرته تطولك، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قرأ هذه الآية وقال :

((الويلُ لِمَن لم يفكِّر في هذه الآيةِ))

ورد في الأثر

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة آل عمران)

هذا ما تحويه السماوات :

الحقيقة السماوات كل ما على فهو سماء، يوجد مجرات تزيد على مائة ألف مليون مجرة في العدد الذي توصل العلماء إليه حتى الآن! في المجرة الواحدة تقريباً مائة ألف مليون نجم، ومجرتنا درب التبانة مجرة متوسطة .

لو أننا رسمناها على شكل عضلة مغزلية، المجموعة الشمسية لا تزيد على نقطة على درب التبانة على هذه المجرة! المجموعة الشمسية فيها كواكب كثيرة تدور حول الشمس، أرضنا يأتي في المركبة الثالثة من هذه الكواكب، وتبعد عن الشمس مائة وستة وخمسين كيلو مترًا، والشمس تكبر الأرض بمليون ومائة ألف مرة .

هذه المجموعة الشمسية من آيات الله الدالة على عظمته، أما بقية المجرات فالحديث عنها يطول، هذا من خلق السماوات والأرض، وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية القطب، أربعة آلاف سنة، عين القط ثلاثة آلاف عام، إن أردت أن تقطع هذه المسافة على مركبة أرضية لاحتجت إلى خمسين مليون عام !

مليونا سنة ضوئية بيننا وبين مجرات المرأة المسلسلة، عشرون مليار سنة ضوئية بيننا وبين أبعد مجرة اكتشفت الآن، كم هذه المسافة بيننا وبين مجرة تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، والضوء يقطع ثلاثمائة ألف كيلو متر بالثانية، وبالدقيقة ضرب ستين، وبالساعة ضرب ستين، وباليوم ضرب أربعة وعشرين، وبالشهر ضرب ثلاثين، وبالعام ضرب اثني عشر، اعمل حسابًا بسيطًا، كم يقطع الضوء في سنة ضوئية؟ ضرب عشرين مليار، وهذا ما قاله الله عز وجل :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة : 75-76)

وكلمة مواقع تخر لها رؤوس العلماء خشوعاً لله عز وجل، الموقع لا يعني أن صاحب الموقع في الموقع، لأن هذا النجم الذي أرسل ضوءه، وسار الضوء إلينا خلال عشرين مليار سنة، وهو يسير بسرعة تقترب من الضوء؛ مائتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، أين هو الآن؟ كل ثانية ضرب ستين، ضرب ستين، ضرب أربع وعشرين، ضرب ثلاثين، ضرب اثني عشر، ضرب عشرين مليار :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة : 75-76)

والحديث عن الكون لا ينتهي، وآيات الله كثيرة في الآفاق وفي الأرض وفي الجسم .

أتحسب أنك جرم صغير ؟ وفيك انطوى العالم الأكبر

***

جسم الإنسان عالَم قائم بذاته :

جسمك عالم بذاته، إذا شبكية العين فيها مائة وثلاثون مليون مخروط وعصية، والعصب البصري تسعمئة ألف عصب، وكل عصب له أغماد، وكلها في قطر ميليمترين .

الحديث عن العين وعن الأذن ، والأنف فيه عشرون مليون نهاية عصبية، كل نهاية فيها سبعة أهداب، كل هدب مغمس بمادة مخاطية، تتفاعل مع الرائحة ، يتشكل شكل يشحن إلى الدماغ، ويعرض على الذاكرة الشمية المؤلفة من عشرة آلاف بند، فحينما يتطابق بند مع بند تعرف أن هذه رائحة الياسمين، هذا الشم، والعين .

الأذن: آلية الأذن معقدة تعقيداً بالغاً، أربعة عظام، وغشاء الطبل، والأذن الوسطى والداخلية، وكيف تميز النغم عن الضجيج، وكيف تفهم الكلام ... علوم من مئات عام، وبحوث، وأجهزة، وجامعات، ولا يزال العلم يحبو، ولم تبتل بعد أقدام العلماء ببحر المعرفة .

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

النبات عالَم عجيب :

إن نظرت إلى ما حولك من نباتات فهي آية من آيات الله الدالة على عظمة الله، لا يوجد في حياتنا سائل يصبح خشباً، وحديداً، وقماشاً هو النسغ النازل، يصنع في أوراق النباتات، منه يتشكل الجذع، والأغصان، والأوراق، والأزهار، والثمار، والجذر، من سائل واحد هو النسغ النازل، والحديث عن أوراق النبات، وعن اليخضور، واستهلاك الطاقة الشمسية، وكيف أن النبات يمتص غاز الفحم،

ويطرح الأوكسجين لحكمة بالغة بالغةٍ، النبات وحده آية، بل إن الله سبحانه وتعالى ذكر أن النبات متنوع جداً، حتى إنه قال :

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : 99)

يوجد أوانٍ من النبات، وحبات مسبحة من النبات، ويوجد نبات حدودي، ونبات هدفه أن تستخدم خشبه، يوجد حوالي مائة نوع من الأخشاب، وكل خشب له وظيفة يتميز بها، ونبات دواء، ونبات صباغ، ونبات فلين، ونبات كوشوك، ونبات طعام، ونبات تأكل من جذوره، ونبات تأكل من ساقه، ونبات تأكل من أوراقه، ومن أزهاره، ومن ثماره .

الحديث عن النبات لا ينتهي، وهناك أشجار مهمتها أن تكون مظلة، وأشجار تزرع بينك وبين جارك نباتات حدودية، ونبات لسواك أسنانك، ونبات لتنظيف ما بين الأسنان، ونبات على شكل ليف لتنظيف جسمك، والحقيقة قضية النبات لا تنتهي .

الحيوان: هناك مليون نوع من السمك**!** من سمك عملاق، الحوت الأزرق يزن مائة وخمسين طنًا، خمسون طنًا لحمًا، وخمسون طنًا دهنًا، وخمسون طنًا عظمًا، وتسعون برميلا زيتًا، ودماغ الحوت وزنه أربعمائة وخمسون كيلو غرامًا، والحديث عن الحوت لا ينتهي، ويوجد فيروسات لا ترى بالعين، والآن كائنات حية أقل من الفيروس**!** أحياء دقيقة جداً .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر : 62)

لذلك الذي ينقص العالم الإسلامي هو معرفة الله، وكلما ازددت معرفة بالله ازددت انصياعاً له، وخضوعاً لأمره، وطاعة ومحبة له، وشوقاً إليه، فأنت تحب الله بقدر معرفتك له، وأنت تنصاع لأمر الله بقدر معرفتك له، وأنت تخشى الله بقدر معرفتك له .

فلذلك أيها الإخوة، لا يمكن أن ترى إنسانًا يعصي الله إلا لنقص في معرفته لله، ولا يمكن أن ترى إنساناً مستخفاً بأوامر الله إلا لنقص في معرفة الله عز وجل، ومعرفة الله تحتاج إلى تفكر، والتفكر مدرسة قرآنية، بل هي عبادة من أرقى العبادات، لأنها عبادة تضعك أمام عظمة الله، بل إن هذه الآيات التي بثها الله في الآفاق وفي الأرض وفي النفس وهي أقصر طريق إلى الله، وأوسع باب تدخل منه على الله .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

الماء الذي تقوم عليه الحياة :

أحصى عالم أشكال ذرات الثلج، لو أخذت ذرة ثلج، وكبرتها لوجدت أشكالاً لا تصدق، أشكال تقارب خمسين ألف شكل! هذا الثلج الأبيض الذي تراه عينك، كأنه قطن، لو أخذت بعض ذرات الثلج، وكبرتها لوجدت أشكالاً هندسية تأخذ بالألباب .

هذا الماء الذي نشربه شأنه شأن أي عنصر في الكون، إلا أن له خصيصة لو لم تكن لما كنا في هذا المسجد، ولما كانت حياة على سطح الأرض، هو أن هذا الماء إذا بردته ينكمش، كشأن أي عنصر، أما إذا وصل التبريد إلى زائد أربعة تنعكس الآية فيتمدد، بسبب التمدد تطفو على سطوح البحار طبقات جليد، وتبقى أعماقها دافئة صالحة للحياة، لو أن هذا الثلج كلما بردته يقل حجمه، فتزيد كثافته، فيهوي في أعماق البحار لأصبحت البحار متجمدة، ولانعدم البخار، وانعدم المطر، ويبس الزرع، ومات الحيوان، وتبعه الإنسان .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

العين آلة تشهد بعظمة الله :

إنسان يسكن في فلندا، قد تهبط الحرارة إلى ما دون السبعين تحت الصفر، والإنسان هناك عليه أن يحتاط، فيرتدي المعاطف الصوفية، والجوارب السميكة، والقمصان الداخلية الصوفية، ويضع شيئًا على رأسه، ويقي عينيه، ويقي أذنيه ورقبته، وقفازات يضعها في يديه، لكن لا يستطيع أن يغلق عينيه من أجل أن يمشي، وماء العين على تماس مع حرارة لا تقلّ على سبعين درجة تحت الصفر، ما الذي يمكن أن يحدث؟ يتجمد ماء العين، فيفقد الإنسان البصر، لذلك أودع الله في ماء العين مادة مضادة للتجمد، لو ذهبت إلى بلد تقل حرارته عن سبعين تحت الصفر، فلك أن تفتح عينيك، وأن ترى كل شيء، وأنت في مأمن من أن يجمد ماء العين، لأن في ماء العين مادة مضادة للتجمد .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

والمؤمن يفكر في خلق السماوات والأرض، يفكر في طعامه :

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(5)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(6)يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

(سورة الطارق : 5-7)

هذه آية خلق الإنسان، في اللقاء الزوجي يوجد خمسمائة مليون حوين! وتحتاج البويضة إلى حوين واحد .

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس : 24)

هذه هي الأرض وما يخرج منها :

انظر إلى القمح؛ المحاصيل تنضج في يوم واحد، رحمة بنا، بينما الفواكه تنضج على مدى شهر أو شهرين أو ثلاثة، والفواكه مبرمجة على أن لا تنضج في يوم واحد، كل نوع ينضج في وقت، وعلى مدار الصيف تنضج كل ألوان الفاكهة، وهذه من حكمة الله عز وجل، والنوع الواحد من المحاصيل، أو من الفواكه، والثمار، والخضراوات أنواع منوعة، أربعمائة وخمسون ألف نوع للقمح، أربعمائة نوع للعنب، عشرات أنواع للتفاح، وأنواع منوعة لا يعلمها إلا الله، هذا كله من إكرام الله للإنسان، خلق السماوات والأرض، المجرات، الكواكب، النجوم، المذنبات، الكازارات، الثقوب السوداء، السماء الدنيا، ما فوق السماء الدنيا منطقة انعدام الجاذبية .

والأرض: الجبال أوتاد، ومصدات، ورواس، الحديث عن الجبال يطول، السهول، الأغوار، البحيرات، البحار، الأنهار، فأنت أمام مظاهر كل هذه المظاهر تدل على عظمة الله عز وجل .

النبات: نباتات الزينة أنواعها بالمئات وبالألوف، نباتات داخل المنازل صالونات أيضاً بالمئات، نباتات الزينة، نباتات الغذاء، نباتات الدواء، نباتات الصناعة، أنواع منوعة لا تعد ولا تحصى .

الحيوانات: مليون نوع حيوانات، الطيور الطير آية من آيات الله، الزواحف، وما إلى ذلك، بعض الحيوانات ترى بالأشعة تحت الحمراء !

البعوضة الحشرة المحتقَرَة :

البعوضة حينما تحط على جبين طفل صغير تستخدم جهاز الرادار، فتهتدي إلى جبينه مباشرة، ثم تستخدم جهاز التخدير كي لا يصحو، ثم تستخدم جهاز التمييع، تم تستخدم جهاز التحليل، عندها جهاز تحليل، وتمييع، وتخدير، ورادار، ثم إن لها ثلاثة قلوب؛ قلبا مركزيا، وقلب الكل جناح، وإن أجنحتها ترف أربعة آلاف رفة في الثانية، وإنها تشم رائحة عرق الإنسان من ستين كيلو مترًا، وإنها إذا وقفت على سطح أملس استخدمت محاجمها، وإن وقفت على سطح خشن استخدمت مخالبها، والله عز وجل يقول :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة : 26)

النحل والنمل والعنكبوت :

النحلة آية من آيات الله الدالة على عظمته، النحلة من أجل أن تصنع كيلو من العسل وحدها تحتاج إلى طيران مائة ألف كيلو متر، عشر دورات حول الأرض في خط الاستواء! من أجل أن تصنع من هذه الحركة كيلو من العسل، والعسل من آيات الله الدالة على عظمته .

النمل من آيات الله الدالة على عظمته .

العنكبوت الخيط الذي تنسجه لو سحب الفولاذ بقطره لكان خيط العنكبوت أمتن من الفولاذ !

أيها الإخوة، يمضي العمر ولا تنقضي بعض آيات الله، لذلك قال تعالى :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم : 34)

النعمة الواحدة لو ذهبت تعدد فوائدها وبركاتها لا تنتهي، وإذا كنت عاجزاً عن إحصائها فلا أن تكن عاجزاً عن شكرها من باب أولى .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

أولوا الألباب من هم ؟

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

اختلاف الليل والنهار وعلقته بدوران الشمس والقمر :

والله أيها الإخوة، هناك في اختلاف الليل والنهار آيات كبرى دالة على عظمة الله، من معاني اختلاف الليل والنهار تعاقب الليل والنهار، كرة هي الأرض تدور، الشمس هنا، لأنها تدور على محور لا يوازي مستوى دورانها يكون الليل والنهار تدور هكذا، والشمس هنا لأنها تدور على محور لا يوازي مستوى دورانها، لو أنها تدور هكذا كأنها لا تدور، لأن أشعة الشمس سوف تسلط على نصفها والنصف الثاني بلا شمس، فنصفها ترتفع حرارته إلى ثلاثمائة وخمسين فوق الصفر، ونصفها الآخر إلى مائتين وسبعين تحت الصفر، وتنتهي الحياة، تدور لا على محور يوازي مستوى دورانها، بل على محور متعامد تقريباً مع مستوي دورانها، هذا مستوى دورانها سطح .

إذا كان هناك سطح تمر فيه الأرض في دورانها حول الشمس فهذا السطح يسمى مستوى دورانها، يجب أن تدور على محور متعامد تقريباً مع مستوى دورانها، كي يكون الليل والنهار، يجب أن تدور هكذا والشمس هنا، لو أن هذا المحور متعامد مع مستوى دورانها تماماً لما كان صيف، ولا ربيع، ولا خريف، ولا شتاء، كل منطقة على سطح الأرض فصل أبدي، عند خط الاستواء صيف أبدي، وفي المنطقة المعتدلة خريف أبدي، وفي المنطقة الشمالية شتاء أبدي، ولكن لأن الأرض تدور على محور مائل عن التعامد على مستوى الدوران، محور مائل، من ثلاث وثلاثين درجة إلى سبع وعشرين درجة من هذا الميل، إذا كان هكذا، والشمس هنا تأتي أشعة الشمس عمودية على نصف الكرة الشمالي، فإذا والأرض صلت إلى هذا المكان تأتي أشعة الشمس عمودية على نصف الكرة الجنوبي .

في منتصف شتاء العام الماضي ذهبت إلى استراليا، هذه القارة في نصف الكرة الجنوبي، هنا برد، وأمطار، وثلوج، وهناك حر لا يحتمل، بل إن المسلمين هناك صاموا أطول رمضان في حياتهم!

جاء في الصيف، ونحن نصوم هنا أقصر رمضان في حياتنا تقريباً، معنى ذلك أن الشمس تكون عمودية على نصف الكرة الجنوبي، فيكون عندهم الصيف، الآن بالبرازيل والأرجنتين وأستراليا صيف، عندنا شتاء، والآية تعكس من حين إلى آخر، فاختلاف الليل والنهار، واختلاف الفصول بسبب أن الأرض تدور على محور ليس موازياً لمستوى الدوران، وليس عمودياً على مستوى الدوران، محور مائل، وحكمة الميل لا تعد ولا تحصى، ميل هذا المحور يسبب اختلاف الليل والنهار، وتنوع الفصول في الأرض هذه الآية .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

الكون بوضعه الراهن دليل على حكمة الله:

يوجد خالق حكيم، الحكمة تدل على الحكيم، أنت إذا دخلت إلى بيت، وجدت مفتاح الكهرباء على ارتفاع متر ونصف، وهو ارتفاع مناسب جداً، ما قولك لو رأيت مفتاح الكهرباء في أعلى الحائط؟ وتحتاج إلى سلم كي تفتح الكهرباء، هذا مكان غير حكيم، لو أنك رأيته في أسفل الحائط لابد أن تنبطح حتى تفتح الكهرباء، أما حينما تراه في مكان مناسب جداً يتناسب مع طول الإنسان تشعر أن هناك مرجحًا، ولا ترجيح بلا مرجح، أن هناك حكمة، ولا حكمة من دون حكيم، وكل شيء في الكون ينطق بحكمة الله تعالى .

هذا الطير، وهو في البيضة كيف يخرج منها؟ ينمو على منقاره نتوء مدبب مؤنف يكسر القشرة، فإذا خرج إلى خارج البيضة ذاب هذا النتوء، وتلاشى، وعاد منقاره طبيعياً، من صمم ذلك؟

انظر كيف هدى ربُّك الطفل !!!

الطفل حينما يخلق لا يعلم شيئا، لقول الله عز وجل :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

(سورة النحل : 78)

ولنفرض أنه ولد الآن، فلمجرد أن يولد يلتقم ثدي أمه، والتقام الثدي عملية بالغة التعقيد، فلابد أن يضع شفتيه على حلمة الثدي، ولابد أن يحكم شفتيه حول حلمة الثدي، ولا بد من سحب الهواء حتى يأتيه الحليب، بربك هل تستطيع أن تعلم المولود الذي ولد لتوه لو لم يحسن مص الحليب؟ ولولا هذا المنعكس الذي سماه العلماء منعكس المص لما كان إنسان على قيد الحياة .

بين الأذينين ثقب بوتان، الطفل لمجرد أن يولد هكذا قال علماء الطب تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب، فإذا لم تغلق يصاب الطفل بداء الزرق، لا يعيش أكثر من عشر سنوات، ولونه أزرق، لأن الدم بدل أن يذهب إلى الرئتين كي ينقى من غاز الفحم، فهناك ثقب مباشرة بين الأذينين ينتقل من أذين إلى أذين، ولا يذهب إلى الرئتين، من الذي يخلق هذه الجلطة حينما يولد الإنسان؟

أنا أضعكم أمام آيات دالة على عظمة الله في خلق الإنسان، وفي خلق الحيوان، وفي خلق النبات، وفي خلق الجبال، وفي خلق البحار .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

هذه الآيات لأولي الألباب فقط :

لأصحاب العقول، لمن استخدموا عقولهم في معرفة ربهم، في القرآن آيات تقترب من ألف آية، تتحدث عن العقل، وعن العلم، وعن التفكر، وعن التذكر، فهذه الآيات دالة على عظمة الله، ولكنها لأولي الألباب، ماذا يقابل أولي الألباب؟ السطحيون، إنسان بلا لب ساذج، مادي، شهواني، أناني، يعيش لحظته، همه الطعام والشراب والمتعة، إنسان فارغ من مضمون .

(لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران)

هذه صفات أولي الألباب :

لا يوجد حالة رابعة، إما أن تكون واقفاً، وإما أن تكون قاعداً، وإما أن تكون مضطجعاً في سريرك، هذه كل حالات الإنسان، هؤلاء المؤمنون الصادقون الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، يذكرون الله في كل أحوالهم؛ قائمين، وقاعدين، ومضطجعين .

(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

الباطل هو الشيء الزائل :

الباطل هو الشيء الزائل، هذا الكون مخلوق لهدف كبير، كي يسعد الإنسان بربه إلى أبد الآبدين، مخلوق هذا الكون، والذي يخلقه الله من نوره لا يفنى .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران : 185)

يتحول ولا يفنى، فنحن قد نخلع هذا الثوب الذي هو الجسد عند الموت، ولكن ذات الإنسان ونفسه خالدة مخلدة، إما في دار النعيم، وإما في دار الجحيم، لذلك :

(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

هذا هو الفوز العظيم :

أكبر إنجاز، وربح، وكسب، ومرتبة نصلها أن نزحزح عن النار :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : 185)

(رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلْ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ)

(سورة آل عمران)

لو أنك ضعيف، وقهرت، وأسلمت روحك إلى الله، ووصلت إلى الجنة فأنت الفائز الأكبر، ولو أن الذي قهرك، واستعلى، وتغطرس، وتكبر انتهى إلى النار فهو الخاسر الأكبر، العبرة أن تكون وفق منهج الله، قوياً كنت أو ضعيفاً، مضطهداً أو مستضعفاً .

(رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلْ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

من مشاهد يوم القيامة أن رجلاً له صديق في الدنيا من أهل الدنيا المترفين، ولعله من الطغاة قال: إنه كان لي قرين فاطلع فرآه في سواء الجحيم .

(رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلْ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(192)رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا)

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا

الدعاة ينادون الناس إلى الإيمان بالله، والمؤذن حينما يؤذن ينادي الناس إلى أداء الصلوات، والقرآن حينما تتلوه يناديك إلى طاعة الله، فالمنادون كُثُر في الدنيا، المؤذن يناديك، وخطيب الجمعة يناديك، وأبوك الملتزم بالدين يناديك، وأستاذك يناديك، ومقالة، وشريط، ومشهد أمامك، وقصة سمعتها كلها تناديك، الله عز وجل جعل الطرائق إليه كثيرة جداً .

(رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

اغفر الذنوب، وكفر السيئات .

(وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

أن نكون من أهل الجنة، فالذنب يغفر، والسيئة تكفر، المغفرة ألا تعاقب، أما التكفير ألا تذكر هذا الذنب.

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

إن زوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعوده للمؤمنين، الجنة حق والنار حق، والناس في غفلة عنهما، والغنى الحقيقي بعد العرض على الله، والفقر الحقيقي بعد العرض على الله، والنصر والانهزام بعد العرض على الله، هذا الذي في الدنيا لا قيمة له إطلاقاً، لأنه عرض زائل، لا مستمر ولا مستقر .

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع شرح هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(58-60): تفسير الآيات 194 – 197
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-01-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة آل عمران، مع الآية الرابعة والتسعين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

(سورة آل عمران : الآية 194)

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

أهمية الدعاء :

أيها الإخوة، يمكن أن تلخص العبادة كلها بالدعاء، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

الترمذي

وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ : وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ))

الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد

ذلك أن الإنسان لا يمكن أن يدعو جهة ما إلا إذا كان موقناً بوجودها، و لا يدعو جهة ما إلا إذا كان مؤمناً أنها تسمعه، و لا يدعو جهة ما إلا إذا كان موقناً أنها قادرة على تلبية طلبه، و لا يدعو جهة ما إلا إذا كان موقناً أنها تحب أن تلبي طلبه، موجود، سميع، قدير، رحيم، لمجرد أن تؤمن أن الله موجود، وأنه سميع عليم، وأنه قدير مقتدر، وأنه رحيم ودود تدعوه، لذلك من لم يدع الله عز وجل لا يعرفه :

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

(سورة الفرقان : الآية 77)

لولا أنكم تدعونه لا يعبأ الله بكم إطلاقاً، الحد الأدنى من معرفة الله أن تدعوه، والدعاء سلاح المؤمن، وأنت بالدعاء أقوى إنسان في الكون، بالأرض بالدعاء، ومن دون الدعاء أضعف إنسان، هناك آلاف وملايين أقوى منك، أما حينما تدعو الله يكون الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك؟

أعجز إنسان هو الإنسان الذي عجز عن الدعاء، لكن لماذا يعجز عن الدعاء؟ لأن حجاباً بينه وبين الله، المعصية تجعل حجاباً بينك وبين الله، لذلك تستحي أن تدعوه، أما إذا كنت مقيماً على أمره، طالباً وده، ملتزماً بمنهجه، ليس بينك وبينه حجاب تدعوه .

يا أيها الإخوة، الأحاديث النبوية كثيرة تبين أن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، إن الله يحب من عبده أن يسأله ملح طعامه، إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها، قبل أن تخرج من بيتك، قبل أن تدخل، قبل أن تأكل، قبل أن تنام، بعد أن تستيقظ، إذا دخلت إلى الحمام، إذا خرجت منه، إذا دخلت إلى عملك، إذا خرجت منه، إذا ارتديت ثوباً جميلاً، إذا وقفت أمام المرآة اللهم كما حسنت خلقي فحسن خُلقي، إذا أكلت طعاماً يا رب لك الحمد، إذا جاءتك ميزة، فالمؤمن دائماً يدعو الله، ودعاء الله عبادة، وأنت بالدعاء أقوى إنسان، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ إذا كنت في موقف عصيب يمكن أن تدعو الله دعاء خفياً :

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

(سورة مريم : الآية 3)

سيدنا زكريا، يمكن أن تدعوه في سرك، كنت مرة في سفر رأيت مسجداً رائعاً، صليت فيه، فدعاني رجل إلى ضيافة، قال لي: أنا أنشأت هذا المسجد، قلت له: هنيئاً لك، أقسم بالله قبل عشرين عاماً انتهى من خدمته الإلزامية، وأخذ من أخته سواراً ذهبياً، وباعه، واشترى به بطاقة طائرة إلى الخليج، قال لي: و أنا في الطائرة ـ و يقسم بالله ـ ما تحركت شفتاي، لكنني نويت في قلبي أن الله إذا أكرمني سأبني له مسجداً، و قد أكرمه الله، وجاء ليبني مسجداً في مكان ليس منظماً تنظيماً بلدياً، والقوانين لا تسمح، قال لي: بتيسير عجيب لا يصدق المسؤولون وافقوا والمحافظ أمر رئيس البلدية أن يغض طرفه، وأنشأ هذا المسجد، أقسم لي أنه ما تحركت شفتاه، لكنه دعا بقلبه .

فيا أيها الإخوة، الله عز وجل مطلع على قلبك، يعلم السر و أخفى، يعلم سرك ويعلم ما خفي عنك، فأنت إذا دعوته أي ما الذي تظن بالله عز وجل أنت شاب إذا أردت الستر، إذا أردت عملاً ترتزق به، إذا أردت زوجة تحصنك، إذا دعوت الله أن يهبك بيتاً يؤويك، ما الذي تظنه بالله عز وجل ؟

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

(سورة غافر : الآية 60)

إجابة الله لدعاء الداعي :

الدعاء هو العبادة، لذلك المؤمن الصادق يدعو الله ليلاً نهاراً، يدعو الله في أدق الأمور، وفي أبسطها، وفي أصغرها، وفي أقلها، وفي أكبرها، وصدقوا أيها الإخوة أنه ما من مؤمن يدعو الله مخلصاً إلا والله عز وجل يريه آياته، يريه آياته واضحة جلية، قد يكون له عدو شرس إن دعوت الله يصرفه عنك، وقد تكون هناك عقدة أقسم لي أخ أنه درس الرياضيات في دولة غربية، واختار

موضوعاً بالفضاء الخارجي، وسار في الموضوع أربع سنوات، ينبغي أن يصل إلى معادلة متوازنة، لم تتوازن المعادلة، أستاذه نصحه بأن هذا الموضوع صعب جداً، فإن لم تتوازن سوف يختار موضوعاً آخر، ويعيد أربع سنوات، أقسم لي بالله أنه خرّ ساجداً لله، وقال: يا رب أعني، نزل إلى مكان دراسته، والله ألهمه حل للمعادلة، وانتهت بالتوازن، ونال الدكتوراه بالرياضيات، أي مهما تكن القضية صعبة، فأنت حينما تستعين بالله تذلل لك، مهما يكن مرض عضالا بالدعاء الصادق، ما لم يكن مرض الموت يشفى منه الإنسان .

أيها الإخوة، والله الذي لا إله إلا هو لو أيقنّت أنه مستحيل، وألف ألف مستحيل أن تضع كل ثقتك بالله، وإن الله لا يخيبك أبداً، لا يوجد هذه الثقة، النبي عليه الصلاة و السلام كان ملاحقاً في الهجرة وضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، تبعه سراقة ليقتله، قال له: يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟ النبي واثق أنه سيصل إلى المدينة، و سينشئ مجتمعاً إسلامياً، و سيؤسس دولة، و سيحارب الفرس، و سينتصر عليهم، و سيأخذ كنوز كسرى، و سيلبس سراقة الذي وراءه سوار كسرى، هذا الإيمان، الإيمان ثقة بالله، مهما بدت الأمور صعبة، مهما تعقدت الأمور، مهما بدا الباطل قوياً، مهما بدا الطاغية شرساً، مهما رأيت المستقبل مظلماً ما عند الله ليس عند عبيد الله، ادعُ الله :

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

أي وعد الله .

(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الروم : الآية 6)

إن زوال الكون أهون على الله من أن يخلف وعده للمؤمن، والأنبياء و الرسل جاؤوا بالحق المبين، و لا يمكن، ويستحيل أن يخزيهم الله عز وجل، هذا يذكرني أن النبي عليه الصلاة و السلام في معركة بدر حينما وضع صناديد قريش في القليب سماهم باسمهم واحداً وَاحداً، فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ الْقَلِيبِ فَقَالَ :

((هل وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَقِيلَ لَهُ: تَدْعُو أَمْوَاتًا؟ فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ))

البخاري ، مسلم ، النسائي ، أحمد

يجب أن يكون الخط بينك وبين الله مفتوحاً، والخط به حرارة، والطريق إلى الله سالك، وأنت بالدعاء أقوى إنسان، من هو خصمك؟ إذا كان الله معك فأكبر خصم في الأرض في قبضة الله، وإن لم يكن الله معك فأقل خصم في الأرض يقوى عليك، و يزدريك و يضايقك .

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(194)فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 194- 195)

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ

لا يضيع عملٌ مهما كان :

تصور عملاً، أي أنت تتوضأ أنقذت نملة من الغرق، تريثت حتى صعدت إلى أعلى المغسلة، أي عمل تتصوره مهما بدا لك صغيراً، ابتسمت في وجه طفل، طمأنت موظفاً عندك، أكرمت عاملاً، أطعمت امرأتك لقمة، أي عمل مهما بدا لك قليلاً لن يضيع عند الله :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ)

مهما قلّ، عمل مادي، عمل معنوي، إنفاق، ابتسامة، تسامح، تساهل، حل مشكلة .

لي صديق توفي رحمه الله كان في دمشق في مركبته رجع إلى الوراء فصدم بسيارة، وهناك أضرار كبيرة، أنا توقعت أن صاحب السيارة سوف يرفع صوته عليه، نظر إليه، و قال : أنت مسامح، تفسير الحادثة صعب جداً، الضرر كبير، والرجل غني، وليس فقيراً، نظر إليه، عرفه أنه من لبنان قال له: مسامح، وجدت على خد صديقي دمعة، صديقي ميسور مالياً، قلت: لمَ تبكي؟ قال لي: والله قبل سنتين إنسان في بيروت يركب مركبة من دمشق المركبة، ونساؤه محجبات، وقد صدمني بسيارته، وأحدث بمركبتي أضراراً كبيرة، إكراماً لأنه ضيف، ولأن نساءه محجبات أردت ألا أزعجه، قلت: تيسّر ، ولا يوجد مشكلة، بعد عامين عومل المعاملة نفسها في دمشق، أنا هذا إيماني، لا يمكن أن تعمل عملاً طيباً و يضيع عليك في الدنيا قبل الآخرة، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

الترمذي

أي إنسان حينما يفعل خير الله عز وجل شكور .

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ)

(سورة آل عمران : الآية 195)

الذكر والأنثى في العمل والجزاء سواء :

بالمناسبة، أية آية موجهة للذكور هي آية موجهة حكماً للنساء :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

(سورة المائدة : الآية 8)

أي يا أيتها المؤمنات افعلوا ذلك، حتماً أية آية في القرآن موجهة إلى الرجال هي موجهة حكماً إلى النساء، و لكن من أجل أن يؤكد الله لنا أن المرأة مساوية للرجل تماماً، والله الذي لا إله إلا هو كلما تقدم بي العمر أزداد يقيناً أن المرأة مساوية للرجل تماماً في كل شيء، ترقى إلى الله كما يرقى إليه،

و تتقرب إلى الله كما يتقرب إليه، و يجري الله على أيديها الخير كما يجريه على يديه، وقد تكون عند الله أغلى من ألف رجل، وقد يكون قلامة ظفر امرأة مؤمنة بمليون رجل فاسق، لذلك الإيمان الحقيقي، والإسلام الحقيقي أن توقن أن المرأة مساوية للرجل، في التكليف كلفها كما كلفه، أمرها كما أمره، وفي التشريف شرفها كما شرفه، وكرمها كما كرمه، و في المسؤولية سيسألها كما سيسأله، كل مؤمن أو مؤمنة مسؤول عما ولاه الله، فعَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أبو داود ، أحمد

كل إنسان مسؤول في التشريف، وفي التكريم، وفي المسؤولية، والحقيقة التي أرددها كثيراً: لكنه ليس الذكر كالأنثى، هناك خصائص نفسية، وجسمية، و اجتماعية، وعقلية للمرأة تتناسب مع رسالتها الخطيرة التربوية، و هناك للرجل خصائص جسمية، ونفسية، واجتماعية تتناسب مع رسالته في الحياة :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

(سورة آل عمران : الآية 36)

لا يتناقض مع أنها مكلفة كما هو مكلف، مشرفة كما هو مشرف، مسؤولة كما هو مسؤول، النبي عليه الصلاة والسلام فيما تروي بعض الروايات حينما فتح مكة كل بيت في مكة يتمنى أن يستقبله، و دعاه فما زاد على أن قال :

((انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة))

ورد في الأثر

وركز راية النصر عند قبرها، ليشعر الناس جميعاً أن هذا النصر المبين، وأن هذا الفتح العظيم لها منه سهم كبير، لأنها كانت الداعمة له من الداخل، الرجل يحتاج إلى من يدعمه من داخل البيت، الرجل لا يحتاج إلى أن تكون امرأته عبئاً عليه، تطالبه كل يوم بحاجات فوق طاقته، تعكر عليه مزاجه، تعكر عليه دعوته، تعكر عليه رسالته، الرجل يحتاج إلى من يدعمه من الداخل، إلى من تهيئ له بيتاً مريحاً، تهيئ له جواً مناسباً، و لذلك حينما فتح مكة ركز الراية عند قبر خديجة ليشعر الناس جميعاً أن هذه المرأة التي كانت سنده الداخلي، لها جزء كبير في هذا النصر، و ما من رجل ينجح في عمله إلا أحد عوامل نجاح عمله أنه مرتاح في بيته، أن امرأته صالحة، تسره إن نظر إليها، و تحفظه إن غاب عنها، و تطيعه إن أمرها، أما هذه المرأة التي هي عبء على زوجها، ثقيلة

عليه، لا تفتأ تطالبه بشيء فوق طاقته، يغدو بيته جحيماً لا يطاق، لذلك حينما يغيب الرجل عن البيت كثيراً معنى ذلك أن في البيت إزعاجًا مستمرًا .

المرأة الصالحة يرقى عملها إلى مرتبة الجهاد :

إذاً :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

إن الأنثى حينما تكون زوجة صالحة ترقى إلى مستوى الجهاد :

((اعلمي أيتها المرأة ، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

ورد في الأثر

الأم التي ربت أولادها على الصدق والأمانة، والصلاة والصيام، وغض البصر والعفة، الأم التي ربت بناتها على الطاعة والحياء والتستر، هذه أم لها الجنة، الأمومة وحدها تؤهلها كي تدخل الجنة، فالأمومة الكاملة سبب لدخول الجنة، و الأبوة الكاملة سبب لدخول الجنة، والبنوة الكاملة سبب لدخول الجنة، هذا الكلام سقته لقوله تعالى :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

وكل إنسان يستهين بالمرأة، يستخف بها، يذلها، يحتقرها، يهضم حقها، هو إنسان جاهلي، جاهل لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أكرموا النساء، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، و يغلبهن لئيم، و أنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

كان عليه الصلاة و السلام إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً، كان عليه الصلاة و السلام يقول :

((أكرموا النساء فإنهن المؤنسات الغاليات))

أنا أقول: من علّم شاباً علّم شاباً ، لكن من علّم فتاة علّم أسرة بأكملها، لا يوجد شيء يدمر المجتمع كالأم الجاهلة التي تهمل أولادها، تدعهم في الطريق، تهمل إطعامهم، تهمل تغذيتهم، تهمل تربيتهم، تهمل مظهرهم الخارجي، والأم المثالية هي التي ترعى أولادها و زوجها :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا)

(سورة آل عمران : الآية 195)

الهجرة وترك الديار عملٌ عظيم :

أي إنسان صاحب مبدأ ترك بلداً مصالحه فيها محققة إلى بلد دخله فيه قليل، تحمل خشونة العيش في سبيل الله، أتظنون أن هذا الذي آثر أن يهاجر في سبيل الله يستوي عند الله مع الذي لم يؤثر الهجرة، أحياناً طبيب يكون له دخل فلكي في بلد غربي، يتألم لمَ لا يخدم المسلمين؟ يأتي إلى بلده، يفتح عيادة، قد يعاني متاعب كثيرة جداً، لكن هو نيته أن يخدم المسلمين، هذه ترفعه عند الله عز وجل .

على كل الآية الكريمة :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : الآية 21)

مستحيل، وألف ألف مستحيل أن تخافه ولا يطمئنك، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطمئن اطمئناناً ساذجاً وأنت في معصيته، ثم لا يخيفك، تخاف منه فيطمئنك، لا تخافه فيخيفك :

(فَالَّذِينَ هَاجَرُوا)

عن مَعْقِلِ بْن يَسَارٍ رَدَّهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد

عبادة في الهرج أي في زمن الفتن كهجرة إلي، أي شخص جاء من أطراف المدينة ليستمع إلى درس علم، ويوجد إنسان يجلس وراء الشاشة كي يتابع مسلسلاً، يوجد إنسان يذهب إلى مقهى، وإنسان إلى سهرة مختلطة، وإنسان إلى متعة رخيصة، لكن كل شيء له حساب عند الله عز وجل :

(فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي)

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

الترمذي ، ابن ماجه

الجنة لها ثمن، وطلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب، أن تطلب الجنة بغير عمل هذا ذنب كبير :

(وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي)

الصبر على الأذى عمل عظيم :

لأنك مسلم فاتتك هذه الفرصة، لأنك مسلم ملتزم لم تتح لك هذه البعثة، لأنك مسلم ملتزم لا تستطيع متابعة هذه الشركة، بها دخل حرام، لأنك مسلم ملتزم لا تستطيع أن ترتفع في عملك لأن المنافقين يسبقونك، فلذلك أحياناً لأنك ملتزم قد تخسر بعض الدنيا :

(وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا)

أي هاجروا من ديارهم :

(وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران : الآية 195)

أي إذا شخص قُتل ظلماً، أيهما أرجى لرحمة الله الذي قُتل ظلماً أم الذي قتله ظلماً؟ فإذا كان الخيار صعبا ولابد من أحدهما؛ أن تكون ظالماً أو مظلوماً، أفضل ألف مرة أن تكون مظلوماً من أن تكون ظالماً :

ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ

(ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 195)

ما هو الثواب ؟

والثواب هو ما يعود عليك من الله عز وجل، أنت عملت عملاً طيباً فارتفع إلى الله، ما الذي يعود من هذا العمل إليك؟ يعود ثوابه، أي تعود رحمة تملأ قلبك، تعود حكمة تملأ كيانك، تعود طمأنينة تطمئن نفسك، تعود رؤية ثاقبة تهتدي بها في الحياة، المؤمن يتمتع برؤية صحيحة، يتمتع بحكمة، يتمتع بسكينة، يتمتع بالشعور بالأمن، هذا كله من رحمة الله، وحينما ترفع عملاً صالحاً إلى الله يعود منه خير كثير هو الثواب :

(ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

معنى ثواباً: من فعل ثاب، أي رجع، أي رجع لك من الله هذا الخير، وعطاء الله عز وجل عطاء مذهل، أي عطاء يلهمك الحكمة، يلهمك حسن تربية أولادك، تملك أولادك، المال تنفقه بحكمة فيحبك الناس، إن أنفقته تبذيراً وإسرافاً حقد عليك الناس، يلهمك أن تعامل امرأتك معاملة طيبة تصفي لك الود، فالحكمة أكبر عطاء إلهي :

(ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

في الدنيا و الآخرة، ثم يقول الله عز وجل :

(لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

(سورة آل عمران : الآية 196)

لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ

إياكم والدنيا الغرّارة :

الدنيا تغر وتضر وتمر، الدنيا خضرة نضرة، سمها في دسمها، المرأة أحد متع الدنيا، والبيت الفخم، والدخل الكبير، والطعام النفيس، و السفر الممتع، و العلو في الأرض، هذا كله من الدنيا، يقول الله عز وجل :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

من مكان إلى مكان، من بيت إلى بيت، من مركبة إلى مركبة، من منصب إلى منصب، من سفر إلى سفر، يختار أجمل شيء دائماً، متفوق في دنياه، المؤمن أحياناً بساعة ضعف وغفلة عن الله يرى هذا الكافر متمتعًا في الحياة، فربنا سبحانه وتعالى ينصحه .

بالمناسبة، لا يعقل أن يكون عطاء الله في الدنيا، لأن الدنيا منقطعة، لا يليق بكرم الله أن يكون عطاؤه في الدنيا، العطاء الذي يليق بكرم الله عطاء أبدي، لذلك العطاء الذي يليق بكرم الله هو الجنة، قال عليه الصلاة و السلام :

((بل الرفيق الأعلى))

أحمد عن عائشة

فهؤلاء الذين كفروا عطاؤهم في الدنيا :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام : الآية 44)

(لَا يَغُرَّنَّكَ)

الغرور أن ترى الشيء بأكبر من حجمه، الدنيا تغر، الشيطان سماه الله الغَرور :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

(سورة فاطر : الآية 5)

الشيطان يزين الدنيا، الدنيا خضرة نضرة، فتنتها يقظة، سمها في دسمها :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

معنى التقلب في البلاد :

تقلب، تنقل من بيت لأجمل، من منصب لأعلى، من امرأة لامرأة، من سفر لسفر، من مقتنيات لمقتنيات، هناك تقلب لأن هناك دخلا كبيرًا، وتنوعًا في الحياة .

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

(سورة آل عمران : الآية 197)

إلهنا يقول :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران : الآية 197)

إذا خيرنا إنساناً، وقلنا له: نعطيك مليوناً، ومعك شهر، اذهب أينما شئت، وكُل أي طعام تريد، واجلس مع أية امرأة تريد، ولا تدع شيئاً إلا وفعلته، وبعد هذا الشهر هناك سنوات ، وسنوات تُعذب بها بأحدث آلات التعذيب هل يقبل؟ مستحيل، الدنيا منقطعة، والآخرة أبدية، لذلك الله عز وجل يقول :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

العبرة بالنهاية :

لذلك العبرة بالنهاية، العبرة لمن يضحك آخرا، هناك من ينتصر الآن، معه أسلحة فتاكة، وأمامه شعب أعزل، ولا يوجد أحد يحاسبه، الجو راق له، الجو العالمي لا يوجد توازن قوى أبداً، يوجد قوة واحدة، و قوة واحدة جبارة متألهة، متغطرسة، وسلاح فتاك، وتكنولوجيا عالية جداً، وإصابة دقيقة، وشعوب ضعيفة، وهناك انتصار مزيف، يوجد تبجح و خطابات و ... هؤلاء الضعاف من لهم إلا الله؟ هؤلاء الضعاف لهم الجنة إن شاء الله، هؤلاء الضعاف لهم جنة إلى الأبد، وهؤلاء الأقوياء الظلام سوف يمحقون، قال لك الله عز وجل :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

كم من عام؟ أربعون، خمسون سنة، وبعد ذلك، كل إنسان مهما كان قوياً فلابد أن يموت، لأن كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، و الليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر :

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملــت إلى القبور جنازة فاعلـم بأنك بعدها محمول

***

الأنبياء ماتوا، والأقوياء ماتوا، والملوك ماتوا، والعلماء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والفقراء ماتوا، والأذكياء ماتوا، والأغبياء ماتوا، سبحان من قهر عباده بالموت :

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

لكن الله عز وجل يقول :

(لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

(سورة آل عمران : الآية 198)

الأسئلة :

س : أول سؤال، إخوانا الكرام هو سؤال لطيف، ولعل صاحبه يقصد الدعابة، قال: ذكرتم في درسكم اليوم أن الخطاب في القرآن والسنة إذا كان موجهاً للذكور فهو يشمل الإناث أيضاً، كلام طيب، و السؤال إذا كان الخطاب موجهاً للإناث فهل يشمل الذكور ؟

ج : مرة رفع لقاض قضية غير معقولة أبداً، فقال: أنا حائض اليوم، ولا ينبغي أن أقضي، قال له : سيدي القاضي يحيض؟ قال له : هل هذه القضية معقولة إذاً ؟

إذا وجدت أحكاماً خاصة بالإناث فلا علاقة للذكور بها .

س : أخ صيدلي هل ممكن أن أضع ابني معه بكالوريا أدبي مكاني في الصيدلية ؟

ج : إذا وجد دواء خطر، ولم يعرف أن يوصفه، أو لم يكتب الاستعمال، و صار هناك حالة خطيرة فأنت مسؤول، قضية حياة أو موت، وموضوع الدواء موضوع خطير.

س : لدي مبلغ من المال استثمرته في ميكروباص، وأراد أصحاب هذا الميكرو بيعه، ولكن وجدوا أن سعره في هبوط شديد، فالأخ يجب ألا يتحمل خسارة ؟

ج : كلا تتحمل الخسارة، إذا أخذت قرشاً واحداً من الربح يقابله خسارة، أما إذا كنت أقرضتهم قرضاً فالقرض لا ينزل، والأمانة لا تنزل، أي إذا دفعته مبلغًا أمانة لا يربح، وإن دفعته قرضاً لا يربح، إن دفعته استثماراً فمثلما يربح يخسر .

س : اقتنى إنسان كتاباً فيه بعض طلاسم، أبيات شعر، وآيات، وأرقام، ومربعات ؟

ج : أعتقد أنه لا يوجد إنسان مثقف يصدق هذا الكلام، مثقف ثقافة إسلامية صحيحة، نحن معنا قرآن، ومعنا سنة، ولكن لا يوجد عندنا خزعبلات، ولا خرافات، ولا طلاسم، ولا مربعات، وحروف، وأول حرف من اسمك، ورقمك، أنت متى ولدت؟ هذا كله ليس من الدين بشيء .

س : هل في القرآن ذكر الكهرباء؟ قال له: نعم، قال له: ما هي الآية؟ قال له :

(فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)

(سورة الهمزة)

ج : كلا غير صحيح، هذه تشبه :

(وَتَرَكُوكَ قَائِمًا)

(سورة الجمعة : من الآية 11)

فحم الكوك موجود أيضاً .

س : يوجد سؤال مهم، يقول السائل: هل يمكن لطالب أن يحتاط أن ينجرف مع زملائه في المعهد، هو معهد عال، مع العلم أنه ملتزم ؟

ج : لا يمكن أن تحافظ على التزامك واستقامتك إلا إذا كان حولك أناس صالحون، إذا كان هؤلاء الزملاء بإمكانك أن تؤثر فيهم فكن معهم، أما إن كان بإمكانهم أن يؤثروا فيك فابتعد عنهم، لابد من حمية اجتماعية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة : الآية 119)

البيئة السيئة تذهب توبتك، و تضعف مقاومتك، و في النهاية تحملك على ما يفعله من حولك، فلابد لك من مجتمع مؤمن، فإذا كان حولك أناس غير مؤمنين فابتعد عنهم بالحسنى .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(59-60): تفسير الآيات 196 – 199
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-02-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة آل عمران، ومع الآية السادسة والتسعين بعد المئة، يقول الله عز وجل :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

و قبل هذه الآية :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

(سورة آل عمران : الآية 196)

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ

الدنيا مهما طالت فهي لا شيء مقارنة بنعيم الجنة :

الكافر خاسر، والكافر في مزبلة التاريخ، و الكافر مصيره إلى النار، و لو أعجبك من الكافر ماله، وشكله، وبيته، ومدينته، الكافر غفل عن المهمة التي جاء من أجلها، الكافر لم يحقق الهدف من خلقه، الكافر خسر الآخرة :

(ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

(سورة الحج : الآية 11)

أيها الإخوة، الدنيا مهما طالت فهي أمام الآخرة صفر، ذلك أن الرقم، أي رقم واحد في الأرض و أصفار إلى الشمس، و كل ميليمتر صفر، كم هذا الرقم؟ تصور أمامك مئة وستة وخمسين مليون كيلومتر، وكل ميليمتر صفر، هذا الرقم إذا نسب إلى اللانهاية فهو صفر، الآخرة لا نهاية، الآخرة أبد، والدنيا مهما طالت فهي محدودة، كل مخلوق يموت، غني أو فقير، قوي أو ضعيف، مثقف أو غير مثقف، صحيح أو مريض، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة و الجبروت، إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، و منزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، و لم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، و جعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، و يبتلي ليجزي .

أنا أؤكد أيها الإخوة أن كل إنسان شاء أم أبى في أعماقه مقياس للتفوق، وهذا المقياس منتزع من عقيدته، و منتزع من إيمانه، و منتزع من مفاهيمه، و منتزع من رؤيته، فحينما ترى المال قيمة كبيرة جداً تسعى إليه و لو على حساب دينك، و حينما تعطي المال حجماً كما حجّمه القرآن، قال عزوجل :

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر : الآية 15)

هذا كلامه، و ليس هذا صحيحاً :

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)كَلَّا)

(سورة الفجر : الآية 15 – 16)

حظوظ الدنيا حيادية :

كأن الله عز وجل يقول: يا عبادي، ليس عطائي إكراماً، و لا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء و حرماني دواء، المال حظ قيمته موقوفة على طريقة استخدامه، إذا أنفق في طاعة الله كان سلماً ترقى به، و إذا أنفق في معصية الله كان دركات تهوي بها، المال، والصحة، والذكاء، والحظ، والقدرة التي منحك الله إياها، قد يمنح الله إنساناً وسامة وجمالاً، هذا النبي رأى صورته في المرآة فقال:

((اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي))

البيهقي في شعب الإيمان

هناك إنسان يستخدم شكله الوسيم لإغواء الفتيات مثلاً، إنسان يستخدم ذكاءه للبحث عن الحقيقة، ولإشاعتها بين الناس، وإنسان يستخدم ذكاءه كي يشيع الضلال بين الناس، فيربح من الضلال أموالاً طائلة، وما من خصيصة، ما من قدرة، ما من حظ، ما من شيء منحك الله إياه إلا واعتقد أنه حيادي يمكن أن ترقى به، ويمكن أن تهوي به، عدد إن شئت حظوظ الدنيا، المال حظ، و الوسامة حظ، و الصحة حظ، و الذكاء حظ، و طلاقة اللسان حظ، و الزوجة حظ، والأولاد حظ، و المنزل الواسع حظ، و المركبة حظ، النبي ذكر الخيل قال :

((ستر ، أو إثم ، أو بر))

ورد في الأثر

عندك خير، ولتكن مركبة، إما أن تكون مسخرة في خدمة الحق، وإما أن تسترك أنت و أهلك، و إما أن تكون وزراً عليك إن استخدمتها في معصية الله، أجر و ستر و وزر، والخيل يقاس عليها المركبات.

هذه فكرة دقيقة: الحظوظ حيادية تُقيّم بعد استعمالك لها، تُقيم وفق توظيفك لها، تُقيم وفق استخدامك لها، فلذلك أيها الإخوة هذا الكافر عنده من حظوظ الدنيا ما شاء، الحقيقة أن الله عز وجل نهانا أن

نعجب بأموالهم وأولادهم، ويقاس على أموالهم بيوتهم، ومركباتهم، ومكاتبهم، ورحلاتهم، و حفلاتهم، وسهراتهم، وندواتهم، ولقاءاتهم، هذا كله مؤقت :

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

(سورة آل عمران : الآية 197)

و الله عز وجل نصحنا ، وهو خالق الأكوان قال :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : الآية 38)

لا تعتر بدنيا الكافر وبهجتها :

فالكافر قد يبدو غنياً جداً ، وقد يقيم عقد قران لابنته بمئة مليون، الله قال :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

(سورة آل عمران : الآية 196)

لا تغتر بتقلبهم، لا تغتر بأحوالهم، ولا بأموالهم، ولا بأولادهم، و لا بعقود قرانهم، و لا بزواجهم، و لا بسفراتهم ... الكافر غفل عن المهمة التي خلق من أجلها، الكافر غفل أن الدنيا دار ابتلاء، فظنها دار جزاء، الكافر غفل عن أن الدنيا دار عمل فظنها دار أمل، الكافر غفل عن أن الدنيا مزرعة للآخرة، جعلها نهاية المطاف، و جعلها مبلغ علمه، و جعلها منتهى طموحه، و هذه مشكلة كبيرة، فلذلك قال تعالى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

(سورة آل عمران : الآية 196)

قد يتقلبون من منصب إلى منصب، ومن مكان إلى مكان، ومن بيت إلى بيت، ومن مركبة إلى مركبة، ومن مستوى إلى مستوى، لا تغتر أي لهم حجم عند الله أقل مما تراهم .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

الترمذي

نِعم عطاء الدنيا للعبد الصالح المستقيم :

لكن إذا جاءت الدنيا، وأنت مؤمن فهذه من نعمة الله الكبرى، نعمة لأنك توظفها في الحق، لو أنك مؤمن إيماناً حقيقياً وآتاك الله مالاً أصبحت خيارات العمل الصالح أمامك واسعة .

الآن موضوع آخر، كل ما أتمناه أيها الإخوة ألا تفهموا من كلامي أن الذي آتاه الله مالاً و كان مؤمناً ليس رابحاً، لا، إن كنت مؤمناً و آتاك الله مالاً ارتقيت به إلى أعلى عليين، المال قيمة إن استخدم في طاعة الله كان صاحبه في أعلى عليين، النبي تمنى أن يكون له مثل جبل أحد لا تأتي عليه ثلاث إلا و قد أنفقها في سبيل الله، فإذا شخص الله أتاه شكلاً وسيماً، أتاه غنى، أتاه علماً، أتاه طلاقة لسان، أتاه زوجة صالحة، و أولادا أبرارا، أتاه اختصاصا نادرا ، له دخل وفير، هذا من نِعم الله لاشك، أنا أتحدث عن الغنى مع الكفر، عن الوسامة مع الكفر، عن القوة مع الكفر، ألا ترون أن القوة من دون إيمان ماذا تفعل في الدنيا الآن؟ هل رأيتم فيما سمعتم ظلماً كهذا الظلم؟ أي الذين يحاربون ما يسمونه بالإرهاب هم أكبر بلد إرهابي في العالم، يستخدمون الإرهاب المنظم، الإرهاب القوي، فهذا الذي ترونه لا يمكن أن يقبل عند الله عز وجل، قال :

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 55)

و لو ذهبت إلى بلادهم فلا ينبغي أن تعجب بهم، و لا بأبنيتهم العالية، و لا بوسائل مواصلاتهم، و لا باتصالاتهم، و لا بحدائقهم، و لا بأماكن البيع عندهم، هذه دنيا محدودة :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

قال ربنا :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء : الآية 113)

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

(سورة يوسف : الآية 22)

لا توازنْ بين الناس بالماديات :

عندنا قاعدة في العاطفة، هناك عاطفة عميقة، وهناك عاطفة سطحية .

مثلاً: لو دخلت إلى بيت أحد تجار المخدرات، ورأيت بيتاً يزيد على أربعمئة متر، وفيه من الأثاث ما لا يوصف، وفيه من الترفيه، والأجهزة الكهربائية ما لا تعرف، هل تعجب بهذا البيت، وتعلم أن صاحبه تاجر مخدرات ؟

لو دخلت إلى بيت موظف مستقيم على أمر الله تسعين متراً، وأثاثه متواضع جداً، لكن هذا الإنسان يعمل في نشر الخير، في التعليم أي عنصر خير للأمة هل تزدريه على بيته الصغير؟ إن عظمت تاجر المخدرات فعاطفتك سطحية، و إن احتقرت الإنسان المستقيم الفقير فعاطفتك سطحية، أما إذا احتقرت من جمع هذا المال على حساب شبابنا، وسلامة جيلنا إذا احتقرته فأنت تملك عاطفة عميقة، فربنا عز وجل يقول :

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

(سورة التوبة : الآية 55)

لأنه من هوي الكفرة حشر معهم، و لا ينفعه عمله شيئاً، والحقيقة أن هذا الذي حدث و الذي آلم المسلمين أيما إيلام له إيجابية واحدة، وقد تكون إيجابية، الإيجابية الوحيدة أن مجتمع الكفر خطف أبصار الناس إليه من قبل، هناك الحرية والديمقراطية، والإنسان مكرم، هذه أقنعة كلها مزيفة، والحمد لله كشفت، هذه أقنعة كلها مزيفة، كلها كاذبة، كلها مزورة، وحينما هددت مصالحهم انقلبوا إلى وحوش، أليس كذلك ؟

إذاً: دائماً فكر في الإيجابيات، المؤمن متوازن، هناك سلبيات، هناك آلام، لكن هناك إيجابيات، لأنه من هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، قال الله :

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ)

(سورة البقرة : الآية 256)

لم يقل: فمن يؤمن بالله فقط، لابد أن يسبق الإيمان بالله كفر بالطاغوت، أن تكفر بهم وبحضارتهم، وبنظمهم، وبمنطلقاتهم، وبأساليبهم، وبكذبهم، ودجلهم :

(يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

(سورة آل عمران)

يوجد آية أخرى :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

إلهنا، ربنا، مولانا، خالقنا، بارئنا، مصورنا، الذي مصيرنا إليه يقول لك :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

هذا هو مقياس الفوز :

ويقول لك :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران : الآية 185)

ويقول لك :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : الآية 71)

يقول لك :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس : 9-10)

هذه مقاييس التفوق في القرآن الكريم، مقياس التفوق أن تزكي نفسك، أن تعرفها بربها، أن تحملها على طاعته، أن تتقرب إليه بخدمة خلقه، مقياس التفوق أن تطيع الله و رسوله، مقياس التفوق أن تنجو من النار :

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عاملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

ورد في الأثر

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

هذه أشياء خطيرة جداً، لأنك إذا اعتقدت هذا الاعتقاد ترتاح نفسك، وترى نفسك فائزاً، أما إذا كنت غافلاً عن الله تعيش مقاييس أهل الكفر، مقاييسهم المال فقط، القوة فقط، أين بيتك؟ في أي حي، ما مساحته؟ كم كلفك، هل زَيَنته؟ ما نوع الأثاث الذي فيه؟ ما نوع مركبتك؟ لو ذكرت له أعلى نوع يقول لك: رقمها ستمائة أم خمسمائة وخمسون، أم مئتان وثمانون، أم مئة وتسعون؟ في آخر الزمان قيمة المرء متاعه فقط، هكذا قال سيدنا علي، فلذلك :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

لا تنظر إليهم، أنت في زمن فيه إعداد للآخرة :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ

العبرة بمن يضحك في آخر المطاف :

العبرة من يضحك آخرا، من يضحك أولاً يبكي كثيراً، ومن يضحك آخرا يضحك كثيراً، والإنسان يولد كل من حوله يضحك إلا هو يبكي وحده، فإذا شارف الموت كل من حوله يبكي، فإذا كان مؤمناً يضحك وحده، والله قبل أيام قلت كلمة، شيعت جنازة، ورأيت حالة الدفن، قلت: والله ما من إنسان على وجه الأرض أذكى وأعقل ممن يعد لهذه الساعة التي لابد منها، أبداً، لا ينجو منها أحداً،

عمر مديد، تدخل بيتك، وتخرج منه منتصب القامة، وفي مرة واحدة لابد من أن تخرج منه محمولاً .

كل يوم تقرأ عشرات النعي، ولابد من يوم يقرأ الناس فيه نعيك، شئت أم أبيت، هكذا نحن جميعاً، ما من خروج من البيت إلا والأهل ينتظرونك، لم يأت بعد ، الساعة الثانية عشرة، إلا بعد الدفن فلا أحد يقول: لم يأت فلان، انتهى، ذهب ولم يعد، فهذه الساعة التي لابد منها ينبغي أن نعد لها :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

المؤمن محبوب ولو كان مِن أفقرِ الناس :

لا تستخدم مقاييسهم، أنت إنسان مستقيم تعرف الله عز وجل، قد يكون دخلك محدوداً لو التقيت بواحد من أهل الدنيا لا يقيمك إلا من دخلك، ماذا تعمل يا بني؟ والله أنا موظف، كم يعطونك؟ أنت تأخذ خمسة آلاف، تقول له: أنا آخذ عشرة، استر حالك، فقط عشرة، لا تكفي، كيف تعيش؟ مقياسه مادي محض، لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثلما ترى له، صاحب أهل العلم، صاحب المؤمنين، يقدرون فيك إيمانك، يقدرون فيك طاعتك لله، يقدرون فيك استقامتك، يقدرون فيك حرصك على الحق، يقدرون فيك طموحاتك، يقدرون فيك بطولتك، أما إن صاحبت أهل الدنيا فلا يقدرون فيك إلا مقاييسهم، أموالهم، لذلك ورد أنه من دخل على الأغنياء ـ طبعاً غير المؤمنين، و الله لا أتكلم عن الأغنياء إلا إذا كانوا بعيدين عن الله، أما و الله المؤمنون تشتهي أن تكون مثلهم، من تواضعهم، و من سخائهم، ومن حبهم لله، و قد أكرمهم الله بهذا الغنى ليكون سلماً لهم إلى الجنة، أنا لا أتحدث إلا عن هؤلاء الشاردين الغافلين، المستكبرين المتغطرسين، أما المؤمنون، والله المؤمن تحبه غنياً من تواضعه وسخائه، و تحبه فقيراً من عفته وتجمله، وتحبه ذا دخل محدود، أو ذا دخل غير محدود، تحبه من الريف، كل الطهر، والبراءة به، وتحبه إذا كان من المدينة، تحبه إن كان من أسرة عريقة متواضعاً، وتحبه إن كان من أسرة متواضعة، أنا أقول كلمة: لا يجوز في عالم الإيمان أن تضيف على كلمة مؤمن و لا كلمة، مؤمن حاجب تحبه، مؤمن مدير عام تحبه، كلاهما متواضع، كلاهما متجمل، كلاهما يعرف حدود الله، كلاهما متأدب، فلذلك أيها الإخوة لا يمكن أن نقوم الحياة إلا على مقاييس القرآن .

كان شخص من التابعين قصير القامة، أسمر اللون، أحنف الرجل، مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، ضيق المنكبين، غائر العينين، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، و كان مع ذلك سيد قومه، إذا غضِبَ غضبَ لغضبته مئة ألف سيف، لا يسألونه فيم غضب؟ و كان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه، بطل، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ

((أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنْ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتْ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ))

أحمد

دخل عليه مرة شخص فوقف له، وقال:

((أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي؟ قال: نعم، أنت خامل في الأرض علم في السماء))

ورد في الأثر

سيدنا عمر كان يستقبل رسولاً من معركة نهاوند قال له: << حدثني ماذا جرى؟ قال له: والله مات خلق كثير، قال: من هم؟ قال: إنك لا تعرفهم، لو ذكرت لك أسماءهم لا تعرفهم، فبكى عمر، وقال: وما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم >> .

مجتمع الإيمان مجتمع إخلاص، مجتمع تواضع، مجتمع محبة، مجتمع بذل، مجتمع تضحية، و هذه الحياة الدنيا لا تصلح إلا بالإيمان، لذلك إذا عظم إنسان الكافر لماله، عظمه لقوته، فقد أشرك مع الله، ينبغي أن تبجل المؤمنين، ينبغي أن يكون قلبك مع المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً وفقراء، وأن تتبرأ من الكفار، و المفسدين، ولو كانوا أقوياء وأغنياء، هذا الولاء و البراء، أن توالي أهل الإيمان، و أن تتبرأ من أهل الكفر و الفسق و الفجور :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : الآية 77)

انظر متى يكون تألق الإنسان في دنياه ؟

سنوات معدودة، فدقق أيها الإنسان، حتى يستطيع الإنسان أن يتألق في الحياة قليلاً سيكون على الأقل في سن الأربعين، إذا عمل عملاً دؤوباً، و معه شهادات عليا، و درس، أو كان ابن تاجر، واشتهر حتى يتألق تألقه ذاك في الأربعين، و معترك المنايا بين الستين والسبعين، وقلما يجوز ذلك، اسأل أنت كل الذين توفاهم الله يقول لك: في الثامنة والخمسين، في الثالثة والستين، في ست وسبعين، ما شاء الله، أما أكثر الناس فبين الستين والسبعين، والآن أصبح بالثلاثينات، أصبح موديلاً جديداً للموت، أزمة قلبية بالثلاثين، بالخمسة وعشرين، بالاثنين و الثلاثين، يوجد أورام، و يوجد أزمات قلبية تأخذ الشباب الآن، فلذلك هذه الحياة الدنيا ليست مجدية في التمتع بها، لأن الإعداد أربعون، والاستمتاع عشرون، هذا إذا من لم يوجد بحياته منغص بأهل الأرض أبداً ؟

الإنسان لا يخلو من مشكلة في بيته، أو مع أهله، مع أولاده، بصحته، بعمله، برزقه، بدخله، إذا لم يوجد عنده و لا مشكلة معنى هذا أنه هو مشكلة، لأنه لا يحس هموم المسلمين أصبح هو مشكلة

أيضاً، أيمكن أن تكون مرتاحاً، ومن حولك جميعاً يئنون من الجوع، وأن ترتاح أنت بينهم؟ إذاً أنت لست مسلماً، حتى لو لم تكن عندك مشكلة ما تسمع من أخبار المسلمين، ومن آلامهم، ومن قهرهم، ومن ظلمهم لا تحتمل .

والله حدثني أخ صادق قال لي: والله لا أطيق سماع الأخبار، لا أطيق رؤية هذه المآسي التي نراها كل يوم، فلذلك أيها الإخوة: إن هذه الدنيا دار ابتلاء، دار عمل، دار تضحية، دار كدح :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا)

(سورة آل عمران : الآية 200)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز كلما دخل مقر عمله يقول :

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء : 205-207)

يقول الله :

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)

(سورة إبراهيم : الآية 30)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة البقرة : الآية 126)

(لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)

(سورة آل عمران : الآية 198)

لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

هؤلاء الذين عرفوا ربهم و اتقوا أن يعصوه :

(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

(سورة آل عمران : الآية 198)

التقي هو الفائز :

التقي هو الفائز، ولو كنت فقيراً، ولو كنت لا سمح الله مريضاً، ولو كنت بلا زوجة، وبلا ولد، ولو كان بيتك مستأجراً، ولو كنت بوضع يرثى له، ما دمت قد عرفت الله فأنت الفائز :

(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

(سورة آل عمران : الآية 198)

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ

أيها الإخوة، ثم يقول الله عز وجل :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

تعلَّمْ من القرآن أدبَ الإنصافِ :

دققوا، إن(من)للتبعيض، أرأيت إلى هذا الأدب الذي يعلمنا الله إياه، إياك أن تعمم، إن من أهل الكتاب، بعضهم :

(لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

النجاشي استقبل المسلمين، ورحب بهم، وطمأنهم، وأقاموا عنده آمنين، وقال: لو أتيح لي أن ألقى النبي لغسلت عن قدميه، والنبي صلى عليه صلاة الغائب، وحينما أمرهم أن يصلوا عليه عجب بعض الصحابة من هذا الذي نصلي عليه؟ فجاء الرد الإلهي :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

الآن دققوا دخلنا في موضوع دقيق، أولاً: تعلم من الله الموضوعية، تعلم أن الموضوعية قيمة ثمينة، هي قيمة علمية، وقيمة أخلاقية في وقت واحد، لست عالماً إذا حشوت ذهنك بالمعلومات، ولكنك تعد عالماً إذا كنت منصفاً في أحكامك، لا تحكم حكماً ظالماً، لا تغفل الإيجابيات، وتبرز السلبيات، هذا هو إمام السوء الذي إذا أحسنت لم يقبل، وإذا أسأت لم يغفر، هذا هو جار السوء الذي إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، كن موضوعياً، إن سئلت عن إنسان فاذكر ما له وما عليه، إن سئلت عن جماعة فقل ما لها و ما عليها، إن سئلت عن قريب فقل ما له و ما عليه، إن سئلت عن صديق فقل ما له و ما عليه، لا تعمم، لا تغفل الإيجابيات، و تبرز السلبيات، هذا موقف لا أخلاقي .

بعض أهل الكتاب مؤمن بالله وبجميع أنبيائه :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ)

الإيمان الصحيح :

(وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ)

أي بشكل أو بآخر لعلي أوفق في هذا المثل: أنت مدير مؤسسة تابع لوزير، الملك غير الوزارة، وأصبحت تابعاً لوزير آخر، لا أقبل هذا الوزير، أنت بهذا تستعصي على أوامر الملك، الملك عَيَن هذا الوزير، وأنت تابع له، لا يقبل، ولا يعقل أن ترفض أن تنتمي لوزير جديد عينه الذي تعظمه أنت، فالمؤمن يقبل أي رسول جديد، فأنت لك رسول جاء رسول آخر ينبغي أن تتبع الآخر، لذلك هؤلاء :

(لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ)

إليكم وإليهم، لأنهم قبلوا الرسالة الجديدة معنى ذلك أنهم يعظمون الله عز وجل، هذا التعظيم لله كان دليله أنهم آمنوا بما أنزل على محمد، و سأقول لكم كلمة دقيقة: أية معرفة ترقى إلى درجة أنها بديهية هل يوجد أب على وجه الأرض إذا دخل إلى البيت، وأنجب أولاداً من سبع سنوات، ووقف أمامه أحد أولاده يقول له: من أنت؟ هل سمعتم بهذا؟ مستحيل، أي لا يوجد معرفة أوضح، وأصدق عفوية كمعرفة الأب بابنه، ماذا قال الله عز وجل؟ قال :

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة : الآية 146)

يعرفون أنه رسول الله، يوجد أدلة، و علامات، و شواهد، و إخبار عندهم في الكتب، هم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لكن لم يؤمنوا به، أما الذي آمن به الحقيقة إيمانه بالله قوي، الذي آمن به انطلق من إيمانه بالله، فلذلك :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ)

الخشوع صفة بعض أهل الكتاب :

هذا الإيمان بما أنزل إليهم، وما أنزل إليكم معاً، أي إيمانهم بالله قوي جداً، وهذا الإيمان بالله الصحيح حملهم على خشية الله، وعلى طاعته، قال :

(خَاشِعِينَ لِلَّهِ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

أما الصفة الثانية رائعة، قال :

(لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

(سورة آل عمران : الآية 199)

خطورة بيع الدين بالدنيا :

أنت لك دعوة، ولك جماعة، ولك مكانة بينهم، لو أنك آمنت برسول الله فرضاً يجب أن تتزحزح عن مكانتك، و تعد تابعاً له، هناك من آثر أن يبقى على مكانته مع إغفال هذه الحقائق، إذاً: اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً .

لو فرضنا مثلاً أوضح من هذا؛ إنسان كلف أن يفتي بموضوع، وله مكانه معينة، فإذا أفتى على خلاف ما طلب منه يخسر هذه المكانة، فأفتى بما يرضي من أمره أن يفتي، مثلاً، هو ماذا فعل؟ اشترى بعلمه ثمناً قليلاً، أفتى بخلاف ما يعلم، المثل واضح؛ أنت بمكانة معينة، بدخل معين، بشكل معين، طلب منك أن تفتي فتوى، فإن لم تكن كما يريدون خسرت هذه المكانة، فالذي آثر هذه المكانة على أن يفتي بخلاف ما يعلم هذا اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، و الذي آثر طاعة الله على مكانته هذا هو المؤمن، فلماذا أنكر من أنكر؟ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، هم في بحبوحة، وبمكانة كبيرة في مجتمعاتهم، فإذا آمنوا فقدوا هذه المكانة، فيما توهموا، لكن الذي حصل على عكس ذلك، الذين آمنوا من أهل الكتاب النبي أكرمهم إكراماً لا حدود له، ورفع شأنهم، وكسبوا الدنيا والآخرة .

إذاً :

(لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة آل عمران : الآية 199)

إياك أن تفتي بغير علم ، وإياك أن تفتي بخلاف ما تعلم :

كتعقيب أخير على هذه الآية قبل الأخيرة : دعك من ملابسات هذه الآية، وأنت مسلم، إذا سئلت سؤالاً، وتعرف الجواب الصحيح، لو وجدت أن مصلحتك تقتضي أن تقول جواباً غير هذا الجواب فأنت اشتريت بآيات الله ثمناً قليلاً، لو سئلت من إنسان قوي عن شيء، وأدركت بالحاسة السادسة أنك إذا قلت له بما يهوى تعلو عنده فقد اشتريت بآيات الله ثمناً قليلاً، إن أفتيت بخلاف ما تعلم اشتريت بآيات الله ثمناً قليلاً، ضمن الدين الواحد إن نطقت بالباطل تقرباً إلى زيد، أو عبيد، أو إن سكت عن الحق اتقاء لشيء لا تريده، فقد اشتريت بآيات الله ثمناً قليلاً، فلذلك هذه آية دقيقة جداً :

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ)

لأنهم آمنوا بالرسالتين، إذاً خشعت قلوبهم لله، اتصلوا بالله، شعروا أنهم قد أرضوا ربهم، وأن هذا الرسول فيه إشارات في كتبهم، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أما الذين تشبثوا بمناصبهم، ومكاسبهم الدنيوية من خلال زعاماتهم فهؤلاء اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، هؤلاء الذين آثروا الحقيقة، وطاعة الله، ومحبته، قال :

و إن شاء الله في الدرس القادم ننهي هذه السورة بقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 200)

الأسئلة :

إخوانا الكرام، هناك موضوع نقل الكلية أي التقدم الطبي، نحن نحترمه كثيراً، لكن لا يعقل أن يعيش أحد على حساب أحد، إنسان عنده فشل كلوي نلزم مثلاً أخته، أو قريبه، أو أخاه أن يتبرع بإحدى كليتيه، لم يثبت قطعاً أن إزالة كلية واحدة ليس لها مضاعفات إطلاقاً، على كل موضوع نقل الكلى اسأل طبيباً مختصاً، فأكثر الحالات لا تنجح، أي الذي نقلت له الكلية لم ينتفع منها، والذي أُخذت منه الكلية عطب، كما أن المعالجة شيء دقيق جداً، ليست ملزمة في بعض الحالات، وتقدّم الطب يوقع الناس في حرج شديد، هناك فشل كلوي، لكن العملية قد تكلف ملايين أو مليونًا، والنجاح بالمئة ثلاثون، وانعطب إنسان، فما كل تقدم طبي ينبغي أن نسايره، لكن نحن عندنا منهج، فالموضوع لا يزال خلافي و شائك، إذا كان ثمة تبرع بين الأقارب فهو موضوع أقل مما لو تباع الكلية، طبعاً أن يبيع الإنسان كليته فهذا شيء غير مقبول إطلاقاً، و بعض القوانين في بعض البلاد تحاسب عليه .

س : هل تصح توبة المريض الملقى على فراش الموت ؟

ج : في الحديث عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ َسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ))

الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد

والغرغرة صوت حشرجة الروح حين خروجها من الحنجرة، إن وصلت الروح إلى هذا المكان، هذه الغرغرة يقفل باب التوبة .

نقول: إن إنساناً يحب أن يحضر دروس الدين، ولم يستطع ترك المعاصي بشكل كامل، فهل يترك الدروس، ويعود إليها لاحقاً بعد ترك المعاصي؟

تتفاقم المعاصي بعدها، وأنت في الدرس تستمع إلى الحق، وتتذكر، ويوجد جو ديني، ويوجد شحنة روحية، وتقترفها، فإذا تركت الدروس معنى ذلك قد تنتقل إلى أكبر، لا يجب أن تبقى في الدروس، وأن تضم إليها الاستقامة التامة والتوبة .

الحاسة السادسة يستعملها بعض علماء النفس إحساسًا عامًّا من دون دليل، يقول لك: هكذا شعرت، هذا شيء يستخدم .

س : هل صيد العصافير محرم ؟

ج : العصفور إذا اصطاده إنسان لغير مأكلة أتى يوم القيامة وله دوي كدوي النحل، يقول: يا رب، سله لمَ قتلني؟ هناك صيد محرم قطعاً، أن تصطاد لغير مأكلة، لست مضطراً، كم من عصفور يصطاد الإنسان حتى يشبع؟ لا يوجد شيء إطلاقاً، فلذلك يا رب سله لمَ قتلني؟ و للصيد بحث طويل .

س : يؤمن المسلم بأن نعيم القبر وعذابه ، والسؤال هل هناك أدلة في القرآن تفسر عذاب القبر ؟

ج : نعم، قال تعالى :

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر : الآية 46)

عذاب القبر حق، و يوجد آية قرآنية تؤكد ذلك .

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس(60-60): تفسير الآية الأخيرة 200
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-02-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الستين والأخير من دروس سورة آل عمران، ومع الآية الأخيرة، وهي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران : الآية 200)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

الحكمة من بدء الآية بالنداء بلفظ الإيمان :

أية آية تبدأ بقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

أي إنكم أيها المؤمنون مرتبطون مع الله بعقد إيماني، أنتم آمنتم به موجوداً وواحداً وكاملاً، آمنتم به خالقاً ومربياً ومسيراً، آمنتم بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، آمنتم أن الأمر كله بيده، وأن كماله كمال مطلق، وأن حكمته لا حكمة بعدها، ورحمته، وقدرته، وعدله بحسب إيمانكم، ومعرفتكم افعلوا كذا اصبروا .

الأمر بالصبر :

ما من آية يحتاجها المسلمون في هذه الأيام الدقيقة التي لم يمر بها المسلمون في ظرف أصعب من هذا الظرف هم في أمسّ الحاجة إلى هذه الآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

يقول الله عز وجل :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : 120)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم : 46)

خالق الأكوان يقول :

(وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم : 46)

ومع ذلك :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران : 120)

كل ما تتصورون من قوة، ومن تقنية، ومن تفوق تزول إذا آمنا وصبرنا، وأعددنا لأعدائنا ما نستطيع من قوة، أعددنا الإيمان الذي يحملنا على طاعة الله، هذا هو الحل ولا حل سواه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

حقيقة النصر :

ذكرت اليوم أن النصر ليس أن تكتسح الأراضي، ولا أن تستبيح الأعراض، ولا أن تأخذ الأموال، ولا أن تذل الرقاب، النصر الحقيقي أن تثبت على المبدأ، وأكبر دليل على ذلك أن الله جل جلاله في قصة أصحاب الأخدود، والقصة وردت في البخاري ومسلم، فهذا الملك أراد قتل الغلام الذي آمن بالله فلم يستطع :

((إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ: قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ))

صحيح مسلم

بالعين ، وبشبكية العين من الذي انتصر ؟ الملك ، لكن اقرأ الآية :

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4)النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(5)إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(6)وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(7)وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(8)الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(سورة البروج : 4-9)

أيها الإخوة، هؤلاء ماتوا، وحرقوا، وعذبوا، لكنهم انتصروا، لأنهم ماتوا على الإيمان، ولأنهم ما بدلوا، ولا غيروا، وهذه الدنيا مؤقتة عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك عادل، فالمسلم الصادق قوي الإيمان، لا يؤخذ بنصر شكلي أو مادي، لكن الحقيقة أنه إذا كان ثابتاً على مبدأه فهو المنتصر حقيقة، وكفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، فأنت مأمور أن تصبر على طاعة الله، وطاعة الله مكلفة ومنها التكاليف، وأن تصبر عن معصية الله، والشهوات متألقة، والفتن يقظة، والدنيا خضرة نضرة، وكل شيء يدعو إلى أن تحب الدنيا .

الصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى قضاء الله وقدره :

ينبغي أن تصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وأن تصبر على قضاء الله وقدره .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

أمر إلهي، وحينما يكون الأمر واضحاً وضوح الشمس، لكن متى تصبر؟ حينما تختلط الأمور، وحينما تضيع القضية، وحينما لا يتضح الأمر فأنت مأمور أن تصبر على حكم الله، وعلى طاعة الله، وعن معصية الله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

والله أيها الإخوة، آية في كتاب الله إذا قرأت يقشعر لها الجلد، ربنا يحدثنا عن أحد أنبيائه العظام قال :

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

(سورة ص : 44)

وتكلم عن نبي آخر فقال :

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم : 37)

وفّى ما عليه، وفّى نعمة الله شكراً، ومنهج الله طاعة، وفّى الله ذكراً ومعرفة .

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم : 37)

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

(سورة ص : 44)

ما تركت هذه الآية لدرس بأكمله إلا لأننا في مسيس الحاجة إلى الصبر، والصبر يتناسب مع قوة الإيمان .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

لنصبر على مكر أعدائنا، وعلى شظف العيش أحياناً، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام :

((اخشوشنوا وتمعددوا))

ربما لا تدوم النعم، وقد يأتي ظرف صعب تحسر عنا بعض الثروات، وربما لا يتاح لنا أن نعيش كما كنا نعيش، لأنك مؤمن، ولأن الإيمان أكبر قضية في حياتك، فينبغي أن تصبر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

الصبر هو الإيمان :

والصبر نصف الإيمان، بل هو الإيمان كله، الطاعة صبر، وغض البصر صبر، أن تنطق بالحق صبر، من السهل جداً أن تنطق بكلام يرضي الأقوياء فتنعم بالأمن عندهم، لكنك إذا تكلمت كلاماً يزعجهم فقدت الأمن عندهم، فقد يكون النطق بالحق صبر، وقد يكون التحرك في كسب المال صبر، لأن أبواب الربا مفتحة على مصاريعها .

فيا أيها الإخوة، نحن في أمس الحاجة إلى الصبر، لكن من الذي يصبر؟ أنت إذا كنت مريضاً عند طبيب أسنان كريم، وقال لك: المخدر لا يناسبك إطلاقاً، وله مضاعفات خطيرة، لابد أن نقلع السن من دون مخدر، وبين له الأسباب الكافية، قلبك لا يحتمل أن تأخذ المخدر، لأن الأمر واضح وضوح الشمس، فتصبر، أما إذا لم يكن الأمر واضحًا توقعت شيئاً، وجاءت الأخبار على خلاف الذي توقعته، تمنيت شيئاً، ولم يحصل هذا التمني، أردت نصراً، ولم يكن هذا النصر، أردت أن يرغم أنف الكفار، فأرغموا أنوف المسلمين، تتألم أشد الألم، وألمك إيمان، ومحبة للمؤمنين، ولكن ينبغي أن تحترم قرار الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

ينبغي أن يكون الصبر لله :

لكن: واصبر ولربك، فاصبر، هناك إنسان يصبر، لأنه مقهور، أو ذليل، أو ضعيف، يصبر لأنه فقير، لكن الله يذكرك أن صبرك ينبغي أن يكون لله، ولربك فاصبر، فاصبروا لوجه الله تعالى .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا)

لكن :

(وَصابِرُوا)

معنى : صَابِرُوا

المعنى الذي يمكن أن يستنبط من كلمة وصابروا: أي احملوا من حولكم على الصبر، اصبر وصابر .

أحياناً الإنسان من غير حكمة يشكو لك مشكلة، والله مشكلتك صعبة لا تحتمل، الله يعينك، ليس هذا

هو الموقف الكامل، ينبغي أن تخفف عنه، وتهون في عينه الدنيا، وأن تطمعه في الآخرة، وأن تشعره أن معظم الناس يعانون ما يعانون، فأنت ينبغي أن تصبر، وينبغي أن تحمل غيرك على الصبر، ينبغي أن تصبر، وينبغي أن تبين حكمة الله التي ينبغي أن نصبر عليها، ينبغي أن تصبر، وتبين ماذا ينتظر الصابرون .

الصبر :أجره بغير حساب :

الحقيقة: دائماً لكل عمل صالح أجر من ضعف إلى عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : 10)

يمكن أن نعطيك أمرَ دفع بمائة بمليون، أما إذا وقعنا لك هذا الأمر، وقلنا لك: اكتب الرقم الذي تريد، هذا مفتوح، هكذا عطاء الصابرين .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : 10)

هناك امرأة صابرة على زوج شرس، هناك زوج صابر على زوجة شرسة، هناك شريك صابر على شريك متعب، هناك ابن صابر لأب صعب المعاملة، هناك أب يصبر على ابنه، هناك من يصبر على الآخرين، يصبر ابتغاء وجه الله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا)

احملوا غيركم على الصبر، اصبر وصابر، اصبر، وانتظر من الله الفرج، اصبر، واعلم علم اليقين أن الله يحب الصابرين، اصبر، واعلم أن الله مع الصابرين، اصبر، واعلم أن الله سيجزي الصابرين بغير حساب .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا)

معنى : وَرَابِطُوا

لكن مركز الثقل في الآية :

(وَرَابِطُوا)

أوجَه معنى لهذه الكلمة مأخوذة من الرباط، من رباط الخيل، استعدوا للعدو، لأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، وهذه المعركة قد تشتد في بعض الأحيان، وقد تخف حدتها في البعض الآخر، وهي الآن شديدة جداً، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

(الأنعام : الآية 112)

لابد من معركة بين الحق والباطل، وقد تكون بين أفراد أسرة بشكل مخفف، ابن متفلت، وابن ملتزم، فإذا كان الأب والأم ضعيفي الإيمان وقفوا مع المتفلت، ولا يقبلون للملتزم عذراً، ويكبرون أخطاءه، ويتغافلون عن إيجابياته، وإذا كان الأب والأم ملتزمين فهم مع الملتزم، وضد المتفلت، فدائماً في معركة بين الحق والباطل تكون كلاماً، أو مشادة، أو آلامًا، وقد تكون سفكاً لدماء، وقهراً لأنفس .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا)

أحاديث نبوية متعلقة بالرباط :

ولكن أنا مضطر إلى أن ألقي على مسامعكم بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بالرباط .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا))

صحيح البخاري

الرباط حفاظ على الدين من الغزو المادي والثقافي:

قد تسألون: ما السبب؟ إنك إن أنشأت معهداً شرعياً فهذه صدقة جارية، أليس كذلك؟ إن نشأت ميتماً فهذه صدقة جارية، إن أنشأت مشفى فهذه صدقة جارية ، إن ربيت ابناً على طاعة الله فهو صدقة جارية، إن ألفت كتاباً ذا نفع عميم فهو صدقة جارية .

الآن دقق: إذا كان العدو قوياً، ولم ترابط في سبيل الله سوف يغلق لك هذا المعهد! وسوف يغير مناهج المسلمين في تدريس دينهم، وسيقصف المستشفيات، وسيقصف المياتم، وسوف يفعل ما يفعل، حتى الصدقة الجارية إن لم تكن هناك قوة تدعمها فلا تبقى جارية، تصبح منقطعة، إذا مات شاب في طاعة الله كان أبوه قد رباه ليكون عالماً جليلاً، قُتل قهراً كما يفعلون في فلسطين، وفي أماكن أخرى من العالم.

هناك الآن من يمنع تدريس التربية الدينية، خمسة آلاف معهد أغلقت! لأن الرباط كان ضعيفًا، تقصير المسلمين في أربعمائة عام ندفع الآن ثمنه مع الفوائد المترتبة، فلذلك الرباط، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا))

البخاري

أردت من هذا مع أن أعظم الأعمال هي التي تستمر بعد صاحبها أنشأت مسجداً، ومعهداً شرعياً، وألفت كتاب تفسير، أنشأت ميتماً، ربيت ابناً صالحاً، إن لم ترابط في سبيل الله ، وقوي العدو هدم لك المسجد والمشفى، وأغلق لك الميتم، ومنع تدريس الدين، وأغلق المعهد الشرعي، أليس كذلك ؟

حتى الصدقة الجارية التي هي أعظم الأعمال على الإطلاق يفوقها رباط يوم في سبيل الله، إذا قوي العدو فرض عليك ثقافته، يجب أن يكون عقد الزواج عقداً مدنياً .

عند شراء مركبة أو أرض يكون العقد بين شخصين، لا بين ذكر أو أنثى، هكذا هناك، انحلالهم الخلقي، وتفلتهم الشهواني ينبغي أن يعمم على العالم كله، وهذا ما يسمى اليوم العولمة، وما رأيت شرحاً لها أفضل من كلمة حيونة .

أن يعود الإنسان حيواناً ينبغي أن نرفع سن الزواج إلى الثلاثين، ونسمح لبناتنا أن يمارسوا هذه العلاقة قبل الزواج، ينبغي أن نربيهم في المدارس تربية جنسية، ونعطيهم الأدوات التي تمنع الحمل، ويكون الإجهاض مسموحاً به، إجهاضا آمنا، ينبغي أن تعمل الزوجة أي عمل تشاء، ولو في الفن، ليس شرطاً أن تسكن الزوجة مع زوجها في بيت واحد، فرق بين الزواج والإنجاب والعلاقة الجنسية، هذا كله في مؤتمر السكان، عقد ثلاث مؤتمرات، ويتمنون أكبر من ذلك، إن لم نعدل قوانين الأحوال الشخصية فسوف تفرض العقوبات، ونحاصر اقتصادياً، الغزو العسكري ليس بشيء أمام الغزو الثقافي .

حينما قويت العدو فرض عليك فنه، وأفلامه الإباحية، وجعل بيوت المسلمين كالملاهي الليلية، وانتشر زنى المحارم بفضل هذه الصحون، أنت حينما لا ترابط في سبيل الله يقوى عدوك عليك، ويفرض ثقافته، بل يفرض عليك أساليبه في الاقتصاد .

الاتفاقيات الاقتصادية لصالح الأقوياء فقط ! أقول لكم هذه الآية دقيقة جداً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِروا وَرَابِطُوا)

حتى إن الأعمال الصالحة التي لها نفع بعد موت صاحبها قولاً واحداً تنتهي بانتهاء هذا العمل، أنت أنشأت مشفى إذا قصفت، وأغلقت انتهى، أنشأت مدرسة ألغيت، ألفت كتابًا أحرق، ربيت ولدًا صالحًا قتل، الحق يحتاج إلى قوة، وهذا درس بليغ جداً، يجب أن يكون تحت سمع المسلمين، وتحت بصرهم .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِروا وَرَابِطُوا)

ففي البخاري :

((رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا))

و

في صحيح مسلم عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ))

الفتان هو الشيطان الذي يفتن الناس بالمرأة، الغرب الآن يحارب المسلمين بالمرأة، يعرضها كما ينبغي أن يكون العرض لزوجها فقط! لم يبق للزوج شيء، يعرضها في الطريق كما أنها في غرفة نوم زوجها! فلذلك يقول رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ))

وهو الشيطان الذي يضل الناس، الشيطان ماذا يفعل؟ يغري الناس بالمرأة، لا يوجد حالة زنى إلا سبقها وسوسة من الشيطان، يغري الناس بأكل المال الحرام، والفساد كله حرية في العلاقة مع النساء دون ضابط، وحرية في كسب الأموال، هذا الفساد العام، منتهى الفساد أن تأكل المال الذي تريد بلا قيد، ولا شرط، ولا مانع، ولا رادع، ولا قانون، ولا مبدأ، أي مال تحت يديك تأخذه، وتضمه إلى مالك، وأية شهوة سنحت لك تمارسها، ولا تعبأ لا بحدود، ولا بقيود، هذا عمل الفتان، مادام الأقوياء الفجار يدعمون الشيطان، والإنجازات الضخمة من حرب معينة أن الناس استمعوا إلى صوت مذيعة، فتحت دور السينما، أشياء متعلقة بالشهوات.

وفي حديث آخر عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((كُلُّ الْمَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ))

(سنن أبي داود)

((كُلُّ الْمَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ))

كيف ؟ ربيت ولداً صالحاً على العين والرأس، مات الولد، مع موت الولد انتهى العمل، أنشأت معهداً شرعياً أغلق، انتهى العمل، تركت علماً نافعاً أحرق الكتاب، انتهى العمل، حتى الأعمال التي تبقى بعد الموت تنتهي إن لم يكن الحق مدعوماً بقوة .

طبعاً عند الكفار القوة هي الحق، إن كنت قوياً فأنت على حق، وعند أهل الإيمان الحق ما جاء به الوحيان؛ الكتاب والسنة، ولكن هذا الحق يحتاج إلى قوة، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((كُلُّ الْمَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ))

أيها الإخوة، هذا الملمح دقيق جدًّا، هذا متعلق بمجموع المسلمين في العالم، لا يتعلق بمدينة، أو بقطر، أو ببلد، لا، هذا متعلق بمجموع المسلمين في العالم، إن لم يكونوا أقوياء فرض القوي عليهم ثقافته وإرادته، وفرض عليهم نظمه، وفرض عليهم الربا، وفرض عليهم أنماط معيشتهم، ونظامهم

الشخصي، من أدق خصوصيات الأمة قانون الأحوال الشخصية: الزواج من ذكر وأنثى، وهو عقد مقدس، ويوجد إيجاب، وقبول، وشاهد، ومهر، والطلاق يحتاج إلى مراحل متعددة، يطلقها طلقة تبقى في بيته، تتزين له إلى أن يأتي حيض، ثم حيض ثان، ثم حيض ثالث، ثم طلقة ثانية، وثالثة، تسعة أشهر وهي في بيتها، أما الذي يحصل في بلاد الغرب فليس هناك زواج، وليس هناك زواج مدني، هناك شيء اسمه مساكنة، شاب تسكن معه فتاة، يمارس معها كما يمارس الزوج مع زوجته، ليس لها أي حق إطلاقاً، في أية لحظة يركلها بقدمه، وتغدو خارج البيت، تبحث عن شاب آخر، أما عندنا في بلاد المسلمين فهذه الزوجة مصونة، وهذا أقدس عقد في الأرض، عقد الزواج :

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

(سورة النساء : 21)

تجد المرأة المسلمة لها أولاد، وبنات، وأصهار، والكل يحتفي بها، ويكرمها، نظام إلهي، ومنهج رباني، بيوت المسلمين جنات إن طبقوا منهج الله عز وجل، فلذلك قضية فرض ثقافتهم، وأنماط حياتهم، وأنماط زواجهم هذا شيء، والفضل لله عز وجل .

كنت عضواً في لجنة مؤتمر السكان، وتم رفض توصيات المجتمع بالإجماع من دون استثناء، أول مرة، وثاني مرة، والفضل لله عز وجل، ولا زلنا بخير، لكن أنا أتحدث عن بقية بلاد العالم، هناك أخطار تنتظر المسلمين، هناك تعديل للمناهج الإسلامية في التدريس، هناك إغلاق للمعاهد الشرعية، هناك إلى ما لا نهاية، هذا بسبب ضعفهم، وبسبب قوة عدوهم.

فيا أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا)

شيوع المعصية لا يعني إباحتها :

ينبغي أن تصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، ولو شاعت، هناك من يتوهم أن المعصية إذا شاعت لم تبق معصية! من قال لك ذلك؟ المعصية معصية شاعت أو لم تشع، فلذلك حينما ترى شيئاً شاع بين الناس، وانتشر حتى أصبح كل بيت يقتنيه فليس معنى هذا أنه حق، وقد يبقى باطلاً .

قد يكون الفرد وحده جماعة إذا كان على حق، وقد تكون الملايين المملينة ليست جماعة، لأنها على باطل .

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام : 116)

الرباط الملازمة، في أيام السلم حينما تلازم المسجد، وتنتظر الصلاة إلى الصلاة، فأنت مرابط أيضاً، لكن النقطة الدقيقة أن هذا الرباط يحتاج إلى بحث طويل، وأعده إن شاء الله لدرس قادم، إما في درس الأحد، أو في درس الجمعة، أو في خطبة .

بداية الرباط من مجاهدة النفس :

الحقيقة الرباط أول ما يعني أن تجاهد نفسك وهواك، إن هناك عدواً خطيراً هو نفسك! إن كنت مهزوماً أمام نفسك فلا يمكن أن تقاتل نملة، حتى إن بعض كبار العلماء يقول: إن مقاتلة الأعداء الكفار فرع من مجاهدة النفس والهوى، المهزوم أمام نفسه لا يمكن أن يواجه عدواً، وهذه مشكلة كبيرة .

سيدنا خالد طلب المدد من سيدنا الصديق، طلب منه أن يمده بخمسين ألف مقاتل، لأنه واجه ثلاثمائة ألف، وهو معه ثلاثين ألف! فجاءه المدد، رجل واحد اسمه القعقاع ابن عمرو، عندما وصل القعقاع قال له سيدنا خالد: << أين المدد؟ قال: أنا! قال: أنت؟! قال: أنا، معه كتاب من أبي بكر رضي الله عنه، يقول له في هذا الكتاب: لا تعجب يا خالد أني أرسلت إليك واحداً، فو الذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم أبداً >> .

وانتصر الصحابة، وقد كان الواحد منهم كألف، أنت حينما تكون مع الله فأنت أقوى إنسان، لأن الله معك، لا يوجد حل، ولو اقترحت مليون حل، إلا أن نعود إلى الله، ونطبق منهجه، وننتظر وعده لنا بالصبر .

فأول جهادٍ جهادُ النفس والهوى، والمهزوم أمام نفسه لا يستطيع أن يواجه نملة، مع أن بعضهم قال: إذا كان عدوك نملة فلا تنم له، كن يقظاً، ومع ذلك إن كان الإنسان مهزوماً أمام نفسه التي بين جنبيه هو أضعف من أن يقاتل نملة، حتى قتال الأعداء فرع من جهاد النفس والهوى .

الجهاد الدعوي نوع من الرباط :

وبعد جهاد النفس والهوى يأتي الجهاد الدعوي، وهو الأصل في الجهاد، والجهاد القتالي تمهيد للجهاد الدعوي، فإذا كان متاحاً لك أن تجاهد الناس بتعليم القرآن، وتبيين أحكامه، وأسسه، وقوامه فأنت مجاهد حقاً، وهذا متاح لأي إنسان على سطح الأرض .

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ : الآية 46)

أيها الإخوة، الجهاد الثالث: عندما تجتاح أرضنا لا سمح الله، ولا قدر فلابد من جهاد قتالي، أما نحن الآن فأمام جهاد النفس والهوى .

والذين لا يجاهدون أنفسهم، ولا أهواءهم ما أكثرهم في بلاد المسلمين، ثم نحن أمام جهاد القرآن الكريم، فعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

صحيح البخاري

ومن أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظمه الله .

خاتمة :

هذه الآية التي ينتهي بها تفسير سورة آل عمران، والفضل لله عز وجل هي آية العصر، وآية المسلمين اليوم، ونحن في أمس الحاجة إلى أن نعرف أنه لابد أن نكون أقوياء، ولن أكلفكم أن تواجهوا الغرب المتغطرس، ولا أن تمنعوا التطرف، لكنني أرى أن كل واحد منا يمكن أن يبني لبنة في صرح هذا الدين عن طريق إقامة الإسلام في بيته وعمله، لمجرد أن يكون عملك وبيتك إسلامياً فقد ساهمت في بناء صرح النصر القادم، إن شاء الله عز وجل :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139)إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة آل عمران : 139-140)

لحكمة أرادها الله جعل النصر تارة للكفار، وتارة للمؤمنين، ليمتحن الطرفين، فالله عز وجل له امتحانان صعبان، يقوي الكافر حتى يقول ضعيف الإيمان: أين الله؟ ثم يظهر آياته حتى يقول الكافر: لا إله إلا الله .

الفهرس

سورة آل عمران